

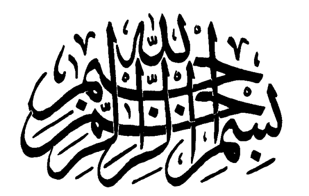
للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء
إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤هـ

أشرف على تحقيقه: فضيلة الشيخ
مصطفى بن العدوي

خرج أحاديث هذا الجزء:
أبو أنس سيد بن رجب
طلال بن محمد الطرابلسي

الجزء الأول

دار ابن رجب




البداية والنهاية

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع : ٢٠٣٥١ / ٢٠٠٤
I.S.B.N. : 977 - 390 - 032 - 0

دار ابن رجب طبع . نشر . توزيع

فارسكور : تليفاكس ٠٠٢٠٥٧٤٤١٥٥٠ جوال : ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢
المنصورة : شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : ٠٠٢٠٥٠٢٣١٢٠٦٨

مقدمة الشيخ /مصطفى بن العدوي

الحمدُ لله والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى رسولِ الله وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ .... وبعد :

فَهَذَا كتابُ «**البِدَاية والنِّهاية**» للإمامِ العالمِ الحافظِ ابنِ كثير - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- رَحْمَةً وَاسِعَةً وَأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ .

وَقَدْ قَامَ فَرِيقٌ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ بِتَخْرِيجِ مَرْوِيَّاتِهِ وَالحُكْمِ عَلَيهَا بِمَا تَسْتَحِقُّ صِحَّةً وَضَعْفًا ، فَأَضْفُوا عَلَيهِ فَائِدَةً جَلِيلَةً ، فَجَزَاهُمُ اللهُ خَيرًا ، فَإِنَّ الْكِتَابَ كَانَ يَعْتَرِيهِ - رَغْمَ إِمَامَةِ كَاتِبِهِ وَعِلْمِهِ - مَرْوِيَّات رُوِيَتْ مِنْ طَرِيقِ عَدَدٍ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَالمَتْرُوكِينَ ، بَلْ وَالوَضَّاعِينَ الْكَذَّابِينَ فَأَبَانَ إِخْوَانُنَا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ فَأَظْهَرُوا ضَعْفَ الضَّعِيفِ وَصِحَّةَ الصَّحِيحِ وَحَسَنَ الحَسَنِ .

وَقَدْ رَاجَعْتُ مَعَهُمْ عَمَلَهُمْ فَأَلْفَيْتُهُ وَلله الحَمْدِ نَافِعًا مُوَفَّقًا ، وَقَدْ بَذَلُوا فِي سَبِيلِ التَّمَامِ مِنْ جُهدِهِمْ وَوَقْتِهِمْ مَا اسْتَطَاعُوا بَذْلَهُ .

وَقَدْ قَامَ أَخِي فِي اللهِ الشَّيخُ : عَوَضُ الجزَّارِ صَاحِبُ دَارِ ابنِ رَجَبٍ بِتَكْلِيفِ بَعْضِ إِخْوَانِنَا مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ بِضَبْطِ نَصِّ الْكِتَابِ بِالشَّكْلِ ، وَكَذَا ضَبْطِ مُتُونِ الأَحَادِيث فَتَتَابَعَتِ الْفَوَائِدُ وَخَرَجَ الْكِتَابُ فِي حُلَّةٍ جَمِيلَةٍ وَثَوْبٍ قَشِيبٍ وَلله الحَمْدِ .

فَأَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُكَلِّلَ هَذِهِ المَسَاعِي بَالقَبُولِ ، وَأَنْ يُجَازِيَ جَامِعَهُ وَمَنْ حَقَّقُوهُ وَضَبَطُوا نَصَّهُ وَسَعُوا فِي نَشْرِهِ خَيرَ الجَزَاءِ .

وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَسَلِّمْ ، وَالحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ .

كَتَبَهُ

أبو عبد الله

مصطفى بن العدوي



مقدمة التحقيق

الحمد لله بمصرف الأيام والليالي، ومعرف العباد كثيراً مما سلف، في الأزمان الماضية، والدهور الخوالي، ومشرف هذه الأمة في سائر الأ»هر والأعوام بالضبط التام المتوالي، ومعلم من شاء من العلم العقلي والنقلي ما هو أنفس من الجواهر واللآلئ، ومفهم الألباء في التعديف بالإنسان والزمان الطريق السمند المدرج في العوالي، بالعبارة الرائقة، والإشارة الفائقة المنعشة للرمم البوالي[1].

نحمده حمداً كثيراً القائل: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

سبحانه وتعالى إليه ترجع الأمور كلها: ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] عز جاهه، وتقدست أسماءه، يعز من يشاء، ويذل من يشاء، يرفع من يشاء، ويضع من يشاء، يغني من يشاء، ويفقر من يشاء، وينصر من يشاء، ويخذل من يشاء، يحيي من يشاء، ويميت من يشاء ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

الحكيم القائل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ [الفرقان: ٦٢]، العليم القائل: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]. أصلي وأسلم على خاتم النبيين والمرسلين، وحبيب رب العالمين، المنزل عليه: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً﴾ [طه: ٩٩]. والمنزل عليه: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

والمنزل عليه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

ورضي الله عن أصحابه الذين ضربوا للتاريخ أروع الأمثلة، وأنصع النماذج في البذل والعطاء، والتضحية والفداء، فقد بذلوا النفس والنفيس، والغالي والرخيص، والمهج والأرواح، لهذا الدين، فما عرف التاريخ لهم مثيل، ولا نظير، فهم بحق أول من أثروا في التاريخ، ورضي الله عن تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، والذين بهداهم اهتدوا، وعلى دربهم ساروا، وطريقهم سلكوا، فماغيروا وما بدلوا تبديلا، ورحم الله العلماء والمؤرخين، الذين دونوا لنا التاريخ، فما تركوا شاردة ولا واردة إلا قيدوها، لولا أنهم كدروه بما لم يصح من الضعيف والموضوع؛ لذا احتاج إلى تنقيح وتحقيق وتهذيب.

---

(١) مقدمة الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (ص١٥).

نسأل الله أن يقيد له رجالاً يقومون بذلك خير مقام، وبعد:

فعلم التاريخ والأمم السابقة له ذكر في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ فقد ذكر الله الأمم الغابرة، والقرون السالفة في كتابه المجيد. من نحو خلق السموات والأرض، وخلق آدم وما حدث له مع الشيطان اللعين وأصحاب الكهف وأصحاب الجنة، ويوسف مع إخوته ونحو ذلك، وذكر نوح مع قومه وكيف كذبوه، وإبراهيم مع قومه، وهكذا كل نبي مع قومه وتكذيبهم له فقال جل ثناؤه ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢: ١٥]، وبيّن كيف فعل بالمكذبين، والظالمين، والعصاة والمنحرفين، الذين انساقوا أمام شهواتهم، وانحرفوا عن جادة الطريق، وانجرفوا في تيار الأهواء والأغرض الفاسدة فلم ينفعهم نصح ناصح، ولا تذكير مذكر، فلما تمادوا في غيهم ولم يرجعوا إلى رشدهم، بيّن الله تعالى كيف نكل بهم وكيف أخذهم بذنوبهم فقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٠]. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠]. ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]. لعل أن يتذكر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، والسعيد من وعظ بغيره، وهكذا قص علينا النبي ﷺ أخبار الأمم الماضية، وأحوال القرون الخالية الشيء الكثير، مثل إخباره عن الغلام والساحر، وجريج مع أمه، وإبراهيم وسارة وهاجر وإسماعيل، وقصة الأعمى والأبرص والأقرع؛ وقصة الثلاثة الذين دخلوا الغار. وغير ذلك الكثير.

فقام الصحابة رضوان الله بتبليغ ذلك إلى التابعين، فقام التابعون بتدوين كذلك، ثم أضافوا إليه ما كان في عصر الصحابة من أحداث، ثم جاء تابع التابعين فدونوا كل ذلك وضموا إليه ما كان في عصر التابعين وهكذا كلما انقضت مدة وانتهت حقبة من الزمن أتى العلماء في الحقبة التي تليها فقاموا بتدوين ما سبق مع إضافة ما في عصرهم من الأحداث والوقائع.

قراءة التاريخ بتدبر لها فوائد عظيمة وعوائد جليلة وفرائد كثيرة ونكت نافعة.

اقرؤا التاريخ إذ فيه العبر   قد ضل قوم لا يدرون الخبر

قال العلامة ابن الأثير في «كامله»(١/ ٦، ٧، ٨): «إن فوائده كثيرة، ومنافعه الدنيوية والأخروية غزيرة، وها نحن نذكر شيئًا مما يظهر لنا فيها نكل إلى قريحة الناظر فيه معرفة باقيها:

فأما فوائدها الدنيوية: فمنها أن الإنسان لا يخفى أنه لا يحب البقاء، ويؤثر أن يكون في زمرة الأحياء فيا ليت شعري أي فرق بين ما رآه أمس أو سمعه، وبين ما قرأه في الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المتقدمين، فإذا طالعها فكأنه عاصرهم، و إذا علمها فكأنه

حاضرهم، ومنها أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهي إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان، ورأوها مدونة في الكتب يتناقلها الناس، فيرونها خلف عن سلف، ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر وقبح الأحدوثة وخراب البلاد وهلاك العباد، وذهاب الأموال وفساد الأحوال، واستقبحوها، وأعرضوا عنها، وأطرحوها، فإذا رأوا سيرة الولاة والعارفين وحسنها، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم، وإن بلادهم وممالكهم عمرت، وأموالهم درت، استحسنوا ذلك، ورغبوا فيه، وثابروا عليه، وتركوا ما ينافيه، هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآرء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الأعداء، وخلصوا بها من المهالك، واستضافوا نفائس المدن وعظيم الممالك، ولو لم يكن منها غير هذا لكفى به فخراً.

ومنها: ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير إليه عواقبها، وإنه لا يحدث له أمر إلا وقد تقدم هو أونظيره، فيزداد عقلاً ويصبح لأن يقتدي به أهلاً، ولقد أحسن القائل حيث يقول شعرًا:

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع
فلا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع

يعني بالمطبوع العقل الغريزي الذي خلقه الله للإنسان، وبالمسموع ما يزداد به العقل الغريزي من التجربة. وجعله عقلاً ثانيًا توسعًا وتعظمًا له، وإلا فهو زيادة في عقله الأول.

ومنها: ما يتجمل به الإنسان في المجالس والمحافل من ذكر شيء من معامرفها ونقل طريفة من طرائفها، فترى الأسماع مصيغة إليه، والوجوه مقبلة عليه، والقلوب متأملة ما يورده ويصدره، مستحسنة ما يذكره.

وأما الفوائد الأخروية: فمنها أن العاقل اللبيب إذا تفكر فيها، ورأى تقلب الدنيا بأهلها وتتابع نكباتها إلى أعيان قاطنيها، وأنها سلبت نفوسهم وذخائرهم، وأعدمت أصاغرهم وأكابرهم، فلم تبق على جليل ولا حقير، ولم يسلم من نكدها غني، ولا فقير، زهد فيها، وأعرض عنها، وأقبل على التزود للآخرة منها، ورغب في دار تنزهت عن هذه الخصائص، وسلم أهلها من هذه النقائص، ولعل قائلاً يقول: ما ندري ناظراً فليها زهد في الدنيا، وأقبل على الآخرة، واغب في درجاتها العليا الفاخرة، فيا ليت شعري كم رأى هذا القائل قارئصا للقرآن العزيز الذي هو سيد المواعظ، وأفصح الكلامن، يطلب به اليسير من هذا الخطام، فإن القلوب مولعة بحب العاجل.

ومنها: التخلق بالصبر والتأسي، وهما من محاسن الأخلاق، فإن العاقل إذا رأى أن شر الدنيا لم يسلم منه نبي مكرم، ولا ملك عظم، بل ولا واحد من البشر، علم أنه يصيبه ما أصابهم وينوبه ما نابهم شعراً

وهل أنا إلا من غـزية إن غـوت غـويت وإن ترشـد غـزية أرشـد

ولهذه الحكمة وردت القصص في القرآن المجيد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]. فإن ظن هذا القائل أن الله تعالى أراد بذكر الحكايات الأسمار، فقد تمسك من أقوال أهل الزيغ الذين على شفا جرف هار، بمحكم سببها حيث **قالوا: هذه أساطير الأولين اكتتبها**. اهـ.

ومن أجل من كتب في هذا المضمار: ابن جرير الطبري في كتابه العظيم «التاريخ»، وابن الجوزي في «المنتظم»، وابن الأثير في «الكامل»، والذهبي في «تاريخ الإسلام»، ثم جاء تلميذه الإمام ابن كثير في هذا السفر العظيم فجمع شتات هذا كله حيث قال في أوله إنه يذكر ما يسره الله تعالى بحوله وقوته من ذكر مبدأ المخلوقات من خلق العرش والكرسي والسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين وكيفية خلق آدم عليه السلام وقصص النبيين وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه فنذكر سيرته كما ينبغي فتشفي الصدور والغليل وتزيح الداء عن العليل، ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا ونذكر الفتن والملاحم وأشراط الساعة ثم البعث والنشور وأهوال القيامة ثم صفة ذلك وما في ذلك اليوم وما يقع فيه من الأمور الهائلة، ثم صفة النار ثم صفة الجنان وما فيها من الخيرات الحسان، وغير ذلك وما يتعلق به وما ورد في ذلك من الكتاب والسنة والآثار والأخبار المنقولة المعتولة عند العلماء وورثة الأنبياء الآخذين من مشكاة النبوة المصطفوية المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام. اهـ. لذلك سماه «البداية والنهاية» فهو كتاب بحق جدير بالدراسة والنظر فيه لمن كان يرجو تحصيل الفوائد المذكورة. وقد قمنا بتخريج الأحاديث والآثار الواردة فيه مع التراجم لبعض الأعلام المذكورة. وقد قمنا بتخريج الأحاديث والآثار الواردة فيه مع التراجم لبعض الأعلام المذكورة في أثنائه. وكان الاختصار سبيلنا في هذا العمل خشية تضخيم حجم الكتاب مع مرعاة المقصود والمراد من التخريج، فجاء في هذا الثوب القشيب الذي نسأل الله جل وعلا أن ينفع به كل من ساهم في خدمته، وكل من قرأه، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، وأن يجعله لهم سببًا، في معرفة سبل النصر فيسلكوها ومعرفة أسباب الهزيمة فيجتنبوها، ونسأله سبحانه أن ينصر الإسلام والمسلمين وأن يوحد صفهم ويلم شملهم ويرفع راياتهم عالية خفاقة دائمًا والحمد لله رب العالمين.

المحققون:

أبو صهيب/ مجدي بن عبد الهادي بن صالح **أبو أنس/ عمرو بن محمد بن عمر**

أبو عبد الرحمن/ محمد عبده **أبو أنس/ سيد بن رجب**

طلال الطرابيلي

ترجمة الإمام المصنف رحمه الله تعالى

نسبه وميلاده وشيوخه ونشأته:

هو أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن الشيخ أبي حفص شهاب الدين عمر، خطيب قريته، ابن كثيربن ضوء بن كثير بن زرع القرشي البصروي الأصل، الدمشقي النشأة والتربية والتعليم. ولد بمجدل القرية من أعمال مدينة بصرىٰ، شرق دمشق سنة إحدىٰ سبعمائة، وكان أبوه خطيبًا، ومات أبوه في الرابعة من عمره فرباه أخوه الشيخ عبد الوهاب، وبه تفقه في مبدأ أمره. ثم انتقل إلىٰ دمشق سنة (٧٠٦) في الخامسة من عمر، وتفقه بالشيخ برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحمن الفزاري الشيه بابن الفركاح، المتوفىٰ سنة (٧٢٩).
وسمع بدمشق من عيسىٰ بن المطعم، ومن أحمد بن أبي طالب المعمر أكثر من مائة سنة الشهير بابن الشحنة، وبالحجار المتوفىٰ سنة (٧٣٠)، ومن القاسم بن عساكر، وابن الشيرازي، وإسحاق بن الآمدي، محمد بن زراد، لازم الشيخ جمال الدين يوسف بن الزكي المزي صاحب «تهذيب الكمال»، و«أطراف الكتب الستة» المتوفىٰ سنة (٧٤٢)، وبه انتفع وتخرج، وتزوج ابنته. وقرأ علىٰ شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية المتوفىٰ سنة (٧٢٨) كثيراً.

ولازمه وأحبه وانتفع بعلومه، وعلىٰ الشيخ المؤرخ شمس الدين الذهبي محمد بن ابن أحمد قايماز، المتوفىٰ سنة (٧٤٨). وأجاز له من مصر أبو موسىٰ القرافي، والحسيني، وعلي بن عمر الواني، ويوسف الختني، وغير واحد. وقال الحافظ شمس الدين الذهبي في «المعجم المختص»: الإمام المفتي المحدث البارع، فقيه متفنن، ومفسر نقاد، وله تصانيف مفيدة.

وقال الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة»: اشتغل بالحديث مطالعة في متونه ورجاله، وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في حياته، انتفع الناس بها بعد وفاته، ولم يكن علىٰ طريق المحدثين في تحصيل العوالي وتمييز العالي من النازل، ونحو ذلك من فنونهم، وإنما هو من محدثي الفقهاء. وأجاب السيوطي عن ذلك فقال: العمدة في علم الحديث علىٰ معرفة صحيح الحديث وسقيمه، وعلله واختلاف طرقه، ورجاله جرحًا وتعديلاً، وأما العالي والنازل نحو ذلك، فهو من الفضلات، لا من الأصول المهمة. اهـ.

وقال المؤرخ الشهير أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن سيف الدين المعروف بابن تغري بردي الحنفي في كتابه «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي»:

الشيخ الإمام العلامة عماد الدين أبو الفداء... لازم الاشتغال ودأب وحصل وكتب وبرع في الفقه والتفسير والحديث، وجمع وصنف، ودرس وحدّث وألف، وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والفقه والعربية وغير ذلك، وأفتىٰ ودرس إلىٰ أن توفي. واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير وهو القائل:

تمر بنا الأيام تترى وإنما نساق إلى الآجال والعين تنظر
فلا عائد ذاك الشباب الذي مضى ولا زائل هذا المشيب المكدّر

وتلامذته كثيرة: منهم ابن حجي، وقال فيه: احفظ من أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بجرحها ورجالها، وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وما أعرفه أني اجتمعت به - على كثرة ترددي إليه - إلا واستفدت منه. وقال ابن العماد الحنبلي في كتابه «شذرات الذهب»: الحافظ الكبير عماد الدين حفظ «التنبيه» وعرضه سنة ١٨، وحفظ «مختصر ابن الحاجب» وكان كثير الاستحضار، قليل النسيان، جيد الفهم، يشارك في العربية، وينظم نظمًا وسطًا، وقال فيه ابن حبيب: «مع وجمع وصنف، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف، وحدث وأفاد وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير.

مؤلفاته من كتب مطوله ورسائل مختصرة:

١- ومن مؤلفاته: «تفسير القرآن الكريم»: هو من أفيد كتب التفسير بالرواية. يفسر القرآن بالقرآن، ثم بالأحاديث المشهورة في دواوين المحدثين بأسانيدها، ويتكلم على أسانيدها جرحًا وتعديلاً. قال السيوطي فيه: لم يؤلف على نمطه مثله.

٢- والتاريخ المسمى بـ «البداية والنهاية»، وهو هذا.

وقال ابن تغري بردي: وهو في غاية الجودة. اهـ. وعليه يعول البدر العيني في «تاريخه».

٣- وكتاب «التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل».

٤- وكتاب «الهدى والسنن في أحاديث المسانيد والسنن» وهو المعروف بـ«جامع المسانيد».

٥- «طبقات الشافعية» مجلد وسط ومعه «مناقب الشافعي».

٦- وخرجه أحاديث أدلة «التنبيه» في فقه الشافعية.

٧- وخرج أحاديث «مختصر ابن الحاجب» الأصلي.

٨- وشرع في «شرح البخاري» ولم يكمله.

٩- واختصر كتاب ابن الصلاح في «علوم الحديث» قال الحافظ العسقلاني: وله فيه فوائد.

وفاته: قال صاحب «المنهل الصافي»: توفي يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة عن أربع وسبعين سنة. قال الحافظ ابن حجر: وكان قد أضر - يعني فقد بصره - في آخر حياته، رحمه الله ورضي عنه(*).

(*) نقلاً عن الشيخ: محمد عبد الرزاق حمزة، كما في «الباعث الحثيث» ص ٨٥.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخُ الإمامُ العالمُ العَلَّامةُ أبو الفداء عمادُ الدينِ إسماعيلُ بنُ كَثِيرٍ، رحمَه اللهُ تعالى:

الحمدُ للهِ **الأوَّلِ الآخرِ**، الباطِنِ الظَّاهرِ، الذي هو بكلِّ شيءٍ عليمٌ، الأوَّلُ فليس قبلَه شيءٌ، الآخرُ فليس بعدَه شيءٌ، الظاهرُ فليس فوقَه شيءٌ، الباطِنُ فليس دُونَه شيءٌ، الأزَلِيُّ القديمُ الذي لم يزلْ موجودًا موصوفًا بصفاتِ الكَمالِ، ولا يزالُ دائمًا مستمرًّا باقيًا سَرْمَديًّا بلا انْقضاءٍ ولا انْفصالٍ ولا زَوالٍ. يعلمُ دَبِيبَ النملةِ السوداءِ، على الصَّخْرةِ الصَّمَّاءِ، في الليلةِ الظَّلماءِ، وعددَ الرِّمالِ، وهو العليُّ الكبيرُ المُتَعالِ، العليُّ العظيمُ الذي خلَق كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديرًا، ورفَع السمواتِ بغيرِ عَمَدٍ، وزيَّنها بالكواكبِ الزَّهِراتِ، وجعَل فيها سِراجًا وقمرًا مُنيرًا، وسوَّىٰ فوقَهنَّ سَرِيرًا، شَرْجَعًا عاليًا مُنِيفًا مُتَّسِعًا مُقَبَّبًا مُستديرًا، هو العرشُ العظيمُ، له قوائمُ عِظامٌ، تحمِلهُ الملائكةُ الكِرامُ، وتحُفُّه الكُرُوبِيُّون - عليهم الصلاةُ والسلامُ - ولهم زَجَلٌ بالتَّقْديسِ والتَّعظيمِ، وكذا أرْجَاءُ السمواتِ مَشْحونةٌ بالملائكةِ، ويَفِدُ منهم في كلِّ يومٍ سبعونَ ألفًا إلىٰ البيتِ المَعْمورِ بالسماءِ السابعةِ، لا يعودون إليه آخِرَ ما عليهم، في تَهْليلٍ وتحْميدٍ وتكبيرٍ وصلاةٍ وتسليمٍ، ووَضَعَ الأرضَ للأنامِ علىٰ تيَّارِ الماءِ، وجعل فيها رَواسِيَ من فَوْقِها، وبارَك فيها، وقدَّر فيها أقْواتَها في أربعةِ أيَّامٍ سواءً للسَّائلينَ قبلَ خَلْقِ السماءِ، وأنْبَتَ فيها مِن كلٍّ زوجَيْن اثنَيْن، دَلالةً للألِبَّاءِ، مِن جميعِ ما يَحتاجُ العبادُ إليه في شِتائِهم وصَيْفِهم، ولكلٍّ ما يحتاجُونَ إليه ويَمْلِكونَه مِن حيوانٍ بَهيمٍ.

وبدأ خَلْقَ الإنسانِ مِن طينٍ، وجعل نَسْلَه مِن سُلالَةٍ مِن ماءٍ مَهِينٍ، في قَرارٍ مَكِينٍ، فجعله سميعًا بصيرًا، بعدَ أنْ لم يكنْ شيئًا مذكورًا، وشرَّفه بالعلمِ والتَّعليمِ، خلق بيدِه الكريمةِ آدمَ أبا البَشَرِ، وصوَّر جُثَّتَه، ونفَخ فيه مِن رُوحِه، وأسْجدَ له ملائكتَه، وخلق منه زَوْجَه حوَّاءَ أُمَّ البَشَرِ، فآنَس بها وحْدتَه، وأسكنَهما جَنَّتَه، وأسْبَغَ عليهما نعمتَه، ثم أهْبطَهما إلىٰ الأرضِ؛ لَما سبَق في ذلك مِن حِكْمةِ الحكيمِ، وبَثَّ منهما رجالًا كثيرًا ونساءً، وقسَمهم بقَدَرِه العظيمِ ملوكًا ورُعاةً، وفقراءَ وأغنياءَ، وأحرارًا وعَبِيدًا، وحَرائرَ وإماءً، وأسْكَنَهم أرجاءَ الأرضِ، طُولَها والعَرْضَ، وجعَلَهم خلائفَ فيها، يخلُفُ البعضُ منهم البعضَ إلىٰ يومِ الحسابِ والعَرْضِ علىٰ العليمِ الحكيمِ، وسخَّر لهُم الأنهارَ من سائرِ الأقطارِ، تشُقُّ الأقاليمَ إلىٰ الأمصارِ، ما بينَ صِغَارٍ وكبارٍ، علىٰ مقدارِ الحاجاتِ والأوْطارِ، وأنْبَعَ لهم العيونَ والآبارَ، وأرسل عليهم السحابَ بالأمطارِ، فأنْبَتَ لهم سائرَ صُنوفِ الزُّروعِ والثِّمارِ، وآتاهُم مِن كلِّ ما سألُوه بلسانِ حالِهم وقَالِهم: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فسبحان الكريمِ الغنيِّ العظيمِ الحليمِ. وكان مِن أعْظمِ نِعَمِه عليهم وإحسانِه إليهم، بعدَ أن خلقَهم ورزقَهم ويسَّر لهم

السبيلَ وأنطقَهم، أنْ أرسلَ رُسُلَه إليهم، وأنزلَ كُتُبَه عليهم، مُبيِّنةً حلالَه وحرامَه، وأخبارَه وأحكامَه، وتفصيلَ كلِّ شيءٍ في المبدأ والمَعادِ إلى يوم القيامة. فالسعيدُ مَن قابلَ الأخبارَ بالتَّصديقِ والتَّسليم، والأوامرَ بالانْقياد، والنَّواهيَ بالتَّعْظيم؛ ففاز بالنعيم المُقيم، وزُحْزِحَ عن مقام المكذِّبين في الجحيم، ذاتِ الزَّقُّوم والحَميم، والعذابِ الأليم. أحْمَدُه حمدًا كثيرًا طيِّبًا مُباركًا فيه، يملأُ أرْجاءَ السمواتِ والأَرَضينَ، دائمًا أبَدَ الآبدينَ، ودهرَ الدَّاهرينَ إلى يوم الدينِ، في كلِّ ساعةٍ وأوانٍ ووقتٍ وحينٍ، كما ينْبغي لجلاله العظيم وسلطانه القديم، ووجهه الكريم.

وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، ولا ولدَ له، ولا والدَ له، ولا صاحبةَ له، ولا نَظيرَ له، ولا وزيرَ له، ولا مُشيرَ له، ولا عَديدَ ولا نَديدَ ولا قَسيمَ.

وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وحبيبُه وخليلُه، المصطَفَى من خُلاصةِ العربِ العَرْباءِ من الصَّميم، خاتَمُ الأنبياءِ، وصاحبُ الحَوْضِ الأكبرِ الرَّوَاء، صاحبُ الشفاعةِ العظمى يومَ القيامة وحاملُ اللواءِ، الذي يبعثُه اللهُ المقامَ المحمودَ الذي يرغبُ إليه فيه الخلْقُ كلُّهم، حتى الخليلُ إبراهيمُ صلى اللهُ عليه وعلى سائرِ إخوانه من النَّبيِّين والمُرسلين، وسلَّم وشرَّف وكرَّم، أزْكَى صلاةٍ وتسليم، وأعْلَى تشريفٍ وتكريم، ورَضِيَ اللهُ عن جميعِ أصحابه الغُرِّ الكرام، السادةِ النُّجَباءِ الأعلام، خُلاصةِ العالَمِ بعدَ الأنبياء، ما اختلَط الظلامُ بالضِّياء، وأعْلَنَ الدَّاعِي بالنِّداء، وما نسَخ النهارُ ظلامَ الليلِ البَهيم.

أمَّا بعدُ: فهذا كتابٌ أذكُرُ فيه - بعَوْنِ الله وحُسْنِ توفيقه - ما يسَّره اللهُ تعالى بحَوْله وقُوَّته، من ذِكْرِ مَبْدأِ المخلوقات؛ من خلقِ العَرْشِ، والكُرْسيِّ، والسَّموات، والأَرَضينَ، وما فيهنَّ، وما بينَهنَّ، من الملائكة والجانِّ والشياطين، وكيفيَّةِ خَلْقِ آدَم، عليه السلامُ، وقَصَصِ النبيِّين، وما جرَىٰ مَجْرَىٰ ذلك إلى أيَّام بني إسرائيلَ، وأيامِ الجاهليَّة، حتى تنتهيَ النُّبوَّةُ إلى أيام نبيِّنا محمدٍ صلواتُ الله وسلامُه عليه، فنذكرُ سيرتَه كما ينبغي، فنَشفي الصدورَ والغليلَ، ونُزيحُ الدَّاءَ عن العليلِ. ثم نذكرُ ما بعدَ ذلك إلى زمانِنا، ونذكرُ الفِتَن والمَلاَحِمَ، وأشْراطَ السَّاعة، ثم البعثَ والنُّشُورَ وأهوالَ القيامة، ثم صِفَةَ ذلك، وما في ذلك اليوم، وما يقعُ فيه من الأمورِ الهائلة، ثم صفةَ النار، ثم صفةَ الجِنان، وما فيها من الخَيْراتِ الحِسان، وغيرَ ذلك، وما يتعلَّقُ به، وما ورَد في ذلك من الكتابِ والسُّنَّةِ والآثارِ والأخبارِ المنقولةِ المقبولةِ عندَ العلماءِ وورَثةِ الأنبياء، الآخذينَ من مِشْكاةِ النُّبوةِ المُصْطَفَويَّةِ المحمديَّة، على مَن جاءَ بها أفضلُ الصلاةِ والسلام. ولسْنا نذكُرُ من الإسْرائيليَّاتِ إلا ما أذِنَ الشارعُ في نَقْلِه، مما لا يخالفُ كتابَ الله وسُنَّةَ رسوله ﷺ، وهو القسمُ الذي لا يُصدَّقُ ولا يُكذَّبُ، ممَّا فيه بَسْطٌ لِمُختصَرٍ عندَنا، أو تسميةٌ لِمُبْهَمٍ ورَد به شرعُنا، ممَّا لا فائدةَ في تعْيينه لنا، فنذكُرُه على سبيلِ التَّحلِّي به، لا على سبيلِ الاحْتياجِ إليه والاعْتمادِ عليه. وإنَّما الاعتمادُ والاسْتِنادُ على كتاب الله وسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ، ما صحَّ

نَقْلُه أو حَسُنَ، وما كان فيه ضَعْفٌ نُبَيِّنُه، وبالله المُسْتعانُ، وعليه التُّكْلانُ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله العزيزِ الحكيمِ، العليِّ العظيمِ، فقد قال اللهُ تَعالىٰ في كتابه: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]. وقد قَصَّ اللهُ علىٰ نَبيِّه ﷺ خبرَ ما مضَىٰ من خَلْقِ المخلوقاتِ، وذكْرِ الأُمَمِ الماضِينَ، وكيف فعَلَ بأوليائه، وماذا أحَلَّ بأعدائه، وبيَّن ذلك رسولُ الله ﷺ لأُمَّته بيانًا شافيًا، كما سَنُوردُ عندَ كلِّ فصلٍ ما وصلَ إلينا عنه صلواتُ الله وسلامُه عليه من ذلك تِلْوَ الآياتِ الوارِداتِ في ذلك، فأخبَرنا بما نحتاجُ إليه من ذلك، وترَكَ ما لا فائدةَ فيه ممَّا قد يَتَزاحمُ علىٰ عِلْمه ويتَراجَمُ في فَهْمه طوائفُ مِن علماء أهلِ الكتابِ، ممَّا لا فائدةَ فيه لكثيرٍ من الناسِ، وقد يستوعبُ نَقْلَه طائفةٌ من علمائنا أيضًا، ولسنا نَحْذُوا حَذْوَهم، ولا نَنْحُو نحوَهم، ولا نذكرُ منها إلا القليلَ علىٰ سبيلِ الاختِصارِ، ونُبَيِّنُ ما فيه حَقٌّ منها يوافقُ ما عندَنا، وما خالفَه يقعُ فيه الإنكارُ.

فأمَّا الحديثُ الذي رَواه البُخارِيُّ رحمَه اللهُ في «صَحيحه»[1]، عن عبدِ الله بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ، رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**بَلِّغُوا عنِّي ولَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إسْرائيلَ ولاَ حرجَ، وَحَدِّثُوا عنِّي ولا تَكْذِبُوا عَلَيَّ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتعمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**». فهو محمولٌ علىٰ الإسْرائيليَّاتِ المَسْكوتِ عنها عندَنَا، فليس عندَنا ما يُصدِّقُها ولا ما يُكذِّبُها، فيجوزُ رِوايتُها للاعتبارِ، وهذا هو الذي نستعملُه في كتابِنا هذا، فأمَّا ما شَهِدَ له شَرْعُنا بالصِّدْقِ فلا حاجةَ بنا إليه، استغْناءً بما عندَنا، وما شَهِدَ له شَرْعُنا منها بالبُطْلانِ، فذاك مَرْدودٌ لا يجوزُ حكايتُه إلا علىٰ سبيلِ الإنْكارِ والإبْطالِ، فإذا كان اللهُ سُبحانَه وله الحمدُ قد أغْنانَا برسوله محمدٍ ﷺ عن سائرِ الشَّرائعِ، وبكتابه عن سائرِ الكُتُبِ، فلسْنا نترامَىٰ علىٰ ما بأيْديهِم ممَّا قد وقَع فيه خَبْطٌ وخَلْطٌ، وكَذِبٌ ووَضْعٌ، وتحريفٌ وتبديلٌ، وبعدَ ذلك كلِّه نَسْخٌ وتغْيِيرٌ. فالمُحْتاجُ إليه قد بيَّنه لنا رسولُنا، وشرَحَه وأوْضَحَه، عَرَفَه مَن عرَفَه، وجَهِله مَن جَهِله، كما قال عليُّ بنُ أبِي طالبٍ: كتابُ الله فيه خَبَرُ ما قبلَكم، ونَبَأُ ما بعدَكم، وحُكْمُ ما بينَكم، وهو الفَصْلُ ليس بالهَزْلِ، مَن تركَه مِن جبَّارٍ قَصَمَه اللهُ، ومن ابْتَغَىٰ الهُدَىٰ في غيرِه أضَلَّه اللهُ[2]. وقال أبو ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه: لقد تُوُفِّيَ رسولُ الله ﷺ وما طائرٌ يطيرُ بجَناحَيْه إلا أذْكَرَنا منه عِلْمًا[3].

وقال البُخاريُّ في كتاب بَدْءِ الخَلْقِ[4]: ورَوَىٰ عيسىٰ بنُ موسىٰ غُنْجَارُ، عن رَقَبَةَ، عن قيسِ بنِ مسلمٍ،

---

(١) برقم (٣٤٦١).

(٢) ضعيف جدًا: أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٤٨٢) مختصرًا، والترمذي في «السنن» برقم (٢٩٠٦) مطولاً.
وعزاه الحافظ المزي بعدما أخرجه في «تهذيب الكمال» (٣٤/ ٢٦٧) للنسائي، ولم يذكره في «تحفة الأشرف»، قال أبوعيسىٰ: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال» اهـ.
قلت: وفي الإسناد أبو المختار الطائي، وابن أخي الحارث الأعور، وكلاهما مجهول. والحارث الأعور «ضعيف».

(٣) حسن: أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٥٣، ١٦٢)، من طريق منذر بن يعلىٰ، عن أشياخ من التيم قالوا: قال أبو ذر. وفيه جهالة أشياخ التيم. وأخرجه الطبري في «التفسير» (٧/ ١٨٩)، من طريق منذر عن أبي ذر به. وفيه انقطاع.
وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» برقم (٦٥)، والطبراني في «الكبير» (٢) برقم (١٦٤٧)، من طريق فطر، عن أبي الطفيل عن أبي ذر به، وفيه: فطر ـ هو ـ ابن خليفة: صدوق، وبقية رجاله ثقات.

(٤) (٦/ ٣٣١).

عن طارقِ بنِ شهابٍ، قال: سمعتُ عُمَرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنه يقولُ: قامَ فينا رسولُ اللهِ ﷺ مقامًا، فأخبرنا عن بَدْءِ الخَلقِ حتى دخل أهلُ الجنةِ منازلَهم، وأهلُ النارِ منازلَهم، حفِظَ ذلك من حفظَه، ونَسِيَه من نَسِيَه [(١)]. قال أبو مسعودٍ الدِّمَشْقيُّ في «أطرافه»: هكذا قال البخاريُّ، وإنما رواه عيسى غُنْجارُ عن أبي حَمْزَةَ، عن رَقَبَةَ. وقال الإمامُ أحمدُ بنُ حَنْبَلٍ، رحمَه اللهُ، في «مُسْنَده» [(٢)]: حَدَّثنا أبو عاصمٍ، حدَّثنا عَزْرَةُ بنُ ثابتٍ، حدَّثنا عِلْباءُ بنُ أحْمَرَ اليَشْكُرِيُّ، حدثنا أبو زيدٍ الأنْصارِيُّ، قال: صلَّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ صلاةَ الصبحِ ثم صَعِدَ المِنْبَرَ، فخطَبنا حتى حضَرتِ الظُّهْرُ، ثم نزَل فصلَّى الظهرَ، ثم صَعِدَ المِنْبَرَ، فخطَبنا حتى حضَرتِ العصرُ، ثم نزَل فصلَّى العصرَ، ثم صَعِدَ المِنبرَ فخطَبنا حتى غابتِ الشمسُ، فحدَّثنا بما كان، وبما هو كائنٌ، فأعلمُنا أحْفَظُنا. انْفَرد بإخْراجِه مسلمٌ، فرواه في كتابِ الفِتَنِ من «صحيحه» [(٣)]، عن يعقوبَ بنِ إبراهيمَ الدَّوْرَقِيِّ، وحَجَّاجِ بنِ الشاعرِ، جميعًا عن أبي عاصمٍ الضَّحَّاكِ بنِ مَخْلَدٍ النَّبيلِ، عن عَزْرَةَ، عن عِلْباءَ، عن أبي زيدٍ عمروِ بنِ أخْطَب بنِ رِفاعةَ الأنْصارِيِّ، رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ ﷺ بنَحْوِه [(٤)].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا يزيدُ بنُ هارونَ وعفَّانُ، قالا: حدَّثنا حمَّادُ بنُ سَلَمَةَ، أخبرنا عليُّ بنُ زَيْدٍ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيدٍ قال: خطَبَنا رسولُ اللهِ ﷺ خُطْبَةً بعدَ العصرِ إلى مُغَيْرِبانِ الشَّمسِ، حَفِظَها مَنْ حَفِظَها، ونَسِيَها من نَسِيَها - قال عفَّانُ: قال حمَّادٌ: وأكثرُ حفْظِي أنه قال: بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامَةِ - فحَمِدَ اللهَ وأثْنَى عَلَيْه ثمَّ قال: **«أمَّا بعدُ، فإنَّ الدنْيا خَضِرةٌ حُلْوَةٌ، وإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فيها فنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلون، ألا فاتَّقُوا الدنْيا واتَّقُوا النِّساءَ»**. وذكَر تمامَ الخُطْبَةِ إلى أن قال: فلمَّا كان عِنْدَ مُغَيْرِبانِ الشَّمْسِ قال: **«ألا إنَّ مثْلَ مَا بَقِي مِنَ الدنْيا فيمَا مَضَى منْهَا مثلُ ما بَقِيَ من يَوْمِكُمْ هَذا فيمَا مَضَى منْهُ»**.

ثُمَّ قال الإمامُ أحمدُ [(٥)]: ثنا عبدُ الرَّزَّاقِ، أخبرنا مَعْمَرٌ، عن عَلِيِّ بنِ زَيْدِ بنِ جُدْعَانَ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سَعيدٍ، قال: صلَّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ صلاةَ العَصْرِ ذاتَ يومٍ نَهارًا، ثُمَّ قامَ فخَطَبَنا إلى أنْ غابَتِ الشَّمْسُ، فلم يدَعْ شيْئًا ممَّا يكونُ إلى يومِ القيامَةِ إلا حَدَّثَناه، حفِظَ ذلك مَنْ حَفِظَه ونَسِيَ ذلكَ مَنْ نَسِيَهُ، فكانَ ممَّا قال: **«يأَيُّهَا النَّاسُ، إنَّ الدنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فيها فنَاظِرٌ كيفَ تَعْمَلُونَ، فاتَّقُوا الدنْيا وَاتَّقُوا النِّساءَ»**، وذكَر تَمامَها إلى أنْ قال: ثمَّ دَنَتِ الشَّمْسُ أنْ تَغْرُبَ، فقال: **«وإنَّ ما بَقِيَ مِنَ الدنْيَا فيما مَضَى منها مِثْلُ ما بَقِيَ مِن يَوْمِكُمْ هذا فيما مَضَى مِنْه»** [(٦)]. وهذا هو المَحْفُوظُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣١٩٢) تعليقًا بصيغة الجزم.
قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٣٣٥، ٣٣٦): وقد وصل الحديث المذكور من طريق عيسى المذكور عن أبي حمزة، وهو محمد بن ميمون السكري عن رُقبة، الطبراني في مسند رُقبة المذكور - إلى قوله: - ولم ينفرد به عيسى، فقد أخرجه أبو نعيم من طريق علي بن الحسين بن شقيق، عن أبي حمزة، نحوه. لكن بإسناد ضعيف.
ثم قال: ولحديث الباب شاهد من حديث حذيفة سيأتي في كتاب القدر إن شاء الله تعالى، ومن حديث أبي زيد الأنصاري أخرجه أحمد ومسلم . . . ». اهـ.

(٢) في «المسند» (٥/ ٣٤١).
(٣) برقم (٢٨٩٢).
(٤) في «المسند» (٣/ ١٩).
(٥) في «المسند» (٣/ ٦١).
(٦) **ضعيف**: أخرجه الترمذي في «السنن» برقم (٢١٩١)، وفي الإسناد عبد الله بن لهيعة «ضعيف»، ولبعض فقرات الحديث شواهد صحيحة.

فصلٌ

قال اللهُ تَعَالَى في كتابه العَزيز: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ [الزمر: ٦٢] فكلُّ ما سِواه تَعالىٰ فهو مخلوقٌ له، مَرْبوبٌ مُدَبَّرٌ، مُكَوَّنٌ بعدَ أن لم يكنْ، مُحدثٌ بعدَ عَدَمِه، فالعرشُ الذي هو سقفُ المخلوقاتِ إلىٰ ما تحتَ الثَّرىٰ، وما بين ذلك من جَمادٍ وناطقٍ، الجميعُ خَلْقُه، ومِلْكُه وعَبِيدُه، وتحتَ قَهْرِه وقُدرته، وتحتَ تَصْرِيفه ومشيئته ﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [الحديد: ٤]. وقد أجْمَعَ علماءُ الإسلامِ قاطبةً - لا يَشُكُّ في ذلكَ مسلمٌ - أنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ وما بينَهما في ستَّةِ أيَّامٍ، كما دلَّ عليه القرآنُ الحكيمُ. واختلفُوا في هذه الأيَّامِ؛ أهيَ كأيَّامنا هذه، أو كلُّ يومٍ كألفِ سنةٍ ممَّا تعُدُّون؟ على قولَين، كما بَيَّنَّا ذلك في «التَّفسيرِ»، وسنتعَرَّضُ لإيرادِه في موضعِه.

واختلفُوا هل كانَ قبلَ خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ شيءٌ مخلوقٌ قبلَهما؟ فذهب طَوائفُ من المتكلِّمين إلىٰ أنه لم يكُنْ قبلَهما شيءٌ، وأنهما خُلقتا من العَدَمِ المَحْضِ. وقال آخرون: بلْ كان قبلَ السمواتِ والأرضِ مخلوقاتٌ أُخَرُ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾ الآية [هود: ٧]. وفي حديثِ عِمْرانَ بنِ حُصَيْنٍ، كما سيأتي: «**كَانَ اللَّهُ ولَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وكَتَبَ في الذِّكْرِ كُلَّ شيءٍ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ**»[1].

وقال الإمامُ أحمدُ[2]: حدثنا بَهْزٌ، حدثنا حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ، أنبأنا يَعْلَى بنُ عَطَاءٍ، عن وَكيعِ بنِ حُدُسٍ، عن عمِّه أبي رَزِينٍ لَقيطِ بنِ عامرٍ العُقَيْليِّ، أنه قال: يا رسولَ الله، أين كان ربُّنا قبلَ أن يخلُقَ السَّمواتِ والأرضَ؟ قال: «**كَانَ فِي عَمَاءٍ، مَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، وما تَحْتَهُ هَوَاءٌ، ثُمَّ خَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الماءِ**»[3] ورَواهُ عن يَزيدَ بنِ هارونَ، عن حمَّادِ بنِ سَلَمَةَ به، ولفظُه: أَينَ كانَ ربُّنا قَبْلَ أن يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ وباقيه سواءٌ. وأخرَجه التِّرْمذيُّ[4] عن أحمدَ بنِ مَنيعٍ، وابنُ ماجَه[5] عن أبي بكرِ بنِ أبي شَيْبَةَ، ومحمدِ بنِ الصَّباحِ، ثلاثتُهم عن يزيدَ بنِ هارونَ، وقال التِّرْمذيُّ: حَسَنٌ. واختلَف هؤلاءِ في أيِّها خَلَقَ أوَّلًا؟ فقال قائلون: خلَقَ القلمَ قبلَ هذه الأشياءِ كلِّها. وهذا هو اختيارُ ابنِ جَريرٍ، وابنِ الجَوْزيِّ، وغيرِهما.

قال ابنُ جَرير: وبعدَ القلمِ السَّحابَ الرَّقيقَ، وبعدَه العَرْشَ واحتجُّوا بالحديثِ الذي رَواه الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ، والتِّرْمذيُّ، عن عُبادةَ بنِ الصَّامتِ، رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣١٩١، ٧٤١٨).
(٢) في «المسند» (٤/ ١٢).
(٣) **ضعيف**: أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١١، ١٢)، والترمذي في «السنن» برقم (٣١٠٩)، وابن ماجه في «السنن» برقم (١٨٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» برقم (٦١٢)، وغيرهم من طريق حماد بن سلمة، عن يعلى بن عطاء، عن وكيع بن حُدس، عن عمه أبي رزين به. وفيه وكيع بن حدس مقبول ولم يتابع، وبقية رجاله ثقات.
(٤) في «السنن» برقم (٣١٠٩).
(٥) في «السنن» برقم (١٨٢).

«إنَّ أوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. فجَرَى في تلكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائنٌ إلى يَوْمِ القيَامَةِ»[١] لفظُ أحمدَ. وقال التِّرْمذيُّ: حَسَنٌ صحيحٌ غَرِيبٌ.

والذي عليه الجُمهورُ ـ فيما نقلَه الحافظُ أبو العلاء الهَمَذانيُّ وغيرُه ـ أنَّ العرشَ مخلوقٌ قبلَ ذلك. وهذا هو الذي رواه ابنُ جَرير[٢]، مِن طريقِ الضَّحَّاك، عن ابنِ عبَّاس. كما دلَّ على ذلك الحديثُ الذي رَواهُ مسلمٌ في «صَحيحه»[٣]، حيثُ قال: حدَّثني أبو الطَّاهرِ أحمدُ بنُ عَمْرِو بنِ السَّرْحِ، حدثنا ابنُ وَهْبٍ، أخبرني أبو هانئٍ الخَوْلانيُّ، عن أبي عبدِ الرَّحْمَنِ الحُبُليِّ، عن عبد الله بنِ عمرو ابنِ العاصِ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «كتَبَ اللهُ مَقَاديرَ الخَلائقِ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السَّمواتِ والأرْضَ بخَمْسينَ ألْفَ سَنَةٍ»، قال: «وعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ». قالوا: فهذا التَّقديرُ هو كتابتُه بالقلمِ المَقاديرَ. وقد دلَّ هذا الحديثُ أنَّ ذلك بعدَ خَلْقِ العرشِ، فثَبت تَقَدُّمُ خَلْقِ العرشِ على القلمِ الذي كتَبَ به المقاديرَ، كما ذهَب إلى ذلك الجماهيرُ. ويُحْمَلُ حديثُ القلمِ على أنَّه أوَّلُ المخلوقاتِ من هذا العالَمِ، ويُؤيِّدُ هذا ما رَواهُ البُخاريُّ[٤] عن عِمْرانَ بنِ حُصَيْنٍ قال: قال أهلُ اليمَنِ لرسولِ الله ﷺ: جئناك لنتَفَقَّهَ في الدِّينِ، ولنسألَك عن أوَّلِ هذا الأمرِ. فقال: «كَانَ اللهُ ولَمْ يَكُنْ شيءٌ قَبْلَهُ» ـ وفي روايةٍ: «مَعَهُ»[٥]، وفي روايةٍ[٦]: «غَيْرُه» ـ «وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وكتَبَ في الذِّكْرِ كُلَّ شيءٍ، وخَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ». وفي لفظٍ[٧]: «ثُمَّ خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ». فسألُوه عن ابْتداءِ خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، ولهذا قالوا: جئْناك نسألُك عن أوَّلِ هذا الأمرِ، فأجابَهم عمَّا سألوا فقط، ولهذا لم يُخْبِرْهم بخَلْقِ العرشِ، كما أخْبَر به في حديثِ أبي رَزينٍ المتقدِّمِ.

قال ابنُ جرير[٨]: وقال آخرونَ: بل خَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ الماءَ قبلَ العَرْشِ. رَواهُ السُّدِّيّ، عن أبي مالكٍ، وعن أبي صالحٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ، وعن مُرَّةَ، عن ابنِ مسعودٍ، وعن ناسٍ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، قالوا: «**إنَّ اللهَ كان عرشُه على الماءِ، ولم يخْلُقْ شيئًا غيرَ ما خلَق قبلَ الماءِ**»[٩].

---

(١) حسن بمجموعه: أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٣١٧)، عن موسى بن داود، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، أن الوليد ابن عبادة بن الصامت قال: أوصاني أبي ـ وذكره.

وفيه: ابن لهيعة متكلم فيه إلا أنه قد توبع، تابعه غير واحد فيما أخرجه أحمد والترمذي في «السنن» برقم (٢١٥٥، ٣٣١٩)، وابن أبي عاصم في «السنَّة» برقم (١٠٤)، ولا يسلم طريق منها من مقال.

وأخرجه أبو داود في «السنن» برقم (٤٧٠٠)، وغيره من طريق رباح بن الوليد، عن إبراهيم بن أبي عبلة، واختلف عليه. قال الحافظ ابن حجر في «التهذيب» ترجمة رباح: «في إسناده اختلاف». اهـ.

وللحديث شواهد وردت من طريق ابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة رضي اللَّه عنهم.

(٢) في «التاريخ» (١/ ٣٩). (٣) برقم (٢٦٥٣). (٤) برقم (٧٤١٨).

(٥) لم أقف على هذه الرواية بعد طول نظر. (٦) أخرجها البخاري في «صحيحه» برقم (٣١٩١).

(٧) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٧٤١٨)، وابن حبان في «صحيحه» برقم (٦١٤٠، ٦١٤٢)، وغيرهما.

(٨) في «التفسير» (١/ ١٩٤)، وفي «التاريخ» (١/ ٣٢).

(٩) ضعيف، ولعله من الإسرائيليات: أخرجه الطبري في «التاريخ» (١/ ٣٢)، مختصراً على ما ساقه المصنف، وأخرجه في «التفسير» (١/ ١٩٤)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص٣٧٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٤٨٢)، من طرق عن عمرو بن حماد بن طلحة، عن أسباط، عن السدي به مطولا، وفيه قصة عجيبة غريبة. =

وحكى ابنُ جَرير[1]، عن محمد بن إسحاقَ، أنه قال: أوَّلُ ما خلَق اللهُ عزَّ وجلَّ النُّورُ والظُّلمةُ، ثم ميَّز بينَهما، فجعل الظلمةَ ليلاً أسودَ مُظلمًا، وجَعل النُّور نهارًا مُضيئًا مُبصرًا[2]. قال ابنُ جَرير: وقد قيل: إنَّ الذي خلَق ربُّنا بعدَ القَلَم الكرسيُّ، ثم خلَق بعدَ الكرسيِّ العَرْشَ، ثم خلَق بعدَ ذلك الهواءَ والظُّلْمةَ، ثم خلَق الماءَ، فوضَع عَرْشَه علَى الماء. واللهُ سبحانه وتعالى أعلمُ.

فصلٌ

فيما ورد في صفة خلق العرش والكرسي

قال اللهُ تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]. وقال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]. وقال اللهُ: ﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦]، وقال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٤، ١٥]. وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. في غيرِ ما آيةٍ من القرآن، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]. وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]. وفي الدعاء: المرويِّ في «الصحيح» في دعاء الكَرْب: «**لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ رَبُّ السَّمواتِ ورَبُّ الأَرضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**»[3].

وقال الإمامُ أحمدُ[4]: حدَّثنا عبدُ الرزَّاق، حدَّثنا يحيى بنُ العَلاءِ، عن عمِّه شُعَيب بنِ خالدٍ، حدَّثني سِمَاكُ بنُ حَرْبٍ، عن عبد الله بنِ عُمَيْرَةَ، عن عباس بنِ عبد المطَّلب، قال: كنَّا جُلوسًا مع رسول الله ﷺ بالبَطْحاء، فمرَّتْ سحابةٌ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**أتَدْرُونَ مَا هَذَا؟**» قال: قُلْنا: السَّحابُ. قال: «**وَالْمُزْنُ**». قال: قُلْنا: والمُزْنُ. قال: «**والْعَنَانُ**». قال: فسكَتْنا. فقال: «**هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ؟**» قال: قُلْنا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسمائَةِ سَنَةٍ، وَمِن كُلِّ**

= وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ١٠٦) لابن المنذر، وابن أبي حاتم.
وفي الإسناد عمرو بن حماد: صدوق رمي بالرفض، وأسباط بن نصر: صدوق كثير الخطأ يغرب، والسدي: صدوق يهم.
قال الشيخ محمد خليل هراس ـ رحمه الله ـ في تعليقه على «كتاب التوحيد» لابن خزيمة: هذا غير صحيح.. ثم قال: هذه قصة خيالية لا أصل لها ولعلها من الإسرائيليات، فليست الأرض على ظهر حوت، ولا الحوت في الماء...» الخ اهـ.
وجوَّد العلامة الألباني ـ رحمه الله ـ إسناد هذا الحديث في «مختصر العلو» (ص١٠٥).

(١) في «التفسير» (١/ ١٩٣).

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه الطبري في «التفسير» (١/ ١٩٣) من طريق ابن إسحاق به.
وفي الإسناد محمد بن حميد الرازي ضعيف. وانقطاع بين ابن إسحاق والنبي ﷺ، وإن لم يذكره لأنه يخبر عن أمر غيب لا يعلم إلا بوحي.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري برقم (٦٣٤٥)، ومسلم برقم (٢٧٣٠).

(٤) في «المسند» (١/ ٢٠٦، ٢٠٧).

سَمَاء إلى سَمَاء مَسيرَةُ خَمْسمائَة سَنَة، وكثَفُ كُلِّ سَمَاء مَسيرَةُ خَمْسمائَة سَنَة، وفَوْقَ السَّمَاء السَّابعَة بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَله وأَعْلاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، ثُمَّ فوقَ ذَلكَ ثمانيةُ أَوْعَالٍ[1]؛ بَيْن رُكبهنَّ وأظلافهنَّ كَمَا بينَ السَّماء والأرض، ثُمَّ فَوقَ ذلكَ العَرْشُ، بَيْنَ أسْفَله وأَعْلاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاء والأَرْض، واللهُ فَوْقَ ذلكَ، ولَيْس يَخْفَى عَلَيْه منْ أعْمَال بَني آدَمَ شيءٌ»[2]. هَذا لفظُ الإمامِ أحمدَ، ورواهُ أبو داودَ، وابنُ ماجَه، والتِّرْمِذِيُّ، مِن حَديثِ سِمَاكٍ بإسْنادِهِ نحوَه، وقال التِّرمِذِيُّ: هذا حديثٌ حَسَنٌ[3]، ورَوَىٰ شَرِيكٌ بعضَ هذا الحديثِ عن سِمَاكٍ ووقَفَه. ولفظُ أبي داودَ[4]: «وهَلْ تَدْرُونَ بُعْدَ ما بَيْنَ السَّمَاء والأَرْضِ؟» قالوا: لا نَدْرِي. قَال: «بُعْدُ مَا بَيْنَهُمَا إمَّا وَاحدَةٌ أو اثْنَتَان أو ثَلاثَةٌ وسَبْعُونَ سَنَةً». والباقي نحوُه.

وقال أبو داودَ: حدثنا عبدُ الأعْلَىٰ بنُ حمَّادٍ، ومحمدُ بنُ الْمُثَنَّىٰ، ومحمدُ بنُ بَشَّارٍ، وأحمدُ بنُ سعيدٍ الرِّبَاطِيُّ، قالوا: حدَّثنا وَهْبُ بنُ جَرِيرٍ - قال أحمدُ: كتبْناهُ مِن نُسْخَتِه، وهذا لفظُه: قال: حدثنا أبي، قال: سمعتُ محمدَ بنَ إسحاقٍ يحدِّثُ عن يعقوبَ بنِ عُتْبَةَ، عن جُبَيرِ بنِ محمَّدِ بنِ جُبَيرِ بنِ مُطْعِمٍ، عن أبيه، عن جَدِّه، قال: أَتىٰ رسولَ الله ﷺ أعْرابِيٌّ، فقال: يا رسولَ الله، جُهِدَت الأنْفُسُ، وجاعَت العِيالُ، ونُهِكَتِ الأموالُ، وهَلَكَتِ الأنْعامُ، فاسْتَسْقِ اللهَ لنا، فإنَّا نسْتَشْفِعُ بك علَىٰ اللهِ، ونسْتَشْفِعُ باللهِ عليك. فقال رسولُ الله ﷺ: «وَيْحَكَ، أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟» وسبَّحَ رسولُ الله ﷺ، فما زال يُسبِّحُ حتىٰ عُرِفَ ذلك في وُجوهِ أصحابِه، ثم قال: «وَيْحَكَ، إنَّهُ لاَ يُسْتَشْفَعُ بالله عَلَى أَحَد منْ خَلْقه، شَأْنُ الله أَعْظَمُ منْ ذلكَ، وَيْحَكَ، أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَموَاته لَهكَذا - وقالَ بأصابعه مثلَ القُبَّة عليه - وإنَّهُ لَيَئطُّ به أَطيطَ الرَّحْلِ بالرَّاكب»[5]. قال ابنُ بَشَّارٍ في حديثِه: «إنَّ اللهَ فَوْقَ عَرْشه، وعَرْشُهُ فوقَ سَمواته». وساقَ الحديثَ.

---

(١) الأوعال جمع وعل وهي الأروىٰ، قال ابن سيده: تيس الجبل. اهـ.
ومعناه في الحديث: الملائكة. انظر «لسان العرب».

(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود في «السنن» برقم (٤٧٢٣ - ٤٧٢٥)، والترمذي في «السنن» برقم (٣٣٢٠)، وابن ماجه في «السنن» برقم (١٩٣)، من طريق سماك بن حرب، عن عبد اللّٰه بن عميرة واختلف عليه في سنده ومتنه.
فرواه فيما تقدَّم عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب - فزاد الأحنف - وغاير في بعض متنه فقال: قال: هل تدرون ما بين السماء والأرض؟ قالوا: لا ندري، قال: إن بُعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة... » قال البخاري: لا نعلم له سماعًا من الأحنف. انظر ضعفاء العقيلي (٢/ ٢٨٤).
ورواه أحمد في «المسند» (١/ ٢٠٦)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» برقم (٦٧١٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٧٨)، وغيرهم من طريق يحيىٰ بن العلاء، عن عمه شعيب بن خالد، عن سماك، عن عبد اللّٰه بن عميرة، عن العباس بن عبد المطلب - دون ذكرٍ الواسطة وهو الأحنف - بمثل ما ذكره المصنف. - وفيه يحيىٰ بن العلاء: «متروك» -.
وثمَّ خلاف ثالث وهو ما أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٧٨) من طريق شريك، عن سماك بن حرب، عن عبد اللّٰه بن عميرة عن العباس بن عبد المطلب - رضي اللّٰه عنه - موقوفًا عليه ومختصراً بذكر الأوعال.
وعليه فمدار الحديث علىٰ عبد اللّٰه بن عميرة، وهو مقبول ولم يتابع، ومن ثمَّ ضعف الحديث واللّٰه أعلم.

(٣) في المطبوعة: حسن غريب.

(٤) في السنن برقم (٤٧٢٦).

(٥) إسناده ضعيف ورجاله ثقات، لكن ابن إسحاق مدلس ومثله لا يحتج به إلا إذا صرح بالتحديث، وهذا ما لم يفعله في ما وقفت عليه من الطرق إليه، ولذلك استغربه الحافظ ابن كثير في تفسير آية الكرسي من «تفسيره» كما تقدَّم، ثم إن في إسناده اختلاف... والحديث أخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، ابن خزيمة في «التوحيد» (ص٦٩)، والآجري في «الشريعة» (٢٩٣) من طرق عن محمد بن إسحاق به... » إلخ ما قاله العلامة الألباني - رحمه اللّٰه - في «ظلال الجنة» (ص٢٥٢).

وقال عبدُ الأعلَىٰ، وابنُ المُثَنَّىٰ، وابنُ بَشَّارٍ، عن يعقوبَ بنِ عُتْبَةَ، وجُبَيْرِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن أبيه، عن جَدِّه. والحديثُ بإسْنادِ أحمدَ بنِ سَعيدٍ، هو الصَّحيحُ، وافقه عليه جماعةٌ؛ منهم يحيىٰ بنُ مَعينٍ، وعليُّ بنُ المَدِينِيِّ، ورَواهُ جماعةٌ منهم عن ابنِ إسحاقَ، كما قال أحمدُ أيضًا. وكان سَماعُ عبدِ الأعلَىٰ وابنِ المُثَنَّىٰ وابنِ بَشّارٍ من نسخةٍ واحدةٍ فيما بلَغني. تفرَّد بإخْراجِها أبو داودَ. وقد صنَّف الحافظُ أبو القاسمِ ابنُ عَساكِرَ الدِّمَشْقِيُّ جزءًا في الرَّدِّ علىٰ هذا الحديثِ، سَمَّاه بـ «بَيانِ الوَهْمِ والتَّخْلِيطِ الواقعِ في حديثِ الأطيطِ»، واسْتَفْرَغَ وُسْعَه في الطَّعنِ علىٰ محمد بنِ إسحاقَ بنِ يَسارٍ راوِيه، وذكَر كلامَ الناسِ فيه، ولكنْ قد رُوِيَ هذا اللفظُ مِن طريقٍ أخرىٰ، عن غيرِ محمدِ بنِ إسحاقَ، فرَواهُ عبدُ بنُ حُمَيْدٍ وابنُ جَريرٍ[1] في «تَفْسيرَيْهما»، وابنُ أبي عاصِمٍ[2] والطَّبرانيُّ[3] في كتابَي «السنة» لهما، والبَزَّارُ في «مُسْنَدِه»[4]، والحافظُ الضِّياءُ المَقْدِسِيُّ في «مختارتِه»[5]، من طريقِ أبي إسحاقَ السَّبِيعِيِّ، عن عبدالله بنِ خَليفةَ، عن عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: أتَت امرأةٌ إلىٰ رسول الله ﷺ، فقالتْ: ادْعُ الله أن يُدْخِلَني الجنةَ. قال: فعَظَّمَ الرَّبَّ تبارك وتعالىٰ، وقال: «**إنَّ كُرْسِيَّهُ وَسِعَ السَّمواتِ والأرْضَ، وإنَّ لَهُ أطيطًا كأطيطِ الرَّحْلِ الجَديدِ مِنْ ثِقَلِه**». عبدُ اللهِ بنُ خَليفةَ هذا ليس بذاك المشهورِ، وفي سَماعِه مِن عمرَ نَظَرٌ، ثُم منهم مَن يَرْوِيه موقوفًا ومُرْسَلًا، ومنهم مَن يَزيدُ فيه زيادةً غريبةً، واللهُ أعلمُ.

وثَبَت في «صحيحِ البُخاريِّ»[6] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا سأَلْتُمُ اللهَ الجَنَّةَ فاسْأَلُوه الفِرْدَوْسَ؛ فإنَّهُ أعْلَى الجَنَّةِ وأوْسَطُ الجَنَّةِ، وفوقَهُ عَرْشُ الرَّحْمنِ**». يُرْوىٰ: «وفَوْقَهُ» بالفتحِ علىٰ الظَّرفيةِ، وبالضَّمِّ، قال شيخُنا الحافظُ المِزِّيُّ: وهو أحسنُ، أي: وأعلاها عرشُ الرحمنِ. وقد جاء في بعضِ الآثارِ، أنَّ أهلَ الفِرْدَوْسِ يسمعونَ أطِيطَ العَرْشِ، وهو تسبيحُه وتعظيمُه، وما ذاك إلا لقُرْبِهم منه. وفي «الصَّحيحِ»[7] أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**لَقَد اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**». وذكَر الحافظ ابنُ الحافظِ، محمدُ ابنُ عثمانَ بنِ أبي شَيْبَةَ، في كتاب «صِفةِ العَرشِ» عن بعضِ السَّلَفِ، أنَّ العرشَ مخلوقٌ مِن ياقُوتَةٍ حمراءَ، بُعْدُ ما بين قُطْرَيْه مَسيرةُ خمسين ألفَ سنةٍ[8]. وذكَرْنا عندَ قوله تعالىٰ: ﴿**تَعْرُجُ الْمَلائكَةُ وَالرُّوحُ إلَيْه في يَوْمٍ كَانَ مقْدَارُهُ خَمْسينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [المعارج: ٤]. أنَّه بُعْدُ ما بين العَرشِ إلىٰ الأرضِ السَّابعةِ مَسيرةُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، وأنَّ اتِّساعَه خمسونَ ألفَ سنةٍ. وقد ذهب طائفةٌ من أهلِ الكلامِ إلىٰ أنَّ العرشَ فَلَكٌ مُسْتديرٌ مِن جميعِ جَوانبه، مُحيطٌ بالعالَمِ من كلِّ جهةٍ، ورُبَّما سَمَّوْهُ الفَلَكَ التاسعَ والفَلَكَ الأطْلَسَ والأثِيرَ. وهذا ليس بجيِّدٍ، لأنَّه قد ثبَت في الشرعِ أنَّ له قوائمَ تحملُه المَلائكةُ، والفَلَكُ لا يكونُ له قوائمُ، ولا يُحْمَلُ، وأيضًا فإنَّه فوقَ الجَنَّةِ، والجنةُ فوقَ السمواتِ، وفيها مائةُ درجةٍ، ما بين كلِّ درجَتَيْنِ كما بينَ السَّماءِ والأرْضِ، فالبُعْدُ الذي بينَه وبينَ الكُرْسِيِّ ليس هو نِسْبةَ فَلَكٍ إلىٰ فَلَكٍ، وأيضًا فإنَّ العرشَ في اللغةِ

---

(١) في «التفسير» (٣/ ١٠).
(٢) في «السنة» برقم (٥٧٥).
(٣) في «المعجم الكبير» (٢/ ١٢٨) برقم (١٥٤٧).
(٤) انظر «كشف الأستار» (٣٩).
(٥) (١/ ٢٦٣) برقم (١٥١، ١٥٢).
(٦) برقم (٢٧٩٠).
(٧) صحيح البخاري برقم (٣٨٠٣).
(٨) **ضعيف**: أخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في «كتاب العرش» برقم (٤٧)، عن أبيه وعمه أبي بكر، عن أبي أسامة، عن إسماعيل بنِ أبي خالد قال: أخبرت أن العرش ياقوتة حمراء.
وفيه جهالة مَن أخبر إسماعيل بن أبي خالد، أضف لذلك أنه من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا بوحي؛ وعليه فيكون منقطعًا.

عبارةٌ عن السَّرِيرِ الذي للمَلك، كما قال تعالىٰ: ﴿**ولَهَا عَرْشٌ عظيمٌ**﴾ [النمل: ٢٣]. وليس هو فَلَكًا ولا تَفْهَمُ منه العربُ ذلك، والقرآنُ إنَّما نَزَل بلُغَةِ العَرَب، فهو سَرِيرٌ ذو قوائمَ تحملُه الملائكةُ، وهو كالقُبَّة علىٰ العالَم، وهو سَقْفُ المخلوقات. قال تعالىٰ: ﴿**الَّذين يَحْمِلُونَ الْعَرْش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بحَمْدِ رَبِّهِم وَيُؤْمِنُونَ به وَيَسْتَغْفِرُونَ للَّذين آمَنُوا**﴾ [غافر: ٧]. وقد تَقَدَّم في حديثِ الأوْعالِ أنهم ثمانيةٌ، وفوقَ ظهورِهنَّ العرشُ، وقال تعالىٰ: ﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾ [الحاقة: ١٧]. وقال شَهْرُ بنُ حَوْشَبٍ: حَمَلَةُ العرشِ ثمانيةٌ؛ أربعةٌ منهم يقولون: سُبْحانَك اللَّهمَّ وبحمدِك، لك الحمدُ علىٰ حِلْمِك بعد عِلْمِك. وأربعةٌ يقولون: سبْحانَك اللهُمَّ وبحمدك، لك الحمدُ علىٰ عَفْوِك بعد قُدْرَتِك[1].

فأما الحديثُ الذي رواه الإمامُ أحمدُ[2]: حدثنا عبدُ الله بنُ مُحمَّدٍ، هو أبو بَكْرِ ابنُ أبي شَيْبَةَ، ثنا عبدةُ بنُ سليمانَ، عن محمدِ بنِ إسحاقَ، عن يعقوبَ بنِ عُتْبَةَ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابنِ عباسٍ، أنَّ رسول الله ﷺ صدَّق أُمَيَّةَ بنَ أبي الصَّلْتِ في شيءٍ من شِعْره، فقال:

رجُلٌ وثورٌ تحتَ رِجلِ يَمِينِه ... والنَّسْرُ للأُخرَى ولَيْثٌ مُرْصَدُ

فقال رسولُ الله ﷺ: «**صدَق**». فقال:

والشَّمْسُ تَطْلُعُ كلَّ آخرِ ليلةٍ ... حمراءَ يُصْبِحُ لونُها يَتَورَّدُ

ليستْ بطالعةٍ لهم في رِسْلِها ... إلا مُعذَّبةً وإلا تُجْلَدُ

فقال رسولُ الله ﷺ: «صدَق»[3]. فإنَّه حديثٌ صحيحُ الإسناد، رجالُه ثقاتٌ. وهو يقتضي أنَّ حَملةَ العَرْشِ اليومَ أربعةٌ، فيُعارِضُه حديثُ الأوْعَالِ، اللهم إلا أن يُقالَ: إنَّ إثْباتَ هؤلاءِ الأربعةِ علىٰ هذه الصفات لا يَنْفِي ما عداهم. واللهُ أعلمُ. ومن شِعْرِ أُمَيَّةَ ابنِ أبي الصَّلْتِ في الْعرشِ قولُه:

مَجِّدُوا اللهَ فهْو للمجدِ أهلٌ ... ربُّنَا في السماءِ أمسَى كبيرًا

بالبناءِ العالي الذي بَهَرَ النا ... سَ وسَوَّى فوقَ السماءِ سَرِيرَا

شَرْجَعًا لاَ ينالُه بَصَرُ العيـ ... ـنِ ترى حولَه الملائكَ صُورَا

صُورٌ: جمعُ أصْوَرَ، وهو المائلُ العُنقِ؛ لنظرِه إلىٰ العُلُوِّ. والشَّرْجَعُ: هو العالي المُنِيفُ. والسَّرِيرُ: هو العرشُ في اللغةِ. ومن شعرِ عبدِ اللهِ بنِ رَوَاحةَ، رضِيَ اللهُ عنه، الذي عرَّض به عنِ القراءةِ لامْرأَتِه حين اتَّهَمَتْه بجارِيته:

شَهِدتُ بأنَّ وعدَ الله حقٌّ ... وأنَّ النارَ مَثْوَى الكافرينَا

وأنَّ العرشَ فوقَ الماءِ طافٍ ... وفوقَ العرشِ ربُّ العالمينا

وتَحْمِلُه ملائكةٌ كرامٌ ... ملائكةُ الإلهِ مُسَوَّمينا

---

(١) ضعيف: ذكره المصنف في «التفسير» الآية ٧ من سورة غافر عن شهر به، وشهر صدوق كثير الإرسال والأوهام، وفيه انقطاع إذ متنه من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا بوحي. (٢) في «المسند» (١/ ٢٥٦).

(٣) ضعيف: أخرجه أحمد - كما تقدم -، وعبد الله بن أحمد في «زوائده» (١/ ٢٥٦)، والدارمي في «المسند» برقم (٢٧٠٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» برقم (٥٧٩) وغيرهم، من طريق عبدة بن سليمان به، وفيه عنعنة ابن إسحاق وهو صدوق يدلس، ولم يصرح فيه بالتحديث.

ذكَره ابنُ عبدِ البرِّ[١] ، وغيرُ واحدٍ من الأئمةِ[٢] . وقال أبو داودَ[٣] : ثنا أحمدُ بنُ حَفْصِ بنِ عبدِ الله، حدَّثني أبي، ثنا إبراهيمُ بنُ طَهْمانَ، عن موسىٰ بنِ عُقْبةَ، عن محمَّدِ بنِ المُنْكَدِرِ، عن جابرِ بنِ عبدِ الله، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«أُذنَ لي أنْ أُحدِّث عَنْ مَلَك منْ مَلائكَة الله عزَّ وَجلَّ منْ حمَلَة العَرْش، أنَّ مَا بيْنَ شَحْمَة أُذُنه إلَى عاتقه مَسيرةُ سَبْعمائَة عَامٍ»**. ورَواه ابنُ أَبي حاتمٍ، ولَفظُه: **«مَخْفقُ الطير سَبْعمائَة عَامٍ»**[٤] .

وأمَّا الكرسيُّ: فروَىٰ ابنُ جَريرٍ[٥] ، من طريقِ جُوَيْبِرٍ ـ وهو ضعيفٌ ـ عن الحَسنِ البَصْريِّ، أنه كان يقولُ: الكرسيُّ هو العرشُ. وهذا لا يصحُّ عن الحَسنِ، بل الصحيحُ عنه وعن غيرِه من الصحابةِ والتابعين، أنَّ الكرسيَّ غيرُ العَرشِ. وعن ابنِ عباسٍ، وسعيدِ بن جُبَيْرٍ، أنَّهما قالا، في قولِه تعالىٰ: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]: أي عِلْمُه[٦] . والمحفوظُ عن ابنِ عباسٍ، كما رواه الحاكمُ في «مُسْتَدْرَكِه»[٧] ـ وقال: إنَّه علىٰ شَرْط الشيخَيْن ولم يُخَرِّجاه ـ مِن طريقِ سفيانَ الثَّوْريِّ، عن عَمَّارٍ الدُّهْنِيِّ، عن مسلمٍ البطينِ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ، أنه قال: «الكُرْسِيُّ موضعُ القَدَمَيْنِ، والعرشُ لا يَقْدُرُ قَدْرَه إلا اللهُ عزَّ وجلَّ»[٨] . وقد رَواه شُجاعُ بنُ مَخْلَدٍ الفَلاَّسُ في «تفسيرِه» عن أبي عاصمٍ النَّبيلِ، عن الثَّوْرِيِّ. فجعلَه مرفوعًا، والصَّوابُ أنَّه موْقوفٌ علَىٰ ابنِ عباسٍ. وحكاه ابنُ جَرِيرٍ[٩] ، عن أبي موسىٰ الأشْعَرِيِّ، والضَحَّاكِ بنِ مُزاحِمٍ، وإسماعيلَ بنِ عبدِ الرَّحمنِ السُّدِّيِّ الكبيرِ، ومسلمٍ البطَينِ، وقال السُّدِّيُّ، عن أبي مالكٍ: الكُرْسِيُّ تحتَ العَرْشِ. وقال السُّدِّيُّ: السَّمواتُ والأرضُ في جوفِ الكرسيِّ، والكرسيُّ بين يَدَيِ العرشِ. وروَىٰ ابنُ جَريرٍ، وابنُ أبي حاتمٍ، من طريقِ الضحَّاك، عن ابنِ عباسٍ، أنه قال: لو أنَّ السَّمواتِ السبعَ والأرَضينَ السبعَ بُسِطْنَ، ثم وُصِلْنَ بعضُهنَّ إلىٰ بعضٍ، ما كُنَّ في سَعَةِ الكرسيِّ إلا بمَنْزِلةِ الحَلْقَةِ في المَفَازَةِ. وقال ابنُ جَرِيرٍ[١٠] : حدثني يونُسُ، حدثنا ابنُ وَهْبٍ، قال: قال ابنُ زيدٍ: حدثني أبي، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«مَا السَّموَاتُ السَّبعُ في الكُرسيِّ إلاَّ كَدَرَاهمَ سَبْعة أُلقيَتْ في تُرْس»**. قال: وقال أبو ذَرٍّ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: **«ما الكُرْسيُّ في العَرْش إلا كحَلَقَة منْ حَديد أُلْقيَتْ بيْن ظَهْرَيْ فَلاَة من الأرض»**. أولُ الحديثِ مُرسَلٌ. وعن أبي ذَرٍّ مُنْقَطعٌ. وقد رُوِيَ عنه من طَرِيقٍ أُخْرىٰ مَوْصُولاً، فقال الحافظُ أبو بكرِ ابنُ مَرْدَوَيْه في «تفسيرِه»: أخْبَرَنا سليمانُ بنُ أحمدَ الطَّبَرَانيُّ، أنبأنا عبدُ الله بنُ وُهَيبٍ الغَزِّي، أنا محمدُ بنُ أبي السَّرِيِّ، أنا محمدُ بنُ عبدِ الله التميميُّ، عن القاسمِ بنِ محمد الثَّقَفِيِّ، عن أبي إِدْرِيسَ الخَوْلانيِّ، عن أبي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ؛ أنه سَأَلَ رسولَ اللهِ ﷺ عن الكرْسيِّ،

---

(١) في «الاستيعاب» (٣/ ٩٠٠)، وقال: «رويناه من وجوه صحاح».
(٢) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» برقم (٨٢)، والذهبي في «السير» (١/ ٢٣٨) وغيرهما.
(٣) في «السنن» برقم (٤٧٢٧).
(٤) صحيح: أخرجه الطبراني في «الأوسط» برقم (١٧٠٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣/ ٦٠)، من طريق ابن طهمان به، وذكره العلامة الألباني رحمه الله في «الصحيحة» برقم (١٥١).
(٥) في «التفسير» (٣/ ١٠).
(٦) إسناده حسن: أخرجه الطبري في «التفسير» (٣/ ٩)، من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به. ورجاله كلهم ثقات، غير جعفر بن أبي المغيرة وهو: «صدوق يهم».
(٧) (٢/ ٢٨٢).
(٨) إسناد حسن: أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ٢٥١)، والطبري في «التفسير» (٣/ ١٠)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٥٨٢، ٥٨٤)، والحاكم ـ كما تقدم ـ من طريق عمار الدهني به، وعمار الدهني صدوق، وبقية رجاله ثقات.
(٩) انظر «تفسيره» (٣/ ٩، ١٠).
(١٠) في «تفسيره» (٣/ ١٠).

فقال رسولُ الله ﷺ: «**والذي نَفسي بِيَدِه ما السَّمَواتُ السَّبعُ والأَرَضُونَ السَّبعُ عِنْدَ الكُرْسِيِّ إلا كَحلقةٍ ملْقَاةٍ بأرضِ فَلاة، وإنَّ فَضْلَ العَرْشِ على الكُرْسِيِّ كَفَضلِ الفَلاَةِ على تلكَ الحَلْقَة**»(١).

وقال ابنُ جَرير في «تاريخه»(٢): حدثنا ابنُ وكِيعٍ، قال: حدثنا أبي، عن سفيَانَ، عن الأَعْمَشِ، عن المِنْهالِ بنِ عَمرٍو، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، قال: سُئِلَ ابنُ عباسٍ عن قولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾ [هود: ٧]: على أيِّ شيءٍ كانَ الماءُ؟ قال: على مَتْنِ الريحِ. قال: والسَّمواتُ والأَرَضُونَ، وكلُّ ما فيهنَّ مِنْ شيءٍ تُحيطُ بها البِحَارُ، ويُحيطُ بذلك كُله الهَيْكَلُ ويُحيطُ بالهَيْكَلِ - فيما قيل - الكرسِيُّ. ورَوَىٰ عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ نحوَهَ(٣). وفَسَّرَ وهبٌ الهيكلَ فقال: شيءٌ من أطْرافِ السَّموات مُحْدقٌ بالأرضِينَ والبحارِ كأطْنَابِ الفُسْطَاطِ. وقد زعَمَ بعضُ من يَنْتَسِبُ إلىٰ علْمِ الهَيْئةِ أنَّ الكُرْسِيَّ عبارَةٌ عنِ الفَلَكِ الثامنِ الذي يُسَمُّونَه «فَلَكَ الكَواكبِ الثَّوابتِ». وفيما زَعَموه نَظَرٌ؛ لأنَّه قد ثَبَتَ أنَّه أعْظَمُ من السَّمواتِ السَّبْعِ بشيءٍ كَثيرٍ، كما ورد به الحديثُ المتقدِّمُ، أن نسبَتَها إليه كنسْبَةِ حَلْقةٍ مُلْقَاةٍ بأرضٍ فَلاَة. وهذا ليس نسبةَ فَلَكٍ إلىٰ فَلَكٍ. فإنْ قال قائِلُهم: نحن نعتَرِفُ بذلك ونُسَمِّيه مع ذلك فَلَكًا. فنقولُ: الكُرْسِيُّ ليس في اللغة عبَارةً عن الفلك، وإنما هو، كما قال غيرُ واحدٍ من السَّلَفِ: إنَّ الكرسيَّ بين يَدَيِ العَرْشِ كالمِرْقَاة إليه. ومِثْلُ هذا لا يكُونُ فَلَكًا. ومَن زَعَم منهم أنَّ الكواكبَ الثوابتَ مُرَصَّعةٌ فيه فقد قال ما لا يعلمُ، ولا دَليلَ عليه. هذا مَعَ اخْتِلافِهِم في ذلك أيضًا؛ كَما هُو مُقَرَّرٌ في كُتُبِهم، واللهُ أعلمُ.

فصلٌ
في ذِكرِ اللَّوحِ المحفُوظِ

قال الحافظُ أبو القاسم الطَّبَرانيُّ(٤): حدثنا محمدُ بنُ عُثْمانَ بنِ أبي شَيْبَةَ، ثنا منجابُ بنُ الحَارِثِ، ثنا إبراهيمُ بنُ يُوسُفَ، ثنا زِيَادُ بنُ عبدِ الله، عن لَيْثٍ، عن عبدِ المَلِكِ بنِ سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن أبيه، عن ابنِ عباسٍ، أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا من دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، صَفَحَاتُها من ياقُوتَةٍ حَمْراءَ، قَلَمُه نورٌ، وكتابُه نورٌ، لله فيه في كُلِّ يَومٍ ستُّونَ وثَلاثُمائة لَحظَة، يَخْلُقُ ويرزُقُ، ويُميتُ ويُحْيِي، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويَفعَلُ ما يَشَاءُ**»(٥) وقال إسْحَاقُ بنُ بِشْرٍ: أخبرني مُقَاتِلٌ وابنُ جُرَيْجٍ، عن مُجاهِدٍ، عن ابنِ عباسٍ قال: إنّ في صَدْرِ اللَّوحِ: لا إلهَ إلا اللهُ وحْدَه، دينُه الإسلامُ، ومحمدٌ عبدُه ورسولُه، فَمَنْ آمَنَ بالله وصَدَّقَ بِوَعْدِه واتَّبعَ رُسُلَه، أَدْخَلَه الجَنَّةَ. قال: واللَّوْحُ لَوْحٌ مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، طُولُه ما بينَ السَّماءِ والأَرْضِ، وعَرْضُه ما بين المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، وحافَّتاه الدُّرُّ والياقُوتُ، ودَفَّتاهُ ياقُوتَةٌ حَمْرَاءُ، وقلمُه نورٌ، وكلامُه مَعْقُودٌ بالعَرْشِ، وأصْلُه في حِجْرِ مَلَكٍ(٦). وقال أنسُ بنُ مَالك، وغَيْرُه مِنَ السلفِ: اللَّوْحُ

---

(١) **إسناده ضعيف**: فيه عبد اللَّه بن وهيب، لم أقف على ترجمته، والعسقلاني: صدوق له أوهام كثيرة، ومحمد بن عبد اللَّه التميمي: مجهول. والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه اللَّه في «الصحيحة» برقم (١٠٩).

(٢) (١/ ٣٣). (٣) انظر «تاريخ الطبري» (١/ ٣٣). (٤) في «الكبير» (١٢/ ٧٢) برقم (١١٢٥١١).

(٥) **ضعيف**: أخرجه الطبراني في «الكبير»، عزاه له السيوطي في «الجامع الصغير» (١/ ١٠٨) برقم (١٧٣٧) ورمز له بالحسن، وفي الإسناد ليث بن أبي سليم: ضعيف، وإبراهيم بن يوسف، وزياد بن عبد اللَّه لم أعرفهما، ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة متكلم فيه.

(٦) **ضعيف جدًا**: في إسناده إسحاق بن بشر أبو حذيفة البخاري، ترجم له الذهبي في «الميزان» (١/ ١٨٤) وقال: تركوه، وكذبه علي بن المديني، وقال ابن حبان: لا يحل حديثه إلا على جهة التعجب، وقال الدارقطني: كذاب متروك.

المحفُوظُ في جَبْهَةِ إسْرَافيلَ. وقال مُقَاتِلٌ: هو عَنْ يَمِينِ العَرْشِ.

بَابُ ما وردَ في خلقِ السمواتِ والأرْضِ وما بينهما

قال اللهُ تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأنعام: ١]. وقال تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**﴾ [الأعراف: ٥٤]. في غيرِ ما آيةٍ من القرآنِ. وقد اختلَفَ المفَسِّرون في مقدارِ هذه السِّتةِ الأيامِ على قَوْلَيْنِ، فالجُمْهورُ على أنَّها كأيامِنَا هذه. وعن ابنِ عبَّاسٍ، ومُجَاهِدٍ، والضَّحَّاك، وكَعْبِ الأَحْبَارِ: أنَّ كُلَّ يومٍ منها كألْفِ سَنَةٍ مما تَعُدُّون. رواهُن ابنُ جَرِيرٍ[1]، وابنُ أبي حَاتِم. واخْتَارَ هذا القَوْلَ الإمامُ أحمدُ بنُ حَنْبَلٍ في كتابِه الذي رَدَّ فيه على الجَهْمِيَّةِ، واختاره ابنُ جَرِيرٍ وطائفَةٌ مِنَ المُتَأَخِّرين، واللهُ أعلمُ. وسيأتي ما يَدُلُّ عَلَى هذا القَوْلِ. وروَى ابنُ جَرِيرٍ[2] عن الضحَّاكِ بنِ مُزَاحِمٍ وغَيْرِه أنّ أسْماءَ الأيامِ السِّتَّةِ: أَبْجَدْ هَوَّزْ حطِّي كَلَمُنْ سَعْفَصْ قَرَشَتْ.

وحكَى ابنُ جريرٍ[3] في أول الأيامِ ثلاثةَ أقوالٍ؛ فَرَوَى عَنْ محمدِ بنِ إسْحاقَ أنَّه قال: يَقُولُ أهلُ التَّوراة: ابْتَدَأَ اللهُ الخَلْقَ يومَ الأَحدِ. ويَقُولُ أهلُ الإنْجِيلِ: ابْتَدَأَ اللهُ الخَلْقَ يومَ الإثْنَيْنِ. ونَقُولُ نَحْنُ المسلمون، فيما انْتَهَى إلَيْنَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ: ابْتَدَأَ اللهُ الخَلْقَ يومَ السَّبْتِ. وهذا القَوْلُ الذي حكَاه ابنُ إسحَاقَ عنِ المُسْلمينَ مَالَ إليه طَائفَةٌ مِنَ الفُقَهَاءِ، من الشَّافعيَّةِ وغَيْرِهم. وَسَيَأْتِي فيه حَديثُ أبي هُرَيْرَةَ: «**خَلَقَ اللهُ التُّربَةَ يومَ السَّبْتِ**»[4]. والقَوْلُ بِأَنَّه الأحَدُ رَوَاه ابنُ جَريرٍ[5] عنِ السُّدِّيِّ عَنْ أبي مالكٍ وأبي صَالحٍ، عَن ابنِ عبَّاسٍ، وعن مُرَّةَ، عن ابنِ مسعُودٍ، وعَنْ جَماعَةٍ منَ الصَّحابة، ورَوَاهُ أيضًا عَنْ عبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ. واختاره ابنُ جَريرٍ[6]. وهو نَصُّ التَّوْرَاة، ومَالَ إليه طَائفَةٌ آخَرُونَ من الفُقَهَاءِ، وهو أشْبَهُ باشْتقاقِ لفظِ الأحَدِ، ولهذَا كَمَلَ الخَلْقُ في ستَّةِ أيامٍ، فكَانَ آخِرُهُنَّ الجُمُعَةَ، فاتَّخَذَه المُسْلمون عيدَهم في الأسْبوعِ، وهو اليَوْمُ الذي أَضَلَّ اللهُ عنه أَهْلَ الكتابِ قبْلَنا، كما سيَأْتِي بيانُه إنْ شاءَ اللهُ. وقَالَ تَعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ [فصلت: ٩-١٢]. فَهَذا يَدُلُّ على أَنَّ الأَرْضَ خُلقَتْ قَبْلَ السَّماءِ؛ لأَنَّها كالأَسَاسِ للبِنَاء؛ كما قَالَ تَعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [غافر: ٦٤]. وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا**﴾ إلى أن قال: ﴿**وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا**﴾ [النبأ: ٦-١٣]. وقَال: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٠]. أَيْ فصَلْنا ما بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ حتَّى هَبَّتِ الرِّياحُ، ونَزَلَتِ الأمْطَارُ،

---

(١) في «التاريخ» (١/ ٥٩).
(٢) في «التاريخ» (١/ ٤٢).
(٣) في «التاريخ» (١/ ٤٤).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٧٨٩).
(٥) في «التاريخ» (١/ ٤٧).
(٦) كما في «التاريخ» (١/ ٤٥).

وجَرَتِ العُيُونُ والأنهارُ، وانتَعَش الحَيَوانُ. ثُمَّ قال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الانبياء: ٣٢]. أي عمَّا خُلِقَ فيها مِن الكَوَاكِبِ الثَّوابِتِ، والسَّيَّارَاتِ والنُّجُومِ الزَّاهِرَاتِ، والأَجْرَامِ النَّيِّرَاتِ، وما فِي ذَلَك من الدَّلَالَاتِ علَى حِكْمَةِ خَالِقِ الأَرضِ والسَّموات، كما قَالَ تَعالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦]. فأمَّا قولُه تعالَى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٢]. فَقَدْ تمسَّكَ بَعْضُ النَّاسِ بهذه الآيةِ على تَقَدُّمِ خَلْقِ السماء على خَلْقِ الأَرْضِ. فَخَالَفُوا صَرِيحَ الآيَتَيْنِ المتقدِّمَتَيْن، ولَمْ يَفْهَموا هذه الآيَةَ الكَرِيمَةَ، فإنَّ مُقْتَضَى هَذه الآيَةِ أَنَّ دَحْيَ الأَرْضِ، وإِخْرَاجَ المَاءِ والمَرْعَى منها بالفعْل، بَعْدَ خَلْقِ السماء، وقَدْ كانَ ذلك مُقَدَّرًا فيها بالقُوَّة، كما قَالَ تعالَى: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١٠]. أيْ هَيَّأَ أَماكِنَ الزَّرْعِ ومَواضعَ العُيُونِ والأَنهارِ، ثمَّ لَمَّا أَكملَ خَلْقَ صُورَةَ العالَمِ السُّفْليِّ والعُلْويِّ دَحَى الأَرْضَ؛ فَأَخْرَجَ مِنها ما كان مُودَعًا فيها، فَخَرَجَتِ العُيُونُ، وَجَرَتِ الأَنْهارُ ونَبَتَتِ الزُّروعُ والثِّمارُ، ولهذا فَسَّرَ الدَّحْيَ بإخْراجِ الماءِ والمَرْعَى منها وإِرْسَاءِ الجِبالِ، فَقَالَ: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾. وقولُه: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾. أي قَرَّرها في أَماكِنها التي وَضعَها فيها وثبَّتها، وأكَّدَها وأطَّدَها. وقَوْلُه: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧-٤٩]. بأَيْدٍ: أَيْ بِقُوَّةٍ. وإنَّا لَمُوسِعُون؛ وذلك أَنَّ كُلَّ ما علا اتَّسَع، فَكُلُّ سَماءٍ أعْلَى مِنَ التي تَحْتَها، فَهِيَ أَوْسَعُ مِنْها. ولِهذَا كَانَ الكُرْسِيُّ أَعْلَى مِنَ السَّموات، وهُوَ أَوْسَعُ مِنهُنَّ كُلِّهِنَّ. والعَرْشُ أَعْظَمُ مِنْ ذلك كلِّه بِكَثِيرٍ. وقولُه بعد هذا: ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾. أيْ بَسَطْنَاها وجعَلْناها مَهْدًا؛ أَيْ قَارَّةً ساكِنَةً، غَيْرَ مُضْطَرِبةٍ ولا مَائِدةٍ بِكُم. ولهذا قَال: ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾والواوُ لا تَقْتَضي التَرْتِيبَ في الوُقُوعِ. وإنما تَقْتَضِي الإِخْبَارَ المُطْلَقَ في اللُّغةِ، واللهُ أعلمُ.

وقال البُخَاريُّ(١): حَدَّثنا عمرُ بنُ حَفْصِ بنِ غِيَاثٍ، حدثنا أبي، حَدَّثنا الأَعْمَشُ، حَدَّثنا جَامعُ ابنُ شَدَّادٍ، عن صَفْوانَ بنِ مُحْرِزٍ، أَنّه حَدَّثَه عن عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ، قَال: دَخَلْتُ عَلَى النَّبيِّ ﷺ وعَقَلْتُ ناقَتِي بالباب، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَميمٍ، فَقَالَ: «**اقْبَلُوا البُشْرَى يَا بَنِي تَمِيم**». قالوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا. مرَّتَيْنِ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْه نَاسٌ مِنَ اليَمَنِ، فَقَالَ: «**اقْبَلُوا البُشْرَى يا أَهْلَ اليَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيم**». قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا يا رَسُولَ الله. قالوا: جِئْناكَ نَسأَلُكَ عن هذا الأَمْرِ. قال: «**كَانَ اللهُ ولم يَكنْ شَيءٌ غَيْرُهُ، وكان عَرْشُهُ علَى الماء، وَكَتَبَ في الذِّكْر كُلَّ شَيء، وخَلَقَ السَّموات والأرضَ**». فَنَادَى مُنَادٍ: ذَهَبَت نَاقَتُكَ يا بنَ الحُصَيْنِ. فَانْطَلَقْتُ فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دونَها السَّرابُ، فوَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُها». هكَذا رَواه هَا هنا. وَقَدْ رَواهُ في كِتَابِ المَغَازِي (٢)، وكِتَابِ التَّوْحِيدِ (٣)، وفي بَعْضِ أَلْفَاظِه:

---

(١) في «الصحيح» برقم (٣١٩١).
(٢) برقم (٤٣٦٠).
(٣) برقم (٧٤١٨).

«ثُمّ خَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ». وهُوَ لَفْظُ النَّسائي[١] أَيْضًا.

وَقَالَ الإِمَامُ أحمدُ[٢]: حدثنا حَجَّاجُ، حَدَّثني ابنُ جُرَيْجٍ، أَخْبَرَني إِسْمَاعيلُ بنُ أُمَيَّةَ، عن أَيُّوبَ بنِ خَالد، عن عَبْد اللهِ بنِ رَافعٍ مَوْلَىٰ أُمّ سَلَمَةَ، عن أَبِي هريرة، قال: أَخذَ رَسُولُ الله ﷺ بيَدِي، فَقَالَ: «**خَلَقَ اللهُ التُّرْبَةَ يَومَ السَّبْت، وَخَلَقَ الجِبَالَ فيها يَوْمَ الأَحَد، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فيها يومَ الإِثْنَيْن، وَخَلَقَ المَكْرُوه يَوْمَ الثُّلاثَاء، وَخَلَقَ النُّور يَوْمَ الأَرْبعَاء، وبَثَّ فيها الدَّوَابَّ يَومَ الخَميس، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ العَصْرِ يوم الجُمُعَة، آخرَ الخَلْق في آخر سَاعَة منْ ساعات الجُمُعَة فيما بَينَ العَصْرِ إِلَى اللَّيْل**». وهكذا رَوَاه مُسْلِمٌ[٣]، عَنْ [شُرَيْحٍ][*] بنِ يُونُس وهَارُونَ بنِ عَبد الله والنَّسَائيُّ[٤]، عَنْ هَارُونَ ويُوسُفَ بنِ سَعيدٍ، ثَلاثَتُهم، عَن حَجَّاجِ بنِ مُحمَّد المِصِّيصيِّ الأَعْوَرِ، عن ابنِ جُرَيْجٍ به مثْلُه سواءٌ. وقد رواه النَّسَائِيُّ في التَّفْسير[٥] عن إِبراهيمَ بنِ يَعْقُوبَ الجُوزْجَانيِّ، عن محمد بنِ الصَّبَّاح، عن أبي عَبيدَةَ الحَدَّاد، عنِ الأخضَرِ بنِ عَجْلانَ، عن ابن جُرَيْجٍ، عن عَطاءِ بن أبي رَبَاحٍ، عن أبي هُرَيرَة، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَخذَ بيَدي، فقَالَ: «**يا أَبَا هُرَيْرَة، إِنَّ اللهَ خَلَقَ السَّموات والأَرضين وَمَا بَيْنَهُمَا في ستَّة أَيَّام، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَوْمَ السَّابع، وَخَلَقَ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْت**». وذَكَر تَمامَه بنَحْوِه، فَقَد اخْتُلفَ فيه عَلَىٰ ابنِ جُرَيْجٍ. وقَدْ تَكلَّم في هذا الحَديث عَليُّ بنُ المَدينيِّ، والبُخَاريُّ، والبَيْهَقيُّ، وغيرُهم من الحُفَّاظ.

قال البُخَارِيُّ في «التَّاريخ»[٦]: وقَالَ بَعْضُهم: عَنْ كَعْبٍ وهُو أَصَحُّ. يَعْنِي أَنّ هَذَا الحَديثَ مما سَمعَهُ أَبو هُرَيْرَةَ وتَلَقَّاهُ من كَعْبَ الأَحْبَار، فَإِنَّهُما كانَا يَصْطَحبَان ويَتَجَالَسَان للحَديث، فهذا يُحَدِّثُه عن صُحُفه، وهذا يُحَدِّثُه بما يُصدِّقُه عَن النَّبيِّ ﷺ، فكَانَ هَذَا الحَديثُ ممَّا تَلَقَّاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ عن كَعْبٍ عن صُحُفه، فوَهمَ بَعْضُ الرُّوَاة فَجعلَه مَرفُوعًا إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، وأَكَّدَ رَفْعَه بقَولِه: أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ بيَدي. ثُمّ في مَتْنه غَرَابَةٌ شَديدَةٌ؛ فَمنْ ذَلك، أَنَّه لَيسَ فيه ذكْر خَلْق السَّموات، وفيه ذكْرُ خَلْقِ الأرضِ ومَا فيها في سَبْعة أيَّامٍ، وهذا خلَافُ القُرْآن؛ لأَنَّ الأرضَ خُلقَتْ في أَرْبعَة أيَّامٍ، ثُمَّ خُلقَت السَّمواتُ في يَوْمَيْنِ من دُخَانٍ، وهو بُخَارُ المَاء الذي ارْتفعَ حينَ اضْطَربَ الماءُ العظيمُ الذي خَلَقَ من زَبَده الأَرْضَ بالقُدْرَة العَظيمة البَالغَة؛ كما قَالَ إسْمَاعيلُ بنُ عبد الرحمنِ السُّدِّيُّ الكَبيرُ في خَبَرٍ ذَكَره عن أبي مَالك، وعن أبي صَالح، عن ابنِ عَبَّاسٍ، وعن مُرَّةَ الهَمْدَانيِّ، عن ابنِ مَسعودٍ، وعن نَاسٍ من أَصْحاب رسول الله ﷺ في قوله: ﴿**هُوَ الَّذي خَلَقَ لَكُم مَّا في الأَرْضِ جميعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَات وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٩]. قالوا: إنَّ اللهَ كان عَرْشُه علىٰ الماء، ولم يَخْلُقْ شيئًا مما خلَقَ قَبْلَ الماء، فَلَمّا أَرادَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ، أَخرجَ من الماء دُخَانًا، فارتَفع فَوْقَ الماءِ، فَسَمَا عَلَيْه، فَسَمَّاه سَمَاءً، ثُمّ أَيْبَسَ المَاءَ فَجَعَلَه أَرْضًا واحدةً، ثم فَتقَها، فجَعَلَ سَبْعَ أَرَضينَ في يَوْمين - الأحدِ والإِثْنَين - وَخلَقَ الأَرْضَ علَىٰ حُوتٍ؛ وهُو النُّونُ الذي قَالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿**نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ [القلم: ١]. والحُوتُ في المَاءِ، والماءُ علىٰ صَفَاةٍ، والصَّفَاةُ علىٰ ظَهْرِ مَلَكٍ، والمَلَكُ علىٰ

---

(١) عزاه له الحافظ المزي في «تحفة الأشراف» (٨/ ١٨٣) فقال: «س في التفسير (في الكبرىٰ) عن محمد بن عبد الأعلىٰ، عن خالد ابن الحارث، عن عبد الرحمن المسعودي، عن جامع بن شداد - ببعضه: «كان الله ولا شيء غيره، وكان عرشه علىٰ الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق سبع سموات» حديث س ليس في الرواية ولم يذكره أبو القاسم. اهـ.

(٢) في «المسند» (٢/ ٣٢٧).
(٣) في «الصحيح» برقم (٢٧٨٩).
(*) ما بين المعقوفين خطأ، وصوابه «سريج».

(٤) في «السنن الكبرىٰ» (٦/ ٢٩٣).
(٥) في «السنن الكبرىٰ» (٦/ ٤٢٧).
(٦) «الكبير» (١/ ١/ ٤١٤).

صَخْرَةٍ، والصَّخرةُ في الرِّيحِ؛ وهي الصَّخْرةُ التي ذَكَر لُقْمانُ، ليست في السَّماء، ولا في الأَرْضِ، فَتحرَّكَ الحُوتُ فاضْطَرب، فَتَزلْزَلَت الأَرْضُ، فَأَرْسَىٰ عَلَيْها الجِبالَ فَقرَّت. وخَلَق اللهُ يومَ الثُّلاثَاء الجِبالَ وما فيهنَّ مِنَ المَنَافعِ، وخَلق يومَ الأرْبعاء الشَّجَرَ والماءَ والمَدائنَ والعُمْرانَ والخَرابَ وفَتقَ السَّماءَ، وكانَت رَتْقًا فَجَعلها سَبْعَ سَمَواتٍ في يَوْمين ـ الخَميسِ والجُمُعة ـ وإنَّما سُمِّيَ يومَ الجُمُعةِ؛ لأنه جَمَع فيه خَلْقَ السَّمَوات والأَرْضِ، وَأَوحىٰ في كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها. ثُمَّ قال: خلَق في كلِّ سَماءٍ خَلْقَها، منَ الملائكَة والبحارِ وجبَال البَرَد، ومَا لا يَعْلَمُه غَيْرُه، ثم زَيَّنَ السماءَ بالكَواكبِ، فَجعلَهَا زينَةً وحفْظًا، تُحْفَظُ منَ الشَّيَاطينِ، فَلمَّا فرَغَ منْ خلْق ما أَحَبّ، استَوىٰ علَىٰ العَرْشِ[1] وهذا الإسْنادُ يَذْكُرُ به السُّدِّيُّ أشْيَاءَ كثيرةً فيها غرَابَةٌ، وكان كَثيرٌ منْهَا مُتلَقًّى من الإسْرائيليَّات؛ فَإنَّ كَعْبَ الأَحْبَارِ لَمّا أَسْلَم في زَمَنِ عُمَرَ، كَانَ يَتحدَّثُ بَيْنَ يَدَيْ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب، رَضيَ اللهُ عنه، بأشْيَاءَ من عُلُومِ أَهْلِ الكتَاب، فَيَسْتَمعُ لهُ عُمَرُ تَأْليفًا له، وتَعَجُّبًا مِمَّا عنْدَه، ممّا يُوافقُ كَثيرٌ منْه الحَقَّ الذي وَرَدَ به الشَّرْعُ المُطَهَّرُ، فاسْتَجازَ كَثيرٌ منَ النَّاسِ نَقْلَ ما يُورِدُه كَعْبُ الأَحْبَارِ؛ لهَذَا المعنَىٰ، ولمَا جَاءَ منَ الإذْنِ في التَّحْديث عَنْ بَني إسْرائيلَ، لَكن كَثيراً ما يَقعُ فيما يرْويه غَلَطٌ وليس منْه، ولكنَّه منَ الكُتُبِ التي ينقُلُ عنها؛ لأنَّها قد دَخلها غَلَطٌ كَبيرٌ وخَطَأٌ كَثيرٌ. وقَدْ رَوَىٰ البُخَاريُّ في «صَحيحه»[2] عن مُعَاويَةَ بنِ أبي سفيانَ، أَنَّه كَانَ يَقُولُ في كَعْبِ الأَحْبَارِ: وإنْ كُنّا مع ذَلك لَنَبْلُو عليه الكَذبَ. أيْ فيما ينقُلُه، لا أَنْه يَتَعمَّدُ ذَلك، والله أَعْلَمُ. ونحن نُوردُ ما نُوردُه منَ الذي يَسُوقُه كَثيرٌ منْ كبَارِ الأئمَّة المُتَقدِّمين عَنْهم، ثُمّ نُتْبعُ ذَلك منَ الأَحَاديث بمَا يَشْهَدُ لَه بالصِّحَة، أو يُكَذِّبُه، ويَبْقَىٰ البَاقي ممَّا لا يُصَدَّقُ ولا يُكَذَّبُ، وبالله المُسْتَعَانُ وعليه التُّكْلانُ.

قال البُخَاريُّ[3]: حَدَّثنا قُتَيْبَةُ، حدَّثنا مُغيرَةُ بنُ عبدِ الرحمنِ القُرَشِيُّ، عن أبي الزِّناد، عن الأَعْرَجِ، عن أبي هُرَيرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ، كَتَبَ في كِتابه، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إنَّ رَحْمَتي غَلَبَتْ غَضَبي**». وكَذا رَوَاهُ مُسْلِمٌ[4]، والنَّسائيُّ[5]، عن قُتَيْبَةَ به.

ثُمَّ قَالَ البُخَاريُّ[6]: بابُ مَا جَاء في سَبْعِ أرَضينَ، وَقَوله تعالىٰ: ﴿**اللَّهُ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [الطلاق: ١٢]. ثُم قَال: حَدَّثنا عَليُّ بنُ عبدِ الله، أَخْبَرَنا ابنُ عُلَيَّةَ، عن عليِّ بنِ المُبارَك، حَدَّثنا يَحْيَىٰ بنُ أبي كَثيرٍ، عن محمَّد بنِ إبْرَاهيمَ بنِ الحارث، عن أبي سَلَمَة بنِ عبدِ الرَّحمنِ، وكانَتْ بَيْنَه وبينَ أُناسٍ خُصُومَةٌ في أرْضٍ، فَدخلَ علَىٰ عَائشَةَ فَذكرَ لَها ذلك، فَقَالَتْ: يا أَبَا سَلَمة، اجْتَنب الأَرْضَ، فَإنّ رَسُولَ الله ﷺ قَال: «**مَنْ ظَلَمَ قيدَ شِبْرٍ طُوِّقَهُ من سَبْعِ أَرَضينَ**»[7]. ورَوَاه أَيْضًا في كِتَابِ المَظَالمِ[8]، ومُسْلمٌ[9] من طُرُقٍ عَنْ يَحْيَىٰ بنِ أَبي كَثيرٍ به، وَرَواه أَحْمدُ[10] من حَديث محمدِ بنِ إبراهيمَ، عن أبي سَلَمَةَ به، ورواه أحمدُ[11] أيضًا عن يُونُسَ، عن أبانَ، عَنْ يَحْيَىٰ بنِ أبي كَثيرٍ، عن أبي سَلَمَةَ، عن عائشَةَ بمثله.

---

(١) ضعيف وقد تقدم. (٢) برقم (٧٣٦١). (٣) برقم (٣١٩٤). (٤) برقم (٢٧٥١).
(٥) في «الكبرىٰ» برقم (٧٧٥٠). (٦) في كتاب بدء الخلق ـ باب ما جاء في سبع أرضين. (٧) رواه البخاري برقم (٣١٩٥).
(٨) برقم (٢٤٥٣). (٩) في «الصحيح» برقم (١٦١٢). (١٠) في «المسند» (٦/ ٧٩). (١١) في «المسند» (٦/ ٦٤).

ثم قال البخاري[١]: حدَّثنا بِشْرُ بنُ محمدٍ، قال: أخبرنا عَبْدُ الله، عَنْ موسىٰ بنِ عُقْبَةَ، عن سَالمٍ، عَن أبيه، قال: قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ أخَذَ شيئًا من الأرْضِ بغيرِ حقِّه، خُسِفَ به يومَ القيامَةِ إلى سَبْعِ أرَضين**». ورواه في المَظالِمِ[٢] أيضًا عن مُسْلمِ بن إبراهيمَ، عن عبدِ الله، هو ابنُ المُبارك، عن موسىٰ بنِ عُقْبَةَ به، وهو من أفْرادِه.

وذكر البُخاريُّ[٣] ها هنا حَديثَ محمَّدِ بنِ سيرينَ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ أبي بَكْرَةَ، عن أبيه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهيئَته يومَ خَلَقَ اللهُ السَّموات والأرْضَ، السَّنَةُ اثْنا عشرَ شهرًا**». الحَديثَ. ومُرادُه، واللهُ أعلمُ، تَقْريرُ معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**﴾ [الطلاق: ١٢]. أيْ في العَدَدِ؛ كَما أنَّ عدةَ الشُّهُورِ الآنَ اثْنا عَشَرَ، مُطَابقَةً لعدَّةِ الشُّهُورِ عِنْدَ الله عزَّ وجلَّ في كتَابِه الأوَّل، فهذه مطَابَقَةٌ في الزَّمانِ، كما أنَّ تلْك مُطَابقَةٌ في المَكَان.

ثُمَّ قَال البُخَاري[٤]: حَدَّثنا عُبَيْدُ بنُ إسْماعيلَ، حَدَّثنا أبو أُسامةَ، عن هِشامٍ، عن أَبِيه، عن سَعيدِ ابنِ زيدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ، أنَّه خاصَمَتْه أرْوىٰ في حَقٍّ زَعَمتْ أنه انْتَقَصَه لهَا إلىٰ مَروانَ، فقال سَعيدٌ، رضي اللهُ عنه: أنَا أنْتَقصُ من حقِّها شيْئًا؟ أشهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقولُ: «**مَنْ أخَذَ شبْرًا من الأرْضِ ظُلْمًا، فإنَّه يُطَوَّقُهُ يومَ القيامَةِ منْ سَبْعِ أرَضينَ**».

وقَال الإمَامُ أحمدُ[٥]: حدَّثنا حسنٌ وأبو سَعيدٍ مَوْلَىٰ بَني هَاشِمٍ، حَدَّثنا عبدُ الله بنُ لَهيعَةَ، حَدَّثنا عُبَيْدُ الله بنُ أبي جَعْفَرٍ، عن أبي عبدِ الرحمنِ الحُبُليِّ، عن ابن مَسْعودٍ، قال: قُلْتُ: يا رَسُولَ الله، أيُّ الظُّلْمِ أعظَمُ؟ قَالَ: «**ذراعٌ من الأرْضِ يَنْتَقِصُه المَرْءُ المُسْلمُ منْ حَقِّ أخيه، فَلَيْسَ حَصَاةٌ من الأرْضِ يأخُذُها أحدٌ إلا طُوِّقَها يَوْمَ القيامَةِ إلى قَعْرِ الأرْضِ، ولا يَعْلَمُ قَعْرَها إلا الذي خَلَقَها**». تفَرَّدَ به أحمدُ، وهَذا إسْنَادٌ لا بَأسَ به. وقالَ الإمامُ أحمدُ[٦]: حَدَّثنا عفَّانُ، حَدَّثنا وُهَيْبٌ، حَدَّثنا سُهَيْلٌ، عن أَبِيه، عَنْ أبي هُرَيرةَ، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «**مَنْ أخَذَ شبْرًا منَ الأرْضِ بغَيْرِ حقِّه، طُوِّقَهُ منْ سَبْعِ أرَضينَ**». تَفَرَّدَ به أيضًا من هَذا الوَجْه، وهُوَ علىٰ شَرْطِ مُسْلمٍ. وقَال أحمدُ[٧]: حَدَّثَنا يَحيىٰ، عن ابنِ عَجْلانَ، حَدَّثني أَبي، عَنْ أبي هُرَيرةَ، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَن اقْتَطَعَ شبْرًا منَ الأرْضِ بغيْرِ حقِّه طُوِّقَهُ يومَ القيامة إلى سَبْعِ أرَضينَ**». تَفَرَّدَ به أيْضًا، وهُوَ علىٰ شَرْطِ مُسْلمٍ. وقَال أحمدُ أيضًا[٨]: حَدَّثنا عفَّانُ، حَدَّثنا أبو عَوانَةَ، عَنْ عُمَرَ بنِ أبي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيه، عَن أبي هريرةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ أخَذَ من الأرْضِ شبْرًا بغيرِ حقِّه، طُوِّقَهُ منْ سَبْعِ أرَضينَ**». تَفَرَّدَ به أَيْضًا. وقد رَواه الطَبَرانيُّ[٩] مِنْ حَديثِ مُعَاويةَ بنِ قُرَّةَ، عَن ابنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا مثْلَه.

فَهَذِه الأَحاديثُ كالمُتَواترةِ في إثْباتِ سَبْعِ أرَضِينَ، والمُرادُ بذلك أنَّ كُلَّ واحدَةٍ فَوْقَ الأُخْرىٰ، والتي تَحْتَها في وَسَطِها، عند أَهْلِ الهَيْئَةِ، حتىٰ يَنْتَهِيَ الأَمْرُ إلىٰ السابِعةِ، وهي صَمَّاءُ لا جَوْفَ لها، وفي وَسَطِها

---

(١) في «الصحيح» برقم (٣١٩٦). (٢) برقم (٢٤٥٤). (٣) في «الصحيح» برقم (٣١٩٧).
(٤) في «الصحيح» برقم (٣١٩٨). (٥) في «المسند» (١/ ٣٩٦، ٣٩٧)، وفي إسناده عبد الله بن لهيعة «ضعيف».
(٦) في «المسند» (٢/ ٣٨٨). (٧) في «المسند» (٢/ ٤٣٢). (٨) في «المسند» (٢/ ٣٨٧).
(٩) في الكبير» (١٢/ ٢١١) برقم (١٢٩٢١).
قال الهيثمي في المجمع» (٤/ ١٧٥): رواه الطبراني في «الكبير» وفيه محمد بن الفضل بن عطية، وهو متروك كذاب.

المَرْكزُ، وهو نُقطةٌ مُقدَّرةٌ مُتوهَّمةٌ، وهو محطُّ الأثقال، إليه ينتهي ما يهبطُ من كُلِّ جانبٍ إذا لم يُعاوِقه مانعٌ. واختلفوا: هل هُنَّ متراكماتٌ بلا تفاصُلٍ، أو بين كُلِّ واحدةٍ والتي تليها خلاءٌ؟ على قولين. وهذا الخلافُ جارٍ في الأفلاك أيضًا. والظاهرُ أنّ بين كُلِّ واحدةٍ منهُنّ وبين الأخرى مسافةً؛ لظاهرِ قولِه تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ الآية [الطلاق: ١٢].

وقال الإمامُ أحمدُ[1]: حدّثنا سُرَيجٌ، حدثنا الحكمُ بنُ عبدِ الملك، عن قتادةَ، عن الحسنِ، عن أبي هريرةَ، قال: بينا نحنُ عندَ رسولِ الله ﷺ إذْ مرّت سحابةٌ، فقال: «**أتدرونَ ما هذه؟**». قُلْنا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**العنانُ وزوايا الأرضِ، يسوقُه اللهُ إلى مَنْ لا يشكرونه من عباده ولا يدعونَه. أتدرونَ ما هذه فوقكم؟**» قلنا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**الرقيعُ موجٌ مكفوفٌ، وسقفٌ محفوظٌ. أتدرون كم بينكم وبينها؟**» قُلْنا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قالَ: «**مسيرةُ خمسمائة عامٍ**». ثُمّ قالَ: «**أتدرونَ ما الَّذي فوقَها؟**». قُلْنا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قالَ: «**سماءٌ أخرى. أتدرونَ كم بينَها وبينَها؟**» قلنا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**مسيرةُ خمسمائة عامٍ**». حتّى عدَّ سبعَ سمواتٍ، ثُمّ قالَ: «**أتدرونَ ما فوقَ ذلك؟**». قُلْنا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قالَ: «**العرشُ. أتدرونَ كمْ بينَهُ وبينَ السّماءِ السّابعةِ؟**». قُلْنا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قالَ: «**مسيرةُ خمسمائة عامٍ**». ثُمَّ قالَ: «**أتدرونَ ما هذه تحتكم؟**». قُلْنا اللهُ ورسولُه أعلمُ. قالَ: «**أرضٌ. أتدرونَ ما تحتَها؟**». قُلْنا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قالَ: «**أرضٌ أخرى. أتدرونَ كم بينهما**». قُلنا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**مسيرةُ سبعمائة عامٍ**». حتّى عدَّ سبعَ أرضينَ، ثُمَّ قالَ: «**وايمُ اللهِ لو دلّيتُم أحدَكُمْ إلى الأرضِ السُّفلى السّابعةِ لهبطَ**». ثُمَّ قرأ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2] [الحديد: ٣].

ورواه الترمذيُّ[3]، عن عبدِ بنِ حُميدٍ وغيرِ واحدٍ، عن يونسَ بنِ محمدٍ المؤدِّب، عن شيبانَ بنِ عبدالرحمنِ، عن قتادةَ، قال: حدث الحسنُ عن أبي هريرةَ. وذكره، إلا أنه ذكر أنَّ بُعْدَ ما بين كُلِّ أرضين خمسمائة عامٍ، وذكر في آخره كلمةً ذكرناها عندَ تفسيرِ هذه الآيةِ من سورةِ الحديدِ، ثُمَّ قال الترمذيُّ: هذا حديثٌ غريبٌ منْ هذا الوجْه. قال: ويُروى عن أيّوبَ ويونسَ بنِ عُبيدٍ وعليِّ بنِ زيدٍ أنهم قالوا: لم يسمعِ الحسنُ من أبي هريرةَ، ورواه أبو محمد عبدُ الرحمنِ بنُ أبي حاتمٍ في «تفسيرِه»، من حديثِ أبي جعفرٍ الرازيِّ، عن قتادةَ، عن الحسنِ، عن أبي هريرةَ، فذكرَ مثلَ لفظِ الترمذي سواءً، بدون الزيادة في آخره. ورواه ابنُ جريرٍ[4] في «تفسيرِه»، عن بشرٍ، عن يزيدَ، عن سعيدِ بنِ أبي عروبةَ، عن قتادةَ مرسلاً. وقدْ يكونُ هذا أشبهَ، واللهُ أعلمُ. ورواه الحافظان أبو بكرٍ البزّارُ[5] والبيهقيُّ[6] من حديثِ أبي ذرٍّ الغفاريِّ عن النبيِّ ﷺ بنحوِه، ولكنْ لا يصحُّ إسنادُه، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في «المسند» (٢/ ٣٧٠). (٢) ضعيف جداً: رواه أحمد فيما تقدّم، والترمذي وغيره كما سيأتي، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ٨٦)، وقال: «رواه أحمد، وفيه الحكم بن عبد الملك، وهو متروك الحديث» اهـ. وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقال: ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة. اهـ.

(٣) في «الجامع الصحيح» برقم (٣٢٩٨). (٤) في «التفسير» (٢٨/ ١٥٤).

(٥) عزاه له الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٣١)، وقال: ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا نصر حميد بن هلال لم يسمع من أبي ذر.

(٦) عزاه له الشيخ الألباني رحمه الله في تعليقه على كتاب «السنة» (ص٢٥٥)، وقال: وهو مع انقطاعه ضعيف لضعف أحمد بن عبد الجبار.

وقَدْ تَقَدَّم عِنْدَ ذكرِ صِفَةِ العَرْشِ من حَدِيثِ الأَوْعَال[١] ما يُخَالفُ هذا في ارتفَاعِ العَرْشِ عنِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وما يَشْهَدُ لَه. وفيه: «**وبُعْدُ مَا بَيْنَ كُلِّ سَمائَيْنِ خَمْسُمائَةِ عَامٍ، وكثفُها - أي سُمْكُها - خَمْسُمائة عَامٍ**». وأَمَّا مَا ذَهَبَ إليه بَعْضُ المُتكلِّمين علىٰ حديث: «**طُوِّقَه منْ سَبْعِ أَرَضين**»[٢]، أنَّها سَبْعَةُ أَقَالِيمَ، فَهُو قولٌ يُخَالِفُ ظَاهِرَ الآيَةِ، والحَدِيثَ الصَّحيحَ وصَرِيحَ كَثِيرٍ من أَلْفَاظِه مع ما ذكَرْنا مِنَ الحديثِ الذي أورَدْناه من طَرِيقِ الحَسَنِ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ[٣]. ثمّ إنّه حَمَلَ الحديثَ والآيةَ علىٰ خلاف ظَاهِرِهمَا بلا مسْتَنَدٍ ولا دَلِيلٍ، واللهُ أعلمُ. وهكذا ما يَذْكُرُه كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكتَابِ، وتَلَقّاه عَنْهُم طَائِفَةٌ مِن عُلمائِنَا، مِنْ أَنّ هذه الأرضَ مِنْ تُرابٍ، والتي تَحْتَها مِنْ حَدِيدٍ، والأُخْرىٰ مِن حجَارةٍ مِنْ كِبْريتٍ، والأُخرىٰ من كذا. فَكُلُّ هَذا إذا لم يُخْبَرْ به ويَصِحَّ سَنَدُهُ إلىٰ مَعْصُومٍ، فهو مَرْدُودٌ علىٰ قَائِلِه. وهكذا الأَثَرُ المَرْوِيّ عن ابنِ عبَّاسٍ[٤]، أنَّه قَال: في كُلِّ أَرْضٍ مِنَ الخَلْقِ مِثْلُ ما فِي هَذه الأرضِ حتّىٰ آدمُ كآدَمكُم، وإبراهيمُ كإبراهيمكُمْ. فهذا ذَكَرَه ابنُ جَرِيرٍ[٥] مُختَصَرًا، واسْتَقْصَاه البَيْهَقِيُّ في الأسْمَاء والصِّفَاتِ[٦]، وهو مَحْمُولٌ - إنْ صحّ نَقْلُه عنه - علىٰ أنَّ ابنَ عَبَّاسٍ، رضِي اللهُ عَنْه، أَخذَه عَنِ الإسْرَائيليّاتِ، واللهُ أعلمُ.

وقالَ الإمامُ أحمدُ[٧]: حدثنا يَزِيدُ، حدَّثنا العَوَّامُ بنُ حَوْشَبٍ، عن سُلَيمانَ بنِ أبي سليمانَ، عن أَنَسِ بنِ مالكٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لَمّا خَلَقَ اللهُ الأَرْضَ جعَلَتْ تَميدُ، فخلَقَ الجبَالَ فألْقَاهَا عَلَيْها فاسْتقَرّتْ، فتَعجَّبَت المَلائكةُ من خَلْقِ الجبَال، فقَالَت: يا رَبِّ هَلْ منْ خَلقكَ شيءٌ أشَدّ من الجبَال؟ قَالَ: نَعمْ، الحَديدُ. قَالَت: يَا رَبِّ هَلْ منْ خَلْقكَ شيءٌ أشَدُّ مِنَ الحَديد؟ قالَ: نَعمْ، النَّارُ. قَالَتْ: يا رَبِّ فَهَلْ منْ خَلقكَ شيءٌ أشَدُّ من النَّار؟ قَالَ: نعَمْ الماءُ. قالت: يا رَبِّ فهَل من خَلْقك شيءٌ أشدُّ من الماء؟ قال: نَعم الرِّيحُ. قَالَتْ: يا رَبِّ فَهَلْ منْ خَلْقكَ شَيءٌ أشَدُّ مِنَ الرِّيحِ؟ قَالَ: نَعمْ، ابنُ آدمَ يتَصدَّقُ بِيَمِينه يُخْفيها من شمَاله**»[٨]. تَفرّدَ بإخراجه أَحْمَدُ.

وَقَدْ ذَكَرَ أَصْحابُ الهَيْئَةِ أَعْدَادَ جبالِ الأَرْضِ في سائِرِ بِقَاعِها، شَرْقًا وغَرْبًا، وذَكَرُوا أطوالَها، وبُعْدَ امتدَادِها، وارتفَاعَها، وأَوْسَعُوا القَوْلَ في ذلك بما يَطُولُ شَرْحُه هنا. وقد قَالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿**وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ**﴾ [فاطر: ٢٧]. قال ابنُ عباسٍ وغَيرُ واحدٍ: الجُدَدُ الطَّرَائِقُ[٩]. وقَال عِكْرِمَةُ وغيرُه: الغَرابِيبُ الجِبالُ الطِّوَالُ السُّودُ[١٠]. وهذا هو

---

(١) ضعيف: وقد تقدم. (٢) أخرجه البخاري، وقد تقدّم. (٣) ضعيف: وقد تقدَّم.

(٤) ضعيف: وسيأتي تخريجه والكلام عليه. (٥) في «التفسير» (٢٨/ ١٥٣) عند تفسير الآية ١٢ من سورة الطلاق.

(٦) ص(٤٩٣)، من طريقين عن أبي الضحىٰ، عن ابن عباس به. وقال عقب الطريق الأخير: «إسناد هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما صحيح، وهو شاذٌ بمرة، لا أعلم لأبي الضحىٰ عليه متابعًا، والله أعلم.

(٧) في «المسند» (٣/ ١٢٤).

(٨) ضعيف: أخرجه الترمذي في «السنن» برقم (٣٣٦٩)، وعبد بن حميد في «المنتخب» برقم (١٢١٥)، وأبو يعلىٰ في «المسند» برقم (٤٣١٠)، والضياء المقدسي في «المختارة» برقم (٢١٤٨: ٢١٥٠)، من طرق عن يزيد بن هارون به. وفي الإسناد: سليمان بن أبي سليمان: «مقبول»، ولم يتابع، وفي رواية العوام بن حوشب عنه اختلاف ذكره الحافظ ابن حجر في «التهذيب». وقال أبو عيسىٰ: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه.

(٩) انظر «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ١٩). (١٠) انظر «زاد المسير» لابن الجوزي (٦/ ٤٨٦).

المُشاهَدُ مِنَ الجِبالِ في سائرِ الأَرْضِ، تَخْتَلِفُ باخْتلافِ بِقَاعِهَا وأَلْوَانِهَا. وقد ذَكَر اللهُ تعالىٰ في كِتَابِهِ (الجُودِيَّ) علىٰ التَعْيينِ، وهو جَبَلٌ عَظيمٌ شَرْقيَّ جَزِيرةِ ابنِ عُمَرَ إلىٰ جَانبِ دِجْلَةَ عندَ المَوْصلِ، امتدَادُه مِنَ الجَنُوبِ إلىٰ الشَّمالِ مَسيرةُ ثلاثَةِ أَيَّامٍ، وارتفَاعُه مَسيرَةُ نصفِ يومٍ، وهُو أَخْضَرُ؛ لأنَّ فيه شَجَرًا من البَلُّوطِ، وإلىٰ جَانبِه قَرْيةٌ يُقَالُ لها: قرْيَة الثَّمانين. لسُكْنَىٰ الذين نَجَوْا في السَّفِينَةِ مَعَ نُوحٍ عليه السلامُ في مَوْضِعِها، فيما ذَكَره غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ المُفسِّرين، واللهُ أعْلَمُ. وذكَر تعالَىٰ طُورَ سَيْنَاءَ.

وقدْ ذكَر الحافظُ البَهاءُ ابنُ عَساكرَ في كتابه «المُسْتَقْصَىٰ في فضائلِ المسجدِ الأقْصىٰ» في تَرْجَمةِ الجبالِ المُقَدَّسَةِ، مِن طريقِ عمرِو بنِ بكرٍ، عن ثَورِ بنِ يزيدَ، عن خالدِ بنِ مَعْدانَ، عن أبي هريرةَ قال: أَقْسَم ربُّنا عز وجل بأَرْبَعةِ أَجْبُلٍ فقال: ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ**﴾ [التين: ١ ـ ٣]. فالتينُ طُورُ ربِّنا مسجدُ بيتِ المَقْدسِ، والزَّيتونُ طورُ ربِّنا، وطورُ سينين، وهذا البلدُ الأمينُ جبلُ مكَّة(١). وقال قتادة: التينُ جَبَلٌ عليه دمشقُ، والزَّيْتونُ جبَلٌ عليه بيت المَقْدسِ(٢). وروىٰ الحافظُ ابنُ عساكرَ(٣) عن كعبِ الأحْبارِ أنَّه قال: أَرْبعةُ أَجْبُلٍ يومَ القيامة: جبلُ الخليلِ ولبنان والطُّورُ والجُوديُّ، يكونُ كلُ واحدٍ منهنَّ يومَ القيامةِ لُؤلؤةً بيضاءَ تُضِيءُ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ، يَرْجِعْنَ إلىٰ بيتِ المَقْدسِ حتىٰ تُجْعَلَ في زواياه نوراً، ويضعُ عليها كُرْسيَّه حتىٰ يَقْضِيَ بينَ أهلِ الجنة والنارِ. ﴿**وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الزمر: ٧٥].

ومن طريقِ الوليدِ بنِ مسلمٍ، ثنا عثمانُ بنُ أبي عاتكةَ، عن عليِّ بنِ يزيدَ، عن القاسمِ أبي عبدِ الرحمنِ قال: أوحىٰ اللهُ إلىٰ جبلِ قاسْيونَ أن هَبْ ظلَّكَ وبركَتَك لجبلِ بيتِ المقدسِ. قال: ففعَل. فأوحَىٰ اللهُ تعالىٰ إليه: أمَا إذ فعلتَ فإنِّي سأَبْني لي في حِضْنك بيتًا ـ قال عبدُ الرحمنِ: قال الوليدُ: في حِضنك. أي في وسطِه، وهو هذا المسجدُ ـ يعني مسجدَ دمشقَ ـ أُعْبَدُ فيه بعدَ خرابِ الدنيا أربعينَ عامًا، لا تذهبُ الأيامُ والليالي حتىٰ أردَّ عَليك ظلَّك وبركَتَك. قال: فهو عندَ الله بمنزلةِ المُؤْمنِ الضعيفِ المُتَضرِّعِ(٤). وعن [خليلِ](*) بنِ دَعْلَجٍ أنَّ صَفِيَّةَ زَوْجَ النَّبيِّ ﷺ أَتَتْ طرَفَ بيتِ المَقْدسِ، فصلَّتْ فيه وصَعَدَت إلىٰ طورِ ربِّنا، فصلَّت فيه وباتت علىٰ طرَفِ الجبلِ فقالت: مِن ها هنا يتفرقُ النَّاسُ يومَ القيامةِ إلىٰ الجنَّةِ وإلىٰ النَّارِ(٥).

---

(١) **ضعيف جدًا**: فيه عمرو بن بكر «متروك»، وخالد بن معدان أدرك أبا هريرة ولا يذكر له سماع ذكره العلائي في «جامع التحصيل» (ص١٧١).

(٢) **ضعيف**: أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ٢١٧) من طريق الوليد بن مسلم قال: سألت خليد بن دعلج فحدثني عن قتادة وذكره. وخليد ضعيف، وحدث عن قتادة بأحاديث منكرة.

(٣) في «تاريخ دمشق» (٢/ ٣٤٨، ٣٤٩)، وهو ضعيف لأن كعبًا يخبر عن أمر غيبي لا يعلم إلا بوحي، ولعله من الإسرائيليات. وفي الإسناد ابن لهيعة: «ضعيف»، وأبو قبيل واسمه حي بن هانئ: صدوق يهم.

(٤) **ضعيف**: أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢/ ٢٣٨، ٢٣٩) وفيه علي بن يزيد ـ هو ـ الألهاني «ضعيف»، والقاسم بن عبدالرحمن الدمشقي صدوق يغرب كثيرا، وقد أرسله، قال فيه الإمام أحمد ـ فيما ذكره الحافظ ابن حجر في «التهذيب» (٤/ ٥٢٢) ـ: «يروي عنه علي بن يزيد أعاجيب، وتكلم فيها، وقال: ما أرىٰ هذا إلا من قِبَل القاسم».

(*) ما بين المعقوفين خطأ، وصوابه خليد ـ وهو ابن دعلج، واللَّه تعالىٰ أعلم.

(٥) **ضعيف**: فيه خليد بن دعلج، وهو ضعيف، وكأن روايته عن أُمِّنا صفية مرسلة، إذ لم أقف في ترجمته علىٰ ما يدل أنه روىٰ عنها، واللَّه أعلم.

فصلٌ
في البحار والأنهار

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذي سَخَّرَ الْبَحْرَ لتَأْكُلُوا منْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا منْهُ حلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِه وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٤-١٨]. وقَالَ تعالىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢]. وقَالَ تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]. وقَالَ تَعالىٰ: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠]. فالمُرادُ بالبَحْرين البَحْرُ المِلْحُ المُرُّ وهو الأُجَاجُ، والبَحْرُ العَذْبُ هو هذه الأَنْهَارُ السَّارِحَةُ بين أَقْطارِ الأمْصارِ، لمصَالحِ العِبَاد. قَالَه ابنُ جُرَيْجٍ وغَيْرُ واحدٍ من الأَئمَّة. وقَالَ تَعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ: ٣٢-٣٤].

وقَالَ تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣١، ٣٢]. وقَال تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. فامْتَنَّ تَعالَىٰ علىٰ عِبَاده بما خَلَق لهم مِنَ البِحَارِ والأنهارِ، فالبَحْرُ المُحيطُ بسائرِ أرْجَاء الأرضِ، وما يَنْبَثِقُ مِنْه في جَوَانِبِها، الجميعُ مَالِحُ الطَّعْمِ مُرّ، وفي هذا حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ لصِحَّة الهَوَاء؛ إذْ لَوْ كَانَ حُلْوًا لأَنْتَنَ الجَوُّ وفَسَدَ الهَوَاءُ؛ بِسَبَبِ ما يَمُوتُ فيه من الحَيَوانات العظامِ، فكان يؤَدِّي إِلَىٰ تَفَانِي بني آدَمَ، وفسَادِ مَعايِشِهِمْ، فاقتَضَت الحِكْمَةُ البالِغَةُ أَنْ يكونَ علىٰ هذه الصِّفَةِ، لهذه المَصْلَحَة. ولهذا لما سُئِل رَسُولُ الله ﷺ، عَنِ البَحْرِ، قَالَ: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الحِلُّ مَيْتَتُهُ»(١). وأَمَّا الأَنْهارُ فاقتضت الحِكْمَةُ أن يكونَ ماؤها حُلوًا عَذْبًا جاريًا فراتًا سائغًا للشاربينَ، وجَعَلَهَا جَارِيَةً سَارِحَةً، يُنْبِعُها سُبْحانَه وتَعالَىٰ في أَرْضٍ، ويَسُوقُها إلىٰ أُخْرىٰ، رِزْقًا للعباد، ومِنْها كِبَارٌ وصِغَارٌ، بِحَسَبِ الحاجَةِ والمَصْلَحَة.

وقَدْ تَكلَّم أَصْحَابُ عِلْمِ الهَيْئَةِ والتَّسْيِيرِ علىٰ تَعْدَادِ البِحارِ والأَنْهارِ الكِبَار، وأُصُولِ مَنَابِعها، وإلىٰ

---

(١) **صحيح**: أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ٢٢ برقم ١٢)، وعند أحمد في «المسند» (٢/ ٣٦١)، وأبو داود في «السنن» برقم (٨٣)، والترمذي في «السنن» برقم (٦٩)، والنسائي في «السنن» (١/ ٥٠)، وابن ماجه في «السنن» برقم (٣٨٦)، عن صفوان بن سليم، عن سعيد بن سلمة، عن المغيرة بن أبي بردة، أخبره أنه سمع أبا هريرة وذكره.

قال أبو عيسىٰ: هذا حديث حسن صحيح. وفي الباب عن جابر والفراسي. وهو قول أكثر الفقهاء من أصحاب النبي ﷺ منهم: أبو بكر، وعمر، وابن عباس: لم يروا بأسًا بماء البحر... اهـ.

أين ينتهي مسيرها، بكلام فيه حكم ودلالات على قدرة الخالق تعالى، وأنه فاعل بالاختيار والحكمة. وقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦]. فيه قولان؛ أحدهما أن المراد به البحر الذي تحت العرش المذكور في حديث الأوعال [١] وأنه فوق السموات السبع بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء، وهو الذي ينزل منه المطر قبل البعث فتحيا منه الأجساد من قبورها. وهذا القول هو اختيار الربيع بن أنس. والثاني: أن البحر اسم جنس، يعم سائر البحار التي في الأرض، وهو قول الجمهور.

واختلفوا في معنى البحر المسجور، فقيل: المملوء. وقيل: الذي يصير يوم القيامة نارًا تؤجج، فيحيط بأهل الموقف. كما ذكرناه في «التفسير» [٢] عن علي بن أبي طالب، وابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وغيرهم. وقيل: المراد به الممنوع المكفوف، المحروس عن أن يطغى فيغمر الأرض ومن عليها فيغرقوا. رواه الوالبي عن ابن عباس، وهو قول السدي وغيره.

ويؤيده الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٣]: حدثنا يزيد، حدثنا العوام، حدثني شيخ كان مرابطًا بالساحل، قال: لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب، فقال: حدثنا عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: **«ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات، يستأذن الله عز وجل أن ينفضخ عليهم، فيكفه الله عز وجل»**. ورواه إسحاق ابن راهويه، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب، حدثني شيخ مرابط قال: خرجت ليلة لمحرس، لم يخرج أحد من الحرس غيري، فأتيت الميناء، فصعدت، فجعل يخيل إلي أن البحر يشرف، يحاذي برؤوس الجبال، فعل ذلك مرارًا وأنا مستيقظ، فلقيت أبا صالح، فقال: حدثنا عمر بن الخطاب، أن رسول الله ﷺ، قال: **«ما من ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات، يستأذن الله أن ينفضخ عليهم، فيكفه الله عز وجل»** [٤]. في إسناده رجل مبهم، والله أعلم.

وهذا من نعمة الله تعالى على عباده أن كف شر البحر أن يطغى عليهم، وسخره لهم، يحمل مراكبهم؛ ليبلغوا عليها إلى الأقاليم النائية بالتجارات وغيرها، وهداهم فيه، بما خلقه في السماء والأرض من النجوم والجبال؛ التي جعلها لهم علامات يهتدون بها في سيرهم، وبما خلق لهم فيه حلية يلبسونها من اللآلي والجواهر النفيسة العزيزة الحسنة الثمينة التي لا توجد إلا فيه، وبما خلق فيه من الدواب الغريبة، وأحلها لهم حتى ميتتها، كما قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ [المائدة: ٩٦]. وقال النبي ﷺ: **«هو الطهور ماؤه الحل ميتته»** [٥]. وفي الحديث الآخر: **«أحلت لنا**

---

(١) ضعيف، وقد تقدم.

(٢) (٤/ ٢٤٠) عند الآية ٦ من سورة الطور.

(٣) في المسند (١/ ٤٣).

(٤) ضعيف: أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٥٢)، من طريق الإمام أحمد، وذكره المصنف في «التفسير» (٤/ ٢٤٠)، عن إسحاق بن راهويه، وفي الإسناد راوٍ مبهم.

(٥) صحيح: وقد تقدم.

مَيْتَتان ودَمَان؛ السَّمَكُ والجَرَادُ، والكَبِدُ والطِّحَالُ»[١] . رواه أحمدُ وابنُ مَاجَه، وفي إِسْنَادِه نَظَرٌ .

وقد قال الحافظُ أبو بكر البَزَّارُ في «مُسْنَده»[٢]: وجدتُ في كتابي عن محمد بن معاوية البَغْداديِّ، حدثنا عَبدُ الرَّحمَن بنُ عبد الله بن عُمَرَ، عن سُهَيْل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هُرَيرةَ رَفَعَهُ، قال: «كَلَّمَ الله هَذَا البَحْرَ الغَرْبيَّ، وكَلَّمَ البَحْرَ الشَّرقيَّ، فَقَالَ للغَرْبيِّ: إنِّي حَامِلٌ فيكَ عِبَاداً منْ عِبَادي، فَكَيْفَ أنْتَ صَانعٌ بهم؟ قالَ: أُغرقُهُمْ. قالَ: بأسُكَ في نَوَاحيكَ. وحَرَمَهُ الحِلْيَةَ والصَّيْدَ، وكَلَّمَ هَذا البَحْرَ الشَّرْقيَّ، فَقَالَ: إنِّي حَامِلٌ فيكَ عِبَاداً منْ عِبَادي، فَمَا أنْتَ صَانعٌ بهم؟ قَالَ: أحْمِلُهُم عَلَى يَدي، وأكُونُ لَهُمْ كَالوَالِدَةِ لوَلَدِهَا. فأَثَابَهُ الحِلْيَةَ والصَّيْدَ»[٣] . ثم قال: لا نَعْلَمُ أحداً رَوَاه عن سُهَيْلٍ إلا عبدُ الرحمنِ بنُ عبدِ الله بن عُمَرَ، وهو مُنْكَرُ الحديث. قال: وقد رواه سُهَيْلٌ عن النُّعْمانِ بن أبي عَيَّاش، عن عبدالله بن عَمْرو مَوْقُوفاً[٤] . قلتُ: الموقوفُ علَى عبد الله بن عمرو بن العاص أشْبَهُ؛ فإنَّه قد كان وَجَدَ يومَ اليَرْمُوك زَامِلَتَيْن مَمْلوءتَيْن كُتُباً من علوم أهلِ الكتاب، فكان يُحدِّثُ منهما بأشياءَ كثيرةٍ من الإِسْرائيليَّات، منها المعروفُ والمَشْهورُ والمُنْكورُ والمَرْدُودُ، فأمَّا المرفوعُ فَتَفَرَّدَ به عبدُ الرحمن بنُ عبدالله بن عُمَرَ بن حَفص بن عاصم بن عُمَرَ بن الخَطَّاب أبو القاسم المَدَنيُّ قاضيها، قال فيه الإمامُ أحمدُ: ليس بشيءٍ، وقد سمعتُ منه ثم مَزَّقْتُ حديثَه، كان كذَّاباً، وأحاديثُه مَناكيرُ. وكذا ضَعَّفَه ابنُ مَعينٍ، وأبو زُرعةَ، وأبو حاتِمٍ، والجُوزْجَانيُّ، والبُخاريُّ، وأبو داودَ، والنَّسائيُّ. وقال ابنُ عَدِيٍّ[٥]: عامَّةُ أحاديثِه مَناكيرُ، وأَفْظَعُها حديثُ البَحْرِ.

---

(١) **الصحيح وقفه، وله حكم الرفع:** أخرجه الشافعي[١] ، وأحمد[٢] ، وابن ماجه[٣] ، والدارقطني[٤] ، والبيهقي[٥] ، من رواية عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالجراد والحوت، وأما الدمان: فالطحال والكبد»، ورواه الدارقطني من رواية سليمان بن بلال عن زيد بن أسلم موقوفًا. قال: وهو أصح. وكذا صحح الموقوف: أبو زرعة وأبو حاتم[٦] ، وعبد الرحمن بن زيد ضعيف متروك، وقال أحمد: حديثه هذا منكر.
وقال البيهقي: رفع هذا الحديث أولاد زيد بن أسلم: عبد الله وعبد الرحمن وأسامة، وقد ضعفهم ابن معين، وكان أحمد بن حنبل يوثق عبد الله.
قلت: رواه الدارقطني وابن عدي[٧] من رواية عبد الله بن زيد بن أسلم، قال ابن عدي: الحديث يدور على هؤلاء الثلاثة.
قلت: تابعهم شخص أضعف منهم، وهو أبو هاشم كثير بن عبد الله الأبلي، أخرجه ابن مردويه في تفسير سورة الأنعام من طريقه، عن زيد بن أسلم، بلفظ. وذكر نحوه. ورواه المسور بن الصلت أيضًا عن زيد بن أسلم، لكنه خالف في إسناده، قال عن عطاء عن أبي سعيد مرفوعًا، أخرجه الخطيب[٨] ، وذكره الدارقطني في «العلل»، والمسور كذاب، نعم الرواية الموقوفة التي صححها أبو حاتم وغيره هي في حكم المرفوع؛ لأن قول الصحابي: أحل لنا، وحرم علينا كذا، مثل قوله: أمرنا بكذا، ونهينا عن كذا، فيحصل الاستدلال بهذه الرواية لأنها في معنى المرفوع، والله أعلم»[٩] .

(٢) انظر «كشف الأستار» (١٦٦٩).

(٣) **ضعيف جداً:** أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/ ٢٣٣)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٥٠)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٨١)، وقال: «رواه البزار وجادة، وفيه عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر العمري وهو متروك».

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل» (١/ ٥١) من طريق سهيل به. واختلف فيه على سهيل بن أبي صالح، فقد أخرجاه أيضًا عن سهيل به وقال عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن كعب الأحبار.

(٥) في «الكامل» (٤/ ٢٧٦).

---

(١) في «المسند» (ص٣٤٠). (٢) في «المسند» (٢/ ٩٧). (٣) في «السنن» برقم (٣٣١٤).
(٤) في «السنن» (٤/ ٢٧١، ٢٧٢) برقم (٢٥). (٥) في «السنن الكبير» (١/ ٢٥٤)، (١٠/ ٧).
(٦) في «علل الحديث» (٢/ ١٧). (٧) في «الكامل» (١/ ١٨٦/ ٣٩٧). (٨) في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٢٤٥).
(٩) ذكره الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (١/ ٢٥، ٢٦).

قال علماءُ التَّسْيير المتكلِّمون على العُروض، والأطوال، والبحار، والأنهار، والجبال، والمساحات، وما في الأرض من المُدُن، والخَراب، والعمارات، والأقاليم السَّبْعَة الحقيقية في اصطلاحهم، والأقاليم المتعدِّدة العُرْفية، وما في البُلْدان والأقاليم من الخَواصِّ والنباتات، وما يُوجَدُ في كلِّ قطر من صُنوف المَعادن والتِّجارات، قالوا: الأرضُ مَغْمورةٌ بالماء العَظيم إلا مقدارَ الرُّبع منها، وهو تسعُونَ دَرَجةً، والعنايةُ الإلهيَّةُ اقْتضَتْ انحسارَ الماء عن هذا القَدْر منها؛ لتعيشَ الحَيَواناتُ عليه، ويَنْبُتَ الزَّرْعُ والثِّمارُ فيه، كما قال تعالى: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا للأَنَامِ ⑩ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ⑪ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ⑫ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٠-١٣]. قالوا: المَعْمورُ من هذا البادي منها قريبُ الثُّلُثَين منه أو أكثرُ قليلاً. وهو خمسٌ وستونَ درجةً. قالوا: فالبحرُ المُحيطُ الغربيُّ، ويُقالُ له: أُوقيانوسُ. وهو الذي يُتاخِمُ بلادَ المَغْرب، وفيه الجَزائرُ الخالداتُ، وبينُها وبينَ ساحله عَشْرُ دَرَج، مسافةُ شَهْر تقريبًا، وهو بحرٌ لا يمكنُ سُلوكُه ولا ركوبُه؛ لكثرة هَيْجه واغْتلامه وما فيه من الرِّياح والأمواج، وليس فيه صيدٌ، ولا يُسْتَخرجُ منه شيءٌ، ولا يُسافَرُ فيه لمَتْجَر، ولا لغيره، وهو آخذٌ في ناحية الجَنوب حتى يُسامتَ الجبالَ القُمْرَ، ويُقالُ: جبالُ القَمَر. التي منها أصلُ منبع نيل مصْرَ، ويَتَجاوزُ خطَّ الاسْتواء، ثم يمتدُّ شرقًا، ويصيرُ جَنوبيَّ الأرض، وفيه هناك جَزائرُ الزَّنْج، وعلى سَواحله خرابٌ كثيرٌ، ثم يمتدُّ شرقًا وشمالا حتى يتصلَ ببحر الصين والهند، ثم يمتدُّ شرقًا حتى يُسامتَ نهايةَ الأرض الشرقية المكشوفة، وهناك بلادُ الصين، ثم ينْعَطفُ في شرق الصين إلى جهة الشَّمال، حتى يُجاوزَ بلادَ الصين، ويُسامتَ سدَّ يأجوجَ ومأجوجَ، ثم ينعطفُ، ويستديرُ على أرض غير معلومة الأحوال، ثم يمتدُّ مَغْربًا في شَمال الأرض، ويُسامتُ بلادَ الرُّوس، ويتجاوزُها، ويعطفُ مَغْربًا وجَنوبًا، ويستديرُ على الأرض، ويعودُ إلى جهة الغرب، ويَنْبَثِقُ من الغربيِّ إلى مَتْن الأرض الزقاق، الذي ينتهي أقصاهُ إلى أطراف الشام من الغرب، ثم يأخذُ في بلاد الروم، حتى يتَّصلَ بالقُسْطَنْطينية وغيرها من بلادهم.

وينبعثُ من المحيط الشرقيِّ بحارٌ أُخَرُ، فيها جزائرُ كثيرةٌ، حتى إنه يُقالُ: إنَّ في بحر الهند ألفَ جزيرة وسَبْعَمائة جزيرة، فيها مدُنٌ وعماراتٌ سوى الجزائر العاطلة، ويُقالُ لها: البحرُ الأخضرُ. فشَرْقيُّه بحرُ الصين، وغربيُّه بحرُ اليمن، وشماليُّه بحرُ الهند، وجَنوبيُّه غيرُ معلوم.

وذكروا أنَّ بينَ بحر الهند وبحر الصين جبالا فاصلةً بينَهما، وفيها فجاجٌ تسلُكُ المراكبُ بينَها، يُسيِّرُها لهم الذي خلقَها، كما جعل مثْلَها في البرِّ أيضًا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]. وقد ذكَر بَطْلَمْيُوسُ أحدُ ملوك الهند في كتابه المسمَّى «بالمجسْطي»، الذي عُرِّبَ في زمان المأمون، وهو أصلُ هذه العلوم، أنَّ البحارَ المتفجِّرةَ من المحيط، الغربيِّ، والشرقيِّ، والجنوبيِّ، والشَّماليِّ كثيرةٌ جدًا، فمنها ما هو واحدٌ، ولكن يُسمَّى بحَسَب البلاد المتاخمَة له؛ فمن ذلك بحرُ القُلْزُم، والقُلْزُمُ قريةٌ على ساحله قريبٌ من أَيْلَةَ، وبحرُ فارسَ، وبحرُ الخَزَر، وبحرُ ورنكَ، وبحرُ الروم، وبحرُ بنطش، وبحرُ الأزرق مدينةٌ على ساحله؛ وهو بحرُ القَرْم أيضًا، ويتضايقُ حتى يَصُبَّ في بحر الروم عند جنوبيِّ القُسْطنطينية، وهو خليجُ القُسْطنطينية؛ ولهذا تُسرعُ

المراكبُ في سيرِها من القَرْمِ إلى بحرِ الرومِ، وتُبْطِئُ إذا جاءت مِن الإسكندريةِ إلى القَرمِ؛ لاستقبالِها جَرَيانَ الماءِ، وهذا مِن العجائبِ في الدنيا، فَإِنَّ كلَّ ماءٍ جارٍ فهو حُلْوٌ إلا هذا، وكلَّ بحرٍ راكدٍ فهو مِلْحٌ أُجاجٌ إلا ما يُذْكرُ عن بحرِ الخَزَرِ، وهو بحرُ جُرْجانَ، وبحرِ طَبَرِسْتانَ، أَنّ فيه قطعةً كبيرةً ماءً حُلواً فُراتًا، على ما أَخْبرَ به المسافرون عنه. قال أهلُ الهيئة: وهو بحرٌ مستديرُ الشكلِ، إلى الطولِ ما هو. وقيل: إنَّه مُثلَّثٌ كالقِلْعِ وليس هو متصلاً بشيءٍ مِنَ البحرِ المحيطِ، بل منفردٌ وحدَه، وطولُه ثَمانُمائة ميلٍ، وعرضُه ستمائةٍ. وقيل: أكثرُ مِن ذلك. واللهُ أعلمُ. ومن ذلك، البحرُ الذي يخرجُ منه المَدُّ والجَزْرُ عند البَصْرة، وفي بلادِ المغربِ نَظيرُه أيضًا يتزايدُ الماءُ من أولِ الشهرِ، ولا يزالُ في زيادةٍ إلى تمامِ الليلةِ الرابعةَ عشرَ منه؛ وهو المَدُّ، ثم يَشْرَعُ في النَّقصِ؛ وهو الجَزْرُ، إلى آخرِ الشهرِ. وقد ذكروا تحديدَ هذه البحارِ ومُبتداها ومُنتهاها. وذكروا ما في الأرضِ مِن البُحَيْرات المجتمعةِ مِنَ الأنهارِ وغيرِها مِن السيولِ؛ وهي البَطائحُ. وذكروا ما في الأرضِ مِن الأنهارِ المشهورَةِ الكبارِ، وذكروا ابتداءَها، وانتهاءَها.

ولسنا بصددِ بَسْطِ ذلك والتطويلِ فيه، وإنَّما نتكلمُ على ما يتعلَّقُ بالأنهارِ الواردِ ذكرُها في الحديث. وقد قال اللهُ تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذي خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْض وَأَنزَلَ من السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجَ به من الثَّمَرات رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لتَجْرِيَ في الْبَحْرِ بِأَمْرِه وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْن وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نعْمَتَ اللَّه لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]. ففي «الصحيحين»(١) من طريقِ قَتادَةَ، عن أنسِ بنِ مالكٍ، عن مالكِ بنِ صَعْصَعَةَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ لَمَّا ذَكَرَ سِدْرَةَ المُنْتَهى قَال: «**فَإِذا يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِها نَهْرَانِ بَاطِنَانِ ونَهْرانِ ظاهِران؛ فَأَمَّا الباطِنَانِ ففي الجَنَّة، وأمّا الظَّاهِران فالنيلُ والفُرَاتُ**». وفي لفظٍ للبخاري(٢): «**عُنْصُرُهُما**». أي مادَّتُهما، أو شَكلُهما، وعلى صفتِهما ونَعْتِهما، وليس في الدنيا مما في الجنَّةِ إلا الأسماءُ. وفي صحيحِ مسلمٍ(٣) من حديثِ عُبيدِ اللهِ بنِ عمرَ، عن خُبَيْبِ بنِ عبد الرحمنِ، عن حَفْصِ بنِ عاصمٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ، أَنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**سَيْحانُ وجَيْحانُ والفُراتُ والنِّيلُ، كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الجَنَّة**».

وقال الإمامُ أحمدُ(٤): حدثنا ابنُ نُمَيْرٍ ويزيدُ، أنبأنا محمدُ بنُ عمرٍو، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي هُرَيْرَةَ، قالَ رسولُ الله ﷺ: «**فُجِّرَتْ أَرْبَعَةُ أَنْهارٍ منَ الجَنَّة؛ الفُرَاتُ، والنِّيلُ، وسَيْحان، وجَيْحانُ**». وهذا إسنادٌ صحيحٌ على شرطِ مسلمٍ. وكأَنَّ المرادَ، واللهُ أعلمُ مِن هذا، أَنّ هذه الأنهارَ تُشْبِهُ أَنْهارَ الجنة في صفائِها، وعُذُوبتِها، وجَرَيانِها، ومِن جنسِ تلك في هذه الصفاتِ ونحوِها، كما قال في الحديثِ الآخرِ الذي رواه الترمذيُّ(٥) وصَحَّحه، من طريقِ سعيدِ بنِ عامرٍ، عن محمد بنِ عمرٍو، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**العَجْوَةُ مِنَ الجَنَّة، وفيها شفَاءٌ مِنَ السُّمِّ**». أَي تشبهُ ثَمرَ الجنةِ، لا أَنَّها مُجْتَناةٌ مِن الجنةِ، فإنَّ الحس يشهد بخلافِ ذلكَ، فتعيَّن أَنَّ المرادَ غيرُه. وكذا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢٠٧، ٣٨٨٧)، ومسلم برقم (١٦٤).

(٢) برقم (٧٥١٧). (٣) برقم (٢٨٣٩). (٤) في «المسند» (٢/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٥) في «الجامع الصحيح» برقم (٢٠٦٦)، وقال: وفي الباب عن سعيد بن زيد وأبي سعيد وجابر، وهذا حديث حسن غريب، وهو من حديث محمد بن عمرو، ولا نعرفه إلا من حديث سعيد بن عامر، عن محمد بن عمرو.

قولُه ﷺ: «**الحُمَّى منْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، فأبْرِدُوها بالماء**»(١). وكذا قولُه: «**شِدَّةُ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ**»(٢). وهكذا هذه الأنهارُ، أصلُ مَنْبَعِها مُشاهَدٌ مِنَ الأرضِ.

أمَّا النيلُ، وهو النهرُ الذي ليسَ في أنهارِ الدنيا له نظيرٌ في خِفَّته، ولطافَته، وبُعْدِ مَسْراه فيما بينَ مُبتداه إلىٰ مُنْتهاه؛ فَمُبتداه مِن الجبالِ القُمْرِ؛ أي البيضِ. ومنهم مَنْ يقولُ: جبالُ القَمَرِ. بالإضافَة إلىٰ الكوكبِ. وهي في غربيِّ الأرضِ، وراء خطِّ الاستواءِ إلىٰ الجانبِ الجنوبيِّ. ويُقالُ: إنهَا حُمْرٌ تَنْبَعُ من بينِها عيونٌ، ثم تَجْتَمِعُ مِن عشرِ مَسيلاتٍ متباعدةٍ، ثم تَجتمعُ كلُّ خمسةٍ منها في بحرٍ، ثم تَخرجُ منها أنهارٌ ستةٌ، ثم تجتمعُ كلُّها في بُحَيْرةٍ أخرىٰ، ثم يخرجُ منها نهرٌ واحدٌ، هو النيلُ، فيمرُّ علىٰ بلادِ السودانِ بالحبشةِ، ثم علىٰ النوبةِ ومدينتِها العظمىٰ دمْقُلَةَ، ثم علىٰ أسوانَ، ثم يَفِدُ علىٰ ديارِ مصرَ، وقد تَحمَّلَ إليها من بلادِ الحبشةِ زياداتِ أمطارِها، واجْتَرَف من تُرابِها، وهي محتاجةٌ إليهما م ا؛ لأنَّ مطرَها قليل لا يكفِي زُروعَها وأشْجارَها، وتُربتَها رمالٌ لا تُنبتُ شيئًا حتىٰ يجيءَ النِّيلُ بزيادته وطينه فَيَنْبُتُ فيه ما يحتاجون إليه، وهي من أحقِّ الأراضي بدُخولها في قوله تعالىٰ: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ**﴾ [السجدة: ٢٧]. ثم يَتجاوَزُ النيلُ مصرَ قليلاً، فيفترِقُ شَطْرَيْن عندَ قريةٍ علىٰ شاطئِه يُقال لها: شَطَنَوْفُ. فيَمُرُّ الغربيُّ منه علىٰ رَشيدَ، ويصُبُّ في البحرِ المالحِ، وأمَّا الشرقيُّ فَيَفترِقُ أيضًا عند جوجرَ فِرْقَتين؛ تمُرُّ الغربيَّةُ منهما علىٰ دِمْياطَ من غربيِّها، ويصبُّ في البحرِ، والشَّرقيَّةُ منهما تَمُرُّ علىٰ أَشمونِ طنَّاحٍ، فيصبُّ هناك في بُحيرةٍ شرقيِّ دِمْياطَ، يُقالُ لها: بُحيرةُ تِنِّيسَ، وبُحيرةُ دمْياطَ. وهذا بُعْدٌ عظيمٌ فيما بينَ مُبْتَدئه إلىٰ مُنْتهاهُ؛ ولهذا كان ألطفَ المياه. قال ابنُ سينا: له خُصوصيَّاتٌ دُونَ مياهِ سائرِ الأرضِ؛ فمنها: أَنَّه أبعدُها مسافةً من مَجْراهُ إلىٰ أَقْصاهُ، ومنها: أَنَّه يجرِي علىٰ صُخورٍ ورِمالٍ ليس فيه خَزٌّ ولا طُحْلُبٌ ولا أوحالٌ، ومنها: أَنَّه لا يخضَرُّ فيه حجرٌ ولا حصاةٌ، وما ذاك إلا لصِحَّةِ مزاجِه وحلاوته ولطافته، ومنها: أَنّ زيادَته تكونُ في أَيامِ نُقْصانِ سائرِ الأنهارِ، ونُقصانُه في أيَّامِ زيادَتِها وكَثْرتِها. وأَمّا ما يذكرُه بعضُ النَّاسِ مِن أَنّ أصلَ مَنْبعِ النِّيلِ مِن مكانٍ مُرْتفعٍ اطَّلع عليه بعضُ الناسِ، فرأىٰ هناك هَوْلاً عظيمًا، وجَوارِيَ حِسانًا، وأشياءَ غَريبة، وأَنّ الذي اطَّلع علىٰ ذلك لا يُمْكِنُه الكلامُ بعدَ هذا، فهو مِن خُرافاتِ المؤرِّخينَ، وهذياناتِ الأفَّاكينَ.

وقد قال عبدُ الله بنُ لَهيعةَ، عن قيسِ بنِ الحجَّاجِ، عَمَّن حدَّثه قال: لَمّا فُتِحَتْ مَصرُ، أتىٰ أهلُها عمرَو بنَ العاصِ حينَ دَخَلَ شهرُ بؤونةَ من أَشْهُرِ العَجَمِ القبطيةِ، فقالوا: أيُّها الأميرُ، إنَّ لنيلنا هذا سُنَّةً لا يجرِي إلا بها. فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إذا كان لِثِنْتَيْ عشْرَةَ ليلةً خلَت مِن هذا الشَّهرِ، عَمَدْنا إلىٰ جاريةٍ بِكْرٍ بين أبوَيْها، فَأَرْضَيْنا أبوَيْها، وجعلنا عليها مِن الحَلْيِ والثِّيابِ أفضلَ ما يكونُ، ثم أَلقَيناها في هذا النِّيلِ. فقال لهم عمرٌو: إنّ هذا لا يكونُ في الإسلامِ، وإنّ الإسلامَ يهدِمُ ما كان قبلَه. فأَقاموا بؤونَةَ، والنِّيلُ لا يَجْري قليلا ولا كثيراً. وفي رِوايةٍ: فأقاموا بَؤونَةَ وأبيبَ ومِسْرَىٰ ثلاثةَ

---

(٣) أخرجه البخاري برقم (٣٢٦٤)، ومسلم برقم (٢٢٠٩) عن ابن عمر.
(٤) أخرجه البخاري برقم (٥٣٣، ٥٣٤)، ومسلم برقم (٦١٥).

أشهُرٍ والنِّيلُ لا يجرِي. حتىٰ هَمُّوا بالجَلاءِ، فكتب عمروٌ إلىٰ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ بذلك، فكتب إليهِ عمرُ: إنّك قد أصبْتَ بالذي فعلتَ، وإنِّي قد بعثتُ إليك بطاقةً داخلَ كتابي هذا، فألْقِها في النِّيلِ. فلما قَدِمَ كتابُهُ أَخَذَ عمروٌ البطاقةَ ففتَحها؛ فإذا فيها: مِنْ عبدِ اللهِ عُمَرَ أميرِ المؤمنين إلىٰ نِيلِ أهلِ مِصْرَ، أما بعدُ، فإن كنتَ إنَّما تجري من قِبَلِ نَفْسِك فلا تجْرِ، وإنْ كان اللهُ الواحدُ القهَّارُ هو الذي يُجرِيكَ، فنسألُ اللهَ أن يُجْرِيَك فألقىٰ عمروٌ البطاقةَ في النيلِ، فأصبحَ يومُ السبتِ، وقد أجرىٰ الله سُبْحانَه لهم النِّيلَ ستةَ عَشَرَ ذِراعًا في ليلةٍ واحدةٍ، وقَطَع اللهُ تلك السُّنَّةَ عن أهلِ مصرَ إلىٰ اليومِ[1].

وأمَّا الفُراتُ، فأصلُها من شمالِيِّ أَرْزَنَ الرومِ، فتمرُّ إلىٰ قُرْبِ مَلَطْيَةَ، ثم تمرُّ علىٰ سُمَيْسَاطَ، ثم علىٰ إِلْبِيرَةَ قِبْلِيَّها، ثم تُشرِّقُ إلىٰ بالسَ وقَلْعَةِ جَعْبَرَ، ثم إلىٰ الرَّقَّةِ، ثم إلىٰ الرَّحبةِ شماليها، ثم إلىٰ عَانَةَ، ثم إلىٰ هِيتَ، ثم إلىٰ الكُوفَةِ، ثم تخْرُجُ إلىٰ فضاءِ العراقِ وتَصبُّ في بطائِحَ كبارٍ؛ أي بُحيراتٍ، وترِدُ إليها، وتَخرُجُ منها أنهارٌ كِبارٌ معروفةٌ، تَصبُّ في بَحْرِ البَصْرَةِ.

وأمَّا سَيْحانُ، ويُقالُ له سَيْحُونُ أيضًا، فأوَّلُه من بلادِ الرُّومِ، ويجْرِي مِن الشَّمالِ والغربِ إلىٰ الجَنُوبِ والشَّرْقِ، وهو غربيّ مَجْرىٰ جَيْحانَ، ودُونَه في القَدْرِ، وهو ببلادِ الأَرْمَنِ التي تُعْرَفُ اليومَ ببلادِ سِيسَ، وقد كانت في أوَّلِ الدولةِ الإسلاميَّةِ في أيدي المُسلمين، فلمَّا تغلَّبَ الفاطميُّون علىٰ الدِّيارِ المصريَّةِ وملَكوا الشامَ وأعمالَها، عَجَزوا عن صَوْنِها من الأعداءِ، فتغلَّب نقفورُ الأرمنيُّ علىٰ هذه البلادِ، أعني بلادَ سِيسَ، في حُدودِ الثلاثمائةِ وإلىٰ يومِنا هذا فملَكُوها. واللهُ المسئولُ عَوْدها إلينا بحَوْله وقُوّته. ثم يجتمعُ سَيْحانُ وجَيْحانُ عند أَذَنَةَ، فيصيرانِ نهرًا واحدًا. ثم يَصُبّانِ في بحرِ الرُّومِ بينَ إياسَ وطَرَسُوسَ.

وأما جَيْحانُ، ويُقالُ له جَيْحُونُ أيضًا، وتُسَمِّيه العامةُ جَاهانَ، وأصلُه في بلادِ الرُّومِ، ويسيرُ في بلادِ سِيسَ من الشَّمالِ إلىٰ الجَنوبِ، وهو نَهْرٌ يقارِبُ الفُراتَ في القَدْرِ. ثم يجتمعُ هو وسَيحانُ عند أَذَنةَ، فيَصيرانِ نهرًا واحِدًا، ثم يصُبَّانِ في البحرِ عند إياسَ وطَرَسُوسَ، واللهُ أعلمُ.

فصلٌ

قال اللهُ تعالىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرعد: ٢-٤]. وقال تعالىٰ: **﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [النمل: ٦٠، ٦١]. وقال تعالىٰ: **﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ**

---

(١) ضعيف: أخرجه اللالكائي في «كرامات الأولياء» برقم (٦٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» برقم (٩٣٧٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق» (٤٤/٣٣٦، ٣٣٧)، وغيرهم من طريق ابن لهيعة به. وفيه ابن لهيعة: ضعيف، وراوٍ مبهم.

وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠-١٣]. فذكر تعالى ما خلق في الأرض من الجبال، والأشجار، والثمار، والسهول والأوعار، وما خلق من صنوف المخلوقات، من الجمادات والحيوانات، في البراري والقفار والبحار، ما يدل على عظمته وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه الأبرار والفجار، وما سهل لكل دابة من الرزق الذي هي محتاجة إليه في ليلها ونهارها، وصيفها وشتائها، وصباحها ومسائها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]. وقد روى الحافظ أبو يعلى، عن محمد بن المثنى، عن عبيد بن واقد، عن محمد بن عيسى بن كيسان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، عن عمر بن الخطاب، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خلق الله ألف أمة؛ منها ستمائة في البحر، وأربعمائة في البر، وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد، فإذا هلكت تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه**»(١). عبيد بن واقد أبو عباد البصري ضعفه أبو حاتم، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه، وشيخه أضعف منه. قال الفلاس والبخاري: منكر الحديث. وقال أبو زرعة: لا ينبغي أن يحدث عنه. وضعفه ابن حبان، والدارقطني، وأنكر عليه ابن عدي هذا الحديث بعينه وغيره، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

باب ذكر ما يتعلق بخلق السموات وما فيهن من الآيات

قد قدمنا أن الله خلق الأرض قبل خلق السماء؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢] وقال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠]. وقد أجبنا عن قوله: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ بأن الدحي غير الخلق، وهو بعد خلق السماء. وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ

---

(١) **ضعيف جداً:** أخرجه أبو الشيخ في العظمة» برقم (١٢٨٥١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٢٣٤)، وأبو عمر الداني في «السنن الواردة في الفتن» برقم (٥٢٧)، ونعيم بن حماد في «الفتن» (١/ ٢٣٨)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٢٢)، وقال: رواه أبو يعلى في «الكبير» وفيه عبيد بن واقد القيسي، وهو ضعيف». اهـ. وقد أعله المصنف بما يغني عن إعادته هنا.

(٢) في «الكامل» (٥/ ٣٥٢).

الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١-٥]. وقال تعالىٰ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٢-١٣]. وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦]. وقال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وقال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦-١٠]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦-١٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ «الذاريات: ٤٧]. وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢، ٣٣]. وقال تعالىٰ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧-٤٠]. وقال تعالىٰ: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٦، ٩٧]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. والآياتُ في هذا كثيرةٌ جدا، وقد تكلّمنا علىٰ كلٍّ منها في «التفسير».

والمقصودُ أنّه تعالىٰ يُخْبِرُ عن خلْقِ السَّموات وعَظَمَةِ اتِّساعِها، وارتفاعِها، وأنّها في غايةِ الحُسنِ والبَهاءِ، والكَمال والسَّناء؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]. أي الخَلْقِ الحَسَنِ، وقال تعالىٰ: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤]؛ أي خاسئًا عن أَنْ يرىٰ فيها نقصًا أو خلَلاً. وهو حسيرٌ؛ أي كَليلٌ ضَعيفٌ، ولو نظر حتىٰ يَعْيَ ويكِلَّ ويَضْعُفَ لَمَا اطّلع علىٰ نقصٍ فيها ولا عَيْبٍ؛ لأنّه تعالىٰ قد أحكَمَ خَلْقَها، وزيَّنَ بالكَواكب أُفُقَها، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]. أي النجومُ. وقيل: مَحالُّ الحَرسِ التي يُرْمَىٰ منها بالشُّهُبِ لِمُسْتَرِقِ السَّمْعِ. ولا مُنافاةَ بين القولَيْن. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٦، ١٧]. فذكَر أَنَّه زيّن منظرَها

بالكواكب الثوابت، والسيارات؛ الشمس والقمر والنجوم الزاهرات، وأنه صان حوزتها عن حلول الشياطين بها، وهذا زينة معنى فقال: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾: كما قال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ [الصافات: ٦-٨].

قال البُخاري في كتاب بَدْء الخَلْق: وقال قَتادةُ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥]. خلقَ هذه النجومَ لثلاثٍ؛ جعلَها زينةً للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدَىٰ بها، فمن تأوَّل فيها بغيرِ ذلك أخطأَ وأضاعَ نصيبَه، وتكلَّف ما لا علمَ له به. وهذا الذي قاله قتادةُ، مُصرَّحٌ به في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]. وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]. فَمَن تكلّف غيرَ هذه الثلاث، أي منْ علمِ أحكامِ ما تدل عليه حركاتُها، ومقارناتُها في سَيْرِها، وأنّ ذلك يدلُّ علىٰ حوادثَ أرضيَّةٍ، فقد أخطأ. وذلك أنَّ أكثرَ كلامِهم في هذا البابِ ليس فيه إلا حَدْسٌ وظُنونٌ كاذبةٌ ودعاوىٰ باطلةٌ. وذكَر تعالىٰ أنَّه خلَق سَبْعَ سَمَوات طِباقًا؛ أي واحدةً فوقَ واحدةٍ. واختلف أصحابُ الهَيْئةِ، هل هنّ مُتراكماتٌ؟ أو متفاصلاتٌ بينَهنَّ خَلاءٌ؟ علىٰ قولين. والصَّحيحُ الثَّاني؛ لِمَا قدَّمنا من حديث عبد الله بنِ عُمَيْرَةَ، عن الأحْنَف، عن العبَّاسِ، في حديثِ الأوْعال[1]، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أتَدْرُونَ كَمْ بيْنَ السَّماء والأرْضِ؟» قُلْنَا: اللهُ ورَسُولُهُ أعْلَمُ. قال: «بيْنَهُمَا مَسيرةُ خَمْسمائة سنة، ومِنْ كُلِّ سَمَاء إلى سَمَاء خَمْسُمائة سنة، وكثَفُ كُلِّ سَماء خَمْسُمائة سَنة». الحديثُ بتمامِه رواه أحمدُ، وأبو داودَ، وابنُ ماجه، والترمذيُّ وحسَّنه. وفي «الصَّحيحين»[2] من حديث أَنسٍ في حديثِ الإسراء، قال فيه: «ووَجدَ في السَّماء الدُّنْيا آدَمَ، فَقَالَ لَهُ جبْريلُ: هذا أبُوكَ آدمُ. فَسلَّمَ عليه، فَرَد عليه السَّلام، وقَالَ: «مرْحبًا وأهلاً بابْنِي، نعمَ الابْنُ أنْتَ». إلىٰ أنْ قَال: «ثم عَرَج بي إلىٰ السمَاءِ الثانية». وكذا ذكَر في الثالثة، والرَّابعة، والخامسة، والسَّادسَة، والسابعة. فدلَّ علىٰ التَفاصُلِ بينَها؛ لقولِه: «ثُمّ عُرِجَ بِنَا حتى أَتَيْنَا السَّماءَ الثَّانيةَ، فاستَفتَح، فَقِيلَ: مَنْ هذَا؟» إلىٰ آخرِ الحديثِ. وهذا يدلُّ علىٰ ما قُلْناه، واللهُ أعلمُ.

وقد حكىٰ ابنُ حزمٍ، وابنُ المُنادِي، وأبو الفَرَجِ ابنُ الجَوْزيِّ، وغيرُ واحد من العلماءِ الإجماعَ علىٰ أَنّ السمواتِ كُرِيَّةٌ مستديرةٌ، واستُدلّ علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]. قال الحسنُ: يدورون. وقال ابنُ عباسٍ: في فَلْكةٍ مثلِ فَلْكَةِ المِغْزَلِ. قالوا: ويدلُّ علىٰ ذلكَ، أنّ الشمسَ تغربُ كلَّ ليلةٍ من المغربِ، ثم تطلُعُ في آخرِها مِن المشرقِ، كما قال: أُمَيّةُ ابنُ أبي الصَّلْت:

والشمسُ تطلُعُ كلَّ آخرِ ليلةٍ ... حمراءَ يُصْبِحُ لونُها يَتَورَّدُ
ليستْ بطالعةٍ لهم في رِسْلِها ... إلا مُعذَّبَةً وإلا تُجْلَدُ

فأمَّا الحديثُ الذي رواه البخاريُّ[3] ، حيث قال: حدثنا محمدُ بنُ يوسفَ، حدثنا سُفيانُ، عن

---
(١) ضعيف: وقد تقدم.
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٢٠٧)، ومسلم برقم (١٦٤).
(٣) برقم (٣١٩٩).

الأعمش، عن إبراهيمَ التَّيْميِّ، عن أبيه، عن أبي ذَرٍّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ لأبي ذَرٍّ حينَ غربَت الشمسُ: «تدري أينَ تَذْهَبُ؟». قلتُ: اللهُ ورسُولُه أعلَمُ. قال: «فإنّها تَذْهَبُ حتى تَسْجُدَ تحتَ العَرْشِ، فتستأذنُ فيُؤْذَنُ لها، ويُوشكُ أن تَسْجدَ فلا يُقْبَلَ منها، وتَسْتَأْذنَ فَلا يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارجعي من حيثُ جئتِ. فتطلُعُ منْ مَغْربها. فذَلكَ قَولُهُ تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]. هذا لفظُه في بَدءِ الخلق. ورواه في التفسيرِ[1]، وفي التوحيد[2]، من حديث الأعمَش أيضًا. ورواه مسلمٌ في الإيمان[3] من طريقِ الأعْمشِ، ومن طريق يُونسَ بنِ عُبَيْدٍ. وأبو داودَ[4] من طريق الحكَمِ بنِ عُتَيْبَةَ، كلُّهم عن إبراهيمَ بنِ يزيدَ بنِ شَريكٍ، عن أبيه، عن أبي ذرٍّ، به نحوَه. وقال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ[5].

إذا عُلِمَ هذا، فإنه حديثٌ لا يعارضُ ما ذكرْناه منَ استدارة الأفلاك، التي هي السمواتُ على أشهرِ القَوْلين، ولا يدلُّ على كُرِيَّةِ العرشِ كما زعمه زاعمون قد أبطلْنا قولَهم فيما سلفَ. ولا يدلُّ على أنّها تَصْعَدُ إلى فوقَ السموات من جهتنا حتى تسجدَ تحتَ العرشِ، بل هي تغربُ عن أعيننا، وهي مستمرةٌ في فَلَكها الذي هي فيه، وهوَ الرابعُ، فيما قاله غيرُ واحدٍ من علماءِ التسيير. وليس في الشرع ما ينفيه، بل في الحسِّ - وهو الكسوفاتُ - ما يدلُّ عليه ويقتضيه، فإذا ذهبتْ فيه حتى تتوسَّطَه، وهو وقتُ نصف الليلِ مثلاً في اعتدال الزمان، بحيثُ تكونُ بين القُطبين الجنوبيِّ والشَّماليِّ، فإنَّها تكونُ أبْعَدَ ما يكونُ من العرشِ؛ لأنه مُقَبَّبٌ منَ جهةِ وجهِ العالمِ، وهذا مَحَلُّ سُجودها كما يناسبُها، كما أنّها أقربُ ما تكون منَ العرشِ وقتَ الزوالِ من جهتنا، فإذا كانت في مَحَلِّ سُجُودها استأذنت الربَّ جَلَّ جلالُه في طلوعها من المَشرق، فيُؤْذَنُ لها، فتبدُو من جهةِ الشرقِ، وهي مع ذلك كارهةٌ لعُصاةِ بني آدمَ أنْ تطلُعَ عليهم، ولهذا قال أُمَيّةُ:

ليستْ بطالعةٍ لهم في رِسْلِها ... إلاّ مُعذَّبَةً وإلاّ تُجْلَدُ

فإذا كان الوقتُ الذي يريد اللهُ طُلوعَها فيه من جهة مغربِها، تسجدُ على عادتها، وتَستأذنُ في الطلوع من عادتها، فلا يؤذنُ لها فجاء أنها تَسجدُ أيضًا ثُم تَستأذنُ فلا يُؤْذنُ لها، ثم تسجدُ فلا يُؤْذنُ لها، وتطولُ تلك الليلةُ كما ذَكَرْنا في «التفسيرِ»[6]، فتقولُ: يا ربِّ إنَّ الفجرَ قد اقتربَ، وإنَّ المَدَىٰ بعيدٌ. فيقالُ لها: ارجعي من حيْثُ جئتِ. فتطلُعُ من مغربِها، فإذا رآها الناسُ آمنوا جميعًا، وذلك حينَ لا ينفَعُ نفسًا إيمانُها لم تكنْ آمنتْ من قبلُ أو كسبتْ في إيمانِها خيرًا. وفَسَّرُوا بذلك قولَه تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٨]. قيل: لوقتها الذي تُؤمرُ فيه أن تطلُعَ من مَغْرِبها. وقيل: مُسْتَقَرُّها مَوْضعُها الذي تسجدُ فيه تحتَ العرشِ. وقيل: منتهى سَيْرها، وهو آخرُ الدنيا. وعن ابنِ عباسٍ أنَّه قرأ: «والشَّمْسُ تَجْري لا مُسْتَقَرَّ لها»[7]. أي: ليست تَسْتَقرُّ. فعلى هذا تسجدُ وهي سائرةٌ. ولهذا قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]. أي: لا تدركُ الشمسُ القمرَ فتطلعَ في سُلطانه ودَوْلته، ولا هو أيضًا: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾. أي: ليس سابقَه بمسافةٍ يتأخرُ ذلك عنه فيها،

---

(١) برقم (٤٨٠٢، ٤٨٠٣).
(٢) برقم (٧٤٢٤، ٧٤٣٣).
(٣) برقم (١٥٩).
(٤) في «السنن» برقم (٤٠٠٢).
(٥) في «الجامع الصحيح» برقم (٢١٨٦).
(٦) (٣/ ٥٧١، ٥٧٢) عند الآية ٤٠ من سورة يس.
(٧) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٨، ٢٩).

بل إذا ذهبَ اللّيلُ جاء النهارُ في إثْرِه مُتَعَقِّبًا له وإذا ذهب النهارُ جاء الليلُ في إثْرِه متعقِّبًا له، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. أي: يخلفُ هذا لهذا، وهذا لهذا، كما قال رسول الله ﷺ: «إذَا أَقْبَلَ الليلُ من ههنا، وأدْبرَ النهارُ من ههُنَا،، وغَرَبَتِ الشمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائمُ»[1].

فالزمانُ المحقَّقُ ينقسمُ إلىٰ ليلٍ ونهارٍ، وليس بينهما غيرُهما، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣]. أي يولجُ من هذا في هذا، أي يأخذُ من طولِ هذا في قِصَرِ هذا، فيعتدلان، كما في أولِ فَصلِ الربيعِ؛ يكونُ الليلُ قبلَ ذلك طويلاً والنهارُ قصيراً، فلا يزال الليلُ ينقُصُ والنهارُ يتزايدُ حتىٰ يَعْتَدِلا، وهو أولُ الربيعِ، ثم يَشْرَعُ النهارُ يطولُ ويتزايدُ، والليلُ يتناقصُ إلىٰ آخرِ فصلِ الربيعِ، ثم يتراجعُ الأمرُ وينعكسُ الحالُ، فيشرعُ النهارُ يتناقصُ والليل في ازديادٍ حتىٰ يَعْتَدِلا أيضًا في أولِ فصلِ الخريفِ، ثم يَشْرَعُ الليلُ يطولُ، ويقصرُ النهارُ، إلىٰ آخرِ فصلِ الخريفِ، ثم يترجَّحُ النهارُ قليلاً قليلاً ويتناقصُ الليلُ شيئًا فشيئًا، حتىٰ يَعْتَدِلاَ في أول فصلِ الربيعِ كما قدمنا، وهكذا في كلِّ عامٍ. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]. أي؛ هو المتصرفُ في ذلك كلِّه، الحاكمُ الذي لا يُخَالَفُ ولا يُمانَعُ. ولهذا يقولُ في ثلاثِ آياتٍ عند ذكرِ السمواتِ والنجومِ والليلِ والنهارِ: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦، يس: ٣٨، فصلت: ١٢]. أي العزيزِ الذي قد قهَرَ كلَّ شيءٍ، ودان له كلُّ شيءٍ، فلا يُمانَعُ ولا يُغالَبُ، العليمُ بكلِّ شيءٍ؛ فقدّر كلَّ شيءٍ تقديراً، علىٰ نظامٍ لا يَخْتَلِفُ ولا يَضْطَرِبُ. وقد ثبتَ في «الصحيحيْن»[2] من حديث سُفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، عن الزُّهْرِيِّ، عن سعيدِ بنِ المُسَيَّبِ، عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: يُؤْذِيني ابنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدهرَ، وأنا الدهرُ، بِيَدِيَ الأمْرُ، أقَلِّبُ الليلَ والنهارَ». وفي روايةٍ[3]: «فَأَنَا الدهْرُ، أُقَلِّبُ لَيْلَه ونَهارَه».

قال العلماءُ؛ كالشافعيِّ، وأبي عُبيد القاسمِ بنِ سلاَّم، وغيرهما: يَسُبُّ الدهرَ: أَيْ يقولُ: فَعَلَ بنا الدهرُ كذا، يا خَيْبَةَ الدهرِ، أيتَمَ الأولادَ، أرْمَلَ النساءَ. قال اللهُ تعالىٰ: «وأَنَا الدهْرُ». أي أنا الدهرُ الذي يَعْنيه، فإنَّه فاعِلُ ذلك الذي أسنده إلىٰ الدهرِ، والدهرُ مخلوقٌ، وإنما الذي فعَل هذا هو اللهُ الخالقُ، فهو يَسُبُّ فاعلَ ذلك ويعتقدُه الدهرَ، واللهُ هو الفاعلُ لذلك، الخَالِقُ لكلِّ شيءٍ، المتصرفُ في كلِّ شيءٍ، كما قال: «وأَنَا الدَّهْرُ بيديَ الأَمْرُ، أقلبُ ليلَه ونَهَارَه». وكما قال تعالىٰ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧]. وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٩٥٤)، ومسلم برقم (١١٠٠).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٨٢٦)، ومسلم برقم (٢٢٤٦).

(٣) أخرجها مسلم برقم (٢٢٤٦/ ٣).

فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥، ٦]. أي: فاوتَ بينَ الشمسِ والقمرِ في نورِهما، وفي شكلِهما، وفي وقتِهما، وفي سيرِهما، فجعل هذا ضياءً، وهو شعاعُ الشمسِ برهانٌ ساطعٌ، وضوءٌ باهرٌ، والقمرَ نوراً، أي: أضعفُ من برهانِ الشمسِ، وجعله مستفاداً من ضوئها، وقدّره منازلَ. أي؛ يطلُعُ أولَ ليلةٍ من الشهرِ صغيراً ضئيلاً قليلَ النورِ؛ لقربِه من الشمسِ وقلّةِ مقابلتِه لها، فبقدرِ مقابلتِه يكون نورُه، ولهذا في الليلةِ الثانيةِ يكونُ أبعدَ منها بضعفِ ما كان في الليلةِ الأولى، فيكونُ نورُه بضعفِ النورِ أولَ ليلةٍ ثمَّ كلَّما بَعُدَ ازدادَ نورُه، حتى يتكاملَ إبدارُه ليلةَ مقابلتِه إيّاها من المشرقِ، وذلك ليلةَ أربعَ عشرةَ من الشهرِ، ثمَّ يشرَعُ في النقصِ؛ لاقترابِه إليها من الجهةِ الأخرى إلى آخرِ الشهرِ، فيستترُ، حتى يعودَ كما بدأ في أولِ الشهرِ الثاني، فبه تُعرفُ الشهورُ، وبالشمسِ تُعرفُ الليالي والأيامُ، وبذلك تُعرفُ السنونُ والأعوامُ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢]. وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]. وقد بسطنا القولَ على هذا كلِّه في «التفسير»[١]. فالكواكبُ التي في السماءِ منها سيّاراتٌ؛ وهي المُتحيِّرةُ في اصطلاحِ علماءِ التسييرِ، وهو علمٌ غالبُه صحيحٌ، بخلافِ علمِ الأحكامِ، فإنّ غالبَه باطلٌ ودعوى ما لا دليلَ عليه، وهي سبعةٌ؛ القمرُ في سماءِ الدنيا، وعطاردُ في الثانيةِ، والزُّهرةُ في الثالثةِ، والشمسُ في الرابعةِ، والمريخُ في الخامسةِ، والمُشتري في السادسةِ، وزُحلُ في السابعةِ، وبقيةُ الكواكبِ يسمونها الثوابتَ، وهي عندهم في الفَلَكِ الثامنِ، وهو الكرسيُّ في اصطلاحِ كثيرٍ من المتأخرين.

وقال آخرون: بل الكواكبُ كلُّها في السماءِ الدنيا، ولا مانعَ من كونِ بعضِها فوقَ بعضٍ، وقد يُستدلُّ على هذا بقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]. وبقولِه: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]. فخصَّ سماءَ الدنيا من بينهن بزينةِ الكواكبِ؛ فإنْ دلَّ هذا على كونِها مرصَّعةً فيها فذاك، وإلا فلا مانعَ مما قاله الآخرون، واللهُ أعلمُ.

وعندَهم أنَّ الأفلاكَ السبعةَ، بل الثمانيةَ، تدورُ بما فيها من الكواكبِ الثوابتِ والسياراتِ في اليومِ والليلةِ دورةً كُلِّيةً من المشرقِ إلى المغربِ، وعندَهم أنَّ كلَّ واحدٍ من الكواكبِ السَّياراتِ يدورُ على خلافِ فَلَكِه من المغربِ إلى المشرقِ؛ فالقمرُ يقطعُ فَلَكَه في شهرٍ، والشمسُ تقطعُ فلكَها، وهو الرابعُ، في سنةٍ، فإذا كان السَّيْرانِ ليس بينهما تفاوتٌ وحركاتُهما متقاربةٌ، كان قدْرُ السماءِ الرابعةِ بقدْرِ السماءِ الدنيا ثنتيْ عشرةَ مرةً، وزُحلُ يقطعُ فلكَه، وهو السابعُ، في ثلاثينَ سنةً، فعلى هذا يكونُ بقدْرِ السماءِ الدنيا ثلاثمائةٍ وستينَ مرةً. وقد تكلموا على مقاديرِ أجرامِ هذه الكواكبِ وسيرِها وحركاتِها، وتوسعوا في هذه الأشياءِ، حتى تعدَّوا إلى علمِ الأحكامِ، وما يترتبُ على ذلك من

---

(١) (٣/ ٥٧١، ٥٧٢).

الحوادث الأرضية، ومما لا علم لكثير منهم به. وقد كان اليونانيون الذين كانوا يسكنون الشام قبل زمن المسيح عليه السلام بدهور، لهم في هذا كلام كثير يطول بسطه، وهم الذين بنوا مدينة دمشق، وجعلوا لها أبوابًا سبعة، وجعلوا على رأس كل باب هيكلاً على صفة الكواكب السبعة، يعبدون كل واحد في هيكله، ويدعونه بدعاء يأثره عنهم غير واحد من أهل التواريخ وغيرهم. وذكره صاحب «السر المكتوم في مخاطبة الشمس والقمر والنجوم». وهو خرافات لا يُلتفت إليها، وغيره من علماء الحرنانيين فلاسفة حران في قديم الزمان، وقد كانوا مشركين يعبدون الكواكب السبعة، وهم طائفة من الصابئين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. وقال تعالى إخبارًا عن الهدهد، أنه قال لسليمان عليه السلام، مخبرًا عن بلقيس وجنودها، ملكة سبأ في اليمن وما والاها: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٣-٢٦]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٥٠]. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]. وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. والآيات في هذا كثيرة جدًا.

ولما كان أشرف الأجرام المشاهدة في السموات والأرض هي الكواكب، وأشرفهن منظرًا وأشرفهن معتبرًا الشمس والقمر، استدل الخليل على بطلان إلهية شيء منهن، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٧-٧٩]. فبيَّن بطريق البرهان القطعي أن هذه الأجرام المشاهدات من الكواكب والقمر والشمس، لا يصلح شيء منها للإلهية؛ لأنها كلها مخلوقة مربوبة مدبرة مسخرة في سيرها، لا تحيد عما خلقت له، ولا تزيغ عنه إلا بتقدير متقن محرر، لا تضطرب، ولا تختلف، وذلك دليل على كونها مربوبة مصنوعة مسخرة مقهورة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وثبت في «الصحيحين»[١] في صلاةِ الكُسوف، مِن حديثِ ابنِ عمرَ، وابنِ عباسٍ، وعائشةَ، وغيرِهم من الصحابة، أنّ رسولَ الله ﷺ قال في خُطبته يومئذٍ: «**إنَّ الشمسَ والقمرَ آيَتانِ مِنْ آياتِ الله عزَّ وَجَلّ، وإنَّهُمَا لا يَنْكَسِفَانِ لمَوتِ أحَدٍ ولا لحَياته**».

وقال البخاريُّ في بَدْءِ الخَلْق[٢]: حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا عبدُ العزيزِ بنُ المختارِ، حدثنا عبدُ الله الداناجُ، حدثني أبو سَلَمَةَ، عَن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**الشمْسُ والقَمَرُ مُكَوَّرَان يومَ القيامة**». انفرد به البخاريُّ. وقد رواه الحافظُ أبو بكرٍ البَزَّارُ[٣] بأبسطَ مِن هذا السياقِ، فقال: حدثنا إبراهيمُ بنُ زيادٍ البغداديُّ، حدثنا يُونسُ بنُ محمدٍ، حدثنا عبدُ العزيزِ بنُ المختارِ، عن عبدِ الله الداناجِ، سمعتُ أبا سَلَمَةَ بنَ عبدِ الرحمنِ زَمَنَ خالدِ بنِ عبدِ الله القَسْريِّ في هذا المسجد مسجدِ الكوفة، وجاء الحسنُ فجلسَ إليه فحدّث، قال: حدثنا أبو هُرَيْرَةَ، أَنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ ثَوْرانِ في النَّارِ يومَ القيامَة**». فقال الحسنُ: وما ذنبُهما؟ فقال: أُحدِّثُك عن رسولِ الله ﷺ وتقولُ: وما ذنبهما؟![٤] ثم قال البَزّارُ: لا يُرْوىٰ عن أبي هُرَيْرَةَ إلا من هذا الوجهِ، ولم يَرْوِ عبدُ الله الداناجُ عن أبي سَلَمَةَ سوىٰ هذا الحديثِ. وروىٰ الحافظُ أبو يَعْلَىٰ المَوْصِليُّ[٥] مِن طريقِ يزيدَ الرَّقاشيِّ، وهو ضعيفٌ، عن أَنَسٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**الشَّمْسُ والقَمَرُ ثَوْرانِ عَقيرانِ في النَّارِ**».

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا أبو سعيدٍ الأَشَجُّ وعمرُو بنُ عبدِ الله الأَوْديُّ، حدثنا أبو أسامةَ، عن مجالدٍ، عن شيخٍ مِن بَجِيلةَ، عن ابنِ عباسٍ ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**﴾ [التكوير: ١] قال: يُكوِّرُ اللهُ الشمسَ والقمرَ والنجومَ يومَ القيامةِ في البحرِ، ويبعثُ اللهُ ريحًا دبورًا، فتُضرِمُها نارًا[٦].

فدلّت هذه الآثارُ علىٰ أنّ الشمسَ والقمرَ من مخلوقاتِ الله، خَلَقَهَا لمَا أراد، ثم يفعلُ فيهما ما يشاءُ، وله الحُجَّةُ الدامغةُ، والحكمةُ البالغةُ، فلا يُسألُ عمَّا يفعلُ؛ لعِلْمِه، وحكمتِه، وقُدْرتِه، ومشيئتِه النافذَة، وحُكْمِه الذي لا يُرَدُّ ولا يُمانَعُ ولا يُغالَبُ.

وما أحسنَ ما أوردَه الإمامُ محمدُ بنُ إسحاقَ بنِ يسارٍ في أولِ كتابِ «السيرة»[٧] من الشعرِ لزيدِ ابنِ عمرِو بنِ نُفَيْلٍ، في خلقِ السماءِ والأرضِ والشمسِ والقمرِ وغيرِ ذلك، قال ابن هشامٍ: هي لأُميةَ ابنِ أبي الصَّلْتِ:

إلى اللهِ أُهْدي مِدحتي وثَنائيَا ... وقَولًا رَصينًا لا يَني الدهرَ باقيَا

إلى المَلِكِ الأعلىٰ الذي ليس فوقَه ... إلـهٌ ولا ربٌّ يكونُ مُدانيَا

ألا أيُّها الإنسانُ إياكَ والرَّدَىٰ ... فإنك لا تُخْفي منَ اللهِ خافيَا

---

(١) في البخاري برقم (١٠٤٠)، ومسلم برقم (٩٠١).
(٢) برقم (٣٢٠٠).
(٣) في «المسند» عزاه له السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٤٢٧)، ولم أقف عليه في الجزء المطبوع منه.
(٤) إسناده صحيح: أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار»، والبيهقي في «البعث والنشور» انظره في «السلسلة الصحيحة» للشيخ الألباني رحمه الله برقم (١٢٤).
(٥) في «مسنده» برقم (٤١١٦).
(٦) إسناده ضعيف: ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٤٢٦) مطلع سورة التكوير، وعزاه لابن أبي الدنيا في «الأهوال»، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في «العظمة». وفي الإسناد راوٍ مبهم، ومجالد هو ابن سعيد، ليس بالقوي.
(٧) (١/ ٢٤٥، ٢٤٦).

وإياك لا تجعلْ معَ الله غيرَه ... فإنَّ سبيلَ الرُّشْد أصبح باديَا
حَنانَيْك إنَّ الجنَّ كانتَ رجاءَهم ... وأنتَ إلهي ربَّنا ورَجائيا
رَضيتُ بك اللّهم ربًّا فلَنْ أُرَى ... أَدينُ إلهًا غيرَكَ اللهُ ثانيَا
وأنتَ الذي مِنْ فَضْلِ مَنٍّ ورحمة ... بَعَثْتَ إلى موسى رسولاً مُناديا
فقلتَ له يا اذهبْ وهرونَ فادْعُوا ... إلَى الله فرعونَ الذي كان طاغيَا
وقولا له آأنت سوّيت هذه ... بلا وَتَدٍ حتى اطمأنَّتْ كما هيَا
وقولا له آأنت رفعتَ هذه ... بلا عَمَدٍ أرفقْ إذًا بك بانيَا
وقولا له آأنتَ سوَّيتَ وسْطَها ... مُنيرًا إذا ما جَنَّه الليلُ هاديَا
وقولا له مَنْ يرسلُ الشمسَ غدْوَةً ... فيصبحَ ما مسَّت من الأرضِ ضاحيًا
وقولا له من يُنْبِتُ الحَبَّ في الثَّرَى ... فيصبحَ منه البَقلُ يَهتَزُّ رابيَا
ويُخْرِجُ منهُ حَبَّه في رُءُوسه ... وفي ذاك آياتٌ لمن كان واعيَا
وأنتَ بفضل منك نَجَّيتَ يُونُسًا ... وقد باتَ في أضعافِ حُوتٍ لياليَا
وإنِّي ولو سبَّحتُ باسمك ربَّنا ... لأُكْثرَ إلا ما غفرتَ خَطائيَا
فربَّ العبادِ ألقِ سَيبًا ورحمةً ... عليَّ وبارِكْ في بَنيَّ وماليَا

فإذا عُلِم هذا. فالكواكبُ التي في السماءِ من الثَّوابت والسيارات، الجميعُ مخلوقةٌ، خلَقَها اللهُ تعالىٰ، كما قال: ﴿ **وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [فصلت: ١٢].

وأَمَّا ما يذكرُه كثيرٌ من المفسرين في قصةِ هاروتَ وماروتَ، مِن أَنَّ الزُّهْرَةَ كانت امرأةً حسناءَ، فَراوَداها علىٰ نفسِها، فأبَت؛ إلاَّ أنْ يُعلِّماها الاسمَ الأعظمَ، فعلماها، فقالته، فرُفِعت كوكبًا إلىٰ السماءِ، فهذا أَظنّه مِن وضْعِ الإسرائيليين، وإنْ كان قد أخبر به كعبُ الأحبارِ، وتلقّاه عنه طائفةٌ مِنَ السلفِ، فذكروه علىٰ سبيلِ الحكايةِ والتحديثِ عن بني إسرائيلَ. وقد رَوَىٰ الإمامُ أحمدُ[1]، وابنُ حبانَ في «صحيحه»[2] في ذلك حديثًا، رواه أحمدُ، عن يحيىٰ بن أبي بُكَيْرٍ، عن زُهَيْرِ بنِ محمدٍ، عن موسىٰ بنِ جُبَيْرٍ، عن نافعٍ، عن ابنِ عمرَ، عن النبيِّ ﷺ، وذكَر القصةَ بطُولِها. وفيه: «**فمَثُلتْ لهما الزُّهْرةُ امرأةً من أحسنِ البشرِ، فجاءتهما، فسألاها نفسَها**». وذكرَ القصةَ. وقد رواه عبدُ الرزاقِ في «تفسيرِه»[3] عن الثَّوْريِّ، عن موسىٰ بنِ عُقْبَةَ، عن سالمٍ، عن ابنِ عمرَ، عن كعبِ الأحبارِ به. وهذا أصحُّ وأثبتُ. وقد روىٰ الحاكمُ في «مُسْتَدْرَكِه»[4]، وابنُ أبي حاتمٍ في «تفسيرِه»[5]، عن ابنِ عباسٍ، فذكره، وقال فيه: وفي ذلك الزمانِ امرأةٌ حسنُها في النساءِ كحُسنِ الزُّهْرةِ في سائرِ الكواكبِ. وذكر تمامَه. وهذا أحسنُ لفظٍ رُوِيَ في هذه القصةِ، واللهُ أعلمُ، وهكذا الحديثُ الذي

---

(١) في «المسند» (٢/ ١٣٤). (٢) برقم (٦١٨٦). (٣) (١/ ٥٣، ٥٤).
(٤) (٢/ ٢٦٥، ٢٦٦). (٥) عزاه له السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٤١).

رواه الحافظُ أبو بكرٍ البَزار[1]: حدثنا محمدُ بنُ عبدِ الملك الواسطيّ، حدثنا يَزيدُ بنُ هارونَ، حدثنا مُبَشِّرُ بنُ عُبَيْدٍ، عن زيدِ ابنِ أسلمَ، عن ابنِ عمرَ، عن النبيِّ ﷺ وحدثنا عمرُو بنُ عيسى، حدثنا عبدُ الأعلى، حدثنا إبراهيمُ ابنُ يزيدَ، عن عمرِو بنِ دينارٍ، عن ابنِ عمرَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ ذكرَ سُهَيلاً فقال: **«كانَ عَشَّاراً ظَلُوماً، فمَسَخه اللهُ شِهَاباً»**. ثم قال: لم يروِه عن زيدِ بنِ أسلمَ إلا مُبَشِّرُ بنُ عبيدٍ، وهو ضعيفُ الحديث، ولا عن عمرِو بنِ دينارٍ إلا إبراهيمُ بنُ يزيدَ، وهو لَيِّنُ الحديث. وإنما ذكرناه على ما فيه من علَّةٍ لأنّا لم نَحفظْه إلا من هذين الوجهين. قلتُ: أمَّا مُبَشِّرُ بنُ عُبَيْدٍ القرشيُّ فهو أبو حفصٍ الحِمْصِيُّ وأصلُه من الكوفة، فقد ضَعّفه الجميعُ، وقال فيه الإمامُ أحمدُ، والدارَقطنيُّ: كان يضعُ الحديثَ ويكْذبُ. وأمّا إبراهيمُ بنُ يزيدَ، فهو الخُوزيُّ وهو ضعيفٌ باتفاقهم، قال فيه أحمدُ والنسائيُّ: مَتروكٌ. وقال ابنُ مَعينٍ: ليس بثقةٍ، وليس بشيءٍ. وقال البخاريُّ: سَكتُوا عنه. وقال أبو حاتمٍ، وأبو زُرْعةَ: مُنْكَرُ الحديث، ضعيفُ الحديث. ومثلُ هذا الإسنادِ لا يثبُتُ به شيءٌ بالكليَّة، وإذا أحسنَّا الظَّنَّ، قلنا: هذا من أخبارِ بني إسرائيلَ، كما تقدَّم من روايةِ ابنِ عمرَ عن كعبِ الأحبارِ، ويكونُ من خرافاتهم التي لا يُعوَّلُ عليها، واللهُ أعلمُ.

فصلٌ

في الكلام على المجرةِ وقوسِ قزح

قال أبو القاسم الطَّبَراني[2]: حدثنا عليُّ بنُ عبدِ العزيزِ، حَدثنا عارمٌ أبو النعمانِ، حدثنا أبو عَوَانَةَ، عن أبي بِشْرٍ، عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، عن ابنِ عباسٍ، أَنَّ هِرَقْلَ كتب إلى معاويةَ وقال: إنْ كان بَقِيَ فيهم شيءٌ من النبوةِ فسيُخْبِرُني عما أسألُهم عنه. قال: فكتب إليه يسألُه عن المَجرَّة، وعن القَوْسِ، وعن البُقعةِ التي لم تُصبْها الشمسُ إلا ساعةً واحدةً. قال: فلمَّا أتى معاويةَ الكتابُ والرسولُ، قال: إنّ هذا الشيءَ ما كنتُ آبَهُ له أنْ أسألَ عنه إلى يومي هذا، مَنْ لهذا؟ قيل: ابنُ عباسٍ. فطَوَى معاويةُ كتابَ هرَقْلَ، فبعثَ به إلى ابنِ عباسٍ، فكتبَ إليه: إنَّ القوْسَ أمانٌ لأهلِ الأرضِ من الغَرَقِ، والمَجَرَّة بابُ السماءِ الذي تنشقُّ منه، وأما البُقْعةُ التي لم تُصبها الشمسُ إلا ساعةً من النهارِ، فالبحرُ الذي أُفْرِجَ عن بني إسرائيلَ. وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنه.

فأمَّا الحديثُ الذي رواه الطَّبَرانيُّ[3]: حدثنا أبو الزِّنْباعِ رَوحُ بنُ الفَرَجِ، حدثنا إبراهيمُ بنُ مَخْلَدٍ، حدثنا الفضلُ بنُ المختارِ عن محمدِ بنِ مسلمٍ الطائفيِّ، عن ابنِ أبي نَجيحٍ، عن مُجاهدٍ، عن جابرِ بنِ عبدِ الله، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«يا مُعاذ، إنِّي مُرْسِلُكَ إلى قَوْمٍ أهْلِ كِتَابٍ، فإذا سُئلتَ عَنِ المَجَرَّةِ التي في السَّمَاءِ فقُلْ: هي لُعَابُ حَيَّةٍ تَحْتَ العَرْشِ»**. فإنه حديثٌ مُنْكَرٌ جداً، بل الأشْبهُ أنَّه موضوعٌ، وراويهِ الفضلُ بنُ المختارِ هذا أبو سَهلٍ البَصْريُّ، ثم انتقلُ إلى مصرَ، قال فيه أبو حاتمٍ الرازيُّ: هو

---

(١) انظر «كشف الأستار» للهيثمي (٩٠٣). (٢) في «الكبير» (١٠) برقم (١٠٥٩١). (٣) في «الكبير» (٢) برقم (١٧٥٤).

مجهولٌ يُحدِّثُ بالأباطيلِ. وقال الحافظُ أبو الفتحِ الأَزْدِيُّ: منكَرُ الحديث جدًّا. وقال ابنُ عَدِيٍّ: لا يُتابَعُ علىٰ أحاديثِه، لا متنًا ولا إسنادًا. وقال اللهُ تعالىٰ: ﴿**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ**﴾ [الرعد: ١٢، ١٣]. وقالَ تعالَىٰ: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ١٦٤].

وروى الإمامُ أحمدُ[١]، عن يزيدَ بنِ هارونَ، عن إبراهيمَ بنِ سعدٍ، عن أبيه، عن شيخٍ من بني غِفَارٍ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**إنّ اللهَ يُنْشِئُ السحابَ، فَينْطِقُ أحسنَ النُّطقِ، ويَضْحَكُ أَحْسَنَ الضَّحِك**»[٢]. وروىٰ موسىٰ بنُ عبيدةَ عن سعدِ بنِ إبراهيمَ، أنَّه قال: إن نُطْقَه الرعدُ، وضِحْكَه البرقُ[٣]. وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا أبي، حدثنا هشامٌ، عن عبيدِ اللهِ الرازيِّ، عن محمد ابنِ مسلمٍ، قال: بَلَغَنا أنّ البرقَ مَلَكٌ له أربعةُ وُجوهٍ؛ وجهُ إنسانٍ، ووجهُ ثَوْرٍ، ووجهُ نَسْرٍ، ووجهُ أسدٍ، فإذا مَصَعَ بذَنَبِه، فذلك البرقُ[٤]. وقد روىٰ الإمامُ أحمدُ[٥]، والترمذيُّ[٦]، والنسائيُّ[٧]، والبخاريُّ في كتابِ الأدبِ[٨]، والحاكمُ في «مُسْتَدْرَكِه»[٩]، من حديثِ الحجاجِ بنِ أرطاةَ، حدثني أبو مَطَرٍ، عن سالمٍ، عن أبيه، قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا سمع الرعدَ والصواعِقَ قال: «**اللهُمَّ لا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِك، ولا تُهْلِكْنَا بِعذابِكَ، وعَافِنَا قَبْلَ ذَلك**»[١٠].

---

(١) في «المسند» (٥/ ٤٣٥).

(٢) إسناده صحيح: أخرجه أحمد، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (١/ ٣٥، ٣٦)، والرامهرمزي في «أمثال الحديث» (ص١٥٤)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٢٤٤)، وغيرهم من طريق إبراهيم بن سعد به قال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٢١٦): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٣) زيادة ضعيفة: أخرجها أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٢٤٥)، عن أحمد بن عمر، ثناعبد اللّه بن محمد، عن سليمان بن داود الهاشمي، قال: سألنا إبراهيم بن سعد عن هذا فقال: المنطق الرعد والضحك البرق. وذلك خلافًا لما ذكره المصنف أنه من قول سعد بن إبراهيم. وأخرجها العقيلي في «الضعفاء الكبير» (١/ ٣٥)، والرامهرمزي في «الأمثال» (ص١٥٣)، من طريق عمرو بن الحصين العقيلي، عن أمية بن سعيد الأمري، عن صفون بن سليم، عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبي هريرة مرفوعًا بلفظ: «ينشئ اللّه السحاب، ثم ينزل فيها الماء، فلا شيء أحسن من ضحكه، ولا شيء أحسن من منطقه، وضحكه البرق ومنطقه الرعد». وفيه: أمية بن سعيد، قال العقيلي: مجهول في حديثه وهم، ولعله أتي من عمرو بن الحصين. اهـ.، وفيه أيضًا عمرو بن الحصين متروك.

(٤) ضعيف: لبلاغ محمد بن مسلم، وهو ابن وارة؛ لأن مثل هذه الغيبيات لا تعلم إلا بوحي، ويغلب علىٰ ظني واللّه أعلم أن مثل ذا من الإسرائيليات.

(٥) في «المسند» (٢/ ١٠٠).

(٦) في «الجامع الصحيح» برقم (٣٤٥٠)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٧) في «الكبرىٰ» برقم (١٠٧٦٣، ١٠٧٦٤).

(٨) برقم (٧٢١).

(٩) (٤/ ٢٨٦).

(١٠) ضعيف: فيه حجاج بن أرطاة: صدوق كثير الخطأ والتدليس، وقد توبع تابعه عبد الواحد بن زياد، أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (١٠٧٦٣)، وفيه أبو مطر ـ وهو ـ مجهول، وعليه مدار الحديث. وللحديث شاهد أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» برقم (٧٨٦٢٢) من طريق ابن عيينة، عن عبد الكريم أبي أمية قال: يستحب القول إذا صعقت الصاعقة ـ وذكره. ولا يصح لأجل عبد الكريم وهو ابن أبي المخارق ضعيف. وآخر أخرجه الطبري في «التفسير» (١٣/ ١٢٤) من طريق كثير بن هشام قال: ثنا جعفر قال: بلغنا أن النبي ﷺ . . . وذكره. وفيه انقطاع.

وروىٰ ابنُ جَرِيرٍ[١] مِن حديثِ ليثٍ، عن رجلٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ، رفَعَه، كان إذا سمع الرعدَ قال: «سُبحانَ مَن يُسَبِّحُ الرعدُ بحمدِه»[٢]. وعن عليٍّ، أنَّه كان يقولُ: سبحانَ من سبَّحتْ له[٣]. وكذا عن ابنِ عباسٍ[٤]، والأسودِ بن يزيدَ[٥]، وطاوسٍ[٦]، وغيرِهم. وروىٰ مالكٌ[٧] عن عبدِ الله بنِ الزُّبيرِ[٨]، أنَّه كان إذا سَمعَ الرعدَ ترك الحديثَ، وقال: سبحانَ مَن يُسبحُ الرعدُ بحمدِه والملائكةُ من خِيفَتِه، ويقولُ: إنَّ هذا وعيد شديد لأهلِ الأرضِ[٩]. وروىٰ الإمامُ أحمدُ[١٠]، عن أبي هُرَيْرَةَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«قال ربُّكُم: لَوْ أَنَّ عَبِيدِي أَطَاعُونِي لأَسْقَيْتُهُمُ المطَرَ بالليلِ، وأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشمسَ بالنَّهارِ، ولَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ»**[١١]. وروىٰ الطبرانيُّ[١٢] عن ابنِ عباسٍ مرفوعًا: «إذا سَمِعْتُمُ الرَّعدَ فَاذْكُرُوا اللهَ، فإنَّه لاَ يُصِيبُ ذَاكِرًا»[١٣]. وكلُّ هذا مبسوطٌ في «التفسيرِ»، ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

بابُ ذكرِ خلقِ الملائكةِ وصفاتِهم عليهمُ السلامُ

قال اللهُ تعالى: **﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [آل عمران: ١٨]. وقال: **﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾** [النساء: ١٦٦]. وقال تعالى: **﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ**

---

(١) في «التفسير» (١٣/ ١٢٤) من غير هذا الوجه، وما وجدته من طريق إسرائيل عن أبيه، عن رجل، عن أبي هريرة ورفعه. وفيه راوٍ مبهم.

(٢) **إسناده ضعيف:** لأجل ليث، وهو ابن أبي سليم ضعيف، ولأجل إبهام الراوي عنه.

(٣) **ضعيف جدًا:** أخرجه الطبري في «التفسير» (١٣/ ١٢٤) من طريق مسعدة بن اليسع الباهلي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي به. وفيه مسعدة بن اليسع، ترجم له الذهبي في «الميزان» (٤/ ٩٨)، وقال: هالك. وفي الإسناد أيضًا انقطاع بين محمد بن علي أبو جعفر الباقر وجده علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) **إسناده حسن:** أخرجه الطبري في «التفسير» (١٣/ ١٢٤)، من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه به. وفيه الحكم بن أبان صدوق عابد له أوهام، وبقية رجاله ثقات.

(٥) **إسناده حسن:** أخرجه الطبري في «التفسير» (١٣/ ١٢٤)، من طريق أبي صخرة شداد بن جامع عن الأسود به. وفيه أحمد بن إسحاق الأهوازي صدوق، وبقية رجاله ثقات.

(٦) **إسناده صحيح:** أخرجه الطبري في «التفسير» (١٣/ ١٢٤)، من طريق ابن طاوس به ورجاله كلهم ثقات.

(٧) في «الموطأ» رواية يحيىٰ بن يحيىٰ (٢/ ٩٩٢) برقم (٢٦).

(٨) في المطبوعة مالك عن عامر بن عبد الله بن الزبير، ترجم له الحافظ ابن حجر في «التقريب».

(٩) **صحيح:** أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٢١٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (٧٢٣)، والبيهقي في «السنن الكبير» (٣/ ٣٦٢)، من طريق مالك، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه به.

(١٠) في «المسند» (٢/ ٣٥٩).

(١١) **ضعيف:** أخرجه الطيالسي في «مسنده» برقم (٢٥٨٦)، ومن طريقه أحمد، وعبد بن حميد في «المنتخب» برقم (١٤٢٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٤٩)، والبيهقي في «الزهد الكبير» برقم (٧١٩)، عن صدقة بن مرسي، عن محمد بن واسع، عن سمير بن نهار، عن أبي هريرة به. وفيه: صدقة بن موسىٰ ضعيف، وخلاف علىٰ محمد بن واسع، فقد أخرجه البيهقي -المصدر السابق برقم (٧١٨) عنه، عن سمير عن أبي سعيد نحوه فجعله من مسند أبي سعيد لا من مسند أبي هريرة. وقال البيهقي -بعد أن ساق الطريق الأولىٰ-: «تابعه أبو داود، عن صدقة، وهذا هو الصحيح...» إلخ.

(١٢) في «الكبير» (١١/ ١٦٤) برقم (١١٣٧١).

(١٣) **ضعيف:** أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» برقم (٧٨٢١٨) من طريق يحيىٰ بن كثير أبي النضر، عن عبدالكريم، عن عطاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما به. وفيه أبو النضر: ضعيف، وكذا عبد الكريم وهو ابن أبي المخارق.

بالقول وهم بأمره يعملون (٢٧) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون (٢٨) ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩]. وقال تعالى: ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ [الشورى: ٥]. وقال تعالى: ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم (٧) ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [غافر: ٧، ٨]. وقال تعالى: ﴿ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ [فصلت: ٣٨]. وقال: ﴿ ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون (١٩) يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]. وقال تعالى: ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم (١٦٤) وإنا لنحن الصافون (١٦٥) وإنا لنحن المسبحون ﴾ [الصافات: ١٦٤-١٦٦]. وقال تعالى: ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ﴾ [مريم: ٦٤]. وقال تعالى: ﴿ وإن عليكم لحافظين (١٠) كراما كاتبين (١١) يعلمون ما تفعلون ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]. وقال تعالى: ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ [المدثر: ٣١]. وقال تعالى: ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب (٢٣) سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]. وقال تعالى: ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ [فاطر: ١]. وقال تعالى: ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا (٢٥) الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ [الفرقان: ٢٥، ٢٦]. وقال تعالى: ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا (٢١) يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا ﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢]. وقال تعالى: ﴿ من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ [البقرة: ٩٨]. وقال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [التحريم: ٦].

والآياتُ في ذكرِ الملائكةِ كثيرٌ جداً، يصفُهم تعالى بالقوةِ في العبادة، وفي الخَلْق، وحُسنِ المنظرِ، وعَظَمَةِ الأشكال، وقوةِ الشكلِ في الصُّوَرِ المتعدّدة، كما قال تعالى: ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب (٧٧) وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ الآيات [هود: ٧٧، ٧٨]. فذكَرنا في «التفسيرِ»[1] ما ذكره غيرُ واحدٍ من العلماءِ من أنَّ الملائكةَ تبدو لهم في صورةِ شبابٍ حِسانٍ؛ امتحانًا واختباراً، حتى قامت على قومِ لوطٍ الحُجَّةُ وأخذَهم اللهُ أخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ. وكذلك كان جبريلُ يأتي إلى النبيِّ ﷺ في صفاتٍ متعددةٍ؛ فتارةً يأتي في صورةِ دِحْيَةَ بنِ خليفةَ الكَلْبِي[2]، وتارةً في صورةِ أعرابي[3]، وتارةً في صورتِه التي خلِقَ عليها، له سِتُّمائةِ جناحٍ، ما بينَ كلِّ جناحَيْن كما بين

(١) (٢/ ٤٥٣) عند الآية ٧٧، ٧٨ من سورة هود.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٦٣٤)، ومسلم برقم (٢٤٥١). (٣) أخرجه مسلم برقم (٨).

المشرقِ والمغربِ، كما رآه على هذه الصفةِ مرتين[١] ؛ مرةً مُنْهَبِطًا من السماءِ إلى الأرضِ[٢] ، ومرةً عندَ سدْرَةِ المنتهى[٣] ، عندَها جَنةُ المأوى ، وهو قولُه تعالى : ﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ**﴾ [النجم : ٥-٨]. أي جبريلُ. كما ذكرناه[٤] عن غيرِ واحدٍ من الصحابةِ ؛ منهم ابنُ مسعودٍ، وأبو هريرةَ، وأبو ذرٍّ، وعائشةُ ﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ**﴾ أي إلى عبدِ الله محمدٍ ﷺ، ثم قال : ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ**﴾ [النجم: ١٣، ١٤]. وكلُّ ذلك المرادُ به جبريلُ. وقد ذكرنا[٥] في أحاديثِ الإسراءِ في سورةِ «سبحان»، أنّ سدْرَةَ المنتهى في السماءِ السابعةِ، وفي روايةٍ: في السادسةِ أي : أصلُها وفروعُها في السابعةِ ﴿**إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ**﴾ قيل : غَشيَها نورُ الربِّ جلَّ جلالُه. وقيل : غَشيها فَراشٌ من ذهبٍ. وقيل : غَشيها ألوانٌ متعدِّدةٌ كثيرةٌ غيرُ منْحصرةٍ. وقيل : غَشيَها الملائكةُ مثلَ الغرْبانِ. وقيل : غَشيها من الله أمْرٌ، فلا يستطيعُ أحدٌ أنْ يَنْعَتَها. أي من حُسْنها وبهائها. ولا منافاةَ بين هذه الأقوالِ ؛ إذ الجميعُ مُمْكِنٌ حصولُه في حالٍ واحدةٍ.

وذكرنا أنّ رسولَ الله ﷺ قال : «**ثم رُفِعَتْ لِيَ سدْرةُ المُنْتَهى، فإذا نَبِقُها كالقلال**». وفي روايةٍ : «**كَقِلال هَجَرَ، وإذَا ورَقُها كآذَانِ الفيلَة، وإذَا يَخرُجُ منْ أَصْلِهَا نَهْران بَاطنَان، ونَهْرَان ظَاهران؛ فأمَّا البَاطنَان فَفي الجنَّة، وأمَّا الظَّاهران فالنِّيلُ والفُرَاتُ**»[٦]. وتقدم الكلامُ على هذا في ذكرِ خلْقِ الأرضِ، وما فيها من البحارِ والأنهارِ، وفيه : «**ثم رُفِعَ ليَ البيتُ المعمورُ، وإذا هُوَ يَدْخُلُه في كُلِّ يَوْمٍ سبْعُونَ ألفَ ملَك، ثُمَّ لا يَعُودُونَ إليه آخرَ ما علَيْهم**». وذكَرَ أنّه وجدَ إبراهيمَ الخليلَ عليه السلامُ مُسْنِدًا ظهرَه إلى البيتِ المعمورِ. وذكرنا وجه المناسبةِ في هذا، أنَّ البيتَ المعمورَ في السماءِ السابعةِ بمنزلةِ الكعبةِ في الأرضِ. وقد روى سفيانُ الثَّوريُّ، وشُعبةُ، وأبو الأحْوَصِ، عن سماكِ بنِ حربٍ، عن خالدِ بنِ عَرْعَرَةَ، أنَّ ابنَ الكوَّاءِ سأل عليَّ بنَ أبي طالبٍ عن البيتِ المعمورِ، فقال : هو مسجدٌ في السماءِ يُقالُ له : الضُّراحُ، وهو بحيالِ الكعبةِ من فوقِها، حُرْمتُه في السماءِ كحُرْمةِ البيتِ في الأرضِ، يصلِّي فيه كلَّ يومٍ سبعونَ ألفًا من الملائكةِ، لا يعودونَ فيه أبدًا[٧]. وهكذا روى عليُّ بنُ ربيعةَ[٨]، وأبو الطُّفَيلِ[٩]، عن عليٍّ مثلَه. وقال الطبرانيُّ[١٠]: حدَّثنا الحسنُ ابنُ علُّويه القطانُ، حدثنا إسماعيلُ بنُ عيسى العطارُ، حدثنا إسحاقُ بنُ بشرٍ أبو حُذيفةَ، حدثنا ابنُ جُرَيجٍ، عن صفوانَ بنِ سُلَيمٍ، عن كُرَيْبٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال : قال رسولُ الله ﷺ: «**البيتُ المَعْمُورُ في السماءِ يُقالُ له: الضُّرَاحُ، وهُوَ علَى مِثلِ البيتِ الحَرامِ بحِيالِه، لو سَقَطَ لَسقَطَ عَلَيْه، يَدْخُلُه كلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٨٥٥)، ومسلم برقم (١٧٧).

(٢)، (٣) أخرجه مسلم برقم (١٧٧).

(٤) في «التفسير» (٤/ ٤٧ : ٢٥٢) عند الآيات ٥ : ١٨ من سورة النجم.

(٥) في «التفسير» (٣/ ٢).

(٦) تقدم تخريج هذه الروايات.

(٧) **إسناده ضعيف**: أخرجه الطبري في «التفسير» (٢٧/ ١٦)، من طرق عن سماك بن حرب، عن خالد بن عرعرة به. وفيه خالد بن عرعرة : مجهول فقد ترجم له البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ١/ ١٦٢)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٣/ ٣٤٣)، ولم يذكراه بجرح ولا تعديل، وفي الإسناد أيضًا سماك بن حرب : وهو صدوق تغير بآخره.

(٨) **إسناده حسن**: أخرجه الطبري في «التفسير» (٢٧/ ١٧)، عن علي بن ربيعة نحوه، وفيه عاصم بن أبي النجود : صدوق له أوهام، وبقية رجاله ثقات.

(٩) **إسناده ضعيف**: أخرجه الطبري في «التفسير» (٢٧/ ١٧)، من طريق أبي الطفيل نحوه ، وفيه شيخ الطبري محمد بن حميد الرازي : ضعيف.

(١٠) في «المعجم الكبير» (١١/ ٤١٧) برقم (١٢١٨٥).

ألفَ مَلَك، ثُمّ لا يرَوْنَه قَطُّ، وإنَّ له في السماء حُرْمةً علَى قَدْرِ حُرْمَة مَكَّةَ». يعني في الأرضِ(١). وهكذا قال العَوْفِيُّ عن ابنِ عباسٍ، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والربيعُ بنُ أنسٍ، والسُدِّيُّ، وغيرُ واحدٍ(٢). وقال قَتادَةُ: ذُكِرَ لنا أنَّ رسولَ الله ﷺ قال يومًا لأصحابِه: **«هلْ تَدْرونَ ما البيْتُ المعْمُورُ؟»** قالوا: اللهُ ورسُولُه أعلمُ. قال: **«فإنَّه مَسْجدٌ في السماء بحيَال الكَعْبَة، لو خَرّ لَخَرّ عليها، يُصَلِّي فيه كلَّ يومٍ سبْعونَ ألفَ مَلَك، إذا خَرَجُوا منْه لَم يَعُودُوا آخرَ ما عَلَيْهم»**(٣). وزعم الضَّحّاكُ أنَّه تعمُرُه طائفةٌ مِن الملائكة يُقالُ لهم الجِنُّ، مِن قبيلة إبليسَ لعنَهُ اللهُ(٤)، كان يقولُ: سَدَنَتُه وخدَّامُه منهم. واللهُ أعلمُ. وقال آخرون: في كلِّ سماءٍ بيتٌ تعمُرُه ملائكتُها بالعبادةِ فيه، ويَفِدُون إليه بالنَّوْبةِ والبَدلِ؛ كما يعمُرُ أهلُ الأرضِ البيتَ العتيقَ بالحجِّ في كلِّ عامٍ، والاعتمارِ في كلِّ وقتٍ، والطّوافِ والصلاةِ في كلِّ آنٍ.

قال سعيدُ بنُ يحيى بنِ سعيد الأمويُّ، في أوائلِ كتابه «المغازي»: حدثنا أبو عبيدٍ في حديثِ مُجاهدٍ أَنّ الحرمَ حرامٌ مَناهُ ـ يعني قَدْرُه ـ مِن السمواتِ السبعِ والأرَضينَ السبعِ وأنّه رابعُ أربعةَ عشرَ بيتًا، في كلِّ سماءٍ بيتٌ، وفي كلِّ أرضٍ بيتٌ، لو سقطتْ، سقط بعضُها على بعضٍ. ثم روَىٰ عن مُجاهدٍ قال: مَناه؛ أي مقابلُه، وهو حرفٌ مقْصورٌ. ثم قال: حدثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأعْمشُ، عن أبي سليمانَ مؤذِّنِ الحجاجِ: سمعتُ عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو يقولُ: إنّ الحرمَ مُحرَّمٌ في السمواتِ السبعِ مقدارُه من الأرضِ، وإنَّ بيتَ المقدسِ مُقدَّسٌ في السمواتِ السبعِ مقدارُه من الأرضِ(٥). كما قال بعضُ الشعراء:

إنّ الذي سَمَكَ السّماءَ بَنَى لنا ... بيْتًا دَعائمُه أشدُّ وأطوَلُ

واسمُ البيتِ الذي في السماءِ الدُّنيا «بيتُ العِزَّة»(٦)، واسمُ المَلَكِ الذي هو مُقَدَّمُ الملائكةِ فيها «إسماعيلُ»، فعلىٰ هذا يكونُ السبعونَ ألفًا مِن الملائكةِ الذين يدخُلونَ في كلِّ يومٍ إلىٰ البيتِ المعمورِ ثم لا يعودون إليه آخرَ ما عليهم، أي: لا تَحْصُلُ لهم نَوْبةٌ فيه إلىٰ آخرِ الدهرِ، يكونون مِن سكانِ السماءِ السابعةِ وحدَها، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ**﴾ [المدثر: ٣١].

وقَال الإمامُ أحمدُ(٧): حدثنا أسودُ بنُ عامرٍ، حدثنا إسرائيلُ، عن إبراهيمَ بنِ مهاجرٍ، عن مُجاهدٍ، عن مُورِّقٍ، عن أبي ذَرٍّ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«إنِّي أرَى ما لا تَرَوْنَ، وأسْمَعُ ما لا**

---

(١) **ضعيف جدًا**: قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١٣): «رواه الطبراني، وفيه إسحاق بن بشر أبو حذيفة، وهو متروك» اهـ. وفيه عنعنة ابن جريج.

(٢) انظر «التفسير» (٤/ ٢٣٩) عند الآية ٤ من سورة الطور.

(٣) **مرسل صحيح**: أخرجه الطبري في «التفسير» (٢٧/ ١٧) قال الشيخ الألباني رحمه الله في «الصحيحة» برقم (٤٧٧): وهذا إسناد مرسل صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين، غير بشر وهو ابن هلال الصواف، فمن رجال مسلم وحده، وجملة القول: أن هذه الزيادة «حيال الكعبة» ثابتة بمجموع طرقها، وأصل الحديث أصح، والله أعلم.

(٤) **إسناده منقطع**: أخرجه الطبري في «التفسير» (٢٧/ ١٧)، قال: حدثت عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ يقول: أخبرنا عبيد قال: سمعت الضحاك يقول في قوله: «والبيت المعمور يزعمون وساقه. وفيه انقطاع بيِّن، وجهالة من حدث عنهم الطبري رحمه الله.

(٥) **لم أقف على من أخرجه**: ورجاله كلهم ثقات غير مؤذن الحجاج لم أقف عليه.

(٦) **إسناده حسن**: أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» برقم (٧٩٩١)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ٣٢) برقم (١٢٣٨١)، والطبري في «التفسير» (٢/ ١٤٤)، وغيرهم من طرق عن الأعمش عن حسان بن أبي الأشرس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به. وفيه: حسان: صدوق، وبعض الرواة فيما دون الأعمش يتابع بعضهم بعضًا.

(٧) في «المسند» (٥/ ١٧٣).

تَسْمَعُون، أَطَّت السماءُ وحُقَّ لها أن تَئط، ما فيها مَوْضِعُ أربَعِ أصابعَ إلا عليه مَلَكٌ ساجدٌ، لو علمْتُم ما أعْلَمُ لضَحكْتُمْ قليلاً ولَبَكَيْتُمْ كثيراً، ولَمَا تَلَذَّذْتُم بالنساء على الفُرُشَات، ولخَرَجْتُم إلى الصُّعُدات تَجْأَرونَ إلى الله عزَّ وجلَّ». فقال أبو ذرٍّ: والله لَوَددتُ أَنِّي شجرةٌ تُعْضَد(١). رواه الترمذيُّ(٢) وابنُ ماجَه(٣) مِن حديثِ إسرائيلَ. وقال الترمذيُّ: حسنٌ غريبٌ، ويُروىٰ عن أبي ذرٍّ موقوفًا(٤).

وقال الحافظُ أبو القاسمِ الطبَراني(٥): حدثنا حسينُ بنُ عرفةَ المصريُّ، حدثنا عُرْوةُ بنُ مروانَ الرَّقيُّ، حدثنا عُبيدُ اللهِ بنُ عمرٍو، عن عبد الكَريمِ بنِ مالكٍ، عن عطاءِ بنِ أبي رَباحٍ، عن جابرِ بنِ عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«ما في السموات السبعِ مَوْضِعُ قَدَمٍ ولا شبْرٍ ولا كَفٍّ إلا وفيه مَلَكٌ قائمٌ، أو مَلَكٌ ساجدٌ، أو مَلَكٌ راكعٌ، فإذا كان يومُ القيامَةِ، قالُوا جَميعًا: ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتكَ إلا أنَّا لم نُشْرِكْ بكَ شيْئًا»**(٦). فدلَّ هذان الحديثان علىٰ أنّه ما مِن موضعٍ في السموات السبعِ إلا وهو مشغولٌ بالملائكة. وهم في صُنُوفٍ مِن العبادةِ؛ منهم مَن هو قائمٌ أبدًا، ومنهم مَنْ هو راكعٌ أبدًا، ومنهم مَنْ هو ساجدٌ أبدًا، ومنهم مَن هو في صُنوفٍ أُخَرَ اللهُ أعلمُ بها، وهم دائمون في عبادتِهم وتسبيحِهم وأذكارِهم وأعمالِهم التي أمرهمُ اللهُ بها، ولهم منازلُ عندَ ربِّهم، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ**﴾ [الصافات: ١٦٤-١٦٦]. وقال ﷺ: **«ألا تَصفُّونَ كما تَصفُّ الملائكةُ عندَ ربِّها؟»**. قالوا: وكيفَ يَصُفُّونَ؟ قال: **«يُتمُّونَ الصُّفوفَ الأُولَ، ويتراصُّونَ في الصَّفِّ»**(٧). وقال: **«فُضِّلْنا على الناس بثَلاثٍ؛ جُعلَتْ لَنا الأرضُ مَسْجِدًا وتُرْبَتُها لَنا طَهُورًا، وجُعلَتْ صُفُوفُنا كَصُفُوفِ الْمَلائكَةِ»**(٨). وكذلك يأتون يومَ القيامةِ بينَ يدَيِ الربِّ جلَّ جلالُه صفوفًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [الفجر: ٢٢]. ويقفون صفوفًا بين يدي ربِّهم عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا**﴾ [النبأ: ٣٨]. والمرادُ بالروحِ ههنا بنو آدَمَ. قاله ابنُ عباسٍ والحسنُ وقَتادةُ. وقيل: ضَرْبٌ مِن الملائكة يُشْبِهونَ بني آدمَ في الشكلِ. قاله ابنُ عباسٍ ومُجاهدٌ وأبو صالحٍ والأَعْمشُ. وقيل: جبريلُ. قاله الشَّعْبيُّ وسعيدُ بنُ جبيرٍ والضَّحَاكُ. وقيل: مَلَكٌ يُقال له: الروحُ، بقَدرِ جميعِ المخلوقات. قال عليُّ بنُ أبي طَلْحةَ، عن ابنِ عباسٍ: قولُه: ﴿**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ**﴾ قال: هو مَلَكٌ مِن أعظمِ الملائكةِ خَلْقًا.

---

(١) **إسناده ضعيف**: لأجل إبراهيم بن مهاجر: صدوق لين الحفظ، والحديث جله صحيح إذ له شواهد في الصحيحين وغيرهما، ودون قول أبي ذر رضي الله عنه: «لوددت أني شجرة تعضد»، إذ هي مدرجة من قوله والله أعلم.

(٢) في «الجامع الصحيح» برقم (٢٣١٢)، وقال: «وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس وأنس قال: هذا حديث حسن غريب، ويروىٰ من غير هذا الوجه أن أبا ذر قال: لوددت أني كنت شجرة تعضد». اهـ.

(٣) في «السنن» برقم (٤١٩٠).

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٧٩)، وصححه وقال: علىٰ شرط الشيخين، وتعقبه الذهبي بقوله: قلت: منقطع، ثم يونس رافضي لم يخرجا له. اهـ.

(٥) في «المعجم الكبير» (٢/ ١٨٤) برقم (١٧٥١).

(٦) **إسناده ضعيف**: ذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ٥١، ٥٢)، وقال: . . . فيه عروة بن مروان. اهـ.
وقال الدارقطني كما في «الميزان» للذهبي (٣/ ٦٤) كان أميًا ليس بقوي الحديث. اهـ.

(٧) أخرجه مسلم برقم (٤٣٠)، عن جابر بن سمرة.

(٨) أخرجه مسلم برقم (٥٢٢)، عن حذيفة.

وقال ابنُ جرير(١): حدثني محمدُ بنُ خلفِ العَسْقَلانيُّ، حدثنا روّادُ بنُ الجراحِ، عن أبي حمزةَ، عن الشَّعْبيِّ، عن عَلْقمَةَ، عن ابنِ مسعودٍ، قال: الرُّوحُ في السماء الرابعة هو أعظمُ من السموات والجبالِ ومن الملائكة، يسبِّحُ كلَّ يومٍ اثْنَيْ عشرَ ألفَ تسبيحةٍ، يَخْلُق اللهُ من كلِّ تسبيحةٍ مَلَكًا من الملائكة يجيءُ يومَ القيامة صفًّا وحدَه(٢). وهذا غريبٌ جدًّا.

وقال الطبراني(٣): حدثنا محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ عُرسٍ المصريُّ، حدثنا وهبُ الله بنُ رزقٍ أبو هريرةَ، حدثنا بشرُ بنُ بكرٍ، حدثنا الأوْزاعيُّ، حدثني عطاءٌ، عن عبد الله بنِ عباسٍ، قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**إنَّ لله مَلَكًا لو قيل له: الْتَقِم السموات والأرضينَ بلُقْمَةٍ واحدة. لَفَعل، تَسْبيحُهُ: سُبْحانَكَ حَيْثُ كُنْتَ**»(٤). وهذا أيضًا حديثٌ غريب جدًّا، وقد يكونُ موقوفًا. وذكرنا في صفة حَمَلَةِ العرشِ، عن جابرِ بنِ عبد الله، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**أُذِنَ لي أنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ من مَلائِكَة الله مِنْ حَمَلَة العَرْشِ، إنَّ ما بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِه إلى عاتِقه مَسيرةُ سَبعمائة عامٍ**»(٥). رواه أبو داودَ(٦)، وابنُ أبي حاتمٍ، ولَفْظُه: «**مَخْفقُ الطيرِ سبْعَمائة عامٍ**».

وقد ورد في صفة جبريلَ عليه السلامُ أمرٌ عظيمٌ، قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]. قالوا: كان من شدة قوته أنه رفع مَدائنَ قومِ لوطٍ، وكُنَّ سَبْعًا، بمن فيها من الأمم، وكانوا قريبًا من أربعمائة ألفٍ، وما معهم من الدوابِّ والحيوانات، وما لتلك المَدائنِ من الأراضي والمُعْتَمَلات والعمارات وغيرِ ذلك، رفع ذلك كلَّه على طَرَفِ جناحه حتى بلغ بهنَّ عَنانَ السماء، حتى سَمِعَت الملائكةُ نُباحَ كلابهم، وصياحَ ديَكَتِهم، ثم قَلَبها، فجعل عاليَهَا سافلَها(٧). فهذا هو شديدُ القُوَى.

وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي؛ ذو خَلْقٍ حَسَنٍ وبهاءٍ وسناءٍ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]. أي؛ جبريلُ رسولٌ من الله ﴿كَرِيمٍ﴾ أي: حَسَنُ المنظر ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أي؛ له قوةٌ وبأسٌ شديدٌ ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي؛ له مكانةٌ ومنزلةٌ عاليةٌ رفيعةٌ عندَ الله ذي العرشِ المجيد ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي؛ مُطاعٌ في الملأِ الأعلَى، ﴿أَمِينٍ﴾ أي: ذُو أمانةٍ عظيمةٍ، ولهذا كانَ هو السفير بَيْنَ اللهِ وبَيْنَ أنبيائه عليهمُ السلامُ، الذي ينزلُ عليهم بالوحي؛ فيه الأخبارُ الصادقةُ والشرائعُ العادلةُ. وقد كان يأتي إلى رسولِ الله ﷺ وينزلُ عليه في صفاتٍ متعدِّدةٍ كما قدَّمْنا. وقد رآه على صفَتِه التي خلَقَه اللهُ عليها مرتين، له ستُّمائة جناحٍ، كما روى البخاري(٨)، عن طلْقِ بنِ غَنَّام، عن زائدةَ، عن الشَّيْبانيِّ، قال: سألتُ زِرًّا عن قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٩، ١٠]. قال: حدثنا عبدُ الله، يعني ابنَ مسعودٍ، أنَّ محمدًا ﷺ رأى جبريلَ له ستُّمائة جَناحٍ.

---

(١) في «التفسير» (٣٠/ ٢٢). (٢) **ضعيف جدًّا**: في إسناده محمد بن خلف العسقلاني: صدوق اختلط بأخره فتُرك، وأبو حمزة هو ثابت بن أبي صفية الثمالي: ضعيف.

(٣) في «المعجم الكبير» (١١/ ١٩٥) برقم (١١٤٧٦).

(٤) **ضعيف**: ذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ٨٠)، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط والكبير»، وقال: تفرد به وهب بن رزق، قلت: ولم أر من ذكر له ترجمة. اهـ. قلت: وفيه بشر بن بكر ثقة يغرب.

(٥) **صحيح**: وقد تقدم. (٦) في «السنن» برقم (٤٧٢٧).

(٧) ذكره المصنف في «التفسير» (٢/ ٤٥٥)، عند الآية ٨٢ من سورة هود. (٨) برقم (٤٨٥٧).

وقال الإمامُ أحمدُ[١] : حدثنا يحيىٰ بنُ آدمَ، حدثنا شَرِيكٌ، عن جامعِ بنِ أبي راشدٍ، عن أبي وائلٍ، عن عَبدِ الله، قال: رأىٰ رسولُ اللهِ ﷺ جبريلَ في صورتِه، وله ستّمائةِ جَناحٍ كلُّ جناحٍ منها قد سدَّ الأفقَ، يسقطُ من جناحِه من التهاويلِ مِن الدُّرِّ والياقوت ما اللهُ به عليمٌ.

وقال أحمدُ أيضًا[٢] : حدثنا حسنُ بنُ موسىٰ، حدثنا حمادُ بنُ سَلَمَةَ، عن عاصمِ بنِ بَهْدَلَةَ، عن زِرِّ بنِ حُبَيْشٍ، عن ابن مسعودٍ في هذه الآيةِ: ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ** ﴾ [النجم: ١٣، ١٤]. قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**رأيتُ جبريلَ وله ستُّمائة جَنَاحٍ، يَنْتَثِرُ مِنْ ريشِه التَّهَاويلُ؛ الدرُّ والياقُوتُ**»[٣] . وقال أحمدُ[٤]: حدثنا زيدُ بنُ الحُباب، حدثنا حسينٌ، حدثني عاصمُ بنُ بَهْدَلَةَ، سَمعتُ شقيقَ بنَ سَلَمَةَ يقولُ: سَمعتُ ابنَ مسعودٍ يقولُ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**رأيتُ جبْريلَ على سِدْرَةِ المُنتهىٰ وله ستُّمائة جَنَاحٍ**». فسألتُ عاصمًا عن الأجنحَةِ، فأبىٰ أنْ يُخبِرَني، قال: فأخبَرَني بعضُ أصحابِه أَنَّ الجَناحَ ما بينَ المشرقِ والمغربِ. وهذه أسانيدُ جيدةٌ قويةٌ، انفرد بها أحمدُ.

وقال أحمدُ[٤]: حدثنا زيدُ بنُ الحُبابِ، حدثني حسينٌ، حدثني حُصَيْنٌ، حدثني شقيقٌ، سمعتُ ابنَ مسعودٍ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أتاني جبريلُ في خَضْرٍ تَعلَّقَ به الدُّرُّ**». إسنادُه صحيحٌ.

وقال ابنُ جرير[٥] : حدثنا ابنُ بزيع البغداديُّ، قال: حدثنا إسحاقُ بنُ منصورٍ، قال: حدثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحَاقَ، عن عبدِ الرحمنِ بن يزيدَ، عن عبدِ اللهِ في قولِه: ﴿ **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ** ﴾ [النجم: ١١]. قال: رأىٰ رسولُ اللهِ ﷺ جبريلَ عليه حُلَّتا رَفْرَفٍ، قد ملأَ ما بينَ السماءِ والأرضِ. إسنادٌ جيدٌ قويٌّ. وفي «الصحيحين»[٦] من حديثِ عامرٍ الشَّعْبيِّ، عن مسروقٍ، قال: كنتُ عندَ عائشةَ، فقلتُ: أليسَ اللهُ يقولُ: ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ** ﴾ [التكوير: ٢٣]. ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ** ﴾ [النجم: ١٣]. فقالتْ: أنا أولُ هذه الأمةِ سألَ رسولَ اللهِ ﷺ عنها، فقال: «**إنَّما ذاكَ جبريلُ**». لم يرَه في صورتِهِ التي

---

(١) **لم أقف عليه** في «المسند» عن أحمد بهذا الإسناد، وقد ذكره الحافظ ابن حجر في «المسند المعتلي» (٤/ ١٥٨)، وما وجدته في «مسند أحمد» (١/ ٣٩٥) من طريق حجاج، عن شريك، عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل، عن عبد اللّه به.

(٢) في «المسند» (١/ ٤٦٠).

(٣) **إسناده حسن**: وفي النفس من الزيادة الأخيرة شيء؛ إذ قد اختلف علىٰ عاصم بن أبي النجود فيها والخلاف عليه من وجوه:
الأول: ما أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٤١٢، ٤٦٠)، والهيثم بن كليب في «مسنده» برقم (٦٦٢)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» برقم (٥٣٦٠)، وغيرهم، من طرق عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر بن حبيش، عن عبد اللّه به بالزيادة، فخالف بذلك ما رواه البخاري برقم (٤٨٥٧)، والشاشي في «مسنده» برقم (٦٦٣)، من طريق الشيباني عن زر عن ابن مسعود به بدون ذكر الزيادة.
الثاني: ما رواه أحمد في «المسند» (١/ ٣٩٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» برقم (٥٠٢)، من طريق شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود به بالزيادة. فجعله من حديث أبي وائل شقيق بن سلمة لا من حديث زر، ثم إنه قد اختلف عليه علىٰ أبي وائل أيضًا، فقد أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٤٠٧)، والطبري في «التفسير» (٢٧/ ٤٩)، من طريق زيد بن الحباب، عن الحسين بن واقد، عن عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود به، بدون ذكر الزيادة.
الثالث: ما أخرجه أبو الشيخ في «طبقات المحدثين بأصبهان» (٢/ ١٣٩)، من طريق عاصم، عن الشعبي، عن عائشة بنحوه وفيه الزيادة، فجعله من حديث عائشة لا من حديث ابن مسعود، وعاصم بن بهدلة صدوق له أوهام، ولا يتحمل كل هذا الخلاف، واللّه أعلم.

(٤) في «المسند» (١/ ٤٠٧). (٥) في «التفسير» (٢٧/ ٤٩).

(٦) أخرجه البخاري برقم (٤٨٥٥)، ومسلم برقم (١٧٧).

خُلق عليها إلا مرَّتين؛ رآه مُنْهَبِطًا من السماء إلى الأرض، سادًّا عِظَمُ خَلْقه ما بينَ السماءِ والأرضِ.

وقال البخاري[١]: حدثنا أبو نُعَيْم، حدثنا عمرُ بنُ ذَرٍّ (ح)، وحدثني يحيى بنُ جعفرٍ، حدثنا وكيعٌ، عن عمرَ بنِ ذرٍّ، عن أبيه، عن سعيد بنِ جُبَيرٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ لجبريلَ: «**ألا تَزُورُنا أكثَرَ مما تَزُورُنا**». فنزَلت: ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا**﴾ الآيَةُ [مريم: ٦٤]. وروىٰ البخاريُّ[٢] من حديث الزهريِّ، عن عبيد الله بنِ عبد الله، عن ابنِ عباسٍ، قال: كان رسولُ الله ﷺ أجودَ الناسِ بالخيرِ، وكان أجودَ ما يكونُ في رمضانَ حينَ يَلْقاه جبريلُ، وكان يَلْقاه في كلِّ ليلةٍ من رمضانَ فيدارسُه القرآنَ، فلَرسولُ الله ﷺ أجودُ بالخيرِ من الرِّيحِ المُرْسَلَةِ.

وقال البخاري[٣]: حدثنا قُتَيْبةُ، حدثنا اللَّيْثُ، عن ابنِ شهابٍ، أنَّ عمرَ بنَ عبد العزيزِ أخَّرَ العصرَ شيئًا، فقال له عروةُ: أمَا إنَّ جبريلَ قد نزَل فصلَّى أمامَ رسولِ الله ﷺ. فقال عمرُ: أعلَمْ ما تقولُ يا عروةُ. قال: سمعتُ بَشيرَ بنَ أبي مسعودٍ يقولُ: سمعتُ أبا مسعودٍ يقولُ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقـــولُ: «**نزَل جبريلُ فأمَّني فصلَّيتُ معه، ثم صلَّيتُ معه، ثم صلَّيتُ معه، ثم صلَّيتُ معه**». يَحْسُبُ بأصابعِه خَمْسَ صَلَواتٍ.

ومن صفة إسرافيلَ عليه السلامُ، وهو أحد حَمَلَةِ العرشِ، وهو الذي ينفخُ في الصُّورِ بأمرِ ربِّه نَفَخاتٍ ثلاثًا؛ أولاهنَّ نفخةُ الفزعِ، والثانيةُ نفخةُ الصَّعْقِ، والثالثة نفخةُ البَعْثِ، كما سيأتي بيانُه في مَوْضعه من كتابنا هذا بحولِ الله وقوته وحُسنِ توفيقه. والصُّورُ قَرْنٌ يُنْفَخُ فيه، كلُّ دارةٍ منه كما بينَ السماءِ والأرضِ، وفيه موضعُ أرواحِ العبادِ حينَ يأمُرُه اللهُ بالنفخِ للبعثِ فإذا نفخَ، تخرجُ الأرواحُ تتوهَّجُ، فيقولُ الربُّ جلَّ جلالُه: وعزتي وجلالي لترجعَنَّ كلُّ رُوحٍ إلى البَدَنِ الذي كانت تَعْمُرُه في الدنيا. فتدخلُ على الأجسادِ في قبورِها، فتدبُّ فيها كما يدبُّ السمُّ في اللديغِ، فتَحْيَى الأجسادُ، وتنشقُّ عنهم الأجداثُ، فيَخْرُجون منها سِراعًا إلى مَقامِ المحشرِ. كما سيأتي تفصيلُه في مَوْضعه. ولهذا قال رسولُ الله ﷺ: «**كيفَ أَنْعَمُ وصاحبُ القَرْنِ قَدِ التقَمَ القَرْنَ، وحنَى جَبْهَتَه، وانْتَظَرَ أنْ يُؤْذَنَ لَه؟!**» قالوا: كَيْفَ نَقُولُ يا رَسُولَ الله؟ قال: «**قولوا: حَسْبُنَا اللهُ ونعْمَ الوكيلُ، عَلَى الله توَكَّلْنَا**». رواه أحمدُ[٤] والتِّرمذيُّ[٥] من حديثِ عطيةَ العَوْفيِّ عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ[٦].

---

(١) برقم (٣٢١٨). (٢) برقم (٦). (٣) برقم (٣٢٢١).

(٤) في «المسند» (١/ ٣٢٦). (٥) في «الجامع الصحيح» برقم (٢٤٣١)، وقال: هذا حديث حسن، وقد روي من غير وجه هذا الحديث عن عطية، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ نحوه.

(٦) **إسناده ضعيف، ومتنه صحيح**: فقد رواه غير واحد بهذا الإسناد منهم الطبراني في «المعجم الصغير» برقم (٤٥)، وفي «الأوسط» برقم (٢٠٠٠)، وابن المبارك في «الزهد» برقم (١٥٩٧)، وفيه عطية العوفي: ضعيف، وقد اختلف عليه: فأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٣٥٢)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٢٨) برقم (١٢٦٧٠)، من طريق عطية العوفي عن ابن عباس به. وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٩)، والطبراني «أيضًا» (٥/ ١٩٥) برقم (٥٠٧٢)، من طريق عطية العوفي عن زيد بن أرقم به. قال ابن عدي: هذا يرويه خالد بن طهمان، عن زيد بن أرقم، ويرويه مطرف ومن تابعه عليه، عن عطية، عن ابن عباس. ورواه جماعة كثيرة عن عطية عن أبي سعيد، وهذا أصحها. اهـ.

قلت: وثم متابع لعطية العوفي أخرجه ابن حبان في «صحيحه» برقم (٨٢٣) بإسناد رجاله كلهم ثقات، عن أبي صالح، عن أبي سعيد به، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٥٩) بنحوه ولكن فيه راو واه. وللحديث شاهد أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» برقم (١١٠٨٢)، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» برقم (٥٣٨)، من طريق الأعمش، عن أبي صالح عن أبي هريرة به. وإسناد الأخير رجاله كلهم ثقات.

وقال الإمامُ أحمدُ[١]: حدثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأَعْمَشُ، عن سعدٍ الطائيِّ، عن عطيةَ العَوْفِيِّ، عن أبي سعيدٍ، قال: ذكَر رسولُ اللهِ ﷺ صاحبَ الصُّورِ، فقال: «**عن يَمِينِه جِبْرِيلُ، وعن يَسارِه مِيكَائِيلُ، عليهم السلامُ**».

وقال الحافظُ أبو القاسمِ الطبرانيُّ[٢]: حدثنا محمدُ بنُ عبدِ اللهِ الحَضْرميُّ، حدثنا محمدُ بنُ عمرَ بنِ أبي ليلَىٰ، حدثني أبي، عن ابنِ أبي ليلَىٰ، عن الحكمِ، عن مِقْسمٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: بَيْنا رسولُ الله ﷺ ومعه جبريلُ بناحيةٍ، إذ انشقَّ أُفُقُ السماء، فأقبلَ إسرافيلُ يدنو من الأرضِ ويَتمايَلُ، فإذا مَلَكٌ قد مَثَلَ بينَ يَدَيِ النَّبيِّ ﷺ فقال: يا محمدُ، إنَّ اللهَ يأمُرُكَ أَنْ تختارَ بينَ نَبيٍّ عَبْدٍ أو مَلِكٍ نبيٍّ؟ قال: «**فأشَارَ جبريلُ إليَّ بيده أَنْ تَواضَعْ، فَعَرَفْتُ أَنَّه لي ناصِحٌ، فقلتُ: عَبْدٌ نَبِيٌّ، فَعَرَجَ ذلك المَلَكُ إلى السماءِ، فَقُلْتُ: يا جبريلُ، قد كنتُ أردتُ أَنْ أسأَلَكَ عَنْ هذا فرأيتُ مِنْ حالِكَ ما شَغَلَني عَنِ المسألة، فَمَنْ هذا يا جبْرِيلُ؟ قال: هذا إسْرافيلُ عليه السلامُ، خَلَقَه اللهُ يومَ خَلَقَه بينَ يَدَيه، صَافًّا قَدَمَيْه، لا يرفَعُ طَرْفَه، بينَه وبينَ الربِّ سبْعونَ نُوراً، ما منْها من نُورٍ يَكادُ يَدْنُو منهُ إلاَّ احتَرقَ، بينَ يَدَيْه لَوحٌ، فإذا أذِنَ اللهُ في شيءٍ منَ السماءِ أوْ في الأرْضِ، ارْتَفَعَ ذلكَ اللَّوْحُ فَضَرَبَ جَبْهَتَه، فَيَنْظُرُ، فإنْ كانَ منْ عَمَلي، أمَرَني به، وإنْ كانَ مَنْ عَمَلِ مِيكَائيل، أَمَرَهُ به، وإن كان منْ عملِ مَلَكِ المَوْت، أَمَرَه به. قلتُ: يا جبريلُ، وعلى أَيِّ شيءٍ أَنْتَ؟ قالَ: على الرِيحِ والجُنُودِ. قلتُ وعلى أيِّ شيءٍ ميكائيلُ؟ قالَ: على النبات والقَطْرِ. قلتُ: وعلى أيِّ شيءٍ مَلَكُ المَوْتِ؟ قال: على قَبْضِ الأنفُسِ، وما ظَنَنْتُ أَنَّه نَزَلَ إلا لقِيامِ الساعَةِ، وما الذي رأيتَ منِّي إلاَّ خَوْفًا من قيامِ الساعَةِ**». هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه. وفي «صحيحِ مسلمٍ»[٣]، عن عائشة أَنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا قامَ منَ الليلِ يُصَلِّي يقولُ: «**اللهمَّ ربَّ جبْريلَ وميكائيلَ وإسْرَافيلَ، فاطرَ السمَواتِ والأرضِ، عالمَ الغَيْبِ والشَّهَادَة، أنتَ تَحْكُمُ بينَ عبَادكَ فيما كانوا فيه يَخْتَلِفُونَ، اهدني لما اخْتُلِفَ فيه منَ الحَقِّ بإذْنِك، إنَّكَ تَهْدي مَنْ تَشَاءُ إلى صراطٍ مُسْتَقيمٍ**».

وفي حديثِ الصُّورِ[٤] أَنَّ إسرافيلَ أولُ مَن يبعثُه اللهُ بعدَ الصَّعْقِ لينفُخَ في الصُّورِ. وذكَر محمدُ ابنُ الحسنِ النَّقَّاشُ أَنَّ إسرافيلَ أولُ مَن سجَد من الملائكةِ، فَجُوزِيَ بولايةِ اللوحِ المحفوظِ. حكاه أبو القاسمِ السُّهَيليُّ في كتابِه «التعريفُ والإعلامُ بما أُبْهِمَ في القرآنِ من الأعلامِ». وقال تعالىٰ: ﴿**مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ**﴾ [البقرة: ٩٨]. عَطَفَهما على الملائكة؛ لشرفِهما، فجبريلُ مَلَكٌ عظيمٌ قد تقدّم ذكرُه، وأمَّا ميكائيلُ فمُوكَّلٌ بالقَطْرِ والنباتِ، وهو ذو مكانةٍ مِن ربِّه عَزَّ وَجَلَّ، ومِن أشرافِ الملائكةِ المقرَّبين.

وقد قال الإمامُ أحمدُ[٥]: حدثنا أبو اليمانِ، حدثنا ابنُ عيَّاشٍ، عن عمارةَ بنِ غَزِيَّةَ الأنصاريِّ، أَنَّه سَمِعَ حُمَيْدَ بنَ عُبَيْدٍ مولىٰ بني المُعَلَّىٰ، يقولُ: سمعتُ ثابتًا البنانيَّ يحدِّثُ عن أنسِ بنِ مالكٍ، عن

---

(١) في «المسند» (٣/ ٩، ١٠)، وفي إسناده عطية العوفي: ضعيف.

(٢) في «الكبير» (١١/ ٣٧٩) برقم (١٢٠٦١)، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ: صدوق سيئ الحفظ، وفيه أيضًا رواية الحكم عن مقسم قال أحمد: لم يسمع الحكم من مقسم إلا أربعة أحاديث، وأما غير ذلك فأخذها من كتاب، انظر «تهذيب التهذيب».

(٣) برقم (٧٧٠).

(٤) سيأتي قريبًا إن شاء الله.

(٥) في «المسند» (٣/ ٢٢٤).

رسول الله ﷺ أنَّه قال لجبريلَ: «**ما لي لَمْ أرَ ميكائيلَ ضاحكًا قَطُّ؟**» فقال: «ما ضَحِكَ ميكائيلُ منذُ خُلِقَت النارُ»[١]. فهؤلاء الملائكةُ المصرَّحُ بذكرِهم في القرآنِ وفي الصِّحاحِ هم المذكورون في الدعاءِ النَّبويِّ: «**اللهمَّ ربَّ جبْريلَ وميكائيلَ وإسْرَافيلَ**». فجبريلُ ينزلُ بالهُدَىٰ على الرسلِ لتبليغِ الأممِ، وميكائيلُ موكَّلٌ بالقَطْرِ والنباتِ اللذَيْن يُخْلَقُ منهما الأرزاقُ في هذه الدارِ، وله أعوانٌ يفعلون ما يأمُرُهم به بأمرِ ربِّه، يُصرِّفون الرياحَ والسحابَ كما يشاءُ الربُّ جلَّ جلالُه. وقد رُوِّينَا أنَّه ما مِن قطرةٍ تنزلُ مِن السماءِ إلا ومعها مَلَكٌ يقدِّرُها في موضعِها من الأرضِ. وإسرافيلُ موكَّلٌ بالنفخِ في الصُّورِ للقيامِ مِن القبورِ، والحضورِ يومَ البعثِ والنُّشورِ؛ ليفوزَ الشَّكُورُ، ويُجازَىٰ الكَفُورُ، فذاك ذَنْبُه مغفورٌ وسعيُه مشكورٌ، وهذا قد صار عملُه كالهَبَاءِ المَنْثُورِ، وهو يدعو بالويْلِ والثُّبُورِ. فجبريلُ عليه السلامُ يَحْصُلُ بما ينزِلُ به الهُدَىٰ، وميكائيلُ يحصلُ بما هو موكَّلٌ به الرزقُ، وإسرافيلُ يحصُلُ بما هو موكَّلٌ به النصرُ والجزاءُ.

وأمَّا مَلَكُ الموت فليس بمصرَّحٍ باسمه في القرآنِ، ولا في الأحاديث الصِّحاحِ، وقد جاء تسميتُه في بعضِ الآثار[٢] بعَزرائيلَ، والله أعلمُ. وقد قال الله تعالىٰ: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**﴾ [السجدة: ١١]. وله أعوانٌ يستخرجون رُوحَ العبدِ مِن جثتِه حتىٰ تبلُغَ الحُلقومَ، فيتناولَها مَلَكُ الموتِ بيدِه، فإذا أخذها لم يَدَعُوها في يده طَرْفَةَ عينٍ حتىٰ يأخذُوها من يده، فَيَلُفُّوها في أكفانٍ تَليقُ بها، كما قد بُسِطَ عندَ قولِه: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾ [إبراهيم: ٢٧]. ثم يصعدُون بها، فإنْ كانت صالحةً، فُتحتْ لها أبوابُ السماءِ، وإلا غُلِّقَتْ دُونَها وأُلْقيَ بها إلىٰ الأرضِ. قال اللهُ تعالىٰ: ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ**﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢]. وعن ابنِ عباسٍ ومُجاهدٍ وغيرِ واحدٍ أنَّهم قالوا: إنَّ الأرضَ بينَ يَدَيْ مَلَكِ الموتِ مثلُ الطَّسْتِ، يتناولُ منها حيثُ يشاءُ[٣]. وقد ذكرْنا أنَّ ملائكةَ الموتِ يأتُون الإنسانَ علىٰ حَسَبِ عملِه، إنْ كان مؤمنًا أتاه ملائكةٌ بِيضُ الوجوهِ بِيضُ الثيابِ، طيِّبةُ الأرواحِ، وإنْ كان كافرًا فبالضِّدِّ مِن ذلك، عياذًا باللهِ العظيمِ مِن ذلك.

وقد قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيىٰ بنُ أبي يحيىٰ المقري، حدثنا عَمْرُو بنُ شَمْرٍ، قال: سَمِعْتُ جعفرَ بنَ محمدٍ قال: سمعتُ أبي يقولُ: نظر رسولُ الله ﷺ إلىٰ مَلَكِ الموتِ عندَ رأسِ رجلٍ مِنَ الأنصارِ، فقال له النبيُّ ﷺ: «**يا مَلَكَ الموت، ارفُقْ بصاحبي، فإنَّه مؤمنٌ**». **فقال مَلَكُ الموت: يا محمدُ، طِبْ نَفْسًا وقَرَّ عينًا، فإنِّي بكُلِّ مؤمنٍ رَفيقٌ، واعْلَمْ أنَّ ما في الأرضِ بيتُ مَدَرٍ ولا شَعَرٍ في برٍّ ولا بَحْرٍ، إلا وأنا**

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» برقم (٣٨٤)، من طريق إسماعيل بن عياش به، وفي الإسناد حميد بن عبيد، ذكره الحافظ ابن حجر في «تعجيل المنفعة» (ص١٢٣)، وقال: لا يدرىٰ من هو.

(٢) منها ما أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» برقم (٣٩٤) من طريق عبد الصمد، عن وهب بن منبه قوله. وفي إسناده محمد بن إبراهيم بن العلاء منكر الحديث، إضافة إلىٰ انقطاعه.

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه الطبري في «التفسير» (٢١/ ٩٧، ٩٨)، وأبو الشيخ في «العظمة» برقم (٤٣٤)، من طرق عن مجاهد به، ولا يخلو واحد منها من مقال.

أتصفَّحُهم في كلِّ يومٍ خَمْسَ مرّات، حتى إنِّي أعْرَفُ بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفُسِهم، والله يا محمدُ لو أنيِّ أردتُ أنْ أقبِضَ روحَ بعُوضَةٍ ما قَدَرْتُ على ذلك حتى يكونَ اللهُ هو الآمرَ بقبْضِها». قال جعفرُ بنُ محمدٍ وهو جعفرٌ الصادقُ: بلغني أنه يتصفَّحُهم عندَ مواقيتِ الصلاة، فإذا حضرَ عندَ الموت، فإذا كان ممَّنْ يحافظُ على الصلاةِ دنا منه المَلَكُ، ودفَع عنه الشيطانَ ولقَّنه المَلَكُ: لا إلَهَ إلا اللهُ محمدٌ رسولُ الله. في تلكَ الحالِ العظيمةِ[1]. هذا حديثٌ مُرْسَلٌ، وفيه نظرٌ. وذكرنا في حديثِ الصُّورِ من طريقِ إسماعيلَ بنِ رافعٍ المدنيِّ القاصِّ، عن محمدِ بنِ زيادٍ، عن محمدِ بنِ كعبٍ القُرَظِيِّ، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن رسولِ الله ﷺ الحديثَ بطُولِه. وفيه: «ويأمرُ اللهُ إسرافيلَ بنفخةِ الصَّعْقِ، فينفُخُ نفخةَ الصعقِ، فيُصْعَقُ أهلُ السمواتِ وأهلُ الأرضِ، إلا مَنْ شاءَ اللهُ، فإذا هم قد خَمَدوا، جاءَ مَلَكُ الموتِ إلى الجبّارِ عزَّ وجلَّ، فيقولُ: يا رب قد ماتَ أهلُ السمواتِ والأرضِ إلا مَنْ شئْتَ. فيقولُ اللهُ، وهو أعلمُ بمَنْ بَقِيَ: فمَنْ بَقِيَ؟ فيقولُ: يا ربِّ بَقيتَ أنتَ الحيُّ الذي لا يموتُ، وبَقِيَتْ حَمَلَةُ عَرْشِك، وبَقِيَ جبريلُ وميكائيلُ. فيقولُ: ليَمُتْ جبريلُ وميكائيلُ. فيُنْطِقُ اللهُ العرشَ فيقولُ: يا ربِّ يموتُ جبريلُ وميكائيلُ؟ فيقولُ: اسكُتْ فإنِّي كَتَبْتُ الموتَ على كلِّ مَنْ كان تحتَ عَرْشي. فيموتان، ثم يأتي مَلَكُ الموتِ إلى الجبّارِ عزَّ وجلَّ، فيقولُ: يا ربِّ قد ماتَ جبريلُ وميكائيلُ. فيقولُ اللهُ، وهو أعلمُ بمَنْ بَقِيَ: فمَنْ بَقِيَ؟ فيقولُ: بَقيتَ أنتَ الحيُّ الذي لا يموتُ، وبَقيتْ حَمَلَةُ عَرْشِكَ، وبَقيتُ أنا. فيقولُ اللهُ: لتَمُتْ حَمَلَةُ عَرْشي. فيموتون، ويأمرُ اللهُ العرشَ فيقبضُ الصُّورَ من إسرافيلَ، ثم يأتي مَلَكُ الموتِ فيقولُ: يا ربِّ قد ماتَ حَمَلَةُ عَرْشِك. فيقولُ اللهُ، وهو أعلمُ بمَنْ بَقِيَ: فمن بَقِيَ؟ فيقولُ: بَقيتَ أنتَ الحيُّ الذي لا يموتُ، وبَقيتُ أنا. فيقولُ اللهُ: أنت خَلْقٌ من خَلْقي، خلقتُكَ لمَا رأيتَ فمُتْ. فيموتَ، فإذا لم يبْقَ إلا اللهُ الواحدُ القهّارُ الأحدُ الصمدُ الذي لم يلدْ ولم يولَدْ ولم يكنْ له كُفُواً أحدٌ، كان آخراً كما كان أولا». وذكر تمامَ الحديثِ بطوله[2].

رواه الطبرانيُّ وابنُ جريرٍ والبيهقيُّ، ورواه الحافظُ أبو موسى المدينيُّ في كتابِ «الطِّوالات»، وعندَه زيادةٌ غريبةٌ وهي قولُه: «فيقولُ اللهُ له: أنتَ خَلْقٌ من خَلْقي، خلقتُكَ لمَا أردْتُ، فَمُتْ موتًا لا تَحْيَى بعدَه أبدًا».

ومن الملائكة المنصوصِ على أسمائِهم في القرآن هاروتُ وماروتُ، في قولِ جماعةٍ كثيرةٍ من السلفِ. وقد ورد في قصتِهما وما كان مِن أمرِهما آثارٌ كثيرةٌ غالِبُها إسرائيلياتٌ. ورَوَىٰ الإمامُ أحمدُ[3]

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤/ ٢٢٠) برقم (٤١٨٨)، وأبو الشيخ في «العظمة» برقم (٤٧٣)، والسهمي في «تاريخ جرجان» برقم (١٧)، من طرق عن جعفر بن محمد به، وفيه عمرو بن شمر كذاب، وفيه انقطاع.
وأخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» برقم (٢٢٥٤)، من طريق جعفر بن محمد عن أبيه قال: سمعت الحارث بن الخزرج الأنصاري يقول: حدثني أبي، ثم إنه سمع رسول اللّه، وذكره بنحوه.
وفيه إسماعيل بن إبراهيم الطوسي لا يعرف، وفيه أيضًا الحارث بن الخزرج لم أقف عليه.

(٢) **ضعيف**: أخرجه الطبراني في «الطوال» ذكر المصنف في «التفسير» بإسناده إليه ـ وأبو الشيخ في «العظمة» برقم (٣٨٦)، من طريق إسماعيل بن رافع به، وذكره اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٢/ ٢٢٢) برقم (٣٦٥)، عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: ذكره أحمد بن محمد بن عثمان الدمشقي بإسناده إلىٰ إسماعيل بن رافع عن محمد بن كعب القرظي به، فأسقط محمد بن زياد. وأخرجه الطبري في «التفسير» (٢٤/ ٣٠)، وإسحاق بن راهويه في «المسند» (١/ ٨٤)، من طريق إسماعيل ابن أبي رافع، عن محمد بن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة به، فجعل واسطة وهو الرجل من الأنصار بين محمد بن زياد والقرظي، وبين القرظي وأبي هريرة.
وفي الإسناد إسماعيل بن رافع ضعفه أحمد ويحيىٰ وجماعة. وقال الدارقطني وغيره: متروك الحديث انظره في «الميزان» للذهبي، وفيه أيضًا محمد بن يزيد بن أبي زياد: قال أبو حاتم: مجهول. وقال البخاري: روىٰ... حديث الصور، ولم يصح، انظر ترجمته في «التهذيب» لابن حجر.

(٣) في «المسند» (٢/ ١٣٤).

حديثًا مرفوعًا عن ابنِ عمرَ وصحَّحه ابنُ حبانَ في «تقاسيمه»[١]، وفي صحته عندي نظرٌ، والأشبهُ أنه موقوفٌ على عبدِ الله بنِ عُمَرَ ويكونُ مما تلقَّاه عن كعبِ الأحبارِ، كما سيأتي بيانُه والله أعلمُ. وفيه: أنَّه تمثَّلتْ لهما الزُّهْرةُ امرأةً من أحسنِ البشرِ. وعن عليٍّ، وابنِ عباسٍ، وابنِ عمرَ أيضًا، أنَّ الزُّهْرةَ كانت امرأةً، وأنهما لَمَّا طلبا منها ما ذُكِر، أبَتْ إلا أنْ يُعلِّماها الاسمَ الأعظمَ، فعلَّماها، فقالته، فارتفعتْ إلى السماء، فصارتْ كوكبًا[٢]. وروى الحاكمُ في «مُسْتَدْرَكه»، عن ابنِ عباسٍ، قال: وفي ذلك الزمانِ امرأةٌ حُسْنُها في النساء كحُسْنِ الزُّهْرةِ في سائرِ الكواكبِ. وهذا اللفظُ أحسنُ ما وردَ في شأنِ الزُّهْرةِ. ثم قيل: كان أمرُهما وقصتُهما في زمانِ إدريسَ. وقيل: في زمانِ سُليمانَ بنِ داودَ. كما حرَّرنا ذلك في «التفسير»[٣].

وبالجملة فهو خبرٌ إسرائيليٌّ مَرْجِعُه إلى كعبِ الأحبارِ، كما رواه عبدُ الرزاقِ في «تفسيره»[٤]، عن الثوريِّ، عن موسى بنِ عقبةَ، عن سالمٍ، عن ابنِ عمرَ، عن كعبِ الأحبارِ بالقصةِ. وهذا أصحُّ إسنادًا وأثبتُ رجالًا، والله أعلمُ. ثم قد قيل: إن المرادَ بقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. قبيلان من الجانِّ. قاله ابنُ حزمٍ[٥]، وهذا غريبٌ وبعيدٌ من اللفظِ. ومن الناسِ مَن قرأ: «وما أُنزِلَ على المَلِكَيْنِ». بالكسرِ، ويجعلُهما عِلْجَيْنِ من أهلِ فارسَ. قاله الضحَّاكُ. ومن الناسِ مَن يقولُ: هما مَلَكانِ من السماءِ، ولكن سبَقَ في قَدَرِ الله لهما ما ذكَره من أمرِهما، إنْ صحَّ به الخبرُ، ويكونُ حكمُهما كحكمِ إبليسَ، إنْ قيل: إنَّه من الملائكةِ. لكنَّ الصحيحَ أنَّه من الجنِّ، كما سيأتي تقريرُه.

ومن الملائكة المُسَمَّين في الحديث مُنكَرٌ ونكيرٌ، عليهما السلامُ. وقد استفاض في الأحاديثِ ذكرُهما في سؤالِ القبرِ. وقد أوردناها عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وهما فتَّانا القبرِ موكلان بسؤالِ الميِّتِ في قبرِه عن ربِّه، ودينِه، ونبيِّه، ويمتحنان البَرَّ والفاجرَ، وهما أزرقان أفرقان، لهما أنيابٌ وأشكالٌ مزعجةٌ وأصواتٌ مفزعةٌ، أجارنا اللهُ من عذابِ القبرِ، وثبَّتنا بالقولِ الثابتِ، آمينَ.

وقال البخاريُّ[٦]: حدثنا عبدُ الله بنُ يوسفَ، حدثنا ابنُ وهبٍ، حدثني يونسُ، عن ابنِ شهابٍ، حدثني عُرْوةُ، أنَّ عائشةَ زوجَ النبيِّ ﷺ حدثته أنَّها قالت للنبيِّ ﷺ: هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يومِ أُحُدٍ؟ قال: **«لقد لَقِيتُ من قومك، وكان أشدُّ ما لقيتُ منهم يومَ العَقَبةِ؛ إذْ عَرَضْتُ نفسي على ابنِ عبدِ ياليلَ بنِ عبدِ كُلالٍ، فلم يُجِبْني إلى ما أردتُ، فانطلقْتُ - وأنا مهمومٌ - على وجْهي، فلم أسْتَفِقْ إلا وأنا بقَرْنِ الثعالبِ، فرَفَعْتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتْني، فنظرتُ، فإذا فيها جبريلُ، فناداني، فقال: إنَّ اللهَ قد سَمِعَ قولَ قومِك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعَثَ لك مَلَكَ الجبالِ لتأمُرَه بما شئتَ فيهم،**

---

(١) برقم (٦١٨٦).

(٢) **منكر**: أخرجه الطبري في «التفسير» (١/ ٤٥٦)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٩١، ٤٤٢)، وغيرهما من طرق عنهم، وهو حديث منكر حكم عليه بذلك جماعة من أهل العلم، منهم الإمام أحمد وأبو حاتم وغيرهما، وانظر تفصيل ذلك في «السلسلة الضعيفة» برقم (١٧٠) للعلامة الألباني رحمه الله.

(٣) (١/ ١٣٨) عند تفسير الآية ١٠٢ من سورة البقرة.

(٤) (١/ ٥٣).

(٥) في «الفصل» (٣/ ٢٦١).

(٦) برقم (٣٢٣١).

فناداني مَلَكُ الجبال، فسلَّمَ عليَّ ثم قال: يا محمدُ. فقال: ذلك فما شئتَ؟ إنْ شئتَ أنْ أُطبِقَ عليهم الأخشَبَين. فقال النبيُّ ﷺ: «بل أرجو أنْ يُخرِجَ اللهُ من أصلابهم مَن يعبدُ اللهَ وحدَه لا يُشرِكُ به شيئًا». ورواه مسلمٌ[1] من حديثِ ابنِ وهبٍ، به.

فصلٌ

ثم الملائكةُ عليهمُ السلامُ بالنسبة إلى ما هيأهمُ اللهُ له أقسامٌ:

فمنهم حملةُ العرش كما تقدم ذكرُهم.

ومنهم الكَرُوبيُّون: الذين هم حولَ العرشِ، وهم أشرفُ الملائكة مع حملة العرشِ، وهمُ الملائكة المقرَّبون؛ كما قال تعالى: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]. ومنهم جبريلُ وميكائيلُ عليهما السلامُ، وقد ذكر اللهُ عنهم أنَّهم يستغفرون للمؤمنينَ بظهرِ الغيبِ، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩]. ولَمَّا كانت سَجاياهم هذه السجيةَ الطاهرةَ، كانوا يحبُّونَ مَن اتَّصفَ بهذه الصفة ويدْعُون، كما ثبَت في الحديث، عن الصادقِ المصدوقِ، أنَّه قال: «إذا دعا العبدُ لأخيه بظهرِ الغيبِ، قال المَلَكُ: آمينَ ولكَ بمثلٍ»[2].

ومنهم سكانُ السمواتِ السبعِ، يعمُرُونها عبادةً دائبةً ليلاً ونهاراً، صباحًا ومساءً، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. فمنهم الراكعُ دائمًا، والقائمُ دائمًا، والساجدُ دائمًا. ومنهم الذين يتعاقبون زُمْرةً بعدَ زُمْرةٍ إلى البيتِ المعمورِ، كلَّ يومٍ سبعون ألفًا لا يعودون إليه، آخرَ ما عليهم. ومنهم الموكَّلون بالجنانِ وإعدادِ الكرامة لأهلها، وتهيئة الضيافة لساكنيها؛ من ملابسَ، ومَصاغٍ، ومساكنَ، ومآكلَ، ومشاربَ، وغيرِ ذلك، مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سَمعت، ولا خَطَر على قلبِ بشرٍ.

وخازنُ الجنة مَلَكٌ يقالُ له رضْوانُ، جاء مصرَّحًا به في بعضِ الأحاديث[3]. ومنهم الموكَّلُون بالنار، وهم الزبانيةُ، ومُقدَّموهم تسعةَ عشرَ، وخازنُها مالكٌ، وهو مقدَّمٌ على جميعِ الخزنة. وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ الآيةَ [غافر: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ۝ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧، ٧٨]. وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝ وَمَا جَعَلْنَا

---

(١) برقم (١٧٩٥). (٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٣٢).

(٣) منها ما أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١/ ٤٠٥)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ١٣٨)، وغيرهم من حديث أنس رضي الله عنه. وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢/ ١٣٠) عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ﴾ [المدثر: ٣٠، ٣١].

ومنهم الموكَّلون بحفظ بني آدم، كما قال تعالىٰ: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝١٠ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الآيات [الرعد: ١٠، ١١]. قال الوالبيُّ، عن ابنِ عباسٍ ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: وهي الملائكةُ[1]. وقال عِكْرِمةُ، عنِ ابنِ عباسٍ ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قال: ملائكةٌ يحفظونه من بينِ يديه، ومن خلفِه، فإذا جاء قدَرُ الله، خلَّوا عنه. وقال مجاهدٌ[2]: ما مِن عبدٍ إلا ومَلَكٌ موكَّلٌ بحفظه في نومِه ويقظتِه مِن الجنِّ والإنسِ والهوامِّ، فما مِن شيءٍ يأتيه يريدُه إلا قال: وراءَك. إلا شيءٌ يأذنُ اللهُ فيه فيصيبُه. وقال أبو أُمامة: ما مِن آدميٍّ إلا ومعه مَلَكٌ يذودُ عنه، حتىٰ يُسلِّمَه للذي قُدِّرَ له[3]. وقال أبو مِجْلزٍ: جاء رجلٌ إلىٰ عليٍّ فقال: إنَّ نفراً مِن مُرادٍ يريدون قتلَك. فقال: إنَّ مع كلِّ رجلٍ مَلَكَين يحفظانه مِمَّا لم يُقدَّرْ، فإذا جاء القدرُ خلَّيا بينَه وبينَه، إنَّ الأجلَ جُنَّةٌ حصينةٌ[4].

ومنهم الموكَّلون بحفظ أعمال العباد، كما قال تعالىٰ: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

قال الحافظُ أبو محمد عبدُ الرحمن بنُ أبي حاتمٍ الرازيُّ في «تفسيره»: حدثنا أبي، حدثنا عليُّ بنُ محمدٍ الطَّنافسيُّ، حدثنا وَكِيعٌ، حدثنا سفيانُ ومِسْعَرٌ، عن عَلْقمةَ بنِ مَرْثدٍ، عن مُجاهدٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**أكرِموا الكرامَ الكاتبينَ، الَّذينَ لا يُفارقُونَكُم إلا عندَ إحدَى حالتَيْن؛ الجَنابَة، والغائط، فإذا اغتسلَ أحدُكم فليستترْ بِجذْمِ حائطٍ أو ببعيره أو ليستره أخوه**». هذا مُرسَلٌ مِن هذا الوجهِ، وقد وصلَه البزَّارُ في «مُسنَدِه»[5]، مِن طريقِ حَفْصِ بنِ سُليمانَ القارئَ -وفيه كلامٌ- عن عَلْقَمَةَ، عن مجاهدٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ ينهاكم عن التعرِّي، فاستحيُوا من ملائكة الله الذينَ معكم، الكرامِ الكاتبين، الذين لا يفارقونَكُم إلا عندَ إحدى ثلاث حالات؛ الغائط، والجَنابة، والغُسْلِ، فإذا اغتسل أحدُكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجذْمِ حائطٍ أو ببعيره**»[6]. ومعنىٰ إكرامِهم أن يستحييَ منهم، فلا يُملي عليهم الأعمالَ القبيحةَ التي يَكْتبونَها؛ فإنَّ اللهَ خَلَقَهم كِراماً في خَلْقِهم وأخلاقِهم. ومِن كرمِهم أنه قد ثَبَت في الحديثِ المَرويِّ في «الصحاحِ» و«السنَنِ» و«المسانيدِ» مِن حديثِ جماعةٍ من الصحابةِ،

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» (١٣/ ١١٧) عن ابن عباس. (٢) أخرجه الطبري في «التفسير» (١٣/ ١١٩) عنه.

(٣) أخرجه الطبري في «التفسير» (١٣/ ١١٩) عن أبي أمامة. (٤) أخرجه الطبري في «التفسير» (١٣/ ١١٩) عن أبي مجلز.

(٥) انظر «كشف الأستار» (٣١٧).

(٦) **معلول**: أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» برقم (٥٣٨)، والدارقطني في «العلل» (٨/ ٢٣٢)، وقال: «... يرويه علقمة ابن مرثد، واختلف عنه، فيروىٰ عن زياد البكائي عن مسعر، عن علقمة بن مرثد عن مجاهد، عن أبي هريرة، وقال: إن شاء الله رفعه إلىٰ النبي ﷺ، وروي عن الثوري، عن علقمة بن مرثد، عن مجاهد، عن ابن عباس. ولا يصح واحد منهما، والصحيح عن علقمة بن مرثد عن مجاهد... إلخ.

عن رسولِ الله ﷺ، أنَّه قال: **«لا تدخلُ الملائكةُ بيتًا فيه صُورةٌ، ولا كلبٌ**[١]**، ولا جُنُبٌ»**[٢]. وفي روايةٍ، عن عاصمِ بنِ ضَمْرَةَ، عن عليٍّ: **«ولا بولٌ»**[٣]. وفي روايةِ رافعٍ، عن أبي سعيدٍ، مرفوعًا: **«لا تدخلُ الملائكةُ بيتًا فيه صورةٌ ولا تمثالٌ»**[٤]. وفي روايةِ مجاهدٍ، عن أبي هريرةَ، مرفوعًا: **«لا تدخلُ الملائكةُ بيتًا فيه كلبٌ أو تمثالٌ»**[٥]. وفي روايةِ ذَكْوانَ أبي صالحٍ السَّمَّان، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«لا تصحبُ الملائكةُ رُفْقَةً معهم كلبٌ أو جَرَسٌ»**[٦]. ورواه زُرارةُ بنُ أَوْفَى عنه: **«لا تَصحبُ الملائكةُ رُفْقَةً معهم جرسٌ»**[٧]. وقال البَزَّارُ[٨]: حدثنا إسحاقُ بنُ سُليمانَ البغداديُّ المعروفُ بالفلوسيِّ، حدثنا بَيانُ بنُ حُمْرانَ، حدثنا سلاَّمٌ، عن منصورِ بنِ زاذانَ، عن محمدِ بنِ سيرينَ، عن أبي هُريرةَ، قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«إنَّ ملائكةَ الله يَعرِفون بني آدَمَ»**. وأَحْسَبُه قال: **«ويعرفونَ أعمالَهم، فإذا نظروا إلى عبد يعملُ بطاعة الله، ذكروه بينَهم وسمَّوه، وقالوا: أفلحَ الليلةَ فلانٌ، نجا اللَّيْلةَ فلانٌ. وإذا نظروا إلى عبد يعمَلُ بمعصيَة الله ذَكروه بينهم، وسمَّوه، وقالوا: هَلَكَ فلانٌ اللَّيْلَةَ»**. ثم قال البزَّارُ: سلاَّمٌ هذا أحسَبُه سلاَّمًا المَدائنيَّ، وهو لَيِّنُ الحديثِ.

وقد قال البخاريُّ[٩]: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيبٌ، حدثنا أبو الزِّناد، عن الأعْرَجِ، عن أبي هريرةَ، قال: قال رَسولُ الله ﷺ: **«الملائكَةُ يتعاقبون؛ ملائكةٌ بالليلِ، وملائكةٌ بالنهار، ويجتمعون في صلاةِ الفجرِ وصلاةِ العصرِ، ثم يعرجُ إليه الذين باتوا فيكُم فيسألُهم ـ وهو أعلمُ ـ فيقولُ: كيف تركتم عبادِي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون»**. هذا اللفظُ في كتابِ بدءِ الخلقِ بهذا السياقِ. وهذا اللفظُ تفرَّد به دونَ مسلمٍ مِن هذا الوجهِ، وقد أخرجاه في «الصَّحيحين»[١٠] مِن حديثِ مالكٍ عن أبي الزِّناد به.

وقال البَزَّارُ[١١]: حدثنا زِيادُ بنُ أيوبَ، حدثنا مُبَشِّرُ بنُ إسماعيلَ الحَلَبيُّ، حدثنا تَمَّامُ بنُ نَجيحٍ، عن الحسنِ، يعنِي البصريَّ، عن أنسٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«ما مِنْ حافظَيْن يرفعان إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما حفظا في يومٍ، فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفارًا، إلاَّ قال اللهُ تعالى: قد غفرتُ لعبدي ما بينَ طرفَي الصحيفة»**[١٢]. ثم قال: تفرَّدَ به تَمَّامُ بنُ نَجيحٍ وهو صالحُ الحَديثِ. قلت: وقد وثَّقَه ابنُ مَعِينٍ، وضعَّفه البخَاريُّ، وأبو حاتمٍ، وأبو زُرْعَةَ، والنَّسائيُّ، وابنُ عَدِيٍّ، ورماه ابنُ حِبَّانَ بالوضعِ،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢٢٧)، ومسلم برقم (٢١٠٦).
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٢٢٧)، والنسائي في «المجتبى» برقم (٢٦١)، وأحمد في «المسند» (١/ ٨٣).
(٣) أخرجها أحمد في «المسند» (١/ ١٤٦)، وفي إسناده عمرو بن خالد أبو خالد القرشي: متروك.
(٤) أخرجها الترمذي في «الجامع الصحيح» برقم (٢٨٠٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(٥) أخرجها أبو داود برقم (٤١٥٨)، والترمذي في «السنن» برقم (٢٨٠٦)، وقال: حسن صحيح.
(٦) أخرجه مسلم برقم (٢١١٣).
(٧) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٨٥).
(٨) كما في «كشف الأستار» (٣٢١٤). قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٢٦): رواه البزار، وفيه من لم أعرفهم.
(٩) برقم (٣٢٢٣).
(١٠) أخرجه البخاري برقم (٧٤٢٩)، ومسلم برقم (٦٣٢).
(١١) كما في «كشف الأستار» (٣٢٥٢).
(١٢) ضعيف: أخرجه أبو يعلى في «مسنده» برقم (٢٧٧٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٧٠٥٣)، والرافعي في «التدوين» (٣/ ١١٥)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٨٤)، من طرق عن تمام بن نجيح به، وفيه تمام بن نجيح، قال ابن عدي: وعامة ما يرويه لا يتابعه الثقات عليه. اهـ.

وقال الإمامُ أحمدُ: لا أعرفُ حقيقةَ أمرِه. والمقصودُ أَنَّ كلَّ إنسانٍ له حافظانِ مَلَكان اثنان؛ واحدٌ من بينِ يديْه، وآخرُ مِن خلفِه، يحفظانِه مِن أمْرِ اللهِ بأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ومَلَكانِ كاتبان؛ عن يَمينِه وعن شمالِه، وكاتبُ اليمينِ أميرٌ على كاتبِ الشمالِ يكتبُ حسناتِه، وكاتبُ الشمالِ يكتبُ سيئاتِه، فَإذَا عَملَ سيِّئةً فأرادَ صاحبُ الشِّمالِ أن يكتُبَهَا، قالَ له صاحبُ اليَمينِ: أمهلْه لعلَّه أن يتوبَ أو يستغفرَ. وإذا عملَ حسنةً، كَتَبَها صاحبُ اليمينِ مِن غيرِ توقُّفٍ ولا استئمارٍ من صاحبِ الشمالِ. كما ذكرْنا ذلك عندَ قولِه تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

فأمَّا الحديثُ الذي رواه الإمامُ أحمدُ[١]: حدثنا أسودُ بنُ عامرٍ، حدثنا سُفيانُ، حدثنا منصورٌ، عن سالمِ بنِ أبي الجَعْدِ، عن أبيه، عن عبدِ الله، هو ابن مسعودٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينُه منَ الجنِّ وقرينُه منَ الملائكة»**. قالُوا: وإيَّاكَ يا رسولَ الله؟ قال: **«وإيَّايَ، ولكنَّ اللهَ أعانَني عليه فلا يأمرُني إلا بخير»**. انفرد بإخراجِه مسلمٌ[٢]، من حديثِ منصورٍ به. فيحتملُ أَنَّ هذا القرينَ مِن الملائكةِ غيرُ القرينِ بحفظِ الإنسانِ، وإنما هو مُوكَّلٌ به ليهديَه ويُرشدَه بإذنِ ربِّه إلى سبيلِ الخيرِ وطريقِ الرشادِ، كما أَنَّه قد وُكِّل به القرينُ من الشياطينِ، لا يألُوه جَهداً في الخَبالِ والإضلالِ. والمَعصومُ مَن عَصَمَه اللهُ عزَّوجلَّ، وباللهِ المُستَعانُ.

وقال البخاريُّ[٣]: حدثنا أحمدُ بنُ يونُسَ، حدثنا إبراهيمُ بنُ سعدٍ، حدثنا ابنُ شهابٍ، عن أبي سَلَمَةَ بنِ عبدِ الرحمنِ والأغرِّ، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إذا كان يومُ الجُمُعَة، كان على كُلِّ بابٍ من أبوابِ المسجد ملائكةٌ يكتبون الأوَّلَ فالأولَ، فإذا جلسَ الإمامُ طَوَوُا الصحفَ، وجاءُوا يستمعُونَ الذكرَ»**. وهكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه، وهو في «الصحيحَين»[٤] من وجهٍ آخرَ. وقَد قال اللهُ تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقال الإمامُ أحمدُ[٥]: حدثنا أسباطٌ، حدثنا الأعْمَشُ، عن إبراهيمَ، عن ابنِ مَسْعودٍ، عن النَّبيِّ ﷺ، وحدَّثنا الأعْمَشُ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هُريرةَ، عن النبيِّ ﷺ في قولِه: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾. قال: **«تشهدُه ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهار»**. ورواه الترمذيُّ[٦]، والنَّسائيُّ[٧]، وابنُ ماجَه[٨] من حديثِ أسباطٍ. وقال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ. قلتُ: وهو منقطعٌ.

وقال البخاريُّ[٩]: حدثنا عبدُ الله بنُ محمدٍ، حدثنا عبدُ الرزَّاقِ، أخبرنا معمرٌ، عن الزهريِّ، عن أبي سَلَمَةَ وسعيدِ بنِ المُسَيَّبِ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، قال: **«فضلُ صلاةِ الجَميعِ على صلاةِ الواحد خمسٌ وعشرون درجةً، ويجتمعُ ملائكةُ الليلِ، وملائكةُ النهارِ في صلاةِ الفَجرِ»**. يقولُ أبو هَريرةَ: اقْرَءُوا إن شئتُم ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾.

---

(١) في «المسند» (١/ ٣٨٥)، عن يحيى، عن سفيان بنحوه.
(٢) برقم (٢٨١٤). (٣) برقم (٣٢١١). (٤) أخرجه البخاري برقم (٩٢٩)، ومسلم برقم (٨٥٠).
(٥) في «المسند» (٢/ ٤٧٤). (٦) في «الجامع الصحيح» برقم (٣١٣٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(٧) في «الكبرى» برقم (١١٢٩٣). (٨) في «السنن» برقم (٦٧٠) قصد المصنف بالانقطاع هنا هي رواية إبراهيم النخعي عن ابن مسعود، والنخعي لم يلق أحداً من الصحابة ذكره العلائي في «جامع التحصيل»، والحديث صحيح من غير هذا الوجه.
(٩) برقم (٤٧١٧).

وقال البخاري[١]: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا أبو عَوَانَة، عن الأعْمَش، عن أبي حازم، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا دعا الرجلُ امرأته إلى فراشه فأبت، فباتَ غضبانَ عليها، لَعَنَتْها الملائكةُ حتى تُصبحَ**». تابعَه شعبةُ، وأبو حمزةَ، وابنُ داودَ، وأبو مُعاويةَ، عن الأعْمَش. وثبَتَ في «الصحيحَيْن»[٢] أن رسولَ الله ﷺ قال: «**إذا أمَّنَ الإمامُ فأمِّنوا، فإنَّه مَن وافقَ تأمينُه تأمينَ الملائكة، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذنبه**». وفي لفظ[٣]: «**إذا قال الإمامُ: آمينَ. فإنَّ الملائكةَ تقولُ في السماء: آمينَ. فَمَن وافقَ تأمينُه تأمينَ الملائكة، غُفِرَ له ما تَقَدمَ من ذنبه**». وفي «صحيح البخاري»[٤]. حدثنا إسماعيلُ، حدثني مالكٌ، عن سُمَيٍّ، عن أبي صالح، عن أبي هريرةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إذا قال الإمامُ: سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَه. فقولوا: اللهم ربَّنا لك الحمدُ. فإنَّه مَن وافقَ قولُه قولَ الملائكة، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبه**». ورواه بَقيَّةُ الجماعة[٥]، إلا ابنَ ماجَه، من حديث مالكٍ عن سُمَيٍّ، عن أبي صالح، عن أبي هريرةَ.

وقال الإمامُ أحمدُ[٦]: حدثنا أبو معاويةَ، حدَّثنا الأَعْمَشُ، عن أبي صالح، عن أبي هريرةَ، أو عن أبي سعيد - هو شَكَّ - يعني الأعْمَشَ - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ لله ملائكةً سيَّاحين في الأرض، فضلاً عن كُتَّاب الناس، فإذا وجدوا أقوامًا يذكرون اللهَ، تَنادَوا هَلُمُّوا إلى بُغيتكم، فَيجيئونَ فيحُفُّونَ بهم إلى السماء الدنيا، فيقولُ اللهُ: أيَّ شيءٍ تركتم عبادي يصنعون؟ فيقولون: تَركناهُمْ يحمَدُونك ويُمجِّدونك ويَذكرونك. فيقولُ: وهل رأَوني؟ فيقولون: لا. فيقولُ: فكيف لو رأوني؟ فيقولون: لوْ رأوكَ لكانوا أشدَّ تحميدًا وتمجيدًا وذكرًا. قال: فيقولُ: فأيَّ شيءٍ يطلبون؟ فيقولون: يطلبون الجَنَّةَ. فيقولُ: وهل رأوها؟ فيقولون: لا. فيقولُ: وكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشدَّ عليها حرصًا، وأشدَّ لها طَلَبًا. قالَ: فيقولُ: من أيِّ يتعوَّذون؟ فيقولون: من النار. فيقولُ: وهل رأوها؟ فيقولون: لا. فيقولُ: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها هربًا وأشدَّ منها خوفًا. قال: فيقولُ: أُشْهِدُكم أنِّي قد غفرتُ لهم. قال: فيقولون: إنَّ فيهم فلانًا الخطَّاءَ لم يُرِدْهم، إنَّما جاء لحاجة. فيقولُ: هم القومُ لا يشقَى بهم جَليسُهم**».

وهكذا رواه البخاري[٧]، عن قُتَيْبَةَ، عن جرير بن عبد الحميد، عن الأعْمَش، به، وقال: رواه شعبةُ عن الأعْمش، ولم يرفعْه، ورفعه سُهَيْلٌ عن أبيه. وقد رواه أحمدُ[٨]، عن عفَّانَ، عن وُهَيْب، عن سُهَيل، عن أبيه، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ بنحوه، كما ذكَره البُخاريُّ[٩] مُعلَّقًا عن سُهَيل. ورواه مسلمٌ[١٠]، عن محمد بنِ حاتم، عن بَهْزِ بنِ أَسَد، عن وُهَيب به. وقد رواه الإمامُ أحمدُ أيضًا[١١]، عن غُنْدَر، عن شُعْبَةَ، عن سُلَيمانَ - هو الأَعْمَشُ - عن أبي صالح، عن أبي هريرةَ،

---

(١) برقم (٣٢٣٧).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٨٠)، ومسلم برقم (٤١٠). (٣) أخرجه البخاري برقم (٧٨١)، ومسلم برقم (٤١٠).
(٤) برقم (٣٢٢٨).
(٥) أخرجه مسلم برقم (٤٠٩)، وأبو داود برقم (٨٤٨)، والترمذي برقم (٢٦٧)، والنسائي في «المجتبى» (٢/ ١٩٦).
(٦) في «المسند» (٢/ ٢٥١). (٧) برقم (٦٤٠٨). (٨) في «المسند» (٢/ ٢٥٢).
(٩) برقم (٦٤٠٨). (١٠) برقم (٢٦٨٩). (١١) في «المسند» (٢/ ٢٥٢).

ولم يرفعه، نحوَه، كما أشار إليه البخاريُّ رحمَه اللهُ.

وقال الإمامُ أحمدُ[١]: حدثنا أبو مُعاويةَ، حدثنا الأعْمَشُ، وابنُ نُمَيْر، أخبرنا الأعْمَشُ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَن نَفَّسَ عن مُؤمن كُرْبَةً من كُرَبِ الدُّنيا، نَفَّسَ اللهُ عنه كُرْبَةً من كُرَبِ يوم القيامة، ومن ستَر مسلمًا ستَره الله في الدنيا والآخرة، ومَن يَسَّرَ على مُعْسر يَسَّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخرة، واللهُ في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه، ومَن سَلَكَ طريقًا يلتَمسُ فيه علمًا، سهَّلَ اللهُ له به طريقًا إلى الجنة، وما اجْتَمَعَ قومٌ في بيت من بيوت الله يتلُون كتابَ الله، ويتدارسونه بينَهم إلا نزلتْ عليهم السَّكينةُ وغَشيتْهم الرحمةُ، وحَفَّتْهم الملائكةُ وذَكَرهم اللهُ فيمَنْ عندَه، ومَن بَطَّأ به عملُه، لَمْ يُسْرِعْ به نَسَبُه**». وكذا رواه مُسلمٌ[٢] من حديث أبي معاويةَ.

وقال الإمامُ أحمدُ[٣]: حدثنا عبدُ الرَّزَّاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن أبي إسْحاقَ، عن الأغَرِّ أبي مُسلمٍ، عن أبي هريرةَ، وأبي سَعيدٍ، عن رسول الله ﷺ قال: «**ما اجتمع قومٌ يذكرون اللهَ عزَّ وجلَّ إلا حفَّتهم الملائكةُ، وتَغَشَّتْهم الرحمةُ، ونزلتْ عليهم السَّكينَةُ، وذَكرهمُ اللهُ فيمَن عندَه**». وكذا رواه أيضًا[٤] من حديث إسْرائيلَ، وسُفيانَ الثَّوْريِّ، وشُعْبَةَ، عن أبي إسْحاق به نحوَه. ورواه مُسلمٌ[٥] من حديث شُعْبَةَ، والترمذيُّ[٦] من حديث الثوري، وقال: حسنٌ صحيحٌ. ورواه ابنُ ماجَه[٧]، عن أبي بكر ابنِ أبي شَيْبَةَ، عن يحيى بن آدمَ، عن عَمَّار بن رُزَيْق، عن أبي إسحاق بإسناده نحوَه، وفي هذا المعنى أحاديثُ كثيرةٌ. وفي «مسند الإمام أحمدَ»[٨] و«السنن»[٩]، عن أبي الدَّرْداء مرفوعًا: «**وإنَّ الملائكةَ لَتَضَعُ أجنحتَها لطالب العلم؛ رضًا بما يصنعُ**». أي تتواضعُ له، كما قال تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ**﴾ [الإسراء: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وقال الإمامُ أحمدُ[١٠]: حدثنا وَكيعٌ، عن سُفيانَ، عن عبد الله بن السائب، عن زاذانَ، عن عبدالله ابن مَسعودٍ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ لله ملائكةً سَيَّاحين في الأرض يُبَلِّغُوني عن أُمَّتي السلامَ**». وهكذا رواه النَّسائيُّ[١١]، من حديث سُفيانَ الثَّوْرِيِّ، وسُلَيْمانَ الأعْمَشِ، كلاهما عن عبدالله بن السَّائب به.

وقال الإمامُ أحمدُ[١٢]: حدثنا عبدُ الرَّزَّاقِ، حدثنا مَعْمَرٌ، عن الزُّهْرِيِّ، عن عُرْوَةَ، عن عائشةَ،

---

(١) في «المسند» (٢/ ٢٥٢). (٢) برقم (٢٦٩٩). (٣) في «المسند» (٣/ ٩٤).
(٤) في «المسند» (٣/ ٣٣، ٤٩، ٩٢). (٥) برقم (٢٧٠٠).
(٦) برقم (٣٣٧٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. (٧) في «السنن» برقم (٣٧٩١). (٨) (٥/ ١٩٦).
(٩) أخرجه أبو داود برقم (٣٦٤١)، والترمذي برقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه برقم (٢٢٣)، والدارمي في «السنن» برقم (٣٤٢)، وغيرهم من طريق أبي الدرداء به. قال الدارقطني في «العلل» (٦/ ٢١٦): وقد سئل عن حديث كثير بن قيس، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ - وذكره - فقال: يرويه عاصم بن رجاء بن حيوة واختلف عنه: فرواه عنه أبو نعيم، عن عاصم بن رجاء ابن حيوة عمن حدثه، عن كثير بن قيس. ورواه عبد الله بن داود الخريبي، عن عاصم فقال: عن داود بن جميل، عن كثير بن قيس، وداود هذا مجهول. ورواه محمد بن يزيد الواسطي، عن عاصم بن رجاء، عن كثير بن قيس لم يذكر بينهما أحدًا، وعاصم بن رجاء ومن فوقه إلى أبي الدرداء ضعفاء ولا يثبت. اهـ.
(١٠) في «المسند» (١/ ٤٤١).
(١١) في المجتبى (٣/ ٤٣)، وفي «الكبرى» برقم (٩٨٩٤)، عن سفيان الثوري. ورواية الأعمش ذكر المزي في «التحفة» (٧/ ٢١) أنها في «الكبرى» في «كتاب الملائكة» وليس في الرواية، ولم يذكره أبو القاسم. (١٢) في «المسند» (٦/ ١٦٨).

قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «خُلقَت المَلائكةُ من نور، وخُلقت الجانُّ من مارجٍ من نار، وخُلقَ آدمُ مما وُصِفَ لكم». ورواه مُسلمٌ[(١)]، عَن مَحمدِ بنِ رافعٍ، وعبدِ بنِ حُمَيْدٍ، كلاهما عَن عبدِ الرَّزَّاقِ به.

وكذلك الحديثُ الذي رُوِيَ أنَّ للمَلَك لَمَّةً بقلبِ العبدِ، وللشيطانِ لَمَّةً بقلبِه، فلمَّةُ المَلَكِ إيعادٌ بالخيرِ وتصديقٌ بالحقِّ، ولَمَّةُ الشيطانِ إيعادٌ بالفقرِ ـ وفي روايةٍ: بالشرِّ ـ وتكذيبٌ بالحقِّ»[(٢)]. وكذلك الحديثُ الذي رُوِيَ: «إذا أصبح العبدُ ابتدرَه الشيطانُ والمَلَكُ، فيقولُ المَلَكُ: افتحْ بخير. ويقولُ الشيطانُ: افتحْ بشرٍّ. فإذا ذَكَر اللهَ وحَمدَه تولاه المَلَكُ وطرَد عنه الشيطانَ إلى الليلِ، فإذا جاء الليلُ قال المَلَكُ: اختمْ بخير. ويقولُ الشيطانُ: اختمْ بشرٍّ. فإن خَتَم نَهارَه بخير تولاه المَلَكُ حتى يُصبِحَ، وطَرَدَ عنه الشيطانَ»[(٣)].

وكذلك إذا خرج العبدُ من منزله فقال: بسمِ الله توكلتُ على الله ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله. قال له المَلَكُ: هُديتَ وكُفيتَ ووُقيتَ. ثم يتنَحَّى عنه الشَيطانُ»[(٤)]. إلى آخرِه. والأحاديثُ في ذِكْرِ الملائكةِ كثيرةٌ جداً. وقد ذكرنا ما يسَّره اللهُ تعالى، وله الحمدُ.

فصلٌ

وقد اختلفَ الناسُ في تَفْضيلِ الملائكةِ على البشرِ على أقوالٍ. فأكثرُ ما تُوجدُ هذه المَسألةُ في كتبِ المتكلِّمين. والخلافُ فيها مع المعتزلَة ومَن وافَقَهم. وأقدمُ كلامٍ رأيتُه في هذه المسألة، ما ذَكره الحافظُ ابنُ عَساكرَ في «تاريخه»[(٥)]، في ترجمة أُمَيَّةَ بنِ عمرِو بنِ سعيدِ بنِ العَاصِ، أنَّه حضَر مَجْلسًا لعُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ وعندَه جماعةٌ، فقال عمرُ: ما أحدٌ أكرمُ على اللهِ مِن كريمِ بني آدمَ. واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]. ووافقَه على ذلك أُمَيَّةُ بنُ عمرِو بنِ سَعيدٍ، فقال عِراكُ بنُ مالكٍ: ما أحدٌ أكرمَ على الله من ملائكته؛ هم خَدَمةُ دارَيْه، ورسُلُه إلى أنبيائه. واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]. فقال عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ لمحمدِ بنِ كَعْبٍ القُرَظِيِّ: ما تقولُ أنت يا أبا حمزةَ؟ فقال: قد أكرمَ اللهُ آدم فخلقَه بيَدِه ونفخَ فيه مِن رُوحِه، وأسجدَ له المَلائكةَ، وجعَل مِن ذريتِه الأنبياءَ والرسلَ، ومَن يزورُه الملائكةُ. فوافق عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ في الحُكمِ، واسْتدلَّ بغيرِ دليلِه، وأضعفَ دلالةَ ما صرَّح به مِن الآيةِ، وهو قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

---

(١) برقم (٢٩٩٦).

(٢) ضعيف مرفوعًا: أخرجه الترمذي في «السنن» برقم (٢٩٨٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» برقم (١١٠٥١)، وغيرهم من طريق أبي الأحوص، عن عطاء، عن مرة، عن ابن مسعود به.
قال ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ٢٤٤): سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه أبو الأحوص ـ وذكره ـ فقال أبو زرعة: الناس يوقفونه عن عبد اللّٰه وهو الصحيح، فقال أبي: رواه حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن مرة، عن عبد اللّٰه موقوفًا. قلت: فأيهما الصحيح؟ قال: هذا من عطاء بن السائب كان يرفع الحديث مرة ويوقفه أخرىٰ، والناس يحدثون من وجوه عن عبد اللّٰه موقوف، ورواه الزهري عن عبيد اللّٰه بن عبد اللّٰه بن مسعود موقوف، وذكر أشياء من هذا النحو موقوف. اهـ.

(٣) ضعيف الإسناد: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»، والنسائي في «الكبرىٰ» برقم (١٠٦٨٩، ١٠٦٩٠)، وابن حبان في «صحيحه» برقم (٥٥٣٣)، من طرق عن أبي الزبير عن جابر نحوه. وقد ضعفه الشيخ الألباني في «الأدب المفرد» برقم (١٢١٤).

(٤) إسناده صحيح: أخرجه أبو داود في «السنن» برقم (٥٠٩٥)، من طريق إسحاق بن عبد اللّٰه بن أبي طلحة، عن أنس بن مالك به، ورجال إسناده كلهم ثقات.

(٥) (٩/ ٣٠٣).

الصَّالِحَاتِ﴾ مضمونُه أنَّها ليست بخاصةٍ بالبشرِ، فإنَّ اللهَ قد وصفَ الملائكةَ بالإيمان في قوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧]. وكذلك الجانُّ: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١٣]. ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ [الجن: ١٤]. قلتُ: وأحسنُ ما يُستدَلُّ به في هذه المسألة ما رواه عثمانُ بنُ سعيدٍ الدَّارِميُّ، عن عبدِ الله بنِ عمرٍو مرفوعًا، وهو أصحُّ، قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الجنةَ قالت الملائكةُ: يا ربَّنا اجعلْ لنا هذه نأكلُ منها ونشربُ، فإنَّك خلقتَ الدنيا لبني آدَم. فقال اللهُ: لن أجعلَ صالحَ ذريةِ مَن خلقتُ بيدَيَّ، كمَن قلتُ له: كنْ. فكان» (١).

بابُ ذكر خلق الجان وقصَّة الشيطان

قال اللهُ تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٤-١٦]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦، ٢٧]. وقال ابنُ عباسٍ، وعكرمةُ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وغيرُ واحدٍ ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ قالوا: من طَرَفِ اللهبِ. وفي روايةٍ: من خالصه وأحسنه. وقد ذكرْنا آنفًا من طريقِ الزهريِّ، عن عروةَ، عن عائشةَ، قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «خُلقَت الملائكةُ من نور وخُلقَ الجانُّ من مارجٍ من نار وخُلق آدمُ مما وُصفَ لكم». رواه مسلمٌ (٢). قال كثيرٌ من علماءِ التفسيرِ: خُلقَت الجنُّ قبلَ آدمَ عليه السلامُ، وكان قبلَهم في الأرضِ الحنُّ والبنُّ، فسلَّطَ اللهُ الجنَّ عليهم، فقتلُوهم وأجلَوْهم عنها وأبادُوهم منها وسكنُوها بعدَهم؛ بسببِ ما أحدَثوا. وذكرَ السُّدِّيُّ في «تفسيرِه»، عن أبي مالكٍ، عن أبي صالحٍ، عن ابنِ عباسٍ، وعن مُرَّةَ، عن ابنِ مسعودٍ، وعن ناسٍ من أصحابِ رسول الله ﷺ: لَمَّا فرَغ اللهُ من خلقِ ما أحبَّ، استوَىٰ على العرشِ، فجعَل إبليسَ علىٰ مُلك سماء الدُّنيا، وكان من قبيلةٍ من الملائكة يُقالُ لهم الجنُّ، وإنَّما سُمُّوا الجنَّ؛ لأنَّهم خُزَّانُ الجنَّة، وكان إبليسُ مع مُلْكه خازنًا، فوقع في صدرِه: إنما أعطاني اللهُ هذا لمَزِيَّةٍ لي علىٰ الملائكةِ (٣). وذكَر الضحَّاكُ، عن ابنِ عباسٍ، أنَّ الجنَّ لَمَّا أفسدوا في الأرضِ وسفكوا الدماءَ، بعَث اللهُ إليهم إبليسَ ومعه جندٌ من الملائكةِ، فقتلوهم وأجلَوهم عن الأرضِ إلىٰ جزائرِ البحورِ (٤).

وقال محمدُ بنُ إسحاقَ، عن خلَّادٍ، عن عطاءٍ، عن طاوُسٍ، عن ابنِ عباسٍ: كان اسمُ إبليسَ قبل أنْ يرتكبَ المعصيةَ عزازيلَ، وكان من سكَّانِ الأرضِ ومن أشدِّ الملائكةِ اجتهادًا، وأكثرِهم علْمًا، وكان من حَيٍّ يُقالُ لهم الجنُّ (٥). وروىٰ ابنُ أبي حاتمٍ عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ عنه: كان اسمُه عزازيلَ وكان من أشرفِ الملائكةِ، من أُولي الأجْنحَةِ الأربعةِ. وقال سُنَيْدٌ: عن حجاجٍ، عن ابنِ جُرَيْجٍ، قال ابنُ عباسٍ: كان إبليسُ من أشرفِ الملائكةِ وأكرمِهم قبيلةً، وكان خازنًا علىٰ الجنانِ، وكان له سلطانُ سماءِ الدنيا، وكان له سلطانُ الأرضِ (٦). وقال صالحٌ مولَىٰ التوأمةِ، عن ابنِ عباسٍ: كان يسوسُ ما

---

(١) لم أقف عليه. (٢) برقم (٢٩٦٦).

(٣) إسناده ضعيف أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٦)، من طريق السدي به، والسدي صدوق يهم.

(٤) ضعيف أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٨)، من طريق الضحاك به مطولاً، وفي الإسناد: بشر بن عمارة ضعيف.

(٥) ضعيف أخرجه الطبري في «التاريخ» (١/ ٥٩)، من طريق ابن إسحاق به. وفي إسناده محمد بن حميد الرازي «ضعيف».

(٦) ضعيف أخرجه الطبري في «التاريخ» (١/ ٥٦)، من طريق سنيد، واسمه حسين بن داود به، وفيه سُنيد ضُعف مع إمامته، وفيه انقطاع بين ابن جريج وابن عباس رضي اللّه عنه.

بينَ السماءِ والأرضِ. رواه ابنُ جريرٍ[١] .

وقال قَتادةُ، عن سعيدِ بنِ المُسَيِّبِ: كان إبليسُ رئيسَ ملائكةِ سماءِ الدُّنيا.

وقال الحسنُ البصريُّ: لم يكنْ مِنَ الملائكةِ طرفةَ عينٍ، وإنَّه لأَصلُ الجِنِّ، كما أَنَّ آدمَ أصلُ البشرِ.

وقال شهرُ بنُ حَوْشَبٍ وغيرُه: كان إبليسُ مِن الجنِّ الذين طردوهم الملائكةُ، فأَسَره بعضُهم فذهب به إلى السماءِ. رواه ابنُ جريرٍ[٢] . قالوا: فلمَّا أراد اللهُ خلْقَ آدمَ ليكونَ في الأرضِ هو وذريتُه مِن بعدِه، وصوَّرَ جثتَه منها جعل إبليسُ - وهو رئيسُ الجانِّ وأكثرُهم عبادةً إذ ذاك، وكان اسمُه عزازيلَ - يَطيفُ به، فلما رآه أجوفَ، عرَفَ أَنَّه خلْقٌ لا يتمالكُ، وقال: أَمَا لئِن سُلِّطتُ عليك لأُهلكَنَّك، ولئنْ سُلِّطْتَ عليَّ لأعصِينَّك. فلمّا أنْ نَفَخ اللهُ في آدمَ مِن رُوحِه - كما سيأتي - وأمَرَ الملائكةَ بالسجودِ له، دخَلَ إبليسَ منه حسدٌ عظيمٌ، وامتنعَ مِن السجودِ له، وقال: أنا خيرٌ منه خلقتَنِي مِن نَارٍ وخلقتَه مِنْ طينٍ. فخالفَ الأمرَ واعترضَ على الربِّ - عزَّ وجلَّ - وأخطأ في قولِه، وابتعد مِن رحمةِ ربِّه، وأُنزلَ مِن مرتبتِه التي كان قد نالها بعبادتِه، وكان قد تشبَّه بالملائكةِ، ولم يكنْ مِن جنسِهم؛ لأنَّه مخلوقٌ مِن نارٍ، وهم مِن نورٍ، فخانه طبعُه في أحوجِ ما كان إليه، ورجع إلى أصلِه الناريِّ ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٣، ٧٤]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠]. فأَهْبطَ إبليسَ من المَلأِ الأعلَى، وحَرَّم عليه قَدَراً أَنْ يسكنَه، فنزَلَ إلى الأرضِ، حقيراً ذليلاً، مذءُوماً مدحوراً، مُتوعَّداً بالنارِ، هو ومَنِ اتَّبعه مِن الجِنِّ والإنسِ، إلا أنَّه مع ذلك جاهدٌ كلَّ الجَهْدِ على إضلالِ بني آدمَ بكلِّ طريقٍ وبكلِّ مرصَدٍ، كما قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلاً ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُوراً ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢-٦٥]. وسنذكرُ القصةَ مُسْتَفاضةً عندَ ذِكْرِ خلْقِ آدمَ عليه السلامُ.

والمقصودُ أنَّ الجانَّ خُلقوا مِن النارِ، وهم كبَنِي آدمَ يأكلون ويشربون ويتناسَلون، ومنْهم المؤمنون ومنهم الكافرون، كما أخبر تعالى عنهم في سورةِ «الجن» وفي قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ

---

(١) في «التاريخ» (١/ ٥٦)، وفي إسناده حسين بن داود، سُنيد ضعيف.

(٢) في «التاريخ» (١/ ٦٠).

من دُونه أَولياءُ أُولَئكَ في ضَلالٍ مُّبينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ② وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ③ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ④ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ⑤ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ⑥ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ⑦ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ⑧ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ⑨ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ⑩ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ⑪ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ⑫ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا ⑬ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ⑭ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ⑮ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ⑯ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١-١٧]. وقد ذكرنا تفسيرَ هذه السورةِ وتمامَ القصَّةِ في آخرِ سُورةِ «الأحقاف»(١)؛ وذكرنا الأحاديثَ المتعلِّقَةَ بذلك هنالك، وأنَّ هؤلاءِ النَّفَرَ كانُوا مِن جن نَصيبينَ. وفي بعضِ الآثار مِن جنِّ بُصْرَىٰ. وأنَّهم مرُّوا برسول الله ﷺ وهو قائمٌ يصلِّي بأصحابه ببَطْنِ نَخْلَةَ مِن أرضِ مكَّةَ، فوقفُوا فاستَمَعوا لقراءَته، ثم اجتمعَ بهم النَّبيُّ ﷺ لَيْلَةً كاملَةً، فسأَلوه عن أشياءَ أَمرَهُم بها ونَهاهُم عنها، وسأَلُوه الزَّادَ، فقال: «لكم كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسمُ الله علَيْه تَجدُونَه أَوْفَرَ ما يكُونُ لَحْمًا، وكُلُّ رَوْثَةٍ عَلَفٌ لدوَابِّكُم»(٢). ونهَى النبيُّ ﷺ أن يُسْتَنْجَىٰ بهما وقال: «إنَّهُمَا زادُ إخْوَانِكُم الجِنِّ»(٣). ونَهَىٰ عن البَوْلِ في السَّرَبِ؛ لأَنَّها مساكنُ الجنِّ(٤). وقرأ عليهم رسولُ الله ﷺ سورةَ «الرحمن»، فما جعل يمرُّ فيها بآيةِ: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بشَيْءٍ من آلائك ربَّنا نُكذِّبُ، فلك الحَمْدُ. وقد أثنَىٰ عليهم النبيُّ ﷺ في ذلك، لما قرأ هذه السورةَ على الناسِ فسكَتُوا. فقال: «الجنُّ كانوا أحْسَنَ منْكُم رَدًّا، ما قرأتُ عليهم ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بشيءٍ مِنْ آلائك ربَّنا نُكَذِّبُ، فلَكَ الحمدُ». رواه الترمذيُّ عن جابرٍ(٥)، وابنُ جَريرٍ والبَزَّارُ عن ابنِ عُمَرَ(٦).

---

(١) (٤/ ١٦٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٨٦٠)، عن أبي هريرة مختصراً، ومسلم برقم (٤٥٠) عن ابن مسعود.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٤٥٠).

(٤) ضعيف: أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٨٢)، وأبو داود في «السنن» برقم (٢٩)، والنسائي في «المجتبىٰ» (١/ ٣٣)، وفي «الكبرىٰ» برقم (٣٠)، وغيرهم من طريق قتادة، عن عبد اللّه بن سرجس رضي اللّه عنه، وفيه انقطاع بين قتادة وابن سرجس، انظر «جامع التحصيل» للعلائي (٢٥٥)، والتعليل بأنها «مساكن الجن» مدرج من قول قتادة كما جاء مصرحًا به في بعض الطرق.

(٥) في «الجامع الصحيح» برقم (٣٢٩١)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد قال ابن حنبل: كأن زهير بن محمد الذي وقع بالشام ليس هو الذي يروىٰ عنه بالعراق كأنه رجل آخر قلبوا اسمه يعني لما يروون عنه من المناكير، وسمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: أهل الشام يروون عن زهير بن محمد مناكير، وأهل العراق يروون عنه أحاديث مقاربة. اهـ.

(٦) أخرجه الطبري في «التفسير» (٢٧/ ١٢٣)، والبزار كما في «كشف الأستار» (٢٢٦٩)، من طريق نافع، عن ابن عمر، قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١٧): رواه البزار عن شيخه عمرو بن مالك الراسبي وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح». اهـ.
قلت: رواه الطبري عن عمرو هذا وقرنه بمحمد بن عباد بن موسىٰ، وهو صدوق يخطئ، [illegible] فإسناده حسن.

وقد اختلف العلماءُ في مؤمني الجنِّ، هل يدخلون الجنَّةَ، أو يكونُ جزاءُ طائعِهم أنْ لا يُعذَّبَ بالنَّارِ فقط؟ على قولين. الصحيحُ أنهم يدخلونَ الجنَّةَ؛ لعُموماتِ القرآنِ ولعُمومِ قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦، ٤٧]. فامتَنَّ تعالى عليهم بذلك، فلولا أنَّهم ينالُونَه، لَمَا ذكره وعدَّه عليهم من النِّعَمِ. وهذا وحْدَه دَليلٌ مُستقلٌّ كافٍ في المسألةِ، واللهُ أعلمُ. وقال البُخاريُّ[1]: حدَّثنا قُتَيْبَةُ، عن مالكٍ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ عبدِ الله بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي صَعْصَعَةَ، عن أبيه، أنَّ أبا سعيدٍ الخُدْريَّ قال له: «إنِّي أراك تُحبُّ الغَنَمَ والبَادِيَةَ، فإذا كُنْتَ في غَنَمِك وباديَتِك، فأذَّنتَ بالصلاةِ، فارْفَعْ صوتَك بالنِّداءِ، فإنَّه لا يَسْمَعُ مَدَىٰ صَوْتِ المُؤَذِّنِ جِنٌّ ولا إنسٌ ولا شَيءٌ إلا شَهِدَ له يَوْمَ القِيَامَةِ». قال أبو سعيدٍ: سمعتُه من رَسُولِ الله ﷺ. انفرد به البُخاريُّ دونَ مُسْلِمٍ.

وأمَّا كافرو الجنِّ، فمنهم الشياطينُ، ومقدَّمُهم الأكبرُ إبليسُ، عدوُّ آدمَ أبي البشرِ، وقد سلَّطه هو وذريتَه على آدمَ وذريتِه، وتكفَّلَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بعصمةِ مَن آمنَ به وصدَّق رسُلَه واتَّبع شَرْعَه منهم، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١]. وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]. وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٢٨ـ٤٤]. وقد ذكَر تعالى هذه القصَّةَ في سورةِ «البقرة»، وفي «الأعراف»، وهاهنا، وفي سورةِ «سبحان»، وفي سُورةِ «طه»، وفي سُورةِ «ص». وقد تكلَّمْنا على ذلك كُلِّه في مواضعِه في كتابِنا «التفسيرِ»، ولله الحمدُ. وسنُورِدُها في قِصَّةِ آدَمَ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

والمقصودُ أَنَّ إبليسَ أَنْظرَه اللهُ وأخَّرَه إلى يومِ القيامَةِ؛ محْنةً لعبادِه، واختباراً منه لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢١]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا

---

(١) برقم (٣٢٩٦).

أنفسكم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢، ٢٣]. فإبليسُ، لعنَه اللهُ، حيٌّ الآنَ، مُنْظَرٌ إلىٰ يوم القيامَةِ بِنَصِّ القرآنِ، وله عَرْشٌ علىٰ وَجْهِ البَحْرِ، وهو جالسٌ عليه، ويبعثُ سَراياهُ، يُلْقُون بينَ النَّاسِ الشَّرَّ والفِتَنَ. وقد قال اللهُ تعالىٰ: **﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾** [النساء: ٧٦]. وكان اسمُه قبلَ معصيته العظيمةِ عزازيلَ. قال النَّقَّاش: وكنيتُه «أبو كُرْدوسٍ». ولهذا لَمّا قال النبيُّ ﷺ لابنِ صَيَّادٍ: «**ما ترَى؟**» قال: **أَرَىٰ عَرْشًا علىٰ الماء**[1]. فقال له النبيُّ ﷺ: «**اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ**»[2]. فعرَف أَنَّ مادةَ مكاشفَته التي كاشفَه بها شيْطانِيّةٌ، مستَمَدَّةٌ من إبليسَ الذي هو يُشاهدُ عرشَه علىٰ البحرِ، ولهذا قال له: «**اخْسأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ**». أي لن تجاوزَ قيمتَك الدَّنِيَّةَ الخَسيسةَ الحَقيرَةَ. والدَّليلُ علىٰ أَنَّ عرشَ إبليسَ علىٰ البَحْرِ الحديثُ الذي رواهُ الإمامُ أحمدُ[3]، حدَّثنا أبو المُغيرة، حدَّثنا صَفْوانُ، حدَّثني ماعزٌ التَّميميُّ، عن جابرِ بنِ عبد الله، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**عَرْشُ إِبْلِيسَ في البَحْرِ، يَبْعَثُ سَرَايَاهُ في كلِّ يومٍ يَفْتِنُونَ النَّاسَ، فَأَعْظَمُهُم عندَه مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُم فتنَةً للنَّاسِ**».

وقال الإمامُ أحمدُ[4]: حدَّثنا رَوْحٌ، حدَّثنا ابنُ جُرَيْجٍ، أخبرني أبو الزُّبَيْرِ، أَنَّه سمعَ جابرَ بنَ عبدِ الله، يقولُ: سمعْتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «**عَرْشُ إِبْلِيسَ على البَحْرِ، يبعَثُ سَرَايَاهُ فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ، فأعظَمُهُمْ عنْدَه أَعظَمُهُمْ فِتْنَةً**». تفرَّد به من هذا الوجْه.

وقال الإمامُ أحمدُ[5]: حدَّثنا مؤمَّلٌ، حدَّثنا حَمّادٌ، حدَّثنا عليُّ بنُ زَيْدٍ، عن أبي نَضْرَةَ، عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ، قال: قال رَسُولُ الله ﷺ لابنِ صائدٍ: «**ما ترَى؟**» قال: أرَىٰ عَرْشًا علىٰ المَاءِ - أو قَال: علىٰ البَحرِ - حَوْلَه حيَّاتٌ. قال ﷺ: «**ذاك عَرْشُ إبْلِيسَ**». هكذا رواه في مسندِ جابرٍ. وقال في مسند أبي سعيدٍ[6]: حدَّثنا عفَّانُ، حدَّثنا حمَّادُ بنُ سَلَمَةَ، أنبأنا عليُّ بنُ زَيْدٍ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيدٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال لابنِ صائدٍ: «**ما ترَى؟**» قال: أَرَىٰ عَرْشًا علىٰ البَحْرِ، حَوْلَه الْحَيَّاتُ. فقال رسولُ الله ﷺ: «**صَدَقَ، ذاكَ عَرْشُ إِبْلِيسَ**». وروىٰ الإمامُ أحمدُ من طريقِ ماعزٍ التَّميميِّ[7]، وأبي الزُّبَيْرِ[8]، عن جابرِ بنِ عبدِ الله، قَال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَه المُصَلُّونَ، ولكنْ في التَّحْرِيشِ بينَهُم**». وروىٰ الإمامُ مسلمٌ[9] من حديثِ الأَعْمَشِ، عن أبي سُفْيانَ طَلْحَةَ بنِ نافعٍ، عن جابرٍ، عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَضَعُ عَرْشَه على الماءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ في**

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٢٥)، عن أبي سعيد الخدري بهذا اللفظ، ودون قوله: «اخسأ فلن تعدو قدرك».
(٢) أخرجه البخاري برقم (١٣٥٤)، ومسلم برقم (٢٩٢٤/ ٨٦).
(٣) في «المسند» (٣/ ٣٥٤)، وأصل الحديث في «صحيح مسلم» برقم (٢٨١٣).
(٤) في المسند» (٣/ ٣٨٤).
(٥) في «المسند» (٣/ ٣٨٨)، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان ضعيف، وقد اختلف عليه - كما سيأتي - وقد تفرد بلفظ «الحيات».
(٦) في «المسند» (٣/ ٩٧)، وابن جدعان ضعيف.
(٧) في «المسند» (٣/ ٣٥٤).
(٨) في «المسند» (٣/ ٣٦٦).
(٩) برقم (٢٨١٣).

النَّاسِ، فَأَقْرَبُهُم عنده مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُم عِنْدَه فتنةً، يَجِيءُ أحدُهُم، فيقولُ: ما زلتُ بفلان حتى تركتُه وهو يقولُ كذا وكذا. يقولُ إبليسُ: لا والله ما صَنَعْتَ شيئًا. ويَجِيءُ أُحَدُهُم فيقولُ: ما تركتُه حتى فرّقتُ بَيْنَه وبَيْنَ أَهْلِه». قال: «فَيُقَرِّبُه ويُدْنيه ويَلْتَزِمُه، ويقولُ: نَعم أَنْتَ». يُرْوَىٰ بفتحِ النونِ بمعنَىٰ: نَعَمْ أنت ذاك الذي تَسْتَحِقُّ الإكْرامَ. وبكسرِها: أي نِعْمَ منك. وقد استدلَّ به بعضُ النُّحاةِ علىٰ جوازِ كَوْنِ فاعلِ نِعْمَ مُضْمراً، وهو قليلٌ. واختار شيخُنا الحافظُ أبو الحجَّاج الأوَّلَ، ورجَّحه، ووجَّهَه بما ذكرناه، واللهُ أعلمُ. وقد أوردنا هذا الحديث[1] عندَ قولِه تعالىٰ: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. يعني أَنَّ السحْرَ المُتَلَقَّىٰ عن الشياطينِ من الإنسِ والجنِّ يُتَوَصَّلُ به إلىٰ التَّفرقةِ بينَ المتآلفين غايةَ التَّآلُفِ المتوادِّين المتحابِّين، ولهذا شَكَرَ إبليسُ سَعْيَ مَن كان السَّبَبَ في ذلك. فالذي ذمَّه اللهُ يَمْدحُه، والذي يُغْضِبُ اللهَ يُرضيه، عليه لَعْنَةُ الله. وقد أنزلَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ سورتَي «المُعوِّذَتَيْنِ»، مَطْرَدَةً لأنواعِ الشرِّ وأسبابِه وغاياتِه؛ ولا سيَّما سورةُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَٰهِ النَّاسِ ③ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥﴾. وثَبَت في «الصحيحين»[2] عن أنسٍ، وفي «صحيحِ البُخاريِّ»[3] عن صَفِيَّةَ بنتِ حُيَيٍّ، أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إنَّ الشَّيطَانَ يَجْرِي من ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ».

وقال الحافظُ أبو يَعْلَى المَوْصِلِيُّ[4]: حدثنا محمدُ بنُ بَحْرٍ، حدثنا عَدِيُّ بنُ أبي عمارةَ، حدَّثنا زيادٌ النُّمَيْرِيُّ، عن أنسٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الشيطانَ واضعٌ خَطْمه على قلبِ ابنِ آدَمَ، فإنْ ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ، وإنْ نَسِيَ، التقمَ قَلْبَه، فذَلكَ الوَسْوَاسُ الخَنَّاسُ»[5]. ولَمّا كان ذكْرُ الله مَطْرَدةً للشَّيطانِ عن القلبِ، كان فيه تَذْكارٌ للنَّاسي، كما قال تعالىٰ: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]. وقال فَتَىٰ مُوسىٰ: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]. وقال تعالىٰ: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢]. يعني السَّاقيَ لَمّا قال له يوسُفُ: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ نسِيَ الساقي أَنْ يَذْكُرَه لربِّه؛ يعني مولاهُ المَلِكَ. وكان هذا النِّسْيانُ من الشَّيْطانِ، فلبِثَ يوسفُ في السِّجنِ بِضْعَ سنينَ، ولهذا قال بعدَه: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]. أي؛ تذكَّرَ قَوْلَ يوسُفَ له: اذكُرْني عندَ ربِّك. بعدَ مُدَّةٍ. وقُرِئَ: «بعد أَمَهٍ». أي نسيانٍ. وهذا الذي قلنا، مِن أَنَّ النَّاسِيَ هو السَّاقِي هو الصَّوابُ مِن القولين، كما قرَّرناه في «التفسيرِ»[6]، واللهُ أعلمُ.

وقال الإمامُ أحمدُ[7]: حدثنا محمدُ بنُ جعفرٍ، حدَّثنا شُعْبَةُ، عن عاصمٍ، سمعتُ أبا تَميمةَ يحدِّثُ عن رَديفِ رسولِ اللهِ ﷺ قال: عَثَرَ بالنبيِّ ﷺ حِمارُه فقلت: تَعِسَ الشَّيْطانُ. فقال النبيُّ

---

(١) في «التفسير» (١/ ١٤٣) عند ١٠٢ من سورة البقرة.

(٢) اخرجه مسلم برقم (٢١٧٤) عن انس، ولم يخرجه البخاري من هذا الوجه، وانظر «تحفة الأشراف» للمزي (١/ ١٢٠).

(٣) برقم (٢٠٣٨)، وهو في «مسلم» برقم (٢١٧٥).

(٤) في «المسند» برقم (٤٣٠١).

(٥) ضعيف جداً: أخرجه البيهقي في «الشعب» برقم (٥٤٠)، من طريق عدي بن أبي عمارة به. وفي الإسناد زياد بن عبد الله النميري ضعيف، وعدي بن أبي عمارة في حديثه اضطراب.

(٦) (٢/ ٤٧٩) عند الآية ٤٥ من سورة يوسف.

(٧) في «المسند» (٥/ ٥٩)، ورجال الإسناد كلهم ثقات.

ﷺ: «**لا تَقُلْ: تَعسَ الشَّيطانُ. فإنّكَ إذا قُلتَ: تَعسَ الشّيطانُ. تَعَاظَمَ، وقال: بِقُوَّتي صرَعْته. وإذا قُلْتَ: بِسْمِ الله. تَصَاغَرَ، حتى يَصيرَ مثلَ الذُّبَابِ**». تفرَّد به أحمدُ، وهو إسنادٌ جيِّدٌ.

وقالَ الإمامُ أحمدُ(1): حدَّثنا أبو بكرٍ الحَنَفيُّ، حدَّثنا الضَّحَاكُ بنُ عثمانَ، عن سعيدٍ المَقْبُريِّ، عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ أَحَدَكُم إذَا كانَ في المَسْجد، جاءَ الشَّيطَانُ فَأَبَسَ به كما يُبَسُّ الرَّجُلُ بدَابَّته، فَإذا سَكَنَ له زَنَقَه، أو أَلْجَمَهُ**». قالَ أبو هُرَيْرَةَ: وأنتم تَرَوْنَ ذلك؛ أمّا المَزنوقُ فتراه **مائلاً كذا، لا يَذْكرُ اللهَ**، وأما المُلْجَمُ، فَفاتحٌ فاه لا يذكُرُ اللهَ عزَّ وجلَّ. تفرَّد به أحمدُ.

وقالَ الإمامُ أحمدُ(2): حدَّثنا ابنُ نُمَيْرٍ، حدَّثنا ثَوْرٌ، يعني ابنَ يزيدَ، عن مَكْحُولٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**العَيْنُ حَقٌّ ويَحضُرُها الشَّيطَانُ وحَسَدُ ابنِ آدَمَ**»(3).

وقالَ الإمامُ أحمدُ(4): حدَّثنا وَكِيعٌ، عن سُفْيانَ، عن مَنْصورٍ، عن ذَرِّ بنِ عبدِ الله الهَمْدَانيِّ، عن عبدِ الله بنِ شدَّادٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: جاءَ رَجُلٌ إلى النَّبيِّ، فقال: يا رسولَ الله، إني أُحَدِّثُ نَفْسِي بالشَّيْءِ لأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّماءِ أحَبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أَتكلَّمَ بِه. فقال النبيُّ ﷺ: «**اللهُ أكبرُ، الحمدُ لله الذي ردَّ كَيْدَهُ إلى الوَسْوَسَةِ**». ورواه أبو داودَ(5)، والنَّسائيُّ(6)، مِن حديثِ منصورٍ، زاد النسائيُّ: والأَعْمشِ، كلاهما عن ذَرٍّ به.

وقالَ البُخاريُّ(7): حدَّثنا يحيى بنُ بُكَيْرٍ، حدَّثنا اللَّيْثُ، عن عُقَيْلٍ، عن ابنِ شهابٍ، قال: أخبرني عروةُ، قال: قال أبو هُرَيْرَةَ: قال رسولُ الله ﷺ: «**يَأتي الشيطانُ أَحَدَكُمْ، فيقولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حتى يقولَ: مَنْ خَلَقَ ربَّكَ؟ فإذَا بَلَغَه فلْيَسْتَعِذْ بالله ولْيَنْتَه**». وهكذا رواه مسلمٌ(8) مِن حديثِ اللَّيثِ، ومِنْ حديثِ الزُّهْريِّ وهشامِ بنِ عُرْوَةَ، كلاهما عن عُرْوَةَ به. وقد قال اللهُ تعالى: ﴿**إنَّ الَّذينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ طَائفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وقال تعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ**﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]. وقال تعالى: ﴿**وَإمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأعراف: ٢٠٠]. وقال تعالى: ﴿**فَإذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ**﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠]. وروى الإمامُ أحمدُ، وأهلُ «السنن» مِن حديثِ أبي المتوكِّلِ، عن أبي سعيدٍ، قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ:

---

(1) في «المسند» (٢/ ٣٣٠)، وإسناده رجاله كلهم ثقات، غير الضحاك بن عثمان: صدوق يهم.

(2) في «المسند» (٢/ ٤٣٩).

(3) ضعيف: اخرجه أحمد كما تقدّم، ومن طريقه الطبراني في «مسند الشاميين» برقم (٤٥٩)، وفيه انقطاع بين مكحول وأبي هريرة، وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٠٧): في الصحيح من العين حق، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. اهـ.

(4) في «المسند» (١/ ٢٣٥)، ورجال الإسناد كلهم ثقات.

(5) في «السنن» برقم (٥١١٢).

(6) في «الكبرىٰ» برقم (١٠٥٠٤، ١٠٥٠٥).

(7) برقم (٣٢٧٦).

(8) برقم (١٣٤).

«أعوذُ بالله السميعِ العليمِ منَ الشيطانِ الرجيمِ، من هَمْزِه، ونَفْخِه، ونَفْثِه»[١] . وجاء مثلُهُ من روايةِ جُبَيرِ بنِ **مُطْعِمٍ**[٢] ، **وعبدِ** اللهِ بنِ مسعودٍ[٣] ، وأبي أُمامَةَ الباهليِّ[٤] . وتفسيرُه في الحديثِ: قال: **«فهَمْزُه المُوتَةُ، وهو الخَنْقُ الذي هو الصَّرْعُ، ونفخُه الكِبْرُ، ونفثُه الشِّعْرُ»** . وثبتَ في «الصحيحين»[٥] ، **عن أنسٍ**، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، كان إذا دخلَ الخلاءَ قال: **«أعوذُ باللهِ منَ الخُبُثِ والخبائثِ»** . قال كثيرٌ منَ العلماءِ: استعاذَ من ذُكرانِ الشياطينِ وإناثِهم.

ورَوىٰ الإمامُ أحمدُ[٦] ، عن سُرَيْجٍ، عن عيسىٰ بنِ يُونُسَ، عن ثَوْرٍ، عن الحُصَيْنِ، عن أبي سَعْدٍ الخَيْرِ، وكان من أصحابِ عمرَ، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«مَن أتَى الغائطَ فليستتِرْ، فإن لم يجدْ إلا أنْ يَجمعَ كَثيبًا فليستدبِرْه، فإنَّ الشيطانَ يلعبُ بمقاعدِ بني آدمَ، مَن فعلَ فقد أحْسَنَ، ومَن لا، فلا حرجَ»**[٧] . ورواه أبو داودَ، وابنُ ماجَه، من حديثِ ثَوْرِ بنِ يزيدَ به.

وقال البُخاريُّ[٨]: حدثنا عثمانُ بنُ أبي شَيْبَةَ، حدثنا جريرٌ، عن الأعْمَشِ، عن عَدِيِّ بنِ ثابتٍ، قال: قال سليمانُ بنُ صُرَدٍ: استبَّ رجلانِ عندَ النبيِّ ﷺ ونحن عندَه جلوسٌ، فجعلَ أحدُهما يسبُّ صاحبَه مُغْضَبًا قد احمرَّ وجهُه، فقال النبيُّ ﷺ: **«إنِّي لأعلمُ كلمةً لو قالها لذهَبَ عنه ما يجدُ؛ لو قال: أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ»** . فقالوا للرجلِ: ألا تسمعُ ما يقولُ النبيُّ ﷺ؟ فقال: إنِّي لستُ بمجنونٍ. ورواه أيضًا مُسلمٌ[٩] ، وأبو داودَ[١٠] ، والنَّسائيُّ[١١] ، من طُرُقٍ، عن الأعْمَشِ به.

وقال الإمامُ أحمدُ[١٢]: حدَّثنا محمدُ بنُ عُبَيْدٍ، حدثنا عُبَيدُ اللهِ بنُ عمرَ، عن نافعٍ، عن ابنِ عُمَرَ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: **«لا يأكلْ أحدُكم بشمالِه، ولا يشربْ بشمالِه، فإنَّ الشيطانَ يأكلُ بشمالِه ويشربُ بشمالِه»** . وهذا علىٰ شرطِ «الصحيحين» بهذا الإسنادِ، وهو في «الصحيحِ»[١٣] مِن غيرِ هذا الوجهِ. وروىٰ الإمامُ أحمدُ[١٤] ، مِن حديثِ إسماعيلَ بنِ أبي حكيمٍ، عن عُرْوَةَ، عن عائشةَ، عن

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٥٠)، وأبو داود في «السنن» برقم (٧٧٥)، والترمذي في «الجامع الصحيح» برقم (٢٤٢)، والدارمي في «السنن» برقم (١٢٣٩) وغيرهم مطولاً. وأخرجه النسائي في «المجتبىٰ» (٢/ ١٣٢)، وابن ماجه في «السنن» برقم (٨٠٤)، مختصراً، كلهم من طريق جعفر بن سليمان، عن علي بن علي الرفاعي، عن أبي المتوكل، عن أبي سعيد. قال أبو عيسىٰ: وقد تكلم في إسناد حديث أبي سعيد، كان يحيىٰ بن سعيد يتكلم في علي بن علي الرفاعي. وقال أحمد: لا يصح هذا الحديث. اهـ. قلت: ولبعض فقراته شواهد، انظر «صحيح ابن خزيمة» (١/ ٢٣٨).

(٢) أخرجها أحمد في «المسند» (٤/ ٨٠، ٨٣)، وأبو داود في «السنن» برقم (٧٦٤)، وابن ماجه في «السنن» برقم (٨٠٧) وغيرهم، وانظر «صحيح ابن خزيمة» (١/ ٢٣٩)، فقد أعلَّها.

(٣) أخرجها أحمد في «المسند» (١/ ٤٠٣)، وابن ماجه في «السنن» برقم (٨٠٨)، وغيرهم، وإسناده حسن.

(٤) أخرجها أحمد في «المسند» (٥/ ٢٥٣)، وفي إسناده راوٍ مبهم.

(٥) أخرجه البخاري برقم (١٤٢)، ومسلم برقم (٣٧٥).

(٦) في «المسند» (٢/ ٣٧١).

(٧) ضعيف: أخرجه أبو داود في «السنن» برقم (٣٥)، وابن ماجه في «السنن» برقم (٣٣٨)، والدارمي في «السنن» برقم (٦٦٢)، وغيرهم من طريق ثور، عن حصين به. وفيه حصين الحميري: مجهول.

(٨) برقم (٦١١٥).

(٩) برقم (٢٦١٠).

(١٠) في «السنن» برقم (٤٧٨١).

(١١) في «الكبرىٰ» برقم (١٠٢٢٤).

(١٢) في «المسند» (٢/ ٨٠).

(١٣) أخرجه مسلم برقم (٢٠٢٠).

(١٤) في «المسند» (٦/ ٧٧)، وفي إسناده رشدين بن سعد: ضعيف، وموسىٰ بن سرجس: مستور. والحديث أخرجه من هذا الوجه الطبراني في «الأوسط» برقم (٢٩٢).

رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**مَن أكَل بشماله أكَل معه الشيطانُ، ومَن شَرب بشماله شَرب معه الشيطانُ**».

وقَال الإمامُ أحمدُ[١]: حدثنا محمدُ بنُ جعفرٍ، أنبأنا شُعْبةُ، عن أبي زِيادٍ الطَّحَّانَ: سمعتُ أبا هريرةَ يقولُ عن النبيِّ ﷺ، أنَّه رأىٰ رجلاً يشربُ قائمًا، فقال له: «**قِهْ**». قال: لِمَ؟ قال: «**أيَسُرُّكَ أنْ يَشْرَبَ معَكَ الهِرُّ؟**» قال: لا. قال: «**فإنّه قَدْ شَرِبَ مَعَكَ مَن هو شرٌّ منه؛ الشيطانُ**». تفرَّد به أحمدُ مِن هذا الوجهِ.

وقَال أيضًا[٢]: حدثنا عبدُ الرَّزَّاقِ، حدثنا مَعْمَرٌ، عن الزُّهْريِّ، عن رجلٍ، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لو يعلمُ الذي يشربُ وهو قائمٌ ما في بطنه لاَسْتَقاء**». قال: وحدثنا عبدُ الرزاقِ، عن مَعْمَرٍ، عن الأعمشِ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، بمِثْلِ حديثِ الزُّهْرِيِّ.

وقَال الإمامُ أحمدُ[٣]: حدثنا موسىٰ، حدثنا ابنُ لَهِيعَة، عن أبِي الزبيرِ أنَّه سأل جابرًا: سمعتُ النبيَّ ﷺ قال: «**إذَا دخَل الرجلُ بيتَه فذكَر اسمَ الله حينَ يدخلُ وحينَ يَطعمُ قال الشيطانُ: لا مَبيتَ لكم ولا عَشاءَ ههنا. وإنْ دخَل ولم يذكرِ اسمَ الله عندَ دَخوله قال: أدْرَكْتم المَبيتَ. وإنْ لم يذكرِ اسمَ الله عندَ طعامه قال: أدركْتم المَبيتَ والعَشاءَ**»؟ قال: نَعَمْ. وقالَ البخاريُّ[٤]: حدثنا محمدٌ، حدثنا عَبْدَةُ، عن هشامِ بنِ عُرْوَةَ، عن أبيه، عن ابنِ عمرَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا طلَع حاجبُ الشمسِ فَدَعوا الصلاةَ حتى تبرُزَ، وإذَا غابَ حاجبُ الشمْسِ فَدَعُوا الصلاةَ حتى تَغيبَ، ولا تَحَيَّنُوا بصلاتكم طلوعَ الشمسِ ولا غروبَهَا، فإنَّها تطلعُ بينَ قرنَيْ شَيْطَانٍ - أو - الشياطينِ**». لاَ أدْرِي أيَّ ذلك قال هشامٌ. ورواه مسلمٌ[٥]، والنَّسائيُّ[٦]، مِن حديثِ هشامٍ به.

وقال البخاريُّ[٧]: حدثنا عبدُ الله بنُ مَسْلَمَةَ، عن مالكٍ، عن عبدِ الله بنِ دينارٍ، عن ابنِ عُمَرَ، قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يشيرُ إلىٰ المَشرقِ، فقال: «**ها إنَّ الفتنةَ هاهنا، إنّ الفتنة هاهنا، مِن حيثُ يطلُعُ قرنُ الشيطانِ**». هكذا رواه البخاريُّ منفردًا به من هذا الوجه. وفي «السننِ»[٨]: أنَّ رسولَ الله ﷺ نَهىٰ أنْ يَجلسَ بينَ الشمسِ والظِّلِّ. وقال: «**إنَّه مجلسُ الشيطانِ**». وقد ذكروا في هذا معانِيَ؛ مِن أحسنها، أنَّه لَمَّا كان الجُلوسُ في مِثْلِ هذا الموضعِ فيه تشْويهٌ بالخِلقَة فيما يُرَىٰ كان يحبُّه الشيطانُ؛ لأنَّ خِلْقتَه في نفسه مُشَوَّهَةٌ وهذا مستقرٌّ في الأذهانِ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿**طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**﴾ [الصافات: ٦٥]. الصحيحُ أنَّهم الشياطينُ، لا ضربٌ مِن الحياتِ كما زَعَمه مَن زعمه مِن المفسرين، واللهُ أعلمُ، فإنّ النفوسَ مغروزٌ فيها قُبْحُ الشياطينِ، وحسنُ خَلْقِ الملائكة، وإنْ لم يُشاهَدُوا، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿**طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**﴾. وقال النسوةُ لَمَّا شاهدن جمالَ يوسُفَ:

---

(١) في «المسند» (٢/ ٣٠١)، ورجال الإسناد كلهم ثقات غير أبو زياد الطحان فقد وثقه ابن معين، وقال أبو حاتم: شيخ صالح. انظر «الجرح والتعديل» (٩/ ٣٧٣)، وقال الذهبي في «الميزان»: لا يعرف.

(٢) في «المسند» (٢/ ٢٨٣)، وفيه راو مبهم، وقد ذكر له متابعة بعد ذا، ورجالها كلهم ثقات.

(٣) في «المسند» (٣/ ٣٤٦)، وفي إسناده ابن لهيعة: ضعيف، وقد تابعه ابن جريج، وصرح بالسماع فيما أخرجه مسلم برقم (٢٠١٨).

(٤) برقم (٣٢٧٢). (٥) برقم (٨٢٩). (٦) في «المجتبىٰ» (١/ ٢٧٩)، وفي «الكبرىٰ» برقم (١٥٥٠).

(٧) برقم (٣٢٧٩).

(٨) أخرجه أبو داود في «السنن» برقم (٤٨٢١)، عن أبي هريرة، وابن ماجه في «السنن» برقم (٣٧٢٢)، عن بريدة، كلاهما بمعناه.

﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

وقال البخاري(١): حدثنا يحيى بنُ جعفر، حدثنا محمدُ بنُ عبد الله الأنصاريُّ، حدثنا ابنُ جُرَيج، أخبرني عطاءٌ، عن جابر، عن النبيِّ قال: «**إذا استَجْنَح - أو: كان جُنْحُ الليل - فكُفُّوا صبيانَكم، فإنَّ الشياطينَ تَنْتَشِرُ حينئذ، فإذا ذَهَبَ ساعةٌ من العشاء فخَلُّوهم، وأغلِقْ بابَكَ واذكرِ اسمَ الله، وأطفئْ مصباحَكَ واذكرِ اسمَ الله، وأوْكِ سقاءَكَ واذكرِ اسمَ الله، وخمِّرْ إناءَكَ واذكرِ اسمَ الله، ولو تَعْرُضُ عليه شيئًا**». ورواه أحمدُ(٢) عن يحيى، عن ابنِ جُرَيجٍ به، وعندَه: «**فإنَّ الشيطانَ لا يفتحُ بابًا مُغلقًا**».

وقال الإمامُ أحمدُ(٣): حدثنا وكيعٌ، عن فطر، عن أبي الزبير، عن جابر، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**أغلقوا أبوابكم، وخمِّروا آنيتكم، وأوكوا أسقيتكم، وأطفئوا سُرُجَكُم، فإنَّ الشيطانَ لا يفتحُ بابًا مُغْلَقًا، ولا يكشفُ غطاءً، ولا يَحُلُّ وكاءً، وإنَّ الفويسقةَ تُضْرِمُ البيتَ على أهله**». يعني الفأرةَ.

وقال البخاري(٤): حدثنا آدمُ، حدثنا شُعْبَةُ، عن منصور، عن سالمِ بنِ أبي الجَعْد، عن كُرَيب، عن ابنِ عباس، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لو أنَّ أحدَكم إذا أرادَ أنْ يأتيَ أهلَه قال: اللهمَّ جَنِّبْني الشيطانَ، وجنِّب الشيطانَ ما رَزَقْتني. فإنْ كان بينَهما ولدٌ لم يَضُرَّه الشيطانُ، ولم يُسلَّطْ عليه**»، وحدثنا الأَعْمَشُ، عن سالم، عن كُرَيب، عن ابنِ عباسٍ مثلَه. ورواه أيضًا(٥)، عن موسى بنِ إسماعيلَ، عن همام، عن منصور، عن سالم، عن كُرَيب، عن ابنِ عباس، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**أمَا لو أنَّ أحدَكم إذا أتى أهلَه قال: بسمِ الله، اللهمَّ جنِّبْنا الشيطانَ، وجنِّب الشيطانَ ما رزَقْتَنا. فرُزِقا ولدًا، لم يَضُرَّه الشيطانُ**».

وقال البخاري(٦): حدثنا إسماعيلُ، حدثنا أخي، عن سليمانَ، عن يحيى بنِ سعيد، عن سعيدِ بنِ المُسَيَّب، عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: «**يَعقِدُ الشيطانُ على قافيةِ رأسِ أحدِكم إذا هو نامَ ثلاثَ عُقَد، يضربُ على كلِّ عقدة مكانَها: عليك ليلٌ طويلٌ فارقدْ. فإنِ استَيقظَ فذَكَرَ اللهَ انحلَّت عقدةٌ، فإنْ توضَّأ انحلَّت عقدةٌ، فإنْ صلَّى انحلَّت عُقَدُه كلُّها، فأصبَحَ نشيطًا طيبَ النفس، وإلاَّ أصبَحَ خبيثَ النفسِ كسلانَ**». هكذا رواه، منفردًا به من هذا الوجه. وقال البخاري(٧): حدثنا إبراهيمُ بنُ حمزةَ، حدثني ابنُ أبي حازم، عن يزيدَ، يعني ابنَ الهاد، عن محمدِ بنِ إبراهيمَ، عن عيسى ابنِ طَلْحَةَ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**إذا استَيقظَ أحدُكم من منامه فتَوضأ فليستنثرْ ثلاثًا، فإنَّ الشيطانَ يَبيتُ على خَيْشُومه**». ورواه مسلمٌ(٨)، عن بِشْرِ بنِ الحَكَم عن الدَّراوَرْديِّ، والنَّسائيُّ(٩) عن محمدِ بنِ زُنْبور، عن عبدِ العزيزِ بنِ أبي حازم، كلاهما عن يزيدَ بنِ الهادِ به.

وقال البخاري(١٠): حدثنا عثمانُ بنُ أبي شَيْبَةَ، حدثنا جريرٌ، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبدِ الله قال: ذُكِرَ عندَ النبيِّ ﷺ رجلٌ نام لَيْلَةً حتى أَصْبَحَ، قال: «**ذاك رجلٌ بالَ الشيطانُ في أُذُنَيه**». أو قال: «**في أُذُنه**». ورواه مسلمٌ(١١)، عن عثمانَ، وإسحاقَ، كلاهما عن جرير به.

(١) برقم (٣٢٨٠). (٢) في «المسند» (٣/ ٣١٩). (٣) في «المسند» (٣/ ٣٠١).
(٤) برقم (٣٢٨٣). (٥) برقم (٣٢٧١). (٦) برقم (٣٢٦٩).
(٧) برقم (٣٢٩٥). (٨) برقم (٢٣٨). (٩) في «المجتبى» (١/ ٦٧).
(١٠) برقم (٣٢٧٠). (١١) برقم (٧٧٤).

وأخرجه البخاريُّ أيضًا والنَّسائيُّ وابنُ ماجَه، مِن حديثِ منصورِ بنِ المُعتَمرِ به [١].

وقال البخاريُّ [٢] :حدثنا محمدُ بنُ يُوسُفَ، أنبأنا الأوْزاعِيُّ، عن يحيىٰ بنِ أبِي كثيرٍ، عن أَبي سَلَمَةَ، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إذا نُودِيَ بالصلاة أدْبر الشيطانُ وله ضُراطٌ، فإذا قُضِيَ أقبلَ، فإذا ثُوِّب بها أدبرَ، فإذا قُضِيَ أقبلَ، حتى يَخطرَ بينَ الإنسانِ وقلبه، فيقولُ: اذكرْ كذا وكذا. حتى لا يدرِيَ أثلاثًا صلَّى أم أربعًا؟ فإذا لم يدْرِ أثلاثًا صلَّى أم أربعًا، سَجَدَ سَجْدتي السهوِ»**. هكذا رواه منفردًا به مِن هذا الوجه.

وقال الإمامُ أحمدُ [٣] :حدثنا أَسْوَدُ بنُ عامرٍ، حدثنا جعفرٌ ـ يعني الأَحْمَرَ ـ عن عطاءِ بنِ السائبِ، عن أنسٍ، قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«راصُّوا الصفوفَ، فإنَّ الشَّياطينَ تقومُ في الخَلَلِ»**.

وقال أحمدُ [٤] :حدثنا عفانُ، حدثنا أَبَانُ، حدثنا قتادةُ، عن أنسِ بنِ مالكٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ: **«راصُّوا صُفُوفَكم، وقاربوا بينَها، وحاذُوا بينَ الأعناق، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده إنِّي لأَرَى الشيطانَ يدخلُ من خَلَلِ الصفِّ كأنَّه الحَذَفُ»**. وقال البخاريُّ [٥] : حدثنا أبو مَعْمَرٍ، حدثنا عبدُ الوارثِ، حدثنا يونسُ، عن حُمَيْدِ بنِ هلالٍ، عن أبي صالحٍ، عن أبي سعيدٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إذا مرَّ بينَ يدَيْ أحدكم شيءٌ فليمنعْه، فإنْ أَبَى فليَمنعْه، فإنْ أَبَى فَلْيُقاتلْه، فإنَّما هو شيطان»**.
ورواه أيضًا مسلمٌ وأبو داودَ، مِن حديثِ سليمانَ بنِ المُغيرَةِ، عن حُمَيْدِ بنِ هلالٍ به [٦].

وقال الإمامُ أحمدُ [٧]:حدثنا أبو أحمدَ، حدثنا مَسرَّةُ بنُ مَعْبَدٍ، حدثنا أبو عُبَيدٍ صاحبُ سليمانَ، قال: رأيتُ عطاءَ بنَ يزيدَ اللَّيْثيَّ قائمًا يصلِّي، فذهبتُ أمُرُّ بينَ يدَيه فردَّني، ثمَّ قال: حدثني أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قام يصلِّي صلاةَ الصُّبحِ وهو خلفَه فقرأ، فالْتَبَستْ عليه القراءةُ، فلمَّا فرَغ مِن صلاته قال: **«لو رأيتُمُوني وإبليسَ، فأهْويتُ بِيَدي فما زلْتُ أخنُقُه حتى وجدْتُ بَرْدَ لُعابه بينَ إصْبَعَيَّ هاتين؛ الإبهامِ والتي تَليها، ولولا دعوةُ أخي سليمانَ لَأَصْبَحَ مرْبوطًا بساريةٍ من سَوَاري المسجدِ، يتلاعبُ به صبيانُ المدينة، فمَن استَطاعَ منكم أنْ لا يحولَ بينَه وبينَ القبلة أحدٌ فليفعلْ»**. وروىٰ أبو داودَ [٨] منه: **«فَمَن اسْتطَاعَ»**. إلىٰ آخرِه، عن أحمد بنِ أبي سُرَيجٍ عن أبي أحمدَ، محمَّدِ بنِ عبدِ الله بنِ الزُّبيْرِ، الزُّبيْريِّ به.

وقال البخاريُّ [٩]:حدثنا محمودٌ حدثنا شَبَابَةُ، حدثنا شُعْبةُ، عن محمدِ بنِ زِيادٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ: أنَّه صلَّىٰ صلاةً فقال: **«إنَّ الشيطانَ عرَضَ لي، فشدَّ عليَّ يقطَعُ الصلاةَ عليَّ، فأمْكنني اللهُ منه»**. فذكر الحديثَ. وقد رواه مسلمٌ والنَّسائيُّ، من حديثِ شُعْبَةَ به مطوَّلًا [١٠]. ولفْظُ البخاريِّ [١١] عندَ تَفسيرِ قولِه تعالىٰ، إخبارًا عن سليمانَ عليه السلامُ، أنَّه قال: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٤٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» برقم (١٣٠٢)، وابن ماجه في «السنن» برقم (١٣٣٠).
(٢) برقم (٣٢٨٥).
(٣) في «المسند» (٣/ ١٥٤)، وإسناده حسن لأجل عطاء بن السائب، وجعفر الأحمر فقد تكلم فيهما.
(٤) في «المسند» (٣/ ٢٦٠، ٢٨٣)، ورجال إسناده كلهم ثقات. (٥) برقم (٣٢٧٤).
(٦) أخرجه مسلم برقم (٥٠٥)، وأبو داود في «السنن» برقم (٧٠٠). (٧) في «المسند» (٣/ ٨٢).
(٨) في «السنن» برقم (٦٩٩). (٩) برقم (٣٢٨٤).
(١٠) أخرجه مسلم برقم (٥٤١)، والنسائي في «الكبرىٰ» برقم (١١٤٤٠). (١١) في «الصحيح» برقم (٤٨٠٨).

مَنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]. من حديث رَوْحٍ وغُنْدَرٍ، عن شُعْبَةَ، عن محمد بن زيادٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ عفريتًا منَ الجنِّ تفلَّت عليَّ البارحةَ». أو كلمةً نحوَها «ليقطعَ عليَّ الصلاةَ، فأمْكَنَني اللهُ منه، فأردتُ أنْ أربطَه إلى ساريةٍ منْ سواري المسجد حتى تصبحوا وتَنظُروا إليه كلُّكم، فذكرتُ قولَ أخي سليمانَ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾. قال رَوْحٌ: فَرَدَّه خاسئًا. وروى مسلمٌ[1] من حديثِ أبي إدْريسَ، عن أبي الدَّرْداء قال: قام رسولُ الله ﷺ يصلِّي، فسمِعْناه يقولُ: «أعوذُ بالله منكَ». ثم قال: «ألعنُك بلعْنة الله». ثلاثًا، وبَسَط يدَه، كأنَّه يتَناولُ شيئًا. فلمَّا فَرَغ من الصلاةِ، قلنا: يا رسولَ الله، قد سمِعْناك تقولُ في الصلاة شيئًا لم نسْمعْك تقولُه قبلَ ذلك، ورأيْناك بسطتَ يدَك. فقال: «إنَّ عدوَّ الله إبليسَ، جاءَ بشهاب منْ نَار ليجعلَهُ في وجهي، فقلتُ: أعوذُ بالله منك. ثلاثَ مرات، ثم قلتُ: ألعنُك بلعنة الله التامَّة. فلم يستأخِرْ، ثم أردتُ أخْذَه، والله لولا دعوةُ أخينا سليمانَ، لأصبحَ مُوثَقًا، يلعبُ به ولدانُ أهلِ المدينَة». وقال تعالى: ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]. يعني الشيطانَ. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]. فالشيطانُ لا يألُو الإنسانَ خبالاً جهدَه وطاقتَه، في جميعِ أحوالِه وحركاتِه وسكناتِه، كما صنَّف الحافظُ أبو بكرِ بنُ أبي الدُّنيا رَحِمَه اللهُ كتابًا في ذلك سمَّاه: «مصائدَ الشيطانِ» وفيه فوائدُ جَمَّةٌ. وفي «سننِ أبي داود»[2] أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقولُ في دعائه: «وأعوذُ بك أنْ يتخبَّطَني الشيطانُ عندَ الموت». ورُوِّينا في بعضِ الأخبارِ أنه قال: «يا ربِّ وعزَّتك وجلالك لا أزالُ أُغْوِيهم ما دامتْ أرواحُهم في أجسادهم». فقال اللهُ تعالى: وعزَّتي وجَلالي ولا أزالُ أغْفِرُ لَهُمْ ما اسْتَغْفَرُوني[3]، وقال اللهُ تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. فوعدُ اللهِ هو الحقُّ الصدقُ، ووعدُ الشيطانِ هو الباطلُ. وقد روى الترمذيُّ[4]، والنَّسائيُّ[5]، وابنُ حِبَّانَ في «صحيحِه»[6]، وابنُ أبي حاتمٍ في «تفسيرِه» من حديث عطاءِ بنِ السائبِ، عن مُرَّةَ الهَمْدانيِّ، عن ابنِ مسعودٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ للشيطانِ لَمَّةً بابنِ آدَمَ، وللملَك لَمَّةً، فأمَّا لَمَّةُ الشيطان فإيعادٌ بالشرِّ، وتكذيبٌ بالحق، وأمَّا لَمَّةُ المَلَك فإيعادٌ بالخَير، وتصديقٌ بالحقِّ. فمَن وَجَدَ ذلك فليعلمْ أنَّه منَ اللهِ، فليحمد اللهَ، ومَن وَجَدَ الأخرَى. فليتعوذْ منَ الشيطان». ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[7].

وقد ذكرنا[8] في فضلِ سورةِ «البقرة» أنَّ الشيطانَ يفرُّ مِن البيتِ الذي تُقرأُ فيه. وذكرنا في فضلِ

---

(١) برقم (٥٤٢).

(٢) في «السنن» برقم (١٥٥٢)، ورجال إسناده كلهم ثقات غير عبد اللَّه بن سعيد: فهو صدوق ربما وهم، وصيفي: مجهول، انظر «الجرح والتعديل» (٤/ ٤٤٨)، ومدار الحديث على هذا الأخير، والحديث ثابت من غير هذا الوجه.

(٣) ضعيف: أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٢٩، ٤١)، من طريقين عن أبي سعيد الخدري، فالأولى من طريق ابن لهيعة عن دراج، عن أبي الهيثم. والثانية من طريق ليث، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو، كلاهما عن أبي سعيد به.
وفي الأولى ابن لهيعة وهو ضعيف، ورواية دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد فيها ضعف أو نكارة، وفي الثانية ليث هو ابن أبي سليم ضعيف، ورواية عمرو وهو ابن أبي عمر عن أبي سعيد فيها انقطاع.

(٤) في «الجامع الصحيح» برقم (٢٩٨٨).

(٥) في «الكبرى» برقم (١١٠٥١).

(٦) برقم (٩٩٧).

(٧) ضعيف مرفوعًا، وقد تقدم.

(٨) في «التفسير» (١/ ٣٢).

آية الكرسيِّ أنَّ مَن قرأها في ليلةٍ لا يقربُه الشيطانُ حتى يصبحَ[١] .

وقال البخاري[٢] : حدثنا عبدُ الله بنُ يُوسُفَ، أنبأنا مالكٌ، عن سُمَيٍّ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : **«مَن قال: لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ. في يوم مائةَ مرة، كانت له عَدْلَ عَشْرِ رقاب وكُتِبَت له مائةُ حسنة، ومُحِيَتْ عنه مائةُ سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومَه ذلك حتى يُمسي، ولم يأتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاء به إلا أحدٌ عَملَ أكثرَ من ذلك»**. وأخرجه مسلمٌ، والترمذيُّ، وابنُ ماجه، من حديث مالك[٣] . وقال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ. وقال البخاري[٤] : ثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيبٌ، عن أبي الزِّناد، عن الأعْرَج، عن أبي هريرةَ، قال: قال ﷺ : **«كلُّ بَني آدمَ يطعنُ الشيطانُ في جَنبَيْه بأُصبُعِه حين يُولَدُ غيرَ عيسى ابن مريمَ؛ ذهب يطعنُ فطَعَنَ في الحجاب»**. تفرَّد به من هذا الوجه. وقال البخاري[٥] : حدثنا عاصمُ بنُ عليٍّ، حدثنا ابنُ أبي ذئبٍ، عن سعيدٍ المَقْبُريِّ، عن أبيه، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال : **«التثاؤبُ منَ الشيطان، فإذا تثاءَبَ أحدُكم فليَرُدَّه ما استطاع، فإنَّ أحدَكم إذا قال: ها. ضحك الشيطانُ»**. ورواه أحمدُ وأبو داودَ والترمذيُّ وصحَّحه والنَّسائيُّ من حديث ابن أبي ذئبٍ به[٦] . وفي لفظ : **«إذا تثاءبَ أحدُكم فليكظمْ ما استطاع، فإنَّ الشيطانَ يدخلُ»**[٧] .

وقال الإمامُ أحمدُ[٨]: حدثنا عبدُ الرزاق، أنبأنا سفيانُ، عن محمد بن عَجْلانَ، عن سعيدٍ المَقْبُريِّ، عن أبيه، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إنَّ اللهَ يُحبُّ العُطاسَ، ويبغَضُ، أو يكرهُ التثاؤبَ، فإذا قال أحدُكم: ها ها. فإنَّما ذلك الشيطانُ يضحَكُ من جوفه»**. ورواه الترمذيُّ، والنَّسائيُّ من حديث محمد بن عَجْلانَ به[٩] .

وقال البخاري[١٠]: حدثنا الحَسَنُ بنُ الرَّبيع، حدثنا أبو الأحْوصِ، عن أشْعَثَ، عن أبيه، عن مَسْروقٍ، قال: قالت عائشةُ : سألتُ النبيَّ ﷺ عن التفات الرجلِ في الصلاة، فقال: **«هو اختلاسٌ يختلسُه الشيطانُ من صلاة أحدكم»**. وكذا رواه أبو داودَ والنَّسائيُّ من رواية أشْعَثَ بنِ أبي الشَّعْثاءِ سُلَيم بنِ أسْوَدَ المُحَارِبيِّ، عن أبيه، عن مَسْرُوقٍ به[١١] .

وروى البخاري[١٢] **من حديث الأوزاعيِّ، عن يحيى بن أبي كثير**: حدثني عبدُ الله بنُ أبي قَتادةَ، عن أبيه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«الرُّؤيا الصالحةُ منَ الله، والحُلْمُ من الشيطان، فإذا حَلَمَ**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢٧٥). (٢) برقم (٣٢٩٣).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩١)، والترمذي في «الجامع الصحيح» برقم (٣٤٦٨)، وابن ماجه في «السنن» برقم (٣٧٩٨).

(٤) برقم (٣٢٨٦). (٥) برقم (٣٢٨٩).

(٦) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٤٢٨)، وأبو داود في «السنن» برقم (٥٠٢٨)، والترمذي في «جامعه» برقم (٢٧٤٧)، والنسائي في «الكبرىٰ» برقم (١٠٠٤٣).

(٧) أخرجه مسلم برقم (٢٩٩٤)، عن أبي هريرة دون قوله : فإن الشيطان يدخل، وبتمامه برقم (٢٩٩٥) عن أبي سعيد الخدري.

(٨) في «المسند» (٢/ ٢٦٥).

(٩) أخرجه الترمذي في «الجامع الصحيح» (٢٧٤٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» برقم (١٠٠٤٥). (١٠) برقم (٣٢٩١).

(١١) أخرجه أبو داود في «السنن» برقم (٩١٠)، والنسائي في «المجتبىٰ» برقم (١١٩٦). (١٢) برقم (٣٢٩٢).

أحدُكم حُلمًا يخافُه فلْيَبصُقْ عَنْ يَساره، وليتعوذْ بالله من شرِّها، فإنَّها لا تضرُّه».

وقال الإمامُ أحمدُ[١]: حدثنا عبدُ الرزاقِ، حدثنا معمرٌ، عن همَّام، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يَمْشِيَنَّ أحدُكم إلى أخيه بالسلاحِ، فإنَّه لا يَدري أحدُكم لعل الشيطانَ أنْ يَنزِعَ في يده، فيقعَ في حفرة من النار». أخرجاه[٢] من حديث عبد الرزاق[٣]. وقال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]. وقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦-١٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦-١٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢].

وقال تعالى إخبارًا عن الجانِّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨، ٩].

وقال البخاريُّ[٤]: وقال اللَّيْثُ: حدثني خالدُ بنُ يَزيدَ، عن سعيدِ بنِ أبي هلالٍ، أنَّ أبا الأسْودِ أخبَرَه، عن عُروةَ، عن عائشةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «المَلائكةُ تَحدَّثُ في العَنانِ ـ والعَنانُ الغَمامُ ـ بالأمرِ يكونُ في الأرضِ، فتسمعُ الشياطينُ الكلمةَ فتقرُّها في أُذُنِ الكاهنِ، كما تُقَرُّ القارورةُ، فيزيدُون معها مائةَ كَذْبَةٍ». هكذَا رواه في صفة إبليسَ معلَّقًا عن اللَّيْثِ به. ورواه في صفةِ الملائكة[٥]، عن سعيدِ بنِ أبي مَريمَ، عن اللَّيْثِ، عن عُبَيدِ اللهِ بنِ أبي جَعْفَرٍ، عن محمدِ بنِ عبدِ الرحمنِ أبي الأسْوَدِ، عن عروةَ، عن عائشةَ بنحوِه. تفرَّد بهذين الطريقين دونَ مسلمٍ. وروى البخاريُّ في موضعٍ آخرَ[٦]، ومسلمٌ[٧]، من حديثِ الزُّهْرِيِّ، عن يحيى بنِ عروةَ بنِ الزبيرِ، عن أبيه قال: قالت عائشةُ: سأل ناسٌ النبيَّ ﷺ عن الكهَّانِ؟ فقال: «إنَّهم ليسوا بشيء». فقالوا: يا رسولَ الله، فإنَّهم يُحدِّثونَ بالشيء يكونُ حقًّا. فقال ﷺ: «تلك الكلمةُ من الحقِّ، يَخطفُها الجنيُّ فيُقرقِرُها في أُذنِ وليِّه كقَرْقَرَةِ الدجاجة، فيخلطُون معها أكثرَ من مائة كذبة». هذا لفظُ البُخاريِّ.

وقال البخاريُّ[٨]: حدثنا الحُمَيْديُّ، حدثنا سفيانُ، حدثنا عمرٌو قال: سمعتُ عِكْرِمَةَ يقولُ: سمعتُ أبا هريرةَ يقولُ: إنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ قال: «إذا قَضَى اللهُ الأمرَ في السماء، ضَربَت المَلائكةُ بأجنحتها خُضْعانًا لقوله، كأنَّه سَلسَلةٌ على صفوان، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: للَّذي قالَ: الحقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ. فيسمعُها مُسْتَرِقُ السمعِ، ومُسترقُ السمعِ هكذا، بعضُه فوقَ بعضٍ». ووَصَفَ سُفْيانُ بِكفِّه، فحرَّفها وبدَّد بينَ أصابِعه «فيسمعُ الكلمةَ فيُلقيها إلى مَن تحتَه، ثم يُلقيها الآخرُ إلى مَن تحته،

---

(١) في «المسند» (٢/ ٣١٧). (٢) أخرجه البخاري برقم (٧٠٧٢)، ومسلم برقم (٢٦١٧).
(٣) برقم (٣٢٨٨). (٤) برقم (٣٢١٠). (٥) برقم (٧٥٦١).
(٦) برقم (٢٢٢٨). (٧) برقم (٤٨٠٠). (٨) برقم (٢٢٢٩).

حتى يلقيَـها على لسان الساحـر أو الكاهن، فربما أدْرَك الشّهابُ قـبلَ أنْ يُلقيَها، وربما ألقـاها قبلَ أنْ يدركه، فيكذبُ مـعها مـائةَ كَذْبة، فيُقـالُ: أليس قد قال لنا يومَ كـذا وكذا: كذا وكـذا. فيُصدَّقُ بـتلك الكلمة التي سُمِعَت مـن السماء». انفرد به البخاريُّ. وروىٰ مسلمٌ، من حديث الزُّهْريِّ، عن عليِّ بنِ الحسينِ زَيْنِ العابدين، عن ابنِ عباسٍ، عن رجالٍ من الأنصارِ، عن النبيِّ ﷺ نحوَ هذا. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الآية [فصلت: ٢٥]. وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٧-٢٩]. وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢، ١١٣].

وقد قدَّمنا في صفة الملائكة ما رواه أحمدُ[(١)] ، ومسلمٌ[(٢)] من طريقِ منْصورٍ، عن سالمِ بنِ أبي الجَعْد، عن أبيه واسمُه رافعٌ، عن ابنِ مَسْعودٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلاَّ وقد وُكِّل به قرينُه منَ الجنِّ، وقـرينُه منَ الملائكة». قـالوا: وإيَّاك يا رسولَ الله؟ قـال: «وإيَّايَ، ولكـنَّ اللهَ أعانَني عليه فلا يأمرُني إلاَّ بخَيرٍ». وقال الإمامُ أحمدُ[(٣)] : حدثنا عثمانُ بنُ أبي شَيْبَةَ، حدثنا جَريرٌ، عن قابوسٍ، عن أبيـه، واسمُه حُصَينُ بنُ جُنْدَبٍ، وهو أبو ظَبْيَانَ الجَنْبِيُّ، عن ابنِ عباسٍ، قال: قال رسـولُ الله ﷺ: «ليس منكم من أحد إلاَّ وقد وُكِّل به قـرينُه من الشياطين». قـالوا: وأنت يا رسـولَ الله؟ قال: «نَعم ولكنَّ اللهَ أعانَني عليه فَأَسلمَ». تفرَّد به أحمدُ، وهو علىٰ شرط الصحيح.

وقال الإمامُ أحمدُ[(٤)] : حدثنا هارُونُ، حدثنا عبدُ الله بنُ وَهْبٍ، أخبرني أبو صَخْرٍ، عن يزيدَ بنِ قُسَيطٍ؛ حدثَه أنَّ عروةَ بنَ الزبيرِ حدثه، أنَّ عائشةَ زوجَ النبيِّ ﷺ حدثتْه، أنَّ رسولَ الله ﷺ خرَج من عندها ليلاً، قالت: فَغِرْتُ عليه. قالت: فجاء فرأىٰ ما أصنعُ، فقال: «ما لَـكِ يا عائشـةُ، أغِرْتِ؟» قالت: فقلتُ: وما ليَ أنْ لا يغارَ مِثْلي علىٰ مِثْلِك؟! فقال رسولُ الله ﷺ: «أفـأخذَكِ شـيطانُكِ؟» قالت: يا رسولَ الله، أوَ معيَ شيطانٌ؟ قال: «نعم». قلتُ: ومع كلِّ إنسانٍ؟ قال: «نعم». قلتُ: ومعك يا رسولَ الله؟ قال: «نعمْ، ولكنَّ ربِّي أعانني عليه حتى أسلمَ». وهكذا رواه مسلمٌ[(٥)] ، عن هارونَ وهو ابنُ سعيدٍ الأيليُّ، بإسناده نحوَه.

وقال الإمـامُ أحمـدُ[(٦)] : حدثنا قُتَيْبَةُ بنُ سعيدٍ، حدثنا ابنُ لَهيعَةَ، عن موسىٰ بنِ وَرْدانَ، عن أبي

---

(١) في «المسند» (١/ ٣٨٥).
(٢) برقم (٢٨١٤).
(٣) في «المسند» (١/ ٢٥٧).
(٤) في «المسند» (٦/ ١١٥).
(٥) برقم (٢٨١٥).
(٦) في «المسند» (٢/ ٣٨٠)، وفي الإسناد ابن لهيعة: ضعيف. وموسىٰ بن وردان: صدوق ربما أخطأ.

هريرةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ المؤمنَ ليُنْضِي شيطانَه كما يُنْضِي أحدُكم بعيرَه في السفرِ». تفرَّد به أحمدُ مِن هذا الوجهِ. ومعنى «ليُنْضِي شيطانَه»: ليأخذُ بناصيتِه فيغلبُه ويقهرُه، كما يفعلُ بالبعيرِ إذا شَرَدَ ثم غَلَبَه. وقولُه تعالى إخباراً عن إبليسَ: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

قال الإمامُ أحمدُ[١]: حدثنا هاشِمُ بنُ القاسِمِ، حدثنا أبو عَقيلٍ، هو عبدُ اللهِ بنُ عَقيلٍ الثَّقَفِيُّ، حدثنا موسى بنُ المُسيِّبِ، عن سالمِ بنِ أبي الجَعْدِ، عن سَبْرَةَ بنِ أبي فاكهٍ، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ الشيطانَ قَعَدَ لابنِ آدمَ بأطرُقِه، فقعَدَ له بطريقِ الإسلامِ، فقال: أتُسلِمُ وتذرُ دينَك ودينَ آبائك؟**» قال: «**فعصاه وأسلَمَ**». قال: «**وقَعَدَ له بطريقِ الهجرةِ، فقال: أتهاجرُ وتذرُ أرضَك وسماءَك، وإنما مَثَلُ المهاجرِ كالفرَسِ في الطِّوَلِ. فعصاه فهاجَرَ، ثم قَعَدَ له بطريقِ الجهادِ، وهو جَهْدُ النفسِ والمالِ، فقال: أتقاتلُ فتُقْتَلُ، فتُنْكَحُ المرأةُ ويُقْسَمُ المالُ؟**» قال: «**فعصاهُ فجاهَدَ**». قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**فمَن فَعَلَ ذلك منهم، كان حقًّا على اللهِ أنْ يدخلَهُ الجنةَ، وإنْ قُتِلَ كان حقًّا على اللهِ أنْ يدخلَه الجنةَ، وإنْ غَرِقَ كان حقًّا على اللهِ أنْ يدخلَه الجنةَ، وإنْ وقَصَتْه دابتُه كان حقًّا على اللهِ أنْ يدخلَه الجنةَ**»[٢].

وقال الإمامُ أحمدُ[٣]: حدثنا وكيعٌ، حدثنا عُبادةُ بنُ مُسْلِمٍ الفَزاريُّ، حدثني جُبَيْرُ بنُ أبي سليمانَ ابنِ جُبَيرِ بنِ مُطْعِمٍ، سمعتُ عبدَ اللهِ بنَ عمرَ يقولُ: لم يكنْ رسولُ اللهِ ﷺ يدَعُ هذه الدعواتِ حينَ يُصبحُ وحينَ يُمسي: «**اللهمَّ إنِّي أسألُك العافيةَ في الدنيا والآخرةِ، اللهمَّ إنِّي أسألُك العفوَ والعافيةَ في ديني ودنيايَ وأهلي ومالي، اللهمَّ استرْ عَوْراتي، وآمِنْ رَوْعاتي، اللهمَّ احفظني من بينِ يَدَيَّ ومن خلفي، وعن يَميني وعن شمالي ومن فَوْقي، وأعوذُ بعظَمتك أنْ أُغْتالَ من تحتي**». قال وَكيعٌ: يعني الخسفَ. ورواه أبو داودَ والنَّسائيُّ وابنُ ماجه وابنُ حِبَّانَ والحاكمُ مِن حديثِ عُبادَةَ بنِ مُسْلِمٍ به[٤]. وقال الحاكِمُ: صحيحُ الإسْنادِ. واللهُ تعالى أعلمُ بالصوابِ.

* * *

(١) في «المسند» (٣/ ٤٨٣).

(٢) إسناده حسن: أخرجه النسائي في «المجتبى» (٦/ ٢١)، وفي «الكبرى» برقم (٤٣٤٢)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» برقم (١٣)، وفي «الآحاد والمثاني» برقم (١٠٤٣)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ١١٧) وغيرهم من طرق عن موسى بن المسيب، عن سالم بن أبي الجعد، عن سبرة به.
وموسى صدوق، قال ابن حجر في «الإصابة» (٣/ ٣١): «. . . بإسناد حسن إلا أن في سنده اختلافًا».
قلت: كأنه يشير إلى ما ذكره في (١/ ٤٣٠) ترجمة جابر بن أبي سبرة، ورواية سالم بن أبي الجعد عنه هذا الحديث، فقد نقل قول ابن منده: غريب تفرد به طارق والمحفوظ في هذا عن سالم بن أبي الجعد عن سبرة بن أبي فاكه».

(٣) في «المسند» (٢/ ٢٥).

(٤) صحيح: أخرجه أبوداود في «السنن» برقم (٥٠٧٤)، والنسائي في «المجتبى» (٨/ ٢٨٢)، وفي «الكبرى» برقم (٧٩٧٠)، وابن ماجه في «السنن» برقم (٣٨٧١)، وابن حبان في «صحيحه» برقم (٩٦١)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥١٧)، من طرق عن عبادة به، ورجاله كلهم ثقات.

باب ما ورد في خلق آدم عليه السلام

قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٩].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]. كما قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ الآية [الأعراف: ١٨٩]. وقال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ١١-٢٥]. كما قال في الآية الأخرى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ [طه: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ

خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون (٢٦) والجان خلقناه من قبل من نار السموم (٢٧) وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون (٢٨) فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (٢٩) فسجد الملائكة كلهم أجمعون (٣٠) إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين (٣١) قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين (٣٢) قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون (٣٣) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٣٤) وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين (٣٥) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٣٦) قال فإنك من المنظرين (٣٧) إلى يوم الوقت المعلوم (٣٨) قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين (٣٩) إلا عبادك منهم المخلصين (٤٠) قال هذا صراط علي مستقيم (٤١) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين (٤٢) وإن جهنم لموعدهم أجمعين (٤٣) لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ [الحجر: ٢٦-٤٤]. وقال تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا (٦١) قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا (٦٢) قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا (٦٣) واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا (٦٤) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥]. وقال تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما (١١٥) وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى (١١٦) فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى (١١٧) إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى (١١٨) وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى (١١٩) فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى (١٢٠) فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى (١٢١) ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى (١٢٢) قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى (١٢٣) ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى (١٢٤) قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا (١٢٥) قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾ [طه: ١١٥-١٢٦]. وقال تعالى: ﴿قل هو نبأ عظيم (٦٧) أنتم عنه معرضون (٦٨) ما كان لي من علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون (٦٩) إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين (٧٠) إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين (٧١) فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (٧٢) فسجد الملائكة كلهم أجمعون (٧٣) إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين (٧٤) قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (٧٥) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (٧٦) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٧٩) قال فإنك من المنظرين (٨٠) إلى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال فالحق والحق أقول (٨٤) لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (٨٥) قل ما أسألكم

عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٦٧-٨٨].

فهذا ذِكْرُ هذه القصة مِن مواضعَ متفرقةٍ مِنَ القرآنِ، وقد تكلَّمنا على ذلك كلِّه في «التفسيرِ». ولْنذكر هاهنا مضمونَ ما دلَّت عليه هذه الآياتُ الكريماتُ، وما يتعلقُ بها مِنَ الأحاديثِ الواردةِ في ذلك عن رسولِ الله ﷺ، واللهُ المُستعانُ. فأخبرَ تعالى أنَّه خاطبَ الملائكةَ قائلاً لهم: **﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾**. أَعْلَمَ بما يريدُ أنْ يخلقَ مِن آدمَ وذريتِه، الذين يخلُفُ بعضُهم بعضًا، كما قال: **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾** [الانعام: ١٦٥]. وقال: **﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾** [النمل: ٦٢]. فأخبرهم بذلك على سبيلِ التَّنويه بخلْقِ آدمَ وذريَّتِه، كما يُخبَرُ بالأمرِ العظيمِ قبلَ كونِه. فقالت الملائكةُ سائلين على وجهِ الاستكشاف والاستعلامِ عن وجه الحكمة، لا على وجه الاعتراضِ والتنقُّصِ لبني آدَمَ أو الحسدِ لهم، كما قد يتوهَّمُه جَهَلَةُ المفسِّرينَ: **﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدماء﴾**. قِيل: علِموا أنَّ ذلك كائنٌ بما رأَوْا ممَّن كان قبلَ آدمَ مِن الجِنِّ والبِنِّ. قاله قَتادةُ[1]. وقال عبدُ الله بنُ عمرٍو[2]: كانت الجِنُّ والبِنُّ قبلَ آدمَ بألفَيْ عامٍ، فسفكوا الدِّماءَ، فبعَث اللهُ إليهم جُنْدًا مِن الملائكةِ، فطرَدُوهم إلى جزائرِ البُحورِ. وعن ابنِ عبَّاسٍ[3] نحوُه. وعن الحسَنِ[4]: أُلهِمُوا ذلك. وقِيل: لِمَا اطَّلَعُوا عليه مِن اللَّوْحِ المَحْفوظِ. فَقِيل: أَطْلَعهم عليه هاروتُ وماروتُ عن مَلَكٍ فوقَهما يُقالُ له: السِّجِلُّ. رواه ابنُ أبي حاتمٍ، عن أبي جعفرٍ الباقرِ[5]. وقيل: لأنَّهم علِموا أنَّ الأرضَ لا يُخلَقُ منها إلا مَن يكونُ بهذه المَثابةِ غالبًا: **﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾** أي؛ نعبدُك دائمًا لا يَعْصيك منَّا أحدٌ، فإنْ كان المُرادُ بخَلْقِ هؤلاء أنْ يعبدُوك، فها نحنُ لا نَفْتُرُ ليلاً ولا نهارًا. **﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾** أي؛ أعلمُ من المصلَحَةِ الرَّاجِحَةِ في خلْقِ هؤلاءِ ما لا تَعلمونَ، أي؛ سيُوجَدُ منهم الأنبياءُ والمرسَلُون والصِّدِّيقون والشُّهداءُ. ثم بيَّنَ لهم شرفَ آدمَ عليهم في العلمِ، فقال: **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾**. قال ابنُ عبَّاسٍ[6]: هي هذه الأسماءُ التي يتعارفُ بها الناسُ؛ إنسانٌ، ودابَّةٌ، وأرضٌ، وسهْلٌ، وبحرٌ، وجبَلٌ، وجمَلٌ، وحِمارٌ، وأشباهُ ذلك مِن الأُمَمِ وغيرِها. وفي روايةٍ: علَّمه اسمَ الصَّحْفةِ والقِدْرِ، حتى الفَسْوَةِ والفُسَيَّةِ.

وقال مُجاهِدٌ[7]: علَّمه اسمَ كلِّ دابةٍ، وكلِّ طيرٍ، وكلِّ شيءٍ.

---

(١) لم أقف عليه: والمروي عنه بخلافه: أن الله أعلمهم بذلك. رواه عبد الرزاق (٣٣ تفسير) عن معمر.

(٢) رجاله ثقات: اخرجه ابن ابي حاتم (٣٢١). قال: حدثني أبي حدثنا: علي بن محمد الطنافسي حدثنا: أبو معاوية: حدثنا: الأعمش، عن بكير بن الأخنس، عن مجاهد عن ابن عمر. ورجاله ثقات إلا ما يخشى من تدليس الأعمش، فقد عنعن.

(٣) ضعيف: رواه ابن جرير (تفسير ١/ ١/ ٢٠١)، والحاكم (٢/ ٢٦١). أبو كريب حدثنا: عثمان بن سعيد حدثنا: بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس. فيه ثلاث علل: بشر بن عمارة وأبو روق ضعيفان، والضحاك لم يسمع ابن عباس.

(٤) ضعيف: ابن جرير (١/ ١/ ٢٠٦) نحوه. حدثنا: القاسم حدثنا: الحسين حدثني: حجاج، عن جرير بن حازم ومبارك، عن الحسن. (فيه الحسين وضُعف).

(٥) ضعيف: ابن أبي حاتم (٣٢٧). حدثنا: أبي حدثنا: هشام الرازي حدثنا ابن المبارك، عن معروف بن خربوذ المكي، عمن سمع أبا جعفر. (فيه مبهم).

(٦) حسن بطرقه: رواه الطبري (١/ ٢١٥) وابن أبي حاتم (تفسير ٣٣٦). (من طرق يقوي بعضها بعضًا).

(٧) صحيح: رواه الطبري (١/ ٢٧١) من طرق عن خصيف، عن مجاهد. ومن طرق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ورواية ابن أبي نجيح عن مجاهد متكلم فيها. قال يحيى بن سعيد القطان: لم يسمع التفسير من مجاهد، وصححها ابن عيينة وقال: سمعه من القاسم بن أبي بزة. وابن أبي بزة: ثقة. واستشهد بها البخاري في صحيحه.

وكذا قال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ[١] ، وقتادةُ[٢]، وغيرُ واحدٍ.

وقال الرَّبيعُ[٣] : علَّمه أسماءَ الملائكة. وقال عبدُ الرحمنِ بنُ زَيْدٍ[٤] : علَّمه أسماءَ ذُرِّيَّته. والصحيحُ أنَّه علَّمه أسماءَ الذَّواتِ وأفعالَهَا؛ مُكَبَّرَها ومُصَغَّرَها. كما أشار إليه ابن عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما.

وذكَر البخاريُّ[٥] هاهنا ما رواه هو ومسلمٌ، مِن طريقِ سعيدٍ وهشامٍ، عن قَتادَةَ، عن أنسِ بنِ مالكٍ، عن رسولِ الله ﷺ قال: «يَجْتَمِعُ المؤمنونَ يومَ القيامة فيَقولُونَ: لو استَشْفَعْنَا إلى ربِّنا. فيَأتُونَ آدمَ فيقولُونَ: أنتَ أبو البَشَر، خَلَقَكَ اللهُ بيَده، وأسْجَدَ لَكَ مَلائكتَه، وعَلَّمَكَ أسْماءَ كلِّ شَيءٍ». وذكَر تمامَ الحديث. ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال الحسنُ البصريُّ[٦] : لَمَّا أراد اللهُ خلْقَ آدمَ، قالت الملائكةُ: لا يخلُقُ ربُّنا خَلْقًا إلا كنَّا أعلمَ منه. فابتُلُوا بهذا. وذلك قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وقيلَ غيرُ ذلك، كما بسطناه في «التَّفْسير». ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي؛ سُبْحانَك أَنْ يحيطَ أحدٌ بشيءٍ من عِلْمك من غيرِ تَعْليمك، كما قال: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي؛ أعلمُ السِّرَّ كما أعلمُ العلانيةَ وقيل: إنَّ المُرادَ بقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ ما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. فهذا ما أبدَوْه، وبقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ المُرادُ بهذا الكلامِ إبْليسُ، وما أسرَّه وكتَمَه في نفسه من الكِبْرِ والعَداوةِ لآدَمَ، عليه السَّلامُ. قاله سعيدُ بنُ جُبَيرٍ[٧]، ومُجاهدٌ[٨] ، والسُّدِّيُّ[٩] ، والضَّحَّاكُ[١٠] ، والثَّوْريُّ[١١] ، واختاره ابنُ جَريرٍ. وقال أبو العاليَة[١٢] ، والرَّبيعُ[١٣] ، والحَسَنُ[١٤] ، وقَتادةُ[١٥] : ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قولُهم: لن يخلُقَ ربُّنا خَلْقًا إلا كنا أعلمَ منه، وأكرمَ عليه منه. وقولُه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ هذا إكْرامٌ عَظيمٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ لآدَمَ، حينَ خلقه بيَدِه ونفَخ فيه

---

(١) **ضعيف**: رواه الطبري (١/ ٢١٥) فيه ابن وكيع ترك حديثه بسبب الوراق، وشريك سيِّئ الحفظ.

(٢) **صحيح**: رواه عبد الرزاق، عن معمر عنه (تفسير ٣٨)، والطبري من طرق (١/ ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧).

(٣) **ضعيف**: رواه الطبري (١/ ٢١٦) وفيه إبهام شيخ الطبري قال: حُدثت عن عمارة وفيه أبو جعفر الرازي ضعيف.

(٤) **صحيح**: رواه الطبري (١/ ٢١٦) من رواية يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عنه.

(٥) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٤٧٦) واللفظ له ومسلم (١٩٣) وليست عنده هذه اللفظة «وعلمك أسماء كل شيء».

(٦) **ضعيف الإسناد إليه**: رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢١٨)؛ وفيه: سنيد: الحسين بن داود: ضعيف.

(٧) **ضعيف الإسناد إليه**: رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٢٢)، وفيه: عمرو بن ثابت: ضعيف: وأبوه: يهم.

(٨) **صحيح بطرقه**: رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢١٢، ٢١٣)، من طرق عنه من طريق ابن أبي نجيح عنه وهذه الرواية. فيها كلام لأهل العلم قال يحيى بن سعيد القطان: لم يسمع ابن أبي نجيح التفسير من مجاهد. وقال ابن عيينة: صحيحة سمعها من القاسم ابن أبي بزة، والقاسم: ثقة؛ واستشهد بها البخاري في «صحيحه». كذلك كان سفيان الثوري يصححها، فهي صحيحة إن شاء اللَّه. ورواه أيضًا: من طريق القاسم عنه من طريق سفيان، عن رجل عنه، وطريق المعتمر بن سليمان، عن عبد الوهاب ابنه عنه.

(٩) **حسن إليه**: رواه أيضًا ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٢٢) من رواية أسباط عنه، وأسباط متكلم فيه، لكنه لا ينزل عن رتبة الحسن. وثقه ابن معين، وتوقف فيه أحمد، ووثقه ابن حبان وابن شاهين وابن سعد في «الطبقات» قال: رواية السدي... وأثنى عليه. وقال النسائي: ليس بالقوي. لكن السدي يروي هذا الأثر، عن ابن عباس، وابن مسعود، وجماعة من الصحابة.

(١٠) **ضعيف الإسناد إليه**: نفس المصدر السابق فيه: بشر بن عمارة ضعيف، وكذلك أبو روق.

(١١) رواه ابن جريرفي نفس المصدر.

(١٢) **ضعيف**: إلى أبي العالية: رواه ابن أبي حاتم (٣٥٦)، فيه: أبو جعفر الرازي: ضعيف في روايته عن الربيع.

(١٣) **ضعيف**: إلى الربيع: رواه ابن أبي حاتم (٣٥٧)، فيه: أبو جعفر الرازي عيسى بن ماهان: ضعيف في روايته عنه.

(١٤) **صحيح إلى الحسن**: رواه: سعيد بن منصور في «التفسير» (١٨٥)، من رواية مهدي بن ميمون عنه.

(١٥) **فيه ضعف**: عن قتادة، رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٢٣) من رواية معمر عنه. ورواية معمر عن البصريين ضعيفة.

من رُوحه، كما قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]. فهذه أربعُ تَشريفات؛ خَلْقُه له بِيَده الكريمة، ونَفْخُه فيه من رُوحه، وأمْرُه الملائكةَ بالسُّجود له، وتعليمُه أسماءَ الأشياء، ولهذا قال له موسى الكَليمُ حينَ اجتمعَ هو وإيَّاه في الملأ الأعْلَى وتناظرا، كما سيأتي: «أنت آدمُ أبو البَشَر الذي خلقَكَ اللهُ بيَده، ونَفَخَ فيك من رُوحه، وأسْجد لك ملائكتَه، وعلَّمكَ أسماءَ كلِّ شيء؟». وهكذا يقولُ له أهلُ المَحْشر يومَ القيامَة، كما تقدم وكما سيأتي إن شاء اللهُ تعالى.

وقال في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ⦗١١⦘ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١١، ١٢]. قال الحسنُ البصريُّ: قاسَ إبليسُ، وهو أوَّلُ مَن قاسَ. وقال محمدُ بنُ سيرينَ: أوَّلُ مَن قاسَ إبليسُ، وما عُبِدَت الشمْسُ والقَمَرُ إلا بالمَقاييس. رواهما ابنُ جَرير[1]. ومعنى هذا، أنَّه نَظَرَ نفسَه بطريق المقايَسَة بينَه وبينَ آدَمَ، فرأى نفسَه أشرفَ من آدَمَ، فامتنَعَ منَ السُّجود له، مع وُجود الأمْر له ولسَائِر الملائكَة بالسُّجود. والقياسُ إذا كان مُقابَلاً بالنَّصِّ كان فاسدَ الاعْتبار. ثم هو فاسدٌ في نفسه؛ فإنَّ الطينَ أنفعُ وخَيْرٌ من النَّار، فإنَّ الطِّينَ فيه الرَّزانَةُ، والحِلْمُ، والأناةُ والنُّمُوُّ، والنَّارُ فيها الطَّيْشُ، والخِفَّةُ، والسُّرْعَةُ، والإحْراقُ، ثم آدمُ شرَّفه اللهُ بخَلْقه له بيَده، ونَفْخه فيه من رُوحه؛ ولهذا أمَرَ الملائكَةَ بالسُّجود له، كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ⦗٢٨⦘ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ⦗٢٩⦘ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ⦗٣٠⦘ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ⦗٣١⦘ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ⦗٣٢⦘ قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ⦗٣٣⦘ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ⦗٣٤⦘ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٢٨-٣٥].

استحقَّ هذا من اللهِ تعالى؛ لأنه استلزم تَنَقُّصُه لآدَمَ وازْدراؤه به وترفُّعُه عليه مخالَفَةَ الأمْرِ الإلهيِّ، ومُعاندةَ الحقِّ في النَّصِّ على آدَمَ على التَّعيين، وشَرَعَ في الاعتذار بما لا يُجْدي عنه شيْئًا، وكان اعتذارُه أشَدَّ من ذَنْبه؛ كما قال تعالى في سورة «سُبْحان»: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ⦗٦١⦘ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ⦗٦٢⦘ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ⦗٦٣⦘ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ⦗٦٤⦘ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥]. وقال في سورة «الكهف»: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]. أي؛ خرج عن طاعة الله عَمْدًا وعنادًا واستكبارًا عن امتثال أمره، وما ذاك إلا لأنَّه خانه طَبْعُه ومادتُه النارية الخَبيثَةُ أحْوَجَ ما كان إليها، فإنَّه مخلوقٌ

---

(١) ضعيف: ابن جرير (٥/ الجزء ٨/ ١٣١). أثر الحسن: ضعيف. فيه سُنَيد ضعيف، وكذلك مطر الوراق ضعيف. أثر ابن سيرين: ضعيف، فيه: عمرو بن مالك ضعيف، ويحيى بن سليم: سيئ الحفظ.

من نارٍ كما قال، وكما قدمنا في «صحيح مسلم»[١] ، عن عائشةَ، عن رَسولِ اللهِ ﷺ قال: «**خُلقَت الملائكةُ من نورٍ، وَخُلقَ الجَانُّ مِن مارجٍ مِن نارٍ، وخُلقَ آدَمُ ممَّا وُصفَ لَكُم**».

قال الحسنُ البصريُّ[٢] :لم يكنْ إبليسُ مِن الملائكةِ طَرْفَةَ عينٍ قطُّ. وقال شهرُ بنُ حَوْشَبٍ[٣] : كان مِنَ الجِنِّ، فلمَّا أفسدُوا في الأرضِ بعَثَ اللهُ إليهم جُنْدًا مِن الملائكَة، فقتلُوهم وأجلَوْهم إلىٰ جَزائِرِ البِحارِ، وكان إبليسُ مِمَّنْ أُسِرَ، فأخذُوه معهم إلىٰ السماءِ، فكان هناك، فلمَّا أُمِرَتِ الملائكةُ بالسجودِ امتنَعَ إبليسُ منه.

وقال ابنُ مسعود وابنُ عباس وجماعةٌ من الصحابة[٤] **وسعيدُ بنُ المُسيِّب**[٥] **وآخرون**: كان إبليسُ رئيسَ الملائكةِ بالسماءِ الدنيا. قالَ ابنُ عبَّاسٍ[٦]: وكان اسمُه عَزازيلَ. وفي روايةٍ عنه: الحارثُ. قال النقَّاشُ: وكُنْيَتُه أبو كُرْدُوسٍ. قال ابنُ عباسٍ[٧]: وكان مِن حَيٍّ من الملائكة، يقالُ لهم الجِنُّ، وكانوا خُزَّانَ الجِنانِ، وكان مِن أشْرَفِهم وأكثرِهم علْمًا وعبادةً، وكان من أُولي الأجْنحَة الأرْبعَة، فمسخَه اللهُ شيطانًا رجيمًا. وقال في سورة «ص»: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [ص: ٧١-٨٥]. وقال في سورة «الأعراف»: ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]. أي بسببِ إغوائِك إيَّايَ لأقعدنَّ لهم كلَّ مرصدٍ، ولآتينهم مِنْ كلِّ جهةٍ منهم. فالسعيدُ مَن خالَفَه، والشقيُّ من اتَّبَعَه.

كما قال الإمامُ أحمدُ[٨] :حدثنا هاشمُ بنُ القاسم، حدثنا أبو عَقيلٍ - هو عبدُ اللهِ بنُ عَقيلٍ الثقفيُّ -

---

(١) **صحيح مسلم**:(٢٩٩٦)، أحمد (٦/ ١٥٣ - ١٦٨)، عبد الرزاق (٢٠٩٠٤).

(٢) **صحيح إلى الحسن**:رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٢٦) من رواية عوف عنه.

(٣) **ضعيف**:رواه ابن جرير (نفس المصدر)، فيه: ابن حميد. وهو محمد شيخ الطبري: ضعيف.

(٤) **حسن الإسناد**:رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٢٥) عنهم كلهم بسند واحد. من رواية موسى ابن هارون حدثنا عمرو بن حماد قال: حدثنا أسباط، عن السدي، عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ هذا السند أكثر ابن جرير الرواية عنه. ورجاله: موسى بن هارون: ثقة. عمرو بن حماد صدوق وأسباط ترجمت له مثل ذلك وهو لا ينزل عن درجة صدوق، وأبو صالح باذام: ضعيف، وتابعه أبو مالك الغفاري موثق. ومرة ثقة والسدي له رواية عن الصحابة، فالسند حسن قد صَحَّح هذا الإسناد الشيخ (أحمد شاكر) في تحقيقه لابن جرير في سورة الفاتحة راجعه إن شئت.

(٥) **صحيح إلى سعيد**:رواه ابن جرير (نفس المصدر صـ٢٢٥) من رواية سلام بن مسكين، عن قتادة عنه.

(٦) **صحيح الإسناد إليه**:رواه ابن جرير (نفس المصدر صـ٢٢٤)، وابن أبي حاتم (٣٦١)، وسنده رجاله ثقات. وسند الطبري فيه ابن حميد: ضعيف. وابن إسحاق عنعنه وهو مدلس.

(٧) **ضعيف إلى ابن عباس**:رواه ابن جرير (نفس المصدر صـ٢٢٥)، من طريق ضعيف فيه: سنيد، عن ابن جريج، عن مولى التوأمة أو شريك، وكلاهما متكلم فيه، عن ابن عباس ومن رواية الضحاك عنه. والضحاك لم يسمع من ابن عباس وفيه أيضًا مبهم، وهو شيخ الطبري قال: حُدثت عن حسين بن الفرج.

(٨) **حسن**:رواه أحمد (٣/ ٤٨٣)، والنسائي (٦/ ٢١)، وابن أبي شيبة (الجهاد: ٤/ ٥٦٤ - ح٢٧١)، ابن حبان (٤٥٩٣) بترتيب ابن بلبان، وكلهم من طريق موسى بن المسيب، عن سالم به.

حدثنا موسى بنُ المسيِّب، عن سالم بن أبي الجَعْد، عن سَبْرَةَ بنِ أبي الفاكه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الشيْطانَ قعَد لابن آدَمَ بأطْرُقه». وذكَر الحديثَ، كما قدمناه في صفة إبليس.

وقد اختَلَفَ المفسرون في الملائكة المأمورين بالسجود لآدمَ، أهُمْ جميعُ الملائكة - كما دلَّ عليه عمومُ الآيات، وهو قولُ الجمهور - أو المرادُ بهم ملائكةُ الأرض، كما رواه ابنُ جرير[1] من طريق الضحَّاك، عن ابن عباس، وفيه انقطاعٌ، وفي السياق نَكَارَةٌ، وإنْ كان بعضُ المتأخرين قد رجَّحَه، ولكنَّ الأظهرَ من السياقات الأوَّلُ، ويدلُّ عليه الحديثُ: «وأسْجَدَ لَهُ مَلائكَتَه»[2]. وهذا عمومٌ أيضًا، واللهُ أعلمُ. وقولُه تعالى لإبليسَ: ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ و﴿ اخْرُجْ مِنْهَا ﴾ دليلٌ على أنَّه كان في السماء، فأُمرَ بالهبوط منها والخروج من المنزلة والمكانة التي كان قد نالها بعبادته، وتَشَبُّهه بالملائكة في الطاعة والعبادة، ثُمَّ سُلبَ ذلك بكِبْره وحسده ومخالفته لربِّه، فأُهْبِط إلى الأرض مذْءُومًا مدْحورًا، وأمر اللهُ آدمَ عليه السلامُ أن يسكنَ هو وزوجتُه الجنةَ، فقال: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥]. وقال في «الأعراف»: ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٨، ١٩]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٦-١١٩]. وسياقُ هذه الآيات يقتضي أنَّ خَلْقَ حواءَ كان قبلَ دخول آدمَ الجنةَ؛ لقوله: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾. وهذا قد صرَّح به ابنُ إسحاقَ بن يسار وهو ظاهرُ هذه الآيات.

ولكنْ حكَى السُّدِّيُّ[3]، عن أبي صالح وأبي مالك، عن ابن عباس، وعن مُرَّةَ، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، أنهم قالوا: أُخْرِج إبليسُ من الجنة، وأُسْكِنَ آدمُ الجنةَ، فكان يمشي فيها وَحْشًا ليس له فيها زوجٌ يسكنُ إليها، فنام نوْمةً، فاستيقظ وعندَ رأسه امرأةٌ قاعدةٌ، خلقها اللهُ من ضلْعه، فسألها، مَن أنت؟ قالت: امرأةٌ. قال: ولِمَ خُلقْت؟ قالت: لتسكُنَ إليَّ. فقالتْ له الملائكةُ، ينظرون ما بلَغَ من علمه: ما اسمُها يا آدمُ؟ قال: حواءُ. قالوا: ولِمَ كانتْ حواءَ؟ قال: لأنها خُلقَتْ من شيءٍ حيٍّ.

وذكَر محمدُ بنُ إسحاقَ، عن ابن عباس[4] أنَّها خُلقتْ من ضلْعه الأقصر الأيسر وهو نائمٌ، ولأَمَ مكانَه لحمًا. ومصداقُ هذا في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ الآيةَ [النساء: ١]. وفي قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ

(١) ضعيف: رواه ابن جرير في «التاريخ» (١/ ٦٥)، وفيه: أبو روق وبشر بن عمارة: ضعيفان، والانقطاع بين الضحاك وابن عباس.
(٢) متفق عليه: سبق تخريجه.
(٣) حسن: رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٢٩)، وسبق الكلام على هذا السند.
(٤) ضعيف: رواه ابن جرير تاريخ (١/ ٦٩)، وفيه ابن حميد: ضعيف، والانقطاع بين ابن إسحاق وابن عباس.

وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ الآيةُ [الأعراف: ١٨٩].
وستتكلمُ عليها فيما بعدُ إن شاء اللهُ تعالى.

وفي «الصحيحين»[١] من حديث زائدةَ، عن مَيْسرةَ الأشجعيِّ، عن أبي حازمٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قال: «**استَوْصُوا بالنِّساء خيرًا، فإنَّ المرأةَ خُلِقَتْ من ضِلَعٍ، وإنَّ أعْوَجَ شيءٍ في الضلَعِ أعلاهُ، فإنْ ذهبْتَ تُقيمُه كسرْتَه، وإنْ تركْتَه لمْ يزَلْ أعْوَجَ، فاستَوْصُوا بالنساء خيْرًا**». لفظُ البخاريِّ.

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فقيل: هي الكَرْمُ. ورُوِيَ عن ابنِ عباسٍ[٢]، وسعيدِ بنِ جُبيرٍ[٣]، والشَّعْبيِّ[٤]، وجَعْدَةَ بنِ هُبَيْرَةَ[٤]، ومحمدِ بنِ قيسٍ[٥]، والسُّدِّيِّ[٦]، في روايةٍ، عن ابنِ عباسٍ، وابنِ مسعودٍ، وناسٍ من الصحابةِ، قال: وتزعُمُ يهودُ أنَّها الحنْطَةُ. وهذا مرويٌّ عن ابنِ عباسٍ[٧]، والحسنِ البصْريِّ[٨]، ووهْبِ بنِ منبهٍ[٩]، وعطيةَ العَوْفيِّ[١٠]، وأبي مالكٍ[١١]، ومُحاربِ بنِ دِثارٍ[١٢]، وعبدِ الرحمنِ بنِ أبي ليلَى[١٣]. قال وهْبٌ: والحبةُ منه ألْيَنُ من الزبدِ وأحلَى من العسلِ. وقال الثَّوْرِيُّ[١٤]، عن حُصينٍ، عن أبي مَالكٍ ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾: هي النخْلَةُ. وقال ابنُ جُرَيْجٍ[١٥]، عن مُجاهدٍ: هي التينَةُ. وبه قال قَتادةُ، وابنُ جُرَيْجٍ[١٦]. وقال أبو العاليةِ[١٧]: كانت شجرةً، مَن أكَلَ منها أحْدَثَ، ولا ينبغي في الجنة حَدَثٌ.

وهذا الخلافُ قريبٌ. وقد أبهمَ اللهُ ذكرَها وتعيينَها، ولو كان في ذكرِها مصلحةٌ تعودُ إلينا لعيَّنَها لنا، كما في غيرِها مِن المَحالِّ التي تُبْهَمُ في القرآنِ.

وإنما الخلافُ الذي ذكروه في أنَّ هذه الجنةَ التي أُسْكِنَها آدمُ، هل هي في السماءِ أو في الأرضِ؟ هو

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٣٣١) واللفظ له، ومسلم (١٤٩٨).
(٢) سيأتي.
(٣) صحيح إليه: رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٣٢) من رواية سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم عنه.
(٤) صحيح إليهما: رواه الشعبي، عن جعدة بن هبيرة: رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٣٢) من طرق عن بيان ومغيرة، عن الشعبي، عن جعدة.
(٥) ضعيف: عن محمد بن قيس: رواه: ابن جرير (نفس المصدر) وفي سنده: سنيد: ضعيف، وكذلك أبو معشر.
(٦) حسن عنهم: ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٣٢) وسبق الكلام على الإسناد.
(٧) ضعيف: رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٣١)، وفي سنده: عبد الحميد الحماني يَهِمُ كثيرًا، والنضر: ضعيف. وبسند آخر فيه: مُبهم، وهو الراوي عن ابن عباس. وكذلك المثنى بن إبراهيم لا يُعرف حاله لديَّ، وبسند ثالث فيه: الحسن بن عمارة، والحسن متروك.
(٨) ضعيف إليه: رواه: ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٣١)، وفيه: ابن وكيع، ابتلي بوراق السوء، وضع في حديثه ما ليس منه، فتُرك حديثه من أجل ذلك.
(٩) ضعيف إلى وهب: رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٣١)، وابن أبي حاتم (٣٧٣)، وفيه: مبهم، وهم شيوخ ابن إسحاق بينه وبين وهب.
(١٠) صحيح إلى عطية العوفي: رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٣١)، من رواية ابن إدريس، وهو عبد الله، عن أبيه عنه.
(١١) صحيح إلى أبي مالك: ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٣١) من رواية حصين عنه.
(١٢) ضعيف إلى محارب: ابن جرير (نفس المصدر)، بسند ضعيف فيه: ابن وكيع وابن يمان: ضعيفان.
(١٣) ذكره ابن أبي حاتم: في «تفسيره» بغير إسناد.
(١٤) رواه ابن أبي حاتم: (٣٨٠) من رواية أبي سعيد الأشج، عن أبي أحمد الزبيريِّ عن سفيان. وخالف أبا سعيد الأشج أحمدُ بن إسحاق الأهوازي عند الطبري، فقال: السنبلة، وهي كذلك في رواية ابن مهدي عن سفيان عن حصين عن أبي مالك عند الطبري.
(١٥) فيه ضعف: رواه ابن أبي حاتم (٣٧٩)، وابن جريج لم يسمع التفسير من مجاهد، وقال ابن حبان: سمعه من ابن أبي بزة.
(١٦) ذكره ابن أبي حاتم: ولم يذكر لهما إسنادًا.
(١٧) ضعيف إليه: رواه ابن أبي حاتم (٣٨١)، وفيه أبو جعفر الرازي: ضعيف.

الخلافُ الذي ينبغي فصلُه والخروجُ منه. والجمهورُ على أنَّها هي التي في السماءِ، وهي جنةُ المأوى؛ لظاهرِ الآياتِ والأحاديث، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]. والألفُ واللامُ ليست للعُمومِ، ولا لمَعْهودٍ لفظيٍّ، وإنَّما تعودُ على مَعْهودٍ ذهنيٍّ، وهو المستقرُّ شرعًا من جنةِ المأوى، وكقولِ موسى عليه السلامُ لآدمَ عليه السلامُ: «علام أخرجتَنا ونفسَك من الجنة؟». الحديثُ. كما سيأتي الكلامُ عليه. وروى مسلمٌ[1] في «صحيحه»، من حديثِ أبي مالكٍ الأشجعيِّ واسمُه سعدُ بنُ طارقٍ، عن أبي حازمٍ سَلَمَةَ بنِ دينارٍ، عن أبي هريرةَ، وأبي مالكٍ، عن رِبْعيٍّ، عن حذيفةَ، قالا: قال رسولُ الله ﷺ: «يجمعُ اللهُ الناسَ فيقومُ المؤمنون حين تُزْلَفُ لهم الجنةُ، فيأتون آدمَ فيقولون: يا أبانا، استفتح لنا الجنةَ. فيقولُ: وهل أخرجَكُم من الجنة إلا خطيئةُ أبيكم؟». وذكرَ الحديثَ بطولِه، وهذا فيه قوةٌ جيدةٌ ظاهرةٌ في الدَّلالةِ على أنَّها جنةُ المأوى، وليست تخلُو عن نظرٍ.

وقال آخرون: بل الجنةُ التي أُسْكِنَها آدمُ لم تكنْ جنةَ الخُلْدِ؛ لأنَّه كُلِّفَ فيها أنْ لا يأكلَ من تلك الشجرةِ، ولأنَّه نام فيها، وأُخْرِجَ منها، ودخل عليه إبليسُ فيها، وهذا مما ينافي أنْ تكونَ جنةَ المأوى. وهذا القولُ محكيٌّ عن أُبيِّ بنِ كعبٍ، وعبدِ اللهِ بنِ عباسٍ، ووهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ، وسفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، واختاره ابنُ قُتَيْبَةَ في «المعارف»، والقاضي منذرُ بنُ سعيدٍ البَلُّوطيُّ في «تفسيره»، وأفرد له مصنَّفًا على حدَةٍ، وحكاه عن أبي حنيفةَ الإمامِ وأصحابِه، رحمهم اللهُ. ونقلَه أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ عمرَ الرازيُّ بنُ خطيبِ الريِّ في «تفسيره»، عن أبي القاسمِ البلخيِّ، وأبي مسلمٍ الأصبهانيِّ. ونقله القرطبيُّ في «تفسيره» عن المعتزلةِ والقَدَرِيَّةِ. وهذا القولُ هو نصُّ التوراةِ التي بأيدي أهلِ الكتابِ. وممَّن حكَى الخلافَ في هذه المسألةِ، أبو محمدِ بنُ حزمٍ في «المِلَلِ والنِّحَلِ». وأبو محمدِ بنُ عطيةَ في «تفسيره»، وأبو عيسى الرمانيُّ في «تفسيره»، وحكَى عن الجمهورِ الأولَ، وأبو القاسمِ الراغبُ، والقاضي الماورديُّ في «تفسيره» فقال: واختُلف في الجنة التي أُسْكِناها - يعني آدمَ وحواءَ - على قولين؛ أحدُهما: أنَّها جنةُ الخُلْدِ. الثاني: جنةٌ أعدّها اللهُ لهما، وجعلها دارَ ابتلاءٍ وليستْ جنةَ الخلدِ التي جعلها اللهُ دارَ جزاءٍ. ومَن قال بهذا اختلفوا على قولين؛ أحدُهما: أنَّها في السماءِ؛ لأنَّه أهْبَطَهما منها. وهذا قولُ الحسنِ. والثاني: أنَّها في الأرضِ؛ لأنَّه امْتَحَنَهما فيها بالنهيِ عن الشجرةِ التي نُهيا عنها دونَ غيرِها منَ الثمارِ. وهكذا قولُ ابنِ جبيرٍ، وكان ذلك بعدَ أنْ أُمِرَ إبليسُ بالسجودِ لآدمَ. واللهُ أعلمُ بالصوابِ من ذلك. هذا كلامُه.

فقد تضمَّن كلامُه حكايةَ أقوالٍ ثلاثةٍ، وأشْعَرَ كلامُه أنه مُتوقِّفٌ في المسألةِ؛ ولهذا حكى أبو عبدالله الرازيُّ في «تفسيره»، في هذه المسألةِ أربعةَ أقوالٍ؛ هذه الثلاثةَ التي أوردها الماوَرْديُّ. ورابعُها: الوقفُ. ورجَّح القولَ الأوَّلَ. واللهُ أعلمُ. وحكَى القولَ بأنَّها في السماءِ وليست جنةَ المأوى، عن أبي عليٍّ الجُبَّائيِّ.

---

(١) **حسن**: مسلم (١٩٥) تفرد به. وفيه: محمد بن طريف وشيخه، صدوقان.

وقد أورد أصحابُ القولِ الثاني سؤالاً يحتاجُ مثلُه إلىٰ جوابٍ، فقالوا: لا شكَّ أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالىٰ طرد إبليسَ حينَ امْتَنَع مِنَ السجودِ عن الحضرةِ الإلَهيةِ، وأمره بالخروجِ عنها والهبوطِ منها، وهذا الأمرُ ليس مِن الأوامرِ الشرعيةِ بحيثُ يمكنُ مُخالَفتُه، وإنَّما هو أمرٌ قَدَرِيٌ لا يُخالَفُ ولا يمانَعُ؛ ولهذا قال: ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الأعراف: ١٨]. وقال: ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [الأعراف: ١٣]. وقال: ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [الحجر: ٣٤]. والضميرُ عائدٌ إلىٰ الجنةِ أو السماءِ أو المنزلةِ، وأيًّا ما كان، فمعلومٌ أنَّه ليس له الكونُ بعدَ هذا في المكانِ الذي طُرِدَ عنه، وأُبْعِدَ منه لا علىٰ سبيلِ الاستقرارِ، ولا علىٰ سبيلِ المرورِ والاجتيازِ. قالوا: ومعلومٌ مِن ظاهرِ سياقاتِ القرآنِ أنَّه وسوسَ لآدمَ وخاطَبه بقولِه له: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠]. وبقولِه: ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠، ٢١] . وهذا ظاهرٌ في اجتماعِه معهما في جنتِهما. وقد أُجيبوا عن هذا بأنَّه لا يمتنعُ أَنْ يجتمعَ بهما في الجنةِ علىٰ سبيلِ المرورِ فيها، لا علىٰ سبيلِ الاستقرارِ بها، أو أنَّه وسْوسَ لهما وهو علىٰ بابِ الجنةِ، أو مِن تحتِ السماءِ. وفي الثلاثةِ نظرٌ. واللهُ أعلمُ.

وممَّا احتجَّ به أصحاب هذه المقالة، ما رواه عبدُ الله بنُ الإمامِ أحمدَ، في الزياداتِ[1] ، عن هُدْبَةَ بنِ خالدٍ، عن حمادِ بنِ سلمةَ، عن حُميدٍ، عنَ الحسنِ البصْريِّ، عن عُتَيٍّ، هو ابنُ ضَمْرةَ السَّعْديُّ، عن أُبَيِّ ابنِ كعبٍ قال: إنَّ آدمَ لَمَّا احْتُضِر، اشتَهَىٰ قِطْفًا مِن عنبِ الجنةِ، فانطَلَق بنوه لِيَطلبوه له، فلَقِيَتْهُم الملائكةُ فقالوا: أينَ تُريدون يا بني آدمَ؟ فقالوا: إنَّ أَبانَا اشتهَىٰ قِطْفًا من عنبِ الجنةِ. فقالوا لهم: ارجعُوا فقد كُفِيتُمُوهُ. فانتهوْا إليه فقبضوا رُوحَه، وغسَّلُوه، وحنَّطوه، وكفَّنوه، وصلىٰ عليه جبريلُ وبَنُوه خلفَ الملائكةِ، ودفَنوه، وقالوا: هذه سُنَّتُكم في موتاكم. وسيأتي الحديثُ بِسندِه وتمامِ لفظِه عندَ ذكْرِ وفاةِ آدمَ، عليه السلامُ. قالوا: فلولا: أنَّه كان الوصولُ إلىٰ الجنةِ التي كان فيها آدمُ التي اشتهَىٰ منها القِطْفَ مُمْكنًا لَمَا ذهبوا يطْلُبون ذلك، فدلَّ علىٰ أنَّها في الأرضِ لا في السماءِ. واللهُ تعالىٰ أعلمُ.

قالوا: والاحتجاجُ بأنَّ الألفَ واللاَّمَ في قولِه: ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ لم يتقدمْ عهدٌ يعودُ عليه، فهو المعهودُ الذهْنيُّ مُسَلَّمٌ، ولكنْ هو ما دَلَّ عليه سياقُ الكلامِ، فإنَّ آدمَ خُلِق مِن الأرضِ، ولم يُنْقَلْ أنه رُفِع إلىٰ السماءِ. وخُلِق ليكونَ في الأرضِ، وبهذا أَعَلَمَ الربُّ الملائكةَ حيث قال: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾.

قالوا: وهذا كقولِه تعالىٰ: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ [القلم: ١٧]. فالألفُ واللامُ ليس للعُمومِ، ولم يتقدمْ معهودٌ لفظيٌّ، وإنما هي للمعهودِ الذهنيِّ الذي دلَّ عليه السياقُ، وهو البُستانُ.

قالوا: وذِكْرُ الهبوطِ لا يدُلُّ علىٰ النزولِ مِنَ السماءِ، بل هو كقولِه تعالىٰ: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا

---

(١) المسند (٥/ ١٣٦). رجاله ثقات إلا عتي بن ضمرة لم يوثقه إلا ابن حبان وذكره البخاري في «التاريخ الكبير». ويخشى تدليس الحسن البصري، فقد عنعن.

وبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ الآيةُ [هود: ٤٨]. وإنما كان في السفينة حينَ استقرَّت على الجُودِيِّ، ونَضَبَ الماءُ عن وجه الأرض، أُمر أنْ يهبطَ إليها هو ومَن معه مُباركًا عليه وعليهم. وقال اللهُ تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾الآيةُ [البقرة: ٦١]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾الآيةُ [البقرة: ٧٤]. وفي الأحاديث واللغة من هذا كثيرٌ.

قالوا: ولا مانعَ، بل هو الواقعُ، أنَّ الجنةَ التي أُسكنَها آدمُ كانت مرتفعةً عن سائرِ بقاعِ الأرضِ، ذاتَ أشجارٍ، وثمارٍ، وظلالٍ، ونعيمٍ، ونَضْرَةٍ، وسرورٍ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ١١٨]. أي لا يُذَلُّ باطنُك بالجوعِ، ولا ظاهرُك بالعُرْيِ. ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٩]. أي؛ لا يَمَسُّ باطنَك حرُّ الظمأ ولا ظاهرَك حرُّ الشمسِ؛ ولهذا قَرَنَ بينَ هذا وهذا، وبينَ هذا وهذا؛ لمَا بينَهما من المقابلة. فَلَمَّا كان منه ما كان من أكْلِه منَ الشجرةِ التي نُهيَ عنها، أُهْبِطَ إلى أرضِ الشقاءِ، والتعبِ، والنَّصَبِ، والكَدَرِ، والسَّعيِ، والنَّكَدِ، والابتلاءِ، والاختبارِ، والامتحانِ، واختلافِ السُّكَّانِ؛ دينًا، وأخلاقًا، وأعمالاً، وقُصودًا، وإراداتٍ، وأقوالاً، وأفعالاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]. ولا يلزمُ من هذا أنَّهم كانوا في السماء، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤]. ومعلومٌ أنَّهم كانوا فيها، لم يكونوا في السماء.

قالوا: وليس هذا القولُ مُفَرَّعًا على قولِ مَن ينكر وجودَ الجنةِ والنارِ اليومَ، ولا تلازُمَ بينَهما، فكلُّ مَن حُكِيَ عنه هذا القولُ منَ السلفِ وأكثرِ الخلفِ ممَّن يُثْبِتُ وجودَ الجنةِ والنارِ اليومَ، كما دلَّت عليه الآياتُ والأحاديثُ الصِّحاحُ، كما سيأتي إيرادُها في موضعِها، واللهُ سُبحانَه وتعالى أعلمُ بالصواب.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]. أي؛ عن الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي؛ من النعيم، والنَّضرة، والسُّرورِ إلى دارِ التعبِ والكدِّ والنَّكَد، وذلك بما وَسْوَسَ لهما، وزيَّنه في صدورهما؛ كما قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]. يقولُ: ما نهاكما عن أكْلِ هذه الشجرةِ إلا أنْ تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين، أي؛ ولو أكلتما منها، لصرتُما كذلك ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي؛ حَلَفَ لهما على ذلك ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]. كما قال في الآيةِ الأخرى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]. أي؛ هل أدلُّك على الشجرةِ التي إذا أكلْتَ منها حصل لك الخلدُ فيما أنتَ فيه من النَّعيم، واستمررْتَ في مُلْكٍ لا يَبِيدُ ولا ينقضي؟ وهذا من التغريرِ والتزويرِ والإخْبارِ بخلافِ الواقع. والمقصودُ أنَّ قولَه: ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ التي إذا أكلْتَ منها خلدتَ.

وقد تكونُ هي الشجرةَ التي قال الإمامُ أحمدُ[١] : حدثنا عبدُ الرحمنِ بنُ مهديٍّ، حدثنا شُعْبَةُ، عن أبي الضَّحّاك، سمعتُ أبا هريرةَ يقولُ: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ في الجَنَّةِ شَجَرَةً يسيرُ الرَّاكِبُ في ظِلِّها مائةَ عَامٍ لا يقطَعُـها؛ شَـجَرَةَ الخُلْدِ**». وكـذا رواه [٢] أيضًا، عن غُنْدَرٍ وحجّاجٍ، عن شعبةَ. ورواه أبو داودَ الطَّيالسيُّ في «مُسْنَده»، عن شُعْبةَ أيضًا به. قال غُنْدرٌ: قلتُ لشُعْبَةَ: هي شجرةُ الخُلْدِ؟ قال: ليس فيها «هي». تفرَّد به الإمامُ أحمدُ[٣] .

وقولُه: ﴿**فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ**﴾ [الأعراف: ٢٢]. كما قال في «طه»: ﴿**فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ**﴾ وكانت حواءُ أكلت مِنَ الشجرةِ قبلَ آدمَ، وهي التي حَدَتْه على أكلها، واللهُ أعلمُ. وعليه يُحْمَلُ الحديثُ الذي رواه البخاريُّ[٤] ، حدثنا بِشْرُ بنُ محمدٍ، حدثنا عبدُ الله، أنبأنا مَعْمَرٌ، عن هَمّامِ بنِ مُنَبِّه عن أبي هريرةَ، عنِ النبيِّ ﷺ: «**لولا بَنُو إسْرائيلَ لم يَخْنَزِ اللحمُ، ولولا حَوّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا**». تفرَّد به مِن هذا الوجهِ. وأخرجاه في «الصحيحَين»[٥] مِن حديثِ عبدِ الرَّزاقِ، عن مَعْمَرٍ، عن هَمَّامٍ، عن أبي هريرةَ. ورواه أحمدُ ومسلمٌ[٦] ، عن هارونَ بنِ معروفٍ، عن أبي وَهْبٍ، عن عمرِو بنِ الحارثِ، عن أبي يونسَ، عن أبي هريرةَ.

وفي كتابِ «التَّوراة» التي بينَ أيدي أهلِ الكتابِ، أنَّ الذي دَلَّ حواءَ على الأَكْلِ مِنَ الشجرةِ هي الحيةُ، وكانت مِن أحسنِ الأشكالِ وأعظمِها، فأكلتْ حواءُ عن قولِها وأطعمتْ آدمَ عليه السلامُ - وليس فيها ذِكْرٌ لإبليسَ - فعند ذلك انْفَتَحَتْ أعينُهما وعَلِما أَنَّهما عُرْيانان، فَوَصلا من ورقِ التِّينِ، وعَمِلا مَآزِرَ، وفيها أَنَّهما كانا عُرْيانَيْن. وكذا قال وَهْبُ بنُ مُنَبِّه: كان لباسُهما نوراً على فرجِه وفَرْجِها.

وهذا الذي في هذه «التوراة» التي بأيديهم غلطٌ منهم وتحريفٌ وخطأٌ في التعريبِ، فإنَّ نقلَ الكلامِ مِن لغةٍ إلى لغةٍ لا يكادُ يتيسَّرُ لكلِّ أحدٍ، ولا سيَّما مِمَّنْ لا يعرفُ كلامَ العربِ جيداً، ولا يُحيطُ علماً بِفَهْمِ كِتابِه أيضًا؛ فلهذا وَقَع في تعريبِهم لها خَطَأٌ كثيرٌ، لفظًا ومعنًى.

وقد دَلَّ القرآنُ العظيمُ على أَنَّه كان عليهما لِباسٌ في قولِه: ﴿**يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا**﴾ [الأعراف: ٢٧]. فهذا لا يُرَدُّ لغيرِه مِنَ الكلامِ، واللهُ تعالى أعلمُ.

---

(١) **متفق عليه**: البخاري (٣٢٥٢ ـ ٤٨٨١ ـ ٦٥٥٢)، ومسلم (٢٨٢٦)، من رواية أبي هريرة، وأخرجاه من رواية أبي سعيد. وسهل بن سعد والبخاري من رواية أنس. ولم يذكروا فيه: «شجرة الخلد»، فهي زيادة منكرة. لم تأت إلا من طريق أبي الضحاك عن أبي هريرة: وهو مجهول. أخرجها أحمد (٢/ ٤٦٢) بهذا السند أعلاه.

(٢) **صحيح الإسناد**: المسند (٢/ ٤٥٥). مسند الطيالسي (٢٥٤٧)، وروى الزيادة أيضًا. الدارمي (٢٨٣٩)، والطبري في «التفسير»(١٣/ ٢٧/ ١٨٣). ووقع في روايتها من طريق عبد الرحمن بن محمد، عن شعبة، عن أبي الضحى. قلت: هذا تصحيف، والغالب من الناسخ.

(٣) أي تفرد بها عن الجماعة أصحاب الكتب الستة.

(٤) **صحيح**: رواه البخاري (٣٣٣٠).

(٥) **متفق عليه**: البخاري (٣٣٩٩) ومسلم (١٤٧٠).

(٦) **صحيح**: أحمد (٢/ ٣١٥). مسلم (١٤٧٠).

وقال ابنُ أبي حاتم:[١] حدثنا عليُّ بنُ الحسينِ ابنِ إشكابَ، حدثنا عليُّ ابنُ عاصمٍ، عن سعيدِ بنِ أبي عَروبةَ، عن قَتادَةَ، عَنِ الحسنِ، عن أُبَيِّ ابنِ كعبٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إنَّ اللهَ خلَقَ آدمَ رجلاً طُوَالاً، كثيرَ شَعْرِ الرَّأس، كأنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ، فلَمَّا ذَاقَ الشجرةَ سقَطَ عنه لباسُه، فأَوَّلُ ما بدَا منه عورتُه، فلَمَّا نظرَ إلى عورته جعلَ يَشْتَدُّ في الجنةَ، فَأَخَذَتْ شَعْرَهُ شجرةٌ فنازَعَهَا، فناداه الرحمنُ عز وجل: يا آدمُ، مِنِّي تَفِرُّ؟ فَلَمَّا سَمِعَ كلَامَ الرحمنِ قال: يا ربِّ، لا، ولكنِ استحياءً»**.

وقال الثَّوْرِيُّ، عنِ ابنِ أبي ليلَى، عنِ المِنهالِ بنِ عمرٍو، عن سعيدِ بنِ جبيرٍ، عنِ ابنِ عباسٍ[٢] ﴿**وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ**﴾ [الاعراف: ٢٢] قال: ورقِ التينِ. وهذا إسنادٌ صحيحٌ إليه، وكأنَّه مأخوذٌ مِن أهلِ الكتابِ. وظاهرُ الآيةِ يقتضِي أعمَّ مِن ذلك، وبتقديرِ تسليمِه، فلا يضرُّ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ.

وروى الحافظُ ابنُ عَساكرَ[٣] مِن طريقِ محمدِ بنِ إسحاقَ، عنِ الحسنِ ابنِ ذَكْوانَ، عن الحسنِ البصريِّ، عن أُبَيِّ بنِ كعبٍ، قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: **«إنَّ أباكُمْ آدمَ كان كالنخلة السَّحُوق، ستينَ ذراعًا، كثيرَ الشَّعْرِ، مُوارَى العَوْرة، فلَمَّا أصابَ الخطيئةَ في الجنة بدَتْ له سوْأتُه، فخرجَ مِن الجنة، فَلَقِيَتْه شجرةٌ، فَأَخذَتْ بناصيتِه، فناداهُ ربُّه: أفِراراً مِنِّي يا آدمُ؟ قال: بل حياءً منك والله يا رَبِّ مِمَّا جئتُ به»**. ثم رواه مِن طريقِ سعيدِ بنِ أبي عَروبَةَ، عن قتادَةَ، عنِ الحسنِ، عن عُتَيِّ بنِ ضَمْرةَ، عن أُبَيِّ بنِ كعبٍ، عن النبيِّ ﷺ بنحوِه. وهذا أَصحُّ، فإنَّ الحسنَ لم يُدرِكْ أُبيًا. ثم أورده أيضًا مِن طريقِ خَيثمَةَ بنِ سليمانَ الأطرابلسيِّ، عن محمدِ بنِ عبدِ الوهَّابِ أبي قِرْصافةَ العسقلانيِّ، عن آدمَ بنِ أبي إياسٍ، عن شَيْبانَ، عن قتادَةَ، عن أنسٍ، مرفوعًا بنحوِه.

﴿**وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الاعراف: ٢٢، ٢٣]. وهذا اعترافٌ، ورُجوعٌ إلى الإنابةِ، وتَذَلُّلٌ، وخُضوعٌ، واستكانةٌ، وافتقارٌ إليه تعالىٰ في الساعة الرَّاهنة. وهذا السِّرُّ ما سَرَىٰ في أحدٍ في ذريته إلاَّ كانت عاقبتُه إلىٰ خيرٍ في دُنْياه وأُخْراه. ﴿**قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ**﴾ [الاعراف: ٢٤]. وهذا خطابٌ لآدمَ وحواءَ وإبليسَ قيل: والحَيَّةُ معهم. أُمِرُوا أن

---

(١) **ضعيف:** رواه: ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨٢٩٩ ـ ٨٣٠٨ ـ ٨٣٥٠). وهذا سند منقطع، الحسن لا يدرك أبي، رواه أيضًا: من نفس طريق الحسن عن أبي: الطبري «تفسيره» (٣/ الجزء الثامن ١٤٢)، وابن المبارك في الزهد (١٧٢) من زيادات نعيم بن حماد بغير إسناد. قلت: ورواه الحاكم (٢/ ١٦٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥٤)، من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن عتي بن ضمرة عن أبي. وعنعنة الحسن في التابعين الخطب فيها يسير، وعتي بن ضمرة ذكره البخاري في «الكبير»، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً، وكأنه يثبت له سماع من أبي رؤية حيث أورد له: انه يصف أبي. ووثقه ابن حبان.

(٢) **صحيح:** إلى ابن عباس رضي الله عنها: رواه: ابن أبي حاتم (٨٣٠٢)، وابن جرير الطبري (٥/ الجزء الثامن/ ١٤٣)، قلت: فيه محمد ابن عبد الرحمن ابن أبي ليلى: صدوق سيئ الحفظ جداً. وقد تابعه عمرو بن قيس الملائي عن المنهال عن سعيد رواه الحاكم (٢/ ٣١٩) وعمرو بن قيس ثقة. وقد تابعهما أيضًا الحسن بن عمارة عن المنهال. والحسن متهم. رواه الطبري (٥/ الجزء الثامن/ ١٤٢) وله طريق أخرى عند ابن أبي حاتم (٨٣٠٧) من طريق عكرمة عن ابن عباس وفيها النضر أبو عمر الخزاز متروك الحديث.

(٣) (٧/ ٤٠٤) «تاريخ دمشق». وقد رواه أيضًا مرفوعًا ابن أبي حاتم (٨٣٠٨) من طريق الحسن عن أبي وهذا منقطع ولا يصح مرفوعًا. وقد سبق الكلام على الأثر.

يهبطوا منَ الجنة في حال كونهم مُتعادين مُتحاربين. وقد يُسْتَشهَدُ لذكرِ الحية معهما بما ثبتَ في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه أمر بقتْلِ الحيَّات، وقال: «ما سالَمْناهنّ منذ حاربْناهُنَّ»(١) .

وقولُه: في سورة «طه»: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣]. هو أمرٌ لآدمَ وإبليسَ وما تناسل منهما عداوةٌ مستمرةٌ، واستتبع آدمَ حواءُ، وإبليسَ الحيةُ. وقيل: هو أمرٌ لهم بصيغة التثنية، كما في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الانبياء: ٧٨]. والصحيحُ أنَّ هذا لَمَّا كان الحاكمُ لا يحكمُ إلا بينَ اثنين؛ مُدَّعٍ، ومدَّعًى عليه، قال: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾. وأمَّا تكريرُه الإهْباطَ في سورة «البقرة» في قوله: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝٣٧ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٦-٣٩]. فقال بعضُ المفسِّرين: المرادُ بالإهباط الأول الهبوطُ منَ الجنة إلى السَّماء الدنيا، وبالثاني منَ السَّماء الدُّنيا إلى الأرض. وهذا ضعيفٌ؛ لقوله في الأول: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾. فَدَلَّ على أنهم أهبطُوا إلى الأرض بالإهباط الأول، واللهُ أعلمُ. والصحيحُ أنه كرره لفظًا، وإنْ كان واحدًا، وناطَ مع كلِّ مرةٍ حُكمًا، فَناطَ بالأول عَداوتَهم فيما بينَهم، وبالثَّاني الاشْتراطَ عليهم، أنَّ مَن تبعَ هُداه الذي يُنَزِّله عليهم بعدَ ذلك فهو السعيدُ، ومن خالفه فهو الشقيُّ. وهذا الأُسْلوبُ في الكلام له نظائرُ في القرآن الحكيم.

وروى الحافظُ ابنُ عساكر(٢) **، عن مُجاهد، قال:** أَمَرَ اللهُ مَلَكَيْن أنْ يُخرجا آدمَ وحواءَ من جواره، فنزَع جبريلُ التَّاجَ عن رأسه، وحَلَّ ميكائيلُ الإكْليلَ عن جَبينه، وتعلَّقَ به غُصْنٌ، فظنَّ آدمُ أنَّه قد عُوجِل بالعقوبة، فَنَكَس رأسَه يقولُ: العَفْوَ العَفْوَ. فقال اللهُ سبحانه: فِراراً منِّي يا آدمُ؟ قال: بل حَياءً منك يا سيدي.

وقال الأوْزاعيُّ عن حسّانَ، هو ابنُ عطية: مَكَثَ آدمُ في الجنة مائةَ عام. وفي رواية: ستين عامًا، وبكى على الجنة سبعين عامًا، وعلى خطيئته سبعينَ عامًا، وعلى ولَده حين قُتل أربعينَ عامًا. رواه ابنُ عساكر(٣) .

وقال ابنُ أبي حاتم(٤) : حدثنا أبو زُرْعةَ، حدثنا عثمانُ بنُ أبي شَيْبةَ، حدثنا جريرٌ، عن عطاء، عن

---

(١) **صحيح:** رواه أحمد (٢/ ٢٤٧ ـ ٤٣٢ ـ ٥٢٠)، وأبو داود (٥٢٤٨) وابن حبان (٥٦٤٤) من طريق أبي هريرة من رواية عجلان عنه وله شاهد من حديث ابن عباس، رواه: أحمد (١/ ٢٣٠) وأبو داود (٥٢٥٠). والأمر بقتل الحيات متفق عليه في الصحيحين دون هذه الزيادة.

(٢) «تاريخ دمشق» (٧/ ٤٠٩).

(٣) **ضعيف:** «تاريخ دمشق» (٧/ ٤٠٩) فيه: الوليد بن مسلم وهو مدلس، وقد عنعن عن الأوزاعي.

(٤) **ضعيف إلى ابن عباس:** رواه: ابن حاتم في «تفسيره» (٨٣١٦)، وفي السند أعلاه سقط بين جرير وسعيد بن جبير، وهو عطاء، كما في تفسير ابن أبي حاتم، وعطاء اختلط بآخره، وسماع جرير منه بعد الاختلاط.

سعيدٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: أُهْبِطَ آدمُ، عليه السلامُ، إلى أرضٍ يُقالُ لها: دَحْنا. بينَ مكةَ والطائفِ. وعن الحسنِ[1]، قال: أُهْبِطَ آدمُ بالهندِ، وحواءُ بجُدَّةَ، وإبليسُ بدَسْتَمَيْسانَ، مِنَ البصرةِ على أميالٍ، وأُهْبِطَتِ الحيَّةُ بأصبهانَ. رواه ابنُ أبي حاتمٍ أيضًا. وقال السُّدِّيُّ[2]: نَزَلَ آدمُ بالهندِ، ونَزَلَ معه بالحجرِ الأسودِ، وبِقَبْضَةٍ مِن ورقِ الجنةِ، فبثَّه في الهندِ، فنبَتَتْ شجرةُ الطِّيبِ هناك. وعن ابنِ عُمَرَ[3]، قال: أُهْبِطَ آدمُ بالصَّفا، وحواءُ بالمَرْوَةِ. رواه ابنُ أبي حاتمٍ أيضًا.

وقال عبدُ الرَّزَّاقِ[4]: قال مَعْمَرٌ: أخبرني عوفٌ، عن قَسامةَ بنِ زُهَيرٍ، عن أبي موسى الأشْعَرِيِّ، قال: إنَّ اللهَ حينَ أَهْبَطَ آدمَ مِنَ الجنةِ إلى الأرضِ علَّمه صَنْعَةَ كلِّ شيءٍ، وزوَّدَه مِن ثمارِ الجنَّةِ، فثمارُكم هذه مِن ثمارِ الجنةِ، غيرَ أنَّ هذه تتغيَّرُ، وتلك لا تتغيَّرُ.

وقال الحاكمُ في «مُسْتَدْرَكِه»[5]: أنبأنا أبو بكرِ بنُ بالُويَه، عن محمدِ بنِ أحمدَ بنِ النضرِ، عن معاويةَ بنِ عَمرٍو، عن زائدةَ، عن عمَّارِ بنِ أبي معاويةَ البَجَلِيِّ، عن سعيدِ بنِ جبيرٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: ما أُسْكِنَ آدمُ الجنةَ إلا ما بينَ صلاةِ العصرِ إلى غُروبِ الشمسِ. ثم قال: صحيحٌ على شرطِ الشيخين ولم يُخرِجاه.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[6] مِن حديثِ الزهريِّ، عنِ الأعرجِ، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«خيرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فيه الشمسُ يومُ الجُمُعَةِ، فيه خُلِقَ آدمُ، وفيه أُدْخِلَ الجنةَ، وفيه أُخْرِجَ منها»**. وفي «الصحيحِ» مِن وجهٍ آخَرَ: **«وفيه تَقُومُ السَّاعةُ»**.

وقال أحمدُ[7]: حدثنا محمدُ بنُ مُصْعَبٍ، حدثنا الأَوْزاعيُّ، عن أبي عمَّارٍ، عن عبدِ اللهِ بنِ فَرُّوخٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: **«خيرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فيه الشمسُ يومُ الجُمُعَةِ، فيه خُلِقَ آدمُ، وفيه أُدْخِلَ الجنةَ، وفيه أُخْرِجَ منها، وفيه تقومُ الساعةُ»**. وإسنادُه على شرْطِ مسلمٍ.

فأمَّا الحديثُ الذي رواه ابنُ عساكرَ[8] مِن طريقِ أبي القاسمِ البغويِّ، حدثنا محمدُ بنُ جعفرٍ الوَرْكانيُّ، حدثنا سعيدُ بنُ مَيْسرةَ، عن أنسٍ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«هَبَطَ آدمُ وحواءُ عُرْيانَيْنِ جَميعًا، عليهما ورَقُ الجنَّةِ، فأصَابَه الحَرُّ حتى قَعَدَ يَبْكِي ويقولُ لها: يا حواءُ، قَدْ آذَانِي الحرُّ»**. قال: **«فَجَاءَه جبريلُ بقُطْنٍ**

---

(١) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (٣٩٥)، فيه عباد بن ميسرة: لين الحديث.

(٢) **حسن**: رواه ابن أبي حاتم (٣٩٧)، من رواية أسباط عنه.

(٣) **إسناده لا بأس به**: رواه ابن أبي حاتم (٣٩٢)، فيه: محمد بن عمار بن الحارث قال ابن حبان مستقيم الحديث.

(٤) **صحيح**: إلى أبي موسى رضي اللّٰه عنه: ابن أبي حاتم (٤١٧ تفسير) من طريق عبد الرزاق، عبد الرزاق في «تفسيره» (٤٢) قلت: معمر يضعف في البصريين خاصة. وإن كان عوف وهو ابن أبي جميلة الأعرابي بصري إلا أن معمر قد توبع من هوذة بن خليفة: وهو صدوق أخرجها الحاكم (٢/ ٥٤٣) وقال: صحيح الإسناد.

(٥) **منقطع**: رواه: الحاكم (٢/ ٥٤٢)، فيه: عمار بن أبي معاوية لم يسمع من سعيد بن جبير، نص عليه أحمد (راجع جامع التحصيل).

(٦) **صحيح**: مسلم (٨٥٤) والزيادة من رواية أبي الزناد عن الأعرج. بلفظ: «لا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة». ورواه الترمذي (٤٨٨).

(٧) **صحيح**: رواه أحمد (٢/ ٥٤٠) بنفس السند أعلاه، ورواه في مواضع أخر بأسانيد أخر (٢/ ٤٨٦ ـ ٥٠٤)، ورواه النسائي (٣/ ١١٤)، والطيالسي (٢٢٦٢).

(٨) **موضوع**: «تاريخ دمشق» (٧/ ٤١٣)، فيه: سعيد بن ميسرة: متهم بالكذب، اتهمه يحيى القطان.

وأمَرها أَنْ تَغْزِلَ وعلمها، وأمَرَ آدَمَ بالحِياكَة، وعلَّمَه أنْ يَنْسِجَ». قال: «وكان آدمُ لم يُجامِعِ امْرأَتَه في الجنَّة حتى هَبَطَ منها؛ للخطيئةِ التي أصابَتْهُما بأكلهما من الشجرة». قال: «وكان كلٌّ واحد منهما ينامُ على حدَة؛ ينامُ أَحَدُهُما في البَطْحاءِ، والآخرُ مِن ناحيَةٍ أُخرى، حتى أتَاه جبريلُ فأَمَره أنْ يأتيَ أهلَه» قال: «وَعَلَّمَه كَيفَ يَأتيها، فَلَمَّا أتَاها جاءَه جِبريلُ، فقال: كيفَ وَجَدْتَ امرأتَكَ؟ قال: صالحَةً». فإنَّه حديثٌ غريبٌ، ورَفْعُه مُنْكرٌ جداًّ، وقد يكونُ من كلامٍ بعضِ السلفِ، وسعيدُ ابنُ مَيْسَرَةَ هذا، هو أبو عِمرانَ البَكريُّ البصريُّ، قال فيه البخاريُّ: مُنْكَرُ الحديثِ. وقال ابنُ حِبانَ: يروِي الموضوعاتِ. وقال ابنُ عَديٍّ: مُظْلِمُ الأَمرِ.

وقولُه: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة: ٣٧]. قيل: هي قولُه: ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٣]. رُوِيَ هذا عن مُجاهدٍ[١]، وسعيدِ بنِ جُبَير[٢]، وأبي العاليةِ[٣]، والربيعِ بنِ أنسٍ[٤]، والحسنِ[٥]، وقتادةَ[٦]، ومحمدِ ابن كعبٍ[٧]، وخالدِ بنِ مَعْدَانَ[٨]، وعطاءٍ[٩] الخُراسانيِّ، وعبدِ الرحمنِ بنِ زيدِ بنِ أسلمَ[١٠].

وقال ابنُ أبي حاتمٍ[١١]: حدثنا عليُّ بنُ الحسينِ ابنِ إشكابَ، حدثنا عليُّ بنُ عاصمٍ، عن سعيدِ ابنِ أبي عَروبةَ، عن قتادةَ، عنِ الحسنِ، عن أُبَيِّ بنِ كعبٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**قال آدمُ عليه السلامُ: أَرَأَيتَ يا رَبِّ إنْ تُبْتُ ورَجَعْتُ، أعائدي إلى الجنَّة؟ قالَ: نعَمْ**». فذلك قولُه: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾. وهذا غريبٌ مِن هذا الوجهِ، وفيه انقطاعٌ.

وقال ابنُ أبي نَجيحٍ[١٢]، **عن مُجاهد، قال:** الكلماتُ: اللهمَّ لا إلهَ إلاَّ أنتَ سبحانَك وبحمدك، ربِّ إنِّي ظلَمتُ نفسي، فاغفِرْ لي إنَّك خيرُ الغافرين، اللهمَّ لا إلهَ إلاَّ أنتَ سبحانَك وبحمدك، ربِّ إنِّي ظلَمتُ نفسي، فاغفرْ لي إنَّك خيرُ الرَّاحِمين، اللهمَّ لا إلهَ إلاَّ أنتَ سبحانَك وبحمدِك، ربِّ إنِّي ظلَمتُ نفسي فتُبْ علَيَّ، إنَّك أنت التَّوابُ الرحيمُ. وروى الحاكمُ في «مُستَدْرَكه»[١٣]، مِن طريقِ سَعيدِ بنِ جبيرٍ، عنِ ابنِ عباسٍ في قولِه: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾ قال: قال آدمُ: يا ربِّ، ألم تَخْلُقني بيدِك؟ قيل له: بَلَىٰ. ونَفَخْتَ فِيَّ مِن رُوحِك؟ قيل له: بلىٰ. وعَطَسْتُ، فقلْتَ: يرحَمُك اللهُ، وسبقَتْ

---

(١) **حسن لغيره:** رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٤٤) فيه: خصيف ضعيف، ومن طريق النضر بن عربي عنه.
(٢) **ضعيف:** رواه ابن أبي حاتم (٤١٠)، من رواية: خصيف عنه.
(٣) **ضعيف:** رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٤٣)، من رواية أبي جعفر الرازي وهو ضعيف.
(٤) **ضعيف:** رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٤٣) من رواية أبي جعفر الرازي وهو ضعيف.
(٥) ذكره ابن أبي حاتم، ولم يذكر له سنداً.
(٦) **صحيح:** عبد الرزاق (٤٥)، وابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٤٣) من طريق سعيد، ومعمر عنه.
(٧) ذكره ابن أبي حاتم، ولم يسنده.
(٨) ذكره ابن أبي حاتم، ولم يسنده.
(٩) ذكره ابن أبي حاتم، ولم يسنده.
(١٠) **صحيح إلى ابن زيد:** رواه ابن جرير (نفس المصدر).
(١١) **منقطع:** رواه ابن أبي حاتم (٤٠٦) الحسن لم يدرك أبيًا.
(١٢) **صحيح:** رواه: ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٤٤) سبق الكلام على رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(١٣) **حسن:** رواه الحاكم (٢/ ٥٤٥) وله شاهد رواه ابن أبي حاتم (٤٠٧) من رواية إسرائيل عن السدي، عمن حدَّثه، عن ابن عباس. مختصراً.

رَحْمَتُك غَضَبَك؟ قيل له: بلىٰ. وكَتبْتَ عَلَيَّ أن أعملَ هذا؟ قيل له: بلىٰ. قال: أفرأيتَ إنْ تُبتُ، هل أنت راجِعِي إلىٰ الجنَّة؟ قال: نعم. ثم قال الحاكمُ: صحيحُ الإسنادِ ولم يُخرجاه. وروىٰ الحاكمُ[1] أيضًا، والبَيْهقيُّ، وابنُ عساكرَ من طريقِ عبدِ الرحمنِ بنِ زيدِ بنِ أسلمَ، عن أبيه، عن جَدِّه، عن عمرَ بنِ الخطَّابِ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لَمَّا اقترفَ آدمُ الخطيئةَ، قال: يا ربِّ، أسألُك بحقِّ محمدٍ ألا غفَرْتَ لي؟! فقال اللهُ: فكيفَ عرفْتَ محمدًا ولم أخْلُقْه بعدُ؟ فقال: يا ربِّ، لأنك لَمَّا خَلَقْتَني بيدك ونفخْتَ فيَّ من رُوحك رَفَعْتُ رأسي فرأيتُ على قوائمِ العرشِ مكتوبًا: لا إلهَ إلا اللهُ محمَّدٌ رسولُ الله، فعلمْتُ أنَّك لم تُضفْ إلى اسمك إلا أحبَّ الخَلْقِ إليك. فقال اللهُ: صدقْتَ يا آدمُ، إنَّه لأحبُّ الخلقِ إليَّ، وإذْ سألْتَني بحقِّه فقد غفَرْتُ لك، ولولا محمدٌ ما خَلَقْتُك**». قال البَيْهَقِيُّ: تفرَّد به عبدُ الرحمنِ بنِ زيدِ بنِ أسلمَ، من هذا الوجه، وهو ضعيفٌ، واللهُ أعلمُ. وهذه الآيةُ كقولِه تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

ذِكرُ احتجاجِ آدمَ وموسىٰ عليهما الصلاةُ والسَّلامُ

قال البخاريُّ[2]: حدثنا قُتَيْبةُ، حدثنا أيوبُ بنُ النَّجَّارِ، عن يحيىٰ بنِ أبي كثيرٍ، عن أبي سلمةَ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**حاجَّ موسَى آدمَ، عليهما السَّلامُ، فقال له: أنتَ الذي أخْرَجْتَ الناسَ من الجنة بذَنْبِكَ وأشْقَيْتَهم؟ قال آدمُ: يا موسَى، أنتَ الذي اصطفاكَ اللهُ برسَالاته وبكلامه! أتَلُومُني على أمرٍ كَتَبَه اللهُ عَلَيَّ قبلَ أن يَخْلُقَني ـ أوْ ـ قدَّره عليَّ قبل أن يَخْلُقَني؟**». قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**فَحَجَّ آدمُ مُوسَى**». وقد رواه مسلمٌ عن عمرٍو الناقدِ، والنَّسائيُّ عن محمدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ يزيدَ، عن أيوبَ بنِ النَّجارِ به. قال أبو مسعودٍ الدِّمشقيُّ: ولم يُخَرِّجا عنه في «الصحيحين» سِواه. وقد رواه أحمدُ، عن عبدِ الرزاقِ، عن مَعْمَرٍ، عن هَمَّامٍ، عن أبي هريرةَ، ورواه مسلمٌ، عن محمدِ بنِ رافعٍ، عن عبدِ الرَّزاقِ به.

وقال الإمامُ أحمدُ[3]: حدثنا أبو كاملٍ، حدثنا إبراهيمُ، حدثنا ابنُ شهابٍ، عن حُميدِ بنِ عبدِ الرحمنِ، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**احتَجَّ آدمُ ومُوسى، فقال له موسى: أنت آدمُ الذي أخرجَتْك خطيئتُكَ من الجنة؟ فقال له آدمُ: وأنت موسى الذي اصْطفاكَ اللهُ برسالاته وبكلامه؟ تَلُومني على أمرٍ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟**». قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**فَحَجَّ آدمُ موسى، فَحَجَّ آدمُ موسى**» مرتين. قلتُ: وقد روىٰ هذا الحديثَ البخاريُّ ومسلمٌ، مِن حديثِ الزهريِّ، عن حُميدِ بنِ عبدِ الرحمنِ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ نحوَه.

---

(١) **إسناده واه**: «المستدرك» (٢/ ٦١٥)، والبيهقي (٥/ ٤٨٩) «دلائل». ابن عساكر «تاريخ دمشق» (٧/ ٤٣٧). وقال الحاكم صحيح، وتعقبه الذهبي فقال: بل موضوع عبد الرحمن بن زيد واه.

(٢) **متفق عليه**: البخاري (٤٧٣٨). مسلمٌ (٦٦٨٨) مع النووي، النسائي «الكبرى» (١٠٩٨٥ ـ ١١٠٦٠ ـ ١١١٣٠) ولم أقف عليه من رواية محمد بن عبد الله بن يزيد عن أيوب، وقد عزاها المزي في «الأطراف» للنسائي في «الكبرى»، ولكن وقفت عليه من رواية محمد بن عبد الله عن سفيان بسند آخر. (١١١٨٧).

(٣) **متفق عليه**: أحمد (٢/ ٢٦٤)، والبخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (٦٦٨٧).

وقال الإمامُ أحمدُ[١] : حدثنا معاويةُ بنُ عمرٍو، حدثنا زائدةُ، عن الأعمشِ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال : **«احتَجَّ آدَمُ وموسى، فقال موسى: يا آدمُ، أنتَ الذي خلقكَ اللهُ بيَده، ونفخَ فيكَ مِنْ رُوحه، أغويْتَ الناسَ، وأخرَجْتَهُمْ من الجنة»**. قال : **«فقال آدمُ: وأنتَ موسى الذي اصْطَفاكَ اللهُ بكلامه، تلُومُني على عَمَلٍ أعملُه كتَبَه اللهُ عليَّ قبلَ أن يَخلُقَ السموات والأرضَ؟»** قال : **«فَحَجَّ آدمُ موسى»**. وقد رواه الترمذيُّ[٢]، والنَّسائيُّ جميعًا، عن يحيى بنِ حبيبِ بنِ عَرَبيٍّ، عن مُعْتَمرِ بنِ سليمانَ، عن أبيه، عنِ الأعْمشِ به. قال الترمذيُّ: وهو غريبٌ مِن حديثِ سليمانَ التيميِّ، عن الأعْمشِ. قال: وقد رواه بعضُهم عنِ الأعمشِ، عن أبي صالحٍ عن أبي هريرةَ. قال: وقد رواه بعضُهم عن أبي صالحٍ، عن أبي سعيدٍ. قلتُ: هكذا رواه الحافظُ أبو بكرٍ البزَّارُ[٣] في «مُسْنَدِه» عن محمدِ بنِ مُثَنَّى، عن مُعاذِ بنِ أسدٍ، عنِ الفَضْلِ بنِ موسى، عنِ الأعمشِ، عن أبي صالحٍ، عن أبي سعيدٍ. ورواه البزَّارُ[٤] أيضًا: حدثنا عمرُو بنُ عليٍّ الفَلاَّسُ، حدثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأعمشُ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرةَ، أو أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ. فذكر نحوَه.

وقال أحمدُ[٥] : حدثنا سفيانُ، عن عمرٍو، سمعَ طاووسًا، سمع أبا هريرةَ، يقولُ: قال رسولُ الله ﷺ : **«احتَجَّ آدمُ وموسى، فقال موسى: يا آدمُ، أنتَ أبونا، خيَّبْتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدمُ: يا موسى، أنتَ اصْطَفاك اللهُ بكلامه. وقال مَرَّةً: برسالَته، وخَطَّ لَكَ بيَده؟ أتَلُومُني على أَمرٍ قدَّرَه اللهُ عليَّ قبْلَ أن يَخلُقَني بأربعينَ سنةً؟»** قال: **«حَجَّ آدمُ موسى، حَجَّ آدمُ موسى، حَجَّ آدمُ موسى»**. وهكذا رواه البخاريُّ[٦] عن عليِّ بنِ المَدِينيِّ، حدثنا سفيانُ، قال: حَفِظْناه مِن عمرٍو، عن طاووسٍ، قال: سمعتُ أبا هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قال: **«احتَجَّ آدمُ وموسى، فقالَ موسى: يا آدمُ، أنتَ أبونا، خيَّبْتَنا وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدمُ: يا موسى، اصطفاكَ اللهُ بكلامه وخَطَّ لَكَ بيَده، أتَلُومُني على أمرٍ قدَّرَه اللهُ عليَّ قبلَ أن يَخلُقَني بأربعينَ سنةً؟ فَحَجَّ آدمُ موسى، فَحَجَّ آدمُ موسَى»**. هكذا ثلاثًا.

قال سفيانُ: حدثنا أبو الزِّنادِ، عن الأعرجِ، عن أبي هريرةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ مثلَه. وقد رواه الجماعةُ إلا ابنَ ماجَه، مِن عشْرِ طُرُقٍ، عن سفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، عن عمرِو بنِ دينارٍ، عن عبدِ اللهِ بنِ طاووسٍ، عن أبيه، عن أبي هريرةَ، عنِ النبيِّ ﷺ بنحوِه.

وقال أحمدُ[٧] : حدثنا عبدُ الرحمنِ، حدثنا حمادٌ، عن عَمَّارٍ، عن أبي هريرةَ، عنِ النبيِّ ﷺ، قال: **«لَقِيَ آدمُ موسى، فقال: أنتَ آدمُ الذي خلقَكَ اللهُ بيَده، وأسْجَدَ لك ملائكتَه، وأسْكنَك الجَنةَ، ثم فعلتَ؟ فقال: أنت موسى الذي كلمك اللهُ واصطفاكَ برسالَته، وأنزلَ عليكَ التوْراةَ؟ أنا أقْدمُ أَمِ الذِّكْرُ؟ قال: لا، بل الذِّكْرُ. فحَجَّ آدمُ موسَى»**.

---

(١) صحيح الإسناد: احمد (٢/ ٣٩٨).
(٢) الترمذي (٢١٣٤) وعزاه المزي للنسائي في «الكبرى» ولم أقف عليه من هذه الرواية.
(٣) سنده صحيح: البزار (٢١٤٧) (كشف الأستار).
(٤) سنده صحيح: «كشف الأستار» (٢١٤٨).
(٥) صحيح الإسناد: احمد (٢/ ٢٤٨).
(٦) صحيح: البخاري (٦٦١٤).
(٧) حسن الإسناد: احمد (٢/ ٤٦٤).

قال أحمدُ[١] : وحدثنا عفّانُ، حدثنا حَمادٌ، عن عمّارِ بنِ أبي عمارٍ، عن أبي هُريرةَ، عن النبيِّ ﷺ. وحميدٌ عنِ الحسنِ عن رجُلٍ، قال حمادٌ: أظنُّه جُنْدَبَ بنَ عبدِ اللهِ البَجَليَّ، عنِ النبيِّ ﷺ، قال: «**لَقِيَ آدمُ موسى**». فذكر معناه. تفرَّدَ به أحمدُ مِن هذا الوجه.

وقـال أحمـدُ[٢] : حدثنا حُسينٌ، حدثنا جريرٌ، هو ابنُ حازمٍ، عن محمدٍ، هو ابنُ سيرينَ، عن أبي هُريرَةَ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لقيَ آدمُ موسى، فقالَ: أنتَ آدمُ الذي خَلَقَكَ اللهُ بيَدِه وأسْكَنَكَ جنّتَه، وأسْجَدَ لكَ مَلائكتَه، ثم صنَعْتَ ما صنَعْتَ؟ قالَ آدمُ: يا موسى، أنتَ الذي كَلَّمَه اللهُ، وأنزلَ عليه التوراةَ؟ قال: نعَمْ. قال فهلْ تَجِدُه مكتوبًا علَيَّ قبلَ أن أُخْلَقَ؟ قال: نعم. قال: فَحَجَّ آدمُ موسى، فَحَجَّ آدمُ موسى**». وكذا رواه حمَّادُ بنُ زيدٍ، عن أيوبَ وهشامٍ، عن محمدِ بنِ سيرينَ، عن أبي هريرةَ، رفَعَه. وكذا رواه عليُّ بنُ عاصمٍ، عن خالدٍ وهشامٍ، عن محمدِ بنِ سيرينَ. وهذا على شرطِهما من هذه الوجوهِ.

وقـال ابنُ أبي حـاتمٍ[٣] : حدثنا يونسُ بنُ عبدِ الأعلى، أنبأنا ابنُ وهبٍ، أخبرني أنسُ بنُ عياضٍ، عنِ الحارثِ بنِ أبي ذُبابٍ، عن يزيدَ بنِ هُرْمُزَ: سمعتُ أبا هريرةَ يقولُ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**احتَجَّ آدمُ وموسى عندَ ربِّهما، فَحَجَّ آدمُ موسى؛ قالَ موسى: أنتَ الذي خَلَقَكَ اللهُ بيده ونفَخ فيكَ من روحه وأسجدَ لَكَ ملائكتَه وأسكنَكَ جنّتَه، ثُمَّ أهبطتَّ النّاسَ إلى الأرضِ بخطيئتكَ؟ قَالَ آدمُ: أنتَ موسى الذي اصطَفَاكَ اللّهُ برسالَته وكلامه، وأعطاكَ الألواحَ فيها تبيانُ كلِّ شيءٍ وقَرَّبَكَ نَجيًّا، فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التوراةَ؟ قالَ موسى بأربعينَ عامًا. قَالَ آدمُ: فهل وجدتَ فيها: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾؟ قال: نَعَمْ. قال: أفتَلُومُني علَى أنْ عَملتُ عَملاً كتَبَ اللهُ علَيَّ أنْ أعْمَلَهُ قبلَ أن يَخْلُقَني بأربعينَ سنةً؟**». قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**».

قال الحـارثُ: وحدثني عبدُ الرحمنِ بنُ هُرْمُزَ بذلك عن أبي هريرةَ، عن رسولِ اللهِ ﷺ. وقد رواه مسلمٌ[٤] عن إسحاقَ بنِ موسى الأنصاريِّ، عن أنسِ بنِ عِياضٍ، عنِ الحارثِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي ذُبابٍ، عن يزيدَ بنِ هُرْمُزَ والأعْرَجِ، كلاهما عن أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ بنحوِه.

وقال أحمدُ[٥] : حدثنا عبدُ الرزاقِ، أنبأنا مَعْمَرٌ، عن الزُّهْريِّ، عن أبي سلمةَ، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**احتَجَّ آدمُ وموسَى، فقال موسَى لآدمَ: يا آدمُ، أنتَ الذي أدْخَلْتَ ذُرِّيَّتَكَ النارَ؟ فقال آدمُ: يا موسى، اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسالاته وبكلامه، وأنزلَ عليكَ التَّوراةَ، فهل وجدتَ أنِّي أَهْبطُ؟ قال: نَعَمْ**». قال: «**فَحَجّه آدَمُ**». وهذا على شَرْطِهما، ولم يُخَرِّجاه مِن هذا الوجهِ. وفي قولِه: «**أَدْخلْتَ ذريَّتَك النارَ**». نَكارةٌ.

فهذه طُرُقُ هذا الحديثِ عن أبي هريرةَ، رواه عنه حُمَيْدُ بنُ عبدِ الرحمنِ، وذَكْوانُ أبو صالحٍ السَّمانُ، وطاوُوسُ بنُ كَيْسانَ، وعبدُ الرحمنِ بنُ هُرْمُزَ الأعرجُ، وعمّارُ بنُ أبي عمَّارٍ، ومحمدُ بنُ سيرِينَ، وهَمَّامُ

---

(١) **حسن الإسناد**: احمد (٢/ ٤٦٤).
(٢) **رجاله ثقات**: احمد (٢/ ٣٩٢).
(٣) **حسن الإسناد**: ابن ابي حاتم في «التفسير» (١٣٥٥٠).
(٤) **صحيح**: مسلم (٦٦٨٦).
(٥) **صحيح على شرط الشيخين**: احمد (٢/ ٢٦٨).

ابنُ مُنَبِّهٍ، ويزيدُ بنُ هُرْمُزَ، وأبو سلمةَ بنُ عبد الرحمن.

وقد رواه الحافظُ أبو يَعْلَى المَوْصليُّ في «مُسْنَده»[١] من حديث أمير المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطاب، رَضِيَ اللهُ عنه، فقال: حدثنا الحارثُ بنُ مِسْكينٍ المصريُّ، حدثنا عبدُ الله بنُ وهبٍ، أخبرني هشامُ ابنُ سعدٍ، عن زيدِ بنِ أسلمَ، عن أبيه، عن عمرَ بنِ الخطاب، عنِ النبيِّ ﷺ، قال: «قال موسى عليه السَّلامُ: يا ربِّ، أرِنَا آدمَ الذي أَخْرَجَنَا ونَفْسه من الجنة. فأراهُ آدمَ عليه السلامُ، فقال: أنتَ آدمُ؟ فقال له آدمُ: نعم. قال: أنتَ الذي نَفَخَ اللهُ فيكَ من رُوحه، وأسْجَدَ لكَ ملائكتَه، وعلَّمكَ الأسماءَ كلَّها؟ قال: نَعَم. قال: فما حَمَلَكَ عَلَى أنْ أخْرَجْتَنا ونفْسَكَ من الجنة؟ فقالَ له آدمُ: مَنْ أنتَ؟ قال: أنا موسى. قال: أنتَ موسى نَبِيُّ بني إسرائيلَ؟ أنتَ الذي كلَّمكَ اللهُ من وراء الحجاب فلم يجعلْ بيْنَكَ وبيْنَه رسولاً من خلْقِه؟ قال: نَعَم. قال: تَلُومُني عَلَى أمْرٍ قَدْ سَبَقَ من الله عز وجل القضاءُ به قَبْلُ؟!» قال رسولُ الله ﷺ: «فَحَجَّ آدمُ موسى، فَحَجَّ آدمُ موسى». رواه أبو داودَ، عن أحمدَ بنِ صالحٍ المصريِّ، عن ابنِ وَهْبٍ به..

قال أبو يَعْلَى:[٢] وحدثنا محمدُ بنُ المثنَّى، حدثنا عبدُ الملك بنُ الصبَّاح المِسْمَعِيُّ، حدثنا عمرانُ، عن الرُّدَيْنيِّ بنِ أبي مِجْلَزٍ، عن يحيى بنِ يَعْمُرَ، عنِ ابنِ عمرَ، عن عمرَ - قال أبو محمد: أكثرُ ظَنِّي أنه رفَعَه - قال: «الْتَقَى آدمُ وموسى، قال موسى لآدمَ: أنتَ أبو النَّاسِ، أسْكَنَكَ اللهُ جنتَه، وأسجدَ لك ملائكتَه. قال آدمُ: يا موسى، أمَا تَجدُه عَلَيَّ مَكْتُوبًا؟» قال: «فَحَجَّ آدمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدمُ موسى». وهذا الإسنادُ أيضًا لا بأسَ به، والله أعلمُ.

وقد تقدَّم روايةُ الفَضْلِ بنِ موسى لهذا الحديث، عنِ الأعمشِ، عن أبي صالحٍ، عن أبي سعيدٍ، وروايةُ الإمامِ أحمدَ له، عن عفانَ، عن حمادِ بنِ سلمةَ، عن حُمَيدٍ، عنِ الحسنِ، عن رجلٍ. قال حَمَّادٌ: أظُنُّه جُنْدَبَ بنَ عبدِ الله البَجَليَّ، عنِ النبيِّ ﷺ: «لَقِيَ آدمُ مُوسَى». فذكَر معناه.

وقد اختلفتْ مسالكُ الناسِ في هذا الحديث، فردَّه قومٌ منَ القدرية؛ لما تضمَّنَ من إثباتِ القَدَرِ السابقِ. واحتجَّ به قومٌ من الجبرية، وهو ظاهرٌ لهم باديَ الرأي؛ حيثُ قال: «فحجَّ آدمُ موسى». لَمَّا احتجَّ عليه بتقْديمِ كتابِه، وسيأتي الجوابُ عن هذا. وقال آخرون: إنَّما حَجَّه؛ لأنَّه لامَه على ذنبٍ قد تابَ منه، والتَّائبُ منَ الذنبِ كمن لا ذنبَ له. وقيل: إنما حَجَّه؛ لأنَّه أكبرُ منه وأقدمُ. وقيل: لأنَّه أبوه. وقيل: لأنَّهما في شريعتين متَغايرتين. وقيل: لأنَّهما في دارِ البَرْزَخ وقد انقطع التكليفُ فيما يزعمونه.

والتحقيقُ، أنَّ هذا الحديثَ رُوِيَ بألفاظٍ كثيرةٍ بعضُها مرويٌّ بالمعنَى وفيه نظرٌ، ومدارُ معظمِها في «الصحيحين» وغيرِهما، على أنَّه لامَه على إخراجه نَفْسَه وذُرِّيَّته من الجنة، فقال له آدمُ: أنَا لم أُخْرِجْكم، وإنَّما أَخْرَجَكُم الذي رتَّب الإخراجَ على أكلي منَ الشجرة، والذي رتَّب ذلك، وقدَّره، وكتَبه عليَّ قبلَ أنْ

(١) **رجاله ثقات:** «مسند» أبي يعلى (٢٤٣)، وأبو داود (٤٧٠٢).
(٢) **إسناده صحيح:** فيه عبد الملك بن الصباح صدوق. «مسند» أبي يعلى (٢٤٤).

أَخْلَقَ، هو اللهُ عزَّ وجلَّ، فأنت تلومُني على أمرٍ ليس له نسبةٌ إليَّ أكثرَ ما أنِّي نُهيتُ عن الأكلِ من الشجرة، **فأكلتُ** منها، وكَوْنُ الإخراجِ مترتبًا على ذلك ليس من فِعْلي، فأنَا لم أُخرجْكُم ولا نَفْسي من الجنة، **وإنما كان هذا** من قَدَرِ الله وصُنْعه، وله الحكمةُ في ذلك؛ فلهذا حَجَّ آدمُ موسى.

ومن كذَّب بهذا الحديث فمُعانِدٌ؛ لأنَّه متواترٌ عن أبي هريرةَ، رضيَ اللهُ عنه، وناهيك به عَدَالةً، **وحفظًا، وإتقانًا**. ثم هو مَرْوِيٌّ عن غيرِه من الصَّحابة، كما ذكرنا. ومَن تأوَّله بتلك التَّأويلات المذكورة **آنفًا، فهو بعيدٌ** من اللَّفظ والمعنَى، وما فيهم مَن هو أقْوىٰ مَسْلَكًا من الجَبْرِيَّة. وفيما قالوه نظرٌ من وجوه؛ أحدُها: أنَّ موسىٰ، عليه السلامُ، لا يلومُ علىٰ أمرٍ قد تاب منه فاعلُه. الثاني، أنَّه قد قتل نَفْسًا، لم يُؤْمَر بقَتْلها، وقد سأَلَ اللهَ في ذلك بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ الآيةَ [القصص: ١٦]. الثالثُ: أنَّه لو كان الجوابُ عن اللَّوْم على الذنْب بالقَدَرِ المُتَقدِّم كتابتُه على العبد، لانفتح هذا لكلِّ مَن ليمَ علىٰ أمرٍ قد فعلَه، فيحتجُّ بالقَدَرِ السابق، فينْسدُّ بابُ القِصاصِ والحدود، ولو كان القَدَرُ حُجَّةً، لاحتَجَّ به كلُّ أحدٍ في الأمورِ الكِبارِ والصغار، وهذا يُفْضي إلى لوازمَ فظيعةٍ؛ فلهذا قال مَنْ قال من العلماء بأنَّ جَوابَ آدمَ إنَّما كان احْتِجاجًا بالقَدَرِ على المُصِيبةِ، لا على المعصية. واللهُ تعالى أعلمُ بالصواب، وهو حسبي ونعمَ الوكيلُ.

ذكرُ الأحاديثِ الواردةِ في خلقِ آدمَ عليه الصلاةُ والسلامُ

قال الإمامُ أحمدُ[(١)] : حدثنا يحيىٰ ومحمدُ بنُ جعفرٍ، حدثنا عوفٌ، حدثني قَسامةُ بنُ زُهَيرٍ، عن أبي موسىٰ، عنِ النبيِّ ﷺ، قال: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ من قَبْضَةٍ قَبَضَهـا منْ جَميعِ الأرضِ، فجاءَ بنُو آدمَ على قَدْرِ الأرضِ، فجاءَ منهُم الأبيضُ والأحمرُ والأسودُ وبينَ ذلكَ، والخبيثُ، والطَّيِّبُ، والسَّهْلُ والحَزْنُ وبينَ ذلك**».

ورواه أيضًا عن هَوذَةَ، عن عَوْفٍ، عن قَسامة بنِ زُهَيرٍ، سَمِعْتُ الأشْعَرِيَّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ من قَبْضَةٍ قبضها من جَميعِ الأرضِ، فَجَاءَ بَنُو آدمَ على قَدْرِ الأرضِ، فجاءَ منهم الأبيضُ والأحمرُ والأسودُ وبينُ ذلك، والسَّهْلُ والحَزْنُ وبَيْنَ ذلك، والخبيثُ والطَّيِّبُ وبَيْنَ ذلك**». وكذا رواه أبو داودَ والتِّرْمذيُّ وابنُ حبانَ[(٢)] في «صحيحه»، من حديث عَوْفِ بنِ أبي جَميلَةَ الأعرابيِّ، عن قَسامةَ بنِ زُهَيرٍ المازِنيِّ البصريِّ، عن أبي موسىٰ عبدِ اللهِ بنِ قيسٍ الأَشْعريِّ، عنِ النبيِّ ﷺ بنحوِه. وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ صحيحٌ.

وقد ذكر السُّدِّيُّ[(٣)] ، عن أبي مالكٍ وأبي صالحٍ، عن ابنِ عباسٍ، وعن مُرَّةَ، عن ابنِ مسعودٍ، وعن

---

(١) صحيح: «المسند» (٤/ ٤٠٠)، من طريق محمد بن جعفر، ويحيى بن سعيد، و(٤/ ٤٠٦) من طريق هوذة، وروح بن عبادة، وأبو داود (٤٦٩٣) من طريق يزيد بن ربيع، والترمذي (٢٩٥٥) من طريق محمد بن جعفر، وابن عدي وعبد الوهاب.

(٢) صحيح: ابن حبان (٦١٦٠)، بترتيب ابن بلبان، من طريق معتمر بن سليمان، كلهم عن عوف والحديث: صحيح رجاله كلهم ثقات، روى لهما الشيخان إلا قسامة بن زهير: وهو ثقة.

(٣) إسناده حسن: رواه ابن جرير في «التاريخ» (١/ ٦٢)، و«التفسير» (١/ ٢٠٣)، وإسناده حسن وسبق الكلام على هذا الإسناد وتصحيح الشيخ أحمد شاكر رحمه الله له في «تحقيقه لتفسير الطبري»، (١/ ١٥٦) تفسير (الفاتحة).

ناسٍ مِن أصحابِ رسولِ الله، قالوا: فبعثَ اللهُ عز وجل جبريلَ في الأَرضِ ليأتيَه بطينٍ منها، فقالت الأرضُ: أعوذُ باللهِ منك أَنْ تَنْقُصَ مِنِّي أو تُشِينَني. فرجَعَ ولم يأخُذْ، وقال: ربِّ إِنَّها عاذتْ بك فأَعَذْتُها. فبعَث ميكائيلَ، فعاذَتْ منه، فأَعاذَها، فرجَعَ، فقال كما قال جبريلُ، فبعَث مَلَكَ المَوْت، فعاذَتْ منه، فقال: وأنا أعوذُ باللهِ أَنْ أَرْجِعَ ولم أُنْفِذْ أمْرَه. فأَخَذَ مِن وجهِ الأَرضِ وخلَطَه، ولم يأخذْ مِن مكانٍ واحدٍ، وأخَذ مِن تربَةٍ بيضاءَ وحمراء وسوداءَ؛ فلذلك خرَج بنو آدمَ مُخْتلفينَ، فصعد به فَبَلَّ التراب حتى عادَ طِينًا لازِبًا؛ واللازِبُ، هو الذي يلْزَقُ بعضُه ببعضٍ، ثم قالَ للملائكَة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢]. فخلَقَه اللهُ بيده؛ لئلاَّ يَتَكَبَّرَ إبليسُ عنه، فَخَلَقَه بَشَرًا، فكانَ جسدًا من طينٍ أربعينَ سنةً من مقدارِ يومِ الجُمُعة، فَمَرَّتْ به الملائكةُ فَفَزِعُوا منه لَمَّا رَأَوْه، وكان أشَدُّهم منه فَزَعًا إِبْليسَ، فكانَ يَمُر به فَيَضْرِبُه فيُصَوِّتُ الجسدُ كما يُصَوِّتُ الفَخَّارُ، يكونُ له صَلْصَلَةٌ، فذلك حينَ يَقولُ: ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]. ويقولُ: لأمرٍ ما خُلقْتَ. ودخَل من فِيه وخرَج مِن دُبُره، وقال للمَلائكَة: لا تَرْهَبُوا من هذا، فإنَّ ربَّكُم صَمَدٌ، وهذا أجْوَفُ، لَئِن سُلِّطْتُ عليه لأُهْلِكَنَّه. فَلَمَّا بلغَ الحينَ الذي يريدُ اللهُ عز وجل أَنْ ينفُخَ فيه الرُّوحَ قال للملائكة: إذا نَفَخْتُ فيه من رِوحِي فاسجُدوا له. فَلَمَّا نفَخَ فيه الرُّوحَ، فدَخَل الرُّوحُ في رأْسِه عطَسَ، فقالتِ الملائكةُ: قل: الحمدُ لله. فقال: الحمدُ لله. فقال له اللهُ: رَحِمَك ربُّكَ. فَلَمَّا دخَلَتِ الرُّوحُ في عَيْنَيْه نظر إلى ثمارِ الجنة، فلَمَّا دخَلَت الرُّوحُ في جَوْفِه اشْتَهَى الطعامَ، فوثَبَ قبلَ أن تَبْلُغَ الرُّوحُ إلى رِجْلَيْه عَجْلانَ إلى ثمارِ الجنة، وذلك حِينَ يقُولُ اللهُ تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]. ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٠]. وذكَر تمامَ القصَّة.

ولبعضِ هذا السِّياقِ شاهِدٌ مِن الأحاديث، وإنْ كان كثيرٌ منه مُتَلَقًى مِنَ الإسرائيليات، فقال الإمامُ أحمدُ[١] : حدثنا عبدُ الصمدِ، حدثنا حمادٌ، عن ثابتٍ، عن أنسٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدمَ تركه ما شَاءَ أن يَدَعَه فجعَلَ إبليس يُطِيفُ به، فَلَمَّا رآه أجْوفَ عرَفَ أَنَّه خَلْقٌ لا يَتَمَالَكُ»**.

وقال ابنُ حِبَّانَ[٢] في «صحيحه»: حدثنا الحسنُ بنُ سفيانَ، حدثنا هُدبةُ بنُ خالدٍ، حدثنا حمَّاد ابنُ سلمةَ، عن ثابتٍ، عن أنسِ بنِ مالكٍ، أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«لَمَّا نُفِخَ في آدَمَ فَبلَغَ الرُّوحُ رأسَه عَطَسَ، فقال: الحمدُ لله ربِّ العالَمينَ. فقال له تباركَ وتعالى: يَرْحَمُكَ اللهُ»**.

وقال الحافظُ أبو بكر البزَّارُ[٣] : حدثنا يحيى بنُ محمدِ بنِ السَّكَنِ، حدثنا حَبَّانُ بنُ هلالٍ، حدثنا مباركُ بنُ فَضَالةَ، عن عُبَيدِ اللهِ، عن حبيبٍ، عن حفصٍ، هو ابنُ عاصمِ بنِ عُبَيدِ اللهِ بنِ عمرَ بنِ

---

(١) صحيح: «المسند» (٣/ ١٥٢) ورواه أيضًا من طريق يونس، عن حماد (٣/ ٢٢٩)، ومن طريق حسن، وعثمان (٣/ ٢٤٠)، ومن طريق عفان (٣/ ٢٥٤). ورواه مسلم (٦٥٩٢) نووي.

(٢) حسن الإسناد: ابن حبان (٦١٦٥).

(٣) حسن الإسناد: رواه أيضًا ابن حبان (٦١٦٤) عن أبي عروبة، عن يحيى بن محمد بن السكن: بنفس الإسناد.

الخطابِ، عن أبي هريرةَ رَفَعَه، قال: «لمَّا خلَق اللهُ آدمَ عطَس، فقالَ: الحمدُ لله، فقال له ربُّه: رَحِمَك ربُّكَ يا آدمُ». وهذا الإسنادُ لا بأسَ به، ولم يخرِّجوه.

وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيز: لَمّا أُمِرت الملائكةُ بالسجودِ؛ كان أولَ مَن سَجَدَ مِنْهم إسرافيلُ، فأثابه اللهُ أَنْ كَتبَ القرآنَ في جَبْهَته. رواه ابنُ عساكرَ[1].

وقال الحافظُ أبو يَعلَى:[2] حدثنا عقبةُ بنُ مكرمٍ، حدثنا عمروُ بنُ محمدٍ، عن إسماعيلَ بنِ رافعٍ، عن المقبُريِّ، عن أبي هريرةَ، أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَ خلَقَ آدمَ من تراب، ثم جَعَلَه طينًا، ثم تركَه حتى إذا كان حَمَأً مَسْنُونًا خَلَقَه وصوَّرَه، ثم تَركه حتى إذا كان صَلْصالاً كالفَخّار». قال: «فكان إبليسُ يمُرُّ به، فيقولُ: لقد خُلقتَ لأمْرٍ عظيمٍ، ثم نفخَ اللهُ فيه من رُوحه فكان أولَ ما جرَى فيه الرُّوحُ بصرُه وخَياشيمُه، فَعَطَس فلقَّاه اللهُ رحمةَ ربِّه، فقال اللهُ: يَرْحَمُك ربُّك. ثم قال اللهُ: يا آدمُ، اذْهَبْ إلى هؤلاء النَّفَر فقُلْ لهم، فانْظُرْ ماذا يقولون. فجاء فسلَّم عليهم، فَقَالوا: وعليكَ السلامُ ورَحْمَةُ الله وبركاتُه. فقال: يا آدَمُ، هذا تحيَّتُك وتحيَّةُ ذُرِّيَّتك. قال: يا رَبِّ، وما ذُرِّيَّتي؟ قال: اخْتَرْ يديَّ يا آدَمُ، قال: أَخْتَارُ يَمينَ ربِّي، وكلْتَا يَدَيْ ربي يَمينٌ. وبَسطَ كَفَّه، فإذا مَنْ هو كائنٌ من ذُرِّيته في كفِّ الرَّحمنِ، فَإذا رجالٌ منهم أفْواهُهُم النُّورُ، فإذا رجُلٌ يُعْجِبُ آدمَ نُورُه، قال: يا ربِّ، مَن هذا؟ قال: ابنُكَ داودُ. قال: يا ربِّ، فكَمْ جعلتَ له من العمرُ؟ قال: جعَلْتُ له ستِّينَ. قال: يا ربِّ، فَأَتمَّ له من عُمُري حتى يكُونَ له من العمر مائةُ سَنَة. فَفعَل اللهُ ذلك، وأُشْهدَ على ذلك. فلَمَّا نَفَدَ عُمُرُ آدمَ بعَثَ اللهُ مَلَكَ الموت، فقال آدمُ: أَوَلَم يَبْقَ من عُمُري أربعونَ سنةً؟ قال له الملَكُ: أوَلَم تُعْطِها ابنَك داودَ؟ فجَحَدَ ذلكَ، فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُه، ونَسي فَنَسِيَت ذُرِّيَّتُه». وقد رواه الحافظُ أبو بكرٍ البَزَّارُ، والتِّرْمذيُّ، والنَّسائيُّ في «اليومِ والليلةِ»، مِن حديثِ صَفْوانَ بنِ عيسى، عن الحارثِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي ذُبابٍ، عن سعيدٍ المَقبُرِيِّ، عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ. وقال الترمذيُّ: حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجهِ. وقال النَّسائيُّ: هذا حديثٌ مُنْكَرٌ. وقد رواه محمدُ بنُ عجلانَ، عن سعيدٍ المَقْبُريِّ، عن أبيه، عن عبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ، قولَه.

وقد رواه أبو حاتمِ بنُ حِبَّانَ في «صحيحه» فقال: حدثنا محمدُ بنُ إسحاقَ بنِ خُزَيْمَةَ، حدثنا محمدُ بنُ بَشَّارٍ، حدثنا صَفْوانُ بنُ عيسى، حدثنا الحارثُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي ذُبابٍ، عن سعيدٍ المَقْبُرِيِّ، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لمَّا خَلَقَ اللهُ آدمَ ونَفَخَ فيه الرُّوحَ عطَس، فقالَ: الحمدُ لله. فحَمدَ اللهَ بإذْنِ الله، فقالَ له ربُّه: يَرْحَمُكَ ربُّكَ، يا آدمُ اذْهَبْ إلى أُولَئكَ المَلائكَةِ - إلى مَلأ منهُم جلُوسٍ - فَسلِّمْ عَلَيْهم. فقالَ: السَّلامُ عَلَيْكُم. فقالوا: وعليْكُم السلامُ ورحمةُ الله. ثم رجَعَ إلى ربِّه، فقالَ: هذه تحيَّتُكَ وتحيَّةُ بَنيك بَيْنَهُم. وقال اللهُ ويداه مَقْبوضتان: اخْتَرْ أَيَّهُما شئْتَ. فقال: اخْتَرْتُ يَمينَ ربِّي، وكلْتَا يدَيْ ربِّي يَمينٌ مُباركةٌ. ثم بَسَطَهما، فإذا فيهما آدمُ وذُرِّيَّته، فقال: أي رَبِّ، ما هؤلاءِ؟ قال: هؤلاءِ ذُرِّيَّتُكَ. وإذا كلُّ

---

(١) **ضعيف إليه:** ابن عساكر «تاريخ دمشق» (٧/ ٣٩٨) في سنده ضمرة بن ربيعة: يهم وقادم بن مستور مجهول لم أقف له على ترجمة إلا في «التاريخ» للبخاري (٤/ ١/ ٢٠٠) قال قادم مولى الحكم ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً.

(٢) **حسن بطرقه:** أبو يعلى في «مسنده» (٦٥٨٠)، والترمذي (٣٣٦٨)، والنسائي في اليوم والليلة(١/ ٢٣٨)، وفي الكبرى (١٠٠٤٦).

إنسان منهم مكتوبٌ عُمُرُه بينَ عَيْنَيه، وإذا فيهم رجلٌ أَضْوَؤُهُم - أو: من أضوئهم - لم يُكْتَبْ له إلاَّ أربعونَ سنةً، قال: يا ربِّ، ما هذا؟ قال: هذا ابنُكَ داودُ. وقد كتَبَ اللهُ عُمُرَه أربعينَ سنةً. قال: أي ربِّ، زِدْ في عُمُرِه. فقال: ذاكَ الذي كُتِبَ له. قال: فإنِّي قَدْ جَعَلْتُ له من عُمُري ستينَ سنةً. قال: أنْتَ وذاك، اسْكُنِ الجَنَّةَ، فسَكَنَ الجنةَ ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ أُهْبِطَ منها، وكانَ آدمُ يَعُدُّ لنَفْسه، فأَتَاه مَلَكُ المَوْت، فقال له آدمُ: قد عَجِلْتَ، قد كُتِبَ لي ألفُ سنة. قال: بلى ولكنكَ جَعَلْتَ لابْنِكَ داودَ منها ستِّينَ سنةً. فَجَحَدَ آدمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُه، ونَسِيَ فَنَسِيَتْ ذُريتُه، فيومئذ أُمر بالكتَاب والشُّهُود». هذا لَفْظُه.

وقال التِّرْمِذيُّ[1] : حدثنا عبدُ بنُ حُمَيْدٍ، حدثنا أبو نُعَيْمٍ، حدثنا هشامُ بنُ سعدٍ، عن زيدِ بنِ أسلمَ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَه، فَسَقَطَ من ظَهْرِه كلُّ نَسَمَةٍ هو خَالقُها من ذُرِّيَّته إلى يوم القيامة، وجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كلِّ إنسان منهم وَبيصًا من نُور، ثم عَرَضَهُم على آدمَ، فقال: أَيْ رَبِّ، مَنْ هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذُرِّيَّتُك، فرأى رجلاً منهم، فأَعْجَبَه وَبِيصُ ما بَيْنَ عَيْنَيْه، فقالَ: أيْ رَبِّ، مَنْ هذا؟ قال: هذا رَجُلٌ من آخرِ الأمم من ذُرِّيَّتكَ يُقَالُ له داودُ. قال: رَبِّ وَكَمْ جَعَلْتَ عُمُرَه؟ قال: ستِّينَ سَنَةً. قال: أي رَبِّ زِدْهُ من عُمُري أربعينَ سنةً. فَلَمَّا انقَضَى عُمُرُ آدَمَ، جاءَه مَلَكُ المَوْت، قال: أَوَلَمْ يَبْقَ من عُمُري أربعونَ سنةً؟ قال: أَوَلَمْ تُعْطِها ابْنَكَ داودَ؟ قال: «فَجَحَدَ آدمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّته، ونَسِيَ آدمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّته، وخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّته». ثم قال التِّرْمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ، وقد رُوِيَ من غير وجهٍ، عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ. ورواه الحاكمُ في «مُسْتَدْرَكِه»[2] ، من حديثِ أبي نُعَيمٍ الفضلِ بنِ دُكينٍ، وقال: صحيحٌ على شرطِ مسلمٍ، ولم يُخَرِّجاه (٣). وروى ابنُ أبي حاتمٍ (٤) من حديثِ

---

(١) الترمذي: (٣٠٧٦)، ورواه: الحاكم أيضًا بنفس السند (٢/ ٣٢٥).

(٢) «المستدرك» (٤/ ٢٦٣).

(٣) تخريجه بالتفصيل في الكلام على الحديث الآتي.

(٤) رواه الترمذي (٣٣٦٨) والنسائي «الكبرى» (١٠٠٤٦ ـ ١٠٠٤٧ ـ ١٠٠٤٨) والطبراني في «الكبير» (١/ ٩٨) والبيهقي (١٠/ ١٤٧): كلهم من طريق صفوان بن عيسى، عن الحارث بن أبي ذباب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة. والنسائي: من طريق أبي خالد الأحمر، عن الحارث. قال النسائي بعد إخراجه للطريق: حديث منكر. وقد خالفه ابن عجلان عن سعيد، عن أبيه، عن عبد الله بن سلام موقوفًا «الكبرى» (٦/ ٦٤) من رواية قتيبة، عن الليث، عن ابن عجلان. وقلت: وقد تابع صفوان بن عيسى وأبا خالد الأحمر. أنس بن عياض عند ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٩٠). وقد تابع ابن أبي ذباب إسماعيل بن رافع عند أبي يعلى (٦٠٨٠). ورواه الترمذي أيضًا (٣٠٧٦)، عن أبي نعيم، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة. وأيضًا من نفس الطريق رواه أبو يعلى عن القاسم (٦٦٥٤)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٤)، عن خلاد بن يحيى عن هشام. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقد خالف أبا نعيم، القاسم، خلاد بن يحيى بن وهب فقال: عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة. والوهم فيه: من ابن وهب، قاله الدارقطني. وقد روي من غير هذه الوجوه عن أبي هريرة. منها طريق الشعبي عن أبي هريرة رواه النسائي في «الكبرى» (٦/ ٦٤) والطبري في «التاريخ الكبير» (١/ ٩٨) من رواية محمد بن خلف، عن آدم بن أبي إياس، عن أبي خالد الأحمر، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي. ومنها طريق أبي سلمة، عن أبي هريرة. رواه كذلك: النسائي والطبري من رواية محمد بن خلف عن آدم، عن أبي خالد الأحمر، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ومحمد بن عمرو: متكلم فيه. ومنها طريق حفص بن عاصم، عن أبي هريرة رواه ابن أبي عاصم (١/ ٩٠) وفيه مبارك بن فضالة ضعيف. ومنها طريق يزيد بن هرمز عن أبي هريرة. رواه النسائي والطبري من طريق أبي خالد الأحمر عن الحارث بن أبي ذباب عن يزيد ابن هرمز عن أبي هريرة. قال الدارقطني في العلل (١٤٦٧) حديث «جحود آدم وأمر بالكتابة والشهود». فقال: يرويه الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب وإسماعيل بن رافع، عن المقبري، عن أبي هريرة مرفوعًا. ورواه: أبو معشر، عن المقبري، عن أبي هريرة مرفوعًا، واختُلف عن ابن أبي ذباب في إسناده، فرواه صفوان بن عيسى، عن الحارث، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة. وخالفه أبو ضمرة، فرواه عن الحارث، عن يزيد بن هرمز، عن أبي هريرة. ولعل كلاهما قد أصاب؛ لأن أبا خالد الأحمر رواه عن الحارث، عن المقبري ويزيد بن هرمز جمع بينهما. اهـ. قلت. وما يؤكد ذلك أن أبا ضمرة أنس بن عياض قد رواه عن الحارث بن أبي ذباب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة تابع فيه صفوان بن عيسى، عند ابن أبي عاصم كما قد أسلفنا. قلت: وله شاهد عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما. رواه الإمام أحمد (١/ ٢٥١ ـ ٣٧١). من طريق روح، عن حماد، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس. وأخرجه أيضًا الطيالسي في «مسنده» (٣٥٠)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٥)، وابن أبي عاصم (١/ ٩٠)، والبيهقي (١٠/ ١٤٦)، والطبراني في «الكبير» (١٢٩٢٨). وفيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف ويوسف بن مهران لين الحديث. قلت: فالحديث يصح بطرقه.

عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة مرفوعًا، فذكره، وفيه: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ على آدمَ، فقال: يا آدمُ، هؤلاء ذُرِّيَّتُك. وإذا فيهم الأجذمُ، والأبرصُ، والأعمى، وأنواعُ الأسقام، فقال آدمُ: يا ربِّ، لِمَ فعلتَ هذا بذُرِّيَّتي؟ قال: كَيْ تُشكَرَ نعمتي». ثم ذكر قصةَ داودَ. وستأتي من رواية ابن عباس أيضًا.

وقال الإمامُ أحمدُ(١) في «مُسنده»: حدثنا الهيثمُ بنُ خارجةَ، حدثنا أبو الربيع، عن يونسَ بنِ ميسرةَ، عن أبي إدريسَ، عن أبي الدرداء، عن النبيِّ ﷺ قال: «خَلَقَ اللهُ آدمَ حينَ خَلَقَه، فضربَ كتفَه اليُمنى، فأخرجَ ذُرِّيَّةً بيضاءَ كأنَّهم الذَّرُّ، وضربَ كتفَه اليُسرى، فأخرجَ ذُرِّيَّةً سوداءَ كأنَّهم الحُمَمُ، فقالَ للذي في يمينه: إلى الجَنَّة ولا أُبالي. وقال للذي في كَفِّه اليُسرى: إلى النَّار ولا أُبالي».

وقال ابنُ أبي الدنيا(٢): حدثنا خَلَفُ بنُ هشامٍ، حدثنا الحَكَمُ بنُ سنانٍ، عن حَوْشَبٍ، عن الحسنِ، قال: خَلَقَ اللهُ آدمَ حينَ خَلَقَه، فأخرجَ أهلَ الجَنَّة من صَفْحَتِه اليُمنى، وأخرجَ أهلَ النارِ من صَفْحَتِه اليُسرى، فأُلقُوا على وجهِ الأرض؛ منهم الأعمى، والأصمُّ، والمُبتلَى، فقال آدمُ: يا ربِّ، ألا سوَّيتَ بينَ ولَدي؟ قال: يا آدمُ، إنِّي أردتُ أنْ أُشكَرَ. وهكذا روى عبدُ الرزَّاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادةَ، عن الحسنِ بنحوه.

وقد قال البخاريُّ(٣): حدثنا عبدُ الله بنُ محمدٍ، حدثنا عبدُ الرزاق، أخبرنا مَعْمَرٌ، عن هَمَّامِ بنِ مُنَبِّه، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ، وطولُه ستُّون ذراعًا، ثم قال: اذهبْ فسلِّمْ على أولئكَ من الملائكة، فاستمعْ ما يُحيُّونك، فإنَّها تحيَّتُك وتحيَّةُ ذُرِّيَّتك. فقال: السلامُ عليكُم. فقالوا: السلامُ عليكَ ورحمةُ الله. فزادُوه: ورحمةُ الله. فكُلُّ مَن يَدخُلُ الجنةَ على صورة آدمَ، فلم يزَل الخَلْقُ يَنقُصُ حتَّى الآنَ». وهكذا رواه البخاريُّ في كتابِ الاستئذانِ عن يحيى بنِ جعفرٍ، ومسلمٌ عن محمدِ بنِ رافعٍ، كلاهما عن عبدِ الرزَّاق به.

وقال الإمامُ أحمدُ(٤): حدثنا رَوحٌ، حدثنا حمَّادُ بنُ سلمةَ، عن عليِّ بنِ زيدٍ، عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ، عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: «كانَ طُولُ آدمَ ستِّينَ ذراعًا في سبعِ أذرُعٍ عرْضًا». انفرَد به أحمدُ.

---

(١) **صحيح لطرقه**: المسند (٦/ ٤٤١). من هذه الطرق: حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي رضي الله عنه عند أحمد (٤/ ١٨٦). عن الحسن بن سوار: حدثنا ليث (يعني: ابن سعد)، عن معاوية، عن راشد بن سعد، عن عبد الرحمن السلمي «إن الله عز وجل خلق آدم ثم أخذ من ظهره»، وقال: هؤلاء في الجنة: ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي» وهذا سند صحيح صححه الشيخ ناصر الألباني في «الصحيحة» (٤٨)، ورواه الحاكم (١/ ٣١)، وابن حبان «موارد» (١٨٠٦). وكذلك من رواية عمر بن الخطاب بسند منقطع عند الترمذي (٣٠٧٥)، وأبي داود (٤٧٠٣)، والحاكم (٢/ ٣٢٥) وغيرهم. كذلك من رواية أنس عند أبي يعلى (٣٤٢٢) بسند ضعيف فيه الحكم بن سنان. وغيرهم من الصحابة.

(٢) **ضعيف**: ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٦٢)، قلت: هذا أثر ضعيف،فيه الحكم بن سنان ضعيف.

(٣) **متفق عليه**: البخاري (٣٣٢٦، ٦٢٢٧) ومسلم (٧٠٩٢) نووي.

(٤) **ضعيف**: أحمد (٢/ ٥٣٥) فيه علي بن زيد بن جدعان ضعيف.

وقال الإمامُ أحمدُ[١] : حدثنا عفانُ، حدثنا حمادُ بنُ سلمةَ، عن عليِّ بنِ زيدٍ، عن يوسفَ بنِ مِهْرانَ، عن ابنِ عباسٍ، قال: لَمَّا نزلَتْ آيةُ الدَّينِ قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ أوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدمُ، إنَّ أوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدمُ، إنَّ الله لَمَّا خَلَقَ آدمَ، ومسَح ظهرَهُ فأَخْرَجَ منه ما هو ذارئٌ إلى يوم القيامة، فجعَل يَعْرِضُ ذُرِّيَّتَه عليه، فرأى فيهم رجلاً يَزْهَرُ، قال: أي ربِّ، مَنْ هذا؟ قال: هذا ابنُكَ داودُ. قال: أي ربِّ، كم عُمُرُه؟ قال: ستونَ عامًا، قال: أي ربِّ، زِدْ في عمره. قال: لا، إلا أنْ أزيدَه منْ عُمُرِكَ. وكانَ عمرُ آدمَ ألفَ عام، فزادَه أربعينَ عامًا، فكتبَ اللهُ عليه بذلك كتابًا وأشهدَ عليه الملائكةَ، فَلَمَّا احْتُضِرَ آدمُ أتَتْهُ الملائكةُ لتقبضَه قال: إنَّه قَدْ بَقِيَ من عُمُرِي أربعونَ عامًا. فَقِيلَ: إنكَ قد وَهَبْتَها لابنِكَ داودَ. قال: ما فَعَلْتُ. وأبْرَزَ اللهُ عليه الكتابَ، وشَهِدَتْ عليه الملائكةُ**».

وقال أحمدُ[٢] : حدثنا أسودُ بنُ عامرٍ، حدثنا حمادُ بنُ سلمةَ، عن عليِّ بنِ زيدٍ، عن يوسفَ بنِ مِهْرانَ، عن ابنِ عباسٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ أولَ مَن جَحَدَ آدمُ** - قالها ثلاثَ مرّاتٍ - **إنَّ اللهَ عز وجل لَمَّا خَلَقَه مَسَحَ ظهرَه وأخرجَ ذريتَه، فَعَرَضَهُم عليه، فرأى فيهم رجلاً يَزْهَرُ، قال: أي ربِّ، زِدْ في عمره. قال: لا، إلاَّ أنْ تَزيدَه أنتَ من عمرك. فزادَه أربعينَ سنةً من عمره. فكَتَبَ اللهُ تعالى عليه كتابًا وأشهدَ عليه الملائكةَ، فَلَمَّا أرادَ أنْ يَقْبِضَ رُوحَه قال: بَقِيَ منْ أجلي أربعونَ سنةً. فقيلَ له: إنَّك قد جَعَلْتَها لابْنِكَ داودَ**». قال: «**فَجَحَدَ**». قال: «**فأخْرَجَ اللهُ الكتابَ وأقامَ عليه البيِّنَةَ فأتمَّها لداودَ مائةَ سنة، وأتمَّها لآدمَ عمرَه ألفَ سنة**». تفرَّد به أحمدُ، وعليُّ بنُ زيدٍ في حديثِه نكارةٌ. ورواه الطَّبَراني[٣] عن عَلِيِّ بنِ عبدِ العزيزِ، عن حجاجِ بنِ منهالٍ، عن حمادِ بنِ سلمةَ، عن عليِّ بنِ زيدٍ، عن يوسفَ بنِ مِهْرانَ، عن ابنِ عباسٍ، وغيرِ واحدٍ، عن الحسنِ، قال: لما نَزَلَتْ آيةُ الدَّينِ قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ أولَ مَنْ جَحَدَ آدمُ**». ثلاثًا. وذكَرَه.

قال الإمامُ مالكُ بنُ أنسٍ[٤] **في «مُوَطَّئه»** عن زيدِ بنِ أبي أُنَيْسَةَ، أنَّ عبدَ الحميدِ بنَ عبدِ الرحمنِ بنِ زيدِ بنِ الخطابِ أخبره، عن مُسْلمِ بنِ يَسَارٍ الجُهَنِيِّ، أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ سُئِل عن هذه الآية: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ**﴾ الآيةُ [الأعراف: ١٧٢]. فقال عمرُ بنُ الخطابِ: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يُسأَلُ عنها، فقال: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ عليه السلامُ، ثم مَسَحَ ظهرَه بيمينه فاستَخْرَجَ منه ذُرِّيَّةً، قال: خَلَقْتُ هؤلاء للجنة وبعَمَلِ أهلِ الجنة يعملُون. ثم مَسحَ ظَهْرَه فاستَخْرَجَ منه ذريةً، قال: خلقتُ هؤلاء للنارِ وبعملِ أهلِ النارِ يعملُون**». فقالَ رجلٌ: يا رسولَ اللهِ، ففيمَ العملُ؟ قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا خَلَقَ اللهُ العبدَ للجنة، استَعْمَلَه بعملِ أهلِ الجنةِ حتى يموتَ على عملٍ من أعمالِ أهلِ الجنةِ، فيدخُلَ به الجنةَ، وإذا خلقَ اللهُ العبدَ للنارِ، استعملَه بعملِ أهلِ النارِ حتى يموتَ على عملٍ**

---

(١) **ضعيف الإسناد:** أحمد رواه: عن عفان، عن حماد (١/ ٢٥١)، من رواية روح، عن حماد (١/ ٣٧١) عن علي به، وعلي ضعيف ويوسف بن مهران لين.
(٢) **صحيح الإسناد:** «المسند» (١/ ٢٩٨).
(٣) الطبراني «الكبير» (١٢٩٢٨)، وللحديث شواهد سبق الكلام عليه.
(٤) **صحيح لشواهده:** «الموطأ» صفحة (٢٨٥) كتاب القدر ح(٢).

من أعمال أهلِ النار، فيدخُلَ به النارَ». وهكذا رواه الإمامُ أحمدُ[١] ، وأبو داودَ، والترمذيُّ، والنسائيُّ، وابنُ جرير، وابن أبي حاتم، وأبو حاتم بنُ حِبَّانَ في «صحيحه» من طُرُقٍ، عن الإمامِ مالكٍ به. وقال الترمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ، ومسلمُ بنُ يسارٍ لم يسمعْ عمرَ. وكذا قال أبو حاتمٍ وأبو زُرْعَةَ. زاد أبو حاتم: وبينَهما نُعَيْمُ بنُ ربيعةَ. وقد رواه أبو داودَ، عن محمدِ بنِ مُصفَّى، عن بقيةَ، عن عمرَ بنِ جُعْثُمٍ، عن زيدِ بنِ أبي أُنَيْسَةَ، عن عبدالحميدِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ زيدِ بنِ الخطاب، عن مسلمِ بنِ يسارٍ، عن نُعَيْمِ ابنِ ربيعةَ، قال: كنتُ عندَ عمرَ بنِ الخطابِ، وقد سُئِلَ عن هذه الآية. فذكَرَ الحديثَ. قال الحافظُ الدارقطنيُّ: وقد تابع عمرَ بنَ جُعْثُمٍ أبو فروةَ يزيدُ بنُ سنانٍ الرَّهاويُّ، عن زيدِ بنِ أبي أُنَيْسَةَ، قال: وقولُهما أَوْلَى بالصَّوابِ من قولِ مالكٍ رَحِمَه اللهُ.

وهذه الأحاديثُ كلُّها دالَّةٌ على استخراجِه تعالى ذُرِّيَّةَ آدمَ من ظهرِه كالذَّرِّ، وقسْمَتِهم قسمين؛ أهلِ اليمينِ، وأهلِ الشِّمالِ، وقال: هؤلاء للجنة ولا أُبالي، وهؤلاءِ للنَّارِ ولا أُبالي. فَأمَّا الإشْهادُ عليهم واستِنْطاقُهم بالإقرارِ بالوَحْدانيةِ، فلم يَجِئْ في الأحاديثِ الثَّابتةِ، وتفسيرُ الآيةِ التي في سورة «الأعراف» وحمْلُها على هذا فيه نَظَرٌ، كما بيَّنَّاه هناك، وذكَرْنا الأحاديثَ والآثارَ مُسْتَقْصاةً بأسانيدِها، وألفاظِ مُتُونِها، فَمَنْ أراد تَحْريرَه فَلْيُراجِعْه ثَمَّ، واللهُ أعلم.

فأمَّا الحديث الذي رواه أحمدُ[٢] : حدثنا حسينُ بنُ محمدٍ، حدثنا جَريرٌ، يعني ابنَ حازمٍ، عن كُلْثُومِ ابنِ جبرٍ، عن سعيدِ بنِ جبيرٍ، عن ابنِ عباسٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ أخذَ الميثاقَ من ظهرِ آدمَ عليه السلامُ بنَعْمانَ يومَ عرفةَ، فأخْرجَ من صُلْبِه كلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرأَها، فنثرَها بينَ يَدَيْه، ثمَّ كلَّمَهُم قُبُلاً، قال:** ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ** ﴿١٧٢﴾ **أَوْ تَقُولُوا**﴾ إلى قوله: ﴿**الْمُبْطِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]. فهو بإسْنادٍ جيِّدٍ قويٍّ على شرطِ مسلمٍ. رواه النَّسائيُّ، وابنُ جريرٍ، والحاكمُ في «مستدركِه»، من حديثِ حسينِ بنِ محمدٍ المَرْوَذِيِّ به. وقال الحاكمُ: صحيحُ الإسْنادِ ولم يُخَرِّجاه. إلاَّ أَنَّه اخْتُلِفَ فيه على كُلْثُومِ بنِ جبرٍ، فَرُوِيَ عنه مرفوعًا وموقوفًا. وكذا رُوِيَ عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ مَرْفوعًا. وهكذا رواه العَوْفيُّ والوالبيُّ والضَّحاكُ وأبو جمرةَ عن ابنِ عباسٍ قولَه. وهذا أكثرُ وأثْبَتُ

---

(١) **صحيح بشواهده:** «المسند» (١/ ٤٤) من رواية روح وإسحاق، وأبو داود (٤٧٠٣) من رواية القعنبي والترمذي (٣٠٧٥) عن الأنصار عن معن عنه والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٩٠) من رواية قتيبة بن سعيد وابن جرير في «تفسيره» (٦/ الجزء التاسع/ ١١٣) من رواية إبراهيم بن سعيد، عن روح وسعيد بن عبد الحميد، عن مالك، وابن أبي حاتم في «تفسيره»(٨٥٢٩) من رواية يونس بن عبدالأعلى عن ابن وهب عن مالك وابن حبان (٦١٦٦) قلت: والحديث له شواهد وقد مرت بنا، فهو صحيح بشواهده. قال أبو عمر بن عبد البر: هذا الحديث وإن كان عليل الإسناد فإن معناه عن النبي قد روي من وجوه كثيرة، قال الشيخ أحمد شاكر في «تحقيقه للمسند»: أسانيده صحاح، وإن كان ظاهره الانقطاع....ثم قال: نعيم بن ربيعة ذكره ابن حبان في «الثقات» وترجم له البخاري في «الكبير» ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً. قال الشيخ ناصر في «الصحيحة» في كلام له على الحديث التالي: وصححته لغيره في تخريج الطحاوية (٢٦٦).

(٢) **صحيح موقوفًا وله حكم الرفع:** المسند (١/ ٢٧٢) والنسائي «الكبرى» (١١٩١) وابن جرير في «تفسيره» (٦/ الجزء التاسع/ ١١٠، ١١١) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٣٣).

واللهُ أعلمُ. وهكذا رُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو موقوفًا ومرفوعًا، والموقوفُ أصحُّ[١].

واستأنس القائلون بهذا القول؛ وهو أخذُ الميثاق على الذُّرِّيَّة - وهم الجمهور - بما قال الإمامُ أحمدُ[٢]: حدثنا حجّاجٌ، حدثني شُعْبةُ، عن أبي عمرانَ الجَوْنيِّ، عن أنسِ بنِ مالكٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: **«يُقالُ للرجلِ منْ أهلِ النارِ يومَ القيامة: لو كانَ لكَ ما على الأرضِ من شيءٍ أكُنْتَ مُفْتَدِيًا به؟ قال: فيقولُ: نَعَم. فيقولُ: قد أرَدْتُ منكَ ما هو أهْوَنُ من ذلك، قد أخذتُ عليكَ في ظهرِ آدمَ أنْ لا تُشْرِكَ بي شيئًا، فأبَيْتَ إلاَّ أنْ تُشْرِكَ بي»**[٣]. أخرَجاه من حديث شُعْبةَ به. وقال أبو جعفرٍ الرازيُّ[٤]، عن الربيعِ بنِ أنسٍ، عن أبي العاليةِ، عن أُبَيِّ بنِ كعبٍ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآيةُ والتي بعدَها، قال: فَجَمَعَهُم له يومَئذٍ جميعًا ما هو كائنٌ منه إلى يومِ القيامةِ، فَخَلَقَهُم، ثُمَّ صَوَّرَهُم، ثُمَّ استنطَقَهم، فتكلَّموا، وأخذَ عليهمُ العَهْدَ والميثاقَ، وأشْهَدَ عليهم أنفُسَهُم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ الآيةُ. قال: فإنِّي أُشْهِدُ عليكم السَّمواتِ السَّبْعَ والأرَضينَ السَّبْعِ، وأُشْهِدُ عليكم أباكُم آدمَ أنْ لا تقولوا يومَ القيامة: لمْ نعلمْ بهذا. اعْلَموا أنَّه لا إلهَ غَيْري، ولا ربَّ غَيْري، ولا تُشْرِكُوا بي شيئًا، وإنِّي سأُرْسِلُ إليكمْ رُسلاً يُنْذِرونكم عَهْدي وميثاقي، وأُنْزِلُ عليكم كتابي. قالُوا: نَشْهَدُ أنكَ ربُّنا وإلهُنا، لا ربَّ لنا غيرُكَ، ولا إلهَ لنا غيرُكَ. فأقَرُّوا له يومَئذٍ بالطاعة، ورفَعَ أباهُم آدمَ فنَظَر إليهم، فرأى فيهمُ الغنيَّ والفقيرَ، وحَسَنَ الصورةِ ودُونَ ذلك، فقال: يا ربِّ، لو سَوَّيْتَ بينَ عبادِك! فقال: إنِّي أحببتُ أنْ أُشْكَرَ. ورأى فيهم الأنبياءَ مثْلَ السُّرُجِ عليهمُ النورُ، وخُصُّوا بميثاقٍ آخرَ من الرسالةِ والنبوةِ، فهو الذي يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]. وهو الذي يقولُ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]. وفي ذلك قال: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٦]. وفي ذلك قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]. رواه الأئمةُ؛ عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ، وابنُ أبي حاتمٍ، وابنُ جَريرٍ، وابنُ مردويه في «تفاسيرِهم»، مِن طريقِ أبي جعفرٍ، ورُوِي عن مُجاهدٍ، وعكرمةَ، وسعيدِ بنِ جبيرٍ، والحسنِ البصريِّ، وقتادةَ، والسُّدِّيِّ، وغيرِ واحدٍ مِن علماءِ السَّلفِ

---

(١) **قلت:** الصحيح الموقوف، كما قال الحافظ ولكن له حكم المرفوع. قال الشيخ ناصر الألباني رحمه الله «الصحيحة» (ح١٦٢٣) بعد نقل كلام الحافظ هذا: هو كما قال رحمه الله تعالى ولكن ذلك لا يعني أن الحديث لا يصح مرفوعًا. وذلك لأن الموقوف في حكم المرفوع لسببين: الأول: أنه تفسير القرآن... الآخر: أنه له شواهد مرفوعة عن النبي ﷺ عن جمع من الصحابة ثم عدهم. وقد مر بنا جمع منهم، ثم تعجب من قول الحافظ في نفيه الإشهاد عليهم، وذكر بحثًا قيمًا في ذلك، فليراجع.

(٢) المسند (٣/ ١٢٧)، وأيضًا (٣/ ١٢٩) من رواية محمد بن جعفر عن شعبة.

(٣) **متفق عليه:** أحمد في «المسند» (٣/ ١٢٧، ١٢٩) والبخاري (٣٣٣٤) و(٦٥٥٧) من رواية محمد بن جعفر، عن شعبة. ومسلم (٧٠١٤ - ٧٠١٥).

(٤) **حسن لغيره:** زوائد «المسند» (٥/ ١٣٥) من رواية سليمان التيمي، عن أبي العالية وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٥٣٧) وابن جرير في «تفسيره» (٦/ الجزء التاسع/ ١١٥). قلت: هذا الإسناد أعلاه حسن لغيره. أبو جعفر الرازي وهو عيسى بن ماهان ضعيف لكن طريق عبدالله بن أحمد يحسنه ففيه محمد بن يعقوب. ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا وقد تقدم أن عبد الله كان لا يكتب إلا عمن أذن له أبوه فيه (انظر تعجيل المنفعة).

بسياقات تُوافقُ هذه الأحاديث[١] . وتقدَّم أنَّه تعالىٰ لَمَّا أمرَ الملائكةَ بالسجود لآدمَ، امتثلوا كلُّهم الأمرَ الإلهيَّ، وامتنع إبليسُ منَ السجود له؛ حَسَدًا وعَداوةً له، فطردَه اللهُ وأبْعَده، وأخرجَه من الحَضْرَةِ الإلهية، ونَفَاه عنها، وأهْبَطَه إلى الأرضِ طريدًا، ملعونًا، شيطانًا، رجيمًا.

وقد قال الإمامُ أحمدُ[٢] : حدثنا وكيعٌ، ويَعْلَىٰ ومحمدٌ ابنا عُبَيْدٍ، قالوا: حدثنا الأعْمشُ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدةَ فسجَد اعتزلَ الشيطانُ يبكي، يقولُ: يا ويْلَه، أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسجودِ فسجد فلَه الجنةُ، وأُمِرْتُ بالسجودِ فَعَصَيْتُ فليَ النارَ»** . ورواه مسلمٌ من حديث وكيعٍ وأبي معاويةَ، عن الأعمشِ به.

ثم لَمَّا أُسْكِنَ آدمُ الجنةَ التي أُسْكِنَها، سواءٌ كانت في السماء أو في الأرضِ، علىٰ ما تقدَّمَ منَ الخلاف فيه، أقام بها هو وزوجتُه حواءُ عليهما السلامُ يأكُلان منها رَغَدًا حيثُ شاءَا، فلما أكلا منَ الشجرةِ التي نُهيا عنها سُلِبا ما كانا فيه منَ اللِّباسِ، وأُهْبِطا إلى الأرضِ. وقد ذكرنا الاختلافَ في مواضعِ هُبُوطِه منها. واختلفوا في مقدارِ مُقامِه في الجنة فقيل: بعضُ يومٍ من أيامِ الدنيا. وقد قدَّمنا ما رواه مسلمٌ[٣] عن أبي هريرةَ مرفوعًا: **«وخُلِقَ آدمُ في آخرِ ساعة من ساعات يوم الجُمُعَة»**. وتقدَّم أيضًا حديثُه عنه: «**وفيه - يعني يومَ الجمعة - خُلِقَ آدمُ، وفيه أُخْرِجَ منها**». فإنْ كان اليومُ الذي خُلِق فيه، فيه أُخْرِج، وقلنا: إنَّ الأيامَ الستَّةَ كهذه الأيام، فقد لَبِثَ بعضَ يومٍ من هذه. وفي هذا نظرٌ. وإنْ كان إخراجُه في غيرِ اليومِ الذي خُلِقَ فيه، أو قلنا بأنَّ تلكَ الأيامَ مقدارُها ستةُ آلاف سنة كما تقدَّم عن ابنِ عباسٍ ومُجاهدٍ والضَّحَّاك، واختاره ابنُ جريرٍ، فقد لَبِثَ هناك مدةً طويلةً. قال ابنُ جرير: ومعلومٌ أنَّه خُلِق في آخرِ ساعةٍ من يوم الجمعة، والساعةُ منه ثلاثٌ وثمانون سنةً وأربعةُ أشهرٍ، فمكث مُصَوَّرًا طينًا قبلَ أَنْ يُنْفَخَ فيه الرُّوحُ أربعين سنةً، وأقام في الجنة قبلَ أنْ يهبطَ ثلاثًا وأربعين سنةً وأربعةَ أشهرٍ، والله تعالىٰ أعلمُ. وقد رَوَىٰ عبد الرزاق[٤] ، عن هشامِ بنِ حَسَّانَ، عن سَوَّارٍ خَتَنِ عطاءِ بنِ أبي رباحٍ، أنَّه كان لَمَّا أُهْبِط، رِجْلاه في الأرضِ ورأسُه في السماء. فحطَّه اللهُ إلىٰ ستين ذراعًا. وقد رُوِيَ عن ابنِ عباسٍ نحوُه. وفي هذا نظرٌ؛ لِمَا تقدَّم منَ الحديث المتَّفق[٥] علىٰ صحته عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: **«إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ وطولُه ستُّونَ ذراعًا، فلم يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حتى الآنَ»**. وهذا يقتضي أنَّه خُلِق كذلك، لا أطولَ مِن ستين ذِراعًا، وأَنَّ ذريتَه لم يزالوا يتناقصُ خَلْقُهم حتىٰ الآنَ.

وذكر ابنُ جريرٍ[٦] عنِ ابنِ عباسٍ، أنَّ اللهَ قال: يا آدمُ، إنَّ لي حَرَمًا بِحِيالِ عَرْشي، فانطَلِقْ فابْنِ لي

---

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ الجزء التاسع/ ١١٠ - ١١٨).

(٢) صحيح: المسند (٢/ ٤٤٣) ومسلم (٢٤٠).

(٣) مسلم (٦٩٨٥) تفرد به مسلم عن الجماعة. وقد أعل هذا الحديث البخاري في «التاريخ الكبير» في ترجمة أيوب بن خالد فقال: بعد أن ساق السند وبعض المتن. وقال بعضهم عن أبي هريرة، عن كعب، وهو أصح. وأعله أيضًا ابن المديني قال: وما أدري إسماعيل بن أمية أخذ هذا إلا من إبراهيم بن أبي يحيى انظر «الأسماء والصفات» للبيهقي (ح/ ٨١٣). وقد رد الشيخ الألباني رحمه الله على كلام الأئمة بأنها دعاوى عارية عن دليل انظر الصحيحة (١٨٣٣).

(٤) حسن: رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٠٩٠).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) ضعيف: رواه الطبري في «التاريخ» (١/ ٨٠، ٨١) وفيه: هشام بن محمد الكلبي: ضعيف، وأبوه محمد: اتهم بالكذب، وأيضًا فيه: أبوصالح باذام: ضعيف، فالأثر لا يصح.

فيه بَيْتًا فَطُفْ به كما تطوفُ مَلائِكَتِي بِعَرْشِي، وأَرْسَلَ اللهُ له مَلَكًا فعرَّفَه مكَانَه، وعلَّمَه المناسِك. وذكَر أَنَّ مَوْضعَ كُلِّ خُطْوَةٍ خَطاها آدمُ صارتْ قريةً بعدَ ذلك. وعنه، أَنَّ أولَ طعامٍ أكلَه آدمُ في الأرضِ أنْ جاءه جبريلُ بسبعِ حبّاتٍ مِن حِنْطةٍ، فقال: ما هذا؟! قال: هذا مِن الشَّجرةِ التي نُهيتَ عنها فأكلْتَ منها. فقال: وما أصنعُ بهذا؟! قال: ابذُرْه في الأرضِ. فبَذَرَه، وكان كلُّ حبةٍ منها زِنَتُها أزْيَدُ مِن مائةِ ألفٍ، فنبتتْ، فحصدَه، ثم دَرَسه، ثم ذرَّاه، ثم طَحَنَه، ثم عَجَنه، ثم خَبَزَه، فأكله بعدَ جَهدٍ عظيمٍ، وتعبٍ، ونكدٍ، وذلك قولُه تعالىٰ: ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٧]. وكان أولُ كِسْوتِهما مِن شَعْرِ الضَّأْنِ، جزّاه ثم غزَلاه، فنَسَج آدمُ له جُبَّةً ولحواءَ دِرْعًا وخماراً. واختلفوا؛ هل وُلِد لهما بالجنةِ شيءٌ مِن الأولادِ؟ فقِيل: لم يُولدْ لهما إلا في الأرضِ. وقيل: بل وُلِدَ لهما فيها، فكان قابيلُ وأختُه ممن وُلِد بها، واللهُ أعلمُ. وذكروا أنَّه كان يُولَدُ له في كلِّ بطنٍ ذَكَرٌ وأنثىٰ، وأُمِر أن يُزَوِّجَ كلَّ ابنٍ أختَ أخيه التي وُلِدتْ معه، والآخرَ بالأخرىٰ، وهَلُمَّ جرًا، ولم يكنْ تَحِلُّ أختٌ لأخيها الذي وُلِدتْ معه.

ذكرُ قِصَّةِ ابْنَيْ آدمَ قابيلَ وهابيلَ

قال اللهُ تعالىٰ: **﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾** [المائدة: ٢٧-٣١]. قد تكلمنا علىٰ هذه القصةِ في سورةِ «المائدة» في «التفسير» بما فيه كفايةٌ، ولله الحمدُ.

ولنذكرْ هنا ملخَّصَ ما ذكره أئمةُ السَّلفِ في ذلك؛ فذكر السُّدِّيُّ[(١)] ، عن أبي مالكٍ وأبي صالحٍ، عن ابنِ عباسٍ، وعن مُرَّةَ عن ابنِ مسعودٍ، وعن ناسٍ مِن الصحابةِ، أنَّ آدمَ كان يُزَوِّجُ ذَكَرَ كلِّ بطنٍ بأُنثىٰ البطنِ الأخرىٰ، وأَنَّ هابيلَ أراد أنْ يتزوجَ بأختِ قابيلَ، وكان أكبرَ مِن هابيلَ، وأختُ قابيلَ أحسنُ، فأراد قابيلُ أن يستأثرَ بها علىٰ أخيه، وأمره آدمُ عليه السلام أن يزوِّجَه إيّاها فأبىٰ، فأمرهما أنْ يقرِّبا قُرْبانًا، وذهب آدمُ لِيَحُجَّ إلىٰ مكةَ، واستحفظَ السمواتِ علىٰ بنيه فأبَيْنَ، والأَرَضِين والجبالَ فأَبَيْن، فتَقَبَّل قابيلُ بحفْظِ ذلك، فلمَّا ذهبَ آدمُ قَرّبا قُرْبانَهما، فقرَّب هابيلُ جَذَعَةً سمينةً، وكان صاحبَ غنمٍ، وقرّب قابيلُ حزْمةً مِن زرعٍ مِن رديءِ زَرْعِه، فَنزلت نارٌ فأكلتْ قُرْبانَ هابيلَ، وتركتْ قربانَ قابيلَ، فغضب وقال: لأقتُلَنَّك حتىٰ لا تَنْكِحَ أختي. فقال: إنَّما يتقبلُ اللهُ مِنَ المتقين. ورُوِيَ عن ابنِ عباسٍ مِن وُجُوهٍ أُخرَ[(٢)] ، وعن عبدِ اللهِ بنِ

---

(١) حسن: سبق الكلام على هذا الإسناد: ونقلت تصحيح الشيخ أحمد شاكر له. رواه ابن جرير في «تفسيره» (٤/ الجزء السادس/ ١٨٨) و«التاريخ» (١/ ٨٨).

(٢) رواها الطبري في المصدر السابق من طريق سعيد بن جبير والعوفي وأبي صالح وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

عمرو. وقال عبدُ الله بنُ عمرو[1]: وايْمُ الله إنْ كان المقتولُ لأشدَّ الرجلَيْن، ولكنْ منعه التحرُّجُ أنْ يبسُطَ إليه يدَه. وذكَر أبو جعفر الباقرُ، أنَّ آدمَ كان مباشرًا لتقرُّبِهما القربانَ والتقبُّلِ من هابيلَ دونَ قابيلَ، فقال قابيلُ لآدمَ: إنَّما تُقُبِّلَ منه لأنَّك دعوْتَ له ولم تَدْعُ لي. وتوعَّدَ أخاه فيما بينَه وبينَه. فلما كان ذاتَ ليلةٍ، أبطأ هابيلُ في الرَّعيِ، فبعث آدمُ أخاه قابيلَ لينظُرَ ما أبطأ به، فلما ذهب إذا هو به، فقال له: تُقُبِّلَ منك ولم يُتَقَبَّلْ مني؟ فقال: إنما يتقبلُ اللهُ من المتقين. فغضبَ قابيلُ عندَها وضَرَبَه بحديدةٍ كانت معَه فقتله. وقيل: إنه إنما قتله بصَخْرَةٍ رماها على رأسِه وهو نائمٌ فشَدَخَتْه. وقيل: بل خَنَقَه خَنْقًا شديدًا وعَضًّا كما تفعلُ السِّباعُ فمات. واللهُ أعلمُ.

وقولُه له لَمَّا توعَّده بالقتلِ: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. دلَّ على خُلُقٍ حسنٍ، وخَوْفٍ مِنَ الله تعالى، وخَشْيةٍ منه، وتَوَرُّعٍ أنْ يُقابلَ أخاه بالسوءِ الذي أراد منه أخوه مثلَه؛ ولهذا ثبت في «الصَّحيحَين»[2] عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**إذا تواجَه المسلمان بسَيْفَيْهما، فالقاتلُ والمقتولُ في النار**». قالوا: يا رسولَ الله، هذا القاتلُ، فما بالُ المقتول؟ قال: «**إنَّه كان حريصًا على قَتْلِ صاحبه**». وقولُه: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ أي؛ إنِّي أريدُ تركَ مقاتَلَتِك وإنْ كنتُ أشدَّ منك وأقوى، إذ قد عَزَمْتَ على ما عَزَمْتَ عليه ﴿أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي؛ تتحملَ إثْمَ قتلي مع ما لَكَ مِنَ الآثام المتقدِّمة قبلَ ذلك. قاله: مُجاهدٌ والسُّدِّيُّ وابنُ جريرٍ وغيرُ واحدٍ. وليس المرادُ أنَّ آثامَ المقتول تتحولُ بمجردِ قتْلِه إلى القاتلِ، كما قد تَوَهَّمه بعضُ الناسِ، فإنَّ ابنَ جريرٍ حكى الإجماعَ على خلافِ ذلك.

وأمَّا الحديثُ الذي يُورِدُه بعضُ مَنْ لا يعلمُ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**ما تركَ القاتلُ على المقتول من ذَنْب**». فلا أصْلَ له، ولا يُعْرَفُ في شيءٍ من كتب الحديث بسندٍ صحيحٍ ولا حَسَنٍ ولا ضعيفٍ أيضًا. ولكنْ قد يَتَّفِقُ في بعضِ الأشخاصِ يومَ القيامة أن يطالبَ المقتولُ القاتلَ، فتكونَ حسناتُ القاتلِ لا تَفِي بهذه المظلمة، فتُحَوَّلَ من سيئات المقتول إلى القاتلِ، كما ثبت به الحديثُ الصحيحُ في سائرِ المظالمِ، والقتْلُ من أعظمها. واللهُ أعلمُ. وقد حرَّرنا هذا كلَّه في «التفسير»، ولله الحمدُ.

وقد روى الإمامُ أحمدُ[3] ، **وأبو داودَ، والتِّرمذيُّ**، عن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، أنَّه قال عندَ فتْنة عثمان ابنِ عفانَ: أشهدُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّها ستَكونُ فتْنةٌ؛ القاعدُ فيها خيْرٌ منَ القائمِ، والقائمُ خيْرٌ منَ الماشِي، والماشِي خَيْرٌ منَ الساعِي**». قال: أفرأيْتَ إنْ دَخَلَ عليَّ بيتي فبسط يدَه إليَّ ليقتُلَني؟ قال: «كُنْ

---

(١) **صحيح الإسناد:** رواه ابن جرير في «التفسير» (٤/ الجزء السادس/ ١٩١)، و«التاريخ» (١/ ٩٠) ورجاله رجال الصحيحين إلا أبا المغيرة، وثقه ابن حبان، وذكره البخاري في «الكبير» ولم يذكر فيه جرحًا، وترجم له الحافظ في «تعجيل المنفعة» واسمه رافع بن حنين. ضعفه سليمان التيمي، ووثقه يحيى ابن معين انظر «الجرح والتعديل» (٩/ ٢٢٠٣).

(٢) **متفق عليه:** البخاري (٣١ ـ ٦٨٧٥ ـ ٧٠٨٣) مسلم (٧١٨١).

(٣) **صحيح:** رواه أحمد (١/ ١٨٥)، ورواه أبو داود (٤٢٥٧) وزاد رجلاً بين بسر وسعد بن أبي وقاص وهو الحسين بن عبد الرحمن الأشجعي مقبول، والسند رجاله ثقات. ورواه الترمذي (٢١٩٤) بنفس السند أعلاه. رواه الحاكم (٤/ ٤٤١) من طريق آخر بسند صحيح، عن أبي عثمان النهدي، عن سعد ابن أبي وقاص. والحديث مروي عن عدة من الصحابة منهم أبو موسى وابن مسعود وأبو ذر، وغيرهم. انظر سنن أبي داود.

كابنِ آدمَ». ورواه ابنُ مَرْدَوَيْه عن حُذيفةَ ابنِ اليَمَانِ مرفوعًا، وقال: «كُنْ كَخَيرِ ابْنَيْ آدمَ». وروىٰ مسلمٌ[1] وأهلُ «السُّنَنِ» إلاَّ النَّسائيَّ عن أبي ذَرٍّ نحوَ هذا.

وأمَّا الآخرُ فقد قال الإمامُ أحمدُ[2]: حدثنا أبو معاويةَ ووَكِيعٌ، قالا: حدثنا الأعمشُ، عن عبدِالله ابنِ مُرَّةَ، عن مسروقٍ، عن ابنِ مسعودٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا تُقْتَلُ نفسٌ ظُلْمًا إلا كان على ابنِ آدمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِها؛ لأنَّه كانَ أولَ مَنْ سَنَّ القتلَ**». ورواه الجماعةُ سِوىٰ أبي داودَ مِن حديثِ الأعمشِ به. وهكذا رُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ، وإبراهيمَ النَّخَعيِّ أنَّهما قالا مِثْلَ هذا سواءً. وبجبلِ قاسِيونَ. شَماليَّ دِمَشْقَ مَغارَةٌ يُقالُ لها: مغارةُ الدَّمِ. مشهورةٌ بأنَّها المكانُ الذي قَتلَ قابيلُ أخاه هابيلَ عندَها. وذلك مما تَلَقَّوْه عن أهلِ الكتابِ، فاللهُ أعلمُ بصحّةِ ذلك. وقد ذكر الحافظُ ابنُ عساكرَ[3] في ترجمةِ أحمدَ بنِ كثيرٍ، وقال: إنه كان مِنَ الصالحين، أنه رأىٰ النبيَّ ﷺ وأبا بكرٍ وعمرَ وهابيلَ، وأنه استحلفَ هابيلَ أنَّ هذا دَمُه، فَحَلَفَ له، وذكر أنه سأل الله تعالىٰ أنْ يجعلَ هذا المكانَ يُستجابُ عندَه الدُّعاءُ، فأجابه إلىٰ ذلك، وصَدَّقه في ذلك رسولُ الله ﷺ، وقال إنَّه وأبا بكرٍ وعمرَ يزورون هذا المكانَ في كلِّ يومِ خميسٍ. وهذا مَنامٌ لو صحَّ عن أحمدَ بنِ كثيرٍ هذا لم يَتَرَتَّبْ عليه حُكْمٌ شرعيٌّ، واللهُ أعلمُ.

وقولُه تعالى: ﴿**فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ**﴾. ذكر بعضُهم أنَّه لَمَّا قتَله حَمَلَه علىٰ ظهرِه سنةً. وقال آخرون: حمله مائةَ سَنَةٍ، ولم يَزَلْ كذلك حتىٰ بعث اللهُ غرابَيْن - قال السُّدّيُّ[4] بإسنادِه عنِ الصحابة: أخوَيْن - فتقاتلا، فقتل أحدُهما الآخرَ، فلمَّا قتله عَمَدَ إلىٰ الأرضِ فحفَر له فيها، ثم ألقاه ودفَنه وواراه، فلَمَّا رآه يصنعُ ذلك، قال: ﴿**يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ**﴾. ففعل مثلَ ما فعل الغرابُ، فواراه ودفنه.

وذكر أهلُ التواريخِ والسِّيَرِ أَنَّ آدمَ حزِن علىٰ ابنِه هابيلَ حُزْنًا شديدًا، وأَنَّه قال في ذلك شِعْرًا، وهو قولُه فيما ذكره ابنُ جريرٍ، عن ابنِ حُميدٍ[5]:

تغيَّرتِ البلادُ ومَنْ عَلَيْها ... فوَجْهُ الأرضِ مُغْبَرٌّ قَبيحُ
تغيَّر كلُّ ذي طَعْمٍ ولَونٍ ... وقلَّ بَشاشةُ الوجْهِ المَليحِ

فأُجيبَ آدمُ:

أبا هابيل قد قُتلا جميعًا ... وصارَ الحَيُّ كالمَيْتِ الذبيحِ
وجاء بِشَرَّةٍ قد كان منها ... على خوفٍ فجاء بها يصيح

---

(١) **صحيح**: مسلم (٧١٧٦ - ٧١٧٨) من رواية أبي هريرة (٧١٧٩) ومن رواية أبي بكرة، أبو داود (٤٢٦١)، ابن ماجه (٣٩٥٨)، الترمذي (٢١٩٤) من رواية سعد بن أبي وقاص.

(٢) **متفق عليه**: أحمد (١/ ٣٨٣) البخاري (٣٣٣٥)، مسلم (٤٣٥٥)، الترمذي (٢٦٧٣)، النسائي (٧/ ٨٢)، ابن ماجه (٢٦١٦).

(٣) «تاريخ دمشق» (٥/ ١٧٧).

(٤) **حسن**: رواه ابن جرير «التاريخ» (١/ ٨٨) وسبق الكلام على هذا السند.

(٥) **ضعيف**: رواه ابن جرير «التاريخ» (١/ ٩٢)، عن علي رضي الله عنه وفيه ابن حميد: ضعيف، ومنقطع بين أبي إسحاق وعلي رضي الله عنه.

وهذا الشِّعرُ فيه نظرٌ، وقد يكونُ آدمُ عليه السلامُ قال كلامًا يتحزّنُ به بلغته، فألّفه بعضُهم إلى هذا، وفيه إقواءٌ، واللهُ أعلمُ. وقد ذكر مُجاهدٌ[1] أنَّ قابيلَ عُوجِل بالعقوبةِ يومِ قَتَلَ أخاه، فعُلِّقتْ ساقُه إلى فخذِه، وجُعِل وجهُه إلى الشمسِ كيفما دارت؛ تنكيلاً به وتعجيلاً لذنبِه وبَغْيِه وحَسَدِه لأخيه لأبَوَيْه. وقد جاء في الحديثِ[2] عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: **«ما مِن ذَنْبٍ أجْدَرُ أنْ يُعَجِّلَ اللهُ عقُوبتَه في الدنيا مع ما يَدَّخِرُ لصاحبِه في الآخرةِ مِنَ البَغْيِ وقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»**.

والذي رأيتُه في الكتابِ الذي بأيدي أهلِ الكتابِ، الذين يزعمُون أنه التوراةُ، أَنَّ اللهَ عز وجل أجَّلَه وأَنظَره، وأَنَّه سكَن في أرضِ نُودٍ في شرقيِّ عَدَنَ، وهم يسمُّونه قَيْنًا، وأنَّه وُلِدَ له خَنُوخُ، ولِخَنُوخَ، وعُندرُ، ولعندرَ مَحْوَاويلُ، ولمحواويلَ مَتُّوشِيلُ، ولِمَتُّوشِيلَ لامَكُ، وتزوّج هذا امرأتين؛ عَدَا، وَصلاَ، فولدتْ عَدَا وَلَدًا اسمُه أبلُ، وهو أولُ مَن سكن القِبابَ واقتنى المالَ، وولدت أيضًا توبلَ، وهو أولُ مَن أخذ في ضَرْبِ الوَنَجِ والصَّنْجِ. وولدتْ صلاَ ولدًا اسمُه توبلقين، وهو أولُ مَن صنع النُّحاسَ والحديدَ، وبِنتًا اسمُها نُعْمَى. وفيها أيضًا أَنَّ آدمَ طاف على امرأتِه فولدتْ غلامًا ودعتِ اسمَه شِيثَ، وقالتْ: مِن أجلِ أنَّه قد وُهِبَ لي خلفًا مِن هابيلَ الذي قتله قابيلُ. ووُلِدَ لشيثَ أنوشُ. قالوا: وكان عُمرُ آدمَ يومَ وُلِد له شيثُ، مائةً وثلاثين سنةً، وعاش بعدَ ذلك ثمانمائةِ سنةٍ، وكان عمرُ شيثَ يومَ وُلِد له أُنوشُ مائةً وخمسَ سنين، وعاش بعدَ ذلك ثمانمائةِ سنةٍ وسبعَ سنين. ووُلِد له بنونَ وبناتٌ غيرُ أنوشَ، فوُلِد لأنُوشَ قَيْنَانُ وله مِن العمرِ تسعون سنةً، وعاش بعدَ ذلك ثمانمائةِ سنةٍ وخمسَ عشرةَ سنةً، ووُلِدَ له بَنُونَ وبناتٌ، فلَمَّا كان عمرُ قَيْنَانَ سبعين سنةً وُلِد له مَهْلائيلُ، وعاش بعدَ ذلك ثمانمائةِ سنةٍ وأربعين سنةً، ووُلِدَ له بَنُونَ وبناتٌ، فَلَمَّا كان لِمَهْلائيلَ مِن العمرِ خمسٌ وستون سنةً وُلِد له يَرْدُ، وعاش بعدَ ذلك ثمانمائةٍ وثلاثين سنةً، ووُلِدَ له بَنُونَ وبناتٌ، فلَمَّا كان ليَرْدَ مائةُ سنةٍ واثنتان وستون سنةً وُلِدَ له خَنُوخُ، وعاش بعدَ ذلك ثمانمائةِ سنةٍ، ووُلِد له بَنُون وبناتٌ، فلَمَّا كان لِخَنُوخَ خمسٌ وستُّون سنةً وُلِد له مَتُّوشَلَخُ، وعاش بعدَ ذلك ثمانمائةِ سنةٍ، ووُلِدَ له بَنُونَ وبناتٌ، فلَمَّا كان لِمَتُّوشَلَخَ مائةٌ وسبعٌ وثمانون سنةً وُلِدَ له لامَكُ، وعاش بعدَ ذلك سبعَمائةٍ واثنتينِ وثمانينَ سنةً، ووُلِد له بَنُونَ وبناتٌ، فلَمّا كان للامَكَ مِن العمرِ مائةٌ واثنتانِ وثمانون سنةً وُلِد له نوحٌ، وعاش بعدَ ذلك خمسمائةٍ وخمسًا وتسعين سنةً، ووُلِد له بَنُونَ وبناتٌ، فلَمّا كان لنوحٍ خمسُمائةِ سنةٍ وُلِد له بَنُونَ؛ سامٌ، وحامٌ، ويافثُ. هذا مضمونُ ما في كتابِهم صريحًا.

وفي كَوْنِ هذه التواريخِ محفوظةً فيما نزل مِن السماءِ نَظَرٌ؛ كما ذكره غيرُ واحدٍ مِنَ العلماءِ طاعنِين عليهم في ذلك. والظاهرُ أنَّها مُقْحَمَةٌ فيها. ذكرها بعضُهم على سبيلِ الزّيادة والتّفسير، وفيها غَلَطٌ كثيرٌ؛ كما سنذكرُه في مواضِعه إنْ شاء اللهُ تعالى.

---

(١) ضعيف: رواه ابن جرير (٤/الجزء السادس/١٨٧) فيه: رجل مبهم.

(٢) حسن: رواه أحمد (٥/٣٨)، وأبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١) كلهم من طريق عيينة بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي بكرة، وهذا إسناد حسن.

وقد ذكر الإمامُ أبو جعفر بنُ جَرِيرٍ[١] **في «تاريخه»** عن بعضهم أَنَّ حواءَ ولدتْ لآدَم أربعينَ ولدًا في عشرين بطنًا. قاله ابنُ إسحاق، وسمَّاهم، واللهُ تعالىٰ أعلمُ. وقيل: مائةً وعشرين بطنًا، في كلٍّ واحدٍ ذكرٌ وأنثىٰ؛ أوَّلُهم قابيلُ وأختُه قِليما، وآخِرُهم عبدُ المُغيثِ، وأختُه أَمَةُ المُغيثِ، ثم انتشر الناسُ بعدَ ذلكَ، وكَثُروا وامتدُّوا في الأرضِ، ونموا، كما قال الله تعالىٰ: ﴿**يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خلقناكم مِن ذكرٍ وأُنثىٰ**﴾ الآياتُ [الحجرات: ١٣]. وقال تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾ الآيةُ [النساء: ١]. وقد ذكَر أهلُ التاريخِ أنَّ آدمَ عليه السلامُ لم يمتْ حتىٰ رأىٰ مِن ذُرِّيَّته مِن أولاده وأولادِ أولاده أربعينَ ألفَ نسمةٍ، واللهُ أعلمُ. وقال تعالىٰ: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠]. فهذا تنبيهٌ أولاً بذكرِ آدمَ، ثم استَطْرد إلىٰ الجنسِ، وليس المرادُ بهذا ذِكْرَ آدمَ وحواءَ، بل لَمَّا جرَىٰ ذكرُ الشَّخْصِ استطرد إلىٰ الجنسِ، كما في قولِه تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ**﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣]. وقال تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ**﴾ [الملك: ٥]. ومعلومٌ أَنَّ رجومَ الشياطينِ ليست هي أعيانَ مصابيحِ السَّماءِ، وإنَّما استطرَدَ مِن شخصِها إلىٰ جِنْسِها.

فأمَّا الحديثُ الذي رواه الإمامُ أحمدُ[٢]: حدثنا عبدُ الصَّمدِ، حدثنا عمرُ بنُ إبراهيمَ، حدثنا قتادةُ، عنِ الحسنِ، عن سَمُرَةَ، عنِ النبيِّ ﷺ، قال: «**لما وَلَدت حواءُ، طافَ بها إبليسُ، وكان لا يعيشُ لها ولَدٌ، فقال: سَمِّيه عبدَ الحارث، فإنَّه يعيشُ. فسمتّه عبدَ الحارث فعاشَ، وكان ذلك من وَحْيِ الشيطانِ وأَمْرِه**».

وهكذا رواه التِّرمذيُّ، وابنُ جريرٍ، وابنُ أبي حاتمٍ، وابنُ مَرْدَوَيْه في «تفاسيرِهم» عندَ هذه الآيةِ من سورةِ «الأعرافِ»، وأخرجَه الحاكمُ في «مُسْتَدْرَكه»، كلُّهم مِن حديثِ عبدِ الصَّمدِ بنِ عبدِ الوارثِ به.

وقال الحاكمُ: صحيحُ الإسنادِ، ولم يُخَرِّجاه. وقال التِّرمذيُّ: حَسَنٌ غريبٌ لا نعرفُه مرفوعًا إلا من حديثِ عمرَ بنِ إبراهيمَ، ورواه بعضُهم عن عبدِ الصَّمد ولم يرفعْه. فهذه عِلَّةٌ قادحةٌ في الحديث، أنَّه رُوِيَ موقوفًا علىٰ الصحابيِّ[٣]، وهذا أشبهُ، والظاهرُ أَنَّه تلقَّاه مِن الإسرائيليَّات. وهكذا رُوِيَ موقوفًا علىٰ ابنِ عباسٍ[٤]. والظَّاهر أَنَّ هذا مُتَلقَّىٰ عن كعب الأحبارِ ومَن دونَه، واللهُ أعلمُ.

---

(١) ذكره ابن جرير (١/ ٩٢) «التاريخ» عنه بغير إسناد.

(٢) **لا يصح مرفوعًا**: رواه أحمد (٥/ ١١) والترمذي (٣٠٧٧) والحاكم (٢/ ٥٤٥). وفيه: عمر بن إبراهيم: تفرد به قال ابن عدي: يروي عن قتادة أشياء لا يوافق عليها. والحسن: لم يسمع من سمرة إلا حديث العقيقة. راجع ترجمة الحسن في «التهذيب»، ورواه ابن جرير الطبري (٦/ الجزء التاسع/ ١٤٦) ابن أبي حاتم (٨٦٣٧).

(٣) **رجاله ثقات**: رواه ابن جرير (٦/ الجزء التاسع/ ١٤٦) من رواية محمد بن عبد الأعلى قال: حدثنا معتمر، عن أبيه، حدثنا أبو العلاء، عن سمرة: أنه حدث أن آدم عليه السلام: سمى ابنه عبد الحارث.

(٤) **حسن بطرقه**: رواه ابن جرير (٦/ الجزء التاسع/ ١٤٦)، وابن أبي حاتم (٨٦٥٤) بأسانيد مختلفة يُقوي بعضها بعضًا.

وقد فسَّر الحسنُ البصريُّ[١] - راوي الحديث - هذه الآيةَ بخلافِ هذا، فلو كانَ عندَهُ عن سَمُرَةَ مرفوعًا لَما عَدَلَ عنه إلى غَيرِه، والله أعلم. وأيضًا فاللهُ تعالى إنَّما خلق آدمَ وحواءَ ليكونا أصلَ البشرِ، وليبُثَّ منهما رجالاً كثيرًا ونساءً، فكيف كانتْ حواءُ لا يعيشُ لها ولدٌ، كما ذُكِر في هذا الحديثِ إنْ كان محفوظًا؟ والمَظنونُ، بلِ المقطوعُ به، أنَّ رَفْعَه إلى النبيِّ ﷺ خطأٌ، والصوابُ وَقْفُه، واللهُ تعالى أعلمُ، وقد حرَّرنا هذا في كتابِنا «التفسيرِ» ولله الحمدُ.

ثم قد كان آدمُ وحواءُ أتقى لله ممّا ذُكِر عنهما في هذا؛ فإنَّ آدمَ أبو البشرِ الذي خلَقه اللهُ بيدِه، ونفَخ فيه من رُوحِه، وأَسْجَد له ملائكتَه، وعلَّمَه أسماءَ كلِّ شيءٍ، وأَسْكَنَه جنَّتَه.

وقد روى ابنُ حبَّانَ[٢] في «صحيحه» عن أبي ذرٍّ، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، كَمِ الأنبياءُ؟ قال: **«مائةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرون ألفًا»**. قلتُ: يا رسولَ اللهِ، كَمِ الرُّسُلُ منهم؟ قال: **«ثلاثُمائةٍ وثلاثةَ عَشَرَ، جَمٌّ غَفيرٌ»**. قلت: يا رسولَ اللهِ، مَنْ كان أوَّلَهم؟ قال: **«آدمُ»**. قلت: يا رسولَ اللهِ، نبيٌّ مُرْسَلٌ؟ قال: **«نعم، خلقَه اللهُ بيدِه، ثم نفَخَ فيه من رُوحِه، ثم سَوَّاه قُبُلاً»**.

وقال الطَّبراني[٣]: حدثنا إبراهيمُ بنُ نائلةَ الأصبهانيُّ، حدثنا شَيْبانُ بنُ فَرُّوخٍ، حدثنا نافعُ بنُ هُرْمُزَ، عن عطاءِ بنِ أبي رَبَاحٍ، عنِ ابنِ عباسٍ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«ألا أُخْبِرُكُم بأفضلِ الملائكةِ؟ جبريلُ، وأفضلُ النَّبيِّين آدَمُ، وأفضَلُ الأيَّامِ يومُ الجُمُعَةِ، وأفضلُ الشهورِ شهرُ رمضانَ، وأفضلُ الليالي لَيْلَةُ القَدْرِ، وأفضَلُ النِّساءِ مَرْيَمُ بنتُ عِمْرانَ»**. وهَذا إسنادٌ ضعيفٌ، فإنَّ نافعًا أبا هُرْمُزَ هذا كذَّبَه ابنُ مَعِينٍ، وضَعَّفَه أحمدُ، وأبو زُرْعَةَ، وأبو حاتمٍ، وابنُ حِبَّانَ، وغيرُهم، واللهُ أعلمُ.

وقال كعبُ الأحبار: ليس أحدٌ في الجنة له لِحْيَةٌ إلا آدمُ، لحيتُه سوداءُ، إلى سُرَّتِه، وليس أحدٌ يُكْنَى في الجنةِ إلا آدمُ، كُنْيَتُه في الدنيا أبو البشرِ، وفي الجنة أبو محمدٍ.

وقد روى ابنُ عَدِيٍّ[٤] من طريقِ شيخِ ابنِ أبي خالدٍ، عن حمّادِ بنِ سلمةَ، عن عمرِو بنِ دينارٍ،

---

(١) **صحيح**: رواه الطبري (٦/ الجزء التاسع/ ١٤٨) بثلاثة أسانيد مختلفة، أصحها: سعيد عن قتادة عن الحسن، ورواه عبد الرزاق في «التفسير» (٩٦٩).

(٢) **صحيح بمجموع طرقه**: ابن حبان (٣٦١) وفيه: إبراهيم بن هشام: متروك وقد روي هذا الحديث من ثلاثة طرق عن أبي ذر، وهي رواية أبي أدريس الخولاني عنه، وفيها إبراهيم بن هشام من رواية عبيد بن الخشاش عنه وفيها أبو عمر الدمشقي: ضعيف، وعبيد: لينه الحافظ، أحمد (٥/ ١٧٨) ومن رواية عبيد بن عمير عنه، وفيها يحيى بن سعيد السعدي، قال ابن حبان: شيخ يروي عن ابن جريج المقلوبات، رواها الحاكم (٢/ ٥٩٧) من طريقه البيهقي (٩/ ٤). وللحديث طريق آخر من رواية أبي أمامة الباهلي رضي اللّه عنه وفيها معاوية بن رفاعة: لين الحديث، وعلي بن زيد: ضعيف، رواها أحمد (٥/ ١٦٥). وله شاهد بسند حسن عند ابن حبان (٦١٩٠)، والطبراني «الكبير». (٧٥٤٥) من رواية أبي توبة عن معاوية بن سلام، عن زيد بن سلام، عن أبي سلام عنه، وسنده حسن بذكر عدد الرسل فقط.

(٣) الطبراني «الكبير» (١١٣٦١).

(٤) **ضعيف**: ابن عدي في «الكامل» (٤/ ٤٧) في ترجمة شيخ ابن أبي خالد قال ابن عدي: الأحاديث التي رواها عن حماد بن زيد بواطيل كلها.

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ، مرفوعًا: «**أهلُ الجنةِ يُدْعَون بأسمائهم إلا آدمَ، فإنَّه يُكْنَى أبا محمد**». ورواه ابنُ عدي[١] أيضًا، مِن حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، وهو ضعيفٌ من كلِّ وجهٍ، واللهُ أعلمُ.

وفي حديثِ الإسراءِ الذي في «الصحيحين»[٢]، أنَّ رسولَ الله ﷺ لَمَّا مَرَّ بآدمَ وهو في السماءِ الدنيا، قال له: «مرحبًا بالابنِ الصَّالحِ والنَّبيِّ الصالحِ». قال: «**وإذا عن يمينه أَسْوِدَةٌ، وعن يساره أَسْوِدَةٌ، فإذا نظر عن يمينه ضحكَ، وإذا نظر عن شماله بكَى، فقلت: يا جبريلُ، ما هذا؟ قال: هذا آدَمُ، وهؤلاء نسَمُ بَنِيه، فإذا نظَر قِبَلَ أهلِ اليمين، وهم أهلُ الجنةِ، ضَحك، وإذا نظر قِبَلَ أهلِ الشِّمال، وهم أهلُ النَّارِ، بكَى**». هذا معنى الحديث.

وقال أبو بكرٍ البزَّارُ[٣]: حدثنا محمدُ بنُ المُثَنَّى، حدثنا يزيدُ بنُ هارونَ، أنبأنا هشامُ بنُ حسَّانَ، عنِ الحسنِ، قال: كان عَقْلُ آدمَ مثلَ عقْلِ جميعِ ولده.

وقال بعضُ العلماءِ في قوله ﷺ: «فمررتُ بيوسُفَ، وإذا هو قد أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ»[٤]. قالوا: معناه أنَّه كان على النِّصفِ مِن حُسْنِ آدمَ عليه السلامُ. وهذا مناسبٌ، فإنَّ اللهَ خلقَ آدمَ وصوَّرَه بيده الكريمةِ، ونفَخ فيه مِن رُوحه، فما كان ليخْلُقَ إلا أحسنَ الأشياءِ.

وقد رُوِّينا عن عبدِ الله بنِ عمرَ، وابنِ عمرٍو[٥] أيضًا، موقوفًا ومرفوعًا: «**إنَّ اللهَ تعالى لَمَّا خلق الجنةَ قالت الملائكةُ: يا ربَّنا، اجعل لنا هذه، فإنَّك خلقتَ لبني آدمَ الدنيا يأكلُون فيها ويشربُون. فقال اللهُ تعالى: وعزَّتي وجَلالي لا أجْعَلُ صالحَ ذُرِّيَّةِ مَن خلقْتُ بِيَدَيَّ، كَمَنْ قلتُ له: كُنْ. فكان**».

وقد ورد الحديثُ المَرْوِيُّ في «الصحيحين»[٦] وغيرِهما مِن طرقٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ على صُورته**».

وفي غيرِ «الصحيحين» «**إنَّ اللهَ خلق آدمَ على صورةِ الرحمنِ عز وجل**».

وقد تكلَّم العلماءُ على هذا الحديثِ، فذكروا فيه مسالكَ كثيرةً، ليس هذا موضعَ بَسْطِها، واللهُ أعلمُ.

---

(١) **ضعيف**: «الكامل» (٦/ ٣٠٢) في ترجمة محمد بن محمد بن الأشعث قال ابن عدي: متهم في هذه النسخة.

(٢) **متفق عليه**: البخاري (٣٤٩)، مسلم (٤١٣).

(٣) **رجاله ثقات**: رواه ابن عساكر «تاريخ دمشق» (٧/ ٤٤٤)، وقيل: إن هشام بن حسان يرسل عن الحسن. لكن صرَّح بالتحديث عند ابن عساكر.

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم (٤٠٩).

(٥) **موضوع**: الطبراني في «الكبير والأوسط» عزاه إليه الهيثمي رواه البيهقي في «الشعب» (١٤٩) وقال: في ثبوته نظر، والهيثمي في «المجمع» (١/ ٨٢) وقال: فيه إبراهيم بن عبد الله بن خالد، وهو كذَّاب، ورواية «الأوسط» فيها طلحة بن زيد، وهو كذَّاب.

(٦) **متفق عليه**: البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٧٠٩٢).

ذكر وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث

ومعنى شيثَ، هبَةُ الله، وسمَّياه بذلك؛ لأنَّهما رُزقاه بعد أنْ قُتِلَ هابيلُ. قال أبو ذرٍّ في حديثه عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ أنزَل مائةَ صحيفة وأرْبَعَ صُحُفٍ؛ على شيْث خمسينَ صحيفة**»[1] .

قال محمدُ بنُ إسحاقَ: ولما حضرتْ آدمَ الوفاةُ عَهِد إلى ابنه شيثٍ، وعلَّمه ساعاتِ الليلِ والنهارِ، وعلَّمه عباداتِ تلك الساعاتِ، وأعْلَمه بوقوعِ الطُّوفانِ بعدَ ذلك. قال: ويُقَالُ: إنَّ أنسابَ بني آدمَ اليومَ كلَّها تنتهي إلى شيثٍ، وسائرُ أولادِ آدمَ غيرَه انقرضوا وبادُوا، واللهُ أعلمُ.

ولما تُوُفِّيَ آدمُ عليه السلامُ، وكان ذلك يومَ الجمعةِ، جاءَتْه الملائكةُ بحَنُوطٍ وكَفَنٍ مِن عندِ اللهِ عزَّ وجل مِنَ الجنةِ، وعزُّوا فيه ابنَه ووصيَّه شيثَ عليه السلامُ.

قال ابنُ إسحاقَ[2] : وكسفَتِ الشمسُ والقمرُ سبعةَ أيامٍ بلياليهنَّ.

وقد قال عبدُ الله بنُ الإمامِ أحمدَ[3] : حدثنا هُدبةُ بنُ خالدٍ، حدثنا حمادُ بنُ سلمةَ، عن حُميدٍ، عنِ الحسنِ، عن عُتَيٍّ - هو ابنُ ضَمْرَةَ السَّعْديُّ - قال: رأيتُ شيخًا بالمدينةِ يتكلمُ، فسألتُ عنه، فقالوا: هذا أُبَيُّ بنُ كعبٍ. فقال: إن آدمَ لَمَّا حضره الموتُ قال لبَنِيه: أيْ بَنِيَّ، إنِّي أشتَهِي مِن ثمارِ الجنةِ. قال: فذهبوا يطلُبون له، فاستقبلَتْهمُ الملائكةُ ومعهم أكفانُه وحَنُوطُه، ومعهم الفُئُوسُ والمَساحِي والمَكاتِلُ، فقالوا لهم: يا بَنِي آدمَ، ما تريدون وما تَطلُبون - أو: ما تُريدونَ وأينَ تطلُبون - قالوا: أبونا مريضٌ واشتَهَى مِن ثمارِ الجنةِ. فقالوا لهم: ارجعوا فقد قُضِيَ قَضاءُ أبيكم. فجاءُوا، فلما رأتْهم حواءُ عرفَتْهم، فلاذَتْ بآدمَ، فقال: إليكِ عنِّي فإنِّي إنَّما أُتيتُ مِن قِبَلِكِ، فَخَلِّي بَيْنِي وبينَ ملائكةِ ربي عزَّ وجلَّ. فقبضوه، وغسَّلُوه، وكفَّنُوه، وحنَّطوه، وحفَروا له، وألْحَدُوه، وصَلَّوْا عليه، ثم دخلُوا قبْره فوضعوه في قبرِه، ثم حَثَوْا عليه، ثم قالوا: يا بَنِي آدمَ هذه سُنَّتُكم. إسنادٌ صحيحٌ إليه.

وروى ابنُ عساكرَ[4] مِن طريقِ شيْبانَ بنِ فرُّوخٍ، عن محمدِ بنِ زيادٍ، عن ميمونِ بنِ مِهرانَ،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ضعيف: رواه ابن جرير (١/ ١٠٠) فيه: ابن حميد: ضعيف.

(٣) سبق الكلام عليه.

(٤) موضوع: ابن عساكر (٧/٤٥٨) «تاريخ دمشق». رواه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ١٢٩) في ترجمة محمد بن زياد: ونُقل عن أحمد بن حنبل: أن محمد بن زياد: أعور كذاب خبيث يضع الحديث.

عن ابنِ عباسٍ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**كبَّرَتِ الملائكةُ على آدمَ أربعًا**». وكبَّرَ أبو بكرٍ على فاطمةَ أربعًا، وكبَّر عمرُ على أبي بكرٍ أربعًا، وكبَّرَ صُهَيبٌ على عمرَ أربعًا.

قال ابنُ عساكرَ: ورواه غيرُه عن ميمونٍ، فقال: عن ابنِ عمرَ.

واختلفوا في موضعِ دَفْنِه؛ فالمشهورُ أنَّه دُفِنَ عندَ الجبلِ الذي أُهْبِطَ عليه في الهندِ. وقيلَ: بجبلِ أبي قُبَيْسٍ بمكةَ. ويقالُ: إنَّ نوحًا عليه السلامُ لما كان زمنُ الطوفانِ حمَلَه هو وحواءَ في تابوتٍ فدفَنَهما ببيتِ المَقدسِ. حكى ذلك ابنُ جَريرٍ.

وروى ابنُ عساكرَ عن بعضِهم[١] أنَّه قال: رأسُه عندَ مسجدِ إبراهيمَ، ورِجْلاه عندَ صَخْرةِ بيتِ المَقْدسِ. وقد ماتَتْ بعدَه حواءُ بسنةٍ واحدةٍ.

واخْتُلِفَ في مقدارِ عمرِه عليه السلامُ، فقدَّمنا في الحديثِ عن ابنِ عباسٍ وأبي هريرةَ مرفوعًا، أَنَّ عُمُرَه اكْتُتِبَ في اللوحِ المحفوظِ ألفَ سنةٍ[٢].

وهذا لا يعارِضُه ما في التوراةِ مِن أنَّه عاش تِسعَمائةٍ وثلاثين سنةً؛ لأنَّ قولَهم هذا مطعونٌ فيه مردودٌ إذا خالف الحقَّ الذي بأيدينا ممَّا هو المحفوظُ عن المعصومِ.

وأيضًا فإنَّ قولَهم هذا يمكنُ الجمعُ بينَه وبينَ ما في الحديثِ؛ فإنَّ ما في التوراةِ - إنْ كان محفوظًا - محمولٌ على مدةِ مُقامِه في الأرضِ بعدَ الإهباطِ، وذلك تسعُمائةٍ وثلاثون سنةً شمسيةً، وهي بالقمريةِ تسعُمائةٍ وسبعٌ وخمسون سنةً، ويضافُ إلى ذلك ثلاثٌ وأربعون سنةً، مدةُ مُقامِه في الجنةِ قبلَ الإهباطِ، على ما ذكره ابنُ جَريرٍ وغَيْرُه، فيكونُ الجميعُ ألفَ سنةٍ.

قال عطاءٌ الخُراسانيُّ[٣]: لَمَّا مات آدمُ، بكتِ الخلائقُ عليه سبعةَ أيامٍ. رواه ابنُ عساكرَ.

فلمَّا مات آدمُ عليه السلامُ قام بأعباءِ الأمرِ بعدَه ولدُه شيثٌ عليه السلامُ، وكان نبيًّا بنصِّ الحديثِ الذي رواه ابنُ حِبَّانَ[٤] في «صحيحِه» عن أبي ذرٍّ مرفوعًا أنه أُنْزِل عليه خمسونَ صحيفةً. فلمَّا حانتْ وفاتُه، أَوْصَى إلى ابنِه أنوشَ، فقام بالأمرِ بعدَه، ثم بعدَه ولَدُه قَيْنَنُ، ثم مِن بعدِه ابنُه مَهلائيلُ،

---

(١) «تاريخ دمشق» (٧/ ٤٥٨) قول عبد اللَّه بن أبي فراس.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) **ضعيف**: رواه ابن عساكر «تاريخ دمشق» (٧/ ٤٥٩) فيه عمر بن سعيد. ضعيف.
(٤) سبق تخريجه.

وهو الذي تزعُمُ الأعاجمُ مِنَ الفُرْسِ أنَّه مَلَكَ الأقاليمَ السبعةَ، وأنَّهُ أوَّلُ مَن قطَع الأشجارَ وبنىٰ المدائنَ، والحصونَ الكبارَ، وأنَّه هو الذي بنىٰ مدينةَ بابِلَ، ومدينةَ السُّوسِ الأقصَىٰ، وأنَّه قهر إبليسَ وجنودَه وشرَّدهم عنِ الأرضِ إلىٰ أطرافِها وشِعابِ جبالِها، وأنَّه قتل خَلقًا مِن مَرَدَةِ الجنِّ والغِيلانِ، وكان له تاجٌ عظيمٌ، وكان يخطُبُ الناسَ، ودامت دولَتُه أربعينَ سنةً.

فلَمَّا مات، قام بالأمرِ بعدَه ولَدُه يَرْدُ، فَلَمَّا حَضَرَتْه الوفاةُ، أوصَىٰ إلىٰ ولدِه خَنُوخَ، وهو إدريسُ عليه السلامُ علىٰ المشهورِ. واللهُ سبحانَه وتعالىٰ أعلمُ.

* * *

ذكر إدريس عليه السلام

قال اللهُ تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦، ٥٧].

فإدريسُ عليه السلامُ قد أثنىٰ اللهُ عليه، ووَصفَه بالنُّبوَّةِ والصِّدِّيقيَّةِ، وهو خَنُوخُ هذا، وهو في عَمودِ نَسَبِ رسولِ اللهِ ﷺ، علىٰ ما ذكره غيرُ واحدٍ من علماءِ النَّسَبِ. وكان أوَّلَ بَني آدمَ أُعْطِيَ النُّبوةَ بعدَ آدمَ وشيثٍ عليهما السلامُ. وذكر ابنُ إسحاقَ أنَّه أولُ مَن خطَّ بالقلمِ. وقد أدرك مِن حياةِ آدمَ ثلاثَمائةِ سنةٍ وثمانيَ سنينَ. وقد قال طائفةٌ مِنَ النَّاسِ: إنَّه المُشارُ إليه في حديثِ معاويةَ بنِ الحكمِ السُّلَميِّ لمَّا سأَلَ رسولَ اللهِ ﷺ عن الخَطِّ بالرملِ، فقال: «إنَّه كانَ نبيٌّ يخُطُّ بهِ، فمن وافق خطَّه فذاك»[1]. ويزعُمُ كثيرٌ مِن علماءِ التَّفسيرِ والأحكامِ أنَّه أوَّلُ مَن تكَلَّم في ذلك ويُسَمُّونه «هَرْمِسَ الهرامِسة» ويكْذِبون عليه أشياءَ كثيرةً، كما كذَبوا علىٰ غيرِه مِن الأنبياءِ والعلماءِ والحكماءِ والأولياءِ.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾. هو كما ثَبَتَ في «الصحيحين»[2] في حديثِ الإسراءِ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ مَرَّ به وهو في السماءِ الرابعةِ.

وقد روىٰ ابنُ جريرٍ[3] عن يونسَ بنِ عبدِ الأعلىٰ، عن ابنِ وهبٍ، عن جَريرِ بنِ حازمٍ، عن الأعمشِ، عن شِمْرِ بنِ عطيةَ، عن هلالِ بنِ يَسافٍ، قال: سأَلَ ابنُ عباسٍ كعبًا، وأنا حاضرٌ، فقال له: ما قولُ الله تعالىٰ لإدريسَ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾؟ قال كعبٌ: أمَّا إدريسُ فإنَّ اللهَ أوحَىٰ إليه: إنِّي أرفعُ لكَ كلَّ يومٍ مثلَ جميعِ عملِ بني آدمَ - لعلَّه من أهلِ زمانِه - فأَحبَّ أن يزدادَ عملاً، فأتاه خليلٌ له مِن الملائكةِ، فقال: إنَّ اللهَ أوحَىٰ إليَّ كذا وكذا، فَكلِّمْ مَلَكَ الموتِ فليُؤَخِّرْني حتىٰ أزدادَ عملاً. فحمله بينَ جَناحَيْه ثم صَعَدَ به إلىٰ السَّماءِ، فلمَّا كان في السماءِ الرابعةِ تَلَقَّاهم ملكُ الموتِ مُنحدرًا، فكلَّمَ ملكَ الموتِ في الذي كلَّمه فيه إدريسُ، فقال: وأين إدريسُ؟ قال: هو ذا علىٰ ظهري. فقال مَلَكُ الموتِ: فالعجَبُ، بُعِثْتُ وقيل لي: اقْبِضْ رُوحَ إدريسَ في السماءِ الرابعةِ. فجعلْتُ أقولُ: كيف أقبضُ رُوحَه في السَّماءِ الرابعةِ وهو في الأرضِ؟ فقبض رُوحَه هناك. فذلك قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ورواه ابنُ أبي حاتمٍ عندَ تفسيرِها. وعندَه: فقال لذلك المَلَكِ: سَلْ لي مَلَكَ الموتِ كم بَقِيَ مِن عُمُري؟ فسأله وهو معه: كم بَقِيَ مِن عمرِه؟ فقال: لا أدري حتىٰ أنظرَ. فنظر، فقال: إنك لتسألُني عن رجلٍ ما بَقِيَ مِن عمرِه إلا طَرْفةُ عينٍ. فنظر المَلَكُ إلىٰ تحت جناحِه، إلىٰ إدريسَ، فإذا هو قد قُبِضَ وهو لا يشعرُ. وهذا من الإسرائيليَّاتِ، وفي بعضِه نَكَارةٌ. وقولُ ابنِ

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١١٩٩) وأبو داود (٩٣٠) وغيرهما، والنسائي (٣/ ١٤)، وأحمد (٢/ ٣٩٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) **حسن**: ابن جرير في «التفسير» (٩/ الجزء ١٦/ ٩٦).

أبي نَجيحٍ، عن مُجاهدٍ[١] في قولِه: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال: إدريسُ رُفِعَ ولم يَمُتْ كما رُفِع عيسىٰ. إنْ أراد أنَّه لم يَمُتْ إلىٰ الآن، ففي هذا نَظَرٌ، وإنْ أراد أنَّه رُفِع حيًّا إلىٰ السَّماءِ ثم قُبِض هناك، فلا يُنافي ما تقدَّمَ عن كعبِ الأحبارِ، واللهُ أعلمُ. وقال العَوفيُّ، عن ابنِ عباسٍ[٢] في قولِه: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال: رُفِعَ إلىٰ السَّماءِ السادسةِ فمات بها. وهكذا قال الضَّحَّاكُ. والحديثُ المُتَّفقُ عليه من أنَّه في السماءِ الرابعةِ أصحُّ، وهو قولُ مُجاهدٍ وغيرِ واحدٍ. وقال الحسنُ البَصْريُّ ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال: إلىٰ الجنةِ. وقال قائلون: رُفِع في حياةِ أبيه يَرْدَ بنِ مَهْلائيل، واللهُ أعلمُ.

وقد زعَم بعضُهم أنَّ إدريسَ لم يكُنْ قبلَ نوحٍ، بل في زمانِ بني إسرائيلَ.

قال البخاريُّ[٣]: ويُذْكَرُ عنِ ابنِ مسعودٍ وابنِ عباسٍ أنَّ إلياسَ هو إدريسُ. واستأنَسُوا في ذلك بما جاء في حديثِ الزُّهْريِّ عن أنسٍ في الإسراءِ، أنَّه لما مر به عليه السلامُ قال له: مرحبًا بالأخِ الصالحِ والنبيِّ الصالحِ. ولم يَقُلْ كما قال آدمُ وإبراهيمُ: مرحبًا بالنَّبيِّ الصَّالحِ والابنِ الصَّالحِ. قالوا: فلو كان في عمودِ نَسَبِه لقال له كما قال له. وهذا لا يدلُّ - ولابدَّ - علىٰ ذلك؛ لأنه قد لا يكونُ الراوي حَفِظَه جيدًا، أو لعلَّه قاله له علىٰ سبيل الهضْمِ والتواضُعِ، ولم ينتَصِبْ له في مقامِ الأُبُوَّةِ كما انتَصَبَ لآدمَ أبي البشرِ، وإبراهيمَ الذي هو خليلُ الرحمنِ وهو أكبرُ أُولِي العزمِ بعدَ محمدٍ صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ.

قصَّةُ نوحٍ عليه السَّلامُ

هو نوحُ بنُ لامَكَ بنِ متُّوشلخَ بنِ خنوخَ - وهو إدريسُ - بنِ يَرْدَ بنِ مهلائيلَ بنِ قينَنَ بنِ أَنُوشَ بنِ شيثِ بنِ آدمَ أبي البشرِ عليه السلامُ. كان مولِدُه بعدَ وفاةِ آدمَ بمائةِ سنةٍ وستٍّ وعشرين سنةً، فيما ذكره ابنُ جريرٍ وغيرُه. وعلىٰ تاريخِ أهلِ الكتابِ المتقدِّمِ، يكونُ بينَ مولدِ نوحٍ وموتِ آدمَ مائةٌ وستٌّ وأربعون سنةً، وكان بينَهما عشرةُ قرونٍ، كما قال الحافظُ أبو حاتمِ بنُ حِبَّانَ[٤] في «صحيحِه»: حدثنا محمدُ بنُ عمرَ بنِ يوسفَ، حدثنا محمدُ بنُ عبدِ الملكِ بنِ زَنْجُويَه، حدثنا أبو تَوْبَةَ، حدثنا معاويةُ بنُ سَلاَّمٍ، عن أخيه زيدِ بنِ سلاَّمٍ، سمعتُ أبا سلاَّمٍ، سمعتُ أبا أُمامةَ، أنَّ رجلاً قال: يا رسولَ اللهِ، أنَبيٌّ كان آدمُ؟ قال: «**نعمْ، مُكَلَّمٌ**». قال: فكم كان بينَه وبينَ نوحٍ؟ قال: «**عشَرةُ قرونٍ**». قلتُ: وهذا علىٰ شرطِ مسلمٍ، ولم يخرجْه.

---

(١) **صحيح الإسناد**: ابن جرير في «التفسير» (٩/ الجزء ١٦/ ٩٦) ورواية ابن أبي نجيح عن مجاهد أعلَّها يحيى بن سعيد القطان، وصححها الثوري وقد تابع ابن أبي نجيح ابن جريج عنه.

(٢) **سنده ضعيف جداً**: ابن جرير في «التفسير» (٩/ الجزء ١٦/ ٩٦).

(٣) كتاب الأنبياء باب: ﴿وإن إلياس لمن المرسلين﴾ (٦/ ٣٠) الفتح.
قال ابن حجر: قول ابن مسعود وصله عبد بن حميد وابن أبي حاتم بسند حسن
وأما قول ابن عباس وصله جرير في «تفسيره» عن الضحاك عنه، وهذا إسناد ضعيف

(٤) **صحيح الإسناد**: ابن حبان (٦١٩٠) وكذلك رواه الطبراني في «الكبير» (٥٧٤٥) بنفس السند.

وفي «صحيح البخاري»(١)، عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلُّهم على الإسلام. فإن كان المرادُ بالقرن مائة سنة، كما هو المتبادرُ عند كثير من الناس، فبينهما ألفُ سنة لا محالةَ، لكن لا ينفي أن يكونَ أكثرَ باعتبار ما قيَّد به ابنُ عباس بالإسلام؛ إذ قد يكونُ بينهما قرونٌ أُخَرُ متأخرةٌ لم يكونوا على الإسلام، لكنَّ حديثَ أبي أُمامةَ يدلُّ على الحصْر في عشرة قرون، وزادنا ابنُ عباس أنهم كلَّهم كانوا على الإسلام. وهذا يردُّ قولَ مَن زعَم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب، أن قابيلَ وبنيه عبدُوا النَّارَ، واللهُ أعلمُ. وإن كان المرادُ بالقرن الجيلَ من الناس، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. وقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٢]. وقال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]. وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ [مريم: ٧٤]. وكقوله عليه السلام: «خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي» الحديث. فقد كان الجيلُ قبلَ نوح يُعَمَّرون الدُّهورَ الطويلةَ، فعلى هذا يكونُ بين آدمَ ونوح ألوفٌ من السِّنين، واللهُ أعلمُ.

وبالجملة، فنوحٌ عليه السلامُ إنَّما بعثَه اللهُ تعالى لَمَّا عُبِدت الأصنامُ والطواغيتُ، وشرَع الناسُ في الضلالة والكفر، فبعثَه اللهُ رحمةً للعباد، فكان أولَ رسول بُعثَ إلى أهل الأرض، كما يقولُ له أهلُ الموقف يومَ القيامة. وكان قومُه يقالُ لهم: بنو راسب. فيما ذكره ابنُ جرير وغيرُه.

واختلفوا في مقدار سنِّه يومَ بُعث؛ فقيل: كان ابنَ خمسين سنةً. وقيل: ابنَ ثلاثمائة وخمسين سنةً. وقيل: ابنَ أربعمائة وثمانين سنةً. حكاها ابنُ جرير وعزا الثالثَ منها إلى ابن عباس.

وقد ذكر اللهُ قصتَه، وما كان من قومه، وما أنزل بمَن كفَر به من العذاب بالطُّوفان، وكيف أنجاه وأصحابَ السَّفينة، في غير ما موضع من كتابه العزيز؛ ففي «الأعراف»، و«يونس»، و«هود»، و«الأنبياء»، و«المؤمنون»، و«الشعراء»، والعنكبوت»، و«الصافات»، و«اقتربت»، وأنزل فيه سورةً كاملةً، فقال في سورة «الأعراف»: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾

[الأعراف: ٥٩-٦٤].

وقال في سورة «يونس»: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا

(١) قلت: ليس في صحيح البخاري: أخرجه الحاكم (٢/ ٥٤٦) وقال صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه، ورواه: أيضًا الطبري في «التفسير» (٢/ الجزء الثاني/ ٣٣٤) بسند صحيح إلى ابن عباس.

إِلَيَّ وَلا تُنظِرُون ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [٧١-٧٣].

وقال تعالى في سورة «هود»: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلا مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٢٥-٤٩].

وقال تعالى في سورة «الأنبياء»: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

[الشعراء: ٧٦، ٧٧].

وقال تعالى في سورة «قد أفلح المؤمنون»: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾

[المؤمنون: ٢٣-٣٠].

وقال تعالى في سورة «الشعراء»: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

[الشعراء: ١٠٥-١٢٢].

وقال تعالى في سورة «العنكبوت»: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

[العنكبوت: ١٤، ١٥].

وقال تعالى في سورة «الصافات»: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ [الصافات: ٧٥-٨٢].

وقال تعالى في سورة «اقتربت»: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ

عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٩-١٧].

وقال تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ١-٢٨].

وقد تكلمنا على كلِّ موضعٍ من هذه في «التفسير»، وسنذكرُ مضمونَ القصة مجموعًا من هذه الأماكن المتفرقة، ومِمَّا دلَّت عليه الأحاديثُ والآثارُ.

وقد جرى ذكرُه أيضًا في مواضعَ متفرقةٍ من القرآن، فيها مدحُه وذمُّ مَن خالفَه، فقال تعالى في سورة «النساء»: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥]. وقال في سورة «الأنعام»: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ

وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الآيات [الأنعام: ٨٣-٨٧] . وتقدمت قصته في «الأعراف»، وقال في سورة «براءة»: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وتقدمت قصته في «يونس» و«هود»، وقال في سورة «إبراهيم»: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩]. وقال في سورة «سبحان»: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]. وقال فيها أيضًا: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]. وتقدمت قصته في «الأنبياء»، و«المؤمنون»، و«الشعراء»، و«العنكبوت». وقال في سورة «الأحزاب»: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]. وقال في سورة «ص»: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٢-١٤].

وقال في سورة «غافر»: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٥، ٦]. وقال في سورة «الشورىٰ»: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورىٰ: ١٣]. وقال تعالىٰ في سورة «ق»: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢-١٤]. وقال في «الذاريات»: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦]. وقال في «النجم»: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢]. وتقدمت قصته في سورة «اقتربت الساعة»، وقال تعالىٰ في سورة «الحديد»: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]. وقال تعالىٰ في سورة «التحريم»: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

وأمَّا مضمونُ ما جرىٰ له مع قومه، مأخوذًا من الكتاب والسنَّة والآثار، فقد قدمَّنا عن ابن عباس أنَّه كان بينَ آدمَ ونوح عشَرةُ قرون، كلُّهم على الإسلام. رواه البخاريُّ، وذكَرنا أنَّ المرادَ بالقرن الجيلُ أو المدةُ على ما سلَف، ثم بعدَ تلك القرون الصَّالحة حدثت أمورٌ اقتضت أنْ آلَ الحالُ بأهل ذلك الزَّمان إلى عبادة الأصنام، وكان سببُ ذلك ما رواه البخاريُّ[1] من حديث ابن جُريج، عن عطاء، عن ابن عباس عندَ تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]. قال: هذه أسماءُ رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلَكوا أوحَىٰ الشيطانُ إلى قومهم، أن انْصِبوا إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنْصابًا، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعْبَدْ، حتىٰ إذا هلَك أولئك، ونُسِخَ العلمُ، عُبِدَتْ. قال ابنُ عباس: وصارت هذه الأوثانُ التي كانت في قوم نوح في العرب بَعدُ. وهكذا قال عِكْرِمةُ[2] والضحَّاكُ[3] وقَتادةُ[4] ومحمدُ بنُ إسحاق[5].

وقال ابنُ جَرير[6] **في «تفسيره»**: حدثنا ابنُ حُميد، حدثنا مِهرانُ، عن سفيانَ، عن موسىٰ، عن محمد بن قيس، قال: كانوا قومًا صالحين بينَ آدمَ ونوح، وكان لهم أتباعٌ يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابُهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوَّرناهم كان أشوقَ لنا إلى العبادة إذا ذكَرْناهم. فصوَّرُوهم، فلمَّا ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليسُ، فقال: إنَّما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسْقَوْن المطرَ. فعبدوهم. وروىٰ ابنُ أبي حاتم[7]، عن عُروةَ بن الزبير، أنَّه قال: ودٌّ ويغوثُ ويَعوقُ وسُواعٌ ونَسْرٌ أولادُ آدمَ، وكان ودٌّ أكبرَهم وأبرَّهم به.

وقال ابنُ أبي حَاتم:[8] حدثنا أحمدُ بنُ منصور، حدثنا الحسنُ بنُ موسىٰ، حدثنا يعقوبُ، عن أبي المُطَهَّر، قال: ذكروا عندَ أبي جعفر - هو الباقرُ، وهو قائمٌ يصلِّي - يزيدَ بنَ المُهَلَّب، قال: فلما انفتَلَ من صلاته قال: ذكرتُم يزيدَ بنَ المُهلَّب، أما إنه قُتِلَ في أول أرض عُبِدَ فيها غيرُ الله. قال: ذكر ودًّا، رجلاً مسلمًا، وكان مُحبَّبًا في قومه، فلما مات عَسْكَروا حولَ قبره في أرض بابلَ وجَزِعوا عليه، فلَمَّا رأىٰ إبليسُ جَزَعَهم عليه تشبَّه في صورة إنسان، ثم قال: إنِّي أرىٰ جَزعَكم على هذا الرجل، فهل لكم أن أصَوِّرَ لكم مثْلَه، فيكونَ في ناديكم فتَذْكُرونه؟ قالوا: نعمْ. فصوَّر لهم مثْلَه.

---

(١) **صحيح**: البخاري (٤٩٢٠).
(٢) **ضعيف**: رواه ابن جرير (١٤/ الجزء ٢٩/ ٩٩) وسنده: ضعيف فيه: ابن حميد.
(٣) **ضعيف**: رواه ابن جرير (١٤/ ٢٩/ ٩٩) فيه مبهم، وهو شيخ الطبري.
(٤) **صحيح إلى قتادة**: رواه ابن جرير (١٤/ ٢٩/ ٩٩) من رواية سعيد ومعمر عنه.
(٥) **ضعيف إليه**: ابن جرير «التاريخ» (١/ ١١٤) فيه: ابن حميد.
(٦) **ضعيف إليه**: رواه ابن جرير (١٤/ الجزء ٢٩/ ٩٨) فيه ابن حميد ضعيف وكذلك موسى بن عبيد الربذي.
(٧) **ضعيف**: ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٩٩٦) مسلسل بضعفاء ومجاهيل.
(٨) **رجاله ثقات إلى أبي المطهر**: ولم أعرفه من هو، ابن أبي حاتم (١٨٩٩٧).

قال: ووضعوه في ناديهم وجعلوا يذكُرونَه، فلما رأىٰ ما بهم من ذِكْرِه، قال: هل لكم أن أجعلَ في منزلِ كلِّ واحدٍ منكم تمثالاً مثلَه؛ ليكونَ له في بيتِه فتذكرونه؟ قالوا: نعمْ. قال: فمثَّل لكلِّ أهلِ بيتٍ تمثالاً مثلَه، فأقبلوا فجعلوا يذكُرونه به. قال: وأدرك أبناؤُهم فجعلوا يَرَوْن ما يصنعون به. قال: وتناسلوا، ودَرَس أمرُ ذكرِهم إياه، حتىٰ اتخذوه إلهًا يعبدونه من دونِ اللهِ أولادُ أولادِهم، فكان أوّلَ ما عُبِدَ غيرُ اللهِ ودٌّ الصنمُ، الذي سَمَّوه ودًّا.

ومقتضَىٰ هذا السياقِ أنَّ كلَّ صنمٍ من هذه عبَدَه طائفةٌ من الناسِ، وقد ذُكر أنه لما تطاولت العهودُ والأزمانُ، جعلوا تلك الصُّورَ تماثيلَ مُجَسّدةً؛ ليكونَ أثبتَ لها، ثم عُبِدَتْ بعدَ ذلك من دونِ الله عزَّ وجلَّ، ولهم في عبادتِها مسالكُ كثيرةٌ قد ذكرناها في كتابِنا «التَّفسير» في مواضعِها، ولله الحمدُ والمِنَّةُ. وقد ثبَتَ في «الصحيحين»[1] عن رسولِ الله ﷺ أنَّه لما ذكَرتْ عندَه أمُّ سَلَمَةَ وأمُّ حَبيبَةَ تلك الكنيسةَ التي رأَيْنَها بأرضِ الحبشةِ، يُقالُ لها: مارِيَةُ. فذكرتا من حُسْنِها وتصاويرَ فيها قال: «أولئك إذا مات فيهم الرجلُ الصالحُ بَنَوْا على قَبرِه مسجدًا ثم صَوَّرُوا فيه تلك الصُّورَ، أولئكَ شِرارُ الخَلْقِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ».

والمقصودُ أن الفسادَ لما انتشر في الأرضِ، وعمَّ البلاءُ بعُبَّادِ الأصنامِ فيها، بعَث اللهُ عبدَه ورسولَه نوحًا عليه السلامُ، يدعو إلىٰ عبادَةِ اللهِ وحدَه لا شريكَ له، وينهَىٰ عن عبادَةِ ما سواه، فكان أولَ رسولٍ بعثَه اللهُ إلىٰ أهلِ الأرضِ، كما ثبَت في «الصحيحين»[2] من حديثِ أبي حيّانَ، عن أبي زُرْعَةَ ابنِ عمرِو بنِ جَريرٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ عن النبيِّ ﷺ في حديثِ الشَّفاعةِ، قال: «فيأتون آدمَ فيقولون: يا آدمُ، أنت أبو البشرِ، خلقَكَ اللهُ بيده، ونفَخ فيك من رُوحِه، وأمَر الملائكةَ فسجدوا لك، وأسكنَك الجنَّةَ، ألا تشفَعُ لنا إلى ربِّك؛ ألا ترى ما نحن فيه، وما بلَغَنا؟ فيقولُ: ربي قد غَضِب غضبًا لم يغضَبْ قبلَه مثلَه، ولا يغضبُ بعدَه مثلَه، ونهاني عن الشجرةِ فعصيْتُ، نَفسي نَفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوحٍ، فيأتون نوحًا، فيقولون: يا نوحُ، أنت أولُ الرُّسلِ إلى أهلِ الأرضِ، وسمَّاك اللهُ عبدًا شكورًا ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما بَلَغَنا؟ ألا تشفعُ لنا إلى ربِّك عزَّ وجلَّ؟ فيقولُ: ربي قد غَضِب اليومَ غضبًا، لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولا يغضبُ بعدَه مثلَه، نفسي نفسي». وذكر تمامَ الحديثِ بطُولِه، كما أوردَه البخاريُّ في قصةِ نوحٍ. فلما بعَثَ اللهُ نوحًا، عليه السلامُ، دعاهم إلىٰ إفرادِ العبادةِ للهِ وحدَه لا شريكَ له، وأن لا يعبدوا معه صنمًا، ولا تمثالاً، ولا طاغوتًا، وأن يعترفوا بوَحْدانيتِه، وأنه لا إله غيرُه، ولا ربَّ سواه، كما أمَرَ اللهُ تعالىٰ مَن بعدَه منَ الرسلِ الذين هم كلُّهم من ذريتِه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]. وقال فيه وفي إبراهيم:

(١) متفق عليه: البخاري (٤٢٧) ومسلم (١١٨١).
(٢) متفق عليه: البخاري (٣٣٤٠) ومسلم (٤٧٩).

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]. أي؛ كلُّ نبيٍّ من بعد نوح فمن ذريته وكذلك إبراهيمُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ولهذا قال نوحٌ لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وقال: ﴿أَن لا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]. وقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]. وقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝ مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ الآيات الكريمات [نوح: ٢-١٤]. فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة، في الليل والنهار والسرِّ والإجهار، بالترغيب تارةً والترهيب أخرى، وكلُّ هذا فلم يَنْجَحْ فيهم، بل استمرَّ أكثرُهم على الضلالة، والطغيان، وعبادة الأصنام والأوثان، ونَصَبوا له العداوةَ في كلِّ وقتٍ وأوانٍ، وتَنَقَّصُوه وتَنَقَّصوا مَن آمَن به، وتَوَعَّدُوهم بالرَّجم والإخراج، ونالُوا منهم، وبالغوا في أمرهم: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ﴾ أي: السادةُ الكبراءُ منهم ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٠، ٦١]. أي؛ لستُ كما تزعمون من أني ضالٌّ، بل على الهُدَىٰ المستقيم، رسولٌ من ربِّ العالمين، أي؛ الذي يقولُ للشيء: كنْ. فيكونُ ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]. وهذا شأنُ الرسول، أن يكونَ بليغًا، أي: فصيحًا، ناصحًا، أعلمَ الناسِ بالله عزَّ وجلَّ. وقالوا له فيما قالوا: ﴿مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]. تعجَّبوا أنْ يكونَ بَشَرًا رسولاً، وتَنَقَّصوا بِمَن اتَّبعَه ورأَوهُم أراذلَهم، وقد قيل: إنهم كانوا من أقيادِ الناسِ وهم ضعفاؤُهم. كما قال هرَقْلُ: وهم أتباعُ الرسلِ. وما ذاك إلا لأنه لا مانعَ لهم من اتباعِ الحقِّ. وقولُهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي: بمجرد ما دعوتَهم استجابوا لك من غيرِ نَظَرٍ ولا رويَّةٍ. وهذا الذي ذمُّوهم به هو عينُ ما يُمْدَحون بسببه، رضيَ اللهُ عنهم، فإنَّ الحقَّ الظاهرَ لا يحتاجُ إلى رَويَّةٍ ولا فكرٍ، ولا نظرٍ، بل يجبُ اتِّباعُه والانقيادُ له متى ظَهر؛ ولهذا قال رسولُ الله ﷺ مادحًا للصِّدِّيق: «ما دعَوْتُ أحدًا إلى الإسلامِ إلا

كانَتْ له كَبْوةٌ، غيرَ أبي بكر؛ فإنَّه لم يتَلَعْثَمْ»[(١)]. ولهذا كانت بيْعتُه يومَ السَّقيفةِ أيضًا سريعةً مِن غيرِ نظرٍ ولا رَوِيَّةٍ؛ لأنَّ أفضَلِيَّتَه علىٰ مَنْ عَداه ظاهرةٌ جليّةٌ عندَ الصحابةِ، رَضِيَ اللهُ عنهم؛ ولهذا قال رسولُ اللهِ ﷺ لَمَّا أراد أن يكتُبَ الكتابَ الذي أرادَ أن يَنُصَّ فيه علىٰ خلافتِه فتَركَه، وقال: «يأبَى اللهُ والمؤمنون إلا أبا بكر» رضِيَ اللهُ عنه[(٢)]. وقولُ كفرةِ قومِ نوحٍ له ولِمَن آمن به: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: لم يَظْهَرْ لكم أَمْرٌ بعدَ اتّصافكم بالإيمان ولا مَزِيَّةٌ علينا ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هـود: ٢٧، ٢٨]. وهذا تلَطُّفٌ في الخطابِ معهم، وترفُّقٌ بهم في الدعوةِ إلىٰ الحقِّ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طـه: ٤٤]. وقال تعالىٰ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. وهذا منه يقولُ لهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ أي: النبوة والرسالة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فلم تفهموها، ولم تهتدوا إليها ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي: أنَغْصِبُكم بها ونُجْبِرُكم عليها ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أي؛ ليس لي فيكم حِيلَةٌ والحالةُ هذه ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي؛ لستُ أريدُ منكم أُجْرَةً علىٰ إبلاغي إيَّاكم ما ينفعُكم في دنياكم وأخراكم، إنْ أطلبُ ذلك إلا مِن اللهِ الذي ثوابُه خيرٌ لي وأبقىٰ مِمَّا تُعطُونَني أنتم. وقولُه: ﴿مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩]. كأنهم طلبوا منه أنْ يُبْعِدَ هؤلاءِ عنه، ووعدوه أنْ يجتمعوا به إذا هو فعَل ذلك، فأبَىٰ عليهم ذلك، وقال: ﴿إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ فأخاف إنْ طردتُهم أنْ يشكوني إلىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ. ولهذا قال: ﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠]. ولهذا لَمَّا سأل كفارُ قريشٍ رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يطرُدَ عنه ضعفاءَ المؤمنين؛ كعَمَّارٍ، وصُهَيبٍ، وبلالٍ، وخَبَّاب وأشباهِهم، نهاه اللهُ عن ذلك كما بيَّنَّاه في سورتَيِ «الأنعام»، و«الكهف». ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: بل أنا عبدٌ، رسولٌ، لا أعلمُ من علمِ اللهِ إلا ما أَعْلمني به، ولا أَقْدرُ إلا علىٰ ما أَقْدَرَني عليه، ولا أَمْلكُ لنفسي نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء اللهُ ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ يعني من أتباعِه ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا أشهدُ عليهم بأنَّهم لا خيرَ لهم عندَ اللهِ يومَ القيامةِ، اللهُ أعلمُ بهم وسيجازيهم علىٰ ما في نفوسِهم، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ، كما قالوا في الموضعِ الآخرِ: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١١-١١٥].

---

(١) «البداية والنهاية» (٣/ ٢٧) قال ابن كثير: قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن عبد الرحمن أن رسول الله ﷺ، ومحمد: متروك الحديث، ومع ذلك فهو من مراسيله.

(٢) صحيح: مسلم (٦١٣١)، أحمد (٦/ ٣٤ ـ ٤٧ ـ ١٠٦).

وقد تطاول الزمانُ والمجادلةُ بينَه وبينَهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]. أي: ومع هذه المدة الطويلة، فما آمن به إلا القليلُ منهمْ وكان كلَّما انقرَض جيلٌ وَصَّوْا مَن بعدَهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته، وكان الوالدُ إذا بلَغ ولدُه وعَقَل عنه كلامه، وصَّاه فيما بينَه وبينَه أنْ لا يُؤْمِنَ بنوحٍ أبدًا ما عاش، ودائمًا ما بَقِيَ، وكانت سجاياهم تأْبَى الإيمانَ واتباعَ الحقِّ؛ ولهذا قال: ﴿وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

ولهذا قالوا: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٢، ٣٣]. أي: إنما يَقْدِرُ على ذلك اللهُ عزَّ وجلَّ، فإنَّه الذي لا يُعْجِزُه شيءٌ، ولا يَكْتَرِثُه أمرٌ، بل هو الذي يقولُ للشيء: كُنْ. فيكونُ. ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤]. أي: مَن يُرِدِ اللهُ فتنَته فلن يملِكَ أحدٌ هدايتَه، هو الذي يهدي مَن يشاءُ، ويضلُّ مَن يشاءُ، وهو الفَعَّالُ لما يريدُ، وهو العزيزُ، الحكيمُ، العليمُ بمَن يستحقُّ الهدايةَ، ومَن يستحقُّ الغوايةَ، وله الحكمةُ البالغةُ والحُجةُ الدامغةُ ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلا مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]. وهذه تعزيةٌ لنوحٍ عليه السلامُ، في قومه أنَّه لن يؤمنَ منهم إلا مَن قد آمَن، وتسليةٌ له عما كان منهم إليه ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: لا يَسُوأَنَّكَ ما جرَىٰ، فإنَّ النصرَ قريبٌ، والنبأَ عجيبٌ ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ وذلك أنَّ نوحًا، عليه السلامُ، لما يَئِسَ من صلاحِهم وفلاحِهم، ورأىٰ أنَّهم لا خيرَ فيهم، وتوصَّلوا إلىٰ أذيتِه، ومُخالَفتِه، وتكْذيبِه بكلِّ طريقٍ، من فعالٍ ومَقالٍ، دعا عليهم دعوةَ غضَبٍ لله فلبَّىٰ اللهُ دعوتَه، وأجاب طِلْبتَه، قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٥، ٧٦]. وقال تعالىٰ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦]. وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨]. وقال تعالىٰ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]. وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦]. وقال تعالىٰ: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٥-٢٧]. فاجتمَع عليهم خطاياهم؛ من كفرِهم، وفجورِهم، ودعوةِ نبيِّهم عليهم، فعندَ ذلك أمرَه اللهُ تعالىٰ أنْ يصنَعَ الفُلْكَ؛ وهي السفينةُ العظميةُ التي لم يكنْ لها نظيرٌ قبْلَها، ولا يكونُ بعدَها مثلُها، وتقدَّم اللهُ تعالىٰ إليه أنه إذا جاء أمرُه، وحَلَّ بهم بأسُه الذي لا يُرَدُّ عن القومِ المجرمين، أنَّه لا يعاودُه فيهم ولا يُراجعُه؛

فإنَّه لعلَّه قد تُدْرِكُه رِقّةٌ على قومه عندَ مُعاينَة العذاب النازل بهم، فإنَّه ليس الخَبرُ كالمعاينة؛ ولهذا قال: ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي: يستهزئون به، استبعاداً لوقوع ما توعّدَهم به ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ أي: نحن الذين نسخَرُ منكم، ونتعجّبُ منكم في استمراركم على كفركم وعنادكم الذي يَقتضي وقوعَ العذابِ بكم، وحُلُولَه عليكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وقد كانت سَجاياهم الكفرَ الغليظَ، والعناد البالغَ في الدنيا، وهكذا في الآخرة؛ فإنَّهم يجحَدُون أيضًا أنْ يكونَ جاءهم مِن الله رسولٌ، كما قال البخاري[1]: حدثنا موسى بنُ إسماعيلَ، حدثنا عبدُ الواحدِ بنُ زيادٍ، حدثنا الأَعْمشُ، عن أبي صالحٍ، عن أبي سعيدٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يجيءُ نوحٌ، عليه السّلامُ، وأُمَّتُه، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: هل بلَّغْتَ؟ فيقولُ: نعمْ، أي ربِّ. فيقولُ لأمته: هل بلَّغَكُم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبيٍّ. فيقولُ لنُوح: مَن يَشْهَدُ لك؟ فيقولُ: محمدٌ وأُمَّتُه. فَتَشْهَدُ أَنَّه قَد بَلَّغَ**». وهو قولُه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

والوسَطُ: العَدْلُ. فهذه الأمةُ تشهدُ على شهادةِ نَبِيِّها الصّادقِ المصدوقِ، بِأَنَّ اللهَ قد بعث نوحًا بالحقِّ، وأنزلَ عليه الحقَّ وأمره به، وأَنَّه بَلَّغه إلى أمته على أكملِ الوجوهِ وأَتَمِّها، ولم يَدَعْ شيئًا مِمَّا يَنْفَعُهم في دينِهم إلاَّ وقد أمَرَهم به، ولا شيئًا مِمَّا قد يضرُّهم إلا وقد نهاهُم عنه وحذَّرَهم منه، وهكذا شأْنُ جميعِ الرسلِ، حتى إنَّه حَذَّر قومَه المسيحَ الدَّجالَ، وإنْ كان لا يَتَوقَّعُ خروجَه في زمانِهم؛ حَذَرًا عليهم، وشفقةً ورحمةً بهم، كما قال البخاري[2]: حدثنا عَبْدانُ، حدثنا عبدُ الله، عن يونُسَ، عن الزُّهْرِيِّ، قال سالمٌ: قال ابنُ عمرَ: قام رسولُ الله ﷺ في الناسِ، فأَثْنَى على الله بما هو أهلُه، ثم ذَكَرَ الدَّجَّالَ، فقال: «**إِنِّي لأُنْذِرُكُمُوه، وما مِنْ نبيٍّ إلا وقد أَنْذَرَه قَوْمَه؛ لقد أَنْذَرَ نُوحٌ قَوْمَه، ولكنِّي أقولُ لكم فيه قَولاً لم يَقُلْه نَبِيٌّ لِقَومه: تعلمُون أَنَّه أَعْوَرُ، وأنّ اللهَ ليس بأعْورَ**». وهذا الحديثُ في «الصحيحين»[3] أيضًا مِن حديثِ شَيْبانَ بنِ عبدِ الرحمنِ، عن يحيى بنِ أبي كثيرٍ، عن أبي سَلَمَةَ ابنِ عبدِ الرحمن، عن أبي هُريرَةَ، عن النّبيِّ ﷺ قال: «**ألا أُحدِّثُكم عن الدَّجّال حَديثًا ما حَدَّثَ به نَبِيٌّ قَومَه؟ إنَّه أَعْورُ، وإنه يَجيءُ معه بِمِثالِ الجَنَّةِ والنَّارِ، فالتي يقولُ: إنها الجنةُ. هي النَّارُ، وإنِّي أُنْذِرُكُمْ، كما أَنْذَرَ به نُوحٌ قَوْمَه**». لفظُ البخاريِّ.

قد قال بعضُ علماء السلف: لما استجاب اللهُ له أمرَه أنْ يَغْرِسَ شجرًا ليعملَ منه السفينةَ، فغرسه وانتظَره مائةَ سَنَةٍ، ثم نَجَرَه في مائةٍ أخرى، وقيل: في أَرْبَعِينَ سَنَةً. فاللهُ أعلمُ.

---

(١) **صحيح:** البخاري (٣٣٣٩)، الترمذي (٢٩٦١)، النسائي «الكبرى» (١١٠٠٧) ابن ماجه (٤٢٨٤).

(٢) **متفق عليه:** البخاري (٣٣٣٧)، وكذلك مسلم (٧٢٨٣).

(٣) **متفق عليه:** البخاري (٣٣٣٨) مسلم (٧٢٩٨).

قال محمدُ بنُ إسحاقَ[١] ، عن الثَّوْريِّ: وكانت مِن خشبِ السَّاجِ. وقيل: منَ الصَّنَوْبَرِ. وهو نَصٌّ التوراةِ. قال الثوريُّ: وأمَرَه أنْ يجعلَ طولَها ثمانين ذِراعًا، وعَرْضَها خمسينَ ذِراعًا، وأنْ يَطْلِيَ ظَاهِرَها وباطِنَها بالقارِ، وأنْ يجعلَ لها جُؤْجُؤًا أزورَ يُشقُّ الماءَ. وقال قَتادةُ[٢] : كان طولُها ثلاثَمائةِ ذراعٍ في عَرْضِ خمسينَ ذِراعًا. وهذا الذي في التوراةِ على ما رأيتُه. وقال الحسنُ البصريُّ[٣] : ستُّمائةٍ في عرضِ ثلاثِمائةٍ. وعن ابنِ عباسٍ[٤] : ألفٌ ومائتا ذِراعٍ في عرضِ ستِّمائةِ ذراعٍ. وقيل: كان طولُها ألْفَيْ ذِراعٍ، وعرضُها مائةَ ذِراعٍ. قالوا: كلُّهم: وكان ارتفاعُها ثلاثين ذِراعًا، وكانت ثلاثَ طَبَقاتٍ، كلٌّ واحدةٍ عشَرةُ أَذْرُعٍ، فالسُّفْلى للدوابِّ والوحُوشِ، والوُسْطَى للناسِ، والعُلْيا للطُّيورِ، وكان بابُها في عَرْضِها، ولها غِطاءٌ مِن فوقِها مُطْبَقٌ عليها.

قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٦]. أي: بأمرِنا لك، وبمرأًى منَّا لصَنْعَتِك لها ومُشاهَدَتِنا لذلك؛ لنرشدَكَ إلى الصواب في صنعَتِها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]. فتقدَّمَ إليه بأمرِه العظيمِ العالي؛ أنّه إذا جاء أمرُه وحلَّ بأسُه أَنْ يحملَ في هذه السفينةِ مِن كلٍّ زوجين اثنين؛ مِن الحيواناتِ، وسائرِ ما فيه روحٌ من المأكولاتِ وغيرِها؛ لبقاءِ نَسْلِها، وأن يحملَ معه أهلَه، أي: أهلَ بيتِه. ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي: إلا مَن كان كافراً، فإنَّه قد نفَذت فيه الدعوةُ التي لا تُرَدُّ، ووجَب عليه حُلولُ البأسِ الذي لا يُرَدُّ، وأمَره أن لا يراجعَه فيهم إذا حلَّ بهم ما يعاينُه مِنَ العذابِ العظيمِ، الذي قد حتَّمه عليهم الفَعَّالُ لِمَا يريدُ، كما قدَّمنا بيانَه قَبْلُ.

والمرادُ بالتَّنُّورِ عند الجمهورِ وجهُ الأرضِ. أي: نَبَعت الأرضُ مِن سائرِ أرجائِها، حتى نَبَعت التَّنانيرُ؛ التي هي مَحالُّ النارِ. وعن ابنِ عباسٍ[٥] : التَّنُّورُ، عينٌ في الهند. وعن الشَّعْبيِّ[٦]: بالكوفةِ[٧] . وعن قَتادةَ بالجزيرةِ[٨] . وقال عليُّ بنُ أبي طالبٍ: المرادُ بالتَّنُّورِ فَلَقُ الصُّبحِ وتنويرُ الفجرِ، أي: إشراقُه وضياؤه. أي: عند ذلك فاحملْ فيها مِن كل زوجين اثنين. وهذا قولٌ غريبٌ.

---

(١) ضعيف الإسناد: رواه ابن جرير في «التاريخ» (١/ ١١٣) من قوله، فيه: ابن حميد.
(٢) حسن إلى قتادة: رواه ابن جرير (٧/ الجزء ٢٢/ ٣٥).
(٣) ضعيف إلى الحسن: رواه ابن جرير نفس المصدر، وفيه: مبارك بن فضاله: ضعيف ويدلس وقد عنعن.
(٤) ضعيف إلى ابن عباس: رواه ابن جرير (٧/ الجزء ٢٢/ ٣٥) فيه: سنيد وعلي بن زيد ويوسف بن مهران مضعفون، وابن مهران لم يلق ابن عباس.
(٥) منكر: ابن أبي حاتم (١٠٨٦١) وابن جرير (٧/ الجزء ١٢/ ٤٠) وفيه النضر بن عبد الرحمن: متروك، ورواه أيضًا: الحاكم (٢/ ٣٤٢).
(٦) ضعيف جدًا عنه: ورواه ابن جرير (٧/ الجزء ١٢/ ٤٠) فيه السري بن إسماعيل: متروك.
(٧) ضعيف إلى قتادة: رواه ابن أبي حاتم (١٠٨٦٠) فيه: سعيد بن بشير: ضعيف.
(٨) ضعيف: ابن أبي حاتم (١٠٨٥٧) والطبري (٧/ الجزء ١٢/ ٣٨) وفيه: عبد الرحمن بن إسحاق: ضعيف، وزياد مولى أبي جحيفة: وهو ابن زيد السوائي: مجهول.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. هذا أمرٌ ثانٍ عند حُلول النِّقمة بهم، أن يحملَ فيها مِن كلٍّ زوجين اثنين، وفي كتاب أهلِ الكتاب أنه أُمر أن يَحملَ من كلِ ما يؤكَلُ سبعةَ أزواجٍ، ومما لا يُؤكَلُ زوجين؛ ذكرًا وأنثى. وهذا مُغايرٌ لمفهومِ قولِه تعالى في كتابِنا الحقِّ: ﴿اثْنَيْنِ﴾ إنْ جعلنا ذلك مفعولاً به، وأما إنْ جعلناه توكيدًا لزوجين، والمفعولُ به محذوفٌ، فلا تَنافِيَ. واللهُ أعلمُ.

وذكر بعضُهم، ويُروَىٰ عن ابنِ عباسٍ(١)، أن أولَ ما دخل من الطيورِ الدُّرَّةُ، وآخرَ ما دخل من الحيواناتِ الحمارُ، ودخل إبليسُ متعلِّقًا بذَنَبِ الحمارِ.

وقال ابنُ أبي حاتم(٢): حدثنا أبي، حدثنا عبدُ الله بنُ صالحٍ، حدثني اللَّيثُ، حدثني هشامُ بنُ سعيدٍ، عن زيدِ بنِ أسلمَ، عن أبيه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**لَمَّا حَملَ نوحٌ في السفينةِ من كُلٍّ زوجين اثنين، قال أصحابُه: وكيف نطمئنُّ ـ أو: كيف تطمئنُّ المواشي ـ ومعنا الأسدُ؟ فسلَّطَ اللهُ عليه الحُمَّى. فكانت أولَ حُمَّى نزلت في الأرضِ، ثم شكَوُا الفَأرَةَ، فقالوا: الفُوَيْسِقَةُ تُفْسِدُ علينا طعامَنا ومتاعَنا. فأوحَى اللهُ إلى الأسد فعطَس، فخرجت الهِرَّةُ منه فتَخبَّأت الفأرَةُ منها**». هذا مُرْسلٌ. وقولُه: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: مَن استَجبْتُ فيهم الدعوةَ النافذةَ ممَّنْ كفَر. فكان منهم ابنُه يامٌ الذي غَرِق، كما سيأتي بيانُه ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أي: واحملْ فيها مَن آمن بك من أُمَّتك، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. هذا مع طولِ المدَّةِ والمُقامِ بينَ أظهرِهم، ودعوتِهم الأكيدةِ ليلاً ونهارًا، بضروبِ المقالِ وفنونِ التَّلطُّفاتِ، والتهديدِ والوعيدِ تارةً، والترغيبِ والوعدِ أخرىٰ.

وقد اختُلِف في عدَّةِ مَن كان معه في السفينةِ؛ فعن ابنِ عباسٍ(٣): كانوا ثمانين نَفْسًا، معهم نساؤُهم. وعن كَعْبِ الأحبارِ(٤): كانوا اثنين وسبعين نَفْسًا. وقيل: كانوا عشرةً. وقيل: إنما كانوا نوحًا وبَنِيه الثلاثةَ وكَنَائنَه الأربعَ، بامرأةِ يامٍ الذي انخزل وانعزَل وسلَك غيرَ طريقِ النجاةِ، فما عَدَلَ إذْ عَدَلَ. وهذا القولُ فيه مخالفةٌ لظاهرِ الآيةِ، بل هي نصٌّ في أنَّه قد ركِب معه من غيرِ أهلِه طائفةٌ ممَّن آمن به؛ كما قال: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨]. وقيل: كانوا سبعةً. وأما امرأةُ نوحٍ ـ وهي أُمُّ أولادِه كلِّهم؛ وهم حامٌ وسامٌ ويافِثُ ويامٌ، وتُسمِّيه أهلُ الكتابِ كنعانَ، وهو الذي غرِق، وعابرُ، وقد مات قبلَ الطوفانِ ـ قيل: إنها غَرِقت مع مَن غَرِق، وكانت مِمَّن سبَق عليه القولُ؛ لكُفْرِها. وعندَ أهلِ الكتابِ، أنها كانت في السفينةِ. فيَحْتَملُ أنها كفَرت بعدَ ذلك، أو أنها

---

(١) **منكر**: رواه ابن أبي حاتم (٨٦٣٧) والطبري (٧/ ١٢/ ٣٦ ـ ٣٧) وفيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف، والحسن بن دينار متروك.

(٢) **مرسل ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١٠٨٧١). وفيه: أبو صالح كاتب الليث: ضعيف.

(٣) **حسن بمجموع طرقه**: رواه ابن أبي حاتم (١٠٨٦٤) من طريق أبي نهيك عن ابن عباس، و(١٠٨٦٥) من طريق عكرمة عن ابن عباس، ورواه: الطبري (٧/ الجزء١٢/ ٤٣) من رواية ابن جريج عن ابن عباس.

(٣) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١٠٨٧٨)، وفيه ابن لهيعة: ضعيف، وكذلك سعيد بن بشير.

أُنظِرَت ليومِ القيامة، والظاهرُ الأولُ؛ لقوله: ﴿لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].
قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨، ٢٩]. أَمَره أَنْ يَحْمَدَ ربَّه على ما سَخَّر له من هذه السفينة، فنَجَّاه بها، وفتح بينَه وبينَ قومه، وأَقَرَّ عينَه ممّن خالفه وكذّبه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢-١٤]. وهكذا يُؤْمَرُ بالدعاءِ في ابتداءِ الأمورِ، أن يكونَ على الخيرِ والبركة، وأنْ تكونَ عاقبتُها محمودةً؛ كما قال تعالى لرسوله ﷺ حينَ هاجر: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]. وقد امتَثل نوحٌ عليه السلامُ هذه الوصيةَ ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. أي: على اسمِ الله ابتداءُ سيرِها وانتهاؤُه ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. أي؛ وذو عقاب أليمٍ، مع كَوْنِه غفورًا رحيمًا، لا يُرَدُّ بأسُه عن القومِ المجرمين، كما أَحلَّ بأهلِ الأرضِ الذين كفروا به وعبدوا غيرَه. قال اللهُ تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ وذلك أن اللهَ تعالى أرسل من السماءِ مطرًا لم تعهَدْه الأرضُ قبلَه، ولم تُمْطَرْه بعدَه، كان كأَفواه القِرَب، وأَمر الأرضَ فَنَبَعتْ من جميعِ فجاجِها، وسائرِ أرجائها؛ كما قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٠-١٣]. والدُّسُرُ: المساميرُ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بحفْظِنا وكلاءتنا وحراستِنا، ومشاهدتِنا لها، ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾.

وقد ذكرَ ابنُ جريرٍ وغيرُه، أن الطوفانَ كان في ثالثَ عشرَ شهرِ آبٍ في حَمَارَةِ القَيْظ. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ أي: السفينةِ ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ قال جماعةٌ مِن المفسّرين: ارتفع الماءُ على أعلى جبلٍ بالأرضِ خمسةَ عشرَ ذراعًا. وهو الذي عندَ أهلِ الكتابِ. وقيل: ثمانين ذراعًا. وعَمَّ جميعَ الأرضِ؛ طولَها والعرضَ، سَهْلَها وحَزْنَها، وجبالَها وقِفارَها ورِمالَها، ولم يبقَ على وجهِ الأرضِ ممَّن كان بها من الأحياءِ عينٌ تَطْرِفُ، ولا صغيرٌ ولا كبيرٌ.

قال الإمامُ مالكٌ، عن زيد بنِ أسلمَ: كان أهلُ ذلك الزمانِ قد مَلَئُوا السَّهْلَ والجبلَ. وقال عبدُالرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ: لم تَكنْ بقعةٌ في الأرضِ إلا ولها مالكٌ وحائزٌ. رَواهما ابنُ أبي حاتمٍ.
﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢، ٤٣]. وهذا الابنُ هو يامٌ، أخو سامٍ وحامٍ ويافثَ، وقيل: اسمُه كَنْعَانُ. وكان كافرًا عاملاً غيرَ صالحٍ، مُخالفًا أباه في دينِه ومذهبِه، فهلَك مع مَن هَلَك. هذا وقد نجا مع أبيه الأجانبُ في النَّسبِ؛ لَمَّا كانوا مُوافِقِين في الدينِ والمذهبِ ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ

﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. أي: لما فُرغ من أهلِ الأرضِ، ولم يبقَ منها أحدٌ ممن عَبَدَ غيرَ الله عزَّ وجلَّ، أمر اللهُ الأرضَ أنْ تبلعَ ماءَها، وأمر السماءَ أن تُقلعَ، أي تُمسكَ عن المطر ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾. أي: نَقَصَ عمَّا كان ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾. أي: وقع بهم الذي كان قد سبَقَ في علمه وقَدَرِه، من إحلاله بهم ما حلَّ بهم ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: نُودِيَ عليهم بلسانِ القُدْرة: بُعداً لهم من الرحمة والمغفرة. كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤]. وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]. وقال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧]. وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١١٩ - ١٢٢]. وقال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤، ١٥]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ [الصافات: ٨٢]. وقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥ - ١٧]. وقال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٥ - ٢٧]. وقد استجاب اللهُ تعالى، وله الحمدُ والمنَّةُ، دعوتَه فلم يبقَ منهم عينٌ تَطْرِفُ.

وقد روى الإمامان: أبو جعفر ابنُ جَرير، وأبو محمد ابنُ أبي حاتم، في «تفسيرَيْهما»[1] من طريقِ موسى بن يعقوبَ الزَّمْعيِّ، عن فائدٍ مولى عبيد الله بنِ أبي رافعٍ، أنَّ إبراهيمَ بنَ عبد الرحمنِ ابنِ أبي ربيعةَ، أخبرَه أنّ عائشةَ أمَّ المؤمنين أخبرتْه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «فلو رَحِمَ اللهُ من قومِ نُوحٍ أحداً لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبيِّ». قال رسولُ الله ﷺ: «مكثَ نوحٌ، عليه السلام، في قومِه ألفَ سَنَةٍ - يَعْني إلا خمسين عاماً - وغَرَسَ مائةَ سنةِ الشَّجَرَ، فعَظُمَتْ وذَهَبَتْ كُلَّ مَذْهَبٍ، ثم قَطَعَها ثم جعَلَها سفينةً، ويَمُرُّونَ عليه ويَسْخَرُونَ منه، ويقولُونَ: تَعْمَلُ سفينةً في البَرِّ! كيف تَجْري؟ قال: سوف تَعْلَمُون. فلمّا فرغَ ونَبَعَ الماءُ وصار في السِّكَكِ، خَشِيَتْ أُمُّ الصبيِّ عليه، وكانتْ تُحبُّه حُبًّا شديداً، خَرَجَتْ به إلى الجَبَلِ، حتى بلغَتْ ثُلُثَه، فلمَّا بلغَهَا الماءُ خَرَجَتْ به حتى استَوَتْ على الجَبَلِ، فلمَّا بلغَ الماءُ رَقَبَتَها رفَعَتْه بيَدَيها، فَغَرِقَا، فلو رَحِمَ اللهُ منهم أحدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبيِّ». وهذا حديثٌ غريبٌ. وقد رُوِيَ عن كعبِ الأحبارِ، ومجاهدٍ، وغيرِ واحدٍ شبيهٌ لهذه القصةِ، وأحْرَىٰ بهذا الحديثِ أن يكونَ موقوفًا، مُتلقًّى

---

(١) **ضعيف**: ابن جرير (٧/ ١٢/ ٣٥). ابن أبي حاتم (١٨٩٩٨) ورواه أيضًا الحاكم (٢/ ٣٤٢ - ٥٤٧) وقال: صحيح ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي وقال: إسناده مُظلم، موسى بن يعقوب ليس بذاك. وله شاهد من حديث ابن عباس رواه: ابن أبي حاتم. فيه: شبيب بن سعيد: ضعيف خاصة إذا كانت من رواية ابن وهب عنه.

عن مثلِ كعب الأحبار. والله أعلم.

والمقصودُ، أن اللهَ لم يُبْقِ من الكافرين ديَّارًا، فكيف يزعُمُ بعضُ المفسرين أن عُوجَ بنَ عُنُقَ، ويُقالُ: ابنُ عَنَاقَ، كان موجودًا من قبلِ نوحٍ إلى زمان موسى؟! ويقولون: كان كافرًا مُتمرِّدًا جَبَّارًا، عنيدًا. ويقولون: كان لغيرِ رِشْدةٍ، بل ولدتْه أمُّه عُنُقُ بنتُ آدمَ من زنًا، وأنه كان يأخذُ من طوله السمكَ من قرارِ البحارِ، ويَشْويه في عينِ الشمسِ، وأنه كان يقولُ لنوحٍ، وهو في السفينة: ما هذه القُصَيْعةُ التي لك؟! ويستهزئُ به. ويذكرون أنه كان طولُه ثلاثةَ آلافِ ذراعٍ، وثلاثمائةٍ وثلاثةً وثلاثين ذراعًا وثُلُثًا، إلى غيرِ ذلك من الهَذَيانات التي لولا أنها مُسَطَّرةٌ في كثيرٍ من كتبِ التفاسيرِ وغيرِها من التواريخِ وأيامِ الناسِ، لَما تعرّضنا لحكايتِها؛ لسقاطَتِها وركاكتِها، ثم إنها مخالفةٌ للمعقولِ، والمنقولِ.

أما المعقولُ؛ فكيف يَسُوغُ فيه أن يُهلكَ اللهُ ولدَ نوحٍ لكُفرِه، وأبوه نبيُّ الأمةِ، وزعيمُ أهلِ الإيمانِ، ولا يُهلكَ عُوجَ بنَ عُنُقَ، ويقالُ: عَنَاقُ، وهو أظلَمُ وأطْغَى، على ما ذكروا؟ وكيف لا يرحمُ اللهُ منهم أحدًا، ولا أمَّ الصبيِّ، ولا الصبيَّ، ويَتركُ هذا الدَّعِيَّ الجبارَ العنيدَ، الفاجرَ الشديدَ، الكافرَ الشيطانَ المَريدَ، على ما ذكروا؟!

وأما المنقولُ؛ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿**ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ**﴾. وقال: ﴿**رب لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا**﴾. ثم هذا الطولُ الذي ذكروه مخالف لما ثبت في «الصحيحين»[1] عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ وطولُه ستُّونَ ذراعًا، ثم لم يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حتى الآنَ**». فهذا نصُّ الصادقِ المصدوقِ المعصومِ، الذي لا ينطقُ عن الهَوى، إن هو إلا وحيٌ يُوحَى، أنه لم يَزَلِ الخلقُ ينقُصُ حتى الآنَ، أي؛ لم يَزَلِ الناسُ في نقصانٍ في طولِهم من آدمَ إلى يومِ إخبارِه بذلك، وهَلُمَّ جَرًّا، إلى يومِ القيامةِ. وهذا يقتضي أنه لم يُوجَدْ من ذرية آدمَ مَن كان أطولَ منه. فكيف يُتْرَكُ هذا ويُذْهَلُ عنه، ويُصارُ إلى أقوالِ الكَذَبَةِ الكَفَرةِ من أهلِ الكتابِ الذين بدَّلوا كتبَ الله المنزَّلةَ، وحرَّفُوها وأوَّلُوها، ووضعوها على غيرِ مواضعِها؟ فما ظنُّك بما هم يستقلُّون بنقلِه، أو يُؤتَمَنون عليه، وهم الخونةُ الكذَبةُ، عليهم لعائنُ الله المتتابعةُ إلى يوم القيامة؟ وما أظنُّ أن هذا الخبرَ عن عُوجِ بنِ عناقَ، إلا اختلاقًا من بعضِ زنادقتِهم وفُجّارِهم الذين كانوا أعداءَ الأنبياءِ. واللهُ أعلمُ.

ثم ذكر اللهُ تعالى مُناشدةَ نوحٍ ربَّه في ولدِه، وسؤالَه له عن غَرَقِه على وجهِ الاستعلامِ والاستكشافِ. ووجهُ السؤالِ: أنك وعدتني بنجاةِ أهلي معي، وهو منهم وقد غَرِق. فأُجيبَ بأنه ليس من أهلك، أي: الذين وعدتُ بنجاتِهم، أي؛ أمَا قُلْنا لك: ﴿**وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ**﴾؟ فكان هذا ممن سبَق عليه القولُ منهم بأنْ سَيَغْرَقُ بكفرِه؛ ولهذا ساقته الأقدارُ إلى أن انحازَ عن حَوْزَةِ أهلِ الإيمانِ، فغَرِقَ مع حزبِه أهلِ الكُفرِ والطغيانِ. ثم قال تعالى: ﴿**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ هذا أمرٌ لنوحٍ، عليه السلامُ، لَمَّا

---

(١) سبق تخريجه.

نَضَبَ الماءُ عن وجهِ الأرضِ، وأمكن السَّعيُ فيها والاستقرارُ عليها، أن يهبطَ من السفينة التي كانت قد استقرت، بعدَ سيرِها العظيم، على ظهرِ جبلِ الجُوديِّ؛ وهو جبلٌ بأرضِ الجزيرة مشهورٌ، وقد قدَّمنا ذكرَه عندَ خلقِ الجبالِ ﴿بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ أي: اهبطْ سالمًا مُباركًا عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن سَيولدُ بعدُ، أي: من أولادك. فإنَّ اللهَ لم يجعلْ لأحدٍ ممن كان معه من المؤمنين نَسْلاً ولا عَقِبًا، سوى نوحٍ عليه السلامُ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]. فكلُّ مَن على وجهِ الأرضِ اليومَ، مِن سائرِ أجناسِ بني آدمَ، ينتسبون إلى أولادِ نوحٍ الثلاثة؛ وهو سامٌ وحامٌ ويافثُ.

قال الإمامُ أحمدُ[1]: حدثنا عبدُ الوهَّاب، عن سعيدٍ، عن قَتادةَ، عنِ الحسنِ، عن سَمُرةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ، قال: «سامٌ أبو العَربِ، وحامٌ أبو الحَبَشِ، ويافثُ أبو الرُّومِ». ورواه الترمذيُّ عن بِشْرِ بنِ مُعاذٍ العَقَديِّ، عن يزيدَ بنِ زُرَيعٍ، عن سعيدِ بنِ أبي عَروبةَ، عن قَتادةَ، عن الحسنِ، عن سَمُرةَ مرفوعًا. نحوَه.

وقال الشيخُ أبو عُمَرَ ابنُ عبد البرِّ: وقد رُوِيَ عن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ[2]، عن النبيِّ ﷺ مثلُه. قال: والمرادُ بالرُّومِ هنا الرُّومُ الأُوَلُ؛ وهم اليونانُ المُنتَسِبون إلى رُوميِّ بنِ ليطيِّ بنِ يونانَ بنِ يافثَ بنِ نوحٍ عليه السلامُ. ثم روى[3] من حديث إسماعيلَ بنِ عيَّاشٍ، عن يحيى بنِ سعيدٍ، عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ، أنَّه قال: ولدُ نوحٍ ثلاثةٌ: سامٌ ويافثُ وحامٌ، وولَدَ كلُّ واحدٍ من هؤلاء ثلاثةً؛ فولَد سامٌ العربَ وفارسَ والرومَ، وولَد يافثُ التُّركَ والصَّقالِبَةَ ويأجوجَ ومأجوجَ، وولَد حامٌ القِبْطَ والسودانَ والبربرَ.

قلتُ: وقد قال الحافظُ أبو بكرٍ البزَّارُ في «مُسنَدِه»[4]: حدثنا إبراهيمُ بنُ هانئٍ، وأحمدُ بنُ حسينِ ابنِ عبَّادٍ أبو العباسِ، قالا: حدثنا محمدُ بنُ يزيدَ بنِ سِنَانٍ الرُّهَاويُّ، حدثني أبي، عن يحيى بنِ سعيدٍ، عن سعيدِ بنِ المُسيَّبِ، عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**وُلِدَ لنوحٍ سامٌ وحامٌ ويافثُ، فوُلِدَ لسامٍ العربُ وفارسُ والرُّومُ، والخيرُ فيهم، ووُلِدَ ليافثَ يأجوجُ ومأجوجُ والتُّركُ والصَّقالِبَةُ، ولا خيرَ فيهم، ووُلِدَ لحامٍ القِبْطُ والبربرُ والسُّودانُ**». ثم قال: لا نعلمُه يُروى مرفوعًا إلا من هذا الوجهِ، تفرَّد به محمدُ بنُ يزيدَ بنِ سنانٍ، عن أبيه، وقد حدَّث عنه جماعةٌ مِن أهلِ العلمِ، واحتملوا حديثَه، ورواه غيرُه عن يحيى بنِ سعيدٍ مُرْسَلاً، ولم يُسنِدْه، وإنما جعَله مِن قولِ سعيدٍ.

قلتُ: وهذا الذي ذكَره أبو عُمَرَ هو المحفوظُ عن سعيدٍ قولَه، وهكذا رُوِيَ عن وهبِ بنِ مُنَبِّهٍ[5]

---

(١) **صحيح**: المسند (٥/ ١١)، والترمذي في «السنن» (٣٢٣١) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٤٦) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) الطبري في «الكبير» (١٨/ ح/ ٣٠٩) من رواية الحسن عن عمران وسمرة، والحاكم (٢/ ٥٤٦) من رواية الحسن عن عمران عن سمرة اختلف العلماء في سماع الحسن من عمران والأكثر على أنه سمع منه قاله الحاكم (٤/ ١٩١) ووافقه الذهبي. كذلك في سماع الحسن من سمرة. فمن أثبت السماع يصحح هذا الحديث ومن لم يثبته يضعفه.

(٣) **ضعيف**: الطبري في «تاريخه» (١/ ١٢٩) وفيه إسماعيل بن عباس ضعيف في غير الشاميين، ويحيى: مدني.

(٤) «كشف الأستار» (٢١٨) ورواه ابن عدي في ترجمة يزيد بن سنان (٧/ ترجمة: ٢١٦٦). قال ابن عدي: ولا أعلم أحد روى هذا الحديث عن يحيى بن سعيد بهذا الإسناد غير يزيد بن سنان.

(٥) الطبري في «تاريخه» (١/ ١٢٤).

مثلُه، واللهُ أعلمُ. ويزيدُ بنُ سنانٍ أبو فَرْوَةَ الرُّهَاويُّ ضعيفٌ بمرَّةٍ لا يُعتمَدُ عليه. وقد قيل: إن نوحًا، عليه السلامُ، لم يُولَدْ له هؤلاء الثلاثةُ الأولادُ إلاَّ بعدَ الطوفان، وإنما وُلِد له قبلَ السفينة كَنْعانُ الذي غَرِق، وعابرُ مات قبلَ الطوفان. والصحيحُ أن أولادَه الثلاثةَ كانوا معه في السفينة، هم ونساؤُهم وأُمُّهم، وهو نصُّ التوراة. وقد ذُكِر أن حامًا واقَع امرأتَه في السفينة، فدعا عليه نوحٌ أن تُشَوَّهَ خلْقَةُ نُطْفَتِه، فوُلِد له ولدٌ أسودُ، وهو كَنْعَانُ بنُ حامٍ، جَدُّ السودان. وقيل: بل رأىٰ أباه نائمًا، وقد بدتْ عورتُه فلم يسترْها وسترَها أخواه؛ فلهذا دعا عليه أن تُغَيَّرَ نُطفتُه، وأنْ يكونَ أولادُه عبيدًا لإخوته.

وذكر الإمامُ أبو جعفر ابنُ جَرير[1]، من طريقِ عليِّ بنِ زيدِ بن جُدْعانَ، عن يوسفَ بنِ مِهرانَ، عن ابن عباسٍ، أنَّه قال: قال الحَوارِيُّونَ لعيسىٰ ابنِ مريمَ: لو بعثْتَ لنا رجُلاً شَهِد السفينةَ فحدَّثَنا عنها؟ قال: فانطلَق بهم حتىٰ أتَىٰ إلىٰ كَثِيبٍ من ترابٍ، فأخَذ كفًّا من ذلك التُّراب بكفِّه، قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: هذا كعبُ حامِ بنِ نوحٍ. قال: وضرَب الكَثِيبَ بعصاه، وقال: قمْ بإذن الله. فإذا هو قائمٌ ينفُضُ التُّرابَ عن رأسه، قد شاب، فقال له عيسىٰ عليه السلامُ: هكذا هلكْتَ؟ قال: لا، ولكنِّي متُّ وأنا شابٌّ، ولكنِّي ظَنَنْتُ أنَّها الساعةُ، فمِن ثَمَّ شِبْتُ. قال: حدِّثْنا عن سفينة نوحٍ. قال: كان طولُها ألفَ ذراعٍ ومائتَي ذراعٍ، وعرضُها ستَّمائة ذراعٍ، وكانت ثلاثَ طَبَقاتٍ؛ فطَبَقةٌ فيها الدوابُّ والوحْشُ، وطبقةٌ فيها الإنسُ، وطبقةٌ فيها الطَّيرُ، فلما كثُرَ أرواثُ الدَّوابِّ أوْحَىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ نوحٍ عليه السلامُ، أن اغمزْ ذَنَبَ الفيلِ، فغمَزَه، فوقَع منه خنزيرٌ وخنزيرةٌ، فأقبَلا علىٰ الرَّوْث، ولمَّا وقَع الفأرُ يخرُزُ السفينةَ بقَرْضه، أوحَىٰ اللهُ عز وجل إلىٰ نوحٍ، عليه السلامُ، أن اضربْ بينَ عَيْنَي الأسد، فخرج من منْخره سِنَّوْرٌ وسِنَّوْرةٌ، فأقبَلا علىٰ الفأر. فقال له عيسىٰ: كيف علِم نوحٌ، عليه السلامُ، أن البلاد قد غَرِقت؟ قال: بعَث الغرابَ يأتيه بالخبرِ، فوجَد جيفةً فوقَع عليها، فدعا عليه بالخوف؛ فلذلك لا يألَفُ البيوتَ. قال: ثم بعَث الحمامةَ فجاءت بورقِ زَيتونٍ بمِنْقارها وطينٍ برجلَيْها، فعَلِم أن البلادَ قد غَرِقت، فطوَّقَها الخضْرةَ التي في عُنقها، ودعا لها أن تكونَ في أُنْسٍ وأمانٍ، فمِن ثَمَّ تألَفُ البيوتَ. قال: فقالوا: يا رسولَ الله، ألا ننطلقُ به إلىٰ أهلينا، فيجلسَ معنا، ويحدثَنا؟ قال: كيف يَتْبَعُكم مَن لا رزقَ له؟ قال: فقال له: عُدْ بإذن الله. فعاد ترابًا. وهذا أثرٌ غريبٌ جدًّا. وروَىٰ عِلْباءُ بنُ أحمرَ[2]، عن عِكْرِمةَ عن ابنِ عباسٍ، قال: كان مع نوحٍ في السفينة ثمانون رجلاً، معهم أهلوهم، وأنهم كانوا في السفينة مائةً وخمسين يومًا، وأن اللهَ وجَّه السفينةَ إلىٰ مكَّةَ، فدارت بالبيت أربعين يومًا، ثم وجَّهها إلىٰ الجُودِيِّ، فاستقرت عليه، فبعَث نوحٌ عليه السلامُ الغرابَ ليأتيَه بخبرِ الأرضِ، فذهَب فوقَع علىٰ الجِيَف، فأبطَأ عليه، فبعث الحمامةَ، فأتَتْه بوَرَقِ الزَّيتونِ، ولطَّختْ رجلَيْها بالطين، فعرَف نوحٌ أن الماءَ قد نَضَب، فهبَط

(١) **ضعيف:** ابن جرير في «تفسيره» (٧/ الجزء١٢/ ٣٥) وهو: ضعيف فيه: الحسين ومفضل بن فضالة وعلي بن زيد ويوسف بن مهران ضعفاء.

(٢) **ضعيف:** ابن أبي حاتم (١٠٨٦٤) هذا الأثر بطوله ضعيف فيه علي بن عثمان ضعيف.

إلى أسفلِ الجُوديِّ، فابْتنَى قريةً وسمَّاها ثمانينَ، فأصبحوا ذاتَ يومٍ، وقد تَبَلْبَلَتْ ألسنتُهم على ثمانينَ لغةً؛ إحداها لغةُ العَرَبيِّ، فكان بعضُهم لا يفقهُ كلامَ بعضٍ، فكان نوحٌ عليه السلامُ يُعبِّرُ عنهم، وقال قتادةُ[1] وغيرُه: ركبوا في السفينةِ في اليومِ العاشرِ من شهرِ رجبٍ، فساروا مائةً وخمسين يومًا، واستقرت بهم على الجُوديِّ شهرًا، وكان خروجُهم من السفينةِ في يومِ عاشوراءَ من المحرم. وقد روىٰ ابنُ جَرير[2] خبرًا مرفوعًا يوافقُ هذا، وأنهم صاموا يومَهم ذلك.

قال الإمامُ أحمدُ[3]: حدثنا أبو جعفرٍ، حدثنا عبدُ الصمدِ بنُ حبيبٍ الأَزْديُّ، عن أبيه حبيبِ بنِ عبدِ اللهِ، عن شُبَيْلٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: مرَّ النبيُّ ﷺ بأُناسٍ من اليهودِ، وقد صاموا يومَ عاشوراءَ، فقال: «**ما هذا من الصَّومِ؟**». فقالوا: هذا اليومُ الذي نجَّى اللهُ موسىٰ وبني إسرائيلَ من الغرقِ، وغَرِقَ فيه فرعونُ، وهذا يومٌ استوت فيه السفينةُ على الجُوديِّ، فصام نوحٌ وموسىٰ، عليهما السلامُ؛ شكرًا للهِ عزّ وجلّ. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**أنا أحقُّ بموسى، وأحقُّ بصومِ هذا اليومِ**». وقال لأصحابِه: «**مَن كان منكم أصبَحَ صائمًا فليُتمَّ صومَه، ومَنْ كان أصابَ من غَدَاءِ أهلِه فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يومِه**». وهذا الحديثُ له شاهدٌ في «الصحيح»[4] من وجهٍ آخرَ، والمُسْتَغْرَبُ[5] ذِكْرُ نوحٍ أيضًا. واللهُ أعلمُ.

وأمَّا ما يذكرُه كثيرٌ من الجهلةِ، أنهم أكلوا من فضولِ أزوادِهم، ومن حبوبٍ كانت معهم قد استصحبوها، وطحنُوا الحبوبَ يومَئذٍ، واكتحلوا بالإِثْمِدِ؛ لتقويةِ أبصارِهم لَمَّا ابْهَارَّت من الضياءِ، بعدَ ما كانوا في ظُلمةِ السفينةِ، فكلُّ هذا لا يصحُّ فيه شيءٌ، وإنما يُذْكَرُ فيه آثارٌ منقطعةٌ عن بني إسرائيلَ، لا يُعْتَمدُ عليها، ولا يُقْتَدَىٰ بها، واللهُ أعلمُ.

وقال محمدُ بنُ إسحاقَ[6]: لَمَّا أرادَ اللهُ أَنْ يكُفَّ ذلك الطُّوفانَ، أرسلَ ريحًا على وجهِ الأرضِ، فسكَنَ الماءُ، وانسدّت ينابيعُ الأرضِ، فجعَلَ الماءُ ينقُصُ ويغيضُ ويُدْبِرُ، وكان استواءُ الفُلْكِ على الجُوديِّ - فيما يزعمُ أهلُ التوراةِ - في الشهرِ السابعِ، لسبعَ عَشْرَةَ ليلةً مضت منه، وفي أولِ يومٍ من الشهرِ العاشرِ رُئِيَتْ رُءُوسُ الجبالِ، فلمَّا مضىٰ بعدَ ذلك أربعون يومًا، فَتح نوحٌ كُوَّةَ الفُلْكِ التي صُنع فيها، ثم أرسَلَ الغرابَ لينظرَ له ما فعَلَ الماءُ، فلم يرجعْ إليه، فأرسل الحمامةَ فرجعتْ إليه فلم يجدْ لرجلَيْها موضعًا، فبسطَ يدَه للحمامةِ فأخَذَها فأدخلَها، ثم مضت سبعةُ أيامٍ، ثم أرسلها لتنظُرَ له، فرجعت حينَ أمست، وفي فِيهَا ورقُ زيتونةٍ، فعَلِمَ نوحٌ أن الماءَ قد قَلَّ عن وجهِ الأرضِ، ثم مكَث سبعةَ أيامٍ، ثم أرسلَها، فلم ترجعْ إليه فعَلِم نوحٌ أن الأرضَ قد برزَتْ، فلمَّا كَمَلت السنةُ

---

(١) **حسن إلى قتادة:** رواه ابن جرير «تاريخ» (١/ ١١٨) من رواية سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٢) **موضوع:** ابن جرير في «تاريخه» (١/ ١١٨) والطبراني في «الكبير» (٦/ح/٥٥٣٨) وفيه: عبد الغفور بن سعيد: متروك، وكذلك عثمان بن مطر. فهو حديث موضوع. قال الهيثمي في «المجمع»: فيه عبد الغفور وهو متروك. (٣/ ١٨٨).

(٣) **ضعيف:** المسند (٢/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠) فيه: عبد الصمد بن حبيب: ضعيف، وأبوه: مجهول.

(٤) **متفق عليه:** البخاري (٢٠٠٤ ـ ٢٠٠٧)، ومسلم (٢٦٥١ ـ ٢٦٥٣).

(٥) نعم فهي زيادة منكرة والحديث في «الصحيحين» بدونها، كما سيأتي.

(٦) **ضعيف إليه:** رواه ابن جرير (٧/ الجزء ١٢/ ٤٨) فيه: ابن حميد.

فيما بينَ أن أرسل اللهُ الطوفانَ إلى أن أرسل نوحٌ الحمامةَ، ودخل يومٌ واحدٌ من الشهرِ الأولِ من سنةِ اثنتين، برَز وجهُ الأرضِ وظهَر البرُّ، وكشَف نوحٌ غطاءَ الفُلْك. وهذا الذي ذكره ابنُ إسحاقَ هو بعينه مضمونُ سياقِ التوراةِ التي بأيدي أهلِ الكتاب.

قال ابنُ إسحاقَ: وفي الشهرِ الثاني من سنة اثنتين في ستٍّ وعشرين ليلةً منه. ﴿**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ وفيما ذكر أهلُ الكتابِ، أنَّ اللهَ كلَّم نوحًا قائلاً له: اخرُجْ من الفُلْك أنت وامرأتُك وبنوك ونساءُ بنيك معك، وجميع الدوابِّ التي معك، ولتَنْمُوا ولْتكثُروا في الأرضِ. فخرجوا، وابْتَنَى نوحٌ مَذْبحًا لله عزَّ وجلَّ، وأخَذَ من جميع الدوابِّ الحلال، والطيرِ الحلال، فذبَحها قُربانًا إلى الله عزَّ وجلَّ، وعَهِد اللهُ إليه أن لا يُعيدَ الطوفانَ على أهلِ الأرض، وجعَل تذكارَ الميثاقِ إليه القوسَ الذي في الغَمام، وهو قوسُ قُزَحَ الذي قدَّمنا عن ابن عباسٍ، أنه أمانٌ من الغَرَق. قال بعضُهم: فيه إشارةٌ إلى أنه قوسٌ بلا وترٍ. أي أن هذا الغَمامَ لا يُوجَدُ منه طوفانٌ كأولِ مرةٍ. واللهُ أعلمُ.

و قد أنكَرت طائفةٌ من جَهَلَةِ الفُرْسِ وأهلِ الهند وقوعَ الطوفانِ، واعترَف به آخَرون منهم، وقالوا: إنما كان بأرضِ بابلَ، ولم يصلْ إلينا. قالوا: ولم نَزَلْ نتوارثُ المُلْكَ كابرًا عن كابرٍ، من لَدُنْ كيومرثَ - يعنُون آدَمَ - إلى زمانِنا هذا. وهذا قاله مَن قاله من زنادقةِ المَجوسِ عُبَّادِ النيرانِ وأتباعِ الشيطان. وهذه سَفْسطَةٌ منهم وكفرٌ فظيعٌ وجهلٌ بليغٌ ومكابرةٌ للمحسوسات وتكذيبٌ لربِّ الأرضِ والسموات، وقد أجمع أهلُ الأديانِ، الناقلون عن رسلِ الرحمنِ، مع ما تواتَر عندَ الناسِ في سائرِ الأزمانِ، على وقوعِ الطُّوفانِ، وأنَّه عَمَّ جميعَ البلادِ، ولم يُبْقِ اللهُ أحدًا من كَفَرةِ العبادِ؛ استجابةً لدَعوةِ نبيِّه المؤيَّدِ المعصومِ، وتنفيذًا لمَا سبَق في القَدَرِ المحتوم.

ذكرُ شيءٍ من أخبارِ نوحٍ نفسِه عليه الصلاة والسلامُ

قال اللهُ تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا**﴾ [الإسراء: ٣]. قيل: إنه كان يحمَدُ اللهَ على طعامِه وشرابِه ولباسِه وشأنِه كلِّه.

وقال الإمامُ أحمدُ[١]: حدثنا أبو أسامَةَ، حدثنا زكريا بنُ أبي زائدةَ، عن سعيدِ بنِ أبي بُردةَ، عن أنسِ بنِ مالكٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَه عَلَيها، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَه عَلَيها**». وكذا رواه مسلمٌ والترمذيُّ والنَّسائيُّ من حديثِ أبي أسامةَ.

والظاهرُ، أن الشكورَ هو الذي يعملُ بجميعِ الطاعاتِ القلبيةِ والقوليةِ، والعَمَليةِ؛ فإن الشكرَ يكونُ بهذا وبهذا؛ كما قال الشاعرُ:

أفادتكُم النَّعماءُ منِّي ثلاثةً ... يدي ولساني والضميرَ المحجَّبا

---

(١) **صحيح**: المسند (٣/ ١٠٠)، مسلم (٦٨٦٨)، الترمذي (١٨١٦)، النسائي «الكبرى» (٦٨٩٩).

ذكر صومه عليه السلام

وقال ابنُ ماجَهْ[1] : **بابُ صيامِ نوحٍ عليه السلامُ**: حدثنا سَهْلُ بنُ أبي سهلٍ، حدثنا سعيدُ بنُ أبي مريمَ، عن ابنِ لَهيعةَ، عن جعفرِ بنِ ربيعةَ، عن أبي فِراسٍ، أنه سَمِع عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو يقولُ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: **«صامَ نوحٌ الدهرَ إلاَّ يومَ الفطرِ، ويومَ الأضْحَى»**. هكذا رواه ابنُ ماجَهْ مِن طريقِ عبدِ اللهِ بنِ لَهيعةَ بإسناده ولَفْظه.

وقد قال الطَّبَراني[2] : حدثنا أبو الزِّنْباعِ روحُ بنُ الفرجِ، حدثنا عمرُو بنُ خالدٍ الحرَّانيُّ، حدثنا ابنُ لَهيعةَ، عن أبي قَنَانٍ، عن يزيدَ بنِ رباحٍ أبي فِراسٍ، أنه سَمِع عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو يقولُ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: **«صام نوحٌ الدَّهرَ إلا يومَ الفطرِ والأضْحَى، وصامَ داودُ نصفَ الدَّهرِ، وصامَ إبراهيمُ ثلاثةَ أيامٍ مِنْ كلِّ شهْرٍ، صامَ الدهرَ وأفْطرَ الدَّهْرَ»**.

ذكر حَجَّة نوح عليه السلام

وقال الحافظُ أبو يعلَى[3] : حدثنا سفيانُ بنُ وكيعٍ، حدثنا أبي، عن زَمْعةَ هو ابنُ صالحٍ، عن سَلَمَةَ بنِ وَهرامٍ، عن عِكْرمةَ، عن ابنِ عباسٍ، قال: حجَّ رسولُ اللهِ ﷺ، فلمَّا أتى واديَ عُسْفانَ، قال: **«يا أبا بَكْرٍ، أيُّ وادٍ هذا؟»**. قال: هذا وادي عُسْفانَ. قال: **«لقد مرَّ بهذا الوادي نوحٌ وهودٌ وإبراهيمُ على بَكَراتٍ لهم حُمْرٍ، خُطُمُهم اللِّيفُ، أُزُرُهم العَباءُ، وأرْديتُهم النِّمارُ، يَحُجُّون البيتَ العتيقَ»**. فيه غرابةٌ.

ذكر وصيَّته لولده، عليه الصلاة والسلام

قال الإمامُ أحمدُ[4] : حدثنا سليمانُ بنُ حربٍ، حدثنا حمَّادُ بنُ زيدٍ، عن الصَّقْعَبِ بنِ زُهَيرٍ، عن زيدِ بنِ أسلمَ، قال حمادٌ: أظنُّه عن عطاءِ بنِ يَسارٍ، عن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو، قال: كُنا عندَ رسولِ اللهِ ﷺ، فجاء رجلٌ مِن أهلِ الباديةِ، عليه جُبَّةُ سيجانٍ مَزْرورةٌ بالدِّيباجِ، فقال: **«ألا إنَّ صاحِبَكُم هذا قد وضَع كُلَّ فارسٍ ابنِ فارسٍ - أو قال: يُريدُ أنْ يضعَ كُلَّ فارسٍ بن فارسٍ - ورَفَعَ كلَّ راعٍ ابنِ راعٍ»**. قال: فأخذَ رسولُ اللهِ ﷺ بمَجامعِ جُبَّتِه، وقال: **«ألا أرَى عليكَ لباسَ مَنْ لا يَعْقِلُ»**.

ثم قال: **«إنَّ نَبِيَّ اللهِ نوحًا، عليه السلامُ، لَمَّا حضرتْه الوفاةُ، قال لابنه: إنِّي قاصٌّ عليكَ الوصيَّةَ، آمُرُكَ باثْنتين، وأنْهاكَ عنِ اثْنَتَيْنِ؛ آمُرُكَ بلا إلهَ إلا اللهُ؛ فإنَّ السَّمواتِ السَّبْعَ، والأرَضينَ السَّبْعَ لو وُضِعتْ في**

---

(١) ضعيف: ابن ماجه (١٧١٤).

(٢) ضعيف: «المجمع» للهيثمي (٣/ ١٩٥) وعزاه للطبراني في «الكبير»، ولم أقف عليه فيه، وفيه: ابن لهيعة: ضعيف، وكذلك فيه مجاهيل.

(٣) منكر: لم أقف عليه في مسند أبي يعلى: ورواه أحمد (١/ ٢٣٢) من رواية وكيع بنفس السند، وليس فيه ذكر نوح ولا إبراهيم، ولكن فيه ذكر هود وصالح عليهما السلام. وسنده: ضعيف جدًا. فيه: زمعة بن صالح: منكر الحديث وخصوصًا في روايته عن سلمة بن وهرام.

(٤) صحيح: المسند (٢/ ١٦٩ - ١٧٠) بهذا السند أعلاه رواه أيضًا (٢/ ٢٢٥) من رواية وهب بن جرير عن أبيه عن الصقعب.

كفَّة، ووُضعتْ لا إلهَ إلا اللهُ في كفَّة، رجحَتْ بهنَّ لا إلهَ إلا اللهُ، ولو أنَّ السَّموات السَّبعَ، والأرَضينَ السَّبعَ، كُنَّ حَلْقةً مُبْهَمة، قصَمَتْهُنَّ لا إلهَ إلا اللهُ، وسبحانَ الله وبحمده، فإنَّها صلاةُ كلِّ شيء، وبها يُرزَقُ الخلْقُ، وأنهاكَ عن الشِّرْكِ والكِبْر». قال: قلتُ ـ أو: قيل ـ: يا رسولَ الله، هذا الشِّرْكُ قد عرَفناه، فما الكِبْرُ؟ قال: أنْ يكونَ لأحدِنا نَعلان حَسَنَتان لهما شِراكان حَسَنان؟، قال: «لا». قال: هو أنْ يكونَ لأحدِنا حُلَّةٌ يلبَسُها؟ قال: «لا». قال: هو أنْ يكونَ لأحدِنا دابَّةٌ يركَبُها؟ قال: «لا». قال: فهو أن يكون لأحدِنا أصحابٌ يجلسون إليه؟ قال: «لا». قيلَ: يا رسولَ الله، فما الكِبْرُ؟ قال: «سَفَهُ الحقِّ وغَمْصُ النَّاس». وهذا إسنادٌ صحيحٌ ولم يخرجوه. ورواه أبو القاسم الطبراني[1] من حديث عبدالرَّحيم بن سليمانَ، عن محمد بن إسحاقَ، عن عمرِو بن دينار، عن عبد الله بن عمرو، أنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: «كان في وَصيَّة نوح لابْنه: أُوصيكَ بخَصْلَتَيْن، وأَنهاكَ عَن خَصْلتَيْن». فذكَر نحوَه. وقد رواه أبو بكر البَزَّار[2] عن إبراهيمَ بن سعيد، عن أبي معاويَةَ الضرير، عن محمد بن إسحاقَ، عن عمرِو بن دينار، عن عبد الله بن عمرَ بن الخطَّاب، عن النبيِّ ﷺ بنحوه. والظَّاهرُ أنَّه عن عبد الله بن عمرِو بن العاص، كما رواه أحمدُ والطَّبرانيُّ. واللهُ أعلمُ.

ويزعمُ أهلُ الكتاب أنَّ نوحًا عليه السلامُ لَمَّا ركِبَ السَّفينةَ، كان عمرُه ستَّمائة سنة. وقدمنا عن ابن عباس مثلَه، وزاد: وعاش بعدَ ذلك ثلاثَمائة وخمسين سنةً. وفي هذا القول نَظَرٌ، ثم إنْ لم يُمْكنِ الجمعُ بينَه وبينَ دلالة القرآن، فهو خطأٌ مَحْضٌ؛ فإنَّ القرآنَ يقتضي أنَّ نوحًا مكَث في قومه بعدَ البَعْثة وقبلَ الطوفان ألفَ سنة إلا خمسين عامًا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤]. ثم اللهُ أعْلمُ كم عاشَ بعدَ ذلك، فإنْ كان ما ذُكرَ عن ابن عباس محفوظًا؛ من أنه بُعث وله أربعُمائة سنة وثمانون سنةً، وأنه عاشَ بعدَ الطوفان ثلاثَمائة وخمسين سنةً، فيكونُ قد عاش على هذا ألفَ سنة وسبعَمائة وثمانين سنةً.

وأما قَبْرُه، عليه السلامُ، فروَى ابنُ جرير والأزْرَقيُّ، عن عبد الرحمن بن سابط، أو غيره من التابعين مُرْسَلاً أنَّ قبرَ نوح عليه السلامُ بالمسجد الحرام. وهذا أقوَى وأثبتُ من الذي يذكرُه كثيرٌ من المتأخرين من أنه ببلدة بالبقاع، تُعرَفُ اليومَ بكَرَكَ نوح، وهناك جامعٌ قد بُنيَ بسبب ذلك، وأُوقفت عليه أوقافٌ فيما ذُكرَ. واللهُ أعلمُ بالصواب.

---

(١) **صحيح الإسناد**: عزاه إليه الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٢٠) إلى الطبراني، ورواه أيضًا الحاكم (٢/ ٤٨ ـ ٤٩) والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٨).

(٢) **صحيح الإسناد**: كشف الأستار (٣٠٦٩). وهو حديث صحيح الإسناد رجاله ثقات ورواه البزار من رواية عطاء بن يسار عن عبدالله بن عمرو (٢٤٣٣) مختصرًا آخره فقط.

قصة هود عليه السلام

وهو هودُ بنُ شالَخَ بنِ أَرْفَخْشَدَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ عليه السَّلامُ. ويُقالُ: إنَّ هودًا هو عابرُ بنُ شالَخَ ابنِ سامِ بنِ نوحٍ. ويُقالُ: هودُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ رباحِ بنِ الجارودِ بنِ عادِ بنِ عَوْصِ بنِ إرَمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ عليه السَّلامُ. ذكره ابنُ جَريرٍ. وكانوا عربًا يسكنون الأحقافَ؛ وهي جبالُ الرَّمْلِ، وكانت باليمنِ مِن عُمانَ وحَضْرَمَوْتَ، بأرضٍ مُطِلَّةٍ على البحرِ؛ يُقالُ لها: الشِّحْرُ. واسمُ واديهم مُغيثٌ. وكانوا كثيرًا ما يسكُنون الخِيامَ ذواتِ الأعمدةِ الضِّخامِ؛ كما قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ**﴾ [الفجر: ٦، ٧]. أي؛ عادُ إرَمَ. وهم عادٌ الأُولَى، وأما عادٌ الثانيةُ فمتأخِّرةٌ، كما سيأتي بيانُ ذلك في موضعِه. وأما عادٌ الأُولَى فهم عادُ ﴿**إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ**﴾ [الفجر: ٧، ٨]. أي؛ مثلُ القبيلةِ. وقيل: مِثْلُ العُمُدِ. والصحيحُ الأولُ. كما بيَّنّاه في «التفسير». ومَن زعَم أن إرَمَ مدينةٌ تدورُ في الأرضِ، فتارةً في الشَّامِ، وتارةً في اليمنِ، وتارةً في الحجازِ، وتارةً في غيرِها، فقد أَبْعَدَ النُّجْعَةَ، وقال ما لا دليلَ عليه، ولا برهانَ يُعَوَّلُ عليه، ولا مُسْتَنَدَ يركَنُ إليه.

وفي «صحيح ابنِ حِبَّانَ»(١)، عن أبي ذرٍّ، في حديثِه الطويلِ في ذكرِ الأنبياءِ والمرسَلين، قال فيه: «**منهم أربعةٌ من العرب؛ هودٌ وصالحٌ وشُعَيْبٌ، ونَبِيُّك يا أبا ذرٍّ**». ويُقالُ: إن هودًا، عليه السَّلامُ، أولُ مَن تكلم بالعربيةِ. وزعَم وهبُ بنُ مُنَبِّهٍ أن أباه أوَّلُ مَن تكلم بها. وقال غيرُه: أولُ مَن تكلم بها نوحٌ. وقيل: آدمُ. وهو الأشبهُ. وقيل غيرُ ذلك. واللهُ أعلمُ. ويُقالُ للعربِ الذين كانوا قبلَ إسماعيلَ عليه السلامُ: العربُ العاربةُ. وهم قبائلُ كثيرةٌ؛ منهم عادٌ، وثمودُ، وجُرْهُمٌ، وطَسْمٌ، وجَدِيسٌ، وأُمَيمٌ، ومَدْيَنُ، وعِمْلاقٌ، وعَبِيلٌ، وجاسمٌ، وقَحْطانُ، وبنو يَقْطُنَ، وغيرُهم. وأما العربُ المُسْتَعْرِبةُ، فهم مِن ولدِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ، وكان إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ، عليهما السلامُ، أولَ من تكلَّمَ بالعربيةِ الفصيحةِ البليغةِ، وكان قد أخَذَ كلامَ العربِ مِن جُرْهُمٍ، الذين نزلوا عندَ أمِّه هاجَرَ بالحرَمِ، كما سيأتي بيانُه في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى، ولكن أنطقَه اللهُ بها في غايةِ الفصاحةِ والبيانِ، وكذلك كان يتلفظُ بها رسولُ اللهِ ﷺ.

والمقصودُ أن عادًا، وهم عادٌ الأُولَى، كانوا أولَ مَن عبَد الأصنامَ بعدَ الطوفانِ، وكان أصنامُهم ثلاثةً؛ صدٌّ وصمودٌ وهرا، فبعَث اللهُ فيهم أخاهم هودًا، عليه السلامُ، فدعاهم إلى الله، كما قال تعالى بعدَ ذكرِ قومِ نوحٍ وما كان من أمرِهم في سورة «الأعراف»: ﴿**وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ**

(١) سبق تخريجه والحكم عليه.

رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥-٧٢]. وقال تعالىٰ بعدَ ذكر قصة نوحٍ في سورة «هود»: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٠-٦٠]. وقال تعالىٰ في سورة «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» بعدَ قصة قومِ نوحٍ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١-٤١]. وقال تعالىٰ في سورةِ «الشعراء» بعدَ قصة قومِ نوحٍ أيضًا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٤٠]. وقال تعالىٰ في سورة «حم السَّجدة»: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦]. وقال تعالىٰ في سورة «الأحقاف»: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢١-٢٥]. وقال تعالىٰ في «الذاريات»: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢]. وقال تعالىٰ في «النجم»: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٠-٥٥].

وقال تعالىٰ في سورة «اقتربت»: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٨-٢٢]. وقال في «الحاقة»: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨]. وقال في سورة «الفجر»: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

وقد تكلَّمنا علىٰ كلٍّ من هذه القصص في أماكنها من كتابنا «التفسير» ولله الحمدُ والمِنَّةُ. وقد جرىٰ ذكرُ عادٍ في سورة «براءة»، و«إبراهيم»، و«الفُرْقان»، و«العنكبوت»، وفي سورة «ص»، وفي سورة «ق». ولنذكرْ مضمونَ القصة مجموعًا من هذه السِّياقات، مع ما يُضافُ إلىٰ ذلك من الأخبار.

وقد قدمنا أنهم أولُ الأمم عبدوا الأصنامَ بعد الطُّوفان، وذلك بيِّنٌ في قوله لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]. أي؛ جعلَهم أشدَّ أهلِ زمانهم في

الخِلْقَة والشِّدَّة والبَطْش. وقال في «المؤمنون»: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١]. وهم قومُ هودٍ على الصَّحيح، وزعَم آخرون أنهم ثمودُ؛ لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ [المؤمنون: ٤١]. قالوا: وقَوْمُ صالح هم الذين هلكوا بالصيحة ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]. وهذا الذي قالوه لا يمنعُ من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم، كما سيأتي في قصة أهلِ مَدْيَنَ أصحابِ الأَيْكَةِ، فإنه اجتمع عليهم أنواعٌ من العُقوبات، ثم لا خلافَ أن عادًا قبلَ ثمودَ.

والمقصودُ أن عادًا كانوا عَرَبًا جُفاةً كافرين، عُتاةً متمردين في عبادة الأصنام، فأرسل اللهُ فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، فكذبوه وخالفوه وتَنَقَّصوه، فأخَذهم اللهُ أخْذَ عزيزٍ مُقْتَدِرٍ، فلمَّا أمرَهم بعبادة الله، ورغَّبَهم في طاعته واستغفاره، ووعدَهم على ذلك خيرَ الدُّنيا والآخرة، وتوعَّدهم على مخالفة ذلك عقوبةَ الدُّنيا والآخرة ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] أي؛ هذا الأمرُ الذي تدعونا إليه سَفَهٌ بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام، التي يُرتَجَى منها النصرُ والرزقُ، ومع هذا نظنُّ أنك تكذبُ في دعواك أن اللهَ أرسلك: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧]. أي؛ ليس الأمرُ كما تظنون ولا ما تعتقدون. ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]. والبلاغ يستلزمُ عدمَ الكذبِ في أصلِ المُبلَّغ، وعدمَ الزيادة فيه والنقص منه، ويستلزمُ إبلاغَه بعبارةٍ فصيحةٍ وجيزةٍ، جامعةٍ مانعةٍ، لا لَبْسَ فيها ولا اختلافَ ولا اضطرابَ، وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النُّصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم، لا يبتغي منهم أجرًا ولا يَطلبُ منهم جُعْلاً، بل هو مخلصٌ لله عزَّ وجلَّ في الدعوة إليه والنُّصح لخَلْقه، لا يطلبُ أجرَه إلا من الذي أرسلَه، فإنَّ خيرَ الدُّنيا والآخرة كلَّه في يدَيْه، وأمْرَه إليه؛ ولهذا قَالَ: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]. أي؛ ما لكم عقلٌ تميزون به وتفهمون أني أدعوكم إلى الحقِّ المبين، الذي تشهدُ به فِطَرُكم التي خُلقتُم عليها، وهو دينُ الحقِ الذي بعَث اللهُ به نوحًا، وأهلك مَن خالفَه من الخلق، وها أنا أدعوكم إليه، ولا أسألُكُم أجرًا عليه، بل أبتغي ذلك عندَ الله، مالك الضُّرِّ والنَّفْع؛ ولهذا قال مؤمنُ «يس»: ﴿اتَّبِعُوا مَن لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢١، ٢٢]. وقال قومُ هودٍ له فيما قالوا: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٣].

يقولون: ما جئتَنا بخارقٍ يشهدُ لك بصدقِ ما جئتَ به، وما نحن بالذين نتركُ عبادةَ أصنامنا عن مجرَّدِ قولك، بلا دليلٍ أقمتَه، ولا برهانٍ نَصَبْتَه، وما نظنُّ إلا أنك مجنونٌ فيما تزعُمُه، وعندَنا، أنما

أصابَك هذا أن بعضَ آلهتنا غَضِبَ عليك، فأصابَك في عقلك، فاعتراك جنونٌ بسبب ذلك، وهو قولُهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]. وهذا تحدٍّ منه لهم وتبرُّؤٌ من آلهتهم، وتنقُّصٌ منه لها، وبيانٌ أنها لا تنفعُ شيئًا ولا تضرُّ، وأنّها جمادٌ، حُكمُها حكمُه وفعلُها فعلُه، فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصرُ وتنفعُ وتضرُّ، فها أنا بريءٌ منها، لاعِنٌ لها ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ أنتم وهي جميعًا، بجميعِ ما يمكنكم أن تصِلوا إليه، وتقدِروا عليه، ولا تؤخِّروني ساعةً واحدةً ولا طَرْفَةَ عينٍ، فإني لا أبالي بكم، ولا أفكِّر فيكم، ولا أنظرُ إليكم ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] أي؛ أنا متوكلٌ على الله، ومتأيِّدٌ به، وواثِقٌ بجَنابِه الذي لا يُضيعُ مَن لاذَ به، واستنَد إليه، فلستُ أبالي مخلوقًا سواه، ولستُ أتوكلُ إلا عليه، ولا أعبدُ إلا إياه. وهذا وحدَه برهانٌ قاطعٌ على أنَّ هودًا عبدُ اللهِ ورسولُه، وأنهم على جهلٍ وضلالٍ في عبادتِهم غيرَ اللهِ؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوءٍ، ولا نالوا منه مكروهًا، فدلَّ على صِدْقِه فيما جاءهم به، وبُطلانِ ما هم عليه، وفسادِ ما ذهبوا إليه. وهذا الدليلُ بعينه قد استدلَّ به نوحٌ عليه السَّلامُ، قبلَه في قولِه: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

وهكذا قال الخليلُ عليه السلامُ: ﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٣]. ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٥]. استبعدوا أن يبعثَ اللهُ رسولاً بشريًّا، وهذه الشُّبْهةُ أَدْلَى بها كثيرٌ من جهَلَةِ الكفرةِ قديمًا وحديثًا؛ كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥]. ولهذا قال لهم هودٌ عليه السلامُ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣]. أي؛ ليس هذا بعجيبٍ؛ فإنَّ اللهَ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالَتَه. وقولُه: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ

(٣٧) إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٨]. استبعدوا المعادَ، وأنكروا قيامَ الأجساد بعدَ صيرورتها ترابًا وعظامًا، وقالوا: هيهاتَ هيهاتَ. أي: بعيدٌ بعيدٌ هذا الوعدُ، ﴿إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾. أي: يموتُ قومٌ ويَحْيا آخرون. وهذا هو اعتقادُ الدَّهْرِيَّة، كما يقولُ بعضُ الجهلة من الزَّنادقة: أرحامٌ تَدْفَعُ، وأرضٌ تَبْلَعُ. وأمَّا الدُّوريةُ، فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلىٰ هذه الدار بعدَ كلِّ ستةٍ وثلاثين ألفَ سنةٍ. وهذا كلُّه كَذِبٌ وكفرٌ وجهلٌ وضلالٌ، وأقوالٌ باطلةٌ، وخيالٌ فاسدٌ بلا برهانٍ ولا دليلٍ، يستميلُ عقلَ الفجرةِ الكفرة من بني آدمَ، الذين لا يعقلون ولا يهتدون؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣]. وقال لهم فيما وعظَهم به: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ يقولُ لهم: أتَبْنُون بكلِّ مكانٍ مرتفعٍ بناءً عظيمًا هائلاً، كالقصورِ ونحوها تعبثون ببنائها؛ لأنَّه لا حاجةَ لكم فيه. وما ذاك إلا لأنَّهم كانوا يسكنون الخيامَ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ فعادُ إرَمَ هم عادٌ الأُولَىٰ، الذين كانوا يسكُنون الأعمدةَ التي تحملُ الخيامَ. ومن زعَم أن إرَمَ مدينةٌ من ذهبٍ وفضةٍ، وهي تنتقلُ في البلادِ، فقد غَلَط وأخطأ، وقال ما لا دليلَ عليه.

وقولُه: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ قيل: هي القصورُ. وقيل: بروجُ الحمام. وقيل: مآخذُ الماء. ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي؛ رجاءً منكم أن تُعمَّروا في هذه الدار أعمارًا طويلةً. ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وقالوا له فيما قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. أي: أجئتنا لنعبدَ اللهَ وحدَه، ونخالفَ آباءَنا وأسلافَنا وما كانوا عليه؟ فإنْ كنتَ صادقًا فيما جئتَ به، فأتنا بما تعدُنا من العذابِ والنَّكالِ، فإنَّا لا نؤمنُ بك ولا نتَّبعُك ولا نصدقُك. كما قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أمَّا علىٰ قراءة فَتْح الخاء، فالمرادُ به اختلاقُ الأولين، أي: إنْ هذا الذي جئتَ به إلا اختلاقٌ منك، وأخذتَه من كتبِ الأولين. هكذا فسَّره غيرُ واحدٍ من الصحابة والتابعين. وأمَّا علىٰ قراءة ضمِّ الخاء واللام، فالمرادُ به الدِّين. أي: إنْ هذا الدينُ الذي نحن عليه إلا دينُ الآباء والأجداد من أسلافنا، ولن نتحولَ عنه، ولا نتغيرُ، ولا نزالُ متمسِّكين به.

ويناسبُ كلا القراءتين؛ الأولىٰ والثانية، قولُهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ قال: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾. أي: قد استحَقَّيتُم بهذه المقالة الرِّجسَ والغضبَ من الله، أتعارضون عبادةَ الله وحدَه لا شريكَ له بعبادةِ أصنامٍ أنتم نحتُّموها، وسمَّيتُموها آلهةً من تلقاءِ أنْفسكم، اصطلَحتم

عليها أنتم وآباؤكم ﴿مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي: لم يُنزِّلْ على ما ذهبتم إليه دليلاً ولا برهانًا، وإذا أبيتُم قَبولَ الحقِّ، وتماديتُم في الباطلِ، وسواءٌ عليكم أنَهيتُكم عمّا أنتم فيه أم لا، فانتظروا الآن عذابَ اللهِ الواقعَ بكم، وبأسَه الذي لا يُرَدُّ ونكالَه الذي لا يُصَدُّ. وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾، وقد ذكر اللهُ تعالى خبرَ إهلاكهم في غيرِ ما آية، كما تقدم مُجْمَلاً ومُفَصَّلاً؛ كقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾، وكقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾، وكقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وأما تفصيلُ إهلاكهم، فلمّا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كان هذا أولَ ما ابتدأهم العذابُ؛ أنَّهم كانوا مُمْحِلين مُسْنِتين، فطلبوا السُّقْيا، فرأَوا عارضًا في السماء وظنُّوه سُقْيا رحمة، فإذا هو سُقْيا عذاب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾. أي: من وُقوعِ العذابِ، وهو قولُهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ومثلُها في «الأعراف».

وقد ذكر المفسرون وغيرُهم ها هنا الخبرَ الذي ذكره الإمامُ محمدُ بنُ إسحاقَ بنِ يَسَار[١] ، قال: قال: فلمّا أَبَوْا إلا الكفرَ باللهِ عزّ وجلّ، أمسَك عنهم المطرَ ثلاثَ سنين، حتى جَهَدَهم ذلك. قال: وكان الناسُ إذا جَهَدهم أمرٌ في ذلك الزمانِ، فطلبوا من اللهِ الفرجَ منه، إنما يطلبونه بحَرَمِه ومكانِ بيتِه، وكان معروفًا عندَ أهلِ ذلك الزمانِ، وبه العَمَاليقُ مقيمون، وهم من سُلالةِ عِمْليقَ بنِ لاوَذَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ، وكان سيِّدُهم إذ ذاك رجلاً يُقالُ له: مُعاويةُ بنُ بَكْرٍ. وكانت أمُّه من قومِ عادٍ، واسمُها: جلهدةُ ابنةُ الخَيْبَرِيِّ. قال: فبعثَ عادٌ وفدًا قريبًا من سبعين رجلاً ليستَقُوا لهم عندَ الحرمِ، فمرُّوا بمعاويةَ بنِ بكرٍ بظاهرِ مكةَ، فنزلوا عليه فأقاموا عندَه شهرًا يشربون الخمرَ، تُغَنِّيهم الجَرَادتان - قَيْنَتان لمعاوية - وكانوا قد وصلوا إليه في شهرٍ، فلما طال مُقامُهم عندَه، وأخذته شفَقةٌ على قومِه،

(١) **ضعيف الإسناد:** رواه ابن جرير (٥/ الجزء الثامن/ ٢١٧) بسند فيه: ابن حميد.

واستحيَىٰ منهم أن يأمرَهم بالانصرافِ، عَمِل شعراً يُعَرِّضُ لهم بالانصرافِ، وأمر القَيْنَتَيْن أن تُغنِّيَاهم به، فقال:

ألا يا قَيْلُ ويْحَكَ قُمْ فَهَيْنِمْ … لعلَّ اللهَ يُصبِحُنا غَمامَا
فيَسقِي أرضَ عادٍ إنَّ عادًا … قدَ امْسَوْا لا يُبِينون الكلامَا
مِن العطشِ الشديدِ فليسَ نرجو … به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلامَا
وقد كانت نساؤُهُمُ بخيرٍ … فقد أمستْ نساؤُهُمُ عَيَامَا
وإنّ الوَحشَ يأتيهم جَهاراً … ولا يخشَىٰ لعاديٍّ سِهامَا
وأنتمْ ها هنا فيما اشتَهَيتم … نهارَكُمُ وليلَكُمُ التَّمامَا
فقُبِّحَ وفدُكم مِن وفدِ قومٍ … ولا لُقُّوا التَّحيَّةَ والسَّلامَا

قال: فعندَ ذلك تنبَّه القومُ لِما جاءوا له، فنهضوا إلىٰ الحرمِ، ودعَوْا لقومِهم، فدعا داعِيهم، وهو قَيْلُ بنُ عِتْرٍ، فأنشأ اللهُ سحاباتٍ ثلاثاً؛ بيضاءَ وحمراءَ وسوداءَ، ثم ناداه منادٍ من السماءِ: اخترْ لنفسِك ولقومِك من هذا السحاب. فقال: اخترتُ السحابةَ السوداءَ؛ فإنها أكثرُ السحابِ ماءً. فناداه منادٍ: اخترتَ رَماداً رِمْدَدًا، لا تُبْقِي مِن عادٍ أحدًا، لا والدًا تَترِكُ ولا ولدًا، إلا جعلتْه هَمِدًا، إلاَّ بنِي اللَّوْذِيَّةِ المُهْدَا. قال: وهو بطْنٌ مِن عادٍ كانوا مقيمين بمكةَ، فلم يُصِبْهم ما أصاب قومَهم. قال: ومَن بَقِيَ مِن أنسابِهم وأعقابِهم هم عادٌ الآخِرةُ. قال: وساق اللهُ السحابةَ السوداءَ التي اختارها قَيْلُ بنُ عِتْرٍ، بما فيها من النقمةِ إلىٰ عادٍ، حتىٰ تخرجَ عليهم من وادٍ يقالُ له: المُغيثُ. فلما رأَوْها استبشروا، وقالوا: هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا. فيقولُ تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾. أي: كلَّ شيءٍ أُمِرَتْ به. فكان أوّلُ من أبصرَ ما فيها وعرَف أنها ريحٌ فيما يذكرون، امرأةً مِن عادٍ يقالُ لها: مهدُ. فلما تبينتْ ما فيها صاحتْ ثم صَعِقَتْ، فلمَّا أفاقت قالوا: ما رأيتِ يا مهدُ؟ قالت: رأيتُ ريحًا فيها كشُهبِ النارِ، أمامَها رجالٌ يقودونها. فسخرها اللهُ عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ والحُسُومُ: الدائمةُ. فلم تدعْ مِن عادٍ أحدًا إلا هلَك. قال: واعتزَل هودٌ، عليه السلامُ، فيما ذُكِر لي، في حظيرةٍ هو ومَن معه مِن المؤمنين، ما يُصيبُهم إلاَّ ما يُلينُ عليهم الجلودَ، وتَلْتَذُّ الأنفسُ، وإنها لَتَمُرُّ علىٰ عادٍ بالظَّعنِ فيما بينَ السماءِ والأرضِ، وتَدْمَغُهم بالحجارةِ. وذكَر تمامَ القصة.

وقد روَى الإمامُ أحمدُ[1] **حديثًا في «مُسنَده»، يشبهُ هذه القصةَ، فقال:** حدثنا زيدُ بنُ الحُبابِ، حدثني أبو المنذرِ سلاَّمُ بنُ سليمانَ النَّحْويُّ، حدثنا عاصمُ بنُ أبي النَّجُودِ، عن أبي وائلٍ، عن الحارثِ، وهو ابنُ حَسَّانَ، ويقالُ: ابنُ يزيدَ البَكْرِيُّ. قال: خرجْتُ أشكو العلاءَ بنَ الحَضْرَمِيِّ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ فمررتُ بالرَّبَذَةِ، فإذا عجوزٌ مِن بني تميمٍ مُنْقَطعٌ بها، فقالت لي: يا عبدَ اللهِ، إن لي

(١) حسن: فيه سلام بن سليمان، قال البخاري يقال عن حماد بن سلمة: أحفظ لحديث عاصم من حماد بن زيد. المسند (٢/ ٤٨١ ـ ٤٨٢) من رواية عفان وزيد بن الحباب عن سلام ورواه الترمذي (٣٢٧٢ ـ ٣٢٧٣)، والنسائي في الكبرى (٨٦٠٧)، وابن ماجه (٢٨١٦).

إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ حاجةٌ، فهل أنت مُبَلِّغي إليه؟ قال: فحملتُها، فأتيتُ المدينةَ، فإذا المسجدُ غاصٌّ بأهله، وإذا رايةٌ سوداءُ تَخفقُ، وبلالٌ متقلِّدٌ السيفَ بينَ يَدَيْ رسولِ الله ﷺ، فقلتُ: ما شأنُ الناسِ؟ قالوا: يريدُ أنْ يبعثَ عمرَو بنَ العاصِ وَجْهًا. قال: فجلستُ. قال: فدخل منزلَه ـ أو قال: رَحْلَه ـ فاستأذنتُ عليه فأَذِنَ لي، فدخلتُ فسلَّمتُ، فقال: «هل كان بينكم وبينَ بني تَميم شيءٌ؟». فقلتُ: نعم. قال: وكانت لنا الدَّبَرَةُ عليهم، ومررتُ بعجوزٍ من بني تميم مُنْقطعٍ بها، فسألتْني أن أحملَها إليك، وها هي بالباب. فأَذِنَ لها فدخلتْ، فقلتُ: يا رسولَ الله، إنْ رأيتَ أنْ تجعلَ بينَنا وبينَ بني تميمٍ حاجزًا، فاجعلِ الدَّهْنَاءَ. فحَمِيتِ العجوزُ واستوفَزَت، قالت: يا رسولَ الله، فإلىٰ أين تَضْطَرُّ مُضَرَكَ؟ قال: قلتُ: إن مثلي ما قال الأولُ: معْزَىٰ حملتْ حتْفَها. حملتُ هذه ولا أشعرُ أنَّها كانت لي خصْمًا، أعوذُ باللهِ ورسوله أن أكونَ كوافدِ عادٍ، قال: «هيه، وما وافدُ عادٍ؟». وهو أعلمُ بالحديثِ منه، ولكن يَستطعمُه، قلتُ: إن عادًا قَحَطوا، فبعثوا وافدًا لهم يقالُ له: قَيْلٌ. فمرَّ بمعاويةَ ابنِ بكرٍ، فأقام عندَه شهرًا يسقيه الخمرَ، وتُغنِّيه جاريتان يُقالُ لهما: الجَرادَتان. فلمَّا مضىٰ الشهرُ خرَجَ إلىٰ جبالِ تِهامَةَ فنادَىٰ: اللهم إنَّك تعلمُ أني لم أجِئْ إلىٰ مريضٍ فأداويَه، ولا إلىٰ أسيرٍ فأفاديَه، اللهمَّ اسقِ عادًا ما كنتَ تسقيه. فمرت به سحاباتٌ سودٌ، فنوديَ منها: اخترْ. فأوْمَأ إلىٰ سحابةٍ منها سوداءَ، فنُودِيَ منها: خُذْها رمادًا رِمْدَدًا، لا تُبْقِي من عادٍ أحدًا. قال: فما بلغني أنه بُعث عليهم من الريحِ إلا كقَدْرِ ما يجري في خاتَمي هذا من الريحِ، حتىٰ هلكوا. قال أبو وائلٍ، وصدَقَ: وكانت المرأةُ والرجلُ إذا بعثوا وفدًا لهم، قالوا: لا تكنْ كوافدِ عادٍ. وهكذا رواه التِّرمذيُّ عن عبدِ بنِ حُمَيْدٍ، عن زيدِ بن الحُبابِ به. ورواه النَّسائيُّ من حديثِ سلاَّمٍ أبي المنذرِ، عن عاصمِ بنِ بَهْدَلَةَ. ومن طريقه رواه ابنُ ماجَهْ. وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عندَ تفسيرِ هذه القصةِ غيرُ واحدٍ من المفسرين كابنِ جَريرٍ[1] وغيرِه.

وقد يكونُ هذا السياقُ لإهلاكِ عادٍ الآخرةِ؛ فإن فيما ذكَره ابنُ إسحاقَ وغيرُه ذكْرًا لمكةَ، ولم تُبْنَ إلا بعدَ إبراهيمَ الخليلِ، حينَ أسكَنَ فيها هاجَرَ وابنَه إسماعيلَ، فنزلتْ جُرْهُمُ عندَهم، كما سيأتي، وعادٌ الأولىٰ قبلَ الخليلِ. وفيه ذِكْرُ معاويةَ بن بكرٍ وشعرِه، وهو من الشعرِ المتأخرِ عن زمانِ عادٍ الأولىٰ، لا يُشْبِهُ كلامَ المتقدمين. وفيه أن في تلك السَّحابةِ شررَ نارٍ، وعادٌ الأولىٰ إنَّما أُهلكوا بريحٍ صَرْصَرٍ. وقد قال ابنُ مسعودٍ، وابنُ عباسٍ[2]، وغيرُ واحدٍ من أئمة التابعين: هي الباردةُ والعاتيةُ الشديدةُ الهبوبِ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]. أي: كواملَ متتابعات. قيل: كان أولُها الجمعةُ. وقيل: الأربعاءُ. ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾

---

(١) ابن جرير (٥/ الجزء الثامن/ ٢٢٠).

(٢) سنده ضعيف جدًّا: رواهما ابن جرير (١٤/ الجزء ٢٩/ ٤٩ ـ ٥٠)، أثر ابن مسعود فيه: ابن حميد: ضعيف وأثر ابن عباس ضعيف من رواية العوفي عنه.

[الحاقة: ٧]. شبَّههم بأعجاز النخلِ التي لا رءوسَ لها؛ وذلك لأن الريحَ كانت تجيءُ إلى أحدهم فتحملُه، فترفعُه في الهواء، ثم تُنكِّسُه على أمِّ رأسه فتَشْدَخُه، فيبقَى جثّةً بلا رأس، كما قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]. أي: في يوم نحسٍ عليهم، مستمرٍّ عذابُه عليهم ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]. ومن قال: إن اليومَ النَّحْسَ المستَمِرَّ هو يومُ الأربعاء. وتشاءَمَ به لهذا الفهم، فقد أخطأ وخالفَ القرآن، فإنَّه قال في الآية الأخرى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]. ومعلومٌ أنها ثمانيةُ أيامٍ متتابعاتٍ، فلو كانت نَحِساتٍ في أنفسها، لكانت جميعُ الأيام السبعة المُنْدَرِجة فيها مشئومةً، وهذا لا يقولُه أحدٌ، وإنما المرادُ في أيامٍ نحساتٍ، أي: عليهم. وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]. أي: التي لا تُنْتِجُ خيرًا. فإن الريحَ المفردةَ لا تنثُرُ سحابًا ولا تَلْقحُ شجرًا، بل هي عقيمٌ لا نتيجة خيرٍ لها؛ ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]. أي: كالشيءِ البالي الفاني الذي لا يُنْتَفَعُ به بالكلية. وقد ثبَت في «الصحيحين»[1] من حديث شُعْبَةَ عن الحَكَم، عن مُجاهدٍ، عن ابن عباسٍ، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور». وأما قولُه تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]. فالظاهرُ أن عادًا هذه هي عادٌ الأُولَى، فإن سياقَها شبيهٌ بسياقِ قومِ هودٍ، وهم الأولَى. ويَحتَمِلُ أن يكونَ المذكورون في هذه القصة هم عادٌ الثانيةُ. ويدلُّ عليه ما ذكرنا، وما سيأتي من الحديث، عن عائشة رضي اللهُ عنها. وأما قولُه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]. فإنَّ عادًا لما رَأَوْا هذا العارضَ، وهو الناشئُ في الجوِّ كالسحاب، ظنُّوه سحابَ مطرٍ، فإذا هو سحابُ عذابٍ، اعتقدوه رحمةً فإذا هو نقْمَةٌ، رَجَوْا فيه الخيرَ فنالوا منه غايةَ الشَّر. قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٤]. أي: من العذاب. ثم فسَّره بقوله: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]. يَحتَمِلُ أن ذلك العذابَ هو ما أصابهم من الريح الصَّرْصَرِ العاتية الباردة، الشديدة الهبوب، التي استمرت عليهم سبعَ ليالٍ بأيامها الثَّمانية، فلم تُبْقِ منهم أحدًا، بل تتبَّعتْهم حتى كانت تدخلُ عليهم كهوفَ الجبالِ والغيرانِ، فتلُفُّهم وتُخْرِجُهم وتُهْلِكُهم، وتدمرُ عليهم البُيوتَ المُحْكَمَةَ، والقصورَ المشيَّدَةَ، فكما مُنُوا بقوتهم وشدتهم. وقالوا: مَن أَشَدُّ منا قوةً؟ سلَّط اللهُ - الذي هو أشدُّ منهم قوةً - عليهم ما هو أشدُّ منهم قوةً وأقدرُ عليهم، وهو الريحُ العقيمُ. ويَحتمِلُ أن هذه الريحَ أثارتْ في آخرِ الأمرِ سحابةً ظَنَّ مَن بَقِيَ منهم أنها سحابةٌ فيها رحمةٌ بهم، وغياثٌ لمَن بَقِيَ منهم، فأرسلها اللهُ عليهم شررًا ونارًا، كما ذكره غيرُ واحدٍ، ويكونُ هذا كما أصابَ أصحابَ الظُّلَّةِ من أهلِ

---

(١) متفق عليه: البخاري (١٠٣٥ - ٣٢٠٥)، مسلم (٢٠٨٤).

مَدْيَنَ، وجمعَ لهم بينَ الريحِ الباردةِ وعذابِ النارِ، وهو أشدُّ ما يكونُ من العذابِ بالأشياءِ المختلفةِ المتضادَّةِ، مع الصيحةِ التي ذكرها في سورةِ «قد أفلح المؤمنون». واللهُ أعلمُ.

وقد قال ابنُ أبي حاتمٍ[1] : حدثنا أبي، حدثنا محمدُ بنُ يحيى بنِ الضَّرِيسِ، حدثنا ابنُ فُضَيْلٍ، عن مسلمٍ، عن مجاهدٍ، عن ابنِ عمرَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ما فَتحَ اللهُ على عاد من الرِّيحَ التي أُهْلِكُوا بها، إلاَّ مِثْلَ مَوْضعِ الخاتَمِ، فمرَّتْ بأهْلِ البادية، فحملَتْهُم ومواشِيَهُم وأمْوالَهم، وحَمَلَتْهُم بينَ السَّمَاءِ والأرْضِ، فلمَّا رأى ذلك أهلُ الحاضِرةِ من عادِ الرِّيحَ وما فيها ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾** [الأحقاف: ٢٤]. **فألقَتْ أهل البادِيةِ ومواشِيَهم على أهلِ الحاضِرةِ**». وقد رواه الطَّبرانيُّ[2] عن عَبْدانَ ابنِ أحمدَ، عن إسماعيلَ بنِ زكريا الكوفيِّ، عن أبي مالكٍ، عن مسلمٍ المُلائيِّ، عن مجاهدٍ وسعيدِ بنِ جُبيرٍ، عن ابنِ عباسٍ - كذا قال - قال رسُولُ الله ﷺ: «**ما فُتح على عاد من الرِّيحِ إلا مثْلُ مَوْضعِ الخاتَم، ثم أُرْسلَتْ عليهم، فحَمَلَتْهُم البَدْوَ إلى الحَضَر، فلمَّا رآها أهلُ الحضرِ قالُوا: هذا عارضٌ مُمْطِرُنا مُسْتَقْبِلُ أوْديَتِنا. وكان أهلُ البوادِي فيها، فأُلْقِيَ أهلُ البادِيَةِ على أهلِ الحاضِرَةِ حتى هلَكُوا**». قال: عتتْ على خَزائِنِها حتىٰ خرجتْ مِن خلالِ الأبوابِ. قلت: وقال غيرُه: خرجَتْ بغيرِ حسابٍ. والمقصودُ أنّ هذا الحديثَ في رفعِه نَظَرٌ، ثم اختُلِفَ فيه علىٰ مُسلمٍ المُلائيِّ، وفيه نوعُ اضطرابٍ. واللهُ أعلمُ.

وظاهرُ الآيةِ أنهم رأَوْا عارضًا، والمفهومُ منه لغةً السحابُ. كما دلَّ عليه حديثُ الحارثِ بنِ حسَّانَ البَكْريِّ، إنْ جعلناه مفسِّرًا لهذه القصةِ، وأصرحُ منه في ذلك ما رواه مسلمٌ في «صحيحِه»، حيث قال: حدثنا أبو الطَّاهرِ، حدثنا ابنُ وَهْبٍ، سمعتُ ابنَ جُرَيْجٍ يحدثُنا، عن عطاءِ بن أبي رَبَاحٍ، عن عائشةَ، رضي اللهُ عنها، قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا عصفَتِ الرِّيحُ قال: «**اللهمَّ إنِّي أسْأَلُكَ خيْرَها وخَيْرَ ما فيها وخَيْرَ ما أُرْسلَتْ به، وأَعُوذُ بك من شرِّها وشَرِّ ما فيها وشرِّ ما أُرْسِلَتْ به**». قالت: وإذا تَخيَّلَت السماءُ تغيَّر لونُه، وخرج ودخَل، وأقبلَ وأدبرَ، فإذا أمطرتْ سُرِّيَ عنه، فعرَفتْ ذلك عائشةُ، فسألْته، فقال: «**لعلَّه يا عائشةُ كما قال قومُ عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾**»[3] . رواه التِّرمذيُّ والنَّسائيُّ وابنُ ماجَهْ، من حديث ابنِ جُرَيْجٍ.

طريقٌ أخرى، قال الإمامُ أحمدُ[4] : حدثنا هَارونُ بنُ مَعْرُوفٍ، أنبأنا عبدُ اللهِ بنُ وَهْبٍ، أنبأنا عمرٌو، وهو ابنُ الحارثِ، أن أبا النَّضرِ حدَّثه، عن سُلَيمانَ بنِ يَسارٍ، عن عائشةَ، أنها قالت: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ مُستجمِعًا ضاحكًا قَطُّ حتىٰ أَرَىٰ منه لَهَواتِه، إنما كان يتبسَّمُ. وقالت: كان إذا رأَىٰ غَيْمًا أو ريحًا عُرِفَ ذلك في وجهِه. قالت: يا رسولَ اللهِ، الناسُ إذا رأَوُا الغيمَ فرِحوا؛ رجاءَ

---

(١) **ضعيف**: لم أقف عليه في النسخة المطبوعة من تفسير ابن أبي حاتم.

(٢) **ضعيف**: «الكبير» (١٣٥٥٣) من رواية ابن عمر، و(١٢٤١٦) من رواية ابن عباس. وعلته: مسلم الملائي وهو ابن كيسان: ضعيف.

(٣) **صحيح**: مسلم (٢٠٨٢)، والترمذي (٣٤٤٩)، الكبرى (١٠٧٧٧)، وابن ماجه (٣٨٩١).

(٤) **متفق عليه**: المسند (٦/ ٦٦)، ومسلم (٢٠٨٣)، والبخاري (٤٨٢٨ ـ ٤٨٢٩)، أبو داود (٥٠٩٨).

أن يكونَ فيه المطرُ، وأراكَ إذا رأيتَه عُرِفَ في وجْهِكَ الكراهيةُ؟ فقال: «**يا عائشةُ، ما يُؤَمِّنُني أنْ يكونَ فيه عذابٌ؛ قد عُذِّبَ قومٌ بالرِّيحِ، وقد رأى قومٌ العذابَ فقالوا: هذا عارضٌ مُمْطِرُنا**». وهكذا رواه مسلمٌ عن هارونَ بنِ معروفٍ، وأخرجه البخاريُّ وأبو داودَ من حديثِ ابنِ وَهْبٍ. فهذا الحديثُ كالصريحِ في تغايُرِ القصتين، كما أشرنا إليه أولاً. فعلى هذا تكونُ القصةُ المذكورةُ في سورةِ «الأحقاف» خبرًا عن قومِ عادٍ الثانيةِ، وتكونُ بقيةُ السِّياقاتِ في القرآنِ خبرًا عن عادٍ الأولى، واللهُ أعلمُ بالصواب.

وقدمنا حجَّ هودٍ، عليه السلامُ، عندَ ذكرِ حجِّ نوحٍ، عليه السلامُ. ورُوِي عن أميرِ المؤمنين علي ابنِ أبي طالبٍ، أنه ذكَر صفةَ قبرِ هودٍ، عليه السلامُ، في بلادِ اليمنِ. وذكر آخرون أنه بدمشقَ، وبجامعِها مكانٌ في حائطه القِبْليِّ، يزعُمُ بعضُ الناسِ أنَّه قبرُ هودٍ، عليه السلامُ، واللهُ أعلمُ.

قصة صالح نبي ثمود عليه الصلاة والسلام

وهم قبيلةٌ مشهورةٌ يقالُ لهم: ثمودُ. باسمِ جَدِّهم ثمودَ أخي جَديسٍ، وهما ابْنا عابِرِ بنِ إرَمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ، وكانوا عربًا من العاربةِ، يسكنون الحِجْرَ الذي بينَ الحجازِ وتبوكَ، وقد مرَّ به رسولُ اللهِ ﷺ وهو ذاهبٌ إلى تبوكَ بمَن معه من المسلمين، كما سيأتي بيانُه. وكانوا بعدَ قومِ عادٍ، وكانوا يعبدون الأصنامَ كأولئك، فبعث اللهُ فيهم رجلاً منهم، وهو عبدُ اللهِ ورسولُه صالحُ بنُ عُبَيْدِ بنِ ماسخِ بنِ عُبَيْدِ بنِ حاجرِ بنِ ثمودَ بنِ عابرِ بنِ إرَمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ، فدعاهم إلى عبادةِ اللهِ وحدَه لا شريكَ له، وأن يخلعوا الأصنامَ والأندادَ، ولا يُشركوا به شيئًا، فآمَنَتْ به طائفةٌ منهم، وكفَر جمهورُهم، ونالوا منه بالمَقالِ والفعالِ، وهمُّوا بقتلِه، وقتلوا الناقةَ التي جعلَها اللهُ حُجَّةً عليهم، فأخذَهم اللهُ أخْذَ عزيزٍ مُقتدرٍ؛ كما قال تعالى في سورةِ «الأعراف»: ﴿**وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٩]. وقال تعالى في سورة هود: ﴿**وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ**

مريب (٦٢) قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير (٦٣) ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب (٦٤) فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب (٦٥) فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز (٦٦) وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين (٦٧) كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود﴾ [هود: ٦١-٦٨]. وقال تعالى في سورة «الحجر»: ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين (٨٠) وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين (٨١) وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين (٨٢) فأخذتهم الصيحة مصبحين (٨٣) فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ [الحجر: ٨٠-٨٤]. وقال سبحانه وتعالى في سورة «سبحان»: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقال تعالى في سورة «الشعراء»: ﴿كذبت ثمود المرسلين (١٤١) إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون (١٤٢) إني لكم رسول أمين (١٤٣) فاتقوا الله وأطيعون (١٤٤) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (١٤٥) أتتركون في ما هاهنا آمنين (١٤٦) في جنات وعيون (١٤٧) وزروع ونخل طلعها هضيم (١٤٨) وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين (١٤٩) فاتقوا الله وأطيعون (١٥٠) ولا تطيعوا أمر المسرفين (١٥١) الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون (١٥٢) قالوا إنما أنت من المسحرين (١٥٣) ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين (١٥٤) قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم (١٥٥) ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم (١٥٦) فعقروها فأصبحوا نادمين (١٥٧) فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٥٨) وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ [الشعراء: ١٤١-١٥٩]. وقال تعالى في سورة «النمل»: ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون (٤٥) قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون (٤٦) قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون (٤٧) وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون (٤٨) قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون (٤٩) ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون (٥٠) فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين (٥١) فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون (٥٢) وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ [النمل: ٤٥-٥٣]. وقال تعالى في سورة «حم السجدة»: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون (١٧) ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ [فصلت: ١٧، ١٨]. وقال تعالى في سورة «اقتربت»: ﴿كذبت ثمود بالنذر (٢٣) فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر (٢٤) أؤلقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر (٢٥) سيعلمون غدا من الكذاب الأشر (٢٦) إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر (٢٧) ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر (٢٨) فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٢٩) فكيف كان عذابي ونذر (٣٠) إنا

أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ٢٣-٣٢]. وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ [الشمس: ١١-١٥]. وكثيرًا ما يَقرِنُ اللهُ في كتابه بينَ ذكرِ عادٍ وثمودَ، كما في سورة «براءة» و«إبراهيم» و«الفرقان» وسورة «ص»، وسورة «ق» و«النَّجْم» و«الفجر». ويُقالُ: إن هاتين الأمَّتين لا يَعْرِفُ خبرَهما أهلُ الكتاب، وليس لهما ذِكْرٌ في كتابهم التوراة. ولكنْ في القرآن ما يدُلُّ على أن موسى أخبرَ عنهما؛ كما قال تعالى في سورة «إبراهيم»: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الآيةُ [إبراهيم: ٨، ٩]. الظاهرُ أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه، ولكنْ لَمَّا كان هاتان الأمتان من العرب، لم يَضْبِطُوا خبرَهما جيدًا، ولا اعتَنَوْا بحفظه، وإنْ كان خبرُهما كان مشهورًا في زمانِ موسى عليه السلامُ. وقد تكلمنا على هذا كلِّه في «التفسير» مُسْتَقْصًى، ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

والمقصودُ الآنَ ذكرُ قصتِهم، وما كان من أمرِهم، وكيف نجَّى اللهُ نبيَّه صالحًا، عليه السلامُ، ومَن آمنَ به، وكيف قطَع دابرَ القوم الذين ظلموا؛ بكفرِهم، وعُتُوِّهم، ومخالفتِهم رسولَهم، عليه السلامُ.

وقد قدَّمنا أنهم كانوا عربًا، وكانوا بعدَ عادٍ، ولم يعتبِروا بما كان من أمرِهم؛ ولهذا قال لهم نبيُّهم، عليه السلامُ: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾. أي: إنَّما جعلكم خلفاءَ من بعدهم؛ لتعتبروا بما كان من أمرِهم، وتعملوا بخلافِ عملِهم، وأباح لكم هذه الأرضَ تبنُون في سُهولِها القصورَ، وتَنْحِتون من الجبالِ بيوتًا فارِهين. أي: حاذقين في صَنْعتِها وإتقانِها وإحكامِها، فقابِلُوا نعمةَ اللهِ بالشكرِ والعملِ الصالحِ والعبادةِ له وحدَه لا شريكَ له، وإيّاكم ومخالَفَتَه، والعدولَ عن طاعته؛ فإن عاقبةَ ذلك وخيمةٌ، ولهذا، وعَظَهم بقوله: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ أي؛ متراكمٌ، كثيرٌ، حَسَنٌ، بَهِيٌّ، ناضجٌ. ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾. وقال لهم أيضًا: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي: هو الذي خلَقَكم، فأنشأكم من الأرضِ، وجعلكم عُمَّارَها، أي أعطاكُموها بما فيها من الزروعِ والثِّمارِ، فهو الخالقُ الرزاقُ، فهو الذي يستحقُّ العبادةَ وحدَه لا سواهُ ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾. أي: أقلِعوا عما أنتم فيه، وأقبِلُوا على عبادتِه، فإنه يقبلُ منكم ويتجاوزُ عنكم ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ

كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ﴾ أي: قد كنا نرجو أنْ يكونَ عقلُك كاملاً قبلَ هذه المقالة؛ وهي دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحدَه، وتَرْك ما كنا نعبدُه من الأنداد، والعدول عن دين الآباء والأجداد. ولهذا قالوا: ﴿ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾. وهذا تلطُّفٌ منه لهم في العبارة ولين الجانب، وحُسْن تَأَتٍّ في الدعوة لهم إلى الخير. أي فما ظنُّكم إن كان الأمرُ كما أقولُ لكم وأدعوكم إليه؟ ماذا عذرُكم عندَ الله؟ وماذا يُخلِّصُكم بينَ يَدَيْه، وأنتم تطلبون منّي أن أتركَ دُعاءَكم إلى طاعته؟ وأنا لا يمكنُني هذا؛ لأنَّه واجبٌ عليَّ، ولو تركتُه لَمَا قَدَر أحدٌ منكم ولا من غيركم أن يُجيرَني منه، ولا ينصرَني، فأنا لا أزالُ أدعوكم إلى الله وحده لا شريكَ له، حتى يحكمَ اللهُ بيني وبينَكم. وقالوا له أيضًا: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ أي: من المسحُورين. يعنون: مسحورًا لا تدري ما تقولُ في دُعائك إيَّانا إلى إفراد العبادة لله وحدَه، وخَلْع ما سواه من الأنداد. وهذا القولُ عليه الجمهورُ؛ أن المرادَ بالمُسَحَّرين المسحورون. وقيل: من المُسحَّرين. أي: ممَّنْ له سَحْرٌ ـ وهي الرِّئةُ ـ كأنهم يقولون: إنما أنت بَشَرٌ له سَحْرٌ.

الأولُ أظهرُ؛ لقولهم بعدَ هذا: ﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾. وقولُهم: ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ سألوه أن يأتيَهم بخارقٍ يدل على صدق ما جاءهم به ﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ قال: ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾.

وقد ذكَر المفسرون أن ثمودَ اجتمعوا يومًا في ناديهم، فجاءهم رسولُ الله صالحٌ، عليه السلامُ، فدعاهم إلى الله تعالى وذكَّرهم وحذَّرهم ووعظهم وأمرهم، فقالوا له: إنْ أنت أخرجتَ لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صخرةٍ هناك ـ ناقةً من صفتها كَيْتَ وكَيْتَ ـ وذكروا أوصافًا سمَّوْها، ونعتُوها وتعنَّتوا فيها ـ وأنْ تكونَ عُشَرَاءَ طويلةً، من صفتِها كذا وكذا. فقال لهم النَّبيُّ صالحٌ، عليه السلامُ: أرأيتُم إنْ أجبتُكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم، أتؤمنون بما جئتُكم به وتصدقُوني فيما أرْسلْتُ به؟ قالوا: نعم. فأخذ عُهودَهم ومواثيقَهم على ذلك، ثم قام إلى مُصلاَّه، فصلَّى لله عزَّ وجلَّ ما قُدِّرَ له، ثم دعا ربَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يُجيبَهم إلى ما طلبوا، فأمَر اللهُ عزَّ وجلَّ تلك الصخرةَ أن تَنْفَطِرَ عن ناقةٍ عظيمةٍ كَوْماءَ عُشَراءَ، على الوجه الذي طلبوا، وعلى الصفة التي نَعَتُوا، فلما عاينُوها كذلك، رأَوْا أمرًا عظيمًا، ومنظرًا هائلاً، وقدرةً باهرةً، ودليلاً قاطعًا وبُرهانًا ساطعًا، فآمَن كثيرٌ منهم، واستمرَّ أكثرُهم على كفرهم وضلالهم، وعنادهم؛ ولهذا قال: ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أي: جحَدوا بها ولم يتَّبِعُوا الحقَّ بسببِها. أي: أكثرُهم. وكان رئيسُ الذين آمنوا جُنْدَعَ بنَ عمرِو بنِ مخلاةَ بنِ لَبيدِ

ابنِ جَوَّاسٍ، وكان مِن رؤسائهم، وهَمَّ بقيَّةُ الأشرافِ بالإسلامِ، فَصَدّهم ذُؤَابُ بنُ عمرَ بنِ لَبِيدٍ والحُبابُ صاحبُ أوثانهم، ورَبابُ بنُ صَمْعَرِ بنِ جَلْهسٍ، ودعا جُنْدَعٌ ابنَ عمِّه شهابَ بنَ خليفةَ، وكان مِن أشرافِهم، فهَمَّ بالإسلامِ، فنهاه أولئك، فمال إليهم، فقال في ذلك رجلٌ من المسلمين، يقالُ له: مِهْرَشُ بنُ غَنْمةَ بنِ الدُّمَيلِ، رحمه اللهُ شعراً:

وكانتْ عُصْبَةٌ من آلِ عمرو ... إلى دينِ النبيِّ دَعَوْا شِهابا
عزيزَ ثمودَ كلُّهُمُ جميعاً ... فهَمَّ بأن يُجيبَ ولو أجابَا
لأصبحَ صالحٌ فينا عزيزاً ... وما عَدَلُوا بصاحبِهِمْ ذُؤَابا
ولكنَّ الغُواةَ مِنَ آلِ حِجْرٍ ... تولَّوا بعدَ رُشْدِهمُ ذئابَا

ولهذا قال لهم صالحٌ، عليه السلامُ: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ أضافها لله سبحانه وتعالى إضافةَ تشريفٍ وتعظيمٍ؛ كقوله: بيتُ الله و: عبدُ الله ﴿لَكُمْ آيَةً﴾ أي: دليلاً على صدقِ ما جئتُكم به ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ فاتفق الحالُ على أنْ تبقَى هذه الناقةُ بينَ أظهرِهم تَرْعَى حيث شاءت مِن أرضِهم، وتَرِدَ الماءَ يومًا بعدَ يومٍ، وكانت إذا ورَدت الماءَ تشربُ ماءَ البئرِ يومَها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتَهم من الماءِ في يومِهم لغدِهم. ويقالُ: إنهم كانوا يشربون مِن لبنِها كفايَتَهم. ولهذا قال: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾ أي: اختباراً لهم؛ أيؤمنون بها، أم يكفرون؟ واللهُ أعلمُ بما يفعلون ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ أي: انتظرْ ما يكونُ مِن أمرِهم ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ على أذاهم فسيأتيك الخبرُ على جَلِيَّةٍ ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ فلمّا طال عليهم الحالُ هذا، اجتمع ملؤُهم، واتفق رأيُهم على أنْ يَعْقِروا هذه الناقةَ؛ ليستريحوا منها، ويتوفَّرَ عليهم ماؤُهم، وزيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم. قال اللهُ تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. وكان الذي تولَّى قَتْلَها منهم رئيسَهم قُدارَ بنَ سالفِ بنِ جُنْدَعٍ، وكان أحمرَ أزرقَ قصيراً، وكان يقالُ: إنه ولَدُ زانيةٍ، وُلِدَ على فراشِ سالفٍ. وهو من رجلٍ يقالُ له: صَيبانُ. وكان فعلُه ذلك باتفاقِ جميعِهم؛ فلهذا نُسب الفعلُ إلى جميعِهم كلِّهم.

وذكر ابنُ جريرٍ، وغيرُه من علماءِ المفسرين، أن امرأتَيْن من ثمودَ، اسمُ إحداهما صَدُوفُ بنتُ المحيَّا بنِ زهيرِ بنِ المحيَّا. وكانت ذاتَ حَسَبٍ ومالٍ، وكانت تحتَ رجلٍ من أَسْلَمَ، ففارقَتْه، فدعت ابنَ عمٍّ لها، يقالُ له: مِصْدَعُ بنُ مَهْرَجِ بنِ المحيَّا. وعرضَتْ عليه نفسَها إنْ هو عقَر الناقةَ. واسمُ الأخرى عُنَيْزةُ بنتُ غُنْمِ بنِ مِجْلَزٍ، وتُكْنَى أمَّ عثمانَ، وكانت عجوزاً كافرةً، لها بناتٌ من زوجها ذُؤابِ بنِ عمرٍو، أحدِ الرؤساءِ، فعرضت بناتِها الأربعَ على قُدارِ بنِ سالفٍ، إنْ هو عقَر الناقةَ فله أيُّ بناتِها شاء، فانتُدب هذان الشَّابَّان لعَقرِها، وسَعَوْا في قومِهم بذلك، فاستجابَ لهم سبعةٌ

آخرون، فصاروا تسعةً؛ وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ وسَعَوْا في بقية القبيلة، وحسَّنوا لهم عقْرَها، فأجابوهم إلى ذلك، وطاوعوهم في ذلك، فانطلقوا يَرْصُدونَ الناقةَ، فلما صَدَرَتْ من وِرْدِها، كَمَنَ لها مصْدَعٌ، فرماها بسهمٍ فانتظَم ساقَها، وجاء النساءُ؛ نساءُ القبيلةِ في قتلها، وحَسَرْن عن وجوههن؛ ترغيبًا لهم، فابتدرَهم قُدارُ بنُ سالفٍ، فشدَّ عليها بالسيف، فكشَفَ عن عُرْقُوبها، فخرَّتْ ساقطةً إلى الأرض، ورَغَتْ رَغَاةً واحدةً عظيمةً، تُحذِّرُ ولدَها، ثم طعَن في لَبَّتِها، فنحرَها، وانطلق سَقْبُها، وهو فَصيلُها، فصعِد جبلاً منيعًا، ورَغَا ثلاثًا.

وروى عبدُ الرَّزَّاق[1]، عن مَعْمَر، عمَّن سَمِعَ الحسنَ، أنه قال: يا ربِّ، أين أمي؟ ثم دَخل في صخرةٍ فغاب فيها، ويقالُ: بل اتَّبعوه فعقَروه أيضًا. قال اللهُ تعالى: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ أي: احذَروها ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾.

قال الإمامُ أحمدُ[2]: حدثنا عبدُ الله بنُ نُمَيْر، حدثنا هشامٌ - هو ابنُ عُروةَ - عن أبيه عن عبد الله ابن زَمْعَةَ قال: خطَب رسولُ الله ﷺ فذكَر النَّاقةَ، وذكَر الذي عقَرها، فقال: ﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾. «انبَعَثَ لها رَجُلٌ عارمٌ، عَزيزٌ منيعٌ في رَهْطِه، مثلُ أبي زَمْعَةَ». أخرجاه من حديث هشامٍ به. عارمٌ؛ أي شهمٌ. عزيزٌ؛ أي رئيسٌ. منيعٌ؛ أي مُطاعٌ في قومه.

وقال محمدُ بنُ إسحاقَ: حدثني يزيدُ بنُ محمدِ بنِ خُثَيْمٍ، عن محمدِ بنِ كعبٍ، عن محمدِ بنِ خُثَيْمٍ أبي يزيدَ، عن عمَّارِ بنِ ياسرٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ لعَليٍّ: «ألا أحدِّثُكَ بأشْقَى النَّاس؟». قال: بلى. قال: «رجُلان؛ أحدُهما أُحَيْمِرُ ثمودَ الذي عَقَرَ النَّاقَةَ، والذي يَضْرِبُكَ يا عَليُّ عَلَى هذا - يعني قَرْنَه - حتى تَبْتَلَّ منه هذه» - يعني لحيَتَه -. رواه ابنُ أبي حاتمٍ[3]. وقال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧]. فجمَعوا في كلامِهم هذا بينَ كُفْرٍ بليغٍ من وجوهٍ؛ منها: أنهم خالَفوا اللهَ ورسولَه في ارتكابِهم النهيَ الأكيدَ في

---

(١) **ضعيف**: عبد الرزاق (١١٢) في «تفسيره»، وفيه راو مبهم.

(٢) **متفق عليه**: المسند (٤/ ١٧)، والبخاري (٣٣٧٧)، ومسلم (٧١٢٠).

(٣) **حسن بمجموع طرقه**: ابن أبي حاتم (١٩٣٥٢)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٧١) ترجمة محمد بن خثيم، وأحمد (٤/ ٢٦٣)، النسائي «الكبرى» (٨٥٣٨)، والحاكم (٣/ ١٤٠) كلهم من هذا الطريق أعلاه. قال البخاري: لا يُعرف رواية ليزيد من محمد ولا محمد بن كعب من ابن خثيم، ولا ابن خثيم من عمار. وله شواهد من ثلاث طرق طريق علي نفسه رضي الله عنه رواه: الطبراني في «الكبير» (١٧٣) وهو أحسن هذه الطرق، فيه: عبد الله بن صالح، ضعيف. ومن طريق صهيب، رواه: الطبراني في «الكبير» (٧٥١١) وأبو يعلى (٤٨٥). وفيه رشدين بن سعد: ضعيف، وعثمان بن صهيب، وثقه ابن حبان وذكره أبو حاتم ولم يذكر فيه جرحًا والطريق الثالث: من رواية جابر بن سمرة رواه: الطبراني في «الكبير» (٢٠٣٨) وفيه ناصح بن عبد الله: يروي مناكير عن سماك عن جابر. فهذه الطرق يقوي بعضها بعضًا.

عقرِ الناقةِ، التي جعلها اللهُ لهم آيةً، ومنها: أنهم استعجلوا وقوعَ العذابِ بهم، فاستحقُّوه من وجهَين؛ أحدُهما: الشَّرطُ عليهم في قوله: ﴿وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ وفي آيةٍ: ﴿عَظِيمٍ﴾، وفي الأخرىٰ ﴿أَلِيمٌ﴾ والكلُّ حقٌّ. والثاني: استعجالُهم علىٰ ذلك. ومنها: أنهم كذَّبوا الرسولَ الذي قد قام الدليلُ القاطعُ علىٰ نُبوَّته وصدقِه، وهم يعلمون ذلك علمًا جازمًا، ولكن حمَلهم الكفرُ والضلالُ والعنادُ علىٰ استبعاد الحقِّ، ووقوعِ العذابِ بهم. قال اللهُ تعالىٰ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾. وذكروا أنهم لما عقروا الناقةَ، كان أولَ مَن سطَا عليها قُدارُ بنُ سالفٍ، لعنَه اللهُ، فعرقَبها، فسقطتْ إلىٰ الأرضِ، ثم ابتَدَروها بأسيافِهم يُقطِّعونها، فلما عايَن ذلك سَقْبُها ـ وهو ولدُها ـ شَرَد عنهم فعلا أعلىٰ الجبلِ هناك، ورغَا ثلاثَ مراتٍ؛ فلهذا قال لهم صالحٌ: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي: غيرَ يومِهم ذلك. فلم يصدِّقوه أيضًا في هذا الوعدِ الأكيد، بل لمَّا أمسَوْا همُّوا بقتله، وأرادوا، فيما يزعُمون، أن يُلحقُوه بالناقة ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: لنَكْبِسنَّه في دارِه مع أهله، فلَنقتُلَنَّه، ثم نَجحَدَنَّ قتْلَه، ونُنكِرنَّ ذلك إنْ طالَبَنا أولياؤُه بدمه؛ ولهذا قالوا: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وذلك أن اللهَ تعالىٰ أرسل علىٰ أولئك النَّفرِ الذين قصدوا قَتْلَ صالحٍ حجارةً رضَخَتْهم، سلفًا وتعجيلاً قبلَ قومِهم، وأصبحت ثمودُ يومَ الخميسِ، وهو اليومُ الأولُ من أيامِ النَّظِرَةِ، ووجوهُهم مُصْفَرَّةٌ كما أنذرَهم صالحٌ، عليه السلامُ، فلما أمسَوْا نادَوْا بأجمعِهم: ألا قد مضَىٰ يومٌ من الأجلِ. ثم أصبحوا في اليومِ الثاني من أيامِ التأجيلِ، وهو يومُ الجُمُعَةِ، ووجوهُهم مُحْمَرَّةٌ، فلمَّا أَمْسَوْا نادَوْا: ألا قد مضَىٰ يومانِ من الأجلِ. ثم أصبَحوا في اليومِ الثَّالثِ من أيامِ المتاعِ، وهو يومُ السَّبتِ، ووجوهُهم مُسْوَدَّةٌ، فلمَّا أَمْسَوْا نادَوْا: ألا قد مضَىٰ الأجَلُ. فلمَّا كان صَبيحةُ يومِ الأحدِ، تحنَّطوا وتأهَبوا وقعَدوا ينتظرون ماذا يَحُلُّ بهم من العذابِ والنَّكالِ والنِّقمة، لا يَدرون كيفَ يُفعَلُ بهم، ولا من أيِّ جهةٍ يأتيهم العذابُ، فلما أشرقت الشمسُ جاءتهم صَيْحَةٌ من السماءِ من فوقِهم، ورَجْفَةٌ شديدةٌ من أسفلَ منهم، ففاضت الأرواحُ وزَهَقَت النفوسُ، وسكَنت الحركاتُ وخشعت الأصواتُ، وحُقَّتِ الحقائقُ، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾؛ جُثَثًا لا أرواحَ فيها ولا حراكَ بها. قالوا: ولم يَبْقَ منهم أحدٌ إلا جاريةٌ كانت مُقْعَدَةً، واسمُها: كَلْبَةُ بنتُ السَّلْقِ. ويقالُ لها: الزُّرَيْعَةُ. وكانت شديدةَ الكفرِ والعداوةِ لصالحٍ، عليه السلامُ، فلما رأت العذابَ أُطْلِقَتْ رِجلاها، فقامت تسعَىٰ كأسرعِ شيءٍ فأتتْ حيًّا من العربِ، فأخبرتهم بما رأت وما حلَّ بقومها، واستَسْقَتْهم ماءً، فلما شَرِبت ماتت. قال اللهُ تعالىٰ: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي؛ لم يُقيموا فيها في سَعَةٍ ورزقٍ وغَناءٍ ﴿أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨] أي؛ نادَىٰ عليهم لسانُ القَدَرِ بهذا.

قالَ الإمامُ أحمد[١] : حدثنا عبدُ الرَّزَّاقِ، حدثنا مَعْمَرٌ، حدثنا عبدُ اللهِ بنُ عثمانَ بنِ خُثَيْمٍ، عن أبي الزُّبيرِ، عن جابرٍ، قال: لَمَّا مرَّ رسولُ اللهِ ﷺ بالحِجْرِ، قال: **«لا تَسْأَلوا الآياتِ، فقد سألها قومُ صالحٍ فكانت -يعني الناقةَ- تَرِدُ من هذا الفَجِّ، وتَصدُرُ من هذا الفجِّ، فَعَتَوْا عن أمرِ ربِّهم فعقروها، وكانت تَشرَبُ ماءَهم يومًا ويشربونَ لبنَها يومًا، فعقروها، فأخذتهم صيحةٌ، أهْمَدَ اللهُ مَن تحتَ أديمِ السماءِ منهم، إلا رجلاً واحدًا، كان في حَرَمِ الله»** فقالوا: من هو يا رسولَ اللهِ؟ قال: **«هو أبو رِغَالٍ، فلما خَرَجَ من الحرمِ أصابه ما أصابَ قومَه»**. وهذا الحديثُ على شرطِ مسلمٍ، وليس هو في شيءٍ من «الكتبِ الستةِ». واللهُ أعلمُ.

وقد قال عبدُ الرزاق[٢] **أيضًا:** قال مَعْمرٌ: أخبرني إسماعيلُ بنُ أُمَيَّةَ، أَنَّ النبيَّ ﷺ مرَّ بقبرِ أبي رِغَالٍ، فقال: **«أتدرُون مَن هذا؟»** قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: **«هذا قبرُ أبي رِغَالٍ؛ رجلٍ من ثمودَ كان في حَرَمِ اللهِ، فمنَعه حرمُ الله عذابَ الله، فلمَّا خرَج أصابَه ما أصابَ قومَه، فدُفِنَ ههنا، ودُفِن معه غُصْنٌ من ذَهَبٍ»**. فنزَل القومُ فابتدَروه بأسيافِهم، فبحثوا عنه، فاستخرجوا الغصنَ.

قال عبدُ الرزّاق[٣] : قال مَعْمَرٌ: قال الزُّهْرِيُّ: أبو رِغَالٍ؛ أبو ثَقِيفٍ. هذا مُرسَلٌ من هذا الوجه.

وقد جاء مِن وجهٍ آخرَ متَّصلاً، كما ذكره محمدُ بنُ إسحاقَ في «السيرة»، عن إسماعيلَ بنِ أُمَيَّةَ، عن بُجَيرِ بنِ أبي بُجَيرٍ، سمعتُ عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو، سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ حينَ خرجنا معه إلى الطائفِ، فمرَرْنا بقبرٍ، فقال: **«إن هذا قبرُ أبي رِغَالٍ، وهو أبو ثَقِيفٍ، وكان من ثمودَ، وكان بهذا الحَرَمِ يدفَعُ عنه، فلما خرَجَ منه أصابَتْه النِّقْمَةُ التي أصابَتْ قومَه بهذا المكانِ، فدُفِنَ فيه، وآيةُ ذلك أنَّه دُفِنَ معه غُصْنٌ من ذهبٍ، إنْ أنتم نَبَشْتُم عنه أصبْتُموه معه»**. فابتَدَره الناسُ فاستخرجوا منه الغُصْنَ.

وهكذا رواه أبو داودَ[٤] من طريقِ محمدِ بنِ إسحاقَ به. قال شيخُنا الحافظُ أبو الحجَّاجِ المِزِّيُّ، رحمه اللهُ: هذا حديثٌ حسنٌ عزيزٌ. قلت: تفرَّد به بُجَيرُ بنُ أبي بُجَيْرٍ هذا، ولا يُعْرَفُ إلا بهذا الحديثِ، ولم يَرْوِ عنه سوى إسماعيلُ بنُ أُمَيَّةَ. قال شيخُنا: فيحتَملُ أنه وَهِمَ في رفعه، وإنما يكونُ من كلامِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو، مِن زامِلَتَيْه، واللهُ أعلمُ. قلتُ: لكنْ في المُرسَلِ الذي قبلَه، وفي حديثِ جابرٍ أيضًا شاهدٌ لَه. واللهُ أعلمُ.

وقولُه تعالى: ﴿**فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**﴾ إخبارٌ عن صالحٍ، عليه السَّلامُ، أنه خاطَب قومَه بعدَ هلاكِهم، وقد أخَذ في الذّهابِ عن مَحلَّتِهم إلى غيرِها، قائلاً لهم: ﴿**يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ**﴾ أي؛ جَهَدْتُ في هدايتِكم بكلِّ ما أمكنني، وحرَصتُ على ذلك بقولي وفعلي ونِيَّتي ﴿**وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**﴾ أي؛ لم تكنْ سَجَاياكم تقبَلُ الحقَّ ولا تريدُه؛ فلهذا صِرتُم إلى ما أنتم فيه مِن العذابِ الأليمِ المستمرِّ بكم،

---

(١) **حسن بطرقه:** المسند (٣/ ٢٩٦).

(٢) في «التفسير» (٩١٦).

(٣) «التفسير» (٩١٧).

(٤) **ضعيف الإسناد:** سنن أبي داود (٣٠٨٨)، ورواه: البيهقي (٤/ ١٥٦). من رواية روح بن القاسم، عن إسماعيل عن بجير بن أبي بجير. وهو مجهول. ورواه: عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٦) عن معمر، عن إسماعيل: مرسلاً.

المتصل إلى الأبد، وليس لي فيكم حيلةٌ ولا لي بالدَّفع عنكم يَدَان، والذي وجَب عليَّ من أداء الرسالة والنُّصح لكم قد فعلتُه وبذلتُه لكم، ولكنَّ اللهَ يفعَلُ ما يريدُ. وهكذا خاطَب النَّبيُّ ﷺ أهلَ قَلِيبِ بَدْرٍ بعدَ ثلاث ليالٍ، وقَف عليهم، وقد ركِب راحلتَه وأمَر بالرَّحيلِ من آخرِ الليلِ، فقال: «**يا أهلَ القَليب، هل وجدتُم ما وعدَكم ربُّكم حقًّا؟ فإنِّي قد وجدتُ ما وعدَني ربي حقًّا**». وقال لهم فيما قال: «**بئسَ عَشيرةُ النَّبيِّ كنتُم لنبيِّكُم؛ كذَّبتُموني وصدَّقني النَّاسُ، وأخرجتُموني وآواني النَّاسُ، وقاتَلتُموني ونَصَرَني النَّاسُ، فبئسَ عَشيرةُ النَّبيِّ كنتُم لنبيِّكم**» فقال له عمرُ: يا رسولَ الله، تُخاطبُ أقوامًا قد جَيَّفوا؟ فقال: «**والذي نَفْسي بيده، ما أنتُم بأسمعَ لِمَا أقولُ منهم، ولكنَّهم لا يُجيبُون**»(١). وسيأتي بيانُه في موضعه إن شاء اللهُ. ويقالُ: إنَّ صالحًا، عليه السلامُ، انتقلَ إلى حَرَمِ الله، فأقام به حتى مات.

قال الإمامُ أحمدُ(٢): حدثنا وكيعٌ، حدثنا زَمْعةُ بنُ صالحٍ، عن سَلَمةَ بنِ وَهْرَامٍ، عن عِكْرِمةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: لَمَّا مرَّ النَّبيُّ ﷺ بوادي عُسْفَانَ حينَ حجَّ، قال: «**يا أبا بكرٍ: أيُّ وادٍ هذا؟**». قال: وادي عُسْفَانَ. قال: «**لقد مرَّ به هودٌ وصالحٌ، عليهما السلامُ، على بَكَرات حُمْرٍ خُطُمُها اللِّيفُ، أُزُرُهم العَبَاءُ، وأرديتُهم النِّمارُ، يُلبُّونَ، يَحُجُّونَ البيتَ العتيقَ**». إسنادٌ حَسَنٌ. وقد تقدَّم في قصة نوحٍ، عليه السلامُ، من رواية الطَّبرانيِّ، وفيه نوحٌ وهودٌ وإبراهيمُ.

ذكرُ مرورِ النبيِّ ﷺ بوادي الحِجْرِ من أرضِ ثمودَ عامَ تبوكَ

قال الإمامُ أحمدُ(٣): حدثنا عبدُ الصَّمد، حدثنا صَخْرُ بنُ جُوَيْرِيَةَ، عن نافعٍ، عن ابنِ عُمَرَ، قال: لما نزلَ رسولُ الله ﷺ بالنَّاسِ عامَ تَبُوكَ، نَزَلَ بهم الحِجْرَ عندَ بيوتِ ثَمُودَ، فاستَسْقَى النَّاسُ من الآبارِ التي كانت تشربُ منها ثمودُ، فعَجَنُوا منها ونصَبوا القُدُورَ باللحم، فأمرَهم رسولُ الله ﷺ، فأهْرَاقُوا القُدورَ، وعلَفُوا العجينَ الإبلَ، ثم ارتَحَل بهم حتى نزَل بهم على البئرِ التي كانت تشرَبُ منها الناقةُ، ونهاهم أن يدخلوا على القومِ الذين عُذِّبوا، قال: «**إنِّي أخشَى أن يُصيبَكم مثلُ ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم**».

وقال أحمدُ أيضًا(٤): حدثنا عَفَّانُ، حدثنا عبدُ العزيز بنُ مُسْلِمٍ، حدثنا عبدُ الله بنُ دينارٍ، عن عبدِالله بنِ عُمَرَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ وهو بالحِجْرِ: «**لا تدخُلوا على هؤلاء القومِ المُعَذَّبِينَ، إلا أنْ تكونوا باكِينَ، فإنْ لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم؛ أنْ يُصيبَكم مثلُ ما أصابَهم**». أخرجاه في «الصحيحين»(٥) مِن غيرِ وجهٍ. وفي بعضِ الرواياتِ، أنَّه عليه السلامُ، لَمَّا مرَّ بمنازِلهم، قنَّع رأسَه

---

(١) **الحديث أصله في الصحيحين من رواية أنس**: البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٧١٥٢)، والزيادة في قوله: «بئس عشيرة النبي» عزاه الحافظ في «الفتح» (٧/ ٣٥٣) لابن إسحاق في «السيرة» عن بعض أهل العلم. فهي زيادة شاذة، ورواه ابن هشام في «السيرة» (١/ ٦٣٩) عن ابن إسحاق وروي عن عائشة نحو هذا. رواه أحمد (٦/ ١٧٠) من رواية النخعي عنها وهذا سند منقطع. النخعي لم يسمع منها ولفظه: «جزاكم شرًا من قوم نبي ما كان أسوأ الطرد وأشد التكذيب».

(٢) سبق تخريجه والحكم عليه.

(٣) المسند (٢/ ١١٧) نفس الطريق.

(٤) المسند (٢/ ٧٤) بنفس الطريق.

(٥) **متفق عليه**: البخاري (٣٣٨٠)، مسلم (٧٣٩٠).

وأسرَع راحلَته، ونهَىٰ عن دخولِ منازلِهم: «**إلاَّ أنْ تكـونوا بـاكين**». وفي روايـةٍ: «**فـإنْ لم تبكُوا فتباكَوا، خشْيةَ أنْ يُصيبَكم مثلُ ما أصابهم**». صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه.

وقال الإمامُ أحمدُ[1]: حدثنا يزيدُ بنُ هارونَ، حدثنا المَسْعُوديُّ، عن إسماعيلَ بنِ أَوْسَطَ، عن محمدِ بنِ أبي كَبْشَةَ الأنماريِّ، عن أبيه، واسمُه عمرُو بنُ سعدٍ، ويقالُ: عامرُ بنُ سَعْدٍ، رضي اللهُ عنه قال: لَمَّا كان في غزوةِ تَبُوكَ، تسارَع الناسُ إلىٰ أهلِ الحِجْرِ يدخُلون عليهم، فبلَغ ذلك رسولَ اللهِ ﷺ فنادَىٰ في الناسِ: «**الصلاةُ جامعةٌ**». قال: فأتيتُ النبيَّ ﷺ وهو مُمْسكٌ بعيرَه، وهو يقولُ: «**ما تدخُلُونَ على قومٍ غَضبَ اللهُ عليهم؟**». فناداه رجلٌ منهم: نَعْجَبُ منهم يا رسولَ اللهِ. قال: «**أفلا أُنبِّئكم بأعجبَ منَ ذلك؟ رجُلٌ من أنفسكم ينبِّئكم بما كان قبلَكم، وما هو كائنٌ بعدَكم، فاستقيموا وسدِّدوا، فإنَّ اللهَ لا يَعْبَأُ بعذابكم شيئًا، وسيأتي قومٌ لا يَدفَعُون عن أنفسهم بشيء**». إسنادُه حَسَنٌ، ولم يُخرِّجوه. وقد ذُكِرَ أنَّ قومَ صالحٍ كانت أعمارُهم طَويلَةً، فكانوا يبنُون البيوتَ من المَدَرِ فتَخْرَبُ قبلَ موتِ الواحدِ منهم، فنحتوا لهم بيوتًا في الجبال. وذكَروا أنَّ صالحًا، عليه السلامُ، لَمَّا سألوه آيةً فأخرَج اللهُ لهم النَّاقةَ من الصخرةِ، أمرَهم بها وبالولدِ الذي كان في جَوْفِها، وحذَّرهم بأسَ اللهِ إنْ هم نالوها بسُوءٍ، وأخبرهم أنهم سيَعْقِرونها، ويكونُ سببُ هلاكهم ذلك، وذكَر لهم صفةَ عاقرِها، وأنَّه أحمرُ أزرقُ أصهبُ، فبعثُوا القَوابلَ في البلد، متىٰ وجدوا مولودًا بهذه الصفة يَقْتُلْنَه، فكانوا علىٰ ذلك دهرًا طويلاً وانقرضَ جيلٌ وأتىٰ جيلٌ آخرُ، فلمَّا كان في بعضِ الأعصارِ، خطَب رئيسٌ من رؤسائِهم علىٰ ابنه بنتَ آخرَ مثله في الرياسة، فزوَّجه فوُلِدَ بينَهما عاقرُ الناقَةِ، وهو قُدَار بنُ سالفٍ، فلم تتمكن القوابلُ من قتله؛ لشرفِ أبوَيْه وجَدَّيْه فيهم، فنشَأ نشأةً سريعةً، فكان يشبُّ في الجُمُعةِ كما يشِبُّ غيرُه في شهرٍ، حتىٰ كان من أمرِه أنْ خرَج مُطاعًا فيهم، رئيسًا بينَهم، فسوَّلتْ له نفسُه عَقْرَ الناقَةِ، واتَّبعَه علىٰ ذلك ثمانيةٌ من أشرافِهم؛ وهم التسعةُ الذين أرادوا قتْلَ صالحٍ، عليه السَّلامُ، فلمَّا وقَع من أمرِهم ما وقَع من عَقْرِ الناقَةِ، وبلَغ ذلك صالحًا، عليه السلامُ، جاءهم باكيًا عليها، فتلَقَّوْه يَعتذرون إليه ويقولون: إنَّ هذا لم يقعْ عن مَلأٍ منَّا، وإنما فعَل هذا هؤلاءِ الأحداثُ فينا. فيقالُ: إنه أمرَهم باستدراك سَقْبِها حتىٰ يُحسنوا إليه عوضًا عنها، فذهبوا وراءَه، فصعدَ جبلاً هناك، فلمَّا تصاعدوا فيه وراءَه تعالَىٰ الجبلُ، حتىٰ ارتفَع فلا ينالُه الطيرُ، وبكَىٰ الفصيلُ حتىٰ سالت دموعُه، ثم استقبَل صالحًا، عليه السلامُ، ورغَا ثلاثًا، فعندَها قال صالحٌ ﴿**تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ**﴾ وأخبرهم أنهم يُصبحون من غدِهم صُفْرًا، ثم تَحْمَرُّ وجوهُهم في الثاني، وفي اليومِ الثَّالث تَسْوَدُّ وجوهُهم، فلمَّا كان في اليومِ الرابعِ أتتهم صيحةٌ فيها صوتُ كلِّ صاعقةٍ، فأخمدَتْهم، فأصبَحوا في دارِهم جاثمين. وفي بعضِ هذا السِّياقِ نظرٌ، ومخالفَةٌ لظاهرِ ما يُفْهَمُ من القرآنِ في شأنِهم وقصتِهم، كما قدَّمنا. واللهُ سبحانه وتعالىٰ أعلمُ بالصوابِ، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيلُ.

---

(1) **حسن**: المسند (٤/ ٢٣١) فيه إسماعيل بن أوسط ضعفه جماعة ووثقه ابن معين ومحمد بن أبي كبشة. لا يعرف له حال غير توثيق ابن حبان له ورواه أيضًا البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٣٥) والطبراني في «الكبير» (٢٢/ح/ ٨٥١، ٨٥٢) من رواية جمع عن المسعودي به.

قصة إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام

هو إبراهيمُ بنُ تارخَ «٢٥٠» بنِ ناحورَ «١٤٨» بنِ ساروغَ «٢٣٠» بنِ راغو «٢٣٩» بنِ فالغَ «٤٣٩» بنِ عابر «٤٦٤» بنِ شالَخ «٤٣٣» بنِ أرْفَخْشَذَ «٤٣٨» بنِ سام «٦٠٠» بنِ نوحٍ عليه السلامُ. **هذا نصُّ أهلِ الكتابِ** في كتابهم، وقد أعلمتُ على أعمارهم تحتَ أسمائهم بالهنديِّ، كما ذكروه من المُدَدِ، وقدمنا الكلامَ على عمرِ نوحٍ، عليه السلامُ، فأغنَى عن إعادته.

وحكَى الحافظُ ابنُ عساكر [1] **في ترجمة إبراهيمَ الخليلِ من «تاريخه»**، عن إسحاقَ بنِ بشرٍ الكاهليِّ، صاحبِ كتابِ «المبتدأ» أنَّ اسمَ أمِّ إبراهيمَ أميلةُ. ثم أوردَ عنه في خبرِ ولادتها له حكايةً طويلةً. وقال الكلبيُّ: اسمُها نونا بنتُ كرنبا بنِ كوثَى من بني أرْفَخْشَذَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ.

وروَى ابنُ عساكرَ من غيرِ وجه، عن عكرمة[2] ، **أنه قال**: كان إبراهيمُ، عليه السَّلامُ يُكْنَى أبا الضيفانِ. قالوا: ولما كان عُمُرُ تارخَ خمساً وسبعين سنةً، وُلدَ له إبراهيمُ، عليه السلامُ، وناحُورُ، وهارَانُ، ووُلدَ لهارانَ لوطٌ. وعندَهم أن إبراهيمَ، عليه السلامُ، هو الأوسطُ، وأن هارانَ مات في حياة أبيه، في أرضه التي وُلدَ فيها، وهي أرضُ الكَلْدَانِيِّين؛ يعنُونَ أرضَ بابلَ. وهذا هو الصحيحُ المشهورُ عندَ أهلِ السِّيَرِ والتواريخِ والأخبارِ، وصحَّح ذلك الحافظُ ابنُ عساكرَ[3] بعد ما روَى من طريقِ هشامِ بنِ عمَّارٍ، عن الوليدِ، عن سعيدِ بنِ عبدِ العزيزِ، عن مَكْحُولٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: وُلدَ إبرهيمُ بغُوطَةِ دمشْقَ، في قريةٍ يقالُ لها: بَرْزَةُ. في جبلٍ يقالُ له: قاسيُونُ. ثم قال: والصَّحيح أنه وُلد ببابلَ، وإنَّما نُسبَ إليه هذا المقامُ؛ لأنَّه صلَّى فيه، إذ جاء مُعينًا للوطٍ عليه السلامُ. قالوا: فتزوج إبراهيمُ سارَّةَ، وناحورُ مَلْكَا ابنةَ هارانَ؛ يعنون بابنةِ أخيه. قالوا: وكانت سارَّةُ عاقرًا لا تَلدُ. قالوا: وانطَلقَ تارخُ بابنه إبراهيمَ وامرأته سارَّةَ، وابنِ ابنه لوطِ بنِ هارَانَ، فخرج بهم من أرضِ الكَلْدَانِيِّين إلى أرضِ الكَنْعَانِيِّين، فنزلوا حَرَّانَ، فمات فيها تارخُ وله مائتان وخمسون سنةً. وهذا يدلُّ على أنَّه لم يُولَدْ بحرَّانَ، وإنما مَولدُه بأرضِ الكَلْدَانِيِّين، وهي أرضُ بابلَ وما والَاها. ثم ارتحلوا قاصدين أرضَ الكَنْعَانيين، وهي بلادُ بيتِ المقدسِ فأقاموا بحَرَّانَ، وهي أرضُ الكَشْدَانيين في ذلك الزمانِ، وكذلك أرضُ الجزيرةِ والشام أيضًا، وكانوا يعبدون الكواكبَ السبعةَ، والذين عَمَروا مدينةَ دمشقَ كانوا على هذا الدِّينِ، يستقبلون القُطْبَ الشماليَّ، ويعبدون الكواكبَ السَّبعَةَ بأنواعٍ من الفَعالِ والمقالِ؛ ولهذا كان على كلِّ بابٍ من أبوابِ دمشقَ السبعةِ القديمةِ هيكلٌ لكوكبٍ منها، ويعملون لها أعيادًا وقرابينَ، وهكذا كان أهلُ حَرَّانَ يعبدون الكواكبَ والأصنامَ، وكلُّ مَن كان على وجهِ الأرضِ كانوا كفَّارًا، سوى إبراهيمَ الخليلِ وامرأته وابنِ أخيه لوطٍ، عليهم السَّلامُ، وكان

---

(١) «تاريخ دمشق» (٦/ ١٦٧).

(٢) «تاريخ دمشق» (٦/ ١٧٣) من طريق سفيان الثوري عن أبيه عن عكرمة.

(٣) سنده ضعيف: «تاريخ دمشق» (٢/ ١٦٤). الوليد بن مسلم مدلس وقد عنعن ومكحول لم يسمع من ابن عباس.

الخليلُ، عليه السلامُ، هو الذي أزال اللهُ به تلك الشرورَ، وأبطَل به ذاك الضلالَ؛ فإن اللهَ سبحانه وتعالى آتاه رُشْدَهُ في صغَره، وابتعثه رسولاً، واتخذه خليلاً في كبَره، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١]. أي؛ كان أهلاً لذلك. وقال تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٦-٢٧]. ثم ذكر تعالى مُناظَرَته لأبيه وقومه، كما سنذكره إنْ شاء اللهُ تعالى.

وكان أولُ دعوته لأبيه، وكان أبوه ممّن يعبدُ الأصنامَ؛ لأنَّه أحقُّ النَّاس بإخلاص النَّصيحة له كما قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤١-٤٨]. يذكرُ تعالى ما كان بينَه وبينَ أبيه من المحاورة والمجادلة، وكيف دعا أباه إلى الحقِّ بألْطَف عبارة، وأحسن إشارة، بيَّنَ لَهُ بطلانَ ما هو عليه من عبادة الأصنام التي لا تَسمعُ دعاءَ عابدها، ولا تُبْصرُ مكانَه، فكيف تُغْني عنه شيئًا أو تَفعَلُ به خيرًا من رزقٍ أو نصرٍ؟ ثم قال له منبِّهًا على ما أعطاه اللهُ من الهدَىٰ والعلم النافع، وإنْ كان أصغرَ سنًّا من أبيه: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾. أي؛ مستقيمًا واضحًا سهلاً حنيفًا، يُفْضِي بك إلى الخير في دنياكَ وأخراكَ. فلمَّا عرض هذا الرُّشْدَ عليه، وأهدَىٰ هذه النَّصيحةَ إليه، لم يقبَلْها منه ولا أخذَها عنه، بل تهدَّده وتوعَّده ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾. قيل: بالمقال. وقيل: بالفَعال. ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾. أي؛ واقْطَعْني وأَطِلْ هِجْراني.

فعندها قال له إبراهيمُ: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ ﴾. أي؛ لا يصلُك مني مكروهٌ، ولا ينالُك مني أذىً، بل أنت سالم من ناحيتي. وزاده خيرًا فقال: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾. قال ابنُ عباسٍ وغيرُه: أي لطيفًا. يعني في أنْ هداني لعبادته والإخلاص له؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾. وقد استغفر له إبراهيمُ، عليه السلامُ، كما وعده في أدعيته، فلمّا تبيَّن له أنه عدوٌّ لله تبرأ منه؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقال البخاري[١]: حدثنا إسماعيلُ بنُ عبد الله، حدثني أخي عبدُ الحميد، عن ابن أبي ذئبٍ، عن سعيد المَقْبُرِيِّ، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**يَلْقَى إبراهيمُ أباه آزرَ يومَ القيامة، وعلى وَجْه آزَرَ قَتَرَةٌ وغَبَرَةٌ، فيقولُ له إبراهيمُ: ألَمْ أقُلْ لك: لا تَعْصِني؟ فيقولُ أبوه: فاليومَ لا أعْصِيكَ. فيقولُ إبراهيمُ: يا ربِّ، إنَّك وعَدْتَني أنْ لا تُخْزِني يومَ يُبْعَثُون، فأيُّ خِزْيٍ أخْزَى من أبي الأبْعَد؟ فيقولُ اللهُ: إنِّي حَرَّمْتُ الجنَّةَ على الكافرين. ثم يقالُ: يا إبراهيمُ، ما تحتَ رِجْلَيْكَ؟ فينظرُ، فإذا هو بذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ، فيُؤْخَذُ بقوائمه فيُلْقَى في النَّار**». هكذا رواه في قصَّة إبراهيمَ مُنفَرِدًا.

وقال في التفسير: وقال إبراهيمُ بنُ طَهْمَانَ، عن ابن أبي ذئبٍ، عن سعيد بن أبي سعيدٍ المَقْبُرِيِّ، عن أبيه، عن أبي هُرَيرةَ. وهكذا رواه النَّسائيُّ، عن أحمدَ بن حفص بن عبد الله، عن أبيه، عن إبراهيمَ بن طَهْمانَ، به. وقد رواه البزَّارُ[٢] من حديث حمَّاد بن سَلَمَةَ، عن أيوبَ، عن محمد بن سيرينَ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ بنَحْوِه، وفي سياقه غَرابةٌ. ورواه أيضًا[٣] من حديث قَتادة، عن عُقْبَةَ بن عبد الغافر، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ بنَحْوه. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ هذا يدلُّ على أن اسمَ أبي إبراهيمَ آزَرُ، وجمهورُ أهل النَّسَب، منهم ابنُ عباسٍ، على أن اسمَ أبيه تارحُ، وأهلُ الكتاب يقولون: تارخُ. بالخاء المعجمة. فقيل: إنه لُقِّب بصنَمٍ كان يعبدُه اسمُه آزَرُ.

وقال ابنُ جرير: والصوابُ أن اسمَه آزَرُ، ولعل له اسمَيْن علَمَين، أو أحدُهما لقَبٌ والآخَرُ عَلَمٌ. وهذا الذي قاله مُحْتَمَلٌ، واللهُ أعلمُ.

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا

---

(١) **صحيح**: البخاري (٣٣٥٠)، (٤٧٦٨) والنسائي «الكبرى» (١١٣٧٥).

(٢) **ضعيف الإسناد**: «كشف الأستار» (٩٧)، وقد رواه: الحاكم (٤/ ٥٨٩) وسند البزار فيه مجهول أما سند الحاكم ففيه عبد الرحمن بن الحسن القاضي شيخ الحاكم: ضعيف، وبقية رجاله ثقات.

(٣) (٩٤) كشف الأستار. ورواه أيضًا أبو يعلى (١٠٤٩).

أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٧٥-٨٣].

وهذا المقامُ مقامُ مناظرةٍ لقومِه، وبيانٍ لهم أن هذه الأجرامَ المشاهَدَةَ من الكواكبِ النَّيِّرةِ لا تَصلحُ للألوهيَّةِ، ولا أَنْ تُعْبَدَ مع اللهِ عزَّ وجلّ؛ لأنَّها مخلوقةٌ مربوبة مصنوعةٌ مدبَّرةٌ مسخَّرةٌ، تَطلُعُ تارةً وتأفُلُ أُخْرَىٰ، فتغيبُ عن هذا العالمِ، والربُّ تعالىٰ لا يَغيبُ عنه شيءٌ ولا تَخْفَىٰ عليه خافيةٌ، بل هو الدائمُ الباقي بلا زوالٍ، لا إلهَ إلا هو، ولا ربَّ سواه. فبيَّنَ لهم أولاً عدمَ صلاحيةِ الكوكب-قيل: هو الزُّهَرةُ-لذلك ثم ترقَّىٰ منها إلىٰ القمرِ الذي هو أَضْوأُ منها وأَبْهَىٰ مِن حُسْنها، ثم ترقَّىٰ منها إلىٰ الشمسِ التي هي أشدُّ الأجرامِ المشاهَدَةِ ضياءً وسَناءً وبَهاءً، فبيَّن أنها مُسخَّرةٌ مسيَّرةٌ، مقدَّرةٌ مربُوبةٌ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ أي؛ طالعةً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي؛ لستُ أُبالي في هذه الآلهةِ التي تعبدونها من دونِ اللهِ، فإنَّها لا تنفعُ شيئًا، ولا تسمعُ ولا تَعقِلُ، بل هي مربوبةٌ، مسخَّرةٌ، كالكواكبِ ونحوِها، أو مصنوعةٌ منحوتةٌ مَنْجُورَةٌ.

والظاهرُ أن موعِظتَه هذه في الكواكبِ لأهلِ حَرَّانَ، فإنَّهم كانوا يعبدونها. وهذا يردُّ قولَ مَن زعَم أنه قال هذا حينَ خرَجَ من السَّرَبِ لما كان صغيراً كما ذكره ابنُ إسحاقَ وغيرُه، وهو مُستندٌ إلىٰ أخبارٍ إسرائيليةٍ لا يُوثَقُ بها، ولا سيما إذا خالفت الحقَّ. وأما أهلُ بابلَ، فكانوا يعبدون الأصنامَ، وهم الذين ناظَرهم في عبادتِها، وكسَرها عليهم، ، وأهانها، وبيَّن بُطلانَها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾، وقال في سورةِ «الأنبياء»: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ

أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين (٥٧) فجعلهم جذاذًا إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون (٥٨) قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين (٥٩) قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم (٦٠) قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون (٦١) قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم (٦٢) قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون (٦٣) فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون (٦٤) ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون (٦٥) قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئًا ولا يضركم (٦٦) أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون (٦٧) قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين (٦٨) قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم (٦٩) وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٠]. وقال في سورة «الشعراء»: ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم (٦٩) إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون (٧٠) قالوا نعبد أصنامًا فنظل لها عاكفين (٧١) قال هل يسمعونكم إذ تدعون (٧٢) أو ينفعونكم أو يضرون (٧٣) قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون (٧٤) قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون (٧٥) أنتم وآباؤكم الأقدمون (٧٦) فإنهم عدو لي إلا رب العالمين (٧٧) الذي خلقني فهو يهدين (٧٨) والذي هو يطعمني ويسقين (٧٩) وإذا مرضت فهو يشفين (٨٠) والذي يميتني ثم يحيين (٨١) والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (٨٢) رب هب لي حكمًا وألحقني بالصالحين﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٣]. وقال تعالى في سورة «الصافات»: ﴿وإن من شيعته لإبراهيم (٨٣) إذ جاء ربه بقلب سليم (٨٤) إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون (٨٥) أئفكًا آلهة دون الله تريدون (٨٦) فما ظنكم برب العالمين (٨٧) فنظر نظرة في النجوم (٨٨) فقال إني سقيم (٨٩) فتولوا عنه مدبرين (٩٠) فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون (٩١) ما لكم لا تنطقون (٩٢) فراغ عليهم ضربًا باليمين (٩٣) فأقبلوا إليه يزفون (٩٤) قال أتعبدون ما تنحتون (٩٥) والله خلقكم وما تعملون (٩٦) قالوا ابنوا له بنيانًا فألقوه في الجحيم (٩٧) فأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأسفلين﴾ [الصافات: ٨٣-٩٨]. يُخبرُ اللهُ تعالى عن إبراهيمَ خليله، عليه السلامُ، أنه أنكَر على قومه عبادةَ الأوثان، وحقَّرها عندهم وصغَّرها، وتنقَّصها، فقال: ﴿ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾ أي؛ مُعتكِفون عندها، وخاضعون لها. قالوا: ﴿وجدنا آباءنا لها عابدين﴾ ما كان حُجَّتَهم إلا صنيعُ الآباءِ والأجدادِ، وما كانوا عليه من عبادةِ الأنداد ﴿قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ كما قال تعالى: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون (٨٥) أئفكًا آلهة دون الله تريدون (٨٦) فما ظنكم برب العالمين﴾ قال قتادةُ[1]: فما ظنُّكم به أنَّه فاعلٌ بكم إذا لَقِيتُموه وقد عبدتُم غيرَه؟ وقال لهم: ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون (٧٢) أو ينفعونكم أو يضرون (٧٣) قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ سلَّموا له أنها لا تسمعُ داعيًا ولا تَنفَعُ ولا تَضرُّ شيئًا، وإنما الحاملُ لهم على عبادتها الاقتداءُ بأسلافِهم، ومَن هو مِثلُهم في الضلالِ من الآباءِ الجُهَّالِ؛ ولهذا قال لهم: ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون

---

(١) حسن إلى قتادة: رواه ابن جرير (١٢/ الجزء ٢٣/ ٧٠) من رواية سعيد بن أبي عروبة عنه.

﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا بُرهانٌ قاطعٌ على بُطلانِ إلهيةِ ما ادَّعَوْه من الأصنامِ؛ لأنه تبرأَ منها وتنقَّص بها، فلو كانت تضرُّ لضرَّته، أو تؤثِّرُ لأثَّرتْ فيه ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ يقولون: هذا الكلامُ الذي تقولُه لنا وتَتَنَقَّصُ به آلهتَنا، وتَطعَنُ بسببه في آبائنا، تقولُه مُحقًّا جادًّا فيه أم لاعبًا؟ ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعني: بل أقولُ لكم ذلك جادًّا مُحقًّا؛ إنما إلهُكم اللهُ الذي لا إلهَ إلا هو ربُّكم وربُّ كلِّ شيءٍ، فاطرُ السمواتِ والأرضِ، الخالقُ لهما على غيرِ مثالٍ سبَق، فهو المستَحقُّ للعبادةِ وحدَه لا شريكَ له، وأنا على ذَلكُم من الشاهدين. وقولُه: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ أقْسَم لَيكيدَنَّ هذه الأصنامَ التي يعبدونها بعدَ أنْ تَولَّوْا مُدبِرين إلى عيدِهم. قيل: إنه قال هذا خُفْيَةً في نفسِه. وقال ابنُ مسعودٍ: سَمِعه بعضُهم. وكان لهم عيدٌ يذهبون إليه في كلِّ عامٍ مرةً إلى ظاهرِ البلدِ، فدعاه أبوه ليحضُرَه، فقال: إني سَقيمٌ. كما قال تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ عَرَّض لهم في الكلامِ حتى توصَّل إلى مقصودِه من إهانةِ أصنامِهم، ونُصرةِ دينِ اللهِ الحَقِّ في بطلانِ ما هم عليه من عبادةِ الأصنامِ التي تَستحقُّ أن تُكَسَّرَ، وأن تُهانَ غايةَ الإهانةِ. فلما خرجُوا إلى عيدِهم واستقرَّ هو في بلدِهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ أي ذهب إليها مسرعًا مُستَخْفِيًا، فوجَدها في بَهْوٍ عظيمٍ، وقد وضَعوا بينَ أيديها أنواعًا من الأطعمةِ، قُرْبانًا إليها، فقال لها على سبيلِ التَّهكُّمِ والازْدراءِ: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ لأنَّها أقوى وأبْطَشُ وأسْرَعُ وأقْهَرُ. فكسَّرها بقَدُومٍ في يدِه؛ كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي؛ حُطامًا. كسَّرها كلَّها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ قيل: إنه وضَع القَدُومَ في يدِ الكبيرِ؛ إشارةً إلى أنه غارَ أن تُعبَدَ معه هذه الصِّغارُ. فلما رجَعوا من عيدِهم، ووجَدوا ما حَلَّ بمعبُودِهم ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا فيه دليلٌ ظاهرٌ لهم، لو كانوا يعقلون، وهو ما حَلَّ بآلهتِهم التي كانوا يعبدُونها، فلو كانت آلهةً لَدَفَعتْ عن أنفسِها مَن أرادها بسوءٍ، لكنهم قالوا من جهلِهم وقلةِ عقلِهم وكثرةِ ضلالِهم وخَبالِهم: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي؛ يذكرُها بالعَيْبِ والتنقُّصِ لها والازدراءِ بها، فهو المُقيمُ عليها والكاسرُ لها. وعلى قولِ ابنِ مسعودٍ يذكرُهم بقولِه: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾. ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي في الملأ الأكبرِ على رءوسِ الأشهادِ، لعلَّهم يشهدون مقالتَه ويسمعون كلامَه، ويعاينون ما يَحلُّ به من الاقتصاصِ منه. وكان هذا من أكبرِ مقاصدِ الخليلِ عليه السلامُ؛ أن يجتمعَ الناسُ كلُّهم، فيُقيمَ على جميعِ عُبَّادِ الأصنامِ الحُجَّةَ على بطلانِ ما هم عليه، كما قال موسى عليه السلامُ لفرعونَ: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]. فلما

اجتمعوا وجاءوا به كما ذكَروا ﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ قيل: معناه، هو الحاملُ لي على تكسيرِها. وإنما عرَّض لهم في القَولِ ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القولِ بأنَّ هذه لا تَنطِقُ، فيعترفوا بأنها جَمادٌ كسائرِ الجمادات ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي؛ فعادُوا على أنفسِهم بالمَلامة ﴿ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي؛ في تَرْكِها لا حافظَ لها ولا حارسَ عندَها ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ قال السُّدِّيُّ[1]: أي ثم رجعوا إلى الفتنة. فعلى هذا يكونُ قولُه: ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي في عبادتِها. وقال قتادةُ[2]: أدركَت القومَ حَيرةُ سَوْءٍ. أي فأطرَقوا ثم قالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ أي لقد علمتَ يا إبراهيمُ أن هذه لا تَنطِقُ، فكيف تأمرُنا بسؤالِها؟ فعندَ ذلك قال لهم الخليلُ عليه السلامُ: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ كما قال: ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ قال مُجاهِدٌ[3]: يُسرِعون. ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أي؛ كيف تعبدون أصنامًا أنتم تَنْحِتونها من الخشبِ والحجارةِ، وتُصوِّرونَها وتُشكِّلونها كما تريدون؟ ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وسواءٌ كانت «ما» مَصْدريةً أو بمعنى «الذي» فمقتضى الكلامِ أنكم مخلوقون وهذه الأصنامُ مخلوقةٌ، فكيف يَعْبُدُ مخلوقٌ مخلوقًا مثلَه؟ فإنَّه ليس عبادتُكم لها بأَوْلَى مِن عبادتِها لكم، وهذا باطلٌ؛ فالآخَرُ باطلٌ للتحكُّم، إذ ليست العبادةُ تجبُ ولا تصلُحُ إلا للخالقِ وحدَه لا شريكَ له ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾. عدَلوا عن الجِدالِ والمُناظرةِ لَمّا انقطَعوا وغُلِبوا، ولم تَبْقَ لهم حُجَّةٌ ولا شُبْهَةٌ إلا استعمالُ قوَّتِهم وسلطانِهم؛ لينصُروا ما هم عليه مِن سَفَهِهم وطُغْيانِهم، فكادَهم الربُّ جلَّ جلالُه، وأَعْلَى كلمتَه ودينَه وبرهانَه؛ كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ وذلك أنهم شَرعوا يجمعُون حطبًا من جميعِ ما يمكنُهم من الأماكنِ، فمكثُوا مدةً يجمعُون له، حتى إن المرأةَ منهم كانت إذا مرِضتْ تَنْذِرُ؛ لئِنْ عُوفِيَتْ لتحمِلَنَّ حطبًا لحريقِ إبراهيمَ، ثم عمَدُوا إلى جَوْبَةٍ عظيمةٍ، فوضَعوا فيها ذلك الحطبَ وأطلَقوا فيه النارَ، فاضطرمتْ وتأجَّجتْ والتهبتْ وعَلا لها شَرَرٌ لم يُرَ مثلُه قطُّ، ثم وضَعوا إبراهيمَ، عليه السلامُ، في كِفَّةِ مَنْجَنيقٍ، صَنَعهُ لهم رجلٌ من الأَكْرَادِ يقالُ له: هيزنُ. وكان أوَّل من صنع المنجانيقَ، فخسَفَ اللهُ به الأرضَ، فهو يتجَلْجَلُ فيها إلى يومِ القيامةِ. ثم أخَذوا يُقيِّدونه ويُكَتِّفونه، وهو يقولُ: لا إلهَ إلا أنت، سُبحانَك لك الحمدُ ولك المُلْكُ، لا شريكَ لك.

---

(١) **حسن**: رواه ابن جرير (١٠/ الجزء ١٧/ ٤٢) من رواية أسباط عنه.

(٢) **حسن**: رواه: ابن جرير (١٠/ ١٧/ ٤٢) من رواية سعيد عنه.

(٣) رواه ابن جرير (١٠/ ١٧/ ٤٢) من رواية ابن أبي نجيح عنه بلفظ الوَزْفُ: النَّسْلاَن. والنَّسْلان معناها: الإسراع. راجع لسان العرب (١٤/ ١٢٨).

فلما وُضِع الخليلُ عليه السلامُ في كِفّة المَنْجَنيقِ مُقَيَّدًا مكتُوفًا، ثم أَلْقَوْه منه إلىٰ النارِ، قال: حسبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيلُ. كما روىٰ البخاريُّ[1] عن ابنِ عباسٍ، أنه قال: حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ؛ قالها إبراهيمُ حينَ أُلْقِيَ في النارِ، وقالها محمدٌ حينَ قِيل له: ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ الآيةِ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

وقال أبو يَعْلَى[2]: حدثنا أبو هشامٍ الرِّفاعيُّ، حدثنا إسحاقُ بنُ سليمانَ، عن أبي جعفرٍ الرَّازيِّ، عن عاصمِ بنِ أبي النَّجُودِ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هُرَيرةَ، قال: قال ﷺ: **«لَمّا أُلْقِيَ إبراهيمُ في النَّارِ، قال: اللهم إنّكَ في السماءِ واحدٌ، وأنا في الأرضِ واحدٌ أعبُدُك»**.

وذكر بعضُ السلفِ[3] أن جبريلَ عرَض له في الهواءِ، فقال: أَلَكَ حاجةٌ؟ فقال: أمَّا إليك فلا. ويُروىٰ عن ابنِ عباسٍ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ[4] أنه قال: جعَل مَلَكُ المطرِ يقولُ: متىٰ أُومَرُ فأُرسِلَ المطرَ؟ فكان أمرُ اللهِ أَسْرَعَ ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ[5]: أي لا تَضُرِّيه. وقال ابنُ عباسٍ[6] وأبو العاليةِ[7]: لولا أن اللهَ قال: ﴿ وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ لآذىٰ إبراهيمَ بردُها. وقال كعبُ الأحبارِ[8]: لم ينتفعْ أهلُ الأرضِ يومئذٍ بنارٍ، ولم يُحْرَقْ منه سوىٰ وَثَاقِه. وقال الضَّحاكُ[9]: يُرْوَىٰ أن جبريلَ، عليه السلامُ، كان معه يمسَحُ العرَقَ عن وجهِه، لم يصبْه منها شيءٌ غيره. وقال السُّدِّيُّ[10]: كان معه أيضًا مَلَكُ الظِّلِّ. وصار إبراهيمُ عليه السلامُ في مِثْلِ الجُونَةِ، حولَه النارُ وهو في روضةٍ خضراءَ، والناسُ ينظرون إليه، لا يقدرون علىٰ الوصولِ إليه، ولا هو يخرجُ إليهم. فعن أبي هُرَيرةَ[11]، أنه قال: أحسنُ كلمةٍ قالها أبو إبراهيمَ، إِذْ قال لما رأىٰ ولدَه علىٰ تلك الحالِ: نِعمَ الربُّ ربُّك يا إبراهيمُ.

وروَى ابنُ عساكرَ[12]؛ عن عِكْرِمةَ، أَنّ أمَّ إبراهيمَ نظَرت إلىٰ ابنِها عليه السلامُ، فنادتْه: يا

---

(١) **صحيح**: البخاري: (٤٥٦٣ ـ ٤٥٦٤).

(٢) **ضعيف**: رواه: البزار (٣/ ٢٣٤٩). وعلته: أبو هشام شيخ أبي يعلى ضعيف. وأبو جعفر الرازي هو عيسى بن عبد الله بن ماهان سيئ الحفظ، ورواه: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦/ ١٩٠) من طريق أبي يعلى.

(٣) **ضعيف**: رواه ابن جرير (١٠/ الجزء ١٧/ ٤٥) عن المعتمر بن سليمان، عن بعض أصحابه ولم يسمهم.

(٤) **ضعيف**: ابن جرير (١٠/ الجزء ١٧/ ٤٤). وفيه: ابن حميد: ضعيف، وكذلك شيخه يعقوب.

(٥) **ضعيف**: ابن جرير (١٠/ الجزء/ ١٧/ ٤٤) بسند ضعيف فيه: مبهم قال الأعمش عن شيخ عن علي.

(٦) **لم أقف عليه مسندًا**: عزاه السيوطي في الدر إلى ابن أبي حاتم، وكذلك ابن كثير.

(٧) **ضعيف**: رواه ابن جرير (١٠/ الجزء ١٧/ ٤٥) وفيه الحسين وهو سنيد ضعيف وأبو جعفر الرازي عيسى.

(٨) **منقطع بطوله هكذا**: رواه ابن جرير (١٠/ الجزء١٧/ ٤٥) من رواية قتادة عنه وفي رواية مختصرة ذكر قتادة الواسطة بينهما وهو أبو سليمان.

(٩) عزاه السيوطي لابن أبي حاتم، وليس في النسخة المطبوعة.

(١٠) **حسن**: رواه ابن جرير نفس المصدر من رواية أسباط عنه.

(١١) **ضعيف**: رواه ابن جرير نفس المصدر، فيه: ابن حميد. وعزاه السيوطي في «الدر» لابن أبي حاتم.

(١٢) **ضعيف**: «تاريخ دمشق» (٦/ ١٨٤). فيه: إبراهيم بن الحكم: ضعيف، وأبوه: له أوهام.

بني، إني أريدُ أن أجيءَ إليك، فادعُ اللهَ أن يُنجِّيَني من حرِّ النارِ حولَك. فقال: نعم. فأقبلتْ إليه لا يَمَسُّها شيءٌ من حرِّ النارِ، فلمّا وصلتْ إليه اعتنقته وقبَّلته، ثم عادت.

وعن المِنْهَال بن عمرو[1] أنه قال: أُخبِرتُ أن إبراهيمَ مكَث هناك إمَّا أربعين وإمَّا خمسين يومًا، وأنه قال: ما كنتُ أيامًا ولياليَ أطيبَ عيشًا إذ كنتُ فيها، ووددْتُ أن عَيشي وحياتي كلَّها مثلُ إذ كنتُ فيها. صلواتُ الله وسلامُه عليه. فأرادوا أن ينتصروا فخُذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فاتَّضعُوا، وأرادوا أنْ يَغْلبوا فغُلبوا. قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾ ففازوا بالخسارة والسَّفال، هذا في الدنيا، وأمّا في الآخرة فإن نارَهم لا تكون عليهم بردًا ولا سلامًا، ولا يُلَقَّوْن فيها تحيةً ولا سلامًا، بل هي كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

قال البخاري[2]: حدثنا عُبَيْدُ الله بنُ موسىٰ أو ابنُ سَلاَّم عنهُ، أنبأنا ابنُ جُرَيْج، عن عبدِ الحميدِ ابنِ جُبَير، عن سعيدِ بنِ المُسيَّب، عن أمِّ شَريك، أنَّ رسولَ الله ﷺ أمَر بقتلِ الوَزَغ، وقال: «كان ينفخ على إبراهيم». ورواه مسلمٌ من حديث ابنِ جُرَيج، وأخرجاه، والنَّسائيُّ وابنُ ماجَهْ من حديث سفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، كلاهما عن عبدِ الحميدِ بنِ جُبَيْرِ بنِ شَيْبَةَ به.

وقال أحمدُ[3]: حدثنا محمدُ بنُ بَكْر، حدثنا ابنُ جُرَيْج، أخبرني عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي أُمَيَّةَ، أن نافعًا مولىٰ ابنِ عمرَ أخبره، أن عائشةَ أخبَرتْه، أن رسولَ الله ﷺ قال: «اقتلوا الوَزَغَ، فإنّه كان ينفُخُ على إبراهيمَ النَّارَ». قال: فكانت عائشةُ تقتلُهنَّ.

وقال أحمدُ[4]: حدثنا إسماعيلُ، حدثنا أيوبُ، عن نافع، أن امرأةً دخلت علىٰ عائشةَ، فإذا رُمْحٌ منصوبٌ، فقالت: ما هذا الرُّمْحُ؟ فقالت: نَقتلُ به الأوْزَاغَ. ثم حدَّثتْ عن رسولِ الله ﷺ أن إبراهيمَ لما أُلْقِيَ في النَّارِ، جعَلت الدَوابُّ كلُّها تُطفِئُ عنه، إلا الوزَغَ فإنه جعَل يَنفُخُها عليه. تفرد به أحمدُ من هذين الوجهين.

وقال أحمدُ[5]: حدثنا عَفَّانُ، حدثنا جَرِيرٌ، حدثنا نافعٌ، حدَّثتني سائبةُ مولاةٌ للفاكهِ بنِ المغيرةِ، قالت: دخلتُ علىٰ عائشةَ، فرأيتُ في بيتها رُمْحًا موضوعًا، فقلتُ: يا أمَّ المؤمنين، ما تصنعون بهذا الرُّمْحِ؟ قالت: هذا لهذه الأوزاغ، نقتُلُهنَّ به، فإنّ رسولَ الله ﷺ حدثنا أن إبراهيمَ عليه الصلاة والسلامُ حينَ أُلْقِيَ في النَّارِ لم تكنْ في الأرضِ دابَّةٌ إلا تُطفِئُ عنه النَّارَ، غيرَ الوزَغِ كان يَنفُخُ عليه، فأمرَنا رسولُ الله ﷺ بقتْلِه. ورواه ابنُ ماجَهْ، عن أبي بكرِ بنِ أبي شَيْبَةَ، عن يونُسَ بنِ محمدٍ، عن جريرِ بنِ حازمٍ، به.

---

(١) ضعيف: «تاريخ دمشق» (٦/ ١٨٤) فيه مهران بن أبي عمر سيئ الحفظ ولم يقل المنهال من الذي أخبره.
(٢) متفق عليه: البخاري (٣٣٥٩)، ومسلم (٥٨٠٤)، والنسائي «المجتبى» (٥/ ٢٠٩)، وابن ماجه (٣٢٢٨).
(٣) صحيح الإسناد: المسند (٦/ ٢٠٠). (٤) صحيح الإسناد: المسند (٦/ ٢١٧).
(٥) صحيح الإسناد: المسند (٦/ ٨٣)، وابن ماجه (٣٢٣١).

ذكرُ مناظرةِ إبراهيمَ الخليلِ مع من أراد أن ينازعَ العظيمَ الجليلَ في إزارِ العظمةِ ورداءِ الكبرياءِ فادَّعى الربوبيَّةَ، وهو أحدُ العبيدِ الضعفاءِ

قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. يذكرُ تعالىٰ مناظرةَ خليلِه مع هذا الملكِ الجبارِ المتمرِّدِ، الذي ادَّعىٰ لنفسِه الربوبيةَ، فأبطَل الخليلُ عليه السلامُ دليلَه، وبيَّن كثرةَ جهلِه وقلَّةَ عقله، وألجَمه الحُجَّةَ وأوضَح له طريقَ المَحَجَّةِ.

قال المفسرون وغيرُهم من علماءِ النَّسَبِ والأخبار: وهذا الملكُ هو ملكُ بابلَ، واسمُه: النُّمْرُودُ ابنُ كَنْعَانَ بنِ كُوشِ بنِ سامِ بنِ نوحٍ. قاله مُجاهدٌ. وقال غيرُه: نُمْرُودُ بنُ فالَحِ بنِ عابرِ بنِ صالحِ بنِ أَرْفَخْشَدَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ. قال مُجاهدٌ[١] وغيرُه: وكان أحدَ ملوكِ الدنيا. فإنه قد ملَك الدنيا فيما ذكروا أربعةٌ؛ مؤمنان وكافران، فالمؤمنان ذو القَرْنَيْن وسُلَيمانُ، والكافران النُّمْرُودُ وبُخْتُنَصَّرَ. وذكروا أن نُمْرُودًا هذا استمر في مُلكه أربعَمائةِ سنةٍ، وكان قد طَغَىٰ وبغَىٰ، وتجبّر وعتَىٰ، وآثَر الحياةَ الدنيا، ولما دعاه إبراهيمُ الخليلُ إلىٰ عبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، حمَله الجهلُ والضلالُ وطولُ الإمْهالِ علىٰ إنكارِ الصانعِ، فحاجَّ إبراهيمَ الخليلَ في ذلك، وادَّعَىٰ لنفسِه الربوبيةَ. فلما قال له الخليلُ: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾.

قال قَتادةُ[٢] والسُّدِّيُّ[٣] ومحمدُ بنُ إسحاقَ[٤]: يعني أنه إذا أُتِيَ بالرجلين قد تحتَّم قتلُهما، فإذا أمَر بقتلِ أحدِهما وعفَا عن الآخرِ، فكأنَّه قد أحيا هذا وأمات الآخَرَ. وهذا ليس بمعارضةٍ للخليلِ، بل هو كلامٌ خارجيٌّ عن مَقامِ المُناظرةِ، ليس بمَنْعٍ ولا بمعارضةٍ، بل هو تَشغيبٌ مَحْضٌ، وهو انقطاعٌ في الحقيقةِ؛ فإن الخليلَ استدلَّ علىٰ وجودِ الصانعِ بحدوثِ هذه المُشاهَدَاتِ ـ من إحياءِ الحيواناتِ وموتِها ـ علىٰ وجودِ فاعلٍ ذلك الذي لا بدَّ من استنادِها إلىٰ وجودِه ضرورةً، وعَدَمِ قيامِها بنفسِها، ولا بدَّ مِن فاعلٍ لهذه الحوادثِ المشاهَدَةِ؛ من خَلْقِها وتسخيرِها، وتسْييرِ هذه الكواكبِ والرياحِ والسَّحابِ والمطرِ، وخلقِ هذه الحيواناتِ التي توجَدُ مشاهَدَةً، ثم إماتتِها؛ ولهذا ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فقولُ هذا الملكِ الجاهلِ: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾. إن عنَىٰ أنه الفاعلُ لهذه المشاهَدَاتِ فقد كابَر وعانَد، وإن عنَىٰ ما ذكَره قَتادةُ والسُّدِّيُّ ومحمدُ بنُ إسحاقَ، فلم يقلْ شيئًا

---

(١) رواه ابن جرير (٣/ الجزء الثالث/ ٢٥) من رواية ابن أبي نجيح عنه، وسبق الكلام عنها.
(٢) صحيح: رواه ابن جرير (٣/ الجزء الثالث/ ٢٥)، من رواية سعيد عنه، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٣٢٦) من رواية معمر عنه.
(٣) حسن: رواه ابن جرير (٣/ الجزء الثالث/ ٢٥)، من رواية أسباط عنه.
(٤) ضعيف: رواه ابن جرير (٣/ الجزء الثالث/ ٢٥)، بسند فيه ابن حميد.

يتعلقُ بكلامِ الخليلِ؛ إذْ لم يمنَعْ مقدِّمةً ولا عارَضَ الدليلَ.

ولما كان انقطاعُ مناظرةِ هذا الملِكِ قد تَخْفَى على كثيرٍ من الناسِ ممَّن حضَره وغيرِهم، ذكَر دليلاً آخَرَ بيَّن وجودَ الصانعِ وبُطلانَ ما ادَّعاه النُّمْرودُ وانقطاعَه جَهْرةً ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أي هذه الشمسُ مسخَّرةٌ، كلَّ يومٍ تَطلُعُ من المشرقِ، كما سخَّرها خالقُها ومسيِّرُها وقاهرُها، وهو اللهُ الذي لا إلهَ إلا هو خالقُ كلِّ شيءٍ، فإنْ كنتَ كما زعَمتَ من أنك الذي تحيي وتُميتُ، فَأْتِ بهذه الشمسِ من المغربِ، فإن الذي يُحيي ويُميتُ هو الذي يفعلُ ما يشاءُ ولا يُمانَعُ ولا يُغالَبُ، بل قد قهَر كلَّ شيءٍ، ودان له كلُّ شيءٍ، فإنْ كنتَ كما تزعُمُ فافعَلْ هذا، فإنْ لم تَفعلْه فلستَ كما زعمتَ، وأنت تعلمُ وكلُّ أحدٍ، أنك لا تقدرُ على شيءٍ من هذا، بل أنت أعجزُ وأقلُّ من أنْ تَخلُقَ بَعوضةً أو تَنْتَصِرَ منها. فبيَّن ضلالَه وجهْلَه وكَذِبَه فيما ادَّعاه وبُطْلانَ ما سلَكه وتبجَّحَ به عندَ جَهَلَةِ قومِه، ولم يَبْقَ له كلامٌ يُجيبُ الخليلَ به، بل انقطَع وسكَت؛ ولهذا قال: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقد ذكَر السُّدِّيُّ[1] أنَّ هذه المناظرةَ كانت بينَ إبراهيمَ وبينَ النُّمْرودِ يومَ خرَج من النارِ، ولم يكنِ اجتمَع به إلا يومئذٍ، فكانت بينَهما هذه المناظَرةُ.

وقد روَى عبدُ الرزاقِ[2]، **عن مَعْمَرٍ، عن زيدِ بنِ أسْلَمَ**، أن النُّمرودَ كان عندَه طعامٌ، وكان الناسُ يَفِدون إليه للمِيرَةِ، فوفَد إبراهيمُ في جُملَةِ مَن وفَد للمِيرَةِ، فكان بينَهما هذه المناظَرةُ، ولم يُعْطِ إبراهيمَ من الطعامِ كما أعطَى الناسَ، بل خرَج وليس معه شيءٌ من الطعامِ، فلما قَرُبَ من أهلِه، عَمَد إلى كَثِيبٍ من الترابِ، فملأ منه عِدْلَيْه، وقال: أَشْغَلُ أهلي إذا قدمتُ عليهم. فلما قَدِم وضَع رحالَه، وجاء فاتَّكأ فنام، فقامت امرأتُه سارَّةُ إلى العِدْلَيْنِ فوجدتْهما ملآنَيْن طعامًا طيبًا، فعَمِلت منه طعامًا، فلمَّا استيقظ إبراهيمُ وجَد الذي قد أصلحوه، فقال: أنَّى لكم هذا؟ قالت: مِن الذي جئتَ به. فعرَف أنه رزقٌ رزَقَهُموه اللهُ عز وجل.

قال زيدُ بنُ أسْلَمَ: وبعث اللهُ إلى ذلك الملِكِ الجبارِ ملَكًا يأمرُه بالإيمانِ باللهِ فأبَى عليه، ثم دعاه الثانيةَ فأبَى عليه، ثم الثالثةَ فأبَى عليه، وقال: اجمَعْ جُمُوعَك وأَجْمَعُ جُمُوعي. فجمع النُّمرودُ جيشَه وجنودَه وقتَ طلوعِ الشمسِ، فأرسَل اللهُ عليه ذبابًا من البَعُوضِ، بحيثُ لم يَرَوْا عينَ الشمسِ، وسلَّطها اللهُ عليهم، فأكلتْ لحومَهم ودماءَهم وتركتهم عظامًا باليةً، ودخلَتْ واحدةٌ منها في مَنْخَرَيِ الملِكِ، فمكثت في مَنْخَرَيْهِ أربعَمائةِ سنةٍ، عذَّبه اللهُ تعالى بها، فكان يُضْرَبُ رأسُه بالمَرازِبِ في هذه المدةِ كلِّها، حتى أهلكه اللهُ عز وجل بها. والله تعالى أعلمُ.

---

(١) نفس الأثر السابق، سبق الكلام عليه.

(٢) **صحيح إلى زيد**: عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٢٨) صحيح إلى زيد.

ذكر هجرة الخليل عليه السلام إلى بلاد الشام ودخوله الديار المصرية واستقراره في الأرض المقدسة

قال الله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦، ٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١-٧٣]. لَمَّا هجَرَ قومَه في اللهِ، وهاجَر مِن بينِ أَظْهُرِهم، وكانت امرأتُه عاقِرًا، لا يُولَدُ لها، ولم يكنْ له مِن الولدِ أحدٌ، بل معه ابنُ أخيه لوطُ بنُ هارَانَ بنِ آزَرَ، وهبَه اللهُ تعالىٰ بعدَ ذلك الأولادَ الصالحين، وجعَل في ذريتِه النُّبوةَ والكِتابَ؛ فكلُّ نبيٍّ بُعِث بعدَه فهو من ذريتِه، وكلُّ كتابٍ نزَل من السماءِ على نبيٍّ مِن الأنبياءِ مِن بعدِه فعلى أحَدِ نَسْلِه وعَقِبِه، خِلْعَةً مِن اللهِ وكرامةً له حينَ ترَك بلادَه وأهلَه وأقرِباءَه، وهاجَر إلىٰ بلدٍ يتمكنُ فيها مِن عبادةِ ربِّه عز وجل، ودعوةِ الخلقِ إليه. والأرضُ التي قصَدها بالهجرةِ أرضُ الشامِ، وهي التي قال اللهُ عز وجل: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ قاله أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ[1]، وأبو العاليةِ[2]، وقَتادةُ[3] وغيرُهم.

وروى العَوْفِيُّ عن ابنِ عباسٍ[4]: قولُه: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ مكةُ، ألم تسمعْ إلى قولِه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]. وزعَم كعبُ الأحبارِ[5] أنَّها حَرَّانُ. وقد قدَّمنا عن نقلِ أهلِ الكتابِ أنه خرَج من أرضِ بابلَ، هو وابنُ أخيه لوطٌ، وأخوه ناحُورُ، وامرأةُ إبراهيمَ سارَّةُ، وامرأةُ أخيه مَلْكا، فنزلوا حَرَّانَ، فمات تارخُ أبو إبراهيمَ بها.

وقال السُّدِّيُّ[6]: انطلَق إبراهيمُ ولوطٌ قِبَلَ الشَّامِ، فلقِيَ إبراهيمُ سارَّةَ، وهي ابنةُ ملِكِ حَرَّانَ، وقد طعَنَتْ علىٰ قومِها في دينِهم، فتزوَّجَها علىٰ أنْ لا يُغَيِّرَها. رواه ابنُ جَرِيرٍ، وهو غريبٌ. والمشهورُ أنها ابنةُ عمِّه هارانَ الذي تُنسَبُ إليه حَرَّانُ. ومَن زَعَم أنها ابنةُ أخيه هارانَ، أختُ لوطٍ، كما حكاه السُّهَيلِيُّ عن القُتَبِيِّ والنَّقاشِ، قد أبْعدَ النُّجْعةَ، وقال بلا علمٍ، وادَّعَىٰ أن تزْويجَ بنتِ الأخِ كان إذْ ذاك مشروعًا، فليس له علىٰ ذلك دليلٌ. ولو فُرِض أن هذا كان مشروعًا في وقتٍ، كما هو منقولٌ علىٰ الرَّبَّانيِّين من اليهودِ، فإن الأنبياءَ لا تَتَعاطَاه. واللهُ أعلمُ. ثم المشهورُ أن إبراهيمَ عليه

---

(١) **حسن**: رواه ابن جرير (١٠/ الجزء ١٧/ ٤٦) من رواية أبي العالية عنه.

(٢) **صحيح إليه**: ابن جرير (١٠/ الجزء ١٧/ ٤٦)، من رواية سعيد ومعمر عنه.

(٣) **ضعيف إليه**: ابن جرير (١٠/ الجزء١٧/ ٤٦)، فيه: أبو جعفر الرازي.

(٤) **ضعيف إليه**: رواه ابن جرير (١٠/ الجزء١٧/ ٤٧) بسند مسلسل بضعفاء، آخرهم عطية العوفي.

(٥) ذكره الطبري نفس المصدر: قال ذكر لنا.

(٦) **حسن إليه**: رواه: ابن جرير في «التاريخ» (١/ ١٤٨).

السلامُ لَمَّا هاجَر من بابِلَ، خرَج بسارَّةَ مهاجراً من بلاده كما تقدَّم. واللهُ أعلمُ. وذكَر أهلُ الكتاب أنه لَمَّا قدِمَ الشامَ أوحَى اللهُ إليه: إنِّي جاعِلٌ هذه الأرضَ لخَلَفِك من بعدِك. فابْتَنَى إبراهيمُ مَذْبَحًا لله؛ شكراً على هذه النعمة، وضرَب قُبَّتَه شرقيَّ بيت المقدس، ثم انطلَق مرتحلاً إلى اليَمَنِ، وأنه كان جوعٌ؛ أي قَحْطٌ وشدةٌ وغَلاءٌ، فارتحَلوا إلى مصرَ، وذكروا قصةَ سارَّةَ مع مَلِكها، وأن إبراهيمَ قال لها: قُولي: أنا أختُه. وذكروا إخدامَ الملك إياها هاجَرَ، ثم أخرجهم منها فرجَعوا إلى بلادِ التيمُّنِ؛ يعني أرضَ بيت المقدسِ وما والاها، ومعه دَوَابٌّ وعبيدٌ وأموالٌ.

وقد قال البخاريُّ[1]: حدثنا محمدُ بنُ مَحْبُوبٍ، حدثنا حمادُ بنُ زيدٍ، عن أيوبَ، عن محمدٍ، عن أبي هُرَيرةَ، قال: لم يَكْذِبْ إبراهيمُ إلاَّ ثلاثَ كَذَباتٍ؛ ثِنْتان منهنَّ في ذات الله؛ قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقولُه: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقال: بينا هو ذاتَ يوم وسارَّةُ، إذ أتَى على جبَّارٍ من الجبابرة، فقيل له: ها هنا رجلٌ معه امرأةٌ من أحسنِ الناس، فأرسَل إليه فسأَله عنها، فقال: مَن هذه؟ قال: أختي. فأتَى سارَّةَ، فقال: يا سارَّةُ، ليس على وجه الأرضِ مؤمنٌ غيري وغيرَك، وإنَّ هذا سألني فأخبَرتُه أنَّكِ أختي، فلا تُكَذِّبيني. فأرسَل إليها، فلما دخلت عليه ذهَب يتناولُها بيده، فأُخذ، فقال: ادْعي اللهَ لي ولا أضُرُّك. فدعَت اللهَ فأُطْلِقَ، ثم تناولَها الثانيةَ، فأُخذ مثلَها أو أشدَّ، فقال: ادعي اللهَ لي ولا أضُرُّك. فدعَتْ فأُطْلِقَ، فدعا بعضَ حَجَبَتِه، فقال: إنَّكَ لم تأتني بإنسانٍ، وإنَّما أتيتَني بشيطانٍ. فأخْدَمَها هاجَرَ. فأتَتْه وهو قائمٌ يصلِّي، فأوْمأ بيده؛ مَهْيَمْ؟ فقالت: ردَّ اللهُ كيدَ الكافرِ -أو: الفاجرِ- في نَحْرِه، وأَخْدَم هاجَرَ. قال أبو هُرَيرَة: فتلك أُمُّكم يا بني ماءِ السماءِ. تفرَّد به مِن هذا الوجهِ موقوفًا.

وقد رواه الحافظُ أبو بكرٍ البزّارُ[2]، عن عمروِ بنِ عليٍّ الفَلاَّسِ، عن عبدِ الوهابِ الثَّقَفيِّ، عن هشامِ بنِ حسَّانَ، عن محمدِ بنِ سيرينَ، عن أبي هُرَيرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«إنَّ إبراهيمَ لم يكذبْ قَطُّ إلا ثلاثَ كَذَبَاتٍ، كلُّ ذلك في ذات الله؛ قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وبينما هو يسيرُ في أرضِ جبَّارٍ من الجَبَابِرَةِ إذ نَزَلَ منْزِلاً، فأُتِيَ الجبارُ فقيل له: إنه قد نَزَلَ ها هنا رجلٌ معه امرأةٌ من أحْسَنِ الناسِ. فأرْسَلَ إليه، فسأله عنها، فقال: إنها أختي. فلمّا رجَع إليها، قال: إنَّ هذا سألَني عنكِ، فقلتُ إنَّكِ أُختي، وإنَّه ليس اليومَ مُسلمٌ غيري وغيرَكِ، وإنَّكِ أختي، فلا تُكَذِّبيني عندَه. فانطَلَق بها، فلمَّا ذهَب يتناولُها أُخِذَ، فقال: ادْعي اللهَ لي ولا أضرُّكِ. فدعَتْ له فأُرْسِل، فذهب يتناولُها، فأُخذَ مثلَها أو أشَدَّ منها، فقال: ادْعي اللهَ لي ولا أضرُّكِ. فدعَتْ فأُرسل، ثلاثَ مرأتٍ، فدعا أدْنى حَشَمِه، فقال: إنك لم تأتني بإنسان؛ لكنْ أتيتَني بشَيْطانٍ، أخْرِجْها وأعطِها هاجَرَ. فجاءتْ وإبراهيمُ قائمٌ يصلِّي، فلمَّا أحَسَّ بها انْصرَفَ، فقال: مَهْيَمْ؟ فقالتْ: كفَى اللهُ كيدَ الظَّالمِ، وأخْدَمَني هاجَرَ»**. وأخرجاه مِن حديثِ هشامٍ. ثم

---

(١) صحيح: البخاري (٣٣٥٨).

(٢) رجاله ثقات: أبو داود (٢٢١٢).

قال البزَّارُ: لا نعلمُ أَسْنَده عن محمدٍ، عن أبي هُرَيرَةَ إلا هشامٌ، ورواه غيرُه موقوفًا.

وقال الإمامُ أحمدُ[1] : حدثنا عليُّ بنُ حَفْصٍ، عن وَرْقَاءَ، هو ابنُ عُمَرَ اليَشْكُرِيُّ، عن أبي الزِّنادِ، عن الأعرَجِ، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لم يكْذِبْ إبراهيمُ إلاَّ ثلاثَ كَذَباتٍ؛ قولُه حينَ دُعِيَ إلى آلهتهم، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقولُه: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾. وقولُه لسارةَ: إنها أختي**». قال: «**ودخَلَ إبراهيمُ قريةً فيها مَلِكٌ من الملوكِ ـ أو جبّارٌ من الجبابرةِ ـ فقيلَ: دخَل إبراهيمُ الليلةَ بامرأةٍ من أحسنِ النَّاسِ**». قال: «**فأرسَل إليه المَلِكُ ـ أو الجبَّارُ ـ: مَن هذه معكَ؟ قال: أختي. قال: فأرْسِلْ بها**». قال: «**فأرسَلَ بها إليه، وقال: لا تُكذِّبي قَولي؛ فإنِّي قد أخبرتُه أنَّك أختي، إنْ على الأرضِ مؤمنٌ غيري وغيرَك. فلمّا دخلتْ عليه قام إليها، فأقبلتْ تَوَضَّأُ وتُصلِّي وتقولُ: اللهمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أنِّي آمنتُ بك وبرسولك، وأحصنتُ فَرْجي إلاَّ على زوجي، فلا تسلِّطْ عليَّ الكافرَ**». قال: «**فغَطَّ حتى ركَض برِجْله**». قال أبو سَلَمةَ بنُ عبدِ الرَّحمنِ، عن أبي هُرَيرةَ: إنها قالت: اللهمَّ إنْ يمُتْ يُقَلْ: هي قتلته. قال: «**فأُرْسِلَ**». قال: «**ثم قام إليها**». قال: «**فقامت تَوَضَّأُ وتصلِّي، وتقولُ: اللهمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أنِّي آمنتُ بك وبرسولك، وأحصنْتُ فَرْجي إلاَّ على زوجي، فلا تُسلِّطْ عليَّ الكافرَ**». قال: «**فغَطَّ حتى رَكَضَ برِجْله**». قال أبو الزِّنادِ: وقال أبو سَلَمةَ، عن أبي هريرةَ، أنَّها قالت: اللهمَّ إنْ يَمُتْ يُقَلْ: هي قَتَلته. قال: «**فَأُرْسِلَ**» قال: «**فقال في الثالثة أو الرابعة: ما أَرسلْتُم إليَّ إلاَّ شيطانًا، أرجعوها إلى إبراهيمَ، وأعطُوها هاجَرَ**». قال: «**فرجعتْ، فقالت لإبراهيمَ: أَشعَرْتَ؟ إنَّ اللهَ رَدَّ كيدَ الكافرِ، وأخدَمَ وليدةً**».
تفرَّد به أحمدُ من هذا الوجهِ، وهو على شرطِ «الصحيح». وقد رواه البخاريُّ[2] ، عن أبي اليمانِ، عن شُعَيبِ بنِ أبي حَمْزَةَ، عن أبي الزِّنادِ، عن الأعرجِ، عن أبي هُرَيرَةَ، عن النَّبيِّ ﷺ به مختصراً.

وقال ابنُ أبي حاتمٍ[3] : حدثنا أبي، حدثنا سفيانُ، عن عليِّ بنِ زيدِ بنِ جُدْعَانَ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيدٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ في كلماتِ إبراهيمَ الثلاثِ التي قال: «**ما منها كلمةٌ إلاَّ ماحَلَ بها عن دينِ الله، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقال للمَلِك حينَ أرادَ امرأتَه: هي أختي**». فقولُه في الحديثِ: «**هي أختي**». أي في دينِ اللهِ. وقولُه لها: «**إنه ليس على وجهِ الأرضِ مؤمنٌ غيري وغيرَكِ**». يعني زوجَين مُؤمنَين غيري وغيرَك. ويَتَعيَّنُ حملُه على هذا؛ لأنَّ لوطًا كان معهم وهو نبيٌّ عليه السَّلامُ. وقولُه لها لمّا رجعتْ إليه: «**مَهْيَمْ؟**». معناه: ما الخبرُ؟ فقالت: «**إنَّ اللهَ ردَّ كيدَ الكافرِ**». وفي روايةٍ: «**الفاجر**» وهو: المَلِكُ. «**وأَخْدَمَ جاريةً**». وكان إبراهيمُ عليه السَّلامُ مِن وقتِ ذهَب بها إلى المَلِكِ قام يُصلِّي للهِ عزَّ وجلَّ، ويسألُه أن يدْفَعَ عن أهلِه، وأن يرُدَّ بأسَ هذا الذي أراد أَهْلَه بسُوءٍ، وهكذا فعلتْ هي أيضًا، كلما أراد عدوُّ اللهِ أنْ ينالَ منها أمرًا، قامت إلى وُضوئِها وصلاتِها، ودعَتِ اللهَ عزَّ وجلَّ بما تقدمَ مِن الدعاءِ العظيمِ؛ ولهذا قال الله تعالى:

---

(١) صحيح: المسند (٢/ ٤٠٣). (٢) صحيح: البخاري (٢٦٣٥).
(٣) ضعيف: رواه من هذا الطريق الترمذي (٣١٤٨) في حديث الشفاعة الطويل وعلته علي بن زيد.

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]. فعصمَها اللهُ وصانها؛ لعِصْمَة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيمَ عليه السلامُ.

وقد ذهَب بعضُ العلماءِ إلى نبوةِ ثلاثِ نسوةٍ؛ سارةَ، وأمِّ موسى، ومريمَ عليهن السلامُ. والذي عليه الجمهورُ أنَّهنَّ صِدِّيقاتٌ، رضي اللهُ عنهن وأرضاهن. ورأيتُ في بعضِ الآثارِ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ كشَف الحجابَ فيما بينَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وبينَها، فلم يَزَلْ يراها منذُ خرجتْ من عنده إلى أن رجَعتْ إليه، وكان مُشاهدًا لها وهي عندَ الملك، وكيف عصمَها اللهُ منه؛ ليكون ذلك أطيبَ لقلبِه، وأقَرَّ لعينه، وأشَدَّ لطُمأنينتِه، فإنَّه كان يحبُّها حبًّا شديدًا؛ لدينِها وقَرابتِها منه وحُسنِها الباهرِ، فإنه قد قيل: إنَّه لم تكنِ امرأةٌ بعدَ حوَّاءَ إلى زمانِها أحْسَنَ منها. رضي اللهُ عنها. ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

وذكَر بعضُ أهلِ التواريخ أن فرْعون مصرَ هذا كان أخًا للضحاك، المَلِك المشهورِ بالظلم، وكان عاملاً لأخيه على مصرَ. ويقالُ: كان اسمُه سِنَانَ بنَ علوانَ بنِ عُبَيْدِ بنِ عُوَجِ بنِ عِمْلاقِ بنِ لاوَذَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ. وذكَر ابنُ هشامٍ في «التِّيجان» أن الذي أرادها عمرُو بنُ امرئِ القيسِ بنِ بايلبونَ بنِ سَبَأٍ، وكان على مصرَ. نقَله السُّهَيْلِيُّ. فاللهُ أعلمُ.

ثم إنَّ الخليلَ عليه السَّلامُ رجَع من بلادِ مصرَ إلى أرضِ التيمنِ، وهي الأرضُ المقدسةُ التي كان فيها، ومعه أنعامٌ وعبيدٌ ومالٌ جزيلٌ، وصُحْبَتُهم هاجرُ القِبْطيَّةُ المصريةُ. ثم إن لوطًا عليه السَّلامُ نزَح بما له من الأموالِ الجزيلةِ، بأمرِ الخليلِ له في ذلك إلى أرضِ الغَوْرِ، المعروف بغَوْرِ زُغَرَ، فنزَل بمدينة سَدُومَ، وهي أمُّ تلك البلادِ في ذلك الزمانِ، وكان أهلُها أشرارًا كفارًا فُجّارًا، وأوحَى اللهُ تعالى إلى إبراهيمَ الخليلِ يأمرُه أنْ يمُدَّ بصَره، وينظُرَ شمالاً وجَنوبًا وشَرقًا وغَربًا، وبشَّره بأن هذه الأرضَ كلَّها سأجعلُها لك ولخَلَفك إلى آخرِ الدَّهرِ، وسأكثِّرُ ذريَّتَك حتى يصيروا بعددِ ترابِ الأرضِ. وهذه البِشارةُ اتَّصلتْ بهذه الأمةِ، بل ما كَمَلتْ ولا كانت أعظمَ منها في هذه الأمةِ المحمديةِ، يؤيدُ ذلك قولُ رسولِ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ زوَى ليَ الأرضَ، فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها، وسيبلغُ مُلكُ أمتي ما زوَى لي منها»[١]. قالوا: ثم إنَّ طائفةً من الجبَّارين تسلَّطوا على لوطٍ عليه السلامُ فأسَرُوه وأخذوا أموالَه واسْتاقُوا أنعامَه، فلما بلَغ الخبرُ إبراهيمَ الخليلَ عليه السلامُ سار إليهم في ثلاثمائةٍ وثمانيةَ عشرَ رجلاً، فاستنقَذ لوطًا عليه السلامُ واسترجَع أموالَه، وقتَل من أعداءِ الله ورسوله خَلْقًا كثيرًا وهزَمهم، وساق في آثارِهم حتى وصَل إلى شَماليِّ دِمَشْقَ، وعَسْكَرَ بظاهرِها عندَ برزةَ. وأظنُّ مقامَ إبراهيمَ المنسوبَ إليه ببرزةَ اليومَ إنَّما سُمِّي؛ لأنَّه كان موضعَ موقفِ جيشِ الخليلِ واللهُ أعلمُ. ثم رَجَع مؤيَّدًا منصورًا إلى بلاده، وتلقَّاه ملوكُ بلادِ بيتِ المقدسِ معظِّمينَ له مكرِّمين خاضعين، واستَقَر ببلادِه، صلواتُ الله وسلامُه عليه.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٧١٨٧) أبو داود (٤٢٥٢) الترمذي (٢١٧٦) وابن ماجه (٣٩٥٢).

ذكرُ مولدِ إسماعيلَ عليه الصلاةُ والسلامُ من هاجَرَ

قال أهلُ الكتاب: إنَّ إبراهيمَ عليه السلامُ سألَ اللهَ ذريةً طيبةً، وإنَّ اللهَ بشَّره بذلك، وإنه لما كان لإبراهيمَ ببلادِ بيتِ المقدسِ عشرُ سنين، قالت سارةُ لإبراهيمَ عليه السلامُ: إنَّ الربَّ قد أحرمني الولدَ، فادْخُلْ على أَمَتِي هذه، لعل اللهَ يرزقنا منها ولدًا. فلما وهبَتْها له دخَل بها إبراهيمُ عليه السَّلامُ، فحينَ دخَل بها حمَلت منه. قالوا: فلمّا حمَلَتْ ارتفعت نفسُها وتعاظَمتْ على سيدتها، فغارت منها سارةُ، فشكَت ذلك إلى إبراهيمَ، فقال لها: افْعَلي بها ما شئْتِ. فخافت هاجَرُ فهربَتْ، فنزلَتْ عندَ عَيْنٍ هناك، فقال لها مَلكٌ من الملائكة: لا تخافي، فإن اللهَ جاعلٌ من هذا الغلام الذي حَمَلْتِ خيرًا. وأمرَها بالرجوع، وبشَّرها أنها ستلدُ ابنًا وتسمِّيه إسماعيلَ، ويكونُ وحشَ الناسِ يدُه على الكلِّ ويدُ الكلِّ به، ويملكُ جميعَ بلادِ إخوته. فشكَرَت اللهَ عزّ وجلّ على ذلك.

وهذه البِشارةُ إنَّما انطبَقَتْ على ولده محمدٍ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه؛ فإنه الذي سادَت به العربُ، وملَكَتْ جميعَ البلادِ غربًا وشرقًا، وآتاها اللهُ من العلمِ النَّافعِ، والعملِ الصَّالحِ ما لم يُؤْتِ أُمَّةً من الأممِ قبلَهم، وما ذاك إلا بشَرَفِ رسولِها على سائرِ الرسلِ، وبركةِ رسالته ويُمْنِ بِشارته، وكماله فيما جاء به، وعمومِ بَعْثَته لجميع أهلِ الأرض.

ولما رجَعت هاجَرُ، وضعتْ إسماعيلَ عليه السلامُ. قالوا: ولَدَتْه ولإبراهيمَ من العمُرِ ستٌّ وثمانون سنةً، قبلَ مولدِ إسحاقَ بثلاثَ عشرةَ سنةً. ولمَّا وُلد إسماعيلُ، أوحَى اللهُ إلى إبراهيمَ يبشِّرُه بإسحاقَ من سارةَ، فخرَّ لله ساجدًا، وقال له: قد استجبتُ لك في إسماعيلَ، وباركتُ عليه وكثَّرتُه ونمَّيْتُه جدًّا كبيرًا، ويُولَدُ له اثنا عشرَ عظيمًا، وأجْعَلُه رئيسًا لشعبٍ عظيمٍ. وهذه أيضًا بشارةٌ بهذه الأمة العظيمة، وهؤلاء الاثنا عشرَ عظيمًا هم الخلفاءُ الاثنا عشَرَ المبشَّرُ بهم في حديثِ عبدِ الملكِ بنِ عُمَيْرٍ، عن جابرِ بنِ سَمُرَةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**يكونُ اثْنَا عَشَرَ أميرًا**»، ثم قال كلمةً لم أفهمْها، فسألتُ أبي: ما قال؟ قال: «**كلُّهم من قُرَيْش**». أخرجاه في «الصحيحين»[1]. وفي روايةٍ: «**لا يزالُ هذا الأمرُ قائمًا**» وفي رواية: «**عزيزًا حتى يكونَ اثنا عشرَ خليفةً كُلُّهم من قُرَيْش**». فهؤلاءِ منهم الأئمةُ الأربعةُ؛ أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ. ومنهم عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ أيضًا. ومنهم بعضُ بني العباسِ. وليس المرادُ أنهم يكونون اثْنَيْ عشَرَ نَسَقًا، بل لا بدَّ من وجودهم. وليس المرادُ الأئمةَ الاثْنَيْ عَشَرَ الذين يعتقدُ فيهم الرافضةُ، الذين أوَّلُهم عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وآخرُهم المنتظرُ بسرْدابِ سامرا؛ وهو محمدُ بنُ الحسنِ العسكريُّ، فيما يزعُمون، فإن أولئك لم يكنْ فيهم أنفعُ من عليٍ وابنه الحسنِ بنِ عليٍّ، حينَ تركَ القتالَ وسلَّم الأمرَ لمعاويةَ، وأخمَدَ نارَ الفتنة، وسكَّن رَحَى الحروبِ بينَ المسلمين، والباقون من جملةِ الرَّعايا، لم يكنْ لهم حُكْمٌ على الأُمةِ في أمرٍ من الأمورِ. وأما ما يعتقدونه

---

(١) **متفق عليه**: البخاري (٧٢٢٢ - ٧٢٢٣)، مسلم (٤٦٨٣).

بسرْدَابٍ سامَرًّا، فذاك هَوَسٌ في الرؤوس، وهَذَيانٌ في النفوس، لا حقيقةَ له ولا عينٌ ولا أثرٌ.

والمقصودُ أن هاجرَ عليها السلام لما وُلد لها إسماعيلُ اشتدّتْ غَيْرَةُ سارَّةَ منها، وطلَبتْ من الخليلِ أنْ يُغيِّبَ وجهَها عنها، فذهب بها وبولدها، فسار بهما حتى وضعَهما حيثُ مكةُ اليومَ. ويقالُ: إن ولدَها كان إذْ ذاك رضيعًا، فلمّا تركهما هناك وولّى ظهرَه عنهما، قامت إليه هاجرُ، وتعلّقتْ بثيابه، وقالت: يا إبراهيمُ، أين تذهبُ وتَدَعُنا ههنا وليس معنا ما يكفينا؟ فلم يُجبْها، فلمّا ألحّتْ عليه وهو لا يُجيبُها، قالت له: آللهُ أمرَك بهذا؟ قال: نعم. قالت: فإذًا لا يضيِّعُنا. وقد ذكَر الشيخُ أبو محمدٍ ابنُ أبي زيدٍ، رحمه اللهُ، في كتابِ «النَّوادرِ» أنَّ سارَّةَ تغضَّبتْ على هاجرَ، فحلَفتْ لَتَقْطَعَنَّ ثلاثةَ أعضاءٍ منها، فأمَرَها الخليلُ أنْ تثقُبَ أُذُنَيْها، وأنْ تَخفِضَها، فتبرَّ قَسَمَها. قال السُّهَيْليُّ: فكانت أولَ مَن اختَتَن من النساءِ، وأولَ مَن ثقَبتْ أُذُنَيْها منهن، وأولَ مَن طوّلتْ ذَيْلَها.

ذِكرُ مُهَاجرةِ إبراهيمَ عليه السلامُ بابنه إسماعيلَ وأمِّه هاجرَ إلى جبالِ فارانَ؛ وهي أرضُ مكةَ، وبنائه البيتَ العتيقَ

قال البخاريُّ[1]: حدثنا عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ، حدثنا عبدُ الرزَّاق، حدثنا معْمرٌ، عن أيوبَ السَّخْتيانيِّ وكثيرِ بنِ كثيرِ بنِ المطَّلبِ بنِ أبي وَدَاعَةَ، يزيدُ أحدُهما على الآخرِ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: أوَّلَ ما اتَّخذَ النِّساءُ المِنْطَقَ من قِبَلِ أمِّ إسماعيلَ؛ اتخذتْ منْطقًا لتُعفيَ أثَرَها على سارَّةَ. ثم جاء بها إبراهيمُ، وبابنِها إسماعيلَ، وهي تُرضِعُه، حتى وضعَهما عندَ البيتِ عندَ دَوْحةٍ[2] فوقَ زَمْزَمَ، في أعلى المسجدِ، وليس بمكةَ يومئذٍ أحدٌ، وليس بها ماءٌ، فوضَعهما هنالك، ووضَع عندَهما جِرابًا فيه تمرٌ، وسقاءً فيه ماءٌ، ثم قَفَّى إبراهيمُ منطلقًا، فتَبِعتْه أمُّ إسماعيلَ، فقالت: يا إبراهيمُ، أين تذهبُ وتتركُنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيءٌ؟ فقالت له ذلك مِرارًا، وجعَل لا يلتفِتُ إليها، فقالت له: آللهُ أمَرك بهذا؟ قال: نعمْ. قالت: إذًا لا يُضيِّعُنا، ثم رجَعت، فانطلَق إبراهيمُ، حتى إذا كان عندَ الثَّنِيَّةِ حيثُ لا يَرَوْنه، استَقبَل بوجهِه البيتَ، ثم دعا بهؤلاءِ الكلماتِ، ورفَع يَدَيْه، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعَلت أمُّ إسماعيلَ تُرضعُ إسماعيلَ، وتَشرَبُ من ذلك الماءِ، حتى إذا نَفِدَ ما في السِّقاءِ عَطِشتْ، وعَطِش ابنُها، وجعَلت تَنْظُرُ إليه يَتلوَّى. أو قال: يَتَلَبَّطُ. فانطلَقت كراهيةَ أنْ تَنظُرَ إليه، فوجَدتِ الصَّفَا أقربَ جبلٍ في الأرضِ يَليها، فقامت عليه، ثم استقبَلتِ الواديَ، تَنظُرُ هل تَرَى أحدًا، فلم تَرَ أحدًا، فهبَطَتْ من الصَّفَا، حتى إذا بلغَت الواديَ، رفَعت طَرَفَ دِرْعِها، ثم سعَت سَعْيَ الإنسانِ المجهودِ حتى جاوزَت الواديَ، ثم أتَت المَرْوَةَ، فقامت عليها، ونظرت هل ترَى أحدًا، فلم تَرَ أحدًا،

(١) صحيح: البخاري (٣٣٦٤).

(٢) دوحة: الشجرة الكبيرة ملتفة الأعضاء.

ففعلَت ذلك سبْعَ مرات. قال ابنُ عباس: قال النَّبيُّ: «**فذلك سَعْيُ النَّاس بينَهما**»، فلمَّا أشرفت على المروَة سَمعَت صَوتًا، فقالت: صَهٍ - تُريدُ - نفْسَها - ثم تسمَّعَت أيضًا، فقالت: قد أسمَعْتَ إنْ كان عندك غُوَاثٌ. فإذا هي بالمَلَك عندَ موضع زَمْزَمَ، فبحَثَ بعَقبِه - أو قال: بجَنَاحه - حتى ظهَر الماءُ، فجعلَت تُحوِّضُه، وتقولُ بيدِها هكذا، وجعلَت تَغرِفُ من الماءِ في سقائها، وهو يَفُورُ بعدَ ما تَغرِفُ. قال ابنُ عبَّاس: قال النَّبيُّ ﷺ: «**يَرْحَمُ اللهُ أمَّ إسماعيلَ، لو تركَتْ زَمْزَم - أو قال - لو لم تَغرِفْ من الماء لكانت زَمْزَمُ عيْنًا مَعينًا**». قال: فشربت وأرضعَت ولدَها، فقال لها المَلَكُ: لا تخافوا الضَّيْعةَ؛ فإنَّ ههنا بيتَ الله يَبْنِي هذا الغـلامُ وأبوه، وإن اللهَ لا يُضَيِّعُ أهلَه. وكان البيتُ مرتفعًا من الأرض كالرَّابية، تأتيه السيولُ فتأخذُ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرَّت بهم رُفْقَةٌ من جُرْهُم، أو أهلُ بيتٍ من جُرْهُم مُقبلين من طريق كَدَاءَ، فنزَلوا في أسفلِ مكةَ، فرأَوْا طائرًا عائفًا، فقالوا: إنَّ هذا الطائرَ لَيَدورُ على الماء، لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماءٌ. فأرسَلوا جَريًّا أو جَرِيَّيْن، فإذا هم بالماء، فرجَعوا فأخبروهم بالماء، فأقْبَلوا. قال: وأمُّ إسماعيلَ عندَ الماء، فقالوا: أتأذَنين لنا أنْ نَنْزِلَ عندَك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حَقَّ لكم في الماء. قالوا: نعمْ. قال عبدُ الله بنُ عباس: قال النبيُّ ﷺ: «**فألفَى ذلك أمَّ إسماعيلَ، وهي تحبُّ الأُنْسَ**». فنزَلوا وأرسَلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهلُ أبياتٍ منهم، وشَبَّ الغلامُ وتعلَّم العربيةَ منهم، وأنْفَسَهم وأعجبَهم حينَ شَبَّ، فلمَّا أدركَ زوَّجُوه امرأةً منهم، وماتت أمُّ إسماعيلَ، فجاء إبراهيمُ بعدَ ما تزوَّج إسماعيلُ، يطالع تَركَتَه، فلم يجدْ إسماعيلَ، فسأل امرأتَه عنه فقالت: خرَج يبتغي لنا، ثم سألها عن عَيْشِهم وهيئتِهم، فقالت: نحن بشَرٍّ، نحن في ضيقٍ وشدةٍ. وشكَتْ إليه، قال: فإذا جاء زوجُك فاقرئي عليه السلامَ وقولي له يُغيِّرْ عَتَبَةَ بابِه. فلما جاء إسماعيلُ كأنه آنَسَ شيئًا فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعمْ، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألَنا عنك فأخبرتُه، وسألني كيف عيشُنا، فأخبرتُه أنَّا في جَهْدٍ وشدَّةٍ. قال: فهل أوْصَاك بشيءٍ؟ قالت: نعمْ، أمَرني أن أقرأَ عليكَ السلامَ، ويقولُ: غيِّرْ عَتَبَةَ بابِك. قال: ذاك أبي، وأمَرني أن أُفَارِقَك، فالْحَقي بأهلك. فطلَّقها وتزوَّج منهم أخرى، ولَبِث عنهم إبراهيمُ ما شاء اللهُ، ثم أتاهم بعدُ، فلم يجده، فدخَل على امرأته، فسألها عنه، فقالت: خرَج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عَيْشِهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخيرٍ وسَعَةٍ. وأثْنَتْ على الله، فقال: ما طعامُكم؟ قالت: اللَّحمُ. قال: ما شرابُكم؟ قالت: الماءُ. قال: اللهمَّ باركْ لهم في اللَّحمِ والماء. قال النَّبيُّ ﷺ: «**ولم يكنْ لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم حبٌّ لدعَا لهم فيه، فَهُما لا يَخْلُو عليهما أحدٌ بغَيْرِ مكةَ إلا لم يُوافقَاه**». قال: فإذا جاء زوجُك فاقرئي عليه السلامَ، ومُريه يُثْبِتْ عَتَبَةَ بابه. فلمّا جاء إسماعيلُ قال: هل أتاكم من أحدٍ؟ قالت: نعم، أتانا شيخٌ حَسَنُ الهيئة - وأثْنَتْ عليه - فسألني عنك فأخبرتُه، فسألني كيف عيشُنا فأخبرتُه أنَّا بخير. قال: فأوصاك بشيءٍ؟ قالت: نعم، هو يقرأُ عليك السَّلامَ، ويأمرُك أنْ تُثبتَ عتَبةَ بابِك. قال: ذاك أبي، وأنت العَتَبَةُ، وأمرني أنْ أُمسكَك، ثم لبِثَ عنهم ما شاء اللهُ، ثم جاء بعدَ ذلك وإسماعيلُ يَبْري نَبْلاً له تحتَ دَوْحةٍ قريبًا من زَمْزَمَ، فلمَّا رآه قام

إليه، فصنعا كما يصنعُ الولدُ بالوالدِ، والوالدُ بالولدِ، ثم قال: يا إسماعيلُ، إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنعْ ما أمرك ربُّك. قال: وتُعينني؟ قال: وأُعينُك. قال: فإن اللهَ أمرني أنْ أبنيَ ههنا بيتًا. وأشار إلى أكَمَة مرتفعة على ما حولَها. قال: فعندَ ذلك رفعَا القواعدَ من البيت، فجعَل إسماعيلُ يأتي بالحجارة، وإبراهيمُ يَبني، حتى إذا ارتفَع البناءُ، جاء بهذا الحَجر، فوضَعَه له، فقام عليه وهو يَبْني، وإسماعيلُ يُناولُه الحجارةَ، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]. قال: وجعَلا يبنيان حتى يَدُورا حولَ البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

ثم قال البخاري[(١)]: حدثنا عبدُ الله بنُ محمد، حدثنا أبو عامر عبدُ الملك بنُ عمرو، حدثنا إبراهيمُ بنُ نافع، عن كثيرِ بنِ كثير، عن سعيدِ بنِ جُبَيْر، عن ابنِ عباس، قال: لما كان بينَ إبراهيمَ وأهله ما كان خرَج بإسماعيلَ وأمِّ إسماعيلَ، ومعهم شَنَّةٌ فيها ماءٌ. وذكر تمامَه بنحوِ ما تقدَّم. وهذا الحديثُ من كلامِ ابنِ عباس، ومُوَشَّحٌ برَفْع بعضه، وفي بعضه غرابةٌ، وكأنه مما تلقَّاه ابنُ عباس عن الإسرائيليات. وفيه أنَّ إسماعيلَ كان رضيعًا إذْ ذاك. وعندَ أهلِ التوراة، أن إبراهيمَ أمَره اللهُ بأن يختِنَ ولدَه إسماعيلَ وكلَّ مَن عندَه من العبيد وغيرِهم، فختَنَهم، وذلك بعدَ مُضيِّ تسعٍ وتسعين سنةً من عمره، فيكونُ عمرُ إسماعيلَ يومئذٍ ثلاثَ عشْرةَ سنةً. وهذا امتثالٌ لأمرِ الله عزَّ وجلَّ في أهله، فيدلُّ على أنَّه فعَله على وجهِ الوجوب؛ ولهذا كان الصحيحُ من أقوالِ العلماء أنَّه واجبٌ على الرِّجال، كما هو مقرَّرٌ في موضعه.

وقد ثبَت في الحديث الذي رواه البخاري[(٢)]: حدثنا قُتَيْبَةُ بنُ سعيد، حدثنا مُغيرةُ بنُ عبدِالرحمنِ القُرَشيُّ، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرةَ، قال: قال النبيُّ ﷺ: «**اختَتَنَ إبراهيمُ النَّبيُّ عليه السَّلامُ وهو ابنُ ثمانينَ بالقَدُوم**». تابعَه عبدُ الرحمنِ بنُ إسحاقَ، عن أبي الزِّناد، وتابعَه عَجْلانُ، عن أبي هُرَيْرَةَ، ورواه محمدُ بنُ عمرو، عن أبي سَلَمَةَ عن أبي هُرَيرةَ. وهكذا رواه مسلمٌ عن قُتَيْبَةَ به. وفي بعضِ الألفاظ: «**اختَتَنَ إبراهيمُ بعدَ ما أتتْ عليه ثمانون سنةً، واختَتَن بالقَدُوم**». والقَدُومُ هو الآلةُ. وقيل: موضعٌ. وهذا اللفظُ لا ينافي الزيادةَ على الثمانين. واللهُ أعلمُ. لما سيأتي من الحديث عندَ ذكرِ وفاته، عن أبي هُرَيرةَ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**اختَتَنَ إبراهيمُ وهو ابنُ مائة وعشرين سنةً، وعاش بعدَ ذلك ثمانينَ سنةً**». رواه ابنُ حِبَّانَ[(٣)] في «صحيحه». وليس في هذا السِّياقِ ذكرُ قصةِ الذبيحِ وأنه إسماعيلُ، ولم يَذْكُرْ في قَدَمات إبراهيمَ، عليه السلامُ، إلا

---

(١) **صحيح**: البخاري (٣٣٦٥).

(٢) **متفق عليه**: البخاري (٣٣٥٦)، مسلم (٦٠٩٣).

(٣) **صحيح**: ابن حبان (٦٢٠٤) من طريق ابن جريج، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة و(٦٢٠٥) من طريق قتيبة، عن الليث، عن ابن عجلان، عن أبيه، عن أبي هريرة. مرفوعًا. وهذه الرواية مخالفة لما في الصحيحين، وهذا الحديث السابق. وحاول الحافظ في «الفتح» (٦/ ٣٩١) الجمع بينهما، فقال نقلاً عن بعضهم: أن هذا الحديث من مبدأ مولده، والآخر من مبدأ نبوته وهذا جمع بعيد وقد رواه: ابن عساكر (٦/ ١٩٦ ـ ١٩٧) من طرق عن يحيى بن سعيد، عن ابن عجلان، عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعًا موافقًا لما في «الصحيحين» هو ابن ثمانين سنة.

ثلاثَ مرَّاتٍ، أولاهن بعدَ أن تزوَّجَ إسماعيلُ بعدَ موتِ هاجَرَ، وكيف يَترُكُهم مِن حينِ صِغَرِ الولدِ، على ما ذُكِرَ، إلى حينِ تزويجِه لا يَنظُرُ في حالِهم؟ وقد ذُكِرَ أن الأرضَ كانت تُطْوَىٰ له، وقيل: إنه كان يَركَبُ البُراقَ إذا سار إليهم. فكيف يتخلفُ عن مطالعةِ حالِهم، وهم في غايةِ الضرورةِ الشديدةِ، والحاجةِ الأكيدةِ؟ وكأنَّ بعضَ هذا السِّياقِ مُتَلَقًّى من الإسرائيلياتِ، ومُطرَّزٌ بشيءٍ مِن المرفوعاتِ. ولم يُذْكَرْ فيه قصةُ الذبيحِ، وقد دلَّلنا على أن الذبيحَ هو إسماعيلُ، على الصحيحِ، في سورةِ «الصافات».

قصة الذبيح عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصافات: ٩٩-١١٣]. يذكرُ تعالَىٰ عن خليلِه إبراهيمَ أنه لما هاجَرَ مِن بلادِ قومِه، سأل ربَّه أنْ يَهَبَ له ولدًا صالحًا، فبَشَّرَه اللهُ تعالىٰ بغلامٍ حليمٍ، وهو إسماعيلُ عليه السلامُ؛ لأنَّه أولُ مَن وُلِد له على رأسِ ستٍّ وثمانين سنةً مِن عُمُرِ الخليلِ. وهذا ما لا خلافَ فيه بينَ أهلِ المِلَلِ؛ أنَّه أولُ ولده وبِكْرُه. وقولُه: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أي: شبَّ وصار يَسْعَىٰ في مصالِحه كأبيه. قال مُجاهدٌ: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أي: شبَّ وارتَحلَ وأطَاق ما يفعلُه أبوه مِن السَّعْيِ والعملِ. فلمّا كان هذا، أُرِيَ إبراهيمُ عليه السلامُ في المنامِ أنه يُؤْمَرُ بذبحِ ولدِه هذا.

وفي الحديث[1] عن ابنِ عباسٍ مرفوعًا: «رُؤْيَا الأنبياء وَحْيٌ». قاله عُبَيْدُ بنُ عُمَيْرٍ[2] أيضًا. وهذا اختبارٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ لخليلِه في أنْ يَذبَح هذا الولدَ العزيزَ، الذي جاءه على كِبَرٍ، وقد طعَنَ في السِّنِّ، بعدَ ما أُمِرَ بأنْ يُسكِنَه هو وأمَّه في بلادٍ قَفْرٍ، ووادٍ ليس به حَسِيس ولا أَنِيسٌ، ولا زَرْعٌ ولا ضَرْعٌ، فامتثلَ أَمْرَ اللهِ في ذلك، وتركَهما هناك ثِقةً باللهِ وتوكّلاً عليه، فجَعَلَ اللهُ لهما فرَجًا

---

(١) نقل الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٤/ ١٦) رواية ابن أبي حاتم له بسنده عن ابن عباس مرفوعًا وفي سنده سعيد الكريزي: ضعيف ورواية إسرائيل عن سماك ضعيفة. ورواية سماك عن عكرمة: مضطربة.
قلت: وقد ذكر الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١/ ٢٨٩) في تعليقه على قول عبيد بن عمير قد رواه مسلم مرفوعًا وبعد طول بحث في صحيح مسلم لم أقف عليه. وقد جاء معناه مرفوعًا عند البخاري في حديث الإسراء (٧٥١٧) قوله ﷺ: «وكذلك الأنبياء تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم». وقد ورد هذا الحديث موقوفًا على ابن عباس بسند حسن عند ابن جرير (٧/ الجزء ١٢/ ٤٣١) والطبراني في «الكبير» (١٢٣٠٢).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (١٣٨ ـ ٨٥٩).

ومَخْرَجًا، ورزَقَهما مِن حيثُ لا يحتسبان، ثم لمَّا أُمِر بعدَ هذا كلِّه بذَبْحِ ولده هذا، الذي أَفْرَدَه عن أمرِ ربِّه، وهو بِكْرُه ووحيدُه الذي ليس له غيرُه، أجاب ربَّه وامتثَل أمرَه وسارَع إلىٰ طاعته، ثم عرَض ذلك علىٰ ولده؛ ليكونَ أطْيَبَ لقلبِه، وأَهْوَنَ عليه مِن أنْ يأخُذَه قَسْرًا ويذبَحَه قَهْرًا ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾. فبادَر الغلامُ الحليمُ يَبَرُّ والدَه الخليلَ إبراهيمَ، فقال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾. وهذا الجوابُ في غايةِ السَّدادِ والطاعةِ للوالدِ ولربِّ العبادِ. قال اللهُ تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾. قيل: أَسْلَما؛ أي استسلَما لأمرِ اللهِ، وعزَما علىٰ ذلك. وقيل: هذا من المقدَّمِ والمؤخَّرِ، والمعنىٰ ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: ألقاه علىٰ وجهِه. قيل: أراد أن يذبَحَه من قَفاه لِئَلاَّ يشاهدَه في حالِ ذَبْحِه. قاله ابنُ عباسٍ[1]، ومُجاهدٌ[2]، وسعيدُ ابنُ جُبَيْرٍ[3]، وقَتادةُ[4]، والضحاكُ[5]. وقيل: بل أَضْجَعَه كما تُضْجَعُ الذبائحُ، وبَقِيَ طَرَفُ جبينه لاصقًا بالأرضِ. ﴿أَسْلَمَا﴾ أي: سمَّىٰ إبراهيمُ وكبَّر، وتشهَّد وسلَّم الولدَ للموتِ. قال السُّدِّيُّ[6] وغيرُه: أَمَرَّ السِّكينَ علىٰ حَلْقِه فلم تَقطَعْ شيئًا. ويقالُ: جُعِلَ بينَها وبينَ حَلْقِه صفيحةٌ من نُحاسٍ. واللهُ أعلمُ. فعندَ ذلك نُودِيَ من اللهِ عز وجل: ﴿أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾. أي قد حصَل المقصودُ من اختبارِك وطاعتِك، ومبادرتِك إلىٰ أمرِ ربِّك، وبَذْلِكَ ولَدَكَ للقُربان، كما سمَحْتَ ببدنك للنيران، وكما مالُك مبذولٌ للضِّيفان؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾. أي: الاختبارُ الظاهرُ البيِّنُ. وقولُه: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾. أي: وجعلنا فداءَ ذَبْحِ ولَدِه ما يَسَّرَه اللهُ تعالىٰ له من العِوَضِ عنه. والمشهورُ عن الجمهورِ أنه كَبْشٌ أبيضُ أَعْيَنُ أَقْرَنُ، رآه مربوطًا بسَمُرَةٍ في ثَبِيرٍ. قال الثوريُّ[7]، عن عبدِ اللهِ بنِ عثمانَ بنِ خُثَيْمٍ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: كَبْشٌ قد رَعَىٰ في الجنةِ أربعين خريفًا. وقال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ[8]: كان يَرْتَعُ في الجنة حتىٰ تشقَّقَ عنه ثَبِيرٌ، وكان عليه عِهْنٌ أحمرُ. وعن ابنِ عباسٍ[9]: هبَط عليه مِن ثَبِيرٍ كَبْشٌ أَعْيَنُ أَقْرَنُ له ثُغَاءٌ فذبَحَه، وهو الكَبْشُ الذي قرَّبه ابنُ آدمَ فتُقُبِّلَ منه. رواه ابنُ أبي حاتمٍ. قال مُجاهدٌ[10]: فذبحَه بِمِنًىٰ. وقال عُبَيْدُ بنُ عُمَيْرٍ[11]: ذَبَحَه بالمَقامِ. فأمَّا ما رُوِي عن ابنِ عباسٍ[12]، أَنَّه كان وَعْلاً، وعن الحسنِ[13]، أنه كان تَيْسًا مِن الأَرْوَىٰ واسمُه جريرٌ، فلا يكادُ يصحُّ عنهما، ثم غالِبُ ما

---

(١) **ضعيف عنه:** رواه ابن جرير (١٢/ الجزء ٢٣/ ٨٠) من رواية العوفي عنه.

(٢) ابن جرير (١٢/ الجزء ٢٣/ ٨٠) من رواية ابن أبي نجيح عنه، وسبق الكلام عليه.

(٣) لم أقف عليه. (٤) **حسن إليه:** ابن جرير (١٢/ الجزء ٢٣/ ٨٠) من رواية سعيد عنه.

(٥) لم أقف عليه. (٦) **حسن إليه:** ابن جرير (١٢/ الجزء ٢٣/ ٨٠) من رواية أسباط عنه.

(٧) **حسن إليه:** ابن جرير (١٢/ الجزء ٢٣/ ٨٠) وابن أبي حاتم (١٨٢٣٣).

(٨) **ضعيف إليه:** ابن جرير (١٢/ الجزء ٢٣/ ٨٠) فيه: ابن حميد: ضعيف، ويعقوب القُمِّي.

(٩) عزاه ابن كثير لابن أبي حاتم، وليست في الجزء المطبوع من «تفسيره».

(١٠) **ضعيف إليه:** رواه ابن جرير «التاريخ» (١/ ١٦٦) من رواية ابن جريج عنه وابن جريج لم يسمع منه.

(١١) **ضعيف إليه:** رواه ابن جرير «التاريخ» (١/ ١٦٦) من رواية ابن جريج عنه وابن جريج لم يسمع منه.

(١٢) **ضعيف إليه:** رواه ابن جرير (١٢/ الجزء٢٣/ ٨٧) فيه: مبهم، وباذام: ضعيف، ولم يسمع منه.

(١٣) **ضعيف إليه:** ابن جرير (١٢/ الجزء٢٣/ ٨٠)، فيه: ابن حميد وعنعنة ابن إسحاق.

ههنا من الآثار مأخوذٌ من الإسرائيليات، وفي القرآن كفايةٌ عما جرىٰ من الأمر العظيم والاختبار الباهر، وأنه فُدِيَ بذبحٍ عظيم. وقد ورَد في الحديث أنه كان كَبْشًا.

قال الإمامُ أحمدُ[1]: حدثنا سُفيانُ، حدثنا منصورٌ، عن خاله مُسافع، عن صفيةَ بنت شَيْبةَ، قالت: أخبرتني امرأةٌ من بني سُلَيم ولَدتْ عامَّةَ أهل دارنا، قالت: أرسَل رسولُ الله ﷺ إلىٰ عثمانَ ابن طَلْحةَ ـ وقال مرةً: إنها سألت عثمانَ: لِمَ دعاك رسولُ الله ﷺ؟ ـ قال: «**إنّي كنتُ رأيتُ قَرنَي الكبشِ حينَ دخلتُ البيتَ، فنَسِيتُ أنْ آمُرَكَ أنْ تُخمِّرَهما، فخمِّرْهما؛ فإنه لا يَنبغي أنْ يكونَ في البيت شيءٌ يَشْغَلُ المصلِّيَ**». قال سُفيانُ: لم تَزَلْ قَرْنَا الكبشِ في البيت حتىٰ احتراقِ البيت فاحترَقا. وهكذا رُوِيَ عن ابنِ عباسٍ[2]، أن رأسَ الكبشِ لم يَزَلْ معلَّقًا عندَ ميزابِ الكعبة، قد يَبِسَ. وهذا وحدَه دليلٌ علىٰ أن الذبيحَ إسماعيلُ؛ لأنه كان هو المقيم بمكةَ، وإسحاقُ لا نعلَمُ أنه قَدِمها في حالِ صِغَرِه. واللهُ أعلمُ. وهذا هو الظاهرُ من القرآن، بل كأنه نصٌّ علىٰ أن الذبيحَ هو إسماعيلُ؛ لأنَّه ذكَر قصةَ الذبيحِ، ثم قال بعدَه: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾ ومن جعَله حالاً فقد تكلَّف، ومستَنَدُه أنه إسحاقُ إنما هو إسرائيلياتٌ، وكتابُهم فيه تحريفٌ، ولا سيما ههنا قَطْعًا لا مَحيدَ عنه؛ فإن عندَهم أن اللهَ أمَر إبراهيمَ أن يَذْبَحَ ابنَه وحيدَه، وفي نسخةٍ من المُعرَّبة: بِكْرَه إسحاقَ. فَلَفْظَةُ «إسحاقَ» ههنا مُقْحَمةٌ مكذوبةٌ مفتراةٌ؛ لأنه ليس هو الوحيدَ، ولا البِكْرَ، وإنما الوحيدُ البِكْرُ إسماعيلُ، وإنّما حملَهم علىٰ هذا حسدُ العرب؛ فإن إسماعيلَ أبو العرب الذين يسكنون الحجازَ، الذين منهم رسولُ الله ﷺ، وإسحاقَ والدُ يعقوبَ، وهو إسرائيلُ الذين ينتسبون إليه، فأرادوا أن يَجُرُّوا هذا الشرفَ إليهم، فحرَّفوا كلامَ الله وزادُوا فيه، وهم قومٌ بُهْتٌ، ولم يُقِروا بأنَّ الفضلَ بيدِ الله يؤتيه مَن يشاءُ. وقد قال بأنه إسحاقُ طائفةٌ كثيرةٌ من السَّلَف وغيرِهم، وإنما أخذوه، واللهُ أعلمُ، من كعبِ الأحبارِ، أو صُحُفِ أهلِ الكتاب، وليس في ذلك حديثٌ صحيحٌ عن المعصوم حتىٰ نَتركَ لأجله ظاهرَ الكتابِ العزيزِ، ولا يُفْهَمُ هذا من القرآن، بل المفهومُ، بل المنطوق، بل النصُّ عندَ التأملِ علىٰ أنه إسماعيلُ.

وما أحسَنَ ما استدَلَّ محمدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ، علىٰ أنه إسماعيلُ وليس بإسحاقَ، من قوله: ﴿**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾ [هود: ٧١]. قال: فكيف تقعُ البِشارةُ بإسحاقَ، وأنه سيُولدُ له يعقوبُ، ثم يُؤْمَرُ بذَبْحِ إسحاقَ وهو صغيرٌ قبل أنْ يولَدَ له؟ هذا لا يكونُ؛ لأنه يناقضُ البِشارةَ المتقدِّمةَ، واللهُ أعلمُ. وقد اعترَض السُّهَيْليُّ علىٰ هذا الاستدلال بما حاصلُه، أن قولَه: ﴿**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ**﴾ جملةٌ تامةٌ، وقولَه: ﴿**وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾ جملةٌ أخرىٰ ليست في حَيِّزِ البِشارة. قال: لأنه لا يَجُوزُ من حيثُ العربيةُ أن يكونَ مخفوضًا، إلا أن يُعادَ معه حرفُ الجرِّ، فلا يجوزُ أن يُقالَ: مررتُ بزيدٍ، ومِن بعدِه عمرو. حتىٰ يقالَ: ومِن بعده بِعمرو. وقال: فقولُه: ﴿وَمِن

---

(١) صحيح: المسند (٤/ ٦٨) أبو داود (٢٠٣٠).

(٢) ضعيف جداً: الطبري (١٢/ الجزء ٢٣/ ٨٧) فيه: ابن حميد: ضعيف، وسلمة بن الفضل كثير الخطأ والحسن بن دينار: متروك.

﴿وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ منصوبٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ تقديرُه: ووهبنا لإسحاقَ يعقوبَ. وفي هذا الذي قاله نظرٌ. ورجَّح أنه إسحاقُ، واحتَجَّ بقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ قال: وإسماعيلُ لم يكنْ عندَه، إنما كان في حالِ صِغَرِه هو وأمُّه بحيالِ مكةَ، فكيف يبلغ معه السَّعْيَ؟ وهذا أيضًا فيه نَظَرٌ؛ لأنَّه قد رُوِي أن الخليلَ كان يذهَبُ في كثيرٍ من الأوقاتِ راكبًا البُراقَ إلىٰ مكةَ، يَطَّلِعُ علىٰ ولدِه وابنِه ثم يرجِعُ. واللهُ أعلمُ.

فممَّن حُكِي القولُ عنه بأن الذبيحَ إسحاقُ: كعبُ[1] الأحبارِ. ورُوِيَ عن عمرَ[2]، والعباس[3]، وعلي[4]، وابنِ مسعودٍ[5]، ومسروقٍ[6]، وعكرمةَ[7]، وسعيدِ بنِ جُبَيْرٍ[8]، ومُجاهدٍ[9]، وعطاءٍ[10]، والشعْبي[11]، ومُقاتلٍ[12]، وعُبيدِ بنِ عُمَيْرٍ[13]، وأبي مَيْسَرةَ[14]، وزيدِ بنِ أَسْلَمَ[15]، وعبدِ اللهِ بنِ شَقِيقٍ[16]، والزُّهْري[17]، والقاسمِ[18] بنِ أبي بزَّةَ، ومكحولٍ[19]، وعثمانَ بنِ حاضرٍ[20]، والسُّدِّي[21]، والحسنِ[22]، وقَتادةَ[23]، وأبي الهُذَيْلِ[24]، وابنِ سابطٍ[25]. وهو اختيارُ ابنِ جَريرٍ[26]، وهذا عجب منه، وهو إحدىٰ الروايتين عن ابنِ عباسٍ. ولكنَّ الصَّحيحَ عنه وعن أكثرِ هؤلاءِ أنه إسماعيلُ عليه السلامُ. قال مُجاهدٌ، وسعيدٌ، والشَّعْبيُّ، ويوسفُ بنُ مِهْرَانَ، وعطاءٌ، وغيرُ واحدٍ عن ابنِ عباسٍ[27]: هو إسماعيلُ عليه السلامُ.

---

(١) **صحيح إلى كعب:** من رواية أبي هريرة عنه، وسنده صحيح ورواه: أيضًا عبد الرزاق (٢٥٣٠).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) **ضعيف إليه:** رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ٨١) فيه: ابن يمان ومبارك بن فضالة: ضعيفان، وعنعنة الحسن، عن الأحنف بن قيس.

(٤) **ضعيف إليه:** فيه مبهم، وهو شيخ عبد الرزاق، وحجاج بن أرطأة ضعيف. رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٥٣٢) ولم يروه: ابن جرير.

(٥) **صحيح إليه:** من رواية أبي إسحاق عن أبي الأحوص عنه. وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢٥٣٣).

(٦) **صحيح إليه:** من رواية شعبة، عن أبي إسحاق عنه. رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ٨١).

(٧) **ضعيف إليه:** فيه ابن حميد ضعيف. ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ٨١).

(٨) **ضعيف إليه:** رواه عبد اللَّه بن أحمد في «زوائد الزهد» (٩٨) وفيه: الليث بن خالد، قال الحسين: فيه نظر وكذلك محمد بن ثابت: لين الحديث.

(٩) عزاه السيوطي لعبد بن حميد، والصحيح عن مجاهد: أن الذبيح هو إسماعيل.

(١٠) عزاه السيوطي لسعيد بن منصور وعطاء هو ابن يسار.

(١١) لم أقف عليه، والمروي عنه بخلاف ذلك.

(١٢) لم أقف عليه.

(١٣) **صحيح إليه:** من رواية ابنه عبد اللَّه عنه، ورواه: عبد الرزاق (٢٥٣١) من رواية ابن جريج عنه.

(١٤) **حسن إليه:** من رواية حمزة الزيات عنه. رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ٨٣).

(١٥) **ضعيف إليه:** يحيى بن يمان: ضعيف، ويرويه عنه عن عبيد بن عمير. ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ٨٣).

(١٦) لم أقف عليه.

(١٧) **صحيح إليه:** رواه عبد الرزاق (٢٥٣٧) ونسبه إلى كعب.

(١٨) **ضعيف السند إليه:** رواه عبد الرزاق (٢٥٣٦). فيه: الحكم بن أبان: متكلم فيه والقاسم هو ابن أبي بزة وما في الأصل تصحيف.

(١٩) لم أقف عليه.

(٢٠) عزاه السيوطي لعبد بن حميد.

(٢١) **حسن إليه:** من رواية أسباط.

(٢٢) ذكره ابن أبي حاتم (١٨٢٢٤) مفقود الإسناد.

(٢٣) **صحيح إليه:** من رواية سعيد عنه، ومن رواية معمر عند عبد الرزاق (٢٥٤٥).

(٢٤) المروي عن ابن أبي الهذيل والسند إليه صحيح.

(٢٥) **ضعيف إليه:** فيه ابن يمان: ضعيف، وجابر الجُعْفِي كذلك.

(٢٦) روى أكثرها ابن جرير (١٢/ الجزء٢٣/ ٨١ ـ ٨٢ ـ ٨٣).

(٢٧) **صحيح إليه:** روى كل هؤلاء عنه ذلك.

وقال ابنُ جَرير[1] : حدثني يونُسُ، أنبأنا ابنُ وهْبٍ، أخبرني عُمَرُ بنُ قَيْسٍ، عن عطاءِ بنِ أبي رَبَاحٍ، عن ابنِ عباسٍ، أنه قال: المَفْديُّ إسماعيلُ، وزعَمت اليهودُ أنه إسحاقُ، وكذَبت اليهودُ.
وقال عبدُ اللهِ ابنُ الإمامِ أحمدَ، عن أبيه: هو إسماعيلُ.

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: سألتُ أبي عن الذبيحِ، فقال: الصحيحُ أنه إسماعيلُ عليه السلامُ.

قال ابنُ أبي حاتم[2] : ورُوِي عن عليٍّ، وابنِ عُمَرَ، وأبي هُرَيرةَ، وأبي الطُّفَيْلِ، وسعيدِ بنِ المسيِّبِ، وسعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، والحسنِ، ومُجاهدٍ، والشَّعْبيِّ، ومحمدِ بنِ كعبٍ، وأبي جعفرٍ محمدِ بنِ عليٍّ، وأبي صالحٍ أنهم قالوا: الذبيحُ هو إسماعيلُ عليه السلامُ.

وحكاه البَغَوِيُّ أيضًا عن الرَّبِيعِ بنِ أنسٍ، والكَلْبيِّ، وأبي عمرِو بنِ العلاءِ.

قلتُ: ورُوِي عن معاويةَ[3] ؛ وجاء عنه أن رجلاً قال لرسولِ اللهِ ﷺ: يا ابنَ الذَّبِيحَيْن. فضحك رسولُ اللهِ ﷺ. وإليه ذهَب عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ[4] ، ومحمدُ بنُ إسحاقَ بنِ يسارٍ[5] ، وكان الحسنُ البصريُّ[6] يقولُ: لا شكَّ في هذا. وقال محمدُ بنُ إسحاقَ[7] ، عن بُرَيدَةَ بنِ سفيانَ بنِ فَرْوَةَ الأَسْلَميِّ، عن محمدِ بنِ كعبٍ، أنَّه حدثهم أنه ذكَر ذلك لعُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ وهو خليفةٌ إذ كان معه بالشَّام - يعني استدلالَه بقوله بعدَ القصة: ﴿**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾ فقال له عمرُ: إن هذا الشيءَ ما كنتُ أنظُرُ فيه، وإني لأراه كما قلتَ، ثم أرسَل إلى رجلٍ كان عندَه بالشامِ، كان يهوديًّا فأسلَم وحَسُن إسلامُه، وكان يُرَىٰ أنه من علمائِهم. قال: فسأله عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ عن ذلك. قال محمدُ بنُ كعبٍ: وأنا عندَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فقال له عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: أيُّ ابْنَيْ إبراهيمَ أُمِر بذَبْحِه؟ فقال: إسماعيلُ واللهِ يا أميرَ المؤمنين، وإنَّ يهودَ لتعْلَمُ بذلك، ولكنَّهم يَحسُدونكم - مَعْشَرَ العربِ - على أنْ يكونَ أباكم؛ الذي كان من أمرِ اللهِ فيه، والفضلِ الذي ذَكَره اللهُ منْه، لصبرِه لِمَا أُمِر به، فهم يَجْحدون ذلك، ويزعُمون أنه إسحاقُ؛ لأن إسحاقَ أبوهم. وقد ذكرنا هذه المسألَةَ مستقصَاةً بأدلَّتِها وآثارِها في كتابِنا «التفسيرِ». وللهِ الحمدُ والمنةُ.

---

(١) **ضعيف الإسناد**: فيه عمر بن قيس سَنَدَل: متروك، لكن الأثر صحيح، وهو الأثر السابق.
(٢) في «تفسيره» (١٨٢٣٨).
(٣) **ضعيف**: رواه الطبري (١٢/ الجزء ٢٣/ ٨٥)، والحاكم (٢/ ٥٥٤) قال الذهبي: إسناده واه.
(٤) **ضعيف**: رواه ابن جرير تاريخ (١/ ١٦٢) في أثر واحد، وفيه ابن حميد ضعيف.
(٥) **ضعيف**: رواه ابن جرير تاريخ (١/ ١٦٢) في الأثر السابق.
(٦) **صحيح إليه**: ابن جرير تاريخ (١/ ١٦٢).
(٧) **ضعيف**: رواه ابن جرير تاريخ (١/ ١٦٢) في الأثر السابق.

ذكر مولد إسحاق عليه الصلاة والسلام

قال اللهُ تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٢، ١١٣]وقد كانت البشارةُ به من الملائكة لإبراهيمَ وسارَّةَ، لَمّا مرُّوا عليهم مُجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لُوط ليدمِّروا عليهم؛ لكُفرِهم وفجورِهم، كما سيأتي بيانُه في موضعه إن شاء اللهُ تعالى. قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٦٩-٧٣]. وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥١-٥٦]. وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤-٣٠]. يذكرُ تعالى أن الملائكةَ ـ قالوا: وكانوا ثلاثةً؛ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ـ لمّا وردوا على الخليل حَسِبهم أولاً أضيافًا، فعاملَهم معاملة الضيوف؛ شَوىٰ لهم عجْلاً سمينًا من خيار بَقَرِه، فلما قرَّبه إليهم وعرَض عليهم، لم يَرَ لهم همَّةً إلى الأكل بالكلية؛ وذلك لان الملائكةَ ليس فيهم قوةُ الحاجة إلى الطعام. فنَكِرَ منهم أمْرَهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي؛ لندمِّرَ عليهم. فاستَبشَرت عندَ ذلك سارَّةُ غضبًا لله عليهم، وكانت قائمةً على رءوس الأضياف، كما جرَت به عادةُ الناس من العرب وغيرهم، فلمّا ضَحِكَت استبشارًا بذلك، قال اللهُ تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ أي؛ بشَّرَتْها الملائكةُ بذلك ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ أي: في صَرْخة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي؛ كما يَفعلُ النِّساءُ عند التعجُّب ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ أي؛ كيف يَلِدُ مثلي وأنا كبيرةٌ وعقيمٌ أيضًا. ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾ أي؛ زوجي ﴿شَيْخًا﴾ تعجَّبت من وجود ولَد والحالةُ هذه؛ ولهذا قالت: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾. وكذلك تعجَّب إبراهيمُ، عليه السلامُ، استبشارًا بهذه البِشارة، وتثبيتًا لها، وفرحًا بها ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾. أكَّدوا الخبرَ بهذه البِشارة، وقرَّروه

معه، فبشَّروهما ﴿بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ وهو إسحاقُ، وأخوه إسماعيلُ غلامٌ حليمٌ، مناسبٌ لمَقامه وصبرِه، وهكذا وصَفه ربُّه بصدقِ الوعد والصَّبر. وقال في الآية الأُخرىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾. وهذا مما استدَل به محمدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ وغيرُه علىٰ أن الذبيحَ هو إسماعيلُ، وأن إسحاقَ لا يجوزُ أن يُؤمَرَ بذبحه، بعدَ أن وقعَت البشارةُ بوجوده ووجودِ ولدِه يعقوبَ المشتقِّ من العَقِب من بعده.

وعندَ أهلِ الكتاب أنه أحضَر مع العجلِ الحَنيذِ - وهو المشْوِيُّ - رغيفًا من مَلَّةٍ فيه ثلاثةُ أكيالٍ وسمنٌ ولبنٌ. وعندَهم أنهم أكَلوا. وهذا غَلَطٌ مَحْضٌ. وقيل: كانوا يورون أنهم يأكلون، والطعامُ يتلاشىٰ في الهواء. وعندَهم أن اللهَ تعالىٰ قال لإبراهيمَ: أمَّا سارَةُ امرأتُك فلا يُدْعَىٰ اسمُها سارا، ولكن اسمُها سارَةُ، وأباركُ عليها، وأعطيك منها ابنًا وأُباركُه، ويكونُ للشُّعوبِ وملوكُ الشُّعوبِ منه. فخرَّ إبراهيمُ علىٰ وجهه - يعني ساجدًا - وضحك قائلاً في نفسه: أبَعْدَ مائة سنة يُولَدُ لي غلامٌ، أو سارَةُ تَلِدُ وقد أتَت عليها تسعون سنةً؟ وقال إبراهيمُ لله تعالىٰ: ليت إسماعيلَ يعيشُ قُدَّامَك! فقال اللهُ لإبراهيمَ: بحَقِّي، إن امرأتَك سارةَ تَلِدُ لك غلامًا وتدعُو اسمَه إسحاقَ إلىٰ مثلِ هذا الحينِ من قابلٍ، وأُواثقُه ميثاقي إلىٰ الدهرِ، ولخَلَفِه من بعده، وقد استجبتُ لك في إسماعيلَ، وباركتُ عليه وكبَّرتُه، ونَمَّيتُه جدًّا كبيرًا، ويُولَدُ له اثنا عشَرَ عظيمًا، وأجعلُه رئيسًا لشعبٍ عظيمٍ. وقد تكلمنا علىٰ هذا بما تقدم. واللهُ أعلمُ.

فقولُه تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ دليلٌ علىٰ أنها تَستمتعُ بوجود ولدِها إسحاقَ، ثم من بعده يولَدُ ولدُه يعقوبُ؛ أي: يولَد في حياتهما، لتَقَرَّ أعينُهما به، كما قرَّت بوالده. ولو لم يَرِدْ هذا، لم يكنْ لذكرِ يعقوبَ وتخصيصِ التنصيصِ عليه من دونِ سائرِ نسلِ إسحاقَ فائدةٌ، ولَمَّا عُيِّن بالذِّكر، دلَّ علىٰ أنَّهما يتمتعان به ويُسَرَّان بمَولده، كما سُرَّا بمولد أبيه من قبله. وقال تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاً هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤]. وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٩]. وهذا إن شاء اللهُ ظاهرٌ قويٌّ، ويؤيدُه ما ثبَت في «الصحيحين»[1] من حديثِ سليمانَ بنِ مِهْرانَ الأعمشِ، عن إبراهيمَ بنِ يزيدَ التَّيْميِّ، عن أبيه، عن أبي ذرٍّ، قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ مسجدٍ وُضِعَ أوَّلَ؟ قال: «المسجدُ الحرامُ». قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «المسجدُ الأقصَىٰ». قلت: كم بينَهما؟ قال: «أربعون سنةً». قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «ثم حيثُ أدركْتَ الصلاةَ فصلِّ، فكلُّها مَسْجدٌ». وعندَ أهلِ الكتاب أن يعقوبَ، عليه السلامُ، هو الذي أسَّس المسجدَ الأقصىٰ، وهو مسجدُ إيلِيَا، وهو مسجدُ بيتِ المقدسِ، شرَّفَه اللهُ. وهذا مُتَّجِهٌ، ويشهدُ له ما ذكرناه من الحديث.

فعلىٰ هذا يكونُ بناءُ يعقوبَ - وهو إسرائيلُ عليه السلامُ - بعدَ بناءِ الخليلِ وابنِه إسماعيلَ المسجدَ

(١) **متفق عليه**: البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (١١٦١).

الحرام بأربعين سنة سواءً، وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق؛ لأن إبرهيم عليه السلام لما دعا قال في دعائه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٤١].

وما جاء في الحديث من أن سليمانَ بنَ داودَ عليهما السلامُ لَمَّا بَنَى بيتَ المقدس سأل اللهَ خلالاً ثلاثاً، كما ذكرناه عندَ قوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]. وكما سنوردُه في قصته. فالمرادُ من ذلك، واللهُ أعلمُ، أنَّه جدَّد بناءَه، لمَا تقدم من أن بينَهما أربعين سنةً، ولم يقُلْ أحدٌ: إن بينَ سليمانَ وإبراهيمَ أربعين سنةً سوى ابنِ حبَّانَ في «تقاسيمه وأنواعه»، وهذا القولُ لم يُوافَقْ عليه ولا سُبِقَ إليه. واللهُ تعالى أعلمُ بالصواب.

ذكرُ بناءِ البيتِ العتيق

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦، ٢٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]. وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٤، ١٢٩]. يذكرُ تعالى عن عبده ورسوله وصَفِيِّه وخليله، إمامِ الحُنَفاء ووالد الأنبياء إبراهيمَ، عليه أفضلُ صلاة وتسليم، أنه بَنَى البيتَ العتيقَ الذي هو أولُ مسجدٍ وُضع لعموم الناسِ يعبدون اللهَ فيه، وبوَّأه اللهُ

مكانَه، أي: أَرْشَدَه إليه ودلَّه عليه. وقد روينا عن أميرِ المؤمنين عليِّ بنِ أبي طالبٍ، وغيرِه، أنه أُرْشِد إليه بوحيٍ من اللهِ عز وجل. وقد قدمنا في صفة خلقِ السَّموات أنَّ الكعبةَ بحيالِ البيتِ المعمورِ، بحيث إنَّه لو سقَط لسقَط عليها. وكذلك معابدُ السَّمواتِ السبعِ، كما قال بعضُ السلفِ: إن في كلِّ سماءٍ بيتًا يَعبُدُ اللهَ فيه أهلُ كلِّ سماءٍ، وهو فيها كالكعبةِ لأهلِ الأرضِ فأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبني له بيتًا يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السَّموات، وأرشَده اللهُ إلى مكانِ البيتِ المهيَّأ له، المعيَّنِ لذلك منذ خلَق السَّمواتِ والأرضَ. كما ثَبَت في «الصَّحيحين»[1]: «**إن هذا البلدَ حرَّمه اللهُ يومَ خلَق السَّمواتِ والأرضَ، فهو حَرامٌ بحُرْمةِ اللهِ إلى يومِ القيامة**». ولم يجئْ في خبرٍ صحيحٍ عن معصومٍ أن البيتَ كان مبنيًّا قبلَ الخليلِ عليه السَّلامُ، ومَن تمسَّك في هذا بقوله: ﴿**مَكَانَ الْبَيْتِ**﴾ فليس بناهضٍ ولا ظاهرٍ؛ لأن المرادَ مكانُه المقدَّرُ في علمِ اللهِ، المقدَّرُ في قدرِه، المعظَّمُ عندَ الأنبياءِ موضعُه، من لَدُنْ آدمَ إلى زمانِ إبراهيمَ.

وقد ذكَرنا أن آدمَ نصَب عليه قُبَّةً، وأن الملائكةَ قالوا له: قد طُفْنا قبلَك بهذا البيتِ. وأن السفينةَ طافت به أربعين يومًا، أو نحوَ ذلك. ولكنْ كلُّ هذه أخبارٌ عن بني إسرائيلَ، وقد قرَّرنا أنها لا تُصدَّقُ ولا تُكذَّبُ، فلا يُحتجُّ بها، فأمَّا إنْ ردَّها الحقُّ، فهي مردودةٌ. وقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**﴾ أي؛ أولُ بيتٍ وُضِع لعمومِ الناس للبركة والهدَى، البيتُ الذي ببكَّةَ. قيل: مكةُ. وقيل: مَحلَّةُ الكعبة ﴿**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ**﴾ أي: على أنه بناءُ الخليلِ والدِ الأنبياءِ من بعدِه وإمامِ الحنفاءِ من ولدِه، الذين يقتدون به ويتمسكون بسنَّته؛ ولهذا قال: ﴿**مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ**﴾ أي: الحَجرُ الذي كان يقفُ عليه قائمًا لَمَّا ارتفَع البناءُ عن قامته، فوضَع له ولدُه هذا الحَجَرَ المشهورَ ليرتفعَ عليه لَمَّا تعالَى البناءُ وعَظُمَ الفِناءُ، كما تقدّم في حديثِ ابنِ عباسٍ الطويلِ[2]. وقد كان هذا الحَجَرُ مُلصَقًا بحائطِ الكعبةِ على ما كان عليه من قديمِ الزمانِ إلى أيامِ عمرَ بنِ الخطابِ رضي اللهُ عنه، فأخَّرَه عن البيتِ قليلاً؛ لئلاَّ يَشْغَلَ المُصلُّون عندَه الطَّائفين بالبيتِ، واتَّبع عمرُ بنَ الخطابِ رضي اللهُ عنه في هذا، فإنه قد وافقَه ربُّه في أشياءَ؛ منها في قوله لرسوله ﷺ: لو اتخذْنا من مقامِ إبراهيمَ مُصَلًّى. فأنزَل اللهُ: ﴿**وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾[3]. وقد كانت آثارُ قَدَمَي الخليلِ باقيةً في الصخرةِ إلى أولِ الإسلامِ. وقد قال أبو طالبٍ في قصيدته اللاميَّةِ المشهورةِ:

وثَورٍ ومَن أرسَى ثَبيرًا مكانَهُ ... وراقٍ ليَرقَى في حراءَ ونازلِ
وبالبيتِ حقِّ البيتِ من بطنِ مكَّةَ ... وباللهِ إنَّ اللهَ ليس بغافلِ
وبالحجرِ المُسْودِّ إذ يَمْسحونه ... إذا اكتنفوه بالضُّحَى والأصائلِ
ومَوْطِئُ إبراهيمَ في الصَّخرِ رَطْبةً ... على قدَميه حافيًا غيرَ ناعلِ

---

(١) متفق عليه: البخاري (١٨٣٤)، مسلم (٣٢٨٩).

(٢) سبق في قصة سارة مع الجبار.

(٣) متفق عليه: البخاري (٤٤٨٣)، مسلم (٦١٥٦).

يعني أن رجْلَه الكريمةَ غاصَت في الصخرة، فصارت على قدر قدمه، حافيةً لا مُنْتَعلةً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ أي؛ في حال قولهما: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فهما في غاية الإخلاص والطاعة لله عز وجل، وهما يسألان من الله السميع العليم أن يتقبَّلَ منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسَّعي المشكور ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾.

والمقصودُ أن الخليلَ بَنَى أشرفَ المساجد في أفضلِ البقاع، في وادٍ غير ذي زرع، ودعَا لأهلها بالبركة وأن يُرزَقوا من الثمرات، مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار، وأنْ يجعلَه حَرَمًا محرَّمًا وأمْنًا محتَّمًا، فاستجاب اللهُ ـ وله الحمدُ ـ له مسألتَه، ولبَّى دعوتَه، وآتاه طَلْبَتَه؛ فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص: ٥٧]. وسأل اللهَ أن يَبعثَ فيهم رسولاً منهم؛ أي: من جِنْسهم، وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النَّصيحة؛ لتتمَّ عليهم النِّعمتان؛ الدنيويةُ والدينيةُ، بسعادة الأُولَى والآخرة. وقد استجاب اللهُ له، فبعَث فيهم رسولاً، وأيَّ رسولٍ، ختَم به أنبياءَه ورسلَه، وأكمَل له من الدين ما لم يؤتِ أحدًا قبلَه، وعمَّ بدعوته أهلَ الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، في سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة. وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء؛ لشَرَفه في نفسه، وكمال ما أُرْسل به، وشَرَف بقعته، وفصاحة لغته، وكمال شَفَقَته على أُمته، ولطفه ورحمته، وكريم مَحْتده، وعظيم مولده، وطيب مصدره ومَوْرده. ولهذا استحَق إبراهيمُ الخليلُ عليه السلامُ ـ إذ كان بانيَ كعبة أهل الأرض ـ أن يكونَ مَنْصِبُه ومَحَلُّه وموضعُه في منازل السموات ورفيع الدرجات عندَ البيت المعمور، الذي هو كعبةُ أهلِ السماء السابعة، المباركَ المبرور، الذي يدخلُه كلَّ يوم سبعون ألفًا من الملائكة يتعبَّدُون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنُّشور. وقد ذكرنا في «التفسير» في سورة «البقرة» صفةَ بنائه للبيت، وما ورَد في ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفايةٌ، فَمَن أراده فلْيُراجعْه ثَمَّ. ولله الحمدُ.

فمن ذلك ما قال السُّدِّيُّ: لَمّا أمَر اللهُ إبراهيمَ وإسماعيلَ أنْ يَبْنيا البيت، لم يَدْرِيا أينَ مكانُه، حتى بعَث اللهُ ريحًا يقالُ لها: الخَجُوجُ. لها جَناحان ورأسٌ، في صورة حيَّة، فكَنَسَتْ لهما ما حولَ الكعبة عن أساس البيت الأول، وأتْبعَاها بالمعاول يَحْفُران، حتى وضَعا الأساسَ، وذلك حيثُ يقولُ تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ [الحج: ٢٦]. فلما بلَغا القواعدَ، بنيا الرُّكْنَ، قال إبراهيمُ لإسماعيلَ: يا بُنَيَّ، اطلُبْ لي حجرًا حسنًا أضعه ههنا. قال: يا أبت، إني كسلانٌ تعبٌ. قال: عليَّ ذلك. فانطَلق وجاءه جبريلُ بالحَجَر الأسود من الهند، وكان ياقوتةً بيضاءَ مثلَ الثَّغَامة، وكان آدمُ هبَط به من الجنة، فاسودَّ من خطايا الناس، فجاءه إسماعيلُ بحَجَر، فوجَده عندَ الرُّكْن، قال: يا

أبت، مَن جاءك بهذا؟ قال: جاء به مَن هو أنشطُ منك. فبَنَيا وهما يدعُوَان الله: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

وذكَر ابنُ أبي حاتم[1] أنه بنَاه من خمسة أجْبُلٍ، وأن ذا القَرْنَيْن - وكان مَلِكَ الأرض إذ ذاك - مرَّ بهما وهما يَبْنِيانه، فقال: مَن أمركُما بهذا؟ فقال إبراهيمُ: اللهُ أمَرَنا به. فقال: وما يُدْرِيني بما تقولُ؟ فشَهِدَت خمسةُ أكْبُشٍ أنه أمَرَه بذلك، فآمَنَ وصدَّقَ. وذكَر الأزْرَقِيُّ أنَّه طاف مع الخليل بالبيت.

وقد كانت على بناء الخليل مدةً طويلةً، ثم بعدَ ذلك بنَتْها قريشٌ، فقَصُرت بها عن قواعد إبراهيمَ من جهة الشِّمال، مما يلي الشامَ، على ما هي عليه اليومَ. وفي «الصحيحين»[2] من حديث مالكٍ، عن ابن شهابٍ، عن سالمٍ، أن عبدَ الله بنَ محمد بنِ أبي بكرٍ أخبَرَ ابنَ عُمَرَ، عن عائشةَ، أن رسولَ الله ﷺ قال: «ألم تَرَيْ أن قومَك لَمَّا بَنَوُا الكعبةَ اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟». فقلتُ: يا رسولَ الله، ألا تَرُدُّها على قواعد إبراهيمَ؟ فقال: «لولا حِدْثانُ قومِك - وفي رواية: لولا أنَّ قومَك حديثو عهدٍ بجاهلية. أو قال: بكُفْرٍ - لأنفقتُ كنزَ الكعبة في سبيل الله، ولجعَلْتُ بابَها بالأرض، ولأدخَلْتُ فيها الحِجْرَ». وقد بناها ابنُ الزُّبَيْر رحمه اللهُ في أيامه على ما أشار إليه رسولُ الله ﷺ حَسْبَما أخبرَتْه خالتُه عائشةُ أمُّ المؤمنين عنه[3]، فلما قتَلَه الحجَّاجُ في سنة ثلاثٍ وسبعين، كتَب إلى عبد الملك بنِ مَرْوانَ، الخليفة إذ ذاك، فاعتَقَدوا أن ابنَ الزُّبَيْرِ إنَّما صنَع ذلك من تلقاء نفسه، فأمرَ بردِّها إلى ما كانت عليه، فنَقَضُوا الحائطَ الشَّاميَّ، وأخرجوا منها الحِجْرَ، ثم سَدُّوا الحائطَ، وردَمُوا الأحجارَ في جوف الكعبة، فارتفَع بابُها الشَّرقيُّ، وسدُّوا الغربيَّ بالكُلِّيَّة، كما هو مشاهَدٌ اليومَ، ثم لَمَّا بلَغهم أنَّ ابنَ الزُّبَيْر إنما فعَل هذا لَمَّا أخبرَتْه عائشةُ أمُّ المؤمنين، ندِموا على ما فعَلوا، وتأسَّفُوا أنْ لو كانوا تركوه وما تولَّى من ذلك، ثم لَمَّا كان في زمَن المهديِّ بنِ المنصورِ، استشار الإمامَ مالكَ بنَ أنسٍ في ردِّها على الصِّفة التي بناها ابنُ الزبير، فقال له: إنِّي أخشَى أنْ يَتَّخِذَها الملوكُ لُعبةً. يعني كلَّما جاء مَلِكٌ بناها على الصِّفة التي يريدُ. فاستَقرَّ الأمرُ على ما هي عليه اليومَ.

ذكرُ ثناءِ الله ورسولِه الكريم، على عبدِ الله وخليلِه إبراهيمَ

قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]. لَمَّا وفَّى ما أمَرَه ربُّه به من التكاليف العظيمة، جعَله للناس إمامًا، يَقتَدُون به ويأتَمُّون بهَدْيه، وسأل اللهَ أن تكونَ هذه الإمامةُ متصلةً بسببِه، وباقيةً في نَسَبِه، وخالدةً في عقِبه، فأُجيبَ إلى ما سأل ورامَ، وسُلِّمتْ إليه الإمامةُ بزِمَامٍ، واستُثْنِيَ مِن نَيْلها الظالمون،

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٢٣١) من قول علباء بن أحمر.
(٢) متفق عليه: البخاري (١٥٨٣ ـ ٣٣٦٨)، مسلم (٣٢٣٠ ـ ٣٢٣١).
(٣) صحيح: مسلم (٣٢٣٢).

واختصَّ بها من ذريته العلماءُ العاملون؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الانعام: ٨٤-٨٧]. فالضَّميرُ في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ عائدٌ على إبراهيمَ، على المشهورِ، ولوطٌ وإنْ كان ابنَ أخيه، إلا أنَّه دخل في الذرية تغليبًا، وهذا هو الحاملُ للقائلِ الآخَرِ: إن الضميرَ عائدٌ على نوحٍ. كما قدمنا في قصته. واللهُ أعلمُ.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦] الآية. فكلُّ كتابٍ أُنزِلَ من السماء على نبيٍّ من الأنبياء بعدَ إبراهيمَ الخليلِ فمن ذريته وشيعته، وهذه خِلْعَةٌ سَنِيَّةٌ لا تُضاهَى، ومرتبةٌ عليَّةٌ لا تُباهَى؛ وذلك أنه وُلِد له لصُلْبه ولدانِ ذَكَرانِ عظيمانِ، إسماعيلُ من هاجَرَ، ثم إسحاقُ من سارَّةَ، ووُلِدَ لهذا يعقوبُ، وهو إسرائيلُ الذي يَنتسبُ إليه سائرُ أسباطِهم، فكانت فيهم النبوةُ، وكَثُروا جدًّا بحيثُ لا يَعلَمُ عددَهم إلا الذي بعثَهم، واختصَّهم بالرسالة والنبوة، حتى خُتِموا بعيسى ابنِ مريمَ من بني إسرائيلَ.

وأمَّا إسماعيلُ عليه السلامُ فكانت منه العربُ على اختلاف قبائلِها، كما سنبيِّنُه فيما بعدُ إنْ شاء اللهُ تعالى، ولم يُوجَدْ من سُلالته من الأنبياءِ سوى خاتَمِهم على الإطلاقِ وسيِّدِهم، وفَخْرِ بني آدمَ في الدنيا والآخرة؛ محمدِ بنِ عبدِ الله بنِ عبدِ المطَّلبِ بنِ هاشمٍ القُرَشيِّ الهاشميِّ المَكِّيِّ ثم المَدَنيِّ، صلواتُ الله وسلامُه عليه، فلم يُوجَدْ من هذا الفَرْعِ الشريفِ والغُصنِ المُنيفِ سوى هذه الجوهرةِ الباهرةِ، والدُّرَّةِ الزاهرةِ وواسطةِ العِقْدِ الفاخرةِ، وهو السيدُ الذي يَفْتَخِرُ به أهلُ الجَمْعِ، ويَغْبِطُه الأوَّلون والآخِرون يومَ القيامة.

وقد ثبَت عنه في «صحيح مسلم»[1]، كما سنوردُه، أنه قال: «**سأقومُ مَقامًا يَرْغَبُ إليَّ الخلقُ كلُّهم، حتى إبراهيم**». فمدَح إبراهيمَ أباه مِدْحةً عظيمةً في هذا السياق، ودلَّ كلامُه على أنه أفضلُ الخلائقِ بعدَه عندَ الخَلَّاقِ في هذه الحياةِ الدُّنيا، ويومَ يُكْشَفُ عن ساقٍ.

وقال البخاري[2]: حدثنا عثمانُ بنُ أبي شَيْبةَ، حدثنا جَريرٌ، عن منصورٍ، عن المِنهالِ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: كان رسولُ الله ﷺ يُعَوِّذُ الحسنَ والحسينَ، ويقولُ: «**إن أباكما كان يُعَوِّذُ بهما إسماعيلَ وإسحاقَ: أَعُوذُ بكلماتِ اللهِ التَّامَّةِ، من كلِّ شيطانٍ وهامَّةٍ، ومن كلِّ عَيْنٍ**

---

(١) **صحيح**: مسلم (١٩٠١)، أبو داود (١٤٧٨).
(٢) **صحيح**: البخاري (٣٣٧١).

لامَّة». ورواه أهلُ «السُّنَن»(١) ، من حديث منصور، به.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. ذكر المفسرون لهذا السؤال أسبابًا، بسطناها في «التفسير» وقرَّرْناها بأتمِّ تقرير، والحاصلُ أن اللهَ ـ عز وجل ـ أجابه إلى ما سأل، فأمَرَه أن يَعْمِدَ إلى أربعةٍ من الطيور، واختلفوا في تَعْيينها على أقوالٍ، والمقصودُ حاصلٌ على كلِّ تقدير، فأمَرَه أن يُمزِّقَ لُحُومَهن وريشَهن، ويَخْلطَ ذلك بعضَه في بعضٍ، ثم يَقْسِمَه قِسَمًا، ويَجعلَ على كلِ جبلٍ منهن جزءًا، ففعَل ما أُمر به، ثم أُمر أن يَدْعُوَهن بإذن ربِّهن، فلما دعاهن جعَل كلُّ عضوٍ يطيرُ إلى صاحبه، وكلُّ ريشةٍ تأتي إلى أختها، حتى اجتَمع بدنُ كلِّ طائرٍ على ما كان عليه، وهو يَنظرُ إلى قدرة الذي يقولُ للشيءِ: كنْ فيكونُ. فأَتَيْنَ إليه سَعْيًا؛ ليكونَ أَبْيَنَ له، وأوضَحَ لمشاهدته من أن يأتينَ طَيَرانًا. ويقالُ: إنه أُمر أن يأخُذَ رُءوسَهن في يده، فجعَل كلُّ طائرٍ يأتي فتَلْقَاه رأسُه، فيَتَركَّبُ على جثَّته كما كان فلا إله إلا اللهُ. وقد كان إبراهيمُ عليه السلامُ يَعْلَمُ قدرةَ الله تعالى على إحياء الموتى علْمًا يقينيًّا لا يَحتَملُ النقيضَ، ولكنْ أحَبَّ أنْ يُشاهدَ ذلك عَيَانًا، ويترقَّى من علم اليقين إلى عين اليقين، فأجابه اللهُ إلى سؤاله، وأعطاه غايةَ مأموله.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٥ـ٦٨]. يُنكرُ تعالى على أهلِ الكتاب، من اليهودِ والنصارى، في دَعْوَى كلٍّ من الفريقَين كَوْنَ الخليلِ على ملَّتِهم وطريقتِهم، فبرَّأه اللهُ منهم وبيَّن كثْرَةَ جهلِهم وقلَّةَ عقلِهم، في قوله: ﴿ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ﴾ أي: فكيف يكونُ على دينكم، وأنتم إنما شُرع لكم ما شُرع بعدَه بمُدَدٍ متطاولة؛ ولهذا قال: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ إلى أنْ قال: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾. فبيَّن أنه كان على دينِ الله الحنيف؛ وهو القَصْدُ إلى الإخلاص، والانحرافُ عَمْدًا عن الباطلِ إلى الحقِّ الذي هو مخالفٌ لليهودية والنصرانية والمُشركيَّة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي

---

(١) **صحيح:** وأبو داود (٤٧٣٧)، والترمذي (٢٠٦٠)، وابن ماجه (٣٥٢٥)، والنسائي «الكبرى» (١٠٨٤٤).

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٤٠]. فنزَّه الله عزّ وجلّ خليلَه عليه السلامُ عن أن يكونَ يهوديًّا أو نصرانيًا، وبيَّن أنه إنما كان حنيفًا مسلمًا، ولم يكنْ من المشركين؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ يعني الذين كانوا على ملَّته من أتباعه في زمانه، ومن تمسَّكَ بدينه من بعدهم ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ يعني: محمدًا ﷺ فإن اللهَ شرَع له الدِّينَ الحنيفَ الذي شرَعه للخليل، وكمَّله اللهُ تعالىٰ له، وأعطاه ما لم يُعْطِ نبيًّا ولا رسولاً قبلَه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الانعام: ١٦١-١٦٣]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وقال البخاري[١]: حدثنا إبراهيمُ بنُ موسىٰ، حدثنا هشامٌ، عن معْمَرٍ، عن أيوبَ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابنِ عباسٍ، أن النَّبيَّ ﷺ لما رأىٰ الصُّوَرَ في البيت لم يدخُلْ حتىٰ أمَرَ بها فمُحِيَتْ، ورأىٰ إبراهيمَ وإسماعيلَ بأيْدِيهما الأزلامُ، فقال: «قاتَلَهم اللهُ، والله إن استَقْسَما بالأزلام قطُّ». لم يخرجْه مسلمٌ. وفي بعضِ ألفاظ البخاريِّ: «قاتَلَهم اللهُ، لقد علموا أنَّ شيخَنا لم يَستَقْسِم بها قطُّ».

فقولُه: ﴿أُمَّةً﴾ أي: قدوةً إمامًا مهتديًا، داعيًا إلى الخير، يُقْتَدَىٰ به فيه ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ أي؛ خاشعًا له في جميع حالاته وحركاته وسكناته ﴿حَنِيفًا﴾ أي؛ مخلصًا على بصيرة ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ﴾ أي؛ قائمًا بشكر ربِّه بجميع جوارحه؛ من قلبه ولسانه وأعماله ﴿اجْتَبَاهُ﴾ أي؛ اختارَه اللهُ لنفسه، واصطفاه لرسالته، واتخذَه خليلاً، وجمع له بينَ خَيْرَيِ الدنيا والآخرة. وقال

(١) صحيح: البخاري (٣٣٥٢)، أبو داود (٢٠٢٧).

تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. يُرَغِّبُ تعالى في اتِّباع إبراهيمَ عليه السلامُ؛ لأنَّه كان على الدينِ القويمِ، والصراطِ المستقيمِ، وقد قام بجميعِ ما أمره به ربُّه، ومدَحه تعالى بذلك فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧]. ولهذا اتخذه اللهُ خليلاً، والخُلَّةُ: هي غايةُ المحبة. كما قال بعضُهم:

قد تخلَّلتَ مسلكَ الرُّوحِ مني ... وبذا سُمِّيَ الخليلُ خليلاً

وهكذا نال هذه المنزلةَ خاتَمُ الأنبياءِ وسيدُ الرسلِ محمدٌ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، كما ثبَت في «الصحيحين»[١] وغيرِهما من حديثِ جُنْدَبٍ البَجَليِّ، وعبدِ الله بنِ عمرٍو، وابنِ مسعودٍ، عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «أيها الناسُ، إن اللهَ اتَّخذَني خليلاً، كما اتَّخذَ إبراهيمَ خليلاً». وقال أيضًا في آخرِ خطبةٍ خطَبها: «أيها النَّاسُ، لو كنتُ متَّخذًا من أهلِ الأرضِ خليلاً، لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً، ولكنَّ صاحبَكم خليلُ الله». أخرجاه[٢] من حديثِ أبي سعيدٍ. وثبَت أيضًا من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ، وابنِ عباسٍ، وابنِ مسعودٍ.

وروى البخاري[٣] **في «صحيحه»**: حدثنا سُليمانُ بنُ حربٍ، حدثنا شعبةُ، عن حبيبِ بنِ أبي ثابتٍ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن عمرِو بنِ ميمونٍ، قال: إنَّ مُعَاذًا لمَّا قدِم اليَمنَ صلَّى بهم الصبحَ، فقرَأ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. فقال رجلٌ من القومِ: لقد قَرَّتْ عينُ أمِّ إبراهيمَ.

وقال ابنُ مَرْدُوَيْه: حدثنا عبدُ الرَّحيمِ بنُ محمدِ بنِ مسلمٍ، حدثنا إسماعيلُ بنُ أحمدَ بنِ أُسَيدٍ، حدثنا إبراهيمُ بنُ يعقوبَ الجُوزجانيُّ بمكَّةَ، حدثنا عبدُ الله الحَنَفيُّ، حدثنا زَمْعَةُ بنُ صالحٍ، عن سَلَمَةَ ابنِ وَهْرَامٍ، عن عِكْرِمةَ، عن ابنِ عباسٍ، قال: جلَس ناسٌ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ ينتظرونه، فخرَج، حتى إذا دنا منهم سَمِعَهُم يتذاكرون، فسَمِع حديثَهم، وإذا بعضُهم يقولُ: عَجَبٌ أنَّ اللهَ اتَّخذَ من خَلْقِه خليلاً، فإبراهيمُ خليلُه. وقال آخَرُ: ماذا بأعْجَبَ من أنَّ اللهَ كلَّم موسى تكليمًا. وقال آخَرُ: فعيسى رُوحُ الله وكلمتُه. وقال آخَرُ: آدَمُ اصطفاه اللهُ. فخَرَج عليهم فسلَّم، وقال: «قد سمعتُ كلامَكم، وعَجَبَكم أنَّ إبراهيمَ خليلُ الله وهو كذلك، وموسى كليمُه وهو كذلك، وعيسى رُوحُه وكلمتُه وهو كذلك، وآدَمُ اصطفاهُ اللهُ وهو كذلك، ألا وإنِّي حبيبُ الله ولا فَخْرَ، ألا وإنِّي أوَّلُ شافعٍ، وأوَّلُ مُشَفَّعٍ ولا فَخْرَ، وأنا أوَّلُ مَن يُحرِّكُ حَلْقَةَ بابِ الجنَّة، فيفتَحُه اللهُ، فيُدْخِلُنِيها ومعي فُقراءُ المؤمنين، وأنا أكرَمُ الأوَّلين والآخرين يومَ القيامة ولا فَخْرَ»[٤]. هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، وله شواهدُ من وجوهٍ أُخَرَ. واللهُ أعلمُ.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٦٥٤)، مسلم (١١٨٨).
(٢) متفق عليه: البخاري (٤٦٦)، مسلم (٦١٦٢٠).
(٣) صحيح: البخاري (٤٣٤٨).
(٤) ضعيف الإسناد: رواه أيضًا: الترمذي (٣٦١٦)، وقال: غريب، والدارمي (٤٧) من طريق زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، علته زمعة مُضعَّف.

وروى الحاكم[١] **في «مُسْتَدْرَكه»**، من حديث قَتادةَ، عن عِكْرِمةَ، عن ابنِ عباسٍ، قال: **أَتُنْكِرون أَنْ تكونَ الخُلَّةُ لإبراهيمَ، والكلامُ لموسىٰ، والرُّؤيةُ لمحمدٍ؟** صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمودُ بنُ خالدٍ السُّلَميُّ، حدثنا الوليدُ، عن إسحاقَ بنِ يسارٍ، **قال: لمَّا اتَّخَذ اللهُ إبراهيمَ خليلاً، أُلْقِيَ في قلبه الوجَلُ، حتى إنْ كان خَفَقَانُ قلبه ليُسْمَعُ من بُعْدٍ، كما يُسْمَعُ** خَفَقانُ الطيرِ في الهواءِ. وقال عُبَيْدُ بنُ عُمَيْر: كان إبراهيمُ عليه السلامُ يُضيفُ الناسَ، **فخرَجَ** يومًا يَلتَمسُ إنسانًا يُضيفُه، فلم يجدْ أحدًا يُضيفُه، فرجَع إلىٰ داره، فوجَد فيها رجلاً قائمًا، فقال: يا عبدَ الله ما أدخَلَك داري بغيرِ إذني؟ قال: دخلتُها بإذنِ ربِّها. قال: ومن أنت؟ قال: أنا مَلَكُ الموت، أَرسَلني ربي إلىٰ عبدٍ من عبادِه أبشِّرُه بأن اللهَ قد اتَّخَذَه خليلاً. قال: قال: من هو؟ فوالله إنْ أخبَرْتَني به، ثم كان بأقصىٰ البلادِ لآتينَّه، ثم لا أَبرَحُ له جاراً حتى يُفَرِّقَ بيننا الموتُ. قال: ذلك العبدُ أنت. قال: أنا؟ قال: نعم. قال: فبِمَ اتَّخذَني ربي خليلاً؟ قال: بأنك تُعطِي الناسَ ولا تسألُهم. رواه ابنُ أبي حاتمٍ.

وقد ذكَره اللهُ تعالىٰ في القرآنِ كثيراً في غيرِ ما موضعٍ بالثناءِ عليه والمدحِ له، فقيل: إنه مذكورٌ في خمسةٍ وثلاثين موضعًا، منها خمسةَ عَشَرَ في «البقرة» وحدَها. وهو أحدُ أُولي العزمِ الخمسةِ المنصوصِ علىٰ أسمائهم، تخصيصاً من بين سائرِ الأنبياءِ في آيَتَي «الأحزاب» و«الشُّورَىٰ»؛ وهما قولُه تعالىٰ: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**﴾ [الأحزاب: ٧]. وقولُه: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ [الشورىٰ: ١٣] الآية. ثم هو أَشْرَفُ أُولي العزمِ بعدَ محمدٍ ﷺ وهو الذي وجدَه عليه الصلاةُ والسلامُ في السماءِ السابعةِ، مُسنداً ظهرَه بالبيتِ المعمورِ، الذي يدخلُه كلَّ يومٍ سبعون ألفًا من الملائكة، ثم لا يعودون إليه آخرَ ما عليهم. وما وقع في حديثِ شَريكِ بنِ أبي نَمِرٍ عن أنَسٍ، في حديثِ الإسراءِ، من أن إبراهيمَ في السادسةِ، وموسىٰ في السابعةِ فممَّا انتُقِدَ علىٰ شَرِيكٍ في هذا الحديث، والصحيحُ الأولُ.

ثم مما يدلُّ علىٰ أن إبراهيمَ أفضلُ من موسىٰ، الحديثُ الذي قال فيه: «**وأخَّرْتُ الثالثةَ ليومٍ يَرْغَبُ إليَّ الخلقُ كلُّهم، حتى إبراهيمُ**». رواه مسلمٌ[٢] من حديثِ أُبَيِّ بنِ كعبٍ، رضي اللهُ عنه. وهذا هو المقامُ المحمودُ الذي أخبرَ عنه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه بقولِه: «**أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا**

---

(١) **صحيح**: الحاكم (٢/٤٦٩)، والنسائي «الكبرى» (١١٥٣٩)، وهو صحيح من رواية إسحاق بن إبراهيم، عن معاذ بن هشام، عن أبيه عن قتادة، عن عكرمة.

(٢) **صحيح**: مسلم (١٩٠١).

فَخْرَ». ثم ذكر استشفاعَ الناسِ بآدمَ، ثم بنوحٍ، ثم بإبراهيمَ، ثم موسى، ثم عيسى، فكلُّهم يَحِيدُ عنها، حتى يأتوا محمداً ﷺ فيقولُ: **«أنا لها، أنا لها»**. الحديث.

قال البخاري(١): حدثنا عليُّ بنُ عبدِ الله، حدثنا يَحْيَى بنُ سعيدٍ، حدثنا عُبَيْدُ الله، حدثني سعيدٌ، **عن أبيه، عن أبي هُرَيرةَ**، قال: قيل: يا رسولَ الله، مَن أكرمُ الناسِ؟ قال: **«أتقاهُم»**. قالوا: ليس عن هذا نَسألُك. قال: **«فيوسُفُ نبيُّ الله ابنُ نبيِّ الله ابنِ نبيِّ الله ابنِ خليلِ الله»**. قالوا: ليس عن هذا نَسألُك قال: **«فعَن معادنِ العربِ تسألوني؟ خيارُهم في الجاهليَّةِ خيارُهم في الإسلامِ إذا فَقِهوا»**.

وهكذا رواه البخاريُّ في مواضعَ أُخَرَ، ومسلمٌ والنَّسائيُّ من طرقٍ، عن يَحْيَى بنِ سعيدٍ القَطَّانِ، عن عُبَيْد الله، وهو ابنُ عُمَرَ العُمَرِيُّ، به، ثم قال البخاريُّ: قال أبو أسامةَ ومُعْتَمِرٌ: عن عُبَيْدِ الله، عن سعيدٍ، عن أبي هُرَيرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ. قلتُ: وقد أسنَده في موضعٍ آخَرَ من حديثِهما(٢) وحديث عَبْدَةَ بنِ سليمان(٣)، والنَّسائيُّ(٤) من حديثِ محمدِ بنِ بِشْرٍ، أَرْبَعتُهم عن عُبَيْدِ الله بنِ عُمَرَ، عن سعيدٍ، عن أبي هُرَيرَةَ، عن النَّبيِّ ﷺ، ولم يذكروا أباه.

وقال أحمدُ(٥): حدثنا محمدُ بنُ بِشْرٍ، حدثنا محمدُ بنُ عَمْرٍو، حدثنا أبو سَلَمَةَ، عن أبي هُرَيرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إنّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ، يوسفُ بنُ يعقوبَ ابنِ إسحاق بن إبراهيمَ خليلِ الله»**. تفرَّد به أحمدُ.

وقال البخاريُّ(٦): حدثنا عَبْدَةُ، حدثنا عبدُ الصَّمدِ بنُ عبدِ الرحمنِ، عن أبيه، عن ابنِ عُمَرَ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: **«الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ، يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ»**. تفرَّد به من طريقِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ عبدِ الله بنِ دينارٍ، عن أبيه، عن ابنِ عُمَرَ، به.

فأمَّا الحديثُ الذي رواه الإمامُ أحمدُ(٧): حدثنا يَحْيَى، عن سفيانَ، حدثني مُغيرَةُ بنُ النُّعْمان، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ، عن النَّبيِّ ﷺ: **«يُحشَرُ الناسُ حُفاةً عُراةً غُرْلاً، فأوَّلُ مَن يُكْسَى إبراهيمُ عليه السلامُ»**، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. فأخرجاه في «الصَّحيحين» من حديث سُفيانَ الثَّوريِّ وشُعبةَ بنِ الحجَّاجِ، كلاهما عن مُغيرَةَ بنِ النُّعمانِ النَّخَعيِّ الكوفيِّ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ، به. وهذه الفضيلةُ المُعيَّنَةُ لا تَقْتَضِي الأفضليةَ بالنسبةِ إلى ما قبلَها ممّا ثبَت لصاحبِ المَقامِ المحمودِ، الذي يَغْبِطُه به الأوَّلون والآخِرون.

وأمَّا الحديثُ الآخَرُ الذي قال الإمامُ أحمدُ(٨): حدثنا وَكِيعٌ وأبو نُعَيْمٍ، حدثنا سفيانُ، هو

---

(١) **صحيح**: البخاري (٣٣٥٣).

(٢) **صحيح**: البخاري (٣٣٧٤) من حديث معتمر، و (٣٣٨٣) من حديث أبي أسامة.

(٣) **صحيح**: البخاري (٤٦٨٩).

(٤) النسائي «الكبرى» (١١٢٥٠).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) **صحيح**: البخاري (٣٣٩٠).

(٧) **متفق عليه**: المسند (١/ ٢٢٣)، البخاري (٣٣٤٩)، ٤٦٢٥)، مسلم (٧١٣٠).

(٨) **صحيح**: المسند (٣/ ١٧٨) من رواية وكيع و(٣/ ١٨٤) من رواية أبي نعيم، مسلم (٦٠٩٠)، الترمذي (٣٣٥٢).

الثوريُّ، عن مُختَارِ بنِ فُلْفُلٍ، عن أنسِ بنِ مالكٍ، قال: قال رجلٌ للنبيِّ ﷺ: يا خيرَ البريَّةِ. فقال: **«ذاك إبراهيمُ»**. فقد رواه مسلمٌ مِن حديثِ الثَّوريِّ، وعبدِ اللهِ بنِ إدريسَ، وعليِّ بنِ مُسْهِرٍ، ومحمدِ ابنِ فُضَيْلٍ، أَرْبَعَتُهم عن المختارِ بنِ فُلْفُلٍ. وقال التِّرمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ. وهذا من بابِ الهَضمِ والتَّواضُعِ مع والده الخليلِ عليه السلامُ، كما قال: **«لا تُفضِّلوني على الأنبياء»**. وقال: **«لا تُفَضِّلوني على موسى، فإنَّ النَّاسَ يُصْعَقُون يوم القيامة، فأكونُ أوَّلَ مَن يُفيقُ، فأجدُ موسَى باطِشًا بقائمةِ العرْشِ، فلا أدْرِي أفاقَ قبلي أم جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ؟»**[1] .

وهذا كلُّه لا يُنافِي ما ثبَت بالتَّواتُرِ عنه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، من أنَّه سيدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ. وكذلك حديثُ أُبَيِّ بنِ كعبٍ في «صحيحِ مسلمٍ»[2]: **«وأخَّرت الثالثةَ ليومٍ يرْغَبُ إليَّ الخلقُ كلُّهم، حتى إبراهيمُ»**. ولمّا كان إبراهيمُ عليه السّلامُ أفضلَ الرسلِ وأُولِي العزمِ بعدَ محمدٍ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم أجمعين، أُمِرَ المُصلِّي أنْ يقولَ في تشهُّدِه ما ثَبت في «الصَّحيحين»[3]، مِن حديثِ كَعْبِ بنِ عُجْرَةَ، وغيرِه، قال: قُلنا: يا رسولَ اللهِ، هذا السلامُ عليك قد عرَفناه، فكيف الصّلاة عليك؟ قال: **«قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آلِ محمد، كما صلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، إنك حميدٌ مجيدٌ، وبارِكْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ، كما باركْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، إنَّك حميدٌ مَجيدٌ»**.

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾. قالوا: وفَّى جميعَ ما أُمِر به، وقام بجميعِ خصالِ الإيمانِ وشُعَبِه، وكان لا يشْغَلُه مراعاةُ الأمرِ الجليلِ عن القيامِ بمصلحةِ الأمرِ القليلِ، ولا يُنْسِيه القيامُ بأعباءِ المصالحِ الكبارِ عن الصغارِ.

قال عبد الرَّزَّاق[4]: أنبأنا مَعْمَرٌ، عن ابنِ طاوُسٍ، عن أبيه، عن ابنِ عباسٍ ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]. قال: ابتَلاَه اللهُ بالطَّهارةِ؛ خمسٌ في الرأسِ، وخمسٌ في الجسدِ، فأمَّا التي في الرَّأسِ؛ قَصُّ الشَّاربِ، والمضمضةُ، والسِّواكُ، والاستنشاقُ، وفَرْقُ الرأسِ. وأمَّا التي في الجسدِ؛ تقليمُ الأظفارِ، وحَلْقُ العانةِ، والختانُ، ونَتْفُ الإبْطِ، وغَسْلُ أَثَرِ الغائطِ والبولِ بالماءِ. رواه ابنُ أبي حاتمٍ[5]، وقال: ورُوِيَ عن سعيدِ بنِ المسيِّبِ، ومُجاهدٍ، والشَّعبيِّ، والنَّخَعيِّ، وأبي صالحٍ، وأبي الجَلْدِ، نحوُ ذلك.

قلتُ: وفي «الصّحيحين»[6] عن أبي هُرَيرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«الفِطرةُ خَمْسٌ؛ الخِتانُ،**

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٦١٠٢ ـ ٦١٠٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) متفق عليه: البخاري (٣٣٧٠)، مسلم (٩٠٧).

(٤) صحيح إلى ابن عباس: عبد الرزاق (١١٦) في «التفسير».

(٥) ابن أبي حاتم (١١٦٥) من طريق عبد الرزاق.

(٦) متفق عليه: البخاري (٥٨٨٩)، مسلم (٥٩٦).

والاستحدادُ، وقصُّ الشارب، وتقليمُ الأظفار، ونَتْفُ الإبط». وفي «صحيح مسلم»[١] وأهل «السُّنن» من حديث وكيع، عن زكريَّا بن أبي زائدة، عن مُصْعَبِ بن شَيْبَةَ العَبْدَرِيِّ المكِّيِّ الحَجَبِيِّ، عن طَلْقِ ابن حبيبٍ العَنَزِيِّ، عن عبد الله بن الزُّبَيْرِ، عن عائشةَ قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «**عشرٌ من الفطرة: قَصُّ الشارب، وإعفاءُ اللحية، والسِّواكُ، واستنشاقُ الماء وقَصُّ الأظفار، وغسلُ البراجم، ونَتْفُ الإبط، وحَلْقُ العانة، وانتقاصُ الماء**». قال مُصْعَبٌ: ونسيتُ العاشرةَ إلا أن تكونَ المضمضةَ. قال وكيعٌ: «انتقاص الماء» يعني: الاستنجاءَ. وسيأتي في ذكرِ مقدارِ عُمُرِه الكلامُ على الختان. والمقصودُ أنه، عليه الصلاةُ والسلامُ، كان لا يَشْغَلُه القيامُ بالإخلاص لله عزَّ وجلَّ، وخشوعُ العبادة العظيمة عن مراعاة مصلحة بدنه، وإعطاء كلِّ عضوٍ ما يَستحقُّه من الإصلاح والتحسين، وإزالة ما يَشينُ من زيادة شَعْرٍ أو ظُفُرٍ، أو وجودِ قَلَحٍ أو وَسَخٍ، فهذا من جملة قوله تعالى في حقِّه، من المدح العظيم ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ**﴾.

ذكر قصره في الجنة

قال الحافظُ أبو بكر البزَّار[٢]: حدثنا أحمدُ بنُ سنانٍ القطَّانُ الواسطيُّ ومحمدُ بنُ موسى القطَّانُ، قالا: حدثنا يزيدُ بنُ هارونَ، حدثنا حمَّادُ بنُ سَلَمةَ، عن سِماكٍ، عن عكرمةَ، عن أبي هُرَيرَة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إن في الجنة قَصرًا** - أحسَبُه قال: **من لؤلؤة - ليس فيه فَصْمٌ ولا وَهْنٌ، أعدَّه اللهُ لخليله إبراهيمَ عليه السلامُ نُزُلًا**».

قال البزَّار: وحدثنا أحمدُ بنُ جميلٍ المَرْوَزِيُّ، حدثنا النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ، حدثنا حمادُ بنُ سَلَمةَ، عن سِماكٍ، عن عكرمةَ، عن أبي هُرَيرَةَ، عن النبيِّ ﷺ بنحوه. ثم قال: وهذا الحديث لا نَعْلَمُ رواه عن حمَّادِ بنِ سَلَمةَ فأسنَدَه إلا يزيدُ بنُ هارونَ والنَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ، وغيرُهما يَرْويه موقوفًا.

قلتُ: لولا هذه العلَّةُ لكان على شرطِ «الصحيح»، ولم يُخرِّجوه.

ذكر صفة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

قال الإمامُ أحمدُ[٣]: حدثنا يُونسُ وحُجَيْنٌ، قالا: حدثنا اللَّيْثُ، عن أبي الزُّبَيْرِ، عن جابرٍ، عن رسولِ الله ﷺ، أنه قال: «**عُرِض عليَّ الأنبياءُ، فإذا موسى ضَرْبٌ من الرِّجالِ كأنَّه من رجالِ**

---

(١) رواه مسلم (٦٠٣)، والترمذي (٢٧٥٧)، أبو داود (٥٣)، النسائي «الكبرى» (٩٢٨٦) وابن ماجه (٢٩٣) كلهم من رواية مصعب بن شيبة، عن طلق، عن ابن الزبير، عن عائشة مرفوعًا به. قلت: وقد انتقد الإمام الدارقطني هذا الحديث (التتبع ح/ ١٨٢)، وقال: خالفه رجلان حافظان: سليمان وأبو بشر روياه عن طلق بن حبيب من قوله أخرجهما النسائي الكبرى (٩٢٨٧ ـ ٩٢٨٨) ومصعب منكر الحديث قاله النسائي: (٥/ ٤٠٥) قال النسائي بعد إخراجه للأثرين من قول طلق بن حبيب قال: وحديث سليمان التيمي وجعفر بن إياس أبو بشر أشبه بالصواب من حديث مصعب بن شيبة. مصعب منكر الحديث. قال الحافظ في «التلخيص» (٧٥): صحَّحه ابن السكن. وهو معلول.

(٢) ضعيف: كشف الأستار (٢٣٤٦)، فيه: سماك عن عكرمة، رواية مضطربة.

(٣) صحيح: المسند (٣/ ٣٣٤).

شنُوءَةَ، ورأيتُ عيسى ابنَ مَرْيَمَ، فإذا أقْرَبُ مَن رأيتُ به شبَهًا عُروةُ بنُ مسعود، ورأيتُ إبراهيمَ، فإذا أقرَبُ من رأيتُ به شبَهًا صاحِبُكم - يعني نَفْسَه ﷺ - ورأيتُ جبريلَ عليه السلامُ، فإذا أقربُ من رأيتُ به شبَهًا دِحْيةُ». تفرَّد به الإمامُ أحمدُ من هذا الوجه وبهذا اللفظ.

وقال أحمدُ[1]: حدثنا أَسْوَدُ بنُ عامرٍ، حدثنا إسرائيلُ، عن عثمانَ، يعني ابنَ المغيرة، عن مُجاهدٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**رأيتُ عيسى ابنَ مَرْيمَ وموسى وإبراهيمَ؛ فأمَّا عيسى فأحمرُ جَعْدٌ عريضُ الصدْرِ، وأمَّا موسى فآدَمُ جَسيمٌ**». قالوا له: فإبراهيمُ؟ قال: «**انظُروا إلى صاحبِكم**». يعني نفسَه.

وقال البُخاريُّ[2]: حدثنا بَيانُ بنُ عَمْرٍو، حدثنا النَّضْرُ، أنبأنا ابنُ عَوْنٍ، عن مُجاهدٍ، أنَّه سَمِعَ ابنَ عباسٍ، وذكروا له الدَّجَّالَ؛ بينَ عَيْنَيْه مكتوبٌ: كافرٌ. أو: ك ف ر. فقال: لم أسمعْه، ولكنَّه قال ﷺ: «**أمَّا إبراهيمُ فانظُروا إلى صاحبِكم، وأمَّا موسى فجَعْدٌ آدَمُ، على جَمَلٍ أحْمَرَ مَخْطُومٍ بخُلْبة، كأنِّي أنظُرُ إليه انْحدرَ في الوادي**». وهكذا رواه البخاريُّ[3] أيضًا في كتابِ الحجِّ وفي اللِّباسِ، ومسلمٌ[4] جميعًا عن محمدِ بنِ المثنَّى عن ابنِ أبي عديٍّ، عن عبدِ الله بنِ عونٍ، به.

ذكرُ وفاةِ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلامُ، وما قيلَ في عُمُره

ذكَر ابنُ جَرير في «تاريخه» أن مولدَه كان في زمنِ النُّمْرودِ بنِ كَنْعانَ، وهو - فيما قيلَ - الضَّحَّاكُ الملكُ المشهورُ، الذي يقالُ: إنَّه مَلَكَ ألفَ سنةٍ، وكان في غايةِ الغَشْمِ والظلم. وذكَر بعضُهم أنه من بني راسبٍ، الذين بُعث إليهم نوحٌ عليه السلامُ، وأنَّه كان إذْ ذاك مَلِكَ الدنيا. وذكَروا أنه طلَع نَجْمٌ أخفَى ضَوْءَ الشمسِ، والقمرِ، فهال ذلك أهلَ ذلك الزمانِ، وفزِع النُّمْرودُ، فجَمع الكَهَنةَ والمُنجِّمين وسألهم عن ذلك، فقالوا: يُولَدُ مولودٌ في رعيَّتِك، يكونُ زوالُ مُلكِك على يديه. فأمَر عندَ ذلك بمنعِ الرِّجالِ عن النساءِ، وأن يُقْتَلَ المولودون من ذلك الحينِ، فكان مولدُ إبراهيمَ الخليلِ في ذلك الحينِ، فحماه اللهُ عزَّ وجلَّ وصانه من كيدِ الفُجَّارِ، وشَبَّ شبابًا باهرًا، وأنبَته اللهُ نباتًا حسنًا، حتى كان من أمرِه ما تقدَّم. وكان مولدُه بالسُّوسِ، وقيل: ببابلَ. وقيل: بالسَّوادِ من ناحيةِ كُوثَى. وتقدم عن ابنِ عباسٍ أنَّه وُلِد ببَرْزَةَ، شرقيَّ دِمَشْقَ. فلما أهلَكَ اللهُ نُمْرُودَ على يَدَيْه، وهاجَر إلى حَرَّانَ، ثم إلى أرضِ الشَّامِ، وأقام ببلادِ إيليا، كما ذكرنا، ووُلِدَ له إسماعيلُ وإسحاقُ، وماتت سارَّةُ قبلَه، بقريةِ حَبْرُونَ، التي في أرضِ كَنْعانَ، ولها من العمرِ مائةٌ وسبعٌ وعشرون سنةً، فيما ذكَر أهلُ الكتابِ، فحزِن عليها إبراهيمُ عليه السلامُ ورَثَاها، رحِمَها اللهُ، واشترَى من رجلٍ من بني حيثَ،

---

(١) **متفق عليه**: المسند (١/ ٢٩٦)، ورواه البخاري (٣٢٣٩)، ومسلم: (١٦٥).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٣٣٥٥).

(٣) **صحيح**: رواه البخاري (١٥٥٥ - ٥٩١٣).

(٤) **صحيح**: رواه مسلم (٤٢١).

يقالُ له: عفرُونُ بنُ صَخْرٍ. مغارةً بأربعمائة مثقال فضةً، ودَفَن فيها سارَّةَ هنالك. قالوا: ثم خَطَبَ إبراهيمُ على ابنه إسحاقَ، فزوَّجَه رفقا بنتَ ثبويلَ بنِ ناحورَ بنِ تارخَ، وبعَث مولاه فحملَها من بلادِها، ومعها مُرضعتُها وجَواريها على الإبلِ. قالوا: ثم تزوَّجَ إبراهيمُ عليه السّلامُ قَنْطُورا، فولدتْ له زمرانَ ويقشانَ ومادانَ ومدينَ وشياقَ وشوحَ. وذكَروا ما ولَد كلُّ واحدٍ من هؤلاء أولادِ قَنْطُورا.

وقد روى ابنُ عساكرَ عن غيرِ واحدٍ من السلف، عن أخبارِ أهلِ الكتابِ، في صفةِ مجيء مَلَكِ الموتِ إلى إبراهيمَ عليه السلامُ أخبارًا كثيرةً، اللهُ أعلمُ بصحتِها. وقد قيل: إنَّه مات فجاةً، وكذا داودُ وسليمانُ. والذي ذكَره أهلُ الكتابِ وغيرُهم خلافُ ذلك. قالوا: ثم مَرِض إبراهيمُ عليه السلامُ، ومات عن مائةٍ وخمسٍ وسبعين سنةً، ودُفِن في المغارةِ المذكورةِ عندَ امرأتِه سارَّةَ، التي في مزرعةِ عفرونَ الحيثيِّ، وتولَّى دَفْنَه إسماعيلُ وإسحاقُ، صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين.

وقد ورَد ما يدلُّ أنه عاش مائتَيْ سنةٍ، كما قاله ابنُ الكَلْبيِّ. وقد قال أبو حاتمِ بنُ حِبَّانَ في «صحيحه»[١]: أنبأنا المفضَّل بنُ محمدٍ الجَنَديُّ بمكَّةَ، حدثنا عليُّ بنُ زيادٍ اللَّحْجيُّ، حدثنا أبو قُرَّةَ، عن ابنِ جُرَيْجٍ، عن يَحْيَى بنِ سعيدٍ، عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ، عن أبي هُرَيرَةَ، أن النَّبيَّ ﷺ قال: **«اختَتَن إبراهيمُ بالقَدُومِ وهو ابنُ عشرين ومائة سنة، وعاش بعدَ ذلك ثمانين سنةً»**.

وقد رواه الحافظُ ابنُ عساكرَ من طريقِ عكرمةَ بنِ إبراهيمَ وجعفرِ بنِ عونٍ العَمْريِّ، عن يحيى بنِ سعيدٍ، عن سعيدٍ، عن أبي هريرةَ موقوفًا.

ثم قال ابنُ حِبَّانَ[٢]: ذِكرُ الخبرِ المُدْحِضِ قولَ مَن زعَم أنَّ رفْعَ هذا الخبرِ وَهْمٌ، أخبرنا محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ الجنيدِ ببُسْتَ، حدثنا قُتَيبةُ بنُ سعيدٍ، حدثنا اللَّيْثُ، عن ابنِ عَجْلانَ، عن أبيه، عن أبي هُريرَةَ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: **«اختَتَن إبراهيمُ حينَ بَلَغَ مائةً وعشرين سنةً، وعاش بعدَ ذلك ثمانينَ سنةً، واختَتَن بقَدومٍ»**.

وقد رواه الحافظُ ابنُ عساكرَ[٣]، من طريقِ يحيى بنِ سعيدٍ، عن ابنِ عَجْلان، عن أبيه، عن أبي هُرَيرةَ، عن النَّبي ﷺ: **«وقد أتَتْ عليه ثمانون سنةً»**. ثم رَوَى ابنُ حِبَّانَ عن عبدِالرَّزَّاقِ، أنه قال: القَدومُ اسمُ القرية.

قلتُ: الذي في «الصحيح» أنه اختَتَن وقد أتتْ عليه ثمانون سنةً. وفي روايةٍ: وهو ابنُ ثمانين سنةً. وليس فيهما تَعَرُّضٌ لما عاش بعدَ ذلك. واللهُ أعلمُ.

وقال محمدُ بنُ إسماعيلَ الحَسَّانيُّ الواسطيُّ، راوي تفسيرِ وَكيعٍ عنه، فيما ذكَره من الزياداتِ: حدثنا أبو معاويةَ، عن يحيى بنِ سعيدٍ، عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ، عن أبي هُرَيرةَ، قال: كان

---

(١) **صحيح الإسناد**: ابن حبان (٦٢٠٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦/ ١٩٨ - ١٩٩).

(٢) **صحيح الإسناد**: ابن حبان (٦٢٠٥).

(٣) «تاريخ دمشق» (٦/ ١٩٦ - ١٩٧).

إبراهيمُ أوَّلَ مَن تَسَرْوَلَ، وأَوَّلَ مَن فَرَقَ، وأوَّلَ مَن استَحَدَّ، وأوَّلَ مَن اختَتَن بالقَدوم، وهو ابنُ عشرينَ ومائةِ سنةٍ، وعاش بعدَ ذلك ثمانين سنةً، وأوَّلَ مَن قَرَىٰ الضَّيْفَ، وأوَّلَ مَن شابَ. هكذا رواه موقوفًا، وهو أشبَهُ بالمرفوعِ، خلافًا لابنِ حِبَّانَ. واللهُ أعلمُ.

وقال مالكٌ[1] : عن يحيىٰ بنِ سعيدٍ، عن سَعيدِ بنِ المسيَّبِ، قال: كان إبراهيمُ أوَّلَ مَن أَضَافَ الضَّيْفَ، وأولَ النَّاسِ اختَتَن، وأولَ النَّاسِ قصَّ شارِبَه، وأولَ النَّاسِ رأىٰ الشَّيْبَ، فقال: يا ربِّ ما هذا؟ فقال اللهُ: وَقارٌ. فقال: يا ربِّ زِدْني وقارًا. وزاد غيرُهما: وأوَّلَ مَن قصَّ شاربَه، وأوَّلَ مَن استَحَدَّ، وأوَّلَ مَن لَبِسَ السَّرَاويلَ.

فقَبْرُه، وقبرُ ولدِه إسحاقَ، وقبرُ ولَدِ ولدِه يعقوبَ، في المَرْبَعَةِ التي بناها سُليمانُ بنُ داودَ عليه السلامُ ببلدِ حَبْرُونَ، وهو البلدُ المعروفُ بالخليلِ اليومَ. وهذا مُتَلَقًّى بالتَّواتُرِ، أمةً بعدَ أمةٍ، وجيلاً بعدَ جيلٍ، مِن زمنِ بني إسرائيلَ وإلىٰ زمانِنا هذا أن قبرَه بالمربعةِ تحقيقًا. فأما تعيينُه منها فليس فيه خبرٌ صحيحٌ عن معصومٍ، فينبَغِي أنْ تُراعَىٰ تلك المَحَلَّةُ، وأنْ تُحترَمَ احترامَ مثلِها، وأنْ تُبجَّلَ، وأنْ تُجَلَّ أنْ يُداسَ في أرجائِها؛ خشيةَ أن يكونَ قبرُ الخليلِ أو أحدٍ مِن أولادِه الأنبياءِ عليهم السلامُ تحتَها.

ورَوَىٰ ابنُ عساكرَ بسندِه إلىٰ وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ قال: وُجِدَ عندَ إبراهيمَ الخليلِ، علىٰ حَجَرٍ، كتابةٌ خَلَقَةٌ:

أَلْهَىٰ جَهُولاً أَمَلُهْ ... يَموتُ مَن جا أجَلُهْ
ومَن دنا مِن حَتْفِهِ ... لم تُغنِ عنه حِيَلُهْ
وكيفَ يبقَىٰ آخِرُهْ ... مَن ماتَ عنه أوَّلُهْ
والمرءُ لا يَصْحَبُهُ ... في القبرِ إلا عَمَلُهْ

ذكرُ أولادِ إبراهيمَ الخليلِ
عليه وعليهم أفضلُ الصلاةِ والسلامِ

أَوَّلُ مَن وُلِد له إسماعيلُ، مِن هاجَرَ القِبطيةِ المصريةِ، ثم وُلِد له إسحاقُ مِن سارةَ بنتِ عمِّ الخليلِ، ثم تزوَّج بعدَها قَنْطُورَا بنتَ يَقْطُنَ الكنعانيةَ، فولَدَتْ له ستةً؛ مدين، وزمران، وسرج، ويقشان، ونشق، ولم يُسَمَّ السَّادسُ، ثم تزوَّج بعدَها حجون بنتَ أمين، فولدتْ له خمسةً؛ كيسان، وسورج، وأميم، ولوطان، ونافس.

هكذا ذكَره أبو القاسمِ السُّهَيْليُّ في كتابِه «التعريفُ والإعلامُ».

---

(١) الموطأ (٧٠٣) باب: ما جاء في السنة في الفطرة.

ومما وقع في حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة
قصة قوم لوط عليه السلام وما حلّ بهم من النقمة العميمة

وذلك أن لوطًا بنُ هارانَ بنِ تارخَ، وهو آزرُ كما تقدّم، ولوطٌ ابنُ أخي إبراهيمَ الخليلِ، فإبراهيمُ وهارانُ وناحورُ إخوةٌ، كما قدَّمنا. ويُقالُ: إن هارانَ هذا هو الذي بنىٰ حرَّانَ. وهذا ضعيفٌ؛ لمُخالفتِه ما بأيدي أهلِ الكتابِ. واللهُ أعلمُ. وكان لوطٌ قد نزَح عن مَحلَّة عمِّه الخليلِ عليهما السلامُ بأمرِه له وإذنه، فنزَل بمدينةِ سَدُومَ، من أرضِ غَورِ زُغَرَ، وكانت أمَّ تلك المَحلَّةِ، ولها أرضٌ ومُعْمَلاتٌ وقُرَىٰ مضافَةٌ إليها، ولها أهلٌ من أفْجرِ الناسِ وأكفرِهم، وأسوَئِهم طَوِيَّةً وأَردئِهم سريرةً وسيرةً، يقطعَون السَّبيلَ، ويأتون في نادِيهم المنكرَ، ولا يَتناهَوْن عن منكرٍ فعَلُوه، لبِئسَ ما كانوا يَفْعلون. ابتدَعُوا فاحشةً لم يَسبِقْهم إليها أحدٌ من بني آدمَ، وهي إتْيانُ الذُكرانِ من العالمين، وتَركُ ما خلَقَ اللهُ من النِّسوانِ لعبادِه الصالحين، فدعاهم لوطٌ إلىٰ عبادةِ الله تعالىٰ وحدَه لا شريكَ له، ونهاهم عن تعاطِي هذه المُحرَّماتِ، والفواحشِ المنكَراتِ، والأفاعيلِ المستقبَحاتِ، فتمادَوْا علىٰ ضلالِهم وطُغيانهم، واستمرُّوا علىٰ فجورِهم وكُفرانِهم، فأحلَّ اللهُ بهم مِن البأسِ الذي لا يُردُّ ما لم يكنْ في خلَدِهم وحسبانِهم، وجعلَهم مُثْلةً في العالمين وعبرةً يتَّعِظُ بها الألِبَّاءُ من العالمين؛ ولهذا ذكَر اللهُ تعالىٰ قصتَهم في غيرِ ما موضعٍ من كتابه المُبينِ، فقال تعالىٰ في سورة «الأعراف»: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٨٢ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝٨٣ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤]. وقال تعالىٰ في سورة «هود»: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا

أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب (٨١) فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود (٨٢) مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾ [هود: ٦٩ - ٨٣]. وقال تعالى في سورة «الحجر»: ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم (٥١) إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال إنا منكم وجلون (٥٢) قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم (٥٣) قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون (٥٤) قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين (٥٥) قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون (٥٦) قال فما خطبكم أيها المرسلون (٥٧) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٥٨) إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين (٥٩) إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين (٦٠) فلما جاء آل لوط المرسلون (٦١) قال إنكم قوم منكرون (٦٢) قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون (٦٣) وأتيناك بالحق وإنا لصادقون (٦٤) فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون (٦٥) وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين (٦٦) وجاء أهل المدينة يستبشرون (٦٧) قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون (٦٨) واتقوا الله ولا تخزون (٦٩) قالوا أولم ننهك عن العالمين (٧٠) قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين (٧١) لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون (٧٢) فأخذتهم الصيحة مشرقين (٧٣) فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل (٧٤) إن في ذلك لآيات للمتوسمين (٧٥) وإنها لبسبيل مقيم (٧٦) إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ [الحجر: ٥١ - ٧٧]. وقال تعالى في سورة «الشعراء»: ﴿كذبت قوم لوط المرسلين (١٦٠) إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون (١٦١) إني لكم رسول أمين (١٦٢) فاتقوا الله وأطيعون (١٦٣) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (١٦٤) أتأتون الذكران من العالمين (١٦٥) وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون (١٦٦) قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين (١٦٧) قال إني لعملكم من القالين (١٦٨) رب نجني وأهلي مما يعملون (١٦٩) فنجيناه وأهله أجمعين (١٧٠) إلا عجوزًا في الغابرين (١٧١) ثم دمرنا الآخرين (١٧٢) وأمطرنا عليهم مطرًا فساء مطر المنذرين (١٧٣) إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٧٤) وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ [الشعراء: ١٦٠ - ١٧٥]. وقال تعالى في سورة «النمل»: ﴿ولوطًا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون (٥٤) أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون (٥٥) فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون (٥٦) فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين (٥٧) وأمطرنا عليهم مطرًا فساء مطر المنذرين﴾ [النمل: ٥٤ - ٥٨]. وقال تعالى في سورة «العنكبوت»: ﴿ولوطًا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين (٢٨) أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين (٢٩) قال رب انصرني على القوم المفسدين (٣٠) ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين (٣١) قال إن فيها لوطًا قالوا نحن

أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢٨ـ٣٥]. وقال تعالىٰ في سورة «الصَّافَّات»: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٣ـ١٣٨]. وقال تعالىٰ في «الذاريات» بعدَ قصة ضيف إبراهيمَ، وبشارتهم إياه بغـلام عليم: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [الذاريات: ٣١ـ٣٧].

وقال في سورة «القمر»: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ٣٣ـ٤٠].

وقد تكلمنا علىٰ هذه القصص في أماكنها من هذه السُّورِ في «التفسير»، وقد ذكَر اللهُ لوطًا وقومَه في مواضعَ أُخرَ من القرآن، تقدَّم ذكرُها مع قوم نوح وعادٍ وثمودَ. والمقصودُ الآن إيرادُ ما كان من أمرهم، وما أحَلَّ اللهُ بهم، مجموعًا من الآيات والآثار. وبالله المستعانُ.

وذلك أن لوطًا، عليه السلامُ، لمَّا دعاهم إلىٰ عبادة الله وحدَه لا شريكَ له، ونهاهم عن تعاطي ما ذكَر اللهُ عنهم من الفواحش، فلم يَستجيبوا له ولم يؤمنوا به، حتىٰ ولا رجلٌ واحدٌ منهم، ولم يتركوا ما عنه نُهُوا، بل استمرُّوا علىٰ حالهم، ولم يَرْعَوُوا عن غَيِّهم وضلالهم، وهمُّوا بإخراج رسولهم من بين ظَهرانَيْه، وما كان حاصلُ جوابهم عن خطابهم، إذ كانوا لا يَعقِلُون: ﴿ إِلا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[النمل: ٥٦].

فجعلوا غايةَ المدح ذمًّا يَقتضي الإخراجَ، وما حَمَلَهم علىٰ مقالتهم هذه إلا العنادُ واللَّجاجُ، فطهَّره اللهُ وأهلَه إلا امرأتَه، وأخرَجهم منها أحْسَنَ إخراج، وتركَهم في مَحَلَّتهم خالدين، لكنْ بعدَ ما صيَّرها عليهم بَحْرَةً مُنْتِنَةً ذاتَ أمواجٍ، لكنها عليهم في الحقيقة نارٌ تأجَّجُ، وحرٌّ يتوهجُ، وماؤُها مِلْحٌ أُجاجٌ، وما كان هذا جوابَهم إلا لمَّا نهاهم عن الطَّامَّة العُظمَىٰ والفاحشة الكُبرَىٰ، التي لم يَسبِقْهم إليها أحدٌ من أهل الدنيا؛ ولهذا صاروا مُثْلَةً فيها، وعبرةً لَمن عليها، وكانوا مع ذلك يَقْطَعون الطريقَ، ويخونون الرفيقَ، ويأتُون في ناديهم ـ وهو مجتمَعُهم ومَحَلُّ حديثهم وسَمَرِهم ـ المنكرَ من الأقوال والأفعال علىٰ اختلاف أصنافه، حتىٰ قيل: إنهم كانوا يَتَضارَطُون في مجالسهم ولا يَستَحْيُون من

مُجالسِهم. وربما وقَع منهم الفَعْلَةُ العظيمةُ في المحافلِ ولا يَستنكفون، ولا يَرْعَوُون لوَعْظِ واعظٍ، ولا نصيحةِ من ناقلٍ، وكانوا في ذلك وغيرِه كالأنعام بل أضلُّ سبيلاً، ولم يُقلعوا عمَّا كانوا عليه في الحاضرِ، ولا نَدموا على ما سلَف من الماضي، ولا رامُوا في المستقبَل تحويلاً، فأخذهم اللهُ أخذًا وَبيلاً، وقالوا له فيما قالوا: ﴿قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] فطلَبوا منه وُقوعَ ما حذَّرهم عنه من العذابِ الأليمِ، وحُلولِ البأسِ العظيمِ، فعندَ ذلك دعا عليهم نبيُّهم الكريمُ، فسأل من ربِّ العالمين وإلهِ المرسَلين أن يَنْصرَه على القومِ المفسدين، فغار اللهُ لغَيْرتِه وغَضِبَ لغَضْبتِه، واستجاب لدعوتِه وأجابه إلى طِلْبتِه، وبعَث رُسُلَه الكرامَ وملائكتَه العظامَ، فمرُّوا على الخليلِ إبراهيمَ، وبشَّروه بالغلامِ العليمِ، وأخبروه بما جاءُوا له من الأمرِ الجَسيمِ، والخَطْبِ العَميمِ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝٣١ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣١-٣٤]. وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۝٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١، ٣٢]. وقال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]. وذلك أنه كان يرجُو أن يُنيبُوا ويُسلموا، ويُقلعوا ويَرجعُوا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٥. ٧٦] أي: أَعرِضْ عن هذا، وتكلَّمْ في غيرِه، فإنَّه قد حُتِمَ أمرُهم ووجَب عذابُهم وتدميرُهم وهلاكُهم. ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: قد أَمَر به مَن لا يُرَدُّ أمرُه، ولا يُردُّ بأسُه، ولا مُعقِّبَ لحُكمه ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦].

وذكَر سعيدُ بنُ جُبَيرٍ(١)، والسُّدِّيُّ(٢)، وقَتادةُ(٣)، ومحمدُ بنُ إسحاقَ(٤)، أن إبراهيمَ عليه السلامُ جعَل يقولُ: أتُهلِكون قريةً فيها ثلاثُمائةِ مؤمنٍ؟ قالوا: لا. قال: فمائتا مؤمنٍ؟ قالوا: لا. قال: فأربعون مؤمنًا؟ قالوا: لا. قال: فأربعةَ عَشَرَ مؤمنًا؟ قالوا: لا. قال ابنُ إسحاقَ: إلى أن قال: أفرأيتم إن كان فيها مؤمنٌ واحدٌ؟ قالوا: لا. ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ [العنكبوت: ٣٢] الآية. وعندَ أهلِ الكتابِ أنه قال: يا ربِّ، أتُهلِكُهم وفيهم خمسون رجلاً صالحًا؟ فقال اللهُ: لا أُهلِكُهم وفيهم خمسون صالحًا. ثم تنازَلَ إلى عشَرةٍ، فقال اللهُ: لا أُهلِكُهم وفيهم عشرةٌ صالحون.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧] قال المفسرون: لَمَّا فصلَتِ الملائكةُ مِن عندِ إبراهيمَ؛ وهم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ، أقبَلوا

---

(١) ضعيف إليه: رواه ابن جرير في «تفسيره» (٧/ ١٢/ ٧٩). وفيه: ابن حميد الرازي وشيخه يعقوب القمي ضعيفان.
(٢) حسن إليه: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ٧٩) من رواية أسباط عنه.
(٣) صحيح إليه: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ٧٩) من رواية سعيد بن أبي عروبة ومعمر عنه.
(٤) ضعيف إليه: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ٧٩) فيه ابن حميد ضعيف.

حتىٰ أَتَوْا أرضَ سَدُومَ، في صورةِ شُبَّانٍ حِسانٍ، اختباراً من اللهِ تعالىٰ لقومِ لوطٍ، وإقامةً للحُجّةِ عليهم، فاستضَافوا لوطًا عليه السلامُ، وذلك عندَ غروبِ الشمسِ، فَخَشِيَ إِنْ لم يُضفْهم أن يُضيفَهم غيرُه من القومِ الفاسقين، وحَسِبهم بَشَرًا من الناسِ و﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾. قال ابنُ عباسٍ[١]، ومُجاهدٌ[٢]، وقَتادةُ[٣]، ومحمدُ بنُ إسحاقَ[٤]: شديدٌ بلاؤُه. وذلك لِما يَعلَمُ مِن مُدافعتِه الليلةَ عنهم، كما كان يصنعُ بغيرِهم معهم، وكانوا قد اشترَطوا عليه أن لا يُضيفَ أحدًا، ولكن رأىٰ مَنْ لا يُمكِنُ المَحيدُ عنه. وذكَر قَتادةُ[٥] أنهم ورَدُوا عليه وهو في أرضٍ له يَعمَلُ فيها، فتَضَيَّفُوه، فاستَحْيَىٰ منهم وانطلَق أمامَهم، وجعَل يُعرِّضُ لهم في الكلامِ، لعلهم يَنصرفون عن هذه القريةِ ويَنزلون في غيرِها، فقال لهم فيما قال: واللهِ يا هؤلاءِ، ما أَعلَمُ علىٰ وجهِ الأرضِ أهلَ بلدٍ أخبَثَ من هؤلاءِ، ثم مشَىٰ قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم، حتىٰ كرَّره أربعَ مراتٍ. قال: وكانوا قد أُمِروا أن لا يُهلِكُوهم حتىٰ يَشْهَدَ عليهم نبيُّهم بذلك.

وقال السُّدِّيُّ[٦]: خرَجت الملائكةُ مِن عندِ إبراهيمَ نحوَ قومِ لوطٍ، فأتَوْها نصفَ النهارِ، فلما بلَغوا نهرَ سَدُومَ، لَقُوا ابنةَ لوطٍ تَسْتَقِي من الماءِ لأهلِها - وكانت له ابنتانِ؛ اسمُ الكبرَىٰ أريثا، والصغرَىٰ دَغُوثا - فقالوا لها: يا جاريةُ، هل مِن مَنزلٍ؟ فقالت لهم: مكانَكم، لا تدخلوا حتىٰ آتيكمْ. فَرِقَت عليهم من قومِها، فأتت أباها فقالت: يا أَبَتاه، أرادَك فتيانٌ علىٰ بابِ المدينةِ، ما رأيتُ وجوهَ قومٍ قَطُّ هي أحسنَ منهم، لا يأخذْهم قومُك فيَفْضَحوهم. وقد كان قومُه نَهَوْه أن يُضيفَ رجلاً، فجاء بهم، فلم يَعْلَمْ أحدٌ إلا أهلُ البيتِ، فخرجَت امرأتُه فأخبَرَت قومَها، فقالت: إنَّ في بيتِ لوطٍ رجالاً ما رأيتُ مثلَ وجوهِهم قَطُّ. فجاءه قومُه يُهْرَعُون إليه.

وقوله: ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود: ٧٨] أي: هذا مع ما سلَف لهم مِن الذُّنوبِ العظيمةِ الكبيرةِ الكثيرةِ ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ يُرشِدُهم إلىٰ غِشيانِ نسائهم، وهنَّ بناتُه شرعًا؛ لأنَّ النَّبيَّ للأُمَّةِ بمنزلةِ الوالدِ، كما ورَد في الحديثِ[٧]، وكما قال تعالىٰ: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦]. وَفِي قراءةِ بعضِ الصحابةِ والسلفِ: «وهو أبٌ لهم». وهذا كقولِه: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ

---

(١) ضعيف: ابن جرير في «التفسير» (٧/ ١٢/ ٨٢) من رواية العوفي عنه.

(٢) ابن جرير في «التفسير» (٧/ ١٢/ ٨٣) من رواية سعيد عنه.

(٣) صحيح: ابن جرير في «التفسير» (٧/ ١٢/ ٨٢) من رواية معمر.

(٤) ضعيف: ابن جرير في «التفسير» (٧/ ١٢/ ٨٣) فيه: ابن حميد.

(٥) ضعيف: رواه ابن جرير (٧/ الجزء ١٢/ ٨١) وفيه: ابن حميد وسعيد بن بشير: متكلم فيه وقد رواه أيضًا: بسند صحيح عن قتادة عن حذيفة وقتادة: مدلس، ولم يسمع من حذيفة.

(٦) رواه ابن جرير (٧/ الجزء١٢/ ٨١).

(٧) حسن: رواه أحمد (٢/ ٢٤٧)، وأبو داود (٨)، والنسائي «المجتبى» (١/ ٣٨) كلهم من طريق ابن عجلان، عن القعقاع، عن أبي صالح، عن أبي هريرة.

قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]. وهذا هو الذي نصَّ عليه مُجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيْر، والرَّبيعُ بنُ أنس، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، ومحمدُ بنُ إسحاق[1]، وهو الصَّوابُ. والقولُ الآخَرُ خطأٌ مأخوذٌ من أهلِ الكتاب، وقد تَصحَّف عليهم، كما أخطَأُوا في قولهم: إن الملائكة كانوا اثنين، وإنَّهم تَعَشَّوْا عندَه. وقد خبَّط أهلُ الكتاب في هذه القصة تخبيطًا عظيمًا.

وقولُه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] نَهْيٌ لهم عن تَعاطي ما لا يليقُ من الفاحشة، وشهادةٌ عليهم بأنه ليس فيهم رجلٌ رشيدٌ له مُسْكَةٌ، ولا فيه خيرٌ، بل الجميعُ سفهاءُ، فجرةٌ أقوياءُ، كفرةٌ أعتياءُ. وكان هذا من جُملة ما أراد الملائكةُ أن يَسمَعوه منه من قبلِ أن يسألوه عنه. فقال قومُه، عليهم لعنةُ الله الحميد المجيد، مُجيبين لنبيِّهم فيما أمَرَهم به من الأمرِ السَّديد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] يقولون، عليهم لعائنُ الله: لقد عَلِمتَ يا لوطُ أنه لا أَرَبَ لنا في نسائنا، وإنَّك لَتعلَم مرادَنا وغرَضَنا. واجَهوا بهذا الكلام القبيح رسولَهم الكريمَ، ولم يخافُوا سَطْوَةَ العظيم، ذي العذاب الأليم؛ ولهذا قال عليه السلامُ: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] ودَّ أن لو كان له بهم قوةٌ، أو له مَنَعةٌ وعشيرةٌ ينصرونه عليهم؛ لِيُحلَّ بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب. وقد قال الزُّهْريُّ، عن سعيدِ ابنِ المسيَّبِ، وأبي سَلَمَةَ، عن أبي هُرَيرَةَ، مرفوعًا: «**نحن أحقُّ بالشَّكِّ من إبراهيمَ، ويَرحَمُ اللهُ لوطًا، لقد كان يَأوي إلى رُكْنٍ شديد، ولو لَبِثتُ في السِّجْنِ طُولَ ما لَبِث يوسفُ لأجبتُ الدَّاعي**»[2]. ورواه أبو الزِّنادِ، عن الأعرَجِ، عن أبي هُرَيرةَ[3].

وقال[4] **محمدُ بنُ عمرو بن عَلْقَمةَ**، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي هُرَيرةَ، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**رحمةُ الله على لوط، لقد كان يَأوي إلى رُكْنٍ شديد**». يعني اللهَ عزَّ وجلَّ. «**فما بعَث اللهُ بعدَه من نبيٍّ إلا في ثَرْوة من قومه**».

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾. فأمرَهم بقُربانِ نسائِهم، وحذَّرهم الاستمرارَ على طريقتِهم وسيِّئاتِهم، هذا وهُمْ في ذلك لا يَنتَهون ولا يَرْعَوُون، بل كلما نهاهم يبالغون في تَحصيلِ هؤلاءِ الضِّيفانِ ويَحْرِصون، ولم يَعلَموا ما حَمَّ به القَدَرُ، ممَّا هم

---

(١) رواها ابن جرير (٧/ الجزء ١٢/ ٨٥، ٨٤). أثر مجاهد صحيح من رواية ابن أبي نجيح، وابن جريج عنه. أثر سعيد بن جبير: رجاله ثقات إلا المثنى لا أعرفه. أثر الربيع: ضعيف من رواية أبي جعفر الرازي عنه. أثر قتادة: صحيح من رواية سعيد، ومعمر عنه. أثر السدي: حسن من رواية أسباط عنه. أثر محمد بن إسحاق: ضعيف فيه: ابن حميد.

(٢) **متفق عليه:** البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (٣٨٠).

(٣) **متفق عليه:** البخاري (٣٣٧٥)، ومسلم (٦٠٩٦).

(٤) **صحيح:** رواه الترمذي (٣١١٦)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، والبخاري في الأدب المفرد والحديث متفق عليه بدون زيادة: «فما بعث اللَّه من بعده من نبي إلا في ثروة من قومه». فهذه: زيادة شاذة تفرد بها محمد بن عمرو، وهو صدوق له أوهام.

إليه صائرون، وصَبيحةَ ليلتهم مُنتقلون؛ ولهذا قال تعالى، مقسمًا بحياة نبيِّه محمد صلواتُ الله وسلامُه عليه: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر:٧٢] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ۝٣٦ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر:٣٦-٣٨]. ذكَر المفسرون وغيرُهم أنَّ نبيَّ الله لوطًا، عليه السلامُ، جعَل يمانعُ قومَه الدُّخولَ ويدافعُهم، والبابُ مغلَقٌ، وهم يَرُومون فتحَه ووُلُوجَه، وهو يَعظُهم وينْهاهم من وراءِ الباب، فلما ضاق الأمرُ وعَسِر الحالُ قال ما قال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ لأحللتُ بكم النَّكَال. قالت الملائكة: ﴿ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ وذكَروا أن جبريلَ، عليه السَّلامُ، خرَج عليهم فضرَب وجوهَهم خَفْقةً بطَرَف جَناحه، فطمَسَت أعينَهم، حتى قيل: إنها غارَت بالكلية ولم يَبْقَ لها محلٌّ ولا عينٌ ولا أثرٌ. فرجَعوا يتحسَّسون مع الحيطان، ويتوعَّدون رسولَ الرَّحمنِ، ويقولون: إذا كان الغدُ كان لنا وله شأنٌ. قال اللهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾. فذلك أن الملائكةَ تقدَّمت إلى لوطٍ، عليهم السلامُ، آمرين له بأن يَسْريَ هو وأهلُه من آخرِ الليلِ ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ يعني عندَ سماعِ صوتِ العذابِ إذا حَلَّ بقومه. وأمَرُوه أن يكونَ سيرُه في آخرهم كالسَّاقة لهم. وقولُه: ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ على قراءة النصب، يَحتَمِلُ أن يكونَ مستثنًى من قوله: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ كأنَّه يقولُ: إلا امرأتَك فلا تَسْرِ بها. ويَحتَمِلُ أن يكونَ من قوله: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ [هود:٨١] أي؛ فإنها ستلتفتُ فيصيبُها ما أصابهم. ويقوِّي هذا الاحتمالَ قراءةُ الرَّفع، ولكنَّ الأولَ أظهرُ في المعنى. واللهُ أعلمُ.

قال السُّهَيْليُّ: واسمُ امرأة لوطٍ والهةُ، واسمُ امرأة نوحٍ والغةُ. وقالوا له، مبشِّرين له بهلاكِ هؤلاء البغاة العُتَاة الملعونين النُّظَراءِ والأشباهِ، الذين جعلهم اللهُ سلفًا لكلِّ خائنٍ مُريبٍ: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود:٨١] فلما خرَج لوطٌ عليه السلامُ بأهله، وهم ابنتاه، ولم يَتْبَعْه منهم رجلٌ واحدٌ. ويقالُ: إن امرأتَه خرجتْ معه. فاللهُ أعلمُ. فلما خلَصوا من بلادهم وطلَعت الشمسُ، فكان عندَ شروقها، جاءهم من أمرِ الله ما لا يُردُّ، ومن البأسِ الشديدِ ما لا يُمكِنُ أن يُصَدَّ.

وعندَ أهلِ الكتابِ أن الملائكةَ أمَروه أن يَصْعَدَ إلى رأسِ الجبلِ الذي هناك، فاستَبْعَده، وسأل منهم أن يذهَبَ إلى قريةٍ قريبة منهم، فقالوا: اذهَبْ، فإنَّا ننتَظرُك حتى تصيرَ إليها وتستقرَّ فيها، ثم نُحلَّ بهم العذابَ. فذكَروا أنه ذهَب إلى قرية صُغَرَ، التي يقولُ الناسُ: غَوْرُ زُغَرَ. فلما أشْرَقت الشمسُ نزَل بهم العذابُ. قال اللهُ تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [٨٢، ٨٣].

قالوا: اقتلَعَهنَّ جبريلُ بطَرَفِ جناحِه مِن قرارِهن، وكنَّ سبعَ مُدُنٍ، بمَن فيهن مِن الأمم ـ يقالُ: إنهم كانوا أربعَمائةِ ألفِ نَسَمةٍ. وقيل: أربعةَ آلافِ ألفِ نَسَمةٍ ـ وما معهم من الحيواناتِ، وما يَتْبعُ تلك المدنَ من الأراضي والأماكنِ والمعتَمَلاتِ، فرفَع الجميعَ حتىٰ بلَغ بهن عَنانَ السماءِ، حتىٰ سَمِعَت الملائكةُ أصواتَ دِيكَتِهم ونُباحَ كلابِهم، ثم قَلَبها عليهم فجعَل عالِيَها سافِلَها. قال مُجاهدٌ[1]: فكان أولَ ما سقَط منها شُرُفاتُها. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ والسِّجِّيلُ: فارسيٌّ مُعرَّبٌ؛ وهو الشَّديدُ الصُّلبُ القويُّ ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي: يَتْبَعُ بعضُها بعضًا في نزولِها عليهم من السماءِ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: معلَّمةً، مكتوبٌ علىٰ كلِّ حَجَرٍ اسمُ صاحبِه الذي يَهبطُ عليه فيدمَغُه، كما قال: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾. وكما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾. وقال تعالىٰ: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤]. يعني قَلَبها فأهوىٰ بها مُنكَّسةً؛ عالِيَها سافلَها، وغشَّاها بمطرٍ من حجارةٍ مِن سِجِّيلٍ متتابعةٍ مسوَّمةٍ، مرقومٍ، علىٰ كلِّ حَجَرٍ اسمُ صاحبِه الذي سقَط عليه مِن الحاضرين منهم في بلدِهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشَّاذِّين منها. ويُقالُ: إن امرأةَ لوطٍ مكَثَت مع قومِها. ويقالُ: إنها خرجَت مع زوجِها وبنتَيْها، ولكنَّها لمَّا سَمِعت الصَّيْحةَ وسقوطَ البَلْدةِ، والتفَتتْ إلىٰ قومِها، وخالَفَتْ أمْرَ ربِّها قديمًا وحديثًا، وقالت: واقَوْمَاه. فسَقَط عليها حجَرٌ فدمَغها وألْحقَها بقومِها؛ إذ كانت علىٰ دينِهم، وكانت عَيْنًا لهم علىٰ مَن يكونُ عندَ لوطٍ مِن الضِّيفانِ، كما قال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]. أي؛ خانتاهما في الدينِ فلم تَتْبَعاهما فيه. وليس المرادُ أنهما كانتَا علىٰ فاحشةٍ؛ حاشا وكلاَّ، فإن اللهَ لا يُقدِّرُ علىٰ نبيِّه أنْ تَبْغِيَ امرأتُه؛ كما قال ابنُ عباسٍ[2] وغيرُه من أئمةِ السلفِ والخلفِ: ما بَغَتِ امرأةُ نبيٍّ قطُّ. ومَنْ قال خلافَ هذا فقد أخطأ خطأً كبيرًا. قال الله تعالىٰ في قصةِ الإفكِ، لمَّا أنزَلَ براءَةَ أمِّ المؤمنين عائشةَ بنتِ الصِّدِّيقِ، زوجِ رسولِ اللهِ ﷺ، حينَ قال لها أهلُ الإفكِ ما قالوا، فعاتَب اللهُ المؤمنين، وأنَّب وزجَر، ووعَظ وحذَّر، وقال فيما قال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥، ١٦]. أي؛ سبحانَك أن تكونَ زوجةُ نبيِّك بهذه المثابةِ.

وقولُه ههنا: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾. أي؛ وما هذه العقوبةُ ببعيدةٍ ممَّن أشْبَهَهم في فعلِهم. ولهذا ذهَب مَن ذهَب مِن العلماءِ إلىٰ أنَّ اللائطَ يُرجَمُ، سواءٌ كان مُحصَنًا أَوْ لاَ. نصَّ عليه

---

(١) **حسن:** ابن جرير (٧/ الجزء١٢/ ٩٧) من رواية ابن أبي نجيح، عن إبراهيم بن أبي بكر عنه وإبراهيم: وثقه ابن حبان، وقال الذهبي: محله الصدق.

(٢) **صحيح إلى ابن عباس:** رواه ابن جرير (١٤/ الجزء٢٨/ ١٧٠) من رواية موسى بن أبي عائشة، عن سليمان عنه.

الشافعيُّ وأحمدُ بنُ حنبلٍ، وطائفةٌ كثيرةٌ مِن الأئمة. واحتَجُّوا أيضًا بما رواه الإمامُ أحمدُ وأهلُ «السُّنن»[١] مِن حديث عمرِو بنِ أبي عمرٍو، عن عِكْرِمةَ، عن ابنِ عباسٍ، أن رسولَ الله ﷺ قال: «مَن وجدتُموه يَعْمَلُ عملَ قومِ لوطٍ فاقتُلُوا الفاعلَ والمفعولَ به». وذهَب أبو حنيفَةَ إلى أن اللائطَ يُلْقَىٰ مِن شاهِقٍ، ويُتْبَعُ بالحجارَةِ؛ كما فُعِل بقومِ لوطٍ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وما هيَ منَ الظّالمينَ ببَعيد﴾.

وجعَل اللهُ مكانَ تلك البلادِ بَحْرَةً مُنتِنةً لا يُنْتَفَعُ بمائها، ولا بما حولَها من الأراضي المُتاخمة لفنائها؛ لرداءتها ودناءتها، فصارت عِبْرةً ومَثُلةً وعِظةً، وآيةً على قدرة الله تعالى وعظمته وعزَّته في انتقامِه ممن خالَف أمرَه وكذَّب رُسُلَه واتَّبع هواه وعصَىٰ مولاه، ودليلاً علىٰ رحمته بعباده المؤمنين في إنجائه إياهم مِن المُهلكات، وإخراجِه إياهم من الظلمات إلى النورِ؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّ في ذَلكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٨، ٩]. وقال تعالىٰ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٣-٧٧]، أي: مَن نظَر بعينِ الفِراسَةِ والتَّوسُّمِ فيهم، كيف غيَّرَ اللهُ تلك البلادَ وأهلَها؟ وكيف جعلها، بعدما كانت آهلةً عامرةً هالكةً غامرةً؟ كما روَىٰ الترمذيُّ[٢] وغيرُه مرفوعًا: «اتَّقُوا فِراسَةَ المؤمنِ؛ فإنَّه يَنظُرُ بنورِ الله». ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾.

وقولُه: ﴿إِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾. أي: لَبطريقٍ مَهْيَعٍ مسلوكٍ إلى الآنَ، كما قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]. وقال تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٧]. أي: تركناها عبرةً وعظةً لمن خاف عذابَ الآخرةِ، وخَشِيَ الرحمنَ بالغيبِ، وخاف مقامَ ربِّه ونهَى النفسَ عن الهوَىٰ، فانزَجَر عن محارمِ اللهِ، وترَك معاصيَه، وخاف أن يُشابِهَ قومَ لوطٍ. و«مَن تَشَبَّهَ بقومٍ

---

(١) **استنكر**: احمد (١/ ٣٠٠)، والترمذي (١٤٥٦) وأبو داود (٤٤٦٢) وابن ماجه (٢٥٦١) والنسائي في «الكبرى» (٧٣٣٧) كلهم من طريق عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس. وقد تابع عمرو بن عمرو عن عكرمة، عباد بن منصور عند أحمد (١/ ٣٠٠)، وعباد يرسل: عن عكرمة. تابعهما أيضًا: داود بن حصين عن عكرمة عند عبد الرزاق (١٣٤٩٢) وأحمد (١/ ٣٠٠)، وداود: ضعيف في عكرمة خاصة أقوال أهل العلم في الحديث. قال النسائي: متكرر من حديث ابن عباس بكثير. قال الحافظ في التلخيص (٢٠٣١) عن رواية أبي هريرة: وإسناده أضعف، وقد ورد الحديث من طرق أخرى من طريق أبي هريرة عند ابن ماجه (٢٥٦٢) من رواية سهيل، عن أبيه عن أبي هريرة وفيها: عاصم بن عمر: متروك وتابعه عن سهيل عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر عند الحاكم (٤/ ٣٥٥)، وعبد الرحمن ساقط الحديث. وطريق آخر من رواية جابر عند الترمذي(١٤٥٧) وابن ماجه (٢٥٦٣)، وفيها: القاسم بن عبد الواحد: قال أبو حاتم: يكتب حديثه، وقال الحافظ: مقبول، وعبد الله بن محمد بن عقيل ضعيف. أقوال أهل العلم في الحديث: قال النسائي: منكر، وقال الحافظ في التلخيص (٢٠٣١) عن رواية أبي هريرة: وإسناده أضعف من حديث ابن عباس.

(٢) **ضعيف**: رواه الترمذي (٣١٢٧)، وفيه: عطية العوفي. وابن جرير في «التفسير» (٨/ الجزء١٤/ ٤٦) من نفس الطريق ورواه أيضًا: من طريقين آخرين من رواية ابن عمر، وفيه: الفرات بن السائب: متروك. ومن رواية ثوبان، وفيها: أسد بن وداعة: متروك. وضعفه الشيخ ناصر في «الضعيفة» (١٨٢١) وله طرق أخرى، ذكرها الشيخ رحمه الله.

فهو منهم». وإن لم يكنْ من كلِّ وجهٍ، فمن بعضِ الوجوه؛ كما قال بعضُهم:

فإن لم تكونوا قومَ لُوط بعينهمْ فما قومُ لوط منكم ببعيد

فالعاقلُ اللبيبُ، الخائفُ من ربِّه، الفاهمُ يمتثلُ ما أمرَه اللهُ به عزّ وجلَّ ويقبلُ ما أرشده إليه رسولُ الله؛ من إتيانِ ما خُلق له من الزوجاتِ الحلال، والجواري من السَّراريِّ ذواتِ الجَمال، وإيّاه أن يتّبعَ كلَّ شيطانٍ مَريدٍ، فيحقَّ عليه الوعيدُ، ويدخلَ في قوله تعالى: ﴿ وما هيَ منَ الظَّالمينَ ببَعيد ﴾ [هود: ٨٣].

قصة مَدْيَنَ قوم شُعَيْبٍ عليه الصلاة والسلام

قال اللهُ تعالى في سورة «الأعراف» بعدَ قصة قوم لوط: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٥-٩٣]. وقال في سورة «هود» بعدَ قصة قوم لوط أيضًا:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ

وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٨٤-٩٥]. وقال في الحجر بعدَ قصة قوم لوط أيضًا: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩]. وقال تعالى في «الشعراء» بعدَ قصتهم: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

[الشعراء: ١٧٦-١٩١].

كان أهلُ مَدْيَنَ قومًا عربًا، يسكنون مدينتهم مَدْيَنَ، التي هي قريةٌ من أرض مُعَانٍ من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبًا من بُحيرة قوم لوط. وكانوا بعدَهم بِمُدة قريبة. ومَدْيَنُ قبيلةٌ عُرِفت بهم المدينةُ، وهم من بني مَدْيَنَ بن مديانَ بن إبراهيمَ الخليل عليه الصلاةُ والسلامُ. وشُعَيبٌ نبيُّهم هو ابنُ ميكيلَ بن يشجنَ. ذكره ابنُ إسحاقَ. قال: ويقالُ له بالسُّريانية: بثرونُ. وفي هذا نَظَرٌ. ويقالُ: شُعَيبُ بنُ يشجَنَ بن لاوي بن يعقوبَ. ويُقالُ: شعيبُ بنُ نُويبِ بن عبقا بن مَدْيَنَ بن إبراهيمَ. ويقالُ: شعيبُ بنُ صيفورَ بن عبقا بن ثابت بن مَدْيَنَ بن إبراهيمَ. وقيل غيرُ ذلك في نسبه. قال ابنُ عساكرَ: ويقالُ: جَدَّتُه- ويقالُ: أمُّه- بنتُ لوط. وكان ممّن آمَن بإبراهيمَ وهاجَر معه، ودخَل معه دمشقَ. وعن وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ أنه قال: شعيبٌ وبلعمُ ممَّن آمَن بإبراهيمَ يومَ أُحْرِق بالنار، وهاجَروا معه إلى الشام، فزوَّجَهما بنتَيْ لوط عليه السلامُ. ذكره ابنُ قُتَيْبَةَ. وفي هذا كلِّه نظرٌ أيضًا. واللهُ أعلمُ.

وذكر أبو عُمَرَ بنُ عبد البَرِّ[1] **في «الاستيعاب»**، في ترجمة سَلَمَةَ بن سعيد العَنَزِيِّ: قَدم على رسول الله ﷺ فأسلَم، وانتسَب إلى عَنَزَةَ، فقال: «**نعمَ الحيُّ عَنَزَةُ مَبْغيٌّ عليهم، منصورون، قومُ شُعَيب وأَخْتَانُ موسى**». فلو صحَّ هذا، لدَلَّ على أنَّ شُعَيبًا صِهرُ موسى، وأنه من قبيلة من العرب العاربةِ يقالُ لهم: عَنَزَةُ. لا أنَّهم من عَنزة بن أسد بن ربيعةَ بن نِزَار بن مَعَدِّ بن عَدْنَانَ؛ فإن هؤلاء بعدَه بدهرٍ طويل. واللهُ أعلمُ.

---

(١) ضعيف: «الاستيعاب» (٢/ ٦٤٤) رواه: مسندًا الطبراني في «الكبير» (٦٣٦٤) قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٥١) وفيه من لم أعرفهم وقال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (ترجمة رقم ٣٣٧٢) في إسناده من لا يعرف.

وفي حديث أبي ذرٍّ[(١)] الذي في «صحيح ابن حبَّان»، في ذِكْرِ الأنبياء والرُّسل، قال: «**أربعةٌ من العرب؛ هودٌ، وصالحٌ، وشُعيبٌ، ونَبِيُّك يا أبا ذرٍّ**». وكان بعضُ السلف يسمِّي شعيبًا خطيبَ الأنبياء. يعني لفصاحته وعُلُوِّ عبارته، وبلاغته في دِعاية قومه إلى الإيمان برسالته. وقد روى إسحاقُ بنُ بشرٍ، عن جُوَيْبِرٍ ومُقاتلٍ، عن الضحاك، عن ابنِ عباسٍ، قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا ذكر شعيبًا قال: «**ذاكَ خَطيبُ الأنبياء**»[(٢)].

وكان أهلُ مَدْيَنَ كفاراً، يقطعون السَّبيلَ ويُخيفون المارَّةَ، ويعبُدون الأَيْكَةَ؛ وهي شجرةٌ من الأَيْك، حولَها غَيْضَةٌ مُلتفَّةٌ بها، وكانوا من أسوأِ الناسِ معاملةً، يَبْخَسُون المكيالَ والميزانَ ويُطففون فيهما، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص، فبعَثَ اللهُ فيهم رجلاً منهم؛ وهو رسولُ الله شعيبٌ عليه السلامُ، فدعاهم إلى عبادة الله وحدَه لا شريكَ له، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيلِ القبيحة؛ من بَخْسِ الناسِ أشياءَهم، وإخافَتِهم لهم في سُبُلِهم وطُرُقاتِهم، فآمَن به بعضُهم وكفَر أكثرُهم، حتى أحَلَّ اللهُ بهم البأسَ الشديدَ، وهو الوليُّ الحميدُ؛ كما قال تعالى: ﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ أي؛ دلالةٌ وحُجَّةٌ واضحةٌ، وبرهانٌ قاطعٌ على صدقِ ما جئتُكم به، وأنه أرسلَني. وهو ما أجرَىٰ اللهُ على يَدَيْه من المعجزاتِ التي لم تُنْقَلْ إلينا تفصيلاً، وإنْ كان هذا اللفظُ قد دلَّ عليها إجمالاً. ﴿ **فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا** ﴾ أمَرَهم بالعدل، ونهاهم عن الظلم، وتوعَّدهم على خلاف ذلك، فقال: ﴿ **ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** (٨٥) **وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ** ﴾ أي: طريقٍ ﴿ **تُوعِدُونَ** ﴾ أي: تتوعدون الناسَ، بأخْذِ أموالِهم من مُكُوسٍ وغيرِ ذلك، وتُخيفُون السَّبيلَ. قال السُّدِّيُّ في «تفسيره» عن الصحابة ﴿ **وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ** ﴾: أنهم كانوا يأخذون العُشُورَ من أموال المارَّة. وقال إسحاقُ بنُ بِشرٍ، عن جُوَيْبِرٍ، عن الضحاكِ، عن ابنِ عباسٍ، قال: كانوا قومًا طُغاةً بُغاةً، يجلسون على الطريقِ يبخسون الناسَ، يعني يَعْشُرُونهم، وكانوا أَوَّلَ مَنْ سَنَّ ذلك. ﴿ **وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا** ﴾ فنهاهم عن قطعِ الطريقِ الحِسِّيةِ الدنيوية والمعنوية الدينية ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ ذكَّرهم بنعمة الله تعالى عليهم في تكثيرِهم بعدَ القلة، وحذَّرهم نقْمةَ الله بهم إنْ خالفوا ما أرشَدَهم إليه ودلَّهم عليه؛ كما قال لهم في القصة الأخرى: ﴿ **وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ** ﴾ أي: لا تَركَبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه، فيمحَقَ اللهُ بركةَ ما في أيديكم ويُفقِرَكم ويُذهِب ما به يُغْنِيكم، وهذا مُضافٌ

---

(١) سبق تخريجه والحكم عليه.

(٢) **ضعيف:** السند أعلاه، فيه جويبر: متروك، ومقاتل بن سليمان كذبوه والضحاك: لم يسمع من ابن عباس. ورواه الحاكم (٢/ ٥٦٨) عن ابن إسحاق، عن رسول الله ﷺ. وابن جرير في «التاريخ» (١/ ١٩٨) عن ابن إسحاق عن يعقوب بن أبي سلمة: مرسلاً، وكذلك رواه من قول سفيان.

إلىٰ عذابِ الآخرةِ، ومَنْ جُمع له هذا وهذا، فقد باء بالصَّفْقةِ الخاسرةِ. فنهاهم أولاً عن تعاطِي ما لا يَلِيقُ من التطفيفِ، وحذَّرهم سَلْبَ نعمةِ اللهِ عليهم في دنياهم، وعذابَه الأليمَ في أُخْرَاهم، وعنَّفهم أشدَّ تعنيفٍ، ثم قال لهم آمِرًا بعد ما كان عن ضدِّه زاجرًا: ﴿ **وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ** ﴾ قال ابنُ عباسٍ[١] والحسنُ[٢] البصريُّ: ﴿ **بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ أي: رزقُ اللهِ خيرٌ لكم مِن أَخْذِ أموالِ الناسِ بالتطفيفِ. وقال ابنُ جريرٍ: ما فَضَلَ لكم من الربحِ بعدَ وفاءِ الكَيْلِ والميزانِ خيرٌ لكم مِن أَخْذِ أموالِ الناسِ بالتطفيفِ. قال: وقد رُوِي هذا عن ابنِ عباسٍ[٣] . وهذا قاله وحكَاه حسنٌ، وهو شبيهٌ بقولِه تعالىٰ: ﴿ **قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ** ﴾ [المائدة: ١٠٠]. يعني أن القليلَ من الحلالِ خيرٌ لكم من الكثيرِ من الحرامِ؛ فإن الحلالَ مباركٌ وإنْ قَلَّ، والحرامَ ممحوقٌ وإنْ كَثُر؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ** ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وقال رسولُ اللهُ ﷺ: «**إن الرِّبا وإنْ كثُرَ، فإنَّ مَصيرَه إلى قُلٍّ**». رواه أحمدُ.[٤] أي: إلىٰ قِلَّةٍ. وقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**البيِّعانِ بالخيارِ ما لم يَتفرَّقا، فإن صدَقَا وبيَّنَا بُورِكَ لهما في بَيْعِهما، وإنْ كتَمَا وكَذَبَا مُحقتْ برَكَةُ بَيْعِهما**»[٥] .

والمقصودُ أن الربحَ الحلالَ مباركٌ فيه وإن قَلَّ، والحرام لا يُجدِي وإن كَثُر؛ ولهذا قال نبيُّ اللهِ شعيبٌ: ﴿ **بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾. وقولُه: ﴿ **وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ** ﴾ أي: افعلوا ما آمُرُكم به ابتغاءَ وجهِ اللهِ ورجاءَ ثوابِه، لا لأراكم أنا وغيري ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾ يقولون هذا علىٰ سبيلِ الاستهزاءِ والتنقُّصِ والتهكُّمِ؛ أصلواتُك هذه التي تُصلِّيها هي الآمرةُ لك بأن تَحْجُرَ علينا، فلا نَعبُدَ إلا إلاهَكَ، ونَترُكَ ما يَعبُدُ آباؤُنا الأَقْدَمون وأسلافُنا الأوَّلون؟ أو أنَّا لا نَتعامَلُ إلا علىٰ الوجهِ الذي تَرْتضيه أنت، ونَتْرُكُ المعاملاتِ التي تأباها وإن كنا نحن نرضاها؟ ﴿ **إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾ قال ابنُ عباسٍ[٦] ، وميمونُ بنُ مِهْرَانَ[٧] ، وابنُ جُرَيْجٍ[٨] ، وزيدُ بنُ أَسْلَمَ[٩] ، وابنُ جريرٍ: يقولون ذلك - أعداءُ اللهِ - علىٰ سبيلِ الاستهزاءِ. ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ**

---

(١) **ضعيف إليه**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٠١) فيه مبهم.

(٢) **حسن**: رواه ابن أبي حاتم (١١١٣٣).

(٣) ذكره ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٠١)، وقال: رُوي عن ابن عباس بإسناد غير مرتضى عند أهل النقل.

(٤) **صحيح**: أحمد (١/ ٣٩٥).

(٥) **متفق عليه**: البخاري (٢٠٧٩)، مسلم (٣٨٣٦).

(٦) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١١١٤٠) وفيه: انقطاع بين الضحاك بن مزاحم وابن عباس.

(٧) **صحيح**: رواه ابن أبي حاتم (١١١٤١) من رواية زكريا بن عدي عن أبي المليح عنه.

(٨) **ضعيف**: رواه ابن جرير (٧/ الجزء ١٢/ ١٠٣)، وفيه: الحسين بن داود: سنيد: ضعيف.

(٩) **صحيح**: رواه ابن جرير (٧/ الجزء ١٢/ ١٠٣) بسند صحيح فيه: المثنى وقد تابعه أبو حاتم عند ابنه (١١١٦٢).

أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ هذا تلطُّفٌ معهم في العبارة، ودعوةٌ لهم إلى الحقِّ بأبيَنِ إشارةٍ؛ يقولُ لهم: أرأيتُم أيها المكذِّبون ﴿ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أي: على أمرٍ بيِّنٍ من الله تعالى أنه أرْسَلني إليكم ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ يعني: النبوةَ والرسالةَ. يعني: وعمَّىٰ عليكم معرفتَها، فأيُّ حيلةٍ لي بكم؟ وهذا كما تقدَّم عن نوحٍ عليه السلامُ أنَّه قال لقومه سواءً.

وقولُه: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أي: لستُ آمُرُكم بالأمرِ إلا وأنا أولُ فاعلٍ له، وإذا نهيتُكم عن الشيء فأنا أولُ مَن يترُكُه. وهذه هي الصفةُ المحمودةُ العظيمةُ، وضدُّها هي المردودةُ الذميمةُ، كما تَلَبَّسَ بها علماءُ بني إسرائيلَ في آخرِ زمانهم، وخطباؤُهم الجاهلون. قال اللهُ تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]. وذكَرنا عندَها في «الصحيح»[١]، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «**يُؤتَى بالرجُلِ، فيُلقَى في النار، فتَندَلِقُ أقتابُ بطنه**». أي: تخرجُ أمعاؤُه من بطنه «**فيَدُورُ بها كما يَدُورُ الحمارُ برحَاهُ، فيجتمعُ إليه أهلُ النَّارِ، فيقولونَ: يا فُلانُ، مَا لَكَ؟ ألم تكنْ تأمُرُ بالمعروف وتَنْهَى عن المنكرِ؟ فيقولُ: بلى، كنتُ آمُرُ بالمعروف ولا آتيه، وأَنْهَى عن المنكَرِ وآتيه**». وهذه صفةُ مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء، فأما السادةُ من النُّجَباء والألبَّاء من العلماء الذين يخشَوْن ربَّهم بالغيب، فحالُهم كما قال نبيُّ الله شعيبٌ: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ أي: ما أُريدُ في جميع أمري إلا الإصلاحَ في الفَعالِ والمقالِ، بجَهْدي وطاقتي ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي ﴾ أي: في جميع أحوالي ﴿ إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي: عليه أتوكَّلُ في سائرِ الأمورِ، وإليه مَرْجِعي ومصيري في كلِّ أمري. وهذا مَقامُ ترغيبٍ، ثم انتقل إلى نوعٍ من الترهيب، فقال: ﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ أي: لا تَحمِلَنَّكم مخالفتي وبغضُكم ما جئتكم به على الاستمرارِ على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم، فيُحِلَّ اللهُ بكم من العذابِ والنَّكالِ نظيرَ ما أحلَّه بنُظَرائكم وأشباهكم، من قومِ نوحٍ وقومِ هودٍ وقومِ صالحٍ، من المكذِّبين المخالفين.

وقولُه: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ قيل: معناه في الزمان. أي: ما بالعهدِ من قدَمٍ مما قد بلغَكم ما أحلَّ اللهُ بهم على كُفْرِهم وعُتُوِّهم. وقيل: معناه وما هم منكم ببعيدٍ في المَحَلَّةِ والمكانِ. وقيل: في الصفاتِ والأفعالِ المستقبَحاتِ؛ من قطعِ الطريقِ، وأخذِ أموالِ الناسِ جَهْرةً وخُفيةً، بأنواعِ الحِيَلِ والشبهاتِ. والجمعُ بينَ هذه الأقوالِ ممكنٌ، فإنهم لم يكونوا بَعيدين منهم؛ لا زمانًا ولا مكانًا ولا صفاتٍ، ثم مزَج الترهيبَ بالترغيبِ، فقال: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ أي: أَقلِعوا عما أنتم فيه، وتوبوا إلى ربِّكم الرحيمِ الودودِ؛ فإنه مَن تاب إليه تاب عليه، فإنه

(١) **متفق عليه**: البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٧٤٠٨).

﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده، أرحمُ بهم من الوالدة بولدها ﴿وَدُودٌ﴾ وهو الحبيبُ، ولو بعدَ التوبة على عبده، ولو من المُوبِقات العظام.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ رُوِيَ عن ابن عباس[1]، وسعيدِ بن جُبَيْر[2]، والثَّوْري[3] أنَّهم قالوا: كان ضريرَ البصر. وقد رُوي في حديثٍ مرفوعٍ[4]، أنَّه بكَىٰ من حُبِّ الله حتىٰ عَمِيَ، فرَدَّ اللهُ عليه بَصَرَه، وقال: «يا شعيبُ، أتَبكي خوفًا من النار أو من شوقك إلىٰ الجنة؟ فقال: بل من محبتك، فإذا نَظَرتُ إليك فلا أبالي ماذا يُصنَعُ بي. فأوحَىٰ اللهُ إليه: هنيئًا لك يا شعيبُ لقائي، فلذلك أخدمتُك موسىٰ بنَ عمرانَ كليمي». رواه الواحديُّ، عن أبي الفتح محمدِ بنِ عليٍّ الكوفيِّ، عن علي بنِ الحسنِ بنِ بُنْدَار، عن أبي عبدِ الله محمدِ بنِ إسحاقَ الرمليِّ، عن هشام ابنِ عمَّارٍ، عن إسماعيلَ بنِ عيَّاش، عن بَحيرِ بنِ سَعْدٍ، عن شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ، عن النبيِّ ﷺ بنحْوِه. وهذا غريبٌ جدًّا، وقد ضعَّفه الخطيبُ البغداديُّ. وقولُهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ وهذا من كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع حيث قالوا: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: ما نفهمُه ولا نتعقَّلُه؛ لأنَا لا نحبُّه ولا نريدُه، وليسَ لنا همَّةٌ إليه ولا إقبالٌ عليه. وهو كما قال كفارُ قريشٍ لرسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]. وقولُهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي: مضْطهَدًا مهجورًا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي؛ قبيلتُك وعَشيرتُك فينا ﴿لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي؛ تخافون قبيلتي وعشيرتي وتراعوني بسببهم، ولا تخافون جَنَبَةَ الله ولا ترعوني لأني رسولُ الله؛ فصار رهْطِي أعزَّ عليكم من الله ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي؛ جعلتم جانبَ الله وراءَ ظهوركم ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي؛ هو عليمٌ بما تعملونه وما تصنعونه، محيطٌ بذلك كلِّه، وسيجزيكم عليه يومَ تُرجَعون إليه ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ وهذا أمرُ تهديدٍ شديد، ووعيدٌ أكيدٌ بأن يستمرُّوا علىٰ طريقتِهم ومنهجِهم وشاكلتِهم، فسوف تعلمون مَن تكونُ له عاقبةُ الدارِ، ومَن يَحِلُّ عليه الهلاكُ والبَوَارُ ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في هذه الحياةِ الدنيا ﴿ويحل عليه عذاب مقيم﴾ أي؛ في الأُخْرَىٰ ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أي؛ مِني ومنكم فيما أَخبرَ وبشَّر وحذَّر ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ

---

(١) **ضعيف الإسناد:** رواه: ابن أبي حاتم (١١١٦٠) وفيه: شريك بن عبد الله سيئ الحفظ. والحاكم (٢/ ٥٦٨).

(٢) **ضعيف الإسناد:** رواه ابن أبي حاتم (١١١٦١)، وابن جرير (٧/ الجزء ١٢/ ١٠٥) من طرق، عن شريك عن سالم الأفطس عن سعيد.

(٣) **صحيح إليه:** رواه ابن جرير نفس المصدر من طريق المثنى عن أبي نعيم وخالف المثنى أبو حاتم عن أبي نعيم، فقال: ضعيفًا، ولم يقل ضعيف البصر، والمثنى لا يُعرف حاله، ولم أقف عليه. ورواه ابن أبي حاتم (١١١٦٢).

(٤) **منكر:** قال الذهبي في الميزان (١/ ٢٣٩) في ترجمة إسماعيل بن علي بن المثنى الواعظ: هذا حديث باطل لا أصل له. رواه الخطيب في «تاريخ دمشق» (٦/ ٣١٥) ترجمة إسماعيل بن علي وقال: سمعت منه حديثًا واحدًا مسندًا منكرًا. ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦/ ٧٣) من طريق الواحدي به.

رَقِيبٌ ﴾. وهذا كقوله: ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾. طلبوا بزعمهم أن يَرُدُّوا مَن آمَن منهم إلى ملَّتهم، فانتصَب شعيبٌ للمُحاجَّة عن قومه، فقال: ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ أي: هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً، وإنما يعودون إليه، إن عادوا، اضطراراً مُكْرَهين؛ وذلك لأن الإيمانَ إذا خالَطَتْ بشاشَتُه القلوبَ لا يَسْخَطُه أحدٌ، ولا يريدُ أحدٌ أن يزولَ عنه، ولا مَحيدَ لأحد منه؛ ولهذا قال: ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي؛ فهو كافينا وهو العاصمُ لنا، وإليه مَلْجأُنا في جميع أمرنا.

ثم استفتَح على قومه واستنصَر ربَّه عليهم في تعجيل ما يستحقُّونه إليهم، فقال: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ أي: الحاكمين. فدعا عليهم، واللهُ لا يَرُدُّ دعاءَ رسله إذا استنصَروه على الذين جَحَدوه وكفَروه، ورسولَه خالفوه، ومع هذا صمَّموا على ما هم عليه مشتَملون وبه مستمسكون ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾. قال اللهُ تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ ذكَر في سورة «الأعراف» أنهم أخذَتْهم رَجْفَةٌ، أي: رَجَفَتْ بهم أرضُهم، وزُلزِلتْ زلزالاً شديداً، أزهَقَت أرواحَهم من أجسادهم، وصيَّرتْ حيواناتِ أرضهم كجمادها، وأصبحت جُثَثُهم جاثيةً لا أرواحَ فيها ولا حركاتٍ بها ولا حَواسَّ لها.

وقد جمَع اللهُ عليهم أنواعًا من العقوبات، وصنوفًا من المَثُلات، وأشكالاً من البَلِيَّات؛ وذلك لِمَا اتَّصَفُوا به من قبيح الصِّفات، سلَّط اللهُ عليهم رَجْفةً شديدةً أسكَنَت الحركات، وصيحةً عظيمةً أخمَدَت الأصواتَ، وظُلَّةً أرسَلَ عليهم منها شَرَرَ النارِ من سائرِ أرجائها والجهات. ولكنه تعالى أخبرَ عنهم في كلِّ سورةٍ بما يناسبُ سياقَها ويوافقُ طِباقَها؛ في سياقِ قصة «الأعراف» أرجَفوا نبيَّ الله وأصحابَه، وتوعَّدوهم بالإخراج من قريتهم أو لَيَعُودُنَّ في ملَّتهم راجعين، فقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ فقابَلَ الإرجافَ بالرَّجْفة، والإخافةَ بالخيفة، وهذا مناسبٌ لهذا السياق، ومتعلِّقٌ بما تقدَّمه من السياق. وأما في سورة «هود» فذكَر أنهم أخَذَتهم الصَّيْحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين؛ وذلك لأنهم قالوا لنبيِّ الله، على سبيل التهكُّم والاستهزاء والتنقُّص: ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ فناسَب أن يَذْكُرَ الصيحةَ التي هي كالزَّجْرِ عن تعاطي هذا الكلام القبيح، الذي جَهَّلُوا به هذا الرسولَ الكريمَ الأمينَ الفصيحَ، فجاءتهم صَيْحةٌ أسكَتَتهم مع رجفةٍ أسكَنَتهم. وأما في سورة «الشعراء» فذكَر أنه أخذَهم عذابُ يومِ الظُّلَّة، وكان ذلك إجابةً لِما طلبوا، وتقريبًا لِمَا إليه رَغِبُوا؛ فإنَّهم قالوا: ﴿ إِنَّمَا

أنتَ منَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٨]. قال اللهُ تعالى، وهو السميعُ العليمُ: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

ومن زعَم من المفسرين كقتادةَ وغيره، أن أصحابَ الأَيْكَةِ أُمَّةٌ أُخرَى غيرُ أهلِ مَدْيَنَ فقولُه ضعيفٌ، وإنما عمدتُهم شيئان؛ أحدُهما: أنه قال: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ولم يقُلْ: أخوهم. كما قال: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾. والثاني: أنه ذكَر عذابَهم بيوم الظُّلَّة، وذكَر في أولئكَ الرَّجْفةَ أو الصَّيحةَ، والجوابُ عن الأول، أنَّه لم يَذكُرِ الأُخُوَّةَ بعدَ قوله: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ لأنَّه وصفَهم بعبادة الأيكة، فلا يُناسبُ ذكْرُ الأُخُوَّةِ ههنا، ولَمَّا نَسَبَهم إلى القبيلة ساغ ذِكْرُ شُعَيب بأنه أخوهم. وهذا الفرقُ من النفائسِ اللطيفة العزيزة الشريفة. وأما احتجاجُهم بيوم الظُّلَّة، فإن كان دليلاً بمجرَّده على أن هؤلاء أمةٌ أُخرَى، فلْيَكُنْ تَعْدادُ الانتقام بالرَّجْفة والصَّيحة دليلاً على أنَّهما أمتان أُخريَان، وهذا لا يقولُه أحدٌ يَفهَمُ شيئًا من هذا الشأن. فأما الحديثُ الذي أورَدَه الحافظُ ابنُ عساكر[1] في ترجمة النَّبيِّ شُعيبٍ عليه السلامُ من طريقِ محمدِ بنِ عثمانَ بنِ أبي شَيْبَةَ، عن أبيه، عن معاويةَ بنِ هشام، عن هشامِ بنِ سعدٍ، عن شقيقِ بنِ أبي هلالٍ، عن رَبيعةَ بنِ سيفٍ، عن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو مرفوعًا: «إنَّ مَدْيَنَ وأصحابَ الأيكةِ أُمَّتان، بَعَثَ اللهُ إليهما شُعَيبًا النَّبيَّ عليه السَّلامُ». فإنه حديثٌ غريبٌ، وفي رجاله من تُكُلِّمَ فيه، والأشبهُ أنه من كلام عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو، مما أصابَه يومَ اليَرْمُوك من تلك الزَّامِلَتَيْنِ من أخبارِ بني إسرائيلَ. واللهُ أعلمُ. ثم قد ذكَر اللهُ عن أهلِ الأَيْكةِ من المَذَمَّةِ ما ذكَره عن أهلِ مَدْيَنَ من التَّطْفيفِ في المكيالِ والميزانِ، فدلَّ على أنهم أمةٌ واحدةٌ أُهلكوا بأنواعٍ من العذاب، وذكَر في كلِّ مَوْضعٍ ما يناسبُ ذلك الخطابَ.

وقولُه: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ذكَروا أنهم أصابَهم حَرٌّ شديدٌ، وأسكَن اللهُ هُبوبَ الهواء عنهم سبعةَ أيام، فكان لا يَنفَعُهم مع ذلك ماءٌ ولا ظِلٌّ ولا دخولُهم في الأسراب، فهربوا من مَحَلَّتِهم إلى البَرِّيَّة، فأَظَلَّتْهم سحابةٌ فاجتمَعوا تحتَها ليَستظِلُّوا بظلِّها، فلما تكامَلوا فيه أرسَلَها اللهُ عَلَيْهم تَرميهم بِشَرَرٍ وشُهُبٍ من نارٍ، ورجَفَت بهمُ الأرضُ، وجاءتهم صَيْحةٌ من السماء فأزهقَت الأرواحَ وخرَّبَت الأشباحَ ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ ونجَّى اللهُ شُعيبًا ومَن معه من المؤمنين؛ كما قال تعالى وهو أصدقُ القائلين: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ

(١) **منكر:** لم أجده في «تاريخ دمشق» في ترجمة شعيب عليه الصلاة والسلام وفيه علل منها ربيعة بن سيف له مناكير وليس له سماع من ابن عمرو. قاله: الترمذي انظر «جامع التحصيل» (١٧٤).

فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾. وهذا في مقابلة قولهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾. ثم ذكر تعالىٰ عن نبيِّهم أنه نعَاهم إلىٰ أنفسهم مُوَبِّخًا ومؤنِّبًا ومقرِّعًا، فقال تعالىٰ: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي: أعرَضَ عنهم مولِّيًا عن مَحَلَّتِهم بعدَ هَلاكِهم قائلاً: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: قد أدّيتُ ما كان واجبًا عليَّ من البلاغ التامِّ والنُّصح الكامل، وحرَصتُ علىٰ هدايتكم بكلِّ ما أقدرُ عليه وأتوصَّلُ إليه، فلم يَنْفَعْكم ذلك؛ لأن اللهَ لا يَهدِي مَن يُضِلُّ وما لهم من ناصرين، فلستُ أتأسَّفُ بعدَ هذا عليكم؛ لأنكم لم تكونوا تقبلون النَّصيحةَ، ولا تخافون يومَ الفضيحة؛ ولهذا قال: ﴿كَيْفَ آسَىٰ﴾ أي: أحزَنُ ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي: لا يَقْبَلون الحقَّ ولا يَرْجعون إليه ولا يلتفتون عليه، فَحَلَّ عليهم من بأسِ اللهِ الذي لا يُردُّ ما لا يُدافَعُ ولا يُمانَعُ، ولا مَحيدَ لأحدٍ أُريدَ به عنه، ولا مَناصَ منه. وقد ذكَر الحافظُ ابنُ عساكرَ في «تاريخه»، عن ابنِ عباسٍ، أن شُعَيبًا عليه السلامُ كان بعدَ يُوسُفَ عليه السلامُ. وعن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ، أن شُعَيبًا عليه السلامُ مات بمكةَ ومَن معه من المؤمنين، وقبورُهم غربيَّ الكعبةِ، بينَ دارِ النَّدْوةِ ودارِ بني سَهْمٍ.

بابُ ذِكرِ ذريةِ إبراهيمَ عليه الصلاةُ والسلامُ

قد قدمنا قصتَه مع قومِه، وما كان من أمرِهم، وما آلَ إليه أمرُه عليه السلامُ والتحيةُ والإكرامُ. وذكرنا ما وقَع في زمانِه من قصةِ قومِ لوطٍ، وأتْبَعنا ذلك بقصةِ مَدْيَنَ قومِ شُعَيبٍ عليه السلامُ؛ لأنَّها قرينتُها في كتابِ اللهِ عز وجل، في مواضعَ متعددةٍ يذكرُ تعالىٰ بعدَ قصةِ قومِ لوطٍ قصةَ مَدْيَنَ، وهم أصحابُ الأَيْكَةِ علىٰ الصَّحيحِ كما قدمنا، فذكرناها تبعًا لها؛ اقتداءً بالقرآنِ العظيمِ. ثم نَشرَعُ الآنَ في الكلامِ علىٰ تفصيلِ ذريةِ إبراهيمَ عليه السلامُ؛ لأن اللهَ جعَل في ذريتِه النبوةَ والكتابَ، فكلُّ نبيٍّ أُرْسِلَ بعدَه فمن ولدِه.

ذِكرُ إسماعيلَ عليه السلامُ

وقد كان للخليلِ بَنُونَ كما ذكَرنا، ولكنَّ أشهَرَهم الأخوانِ النَّبيَّانِ العظيمانِ الرَّسُولانِ؛ أسَنُّهما وأجَلُّهما الذي هو الذبيحُ، علىٰ الصحيحِ، إسماعيلُ بِكْرُ إبراهيمَ الخليلِ من هاجَرَ القبطيةِ المصريةِ عليها السلامُ من العظيمِ الجليلِ. ومن قال: إن الذبيحَ هو إسحاقُ. فإنما تلقَّاه من نَقَلَةِ بني إسرائيلَ، الذين بدَّلوا وحرَّفوا وأوَّلوا التوراةَ والإنجيلَ، وخالفوا ما بأيديهم في هذا من التنزيلِ. فإن إبراهيمَ أُمِر بذَبْحِ ولدِه البِكْرِ. وفي روايةٍ: الوحيدِ. وأيًّا ما كان فهو إسماعيلُ بنصِّ الدليلِ؛ ففي نصِّ كتابِهم أن إسماعيلَ وُلِد ولإبراهيمَ من العُمُرِ ستٌّ وثمانون سنةً، وإنَّما وُلِد إسحاقُ بعدَ مُضيِّ مائةِ سنةٍ من عُمُرِ الخليلِ، فإسماعيلُ هو البِكْرُ لا مَحالةَ، وهو الوحيدُ صورةً ومعنًىٰ علىٰ كلِّ حالةٍ؛ أمَّا في

الصورة، فلأنه كان وحدَه ولدَه أزْيدَ من ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً. وأما أنه وحيدٌ في المعنىٰ، فإنه هو الذي هاجَرَ به أبوه ومعه أمُّه هاجَرُ، وكان صغيرًا رضيعًا فيما قيل، فوضَعَهما في وِهادِ جبالِ فارانَ، وهي الجبالُ التي حولَ مكةَ، نِعْمَ المَقيلُ، وتركَهما هنالك ليس معهما من الزَّادِ والماءِ إلا القليلُ، وذلك ثقةً بالله وتوكُّلاً عليه، فحاطَهما اللهُ تعالىٰ بعنايته وكفايته، فنِعْمَ الحسيبُ والكافي والوكيلُ والكفيلُ. فهذا هو الولدُ الوحيدُ في الصورة والمعنىٰ، ولكنْ أين مَنْ يَتفَطَّنُ لهذا السِّرِّ؟ وأين مَن يَحُلُّ بهذا المَحَلِّ؟ والمعنىٰ لا يُدرِكُه ويُحيطُ بعلمه إلا كلُّ نبيهٍ نبيلٍ.

وقد أثنَىٰ اللهُ تعالىٰ عليه، ووصفَه بالحلمِ والصبرِ وصدْقِ الوعدِ والمحافظةِ علىٰ الصلاة والأمرِ بها لأهله؛ ليَقيَهم العذابَ، مع ما كان يدعُو إليه من عبادةِ ربِّ الأرباب. قال تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠١، ١٠٢]. فطاوَعَ أباه علىٰ ما إليه دعاه، ووعَده بأنْ سيَصبِرُ، فوفَّىٰ بذلك وصبَر. وقال تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥]. وقال تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥-٨٦]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ الآية [النساء: ١٦٣]. وقال تعالىٰ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ الآية [البقرة: ١٣٦]. ونظيرتُها من السورة الأخرىٰ. وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ الآية [البقرة: ١٤٠]. فذكَر اللهُ عنه كلَّ صفةٍ جميلةٍ، وجعلَه نبيَّه ورسولَه، وبرَّأه من كلِّ ما نَسَبَ إليه الجاهلون، وأمَرَ بأنْ يُؤمنَ بما أُنْزِل عليه عبادُه المؤمنون.

وذكَر علماءُ النَّسَبِ وأيامِ الناسِ أنه أولُ من ركِبَ الخيلَ، وكانت قبلَ ذلك وُحُوشًا، فأنَّسَها وركِبها. وقد قال سعيدُ بنُ يَحْيَىٰ الأُمَوِيُّ في «مَغَازِيه»: حدثنا شيخٌ من قُرَيْشٍ، حدثنا عبدُ الملك بنُ عبدِ العزيزِ، عن عبدِ الله بنِ عمرَ، أن رسولَ الله ﷺ قال: «اتَّخذوا الخيلَ واعْتَبِقُوها؛ فإنها ميراث أبيكم إسماعيلَ»[(١)]. وكانت هذه العِرَابُ وحشًا، فدعا لها بدعوته التي كان أُعْطِيَ فأجابته. وأنه أولُ مَن تكلَّم بالعربيةِ الفصيحةِ البليغةِ، وكان قد تعلَّمها من العرب العاربةِ، الذين نزلُوا عندهم بمكةَ

(١) إسناده ضعيف: فيه مبهم وهو شيخ الأموي وعبد الملك بن عبد العزيز وهو ابن جريج لا يدرك ابن عمرو.

مِن جُرْهُم والعَماليقِ وأهلِ اليمن، مِن الأمم المتقدمين من العرب قبلَ الخليل.

قال الأُمَوِيُّ: حدثني عليُّ بنُ المغيرة، حدثنا أبو عبيدَة، حدثنا مِسْمَعُ بنُ مالك، عن محمد بن عليِّ بنِ الحسين، عن آبائه، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**أولُ مَن فَتَقَ لسانَه بالعربيةِ البيِّنة إسماعيلُ، وهو ابنُ أربعَ عشْرةَ سنةً**»(١). فقال له يونُسُ: صَدَقْتَ يا أبا يسار، هكذا أبو جُرَيٍّ حدَّثني.

وقد قدمنا أنه تزوَّجَ لَمّا شبَّ مِن العماليقِ امرأةً، وأن أباه أمَرَه بِفراقِها ففارَقَها. قال الأمويُّ: وهي عمارةُ بنتُ سعدِ بنِ أسامةَ بنِ أكيلَ العمْلاقيِّ، ثم نكَح غيرَها، فأمَرَه أن يستمرَّ بها، فاستمر بها، وهي السيدةُ بنتُ مُضاضِ بنِ عمرو الجُرْهُميِّ. وقيل: هذه ثالثةٌ. فولَدت له اثنَيْ عشَرَ ولدًا ذكرًا. وقد سمَّاهم محمدُ بنُ إسحاقَ رحمه اللهُ؛ وهم نابتٌ، وقَيْدَرٌ، وأذبلُ، وميشى، ومِسْمَعٌ، وماشٌ، ودُمَا، وأُدَرُ، ويَطُورُ، ونبشٌ، وطيما، وقَيْذُما. وهكذا ذكَرهم أهلُ الكتابِ في كتابِهم، وعندَهم أنهم الاثنا عشَرَ عظيمًا المبشَّرُ بهم المتقدِّمُ ذكرُهم، وكذَبوا في تأويلهم ذلك. وكان إسماعيلُ عليه السلامُ رسولاً إلى أهلِ تلك الناحية وما والاها مِن قبائلِ جُرْهُم والعماليقِ وأهلِ اليمنِ، صلواتُ الله وسلامُه عليه. ولما حضَرَتْه الوفاةُ أوصى إلى أخيه إسحاقَ. وزوَّجَ ابنتَه نسمةَ مِن ابنِ أخيه العِيصِ بن إسحاقَ فولَدت له الرُّومَ، ويُقالُ لهم: بنو الأصفرِ. لصُفْرَةٍ كانت في العِيصِ. وولَدت له اليونانَ في أحدِ الأقوالِ. ومِن ولدِ العِيصِ الأشبانُ. وقيل: منهما أيضًا. وتوقَّف ابنُ جَريرٍ رحمه اللهُ.

ودُفِن إسماعيلُ نبيُّ اللهِ بالحِجْرِ مع أمِّه هاجَرَ، وكان عمرُه يومَ مات مائةً وسبعًا وثلاثين سنةً. ورُوِي عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، أنَّه قال: شكَا إسماعيلُ عليه السلامُ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ حَرَّ مكةَ، فأوحَى اللهُ إليه: إنيِّ سأفتَحُ لك بابًا إلى الجنة إلى الموضعِ الذي تُدْفَنُ فيه، تَجْرِي عليك رَوْحُها إلى يومِ القيامة(٢).

وعَرَبُ الحجازِ كلُّهم يَنْتَسِبون إلى ولدَيْه نابتٍ وقَيْدار. وسنتكلمُ على أحياءِ العربِ وبطونِها وعمائرِها وقبائلِها وعشائرِها مِن لَدُنْ إسماعيلَ عليه السلامُ إلى زمانِ رسولِ الله ﷺ، وذلك إذا انتهينا إلى أيامه الشريفةِ وسيرتِه المُنيفةِ، بعدَ الفراغِ مِن أخبارِ أنبياءِ بني إسرائيلَ إلى زمانِ عيسى ابنِ مَرْيَمَ، خاتَمِ أنبيائهم ومحقِّقِ أنبائهم، ثم نذكرُ ما كان في زمنِ بني إسرائيلَ، ثم ما وقعَ في أيامِ الجاهليةِ، ثم يَنْتهِي الكلامُ إلى سيرةِ نبيِّنا رسولِ الله إلى العَرَبِ والعَجَمِ وسائرِ صنوفِ بني آدمَ مِن الأممِ إن شاء اللهُ تعالى، وبه الثِّقةُ وعليه التُّكلانُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ العزيزِ الحكيمِ.

---

(١) **حسن الإسناد**: قال الحافظ في «الفتح» (٦/ ٤٦٤) إسناده حسن، وعزاه إلى الزبير بن بكار في النسب ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» من رواية ابن عباس (٤٨) وقال المناوي في «فيض القدير» (٣/ ٩٣): حسَّن إسناده ابن حجر وعزاه للطبراني ولم أقف عليه. وصححه الشيخ ناصر رحمه الله في «الجامع» (٢٥٨١).

(٢) **ضعيف جدًا**: رواه الطبري في «التاريخ» (١/ ١٨٩). فيه خالد بن عبد الرحمن: متروك الحديث ومبارك بن حسان: لين.

ذكرُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ، الكريمِ، ابنِ الكريمِ، عليهما الصلاةُ والتسليمُ

قد قدمنا أنه وُلِدَ ولأبيه مائةُ سنةٍ، بعدَ أخيه إسماعيلَ بأربعَ عشرَةَ سنةً، وكان عمرُ أمِّه سارَّةَ حينَ بُشِّرَت به تسعين سنةً. قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٢، ١١٣]. وقد ذكَره اللهُ تعالىٰ بالثَّناءِ عليه في غيرِ ما آيةٍ من كتابِه العزيزِ، وقدَّمنا في حديثِ أبي هُرَيرَةَ، عن رسولِ الله ﷺ أن الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ، يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ[١] . وذكَر أهلُ الكتابِ أن إسحاقَ لَمَّا تزوَّج رفقا بنتَ ثبوائيلَ في حياةِ أبيه كان عمرُه أربعين سنةً، وأنها كانت عاقرًا، فدعا اللهَ لها فحمَلَتْ، فولَدتْ غلامَيْن توأَمَيْن؛ أولُهما سمَّوْه عِيصُو، وهو الذي تُسَمِّيه العربُ العِيصَ. وهو والدُ الرُّومِ، والثاني خرَج وهو آخذٌ بعقِبِ أخيه، فسمَّوْه يعقوبَ، وهو إسرائيلُ الذي يَنتسِبُ إليه بنو إسرائيلَ. قالوا: وكان إسحاقُ يحبُّ العِيصَ أكثرَ من يعقوبَ؛ لأنه بِكْرُه، وكانت أمُّهما رفقا تحبُّ يعقوبَ أكثرَ؛ لأنّه الأصغرُ. قالوا: فلما كَبِرَ إسحاقُ وضَعُفَ بصرُه، اشتهَىٰ علىٰ ابنه العِيصِ طعامًا، وأمَره أن يَذهبَ فيَصطادَ له صيدًا ويَطبُخَه له، ليبُاركَ عليه ويَدعُوَ له، وكان العِيصُ صاحبَ صيدٍ، فذهَب يبتغِي ذلك، فأمَرَت رفقا ابنَها يعقوبَ أن يَذبحَ جَدْيَيْن من خيارِ غنَمه، ويَصنَعَ منهما طعامًا كما اشتهاه أبوه، ويأتيَ إليه به قبلَ أخيه؛ ليَدْعُوَ له، وقامت فألبسَتْه ثيابَ أخيه، وجعَلَتْ علىٰ ذراعَيْه وعُنقِه من جلدِ الجَدْيَيْن؛ لأن العِيصَ كان أشعرَ الجسدِ، ويعقوبُ ليس كذلك، فلما جاءه به وقرَّبه إليه، قال: مَن أنت؟ قال: ولَدُك. فضمَّه إليه وجَسَّه، وجعَل يقولُ: أما الصوتُ فصوتُ يعقوبَ، وأمّا الجَسُّ والثِّيابُ فالعِيصُ. فلما أكَل وفرَغ، دعا له أن يكونَ أكبرَ إخوتِه قدْرًا وكلمتُه عليهم وعلىٰ الشعوبِ بعدَه، وأن يكثُرَ رزقُه وولدُه. فلما خرَج من عندِه جاء أخوه العِيصُ بما أمَره به والدُه يُقرِّبُه إليه، فقال له: ما هذا يا بُنيَّ؟ قال: هذا الطعامُ الذي اشتهيتَه. فقال: أما جئتَني به قبلَ الساعةِ وأكَلتُ منه ودعوتُ لك؟ فقال: لا واللهِ. وعرَف أن أخاه قد سبَقه إلىٰ ذلك، فوَجدَ في نفسه عليه وَجْدًا كثيرًا. وذكَروا أنه تواعَدَه بالقتلِ إذا مات أبوهما، وسأل أباه فدعا له بدعوةٍ أخرىٰ، وأن يَجْعَلَ لذريته غليظَ الأرضِ، وأنْ يُكْثِرَ أرزاقَهم وثمارَهم، فلما سمِعَت أمُّهما ما يَتواعَدُ به العِيصُ أخاه يعقوبَ، أمرَتْ ابنَها يعقوبَ أن يَذهبَ إلىٰ أخيها لابانَ، الذي بأرضِ حَرَّانَ، وأن يكونَ عندَه إلىٰ حينِ يسكُنُ غضبُ أخيه عليه، وأن يتزوّجَ من بناتِه، وقالت لزوجِها إسحاقَ أن يأُمرَه بذلك ويوصيَه ويدعوَ له، ففعَل، فخرَج يعقوبُ عليه السلامُ من عندِهم آخرَ ذلك اليومِ، فأدركَه المساءُ في موضعٍ فنام فيه؛ أخذ حَجَرًا فوضَعه تحتَ رأسِه ونام، فرأىٰ في نومِه ذلك مِعْرَاجًا منصوبًا من السماءِ إلىٰ الأرضِ وإذا

---

(١) سبق تخريجه في قصة إبراهيم.

الملائكةُ يَصْعَدُون فيه وينزلون، والربُّ تبارك وتعالى يُخاطبُه ويقولُ له: إني سأباركُ عليك وأُكثرُ ذريتَك، وأجعَلُ لك هذه الأرضَ ولعَقِبِكَ من بعدك. فلما هبَّ من نومه فرح بما رأى، ونذَر لله لئن رجَع إلى أهله سالمًا ليَبنيَنَّ في هذا الموضعِ مَعْبَدًا لله عز وجل، وأنَّ جميعَ ما يُرزَقُه من شيءٍ يكونُ لله عُشرُه، ثم عَمَد إلى ذلك الحَجَر فجعَل عليه دُهْنًا؛ يَتعرَّفُه به، وسَمَّى ذلك المَوْضعَ: بيتَ إيلَ. أي بيتَ الله، وهو موضعُ بيتِ المقدسِ اليومَ الذي بناه يعقوبُ بعدَ ذلك، كما سيأتي.

قالوا: فلما قَدِم يعقوبُ على خاله أرضَ حَرَّانَ إذا له ابنتان؛ اسمُ الكبرى ليا واسمُ الصغرى راحيلُ، فخطَب إليه راحيلَ، وكانت أَحسَنَهما وأجمَلَهما، فأجابه إلى ذلك بشرطِ أن يَرْعَى على غنمِه سبْعَ سنين، فلما مضَت المدةُ عَمِل خالُه لابانُ طعامًا وجَمعَ الناسَ عليه وزَفَّ إليه لَيْلاً ابنتَه الكبرى ليا، وكانت ضعيفةَ العينين قبيحةَ المنظرِ، فلما أصبَحَ يعقوبُ إذا هي ليا، فقال: لخاله: لِمَ غَدَرْتَ بي، وأنت إنما خطَبتُ إليك راحيلَ؟ فقال: إنه ليس من سُنَّتنا أن نُزوِّج الصغرى قبلَ الكبرى، فإن أحببتَ أختَها فاعمَلْ سبعَ سنين أخرى وأُزوِّجُكَها. فعمِل سبْعَ سنين، وأدخَلها عليه مع أختها، وكان ذلك سائغًا في ملتِهم ثم نُسخ في شريعةِ التوراة. وهذا وحدَه دليلٌ كافٍ على وقوعِ النسخ؛ لأن فعلَ يعقوبَ عليه السلامُ دليلٌ على جوازِ هذا وإباحته؛ لأنه معصومٌ. ووهَب لابانُ لكلٍّ واحدةٍ من ابنتَيْه جاريةً؛ فوهَب لليا جاريةً اسمُها زلفا، ووهَب لراحيلَ جاريةً اسمُها بلها، وجبَر اللهُ تعالى ضَعْفَ ليا بأن وهَب لها أولادًا، فكان أولَ مَن ولَدت ليعقوبَ روبيلُ ثم شمعونُ ثم لاوِي ثم يهوذا، فغارت عندَ ذلك راحيلُ، وكانت لا تَحْبَلُ، فوهَبت ليعقوبَ جاريتَها بلها، فوطِئها فحمَلتْ وولَدَتْ له غلامًا سمَّتْه دان، وحملَت وولَدت غلامًا آخَرَ سمَّتْه يفثالي، فعمَدت عندَ ذلك ليا فوهَبتْ جاريتَها زلفا من يعقوبَ عليه السّلامُ، فولَدَت له جادَ وأشير؛ غلامَيْن ذَكَرَيْن، ثم حَمَلت ليا أيضًا، فولَدت غلامًا خامسًا منها وسمَّتْه أيساخرَ، ثم حملَت وولَدت غلامًا سادسًا سمَّتْه زابلونَ، ثم حملَت وولَدت بنتًا سمَّتْها دينا، فصار لها سبعةٌ من يعقوبَ، ثم دعَت اللهَ تعالى راحيلُ وسألَته أن يَهَبَ لها غلامًا من يعقوبَ، فسمع اللهُ نداءها وأجاب دعاءَها؛ فحمَلتْ من نبيِّ الله يعقوبَ، فولَدت له غلامًا عظيمًا شريفًا حسنًا جميلاً سمَّتْه يوسفَ. كلُّ هذا وهم مقيمون بأرضِ حَرَّان، وهو يَرْعى على خاله غَنَمَه بعدَ دخوله على البنتين ستَّ سنين أخرى، فصار مدةُ مُقامه عشرين سنةً، فطلَب يعقوبُ من خاله لابانَ أن يُسرِّحَه ليمرَّ إلى أهله، فقال له خالُه: إنِّي قد بُورك لي بسببك، فسَلْني من مالي ما شئتَ. فقال: تُعطيني كلَّ حَمَلٍ يُولَدُ من غَنَمك هذه السنةَ أَبْقَعَ، وكلَّ حَمَلٍ مُلْمعٍ أبيضَ بسوادٍ، وكلَّ أَمْلَحَ ببياضٍ، وكلَّ أَجْلَحَ أبيضَ من المَعْزِ. فقال: نعمْ. فعَمَد بنوه، فأبرَزوا من غنمِ أبيهم ما كان على هذه الصفاتِ من التُّيُوسِ؛ لئلاَّ يُولَدَ شيءٌ من الحُمْلانِ على هذه الصفات، وساروا بها

مسيرةَ ثلاثة أيام عن غنم أبيهم. قالوا: فَعَمَدَ يعقوبُ عليه السلامُ إلى قَضْبانٍ رطْبةٍ بيضٍ، من لَوْزٍ ودُلْبٍ، فكان يُقشِّرُها بَلْقَاءَ وبيضاءَ، ويضعُها في مساقي الغنمِ من المياه؛ لينظُرَ الغنمُ إليها فتفزَعَ وتتحركَ أولادُها في بطونها، فتصيرَ ألوانُ حُمْلانِها كذلك. وهذا يكونُ من باب خوارق العادات، وينتظِمُ في سلْك المعجزات. فصار ليعقوبَ عليه السلامُ أغنامٌ كثيرةٌ ودوابُّ وعبيدٌ، وتغيَّر له وجهُ خاله وبنيه، وكأنَّهم انحصَروا منه. وأوحَى اللهُ تعالى إلى يعقوبَ أن يرجعَ إلى بلادِ أبيه وقومِه، ووعَدَه بأن يكونَ معه، فعرَض ذلك على أهله فأجابوهُ مبادرين إلى طاعته، فتحمَّلَ بأهله وماله، وسرقتْ راحيلُ أصنامَ أبيها، فلمّا جاوزوا وتحيَّزوا عن بلادهم، لحقَهم لابانُ وقومُه، فلما اجتمَع لابانُ بيعقوبَ عاتبه في خروجه بغير إذنه وعلمه، وهلاَّ أعْلَمه فيُخرجَهم في فرحٍ ومزاميرَ وطبولٍ، وحتى يُودِّعَ بناته وأولادَهنَّ، ولِمَ أخذوا أصنامَه معهم، ولم يكنْ عندَ يعقوبَ علمٌ من أصنامه، فأنكرَ أن يكونوا أخذوا له أصنامًا، فدخَل بيوتَ بناته وإمائهن يفتشُ، فلم يجدْ شيئًا، وكانت راحيلُ قد جعلَتهن في بَرْدَعة الجَمَلِ، وهي تحتها، فلم تَقُمْ واعتذَرتْ بأنها طامثٌ، فلم يَقدِر عليهن، فعندَ ذلك تواثَقُوا على رابيةٍ هناك يقالُ لها: جَلْعَادُ. على أنه لا يُهينُ بناته ولا يَتزوَّجُ عليهنَّ، ولا يجاوزُ هذه الرابيةَ أحدُهما ذاهبًا إلى بلادِ الآخَرِ، لا لابانُ ولا يعقوبُ، وعملا طعامًا وأكَل القومُ معهم، وتَودَّعَ كلٌّ منهما من الآخرِ، وتفارَقُوا راجعين إلى بلادهم، فلما اقترَب يعقوبُ من أرضِ ساعيرَ تلقتْه الملائكةُ يبشِّرونه بالقُدُوم، وبعَث يعقوبُ البُرُدَ إلى أخيه العيصِ يترقَّقُ له ويَتَواضعُ له، فرجَعت البُرُدُ وأخبَرت يعقوبَ بأن العيصَ قد ركِب إليك في أربعمائة راجلٍ، فخَشِيَ يعقوبُ من ذلك، ودعا اللهَ عز وجل وصلَّى له، وتضرَّع إليه وتَمسكَنَ لديه، وناشدَه عهدَه ووَعْدَه الذي وعَده به، وسأله أن يكُفَّ عنه شرَّ أخيه العيصِ، وأعَدَّ لأخيه هديةً عظيمةً؛ وهي مائتا شاةٍ وعشرون تَيْسًا، ومائتا نَعجةٍ وعشرون كَبْشًا، وثلاثون لِقْحةً، وأربعون بقرةً وعشَرةٌ من الثِّيرانِ، وعشرون أتَانًا وعشرةٌ من الحُمُرِ، وأمَر عبيدَه أن يسوقوا كُلاًّ من هذه الأصناف وحدَه، ولْيكُنْ بينَ كلِّ قَطيعٍ وقَطيعٍ مسافةٌ، فإذا لَقِيَهم العيصُ فقال للأول: لِمَنْ أنت؟ ولِمَن هذه معك؟ فلْيَقُلْ: لعبدك يعقوبَ، أهداها لسيدي العيصِ. ولْيَقُلِ الذي بعده كذلك، وكذا الذي بعدَه، وكذا الذي بعده، ويقولُ كلٌّ منهم: وهو جاءٍ بعدَنا. وتأخَّر يعقوبُ بزوجتَيْه وأمَتَيْه وبَنيه الأحدَ عشَرَ، بعدَ الكلِّ بليلتين، وجعَلَ يسيرُ فيهما ليلاً ويَكْمُنُ نهارًا، فلما كان وقتُ الفجرِ من الليلة الثانية تبدَّى له مَلَكٌ من الملائكة في صورة رجلٍ فظنَّه يعقوبُ رجلاً من الناسِ، فأتاه ليُصارعَه ويُغالبَه، فظهَر عليه يعقوبُ فيما يُرَىٰ، إلا أن المَلَكَ أصاب ورِكَه، فعَرَجَ يعقوبُ، فلما أضاء الفجرُ قال له المَلَكُ: ما اسمُك؟ قال: يعقوبُ. لا ينبغي أن تُدعَىٰ بعدَ اليومِ إلا إسرائيلُ. فقال له يعقوبُ: ومَن أنت؟ وما اسمُك؟ فذهَبَ عنه، فعَلِم

أنه مَلَكٌ من الملائكة، وأصبَح يعقوبُ وهو يَعْرُجُ من رِجْله. فلذلك لا يأكُلُ بنو إسرائيلَ عِرْقَ النَّسَا.

ورفَع يعقوبُ عينَيْه فإذا أخوه عيصُ قد أَقْبَلَ في أربعمائة راجلٍ، فتقدَّم أمامَ أهله، فلما رأى أخاه العيصَ سجَد له سبعَ مرَّاتٍ، وكانت هذه تحيتَهم في ذلك الزمانِ، وكان مشروعًا لهم، كما سجَدت الملائكةُ لآدمَ تحيةً له وكما سجَد إخوةُ يوسُفَ وأبواه له، كما سيأتي، فلما رآه العيصُ تَقَدَّمَ إليه واحتَضَنه وقَبَّله وبكَى، ورفَع العيصُ عينيه ونظَر إلى النساء والصبيانِ، فقال: من أين لك هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين وهَب اللهُ لعبدك. فدنتْ الأمَتَان وبنوهما فسجَدوا له، ودنَت ليا وبنوها فسجدوا له، ودنَت راحيلُ وابنُها يوسفُ آخِرًا فسجَدا له، وعرَض عليه أنْ يَقبَلَ هديتَه وألحَّ عليه، فقَبِلَها، ورجَع العيصُ فتقدَّم أمامَه، ولَحِقَه يعقوبُ بأهله وما معه من الأنعام والمواشي والعبيد قاصدين جبالَ ساعيرَ، فلما مر بساحورا ابتَنَى له بيتًا ولدَوَابِّه ظِلالاً، ثم مرَّ على أورشليمَ قريةِ سحيم، فنزَل قبَلَ القريةِ، واشتَرى مزرعةَ بني حمورٍ أبي سحيم بمائة نَعْجةٍ، فضرَب هنالك فُسطاطَه، وابتَنى ثَمَّ مذبَحًا، فسمَّاه إيلَ إلهَ إسرائيلَ، وأمره اللهُ ببنائه ليَستعلنَ فيه، وهو بيتُ المَقْدسِ اليومَ، الذي جدَّده بعدَ ذلك سليمانُ بنُ داودَ عليهما السلامُ، وهو مكانُ الصخرةِ التي أَعْلَمَها بوضع الدُّهْنِ عليها قبلَ ذلك، كما ذكَرنا أولاً.

وذكَر أهلُ الكتاب هنا قصةَ دينا بنت يعقوبَ، من ليا، وما كان مِن أمرها مع سحيم بنِ حمورٍ، الذي قهَرها على نفسها وأدخلَها منزلَه، ثم خطَبها من أبيها وإخوتها، فقال إخوتُها: لا نفعلُ إلا أن تَخْتَتِنُوا كلُّكم، فنُصاهرَكم وتُصاهرونا، فإنَّا لا نُصاهرُ قومًا غُلْفًا. فأجابوهم إلى ذلك واختَتَنوا كلُّهم، فلمّا كان اليومُ الثالثُ، واشتدَّ وجَعُهم مِن ألم الختانِ، مال عليهم بنو يعقوبَ فقتلوهم عن آخرِهم، وقتلوا سحيمًا وأباه حمورًا؛ لقبيح ما صنعوا إليهم، مضافًا إلى كفرِهم، وما كانوا يعبدونه مِن أصنامِهم، فلهذا قتَلهم بنو يعقوبَ، وأخَذوا أموالَهم غنيمةً. واللهُ أعلمُ.

ثم حمَلت راحيلُ فولَدتْ غلامًا، وهو بنيامينُ، إلاَّ أنها جَهَدَت في طَلْقِها به جَهْدًا شديدًا وماتت عَقِيبَه، فدفَنها يعقوبُ في أفراثٍ، وهي بيتُ لَحْمٍ، وصنَع يعقوبُ على قبرِها حَجرًا، وهي الحجارةُ المعروفةُ بقبرِ راحيلَ إلى اليوم.

وكان أولادُ يعقوبَ الذُّكورُ اثْنَيْ عشَرَ رجلاً، فمن ليا؛ روبيلُ، وشمعونُ، ولاوِي، ويهوذا، وأيساخرُ، وزابلونُ. ومن راحيلَ؛ يوسفُ، وبنيامينُ. ومن أَمَة راحيلَ؛ دانُ، ونفثالي. ومن أَمَة ليا؛ جادُ، وأشيرُ، عليهم السلامُ. وجاء يعقوبُ إلى أبيه إسحاقَ، فأقام عندَه بقرية حبرونَ التي في أرضِ كَنْعَانَ حيث كان يسكُنُ إبراهيمُ، ثم مَرِضَ إسحاقُ وماتَ عن مائةٍ وثمانين سنةً، ودفَنه ابناه العيصُ ويعْقوبُ مع أبيه إبراهيمَ الخليلِ، في المغارةِ التي اشتراها كما قدَّمنا. واللهُ سبحانه أعلمُ بذلك.

ذكر ما وقع من الأمور العجيبة في حياة إسرائيل عليه السلام، فمن ذلك قصة يوسف بن راحيل

وقد أنزل اللهُ عز وجل في شأنه وما كان من أمره سورةً من القرآن العظيم، ليُتَدبَّرَ ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم. أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ١-٣]. قد تكلَّمنا على الحروف المقطَّعة في أول تفسير سورة «البقرة» فمَن أراد تحقيقَه فلْينظُرْه ثَمَّ، وتكلمنا على هذه السورة مستقصًى في موضعها من «التفسير»، ونحن نذكُرُ ههنا نُبَذًا مما هناك على وجه الإيجاز والنَّجاز.

وجملةُ القول في هذا المقام، أنه تعالى يَمدَحُ كتابَه العظيمَ، الذي أنزَله على عبده ورسوله الكريم، بلسانٍ عربيٍّ فصيحٍ بيِّنٍ واضحٍ جَليٍّ، يفهمُه كلُّ عاقلٍ ذكيٍّ زكيٍّ، فهو أشرَفُ كتابٍ نزَل من السماء، أنزَله أشرفُ الملائكة على أشرفِ الخلق، في أشرف زمانٍ ومكانٍ، بأفصحِ لغةٍ وأظهرِ بيانٍ، فإن كان السِّياقُ في الأخبارِ الماضية أو الآتية، ذكَر أحسنَها وأبْيَنَها، وأظهَرَ الحقَّ ممَّا اختلَف الناسُ فيه، ودمَغ الباطلَ وزيَّفه وردَّه، وإن كان في الأوامرِ والنَّواهي، فأعْدَلُ الشرائعِ وأوضحُ المناهجِ، وأبْيَنُ حُكْمًا وأعدَلُ حَكَمًا، فهو كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]. يعني صِدْقًا في الأخبارِ عدلاً في الأوامرِ والنواهي. ولهذا قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾. أي: بالنسبة إلى ما أُوحيَ إليك فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]. وقال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴾ [طه: ٩٩-١٠١]. يعني مَن أعرَضَ عن هذا القرآن واتَّبَع غيرَه من الكتب، فإنه ينالُه هذا الوعيدُ، كما قال في الحديث المرويِّ في «المُسنَد»[١] و«التِّرمذيِّ»[٢]، عن أمير المؤمنين عليٍّ، مرفوعًا وموقوفًا: «مَن ابتغَى الهُدَى في غيرِه أضلَّه اللَّهُ».

وقال الإمامُ أحمدُ[٣]: حدثنا سُرَيْجُ بنُ النعمانِ، حدثنا هُشَيْمٌ، أنبأنا مُجالدٌ، عن الشَّعْبيِّ، عن جابرٍ، أن عمرَ بنَ الخطابِ أتَى النبيَّ ﷺ بكتابٍ أصابَه من بعضِ أهلِ الكتابِ، فقرَأه على النبيِّ ﷺ،

---

(١) المسند (١/ ٩١) بنحوه.

(٢) **ضعيف**: الترمذي (٢٩٠٦). قال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال. ورواه الدارمي (٣٣٣١-٣٣٣٢).

(٣) **حسن بطرقه**: «المسند» (٣/ ٣٨٧) فيه: مجالد بن سعيد ضعيف.

فغضب وقال: «**أمتهوكون فيها يا بنَ الخطاب؟ والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاءَ نقيةً، لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحقٍّ فتكذِّبوا به، أو بباطلٍ فتصدِّقوا به، والذي نفسي بيده، لو أنَّ موسَى كان حيًّا ما وَسِعَه إلا أنْ يَتَّبِعَني**». إسنادٌ صحيحٌ. ورواه [(١)] مِن وجهٍ آخرَ، عن عُمَرَ وفيه: فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لو أصبَح فيكم موسى ثم اتَّبعتُموه وتركتموني لضلَلتُم، إنَّكم حظِّي من الأممِ وأنا حظُّكم مِن النَّبيِّين**». وقد أوردتُ طرق هذا الحديثِ وألفاظَه في أولِ سورةِ «يوسف» وفي بعضِها أن رسولَ اللهِ ﷺ خطَب الناسَ، فقال في خُطبته: «**أيها الناسُ، إنّي قد أُوتيتُ جوامِعَ الكَلِمِ وخواتيمَه واختُصِرَ ليَ اختصاراً، ولقد أتيتُكم بها بيضاءَ نَقِيَّةً، فلا تَتَهوَّكوا ولا يَغُرَّنَّكم المُتَهوِّكون**» [(٢)]. ثم أَمَر بتلك الصحيفة، فمُحِيَت حرفًا حرفًا.

﴿**إذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبيه يَا أَبَت إنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إنَّ الشَّيْطَانَ لِلإنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إبْرَاهِيمَ وَإسْحَاقَ إنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [يوسف: ٤-٦]. قد قدمنا أن يعقوبَ كان له من البَنِينَ اثنا عشَرَ ولدًا ذَكَرًا وسَمَّيْناهم، وإليهم يَنْتَسِبُ أسباطُ بني إسرائيل كلُّهم، وكان أشرفُهم وأَجَلُّهم وأعظمُهم يوسفَ عليه السلامُ. وقد ذهَبَ طائفةٌ مِن العلماءِ إلىٰ أنه لم يَكُنْ فيهم نبيٌّ غيرُه وباقي إخوته لم يُوحَ إليهم. وظاهرُ ما ذُكِر من فَعالِهم ومَقالِهم في هذه القصة يدلُّ علىٰ هذا القول. ومَن استدَلَّ علىٰ نبوتِهم بقولِه: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إلَىٰ إبْرَاهِيمَ وَإسْمَاعِيلَ وَإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ**﴾ [البقرة: ١٣٦]. وزعَم أن هؤلاءِ هم الأسباطُ، فليس استدلالُه بقويٍّ؛ لأن المرادَ بالأسباطِ شعوبُ بني إسرائيلَ، وما كان يُوجَدُ فيهم مِن الأنبياءِ الذين ينزلُ عليهم الوحْيُ مِن السماءِ. واللهُ أعلمُ. ومما يؤيدُ أن يوسُفَ عليه السلامُ هو المختَصُّ من بينِ إخوته بالرسالةِ والنبوةِ، أنه نَصَّ علىٰ نبوته والإيحاءِ إليه في غيرِ ما آيةٍ من كتابِه العزيزِ، ولم يَنُصَّ علىٰ واحدٍ مِن إخوته سواه، فدلَّ علىٰ ما ذكرناه. ويُستأنَسُ لهذا بما قال الإمامُ أحمدُ [(٣)]: حدثنا عبدُ الصمد، حدثنا عبدُ الرحمنِ ابنُ عبدِ اللهِ بنِ دينارٍ، عن أبيه، عن ابنِ عُمَرَ، أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ، يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ**». انفرَدَ به البخاريُّ، ورواه عن عبدِ اللهِ بنِ محمدٍ وعَبْدَةَ، عن عبدِ الصَّمدِ بنِ عبدِ الوارثِ، به. وقد ذكرنا طُرُقه في قصةِ إبراهيمَ بما أغنَىٰ عن إعادتِه ههنا، ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

---

(١) **حسن**: المسند (٤/ ٢٦٥) من حديث عبد الله بن ثابت.

(٢) **حسن بطرقه**: رواه ابن كثير في «التفسير» (سورة يوسف) لأبي يعلى وساقه بسنده ولم أقف عليه في مسند عمر رضي الله عنه وفي السند عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي: ضعيف، وشيخه لا يصح حديثه، قاله الحافظ في «التفسير»، والحديث حسنه الشيخ ناصر بمجموع طرقه، «الإرواء» (١٥٨٩) وقد رواه العقيلي في «الضعفاء» في ترجمة خليفة بن قيس مسنداً عنه (٢/ ٢١/ ترجمة ٤٣٧).

(٣) سبق تخريجه في قصة إبراهيم عليه السلام.

قال المفسرونَ وغيرُهم: رأىٰ يوسُفُ عليه السلامُ وهو صغيرٌ قبلَ أنْ يحتلِمَ، كأنَّ ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ **وهم إشارةٌ إلىٰ بقيةِ إخوته** ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ وهما عبارةٌ عن أبَوَيْه، قد سجَدوا له، فَهَالَه ذلك، **فلما استيقَظَ قصَّها** علىٰ أبيه، فعرَف أبوه أنه سينَالُ منزلةً عاليةً ورفعةً عظيمةً في الدنيا والآخرةِ، **بحيث يَخضَعُ له** أبَوَاه وإخوتُه فيها، فأمَره بكِتمانها وأن لا يَقُصَّها على إخوته؛ كيلا يَحسُدُوه **ويَبْغُوا له الغَوائلَ** ويَكيدُوه بأنواعِ الحِيَلِ والمكرِ. وهذا يدُلُّ علىٰ ما ذكرناه، ولهذا جاء في بعضِ الآثارِ: «استعينوا علىٰ قضاءِ حوائجِكم بكِتْمانِها؛ فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسودٌ»[1] . وعندَ أهلِ الكتابِ، أنه قصَّها علىٰ أبيه وإخوته معًا. وهو غَلَطٌ منهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أي: وكما أراك هذه الرؤيا العظيمةَ فإذا كتَمْتَها ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أي: يَخُصُّك بأنواعِ اللُّطْفِ والرحمة ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أي: يُفَهِّمُك من معاني الكلامِ وتعبيرِ المَنامِ ما لا يَفْهَمُه غيرُك ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أي: بالوحيِ إليك ﴿ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ أي؛ بسببِك، ويَحصُلُ لهم بك خيرُ الدنيا والآخرة ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ أي: يُنعِمُ عليكَ ويُحسِنُ إليك بالنبوةِ كما أعطاها أباك يعقوبَ وجَدَّك إسحاقَ ووالدَ جَدِّك إبراهيمَ الخليلَ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ولهذا قال رسولُ الله ﷺ لَمّا سُئِل: أيُّ النَّاسِ أكْرَمُ؟ قال: «**يوسفُ نبيُّ الله ابنُ نبيِّ الله ابنِ نبيِّ الله ابنِ خليلِ الله**»[2] . وقد روىٰ ابنُ جَريرٍ[3] وابنُ أبي حاتمٍ في «تفسيرَيْهما»، وأبو يَعْلَىٰ[4] والبزَّارُ[5] في «مُسْنَدَيْهما»، من حديثِ الحَكَمِ بنِ ظُهَيْرٍ - وقد ضعَّفه الأئمةُ - عن السُّدِّيِّ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ سابطٍ، عن جابرٍ قال: أتىٰ النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهودِ يقالُ له: بستانةُ اليهوديُّ. فقال: يا محمدُ، أخْبِرْني عن الكواكبِ التي رآها يوسفُ أنها ساجدةٌ له؛ ما أسماؤُها؟ قال: فسكَت النبيُّ ﷺ فلم يُجِبْه بشيءٍ، ونزَل جبريلُ عليه السلامُ بأسمائها. قال: فبعَث إليه رسولُ اللهِ، فقال: «**هل أنت مؤمنٌ إنْ أخبرتُك بأسمائها؟**». قال: نعم. فقال: «**هي جربانُ، والطارقُ، والذيالُ، وذو الكتفات، وقابسٌ، ووثابٌ، وعمودانُ، والفيلقُ، والمصبحُ، والصروحُ، وذو الفرعِ، والضياءُ، والنورُ**». فقال اليهوديُّ: إي والله، إنَّها لأسماؤُها. وعندَ أبي يَعْلَىٰ: فلمّا قصَّها علىٰ أبيه، قال: هذا أمرٌ مشتَّتٌ يَجمَعُه اللهُ، والشمسُ أبوه والقمرُ أمُّه.

---

(١) **ضعيف**: رواه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٩٤/ح/ ١٨٣)، وابن حبان في «الضعفاء» (١/ ٣١٨) ترجمة سعيد بن سلام العطار، والعقيلي (٢/ ١٠٩ ترجمة سعيد بن سلام ٥٨٠)، والبيهقي في «الشعب» (٦٦٥٥) قال أبو حاتم: منكر...لأن هذا الحديث لا يعرف له أصل. انظر «علل ابن أبي حاتم» (٢٢٥٨) وقد رُوي هذا الحديث من عدة طرق. جمعها الشيخ ناصر الألباني في «الصحيحة»، ولا يخلو طريق منها من علة وقوّاها من طريق أبي هريرة «الصحيحة» (١٤٥٣).

(٢) سبق تخريجه في قصة إبراهيم عليه السلام.

(٣) **ضعيف**: ابن جرير (٧/ الجزء١٢/ ١٥١)، وابن جرير في «تفسيره» (١١٣٣٢).

(٤) ذكره الحافظ ابن حجر في «المطالب» (٤٠١٥).

(٥) «كشف الأستار» (٣/ ٢٢٢٠) فيه انقطاع بين عبد الرحمن بن سابط وجابر وفي السند أعلاه أيضًا الحكم بن طهير أتهم بالكذب ورواه الحاكم (٤/ ٣٩٦) من طريق أسباط عن السدي به.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: ٧-١٠]. ينبِّهُ تعالىٰ علىٰ ما في هذه القصة من الآيات والحِكَم والدِّلالات والمواعظ والبينات، ثم ذكر حسدَ إخوة يوسفَ له علىٰ محبَّة أبيه له ولأخيه ـ يعنون شقيقَه لأمِّه بنيامينَ ـ أكثرَ منهم وهم عُصْبةٌ؛ أي جماعةٌ. يقولون: فكنَّا نحن أحقَّ بالمحبة من هذَيْن ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي؛ بتقديمه حبَّهما علينا، ثم اشتَوَرُوا فيما بينَهم في قتلِ يوسفَ أو إبعاده إلىٰ أرضٍ لا يَرجِعُ منها، ليَخلوَ لهم وجهُ أبيهم؛ أي: لتَتمحَّضَ محبتُه لهم وتَتوفَّرَ عليهم، وأضْمَروا التوبةَ بعدَ ذلك. فلمَّا تمالأُوا علىٰ ذلك وتوافَقُوا عليه ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ قال مُجاهدٌ: هو شمعونُ. وقال السُّدِّيُّ: هو يَهُوذَا. وقال قتادةُ ومحمدُ بنُ إسحاقَ: هو أكبرُهم روبيلَ. ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي؛ المارَّةُ من المسافرين ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ما تقولون لا محالةَ فلْيكُنْ هذا الذي أقولُه لكم، فهو أقربُ حالاً من قَتْله أو نَفْيِه وتغريبِه. فأجمَعوا رأيَهم علىٰ هذا، فعندَ ذلك ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۝ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ۝ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١١-١٤]. طلبوا من أبيهم أنْ يُرسِلَ معهم أخاهم يوسفَ، وأظهَروا له أنهم يريدون أن يَرْعَىٰ معهم، وأنْ يلعبَ وينبَسطَ، وقد أضمروا له ما اللهُ به عليمٌ، فأجابهم الشيخُ عليه من الله أفضلُ الصلاة والتسليم: يا بَنيَّ، يَشُقُّ عليَّ أن أفارقَه ساعةً من النهار، ومع هذا أَخْشَىٰ أن تشتَغلوا في لَعِبكم وما أنتم فيه فيأتيَ الذئبُ فيأكُلَه، ولا يَقدِرُ علىٰ دفعه عنه؛ لصغَرِه وغفلتكم عنه. ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ أي: لئن عدَا عليه الذئبُ فأكَلَه من بيننا، أو اشتغَلنا عنه حتىٰ وقَع هذا ونحن جماعةٌ ﴿إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ أي: عاجزون هالكون. وعندَ أهلِ الكتاب أنه أرسَلَه وراءَهم يتَّبعُهم، فضَلَّ عن الطريق حتىٰ أرشدَه رجلٌ إليهم. وهذا أيضًا من غَلَطِهم وخَطَئِهم في التَّعريب؛ فإن يعقوبَ عليه السلامُ كان أحرَصَ عليه من أنْ يَبعثَه معهم، فكيف يبعثُه وحدَه؟!

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ۝ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ۝ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٥-١٨]. لم يزالوا بأبيهم حتىٰ بعثَه معهم، فما كان إلا أن غابُوا عن عينه، فجعلوا يَشتُمونَه ويُهينونه بالفَعال والمَقال، وأجمَعُوا علىٰ إلقائه في غَيَابَةِ الجُبِّ؛ أي في قَعْرِه، علىٰ راعُوفَته ـ وهي الصخرةُ التي تكونُ في وسطه يقفُ عليها المائحُ؛ وهو الذي

يَنزِلُ لِيملأَ الدلاءَ إذا قلَّ الماءُ، والذي يرفعُها بالحبلِ يُسمَّىٰ الماتحَ. فلما ألقَوْه فيه أوحَىٰ اللهُ إليه أنه لابُدَّ لك من فَرَجٍ ومَخلَصٍ ومَخرَجٍ من هذه الشِّدَّة التي أنت فيها، ولتُخبِرَنَّ إخوتَك بصَنيعهم هذا، في حالِ أنت فيها عزيزٌ وهم محتاجون إليك خائفون منك ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ .

قال مجاهد[1] وقتادةُ[2] : وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه ذلك. وعن ابن عباس[3] : ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ أي: لتُخبِرنَّهم بأمرِهم هذا في حالٍ لا يعرفونك فيها. رواه ابنُ جرير عنه، فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه أخذوا قميصَه فلطَّخُوه بشيءٍ من دمٍ، ورجعوا إلىٰ أبيهم عشاءً وهم يبكون؛ أي: علىٰ أخيهم.

ولهذا قال بعضُ السلف: لا يَغُرَّنَّك بكاءَ المتظلِّمِ، فرُبَّ ظالمٍ وهو باكٍ. وذكَر بكاءَ إخوةِ يوسفَ. وقد جاءوا أباهم عشاءً يبكون، أي: في ظُلمة الليلِ ليكونَ أمْشىٰ لغَدْرهم لا لعُذْرهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ﴾ أي: ثيابنا ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ في غَيْبتنا عنه في استباقنا. وقولُهم: ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ أي: وما أنت بمصدِّقٍ لنا في الذي أخبرناك من أكْلِ الذِّئب له، ولو كنَّا غيرَ متَّهَمين عندَك، فكيف وأنت تتَّهمُنا في هذا فإنك خشيتَ أنْ يأكُلَه الذئبُ وضَمِنَّا لك أن لا يَأكُلَه لكثرتنا حولَه، فصِرْنا غيرَ مُصدَّقين عندك، فمعذورٌ أنت في عدمِ تصديقك لنا والحالةُ هذه ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي: مكذوبٍ مفتعَلٍ؛ لأنهم عَمَدوا إلىٰ سَخْلَةٍ ذَبحوها فأخذوا من دمها فوضعوه علىٰ قميصه؛ ليُوهِموا أنه أكَله الذئبُ. قالوا: ونَسَوْا أن يُخَرِّقوه. وآفةُ الكذب النِّسيانُ. ولما ظهَرت عليهم علائمُ الرِّيبة لم يَرُجْ صنيعُهم علىٰ أبيهم؛ فإنه كان يَفهَمُ عداوتَهم له وحسَدَهم إياه علىٰ محبته له من بينهم أكثرَ منهم، لما كان يَتوسَّمُ فيه من الجلالةِ والمهابةِ التي كانت عليه في صغَره، لما يريدُ اللهُ أَنْ يَخُصَّه به من نبوته، ولمَّا راودُوه عن أخذه، فبمجرَّد ما أخذوه أعدَموه وغيَّبوه عن عينه، وجاءُوا وهم يتباكون وعلىٰ ما تمالأوا عليه يتواطئُون؛ ولهذا ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨].

وعندَ أهلِ الكتابِ أن روبيلَ أشار بوَضْعه في الجُبِّ؛ ليَأخذَه من حيثُ لا يشعرون ويَرُدَّه إلىٰ أبيه، فغافَلُوه وباعُوه لتلك القافلة، فلما جاء روبيلُ من آخرِ النهارِ ليُخرجَ يوسفَ لم يَجِدْه، فصاح وشقَّ ثيابَه وحزِن، وعَمَد أولئك إلىٰ جَدْيٍ فذبَحوه ولطَّخُوا من دمه جُبَّةَ يوسفَ، فلما عَلِم يعقوبُ شقَّ ثيابَه ولَبِس مِئْزَرًا أسودَ وحزِن علىٰ ابنه أيامًا كثيرةً. وهذه الرَّكاكةُ جاءت من خطئهم في التعبيرِ والتصوير.

---

(١) صحيح إليه: رواه ابن جرير (٧/ الجزء١٢/ ١٦١) من رواية ابن أبي نجيح وابن جريج عنه.

(٢) صحيح إليه: رواه ابن جرير (٧/ الجزء١٢/ ١٦١) بسند صحيح من رواية سعيد، عن قتادة. ومعمر عن قتادة.

(٣) موضوع: رواه ابن أبي حاتم (١١٣٨١) وفي سنده كنانة بن جبلة: أتهم بالكذب.

﴿ **وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف: ١٩ - ٢٢]. يخبر تعالىٰ عن قصةِ يوسفَ حينَ وُضع في الجُبِّ، أنه جلَس ينتظرُ فرَجَ اللهِ ولطفَه به ﴿ **وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ** ﴾ أي: مسافرون. قال أهلُ الكتاب: كانت بضاعتُهم من الفُسْتُقِ والصَّنَوْبَرِ والبُطْمِ، قاصدين ديارَ مصرَ من الشامِ، فأرسلوا بعضَهم ليَستَقُوا من ذلك البئرِ، فلما أَدْلَىٰ أحدُهم دَلْوَه تعلَّق فيه يوسفُ، فلما رآه ذلك الرجلُ ﴿ **قَالَ يَا بُشْرَىٰ** ﴾ أي؛ يا بِشارتي ﴿ **هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً** ﴾ أي؛ أوهَموا أنَّ معهم غلامًا من جُملةِ مَتْجَرِهم. ﴿ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** ﴾ أي: هو عالِمٌ بما تمالأ عليه إخوتُه، وبما يُسِرُّه واجدُوه من أنه بضاعةٌ لهم، ومع هذا لا يُغيِّرُه تعالىٰ؛ لِمَا له في ذلك من الحكمةِ العظيمةِ والقَدَرِ السابقِ والرحمةِ بأرضِ مصرَ، بما يُجْرِي اللهُ علىٰ يَدَيْ هذا الغلامِ الذي يَدخُلُها في صورةِ أسيرٍ رقيقٍ، ثم بعدَ ذلك يُملِّكُه أَزِمَّةَ الأمورِ، ويَنفعُهم اللهُ به في دنياهم وأخراهم بما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ.

ولَمَّا استَشعَرَ إخوةُ يوسفَ بأخذِ السَّيَّارةِ له لَحِقوهم وقالوا: هذا غلامُنا أَبِقَ منَّا. فاشتَرَوْه منهم بثمنٍ بخسٍ؛ أي قليلٍ نَزْرٍ. وقيل: هو الزَّيْفُ ﴿ **دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ** ﴾ قال ابنُ مسعودٍ[1]، وابنُ عباسٍ[2]، ونَوْفٌ البِكَاليُّ[3]، والسُّدِّيُّ[4]، وقَتادةُ[5]، وعطيةُ العَوْفيُّ[6]: باعُوه بعشرين درهمًا، اقتَسَموها دِرْهَمَيْن دِرْهَمَيْن. وقال مُجاهدٌ[7]: اثنان وعشرون درهمًا. وقال عِكْرِمةُ[8] ومحمدُ بنُ إسحاقَ[9]: أربعون درهمًا. فاللهُ أعلمُ[10]. ﴿ **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ** ﴾ أي؛ أحسني إليه ﴿ **عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا** ﴾ وهذا من لطفِ اللهِ به ورحمتِه وإحسانِه إليه بما يريدُ أن يُؤهِّلَه له ويُعطيَه من خيرِ الدنيا والآخرة. قالوا: وكان الذي اشتَراه من أهلِ مصرَ عزيزَها؛ وهو الوزيرُ بها الذي الخزائنُ مسلَّمةٌ إليه. قال ابنُ إسحاقَ: واسمُه أطفيرُ بنُ روحيبَ. قال: وكان مَلِكُ مصرَ يومئذٍ الرَّيَّانَ بنَ الوليدِ رجلٌ من العماليقِ. قال: واسمُ امرأةِ العزيزِ

---

(١) **منقطع**: أثر ابن مسعود رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٧٢ - ١٧٣) من رواية أبي عبيدة عنه، أبو عبيدة لم يسمع من أبيه.
(٢) **ضعيف إليه**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٧٢ - ١٧٣) فيه: سُنيد: ضعيف، وانقطاع بين ابن جريج وابن عباس.
(٣) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٧٢ - ١٧٣) من رواية أبي إسحاق عنه من طرق.
(٤) **فيه ضعف إليه**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٧٢ - ١٧٣) من رواية ابن وكيع عن عمرو وهو ابن حماد عن أسباط عنه.
(٥) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٧٢ - ١٧٣) من رواية سعيد ومعمر عنه.
(٦) **فيه ضعف إليه**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٧٢ - ١٧٣) فيه ابن وكيع.
(٧) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٧٢ - ١٧٣) من رواية ابن أبي نجيح وابن جريج عنه.
(٨) **ضعيف إليه**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٧٢ - ١٧٣) فيه: جابر الجعفي، ضعيف.
(٩) **ضعيف إليه**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٧٢ - ١٧٣) فيه: ابن حميد: ضعيف.
(١٠) رواها: ابن جرير (٧/ الجزء١٢/ ١٧٢ - ١٧٣).

راعيلُ بنتُ رعائيلَ. وقال غيرُه: كان اسمُها زَلِيخا. والظاهرُ أنه لقبُها. وقيل: فكا بنتُ ينوس. رواه الثَّعلبيُّ، عن أبي هشام الرفاعيِّ. وقال محمدُ بنُ إسحاقَ[1]، عن محمدِ بن السائبِ، عن أبي صالح، عن ابنِ عباسٍ: كان اسمُ الذي باعه بمصرَ - يعني الذي جَلَبه إليها - مالكَ بنَ دعرِ بنِ ثويبِ بنِ عفقا بنِ مَدْيانَ بنِ إبراهيمَ. فاللهُ أعلمُ.

وقال ابنُ إسحاقَ[2]، عن أبي عبيدةَ، عن ابنِ مسعودٍ، قال: أفْرَسُ الناسِ ثلاثةٌ؛ عزيزُ مصرَ حينَ قال لامرأته: ﴿**أَكْرِمِي مَثْوَاهُ**﴾. والمرأةُ التي قالت لأبيها عن موسى: ﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**﴾ [القصص: ٢٦]. وأبو بكر الصِّدِّيقُ حينَ استخلَف عمرَ بنَ الخطابِ رضي اللهُ عنهما، ثم قيل: اشتراه العزيزُ بعشرين ديناراً. وقيل: بوزْنِه مسكًا ووزنه حريرًا ووزنه وَرِقًا. فاللهُ أعلمُ. وقولُه: ﴿**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ**﴾ أي؛ وكما قيَّضْنا هذا العزيزَ وامرأتَه يُحسنان إليه ويَعتنيان به، مكَّنَّا له في أرضِ مصرَ ﴿ **وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ**﴾ أي؛ فهمها، وتعبيرُ الرؤيا من ذلك ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ** ﴾ أي؛ إذا أراد شيئًا فإنه يُقيِّضُ له أسبابًا وأمورًا لا يَهتدي إليها العبادُ. ولهذا قال تعالى: ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ فدلَّ على أن هذا كلَّه وهو قبلَ بلوغِ الأشُدِّ؛ وهو حدُّ الأربعين الذي يُوحي اللهُ فيه إلى عباده النبيِّين عليهم الصلاةُ والسلامُ من ربِّ العالمين. وقد اختلفوا في مدة العمرِ الذي هو بلوغُ الأشُدِّ؛ فقال مالكٌ[3]، وربيعةُ[4]، وزيدُ بنُ أسْلَمَ[5]، والشَّعْبيُّ[6]: هو الحُلُمُ. وقال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ[7]: ثمانيَ عشْرةَ سنةً. وقال الضحاكُ[8]: عشرون سنةً. وقال عكرمةُ[9]: خمس وعشرون سنة. وقال السديُّ[10]: ثلاثون سنة. وقال ابنُ عباسٍ، ومُجاهدٌ[11]، وقَتادةُ[12]: ثلاثٌ وثلاثون سنةً. وقال الحسنُ[13]: أربعون سنةً. ويَشهَدُ له قولُه تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً**﴾ [الأحقاف: ١٥].

---

(١) **ضعيف جداً**: رواه: ابن جرير (٧/ الجزء ١٢/ ١٧٥). فيه: علل منها: ابن حميد ومحمد بن السائب الكلبي وأبو صالح باذام: ضعفاء.

(٢) **صحيح عنه**: رواه ابن جرير (٧/ الجزء١٢/ ١٧٦) والحاكم (٣/ ٩٠) نفس السند أعلاه ورواه ابن جرير (٧/ الجزء ١٢/ ١٧٥) والحاكم (٢/ ٣٤٥) والطبراني في «الكبير» (٨٨٢٩) من طريق سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عنه وهذا الطريق أصحها. ورواه الطبراني في «الكبير» (٨٨٣٠) من رواية أبي الأحوص سلام بن سليم عن أبي إسحاق عن بعض أصحاب ابن مسعود عنه.

(٣) **صحيح إلى مالك**: رواه ابن أبي حاتم (١١٤٤٧) عن ابن وهب عنه.

(٤) **حسن إليه**: نفس المصدر السابق (١١٤٤٦).

(٥) **ضعيف إليه**: نفس المصدر، فيه: عبد الرحمن بن زيد: ضعيف.

(٦) **ضعيف إليه**: نفس المصدر (١١٤٤٨) من رواية مجالد عنه، ومجالد: ضعيف.

(٧) **ضعيف إليه**: نفس المصدر (١١٤٥٠) فيه: ابن لهيعة.

(٨) **ضعيف إليه**: ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٧٧) فيه: أبو روق.

(٩) **فيه ضعف إليه**: رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٤٤٥) فيه الحكم بن أبان: متكلم فيه.

(١٠) **حسن إليه**: ابن أبي حاتم (١١٤٤٩) من رواية أسباط عنه.

(١١) **صحيح إليه**: ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٧٧) من رواية ابن أبي نجيح وليث بن سليم عنه.

(١٢) ذكره: ابن أبي حاتم، ولم يذكر له إسناداً.

(١٣) **رجاله ثقات**: ابن أبي حاتم (١١٤٤٤) من رواية هُشيم، عن منصور بن زاذان عنه.

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٢٣-٢٩]. يذكرُ تعالى ما كان من أمرِ مُراودة امرأةِ العزيزِ ليوسفَ عليه السلامُ عن نفسه، وطَلَبِها منه ما لا يَليقُ بحاله ومَقامه، وهي في غاية الجمالِ والمالِ والمَنْصبِ والشباب، وكيف غَلَّقَت الأبوابَ عليها وعليه، وتهيَّأت له وتصنَّعَت ولَبِسَت أحسنَ ثيابِها وأفخَرَ لباسِها، وهي مع هذا كلِّه امرأةُ الوزير. قال ابنُ إسحاقَ: وبنتُ أختِ الملكِ الريَّانِ بنِ الوليدِ صاحبِ مصرَ. وهذا كلُّه مع أنَّ يوسفَ عليه السلامُ، شابٌّ بديعُ الجمالِ والبهاء، إلا أنه نبيٌّ من سُلالةِ الأنبياء، فعصَمه ربُّه عن الفحشاءِ وحماه عن مَكرِ النِّساء، فهو سيدُ السادةِ النُّجَباءِ السبعةِ الأتقياءِ المذكورين في «الصحيحين»[1] عن خاتَمِ الأنبياء، في قوله عليه الصلاةُ والسلامُ من ربِّ الأرضِ والسماء: «**سبعةٌ يُظلُّهم اللهُ في ظله يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه؛ إمامٌ عادلٌ، ورجلٌ ذكَر اللهَ خاليًا ففاضَت عَيْناه، ورجلٌ مُعلَّقٌ قلبُه بالمسجدِ إذا خَرَج منه حتى يعودَ إليه، ورجلان تحابًّا في الله اجتَمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجلٌ تَصَدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تَعلمَ شمالُه ما تُنفِقُ يمينُه، وشابٌّ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ دعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنصبٍ وجمالٍ فقال: إنِّي أخافُ اللهَ**».

والمقصودُ أنها دعته إليها وحرَصَت على ذلك أشدَّ الحرص، فقال: ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ يعني زوجَها صاحبَ المنزلِ سيِّدي ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ أي؛ أحسَنَ إليَّ وأكرمَ مُقامي عندَه ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وقد تكلَّمنا على قوله: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ بما فيه كفايةٌ ومَقْنَعٌ في التَّفسير. وأكثرُ أقوالِ المفسِّرين ههنا متلقًّى من كتب أهلِ الكتاب، فالإعراضُ عنه أَوْلَى بنا. والذي يجبُ أنْ يُعْتَقَدَ أن اللهَ تعالى عصَمه وبرَّأه، ونزَّهَه عن الفاحشةِ وحمَاه عنها وصانه منها. ولهذا قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ أي؛ هربَ منها طالبًا إلى الباب ليخرُجَ منه فراراً منها، فاتَّبَعته في أثَرِه ﴿ وَأَلْفَيَا ﴾ أي؛ وجَدا ﴿ سَيِّدَهَا ﴾ أي؛ زوجَها ﴿ لَدَا الْبَابِ ﴾ فَبادرَته بالكلام وحرَّضَته عليه ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ اتَّهمته وهي المتَّهَمةُ، وبرَّأت عرضَها ونزَّهت ساحتَها؛ فلهذا قال يوسفُ عليه السلامُ: ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ احتاج إلى أن يقولَ الحقَّ عندَ الحاجة ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ

(١) متفق عليه: البخاري (٦٦٠)، ومسلم (٢٣٧٧).

مَنْ أَهْلِهَا ﴾ قيل: كان صغيرًا في المهْدِ. قاله ابن عباسٍ[١]. ورُوِي عن أبي هُرَيرةَ[٢]، وهلالِ بنِ يسافٍ[٣]، والحسنِ البصريِّ[٤]، وسعيدِ بنِ جُبَيْرٍ[٥]، والضحاك[٦]، واختاره ابنُ جَريرٍ، وروَىٰ فيه حديثًا مرفوعًا عن ابنِ عباسٍ[٧]، ووقَفه غيرُه عنه. وقِيل: كان رجلاً قريبًا إلىٰ أطفيرَ بعلِها. وقِيل: قريبًا إليها. وممَّن قال: إنَّه كان رجلاً؛ ابنُ عباسٍ[٨]، وعِكْرِمةُ[٩]، ومُجاهدٌ[١٠]، والحسنُ[١١]، وقَتادةُ،[١٢] والسُّدِّيُّ[١٣]، ومحمدُ بنُ إسحاقَ[١٤]، وزيدُ بنُ أَسْلَمَ[١٥]. فقال: ﴿ **إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ أي؛ لأنه يكونُ قد راودها فدافَعتْه حتىٰ قَدَّت مُقَدَّمَ قميصه ﴿ **وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ أي؛ لأنه يكونُ قد هرَب منها فاتَّبَعَتْه وتعلَّقتْ فيه فانشَقَّ قميصُه لذلك. وكذلك كان؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ **فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** ﴾ أي؛ هذا الذي جرَىٰ من مَكرِكن، أنتِ راودْتِه عن نفسه ثم اتَّهَمْتِه بالباطلِ، ثم أضرَبَ بعلُها عن هذا صفحًا، فقال: ﴿ **يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا** ﴾ أي؛ لا تذكُرْه لأحدٍ؛ لأن كتمانَ مثلِ هذه الأمورِ هو الألْيَقُ والأحسنُ، وأمَرَها بالاستغفارِ لذنبِها الذي صدَر منها والتوبةِ إلىٰ ربِّها؛ فإن العبدَ إذا تاب إلىٰ الله تاب اللهُ عليه. وأهلُ مصرَ، وإن كانوا يعبدون الأصنامَ، إلا أنهم يَعلَمون أن الذي يغفرُ الذنوبَ ويؤاخِذُ بها هو اللهُ وحدَه لا شريكَ له في ذلك. ولهذا قال لها بعلُها ـ وعذَرَها من بعضِ الوجوه؛ لأنها رأت ما لا صَبْرَ لها علىٰ مثله، إلا أنه عفيفٌ نزيهٌ بريءُ العِرضِ سليمُ الناحيةِ ـ فقال: ﴿ **وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ** ﴾.

﴿ **وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ**

---

(١) **فيه ضعف**: رواه: ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٩٣)، فيه ابن وكيع تركوا حديثه بسبب الوراق، وكذلك من طريق العوفي عنه، وسنده واه.

(٢) **ضعيف**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٩٣)، وفيه: شهر بن حوشب: ضعيف.

(٣) **فيه ضعف**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٩٤)، فيه ابن وكيع.

(٤) ذكره ابن أبي حاتم، ولم يذكر له سندًا قال: وروي عن الحسن.

(٥) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٩٣) من طرق عن أبي حصين وسالم الأفطس عنه.

(٦) **ضعيف**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٩٣) من رواية جويبر عنه، وجويبر: ضعيف، وكذلك ابن وكيع.

(٧) رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٩٣)، والحاكم (٤/ ٤٩٧) كلاهما من طريق عفان، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعًا وعلته: أن عطاء اختلط بآخره وحماد ممن روى عنه قبل الاختلاط وبعده والجمهور على أنه روى عنه قبل الاختلاط. وقد روى عن ابن عباس خلاف ذلك في شاهد يوسف: أنه كان ذا لحية من طريقين عنه، رواهما ابن جرير من رواية سماك عن عكرمة عنه، ومن رواية جابر الجعفي عن ابن أبي مليكة عنه.

(٨) سبق فيما تقدم.

(٩) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٩٤) من رواية عمران بن جرير عنه.

(١٠) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٩٤) من رواية منصور عنه.

(١١) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٩٤) وابن أبي حاتم (١١٥٠٨) بسند صحيح من رواية يونس عنه.

(١٢) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٩٤) وابن أبي حاتم (١١٥٠٧) من رواية سعيد بن أبي عروبة ومعمر وسعيد بن بشير عنه.

(١٣) **فيه ضعف**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٩٤)، وفيه ابن وكيع.

(١٤) **فيه ضعف**: رواه ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٩٤)، وفيه ابن حميد.

(١٥) **إسناده ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١١٥١٠) فيه محمد بن أبان قال البخاري: يتكلمون في حفظه.

فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٠-٣٤]. يذكُرُ تعالىٰ ما كان من قِبَلِ نساءِ المدينةِ يعني مصرَ - من نساءِ الأمراءِ وبناتِ الكُبَراءِ، في الطَّعنِ علىٰ امرأةِ العزيزِ وعَيْبِها، والتَّشنيعِ عليها في مراوَدتِها فتاها، وحبِّها الشَّديد له، يَعْنِينَ: وهو لا يساوي هذا؛ لأنَّه مولًىٰ من الموالِي، وليس مثلُه أهلاً لهذا. ولهذا قُلْنَ: ﴿ **إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ﴾ أي؛ في وضعِها الشيء في غيرِ مَحلِّه ﴿ **فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ** ﴾ أي؛ بتشنيعِهِنَّ عليها والتَّنقُّصِ لها، والإشارةِ إليها بالعيبِ والمَذمَّةِ بحبِّ مولاها وعشْقِ فتاها. فأظْهَرْنَ ذَمًّا، وهي معذورةٌ في نفسِ الأمرِ، فلهذا أحبَّت أن تَبسُطَ عذرَها عندَهن، وتُبيِّنَ أن هذا الفتىٰ ليس كما حَسِبْنَ ولا مِن قَبيلِ ما لديهن، فأرسَلَت إليهن فجمعَتْهن في منزلِها، وأعتَدَت لهن ضيافةَ مثلِهن وأحضَرت في جملةِ ذلك شيئًا مما يُقْطَعُ بالسكاكينِ؛ كالأُتْرُجِّ ونحوِه ﴿ **وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا** ﴾ وكانت قد هيَّأت يوسفَ عليه السلامُ وألبَسَته أحسنَ الثيابِ، وهو في غايةِ طَراوةِ الشبابِ، وأمَرته بالخروجِ عليهن بهذه الحالة، فخرَجَ وهو أحسنُ من البدرِ لا محالةَ ﴿ **فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ** ﴾ أي: أعظَمْنَه وأَجْلَلْنَه وهِبْنَه، وما ظَنَنَّ أن يكونَ مثلُ هذا في بني آدمَ، وبَهَرَهُن حسنُه، حتىٰ اشتغَلْنَ عن أنفسِهن وجعَلْنَ يَحْزُزْنَ في أيديهن بتلك السكاكينِ ولا يَشْعُرْنَ بالجراحِ ﴿ **وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾.

وقد جاء في حديثِ الإسراءِ[(١)] : «**فمرَرتُ بيوسفَ، وإذا هو قد أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسنِ**». قال السُّهَيْليُّ وغيرُه من الأئمةِ: معناه أنه كان علىٰ النِّصفِ من حُسنِ آدمَ عليه السلامُ؛ لأن اللهَ تعالىٰ خلَقَ آدمَ بيدِه ونفَخَ فيه من روحِه، فكان في غايةِ نهاياتِ الحُسنِ البشريِّ؛ ولهذا يَدخُلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ علىٰ طولِ آدمَ وحُسنِه، ويوسفُ كان علىٰ النِّصفِ من حُسنِ آدمَ، ولم يكنْ بينَهما أحسنُ منهما، كما أنه لم تكنْ أنثىٰ بعدَ حواءَ أَشْبَهَ بها من سارَّةَ امرأةِ الخليلِ عليه السلامُ. قال ابنُ مسعودٍ[(٢)]: وكان وجهُ يوسفَ مثلَ البرقِ، وكان إذا أَتَتْه امرأةٌ لحاجةٍ غطَّىٰ وجهَه. وقال غيرُه: كان في الغالبِ مُبَرْقَعًا؛ لئلا يراه الناسُ. ولهذا لَمّا قام عُذْرُ امرأةِ العزيزِ في محبتِها لهذا المعنىٰ المذكورِ، وجرَىٰ لهن وعليهن ما جرَىٰ من تقطيعِ أيديهن بجراحِ السكاكينِ وما ركِبَهن من المهابةِ والدَّهْشِ عندَ رؤيتِه ومعاينتِه ﴿ **قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ** ﴾ ثم مدَحَته بالعفَّةِ التامة، فقالت: ﴿ **وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ** ﴾ أي: امتَنَع ﴿ **وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾ وكان بقيةُ النساءِ حَرَّضْنَه علىٰ السمعِ والطاعةِ لسيدتِه، فأبَىٰ أشدَّ الإباءِ، ونأَىٰ؛ لأنه من سلالةِ الأنبياءِ، ودعا فقال في

---

(١) سبق تخريجه في أواخر قصة آدم.

(٢) **فيه ضعف**: رواه الطبراني في «الكبير» (٨٥٥٧) من رواية زهير، عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود وعلته: أبو إسحاق اختلط بآخره وزهير ممن روى عنه بعد الاختلاط.

دعائه لربِّ العالمين: ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ يعني: إنْ وكلْتني إلىٰ نفسي فليس لي من نفسي إلا العجزُ والضعفُ، ولا أملكُ لنفسي نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء اللهُ، فأنا ضعيفٌ إلا ما قوّيْتَني وعصمتَني وحفظتَني وحُطتَني بحولِك وقوتِك. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٣٥-٤١]. يذكُرُ تعالىٰ عن العزيزِ وامرأتِه أنهم بدا لهم؛ أي ظهَر لهم من الرأيِ، بعدما علِموا براءةَ يوسفَ أن يَسْجُنوه إلىٰ وقتٍ؛ ليكونَ ذلك أقلَّ لكلامِ الناسِ في تلك القضيةِ وأَخْمَدَ لأمرِها، ولِيُظْهِروا أنه راوَدها عن نفسِها فسُجِن بسببِها، فسجَنوه ظُلمًا وعُدوانًا. وكان هذا مما قدَّر اللهُ له، ومن جملةِ ما عصَمه به؛ فإنه أَبْعَدُ له عن معاشرتِهم ومخالطتِهم. ومِن ههنا استَنْبَط بعضُ الصوفيةِ ما حكاه عنهم الشَّافعيُّ، أن من العصمةِ أن لا تَجِدَ. قال اللهُ تعالىٰ: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ قيل: كان أحدُهما ساقيَ المَلِكِ واسمُه فيما قيل بنو. والآخَرُ خبَّازَه - يعني الذي يَلِي طعامَه. وهو الذي يقولُ له التُّرْكُ: الجاشَنْكِيرُ - واسمُه فيما قيل مجلثُ. كان المَلِكُ قد اتَّهَمهما في بعضِ الأمورِ فسجَنهما، فلما رأَيا يوسفَ في السجنِ أعجَبهما سَمْتُه وهَدْيُه، ودَلُّه وطريقتُه، وقولُه وفعلُه، وكثرةُ عبادتِه ربَّه، وإحسانُه إلىٰ خَلْقه، فرأَىٰ كلٌّ واحدٍ منهما رؤيا تُناسبُه. قال أهلُ التفسيرِ: رأَيا في ليلةٍ واحدةٍ؛ أما الساقي فرأَىٰ كأنَّ ثلاثَ قُضْبانٍ من حَبْلةٍ قد أَورقَت، وأَينَعت عناقيدُ العنبِ، فأخذَها فاعتَصرَها في كأسِ المَلِكِ وسقاه. ورأَىٰ الخبازُ علىٰ رأسِه ثلاثَ سِلالٍ مِن خبزٍ، وضَواري الطيورِ تأكُلُ مِن السَّلِّ الأَعْلَىٰ. فقصَّاها عليه وطلبَا منه أَنْ يَعبُرَهما لهما، وقالا: ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فأخبرَهما أنه عليمٌ بتعبيرِهما خبيرٌ بأمرِهما و﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ قيل: معناه: مهما رأيتُما مِن حُلْمٍ فإني أَعْبُرُه لكما قبلَ وقوعِه، فيكونُ كما أقولُ. وقيل: معناه أني أُخبرُكم بما يأتيكما من الطعامِ قبلَ مجيئِه؛ حُلْوًا أو حامضًا، كما قال عيسىٰ عليه السلامُ: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران: ٤٩]. وقال لهما: إنَّ هذا مِن تعليمِ اللهِ إيايَ؛ لأَنِّي مؤمنٌ به موحدٌ له متَّبعٌ ملةَ آبائي الكرامِ؛

إبراهيمَ الخليلِ وإسحاقَ ويعقوبَ ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ أي؛ بأن هدانا لهذا ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ أي؛ بأن أمرَنا أن ندعوَهم إليه ونُرشدَهم وندُلَّهم عليه، وهو في فِطَرِهم مركوزٌ وفي جِبِلَّتِهم مغروزٌ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

ثم دعاهم إلى التوحيد، وذَمَّ عبادةَ ما سوى الله عز وجل، وصَغَّرَ أمرَ الأصنام وحقَّرها وضعَّفَ أمرَها، فقال: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ أي؛ هو المتصرفُ في خَلْقه الفعَّالُ لِمَا يريدُ، الذي يَهدي من يشاءُ ويُضِلُّ من يشاءُ ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ أي؛ وحدَه لا شريكَ له ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أي؛ المستقيمُ والصراطُ القويمُ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي؛ فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره. وكانت دعوتُه لهما في هذه الحال في غاية الكمال؛ لأنَّ نفوسَهما معظِّمةٌ له، مُنبَعِثةٌ على تَلَقِّي ما يقولُ بالقَبول، فناسَبَ أن يدعوَهما إلى ما هو الأنفعُ لهما مما سألا عنه وطَلَبا منه، ثم لمَّا قام بما وجَب عليه وأرشَدَ إلى ما أرشَدَ إليه قال: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ قالوا: وهو الساقي. ﴿ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ﴾ قالوا: وهو الخبازُ. ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ أي؛ وقَع هذا لا محالةَ، ووجَبَ كونُه على كلِّ حالةٍ. ولهذا جاء في الحديث[1] : «الرُّؤيا على رِجْلِ طائرٍ ما لم تُعبَّرْ، فإذا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ». وقد رُوِيَ عن ابنِ مسعودٍ[2] ، ومُجاهدٍ[3] ، وعبدِ الرحمنِ بنِ زيدِ بنِ أَسْلَمَ أنهما قالا: لم نَرَ شيئًا. فقال لهما: ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾.

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: ٤٢]. يخبرُ تعالى أن يوسفَ عليه السلامُ قال للذي ظنَّ أنه ناجٍ منهما وهو الساقي: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ يعني: اذكُرْ أمري وما أنا فيه من السجنِ بغيرِ جُرْمٍ عندَ الملِك. وفي هذا دليلٌ على جوازِ السَّعْيِ في الأسباب، ولا ينافي ذلك التوكلَ على ربِّ الأرباب. وقولُه: ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ أي؛ فأنسَى الناجيَ منهما الشيطانُ أن يذكُرَ ما وصَّاه به يوسفُ عليه السلامُ. قاله مُجاهدٌ[4] . ومحمدُ بنُ إسحاقَ[5] ، وغيرُ واحدٍ، وهو الصوابُ وهو منصوصُ أهلِ الكتابِ

---

(١) أسانيده ضعيفة: رواه أحمد (٤/ ١٠) والترمذي (٢٢٧٨) وقال: حسن صحيح وأبو داود (٥٠٢٠) وابن ماجه (٣٩١٤) كلهم من رواية يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن أبي رزين. ووكيع مجهول الحال. وقد حسن الحافظ هذا الإسناد في «الفتح» (١٢/ ٤٥٥)، وللحديث شاهد رواه الحاكم (٤/ ٣٩١) من رواية معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن أنس. ومعمر ضعيف في البصريين خاصة، وهذه منها.

(٢) صحيح بطرقه: رواه ابن أبي حاتم (١١٦٣١) من رواية عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن ابن مسعود وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه رواه ابن جرير (٧/ الجزء ١٢/ ٢٢١) بسند رجاله ثقات من رواية النخعي عنه والنخعي لم يسمع من ابن مسعود وصحح البيهقي مراسيله عن ابن مسعود خاصة انظر جامع التحصيل وقد روى ابن جرير بسند ضعيف الواسطة بينه وبين ابن مسعود وهو علقمة.

(٣) رواه ابن جرير (٧/ الجزء ١٢/ ٢٢١) من رواية ابن أبي نجيح عنه.

(٤) فيه ضعف: رواه ابن أبي حاتم (١١٦٤١) فيه: عنعنة محمد بن إسحاق.

(٥) ضعيف إليه: ابن جرير (٧/ ١٢/ ٢٢٤) فيه: ابن حميد.

﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ والبِضعُ؛ ما بينَ الثلاث إلى التسع. وقيل: إلى السبع. وقيل: إلى الخمس. وقيل: ما دون العشرة. حكاها الثَّعلبيُّ. ويقالُ: بِضْعُ نسوة، وبِضْعَةُ رجال. ومنع الفرَّاءُ استعمالَ البِضْع فيما دونَ العشر، قال: وإنما يقالُ: نَيِّفٌ. وقال اللهُ تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤]. وهذا ردٌّ لقوله. قال الفرَّاءُ: ويقالُ: بِضعةَ عشَرَ وبِضعةٌ وعشرون. إلى التسعين، ولا يقالُ: بِضعٌ ومائةٌ، وبِضعٌ وألفٌ. وخالفَ الجَوْهَريُّ فيما زاد على بِضعةَ عشَرَ، فمنَع أن يقالَ: بِضْعةٌ وعشرون. إلى تسعين، وفي «الصحيح»[1]: «الإيمانُ بِضْعٌ وستُّون». وفي روايةٍ[2]: «وسبعون شُعْبةً؛ أعلاها قولُ: لا إلهَ إلا اللهُ. وأدناها إماطةُ الأذَى عن الطريق».

ومن قال: إن الضميرَ في قوله ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائدٌ على يوسفَ. فقد ضَعُفَ ما قاله، وإن كان قد رُوي عن ابنِ عباسٍ[3] وعكرِمةَ. والحديثُ[4] الذي رواه ابنُ جَريرٍ في هذا الموضع ضعيفٌ من كلِّ وجهٍ؛ تفردَ بإسناده إبراهيمُ بنُ يزيدَ الخُوزيُّ المكيُّ، وهو متروكٌ، ومُرسَلُ الحسنِ وقَتادةَ[5] لا يُقبَلُ، ولا سيَّما ههنا بطريق الأَولَى والأَحْرَى. واللهُ أعلمُ. فأما قولُ ابنِ حِبَّانَ[6] في «صحيحه»: ذِكْرُ السببِ الذي من أجله لَبِثَ يوسفُ في السجنِ ما لَبِثَ؛ أخبرنا الفضلُ ابنُ الحُبَابِ الجُمَحيُّ، ثنا مُسَدَّدُ بنُ مُسَرْهَدٍ، ثنا خالدُ بنُ عبدِ الله، ثنا محمدُ بنُ عمرٍو، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي هُرَيرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «رَحِم اللهُ يوسفَ، لولا الكَلِمةُ التي قالها ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما لَبِثَ في السِّجنِ ما لَبِثَ، ورَحِمَ اللهُ لوطًا إنْ كان لَيَأْوِي إلى رُكْنٍ شديدٍ، إذْ قال لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]». قال: «فما بَعَثَ اللهُ نبيًّا بعدَه إلا في ثروةٍ من قومه». فإنه حديثٌ مُنكرٌ من هذا الوجه. ومحمدُ بنُ عمرِو بن عَلْقَمَةَ له أشياءُ يَنفرِدُ بها وفيها نَكارةٌ، وهذه اللَّفْظةُ من أنكرِها وأشدِّها. والذي في «الصحيحين» يَشهَدُ بغَلَطِها. واللهُ أعلمُ.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٩)، ومسلم بالشك ستين أو أربعين (١٥٢).
(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٥١).
(٣) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١١٦٤٣) بسند ضعيف فيه خصيف: ضعيف.
(٤) **ضعيف**: الطبري (٧/ ١٢/ ٢٢٣)، فيه: إبراهيم بن يزيد الخوزي: متروك.
(٥) **إسنادهما صحيح إليهما**: رواهما الطبري (٧/ ١٢/ ٢٢٣).
(٦) **فيه نكارة**: ابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠٢) وفيه محمد بن عمرو بن علقمة له مناكير وقد استنكر هذا الحديث الحافظ ابن كثير كما بينه والحديث في الصحيحين بلفظ: «لو لبثت ما لبث لأجبت الداعي».

﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣-٤٩]. هذا كلُّه من جملة أسبابِ خروجِ يوسفَ عليه السلامُ من السجنِ على وجهِ الاحترامِ والإكرامِ؛ وذلك أن مَلِكَ مصرَ -وهو الرَّيَّانُ بنُ الوليدِ بنِ ثروانَ بنِ أراشةَ بنِ فارانَ بنِ عمرِو بنِ عِمْلاقِ بنِ لاوذِ بنِ سامِ بنِ نوحٍ- رأى هذه الرؤيا. قال أهلُ الكتابِ: رأى كأنَّه على حافَّةِ نهرٍ، وكأنه قد خرج منه سبعُ بقراتٍ سمانٍ، فجعلْنَ يرتَعْنَ في روضةٍ هناك، فخرجت سبعٌ هزالٌ ضعافٌ من ذلك النهرِ فرتَعْنَ معهن، ثم ملْنَ عليهن فأكلْنَهن، فاستيقَظ مذعورًا، ثم نام فرأى سبعَ سنبلاتٍ خُضْرٍ في قَصَبَةٍ واحدةٍ، وإذا سبعٌ أُخَرُ دقاقٌ يابساتٌ تأكُلُهنَّ، فاستيقَظ مذعورًا، فلما قصَّها على مَلَإِه وقومه لم يكنْ فيهم مَن يُحسنُ تعبيرَها، بل ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أي؛ أخلاطُ أحلامٍ من الليلِ لعلَّها لا تعبيرَ لها، ومع هذا فلا خبرَةَ لنا بذلك. ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ فعندَ ذلك تذكَّرَ الناجي منهما، الذي وصَّاه يوسفُ بأَنْ يذكُرَه عندَ ربِّه، فنَسيَ إلى حينه هذا، وذلك عن تقديرِ اللهِ عز وجل، وله الحكمةُ في ذلك، فلما سمع رؤيا الملكِ ورأى عَجْزَ الناسِ عن تعبيرِها، تذكَّرَ أَمْرَ يوسفَ وما كان أوصاه به من التَّذْكارِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ﴾ أي تذكَّرَ ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي؛ بعدَ مُدَّةٍ من الزمانِ؛ وهو بِضْعُ سنين. وقرأ بعضُهم، كما حُكي عن ابنِ عباسٍ[1]، وعِكْرِمةَ[2]، والضحاك[3]: «وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمَهٍ» أي: بعدَ نسيانٍ. وقرأها مُجاهدٌ: «بَعْدَ أَمْهٍ» بإسكانِ الميمِ، وهو النسيانُ أيضًا، يقالُ: أَمِهَ الرجلُ يأْمَهُ أَمَهًا وأَمْهًا. إذا نَسيَ. قال الشاعرُ:

أَمِهْتُ وكنتُ لا أَنْسَى حديثًا   كذاك الدَّهرُ يُزْدي بالعقولِ

فقال لقومه وللملك: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ أي؛ فأرسلوني إلى يوسفَ. فجاءه فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. وعندَ أهلِ الكتابِ أن الملكَ لما ذكَره له الناجي استدعاه إلى حضرتِه، وقصَّ عليه ما رآه ففسَّره له. وهذا غَلَطٌ، والصوابُ ما قصَّه اللهُ في كتابه القرآنِ، لا ما عرَّبه هؤلاءِ الجهلةُ الثيرانُ من قَرَائِي وربَّانٍ. فبذَل يوسفُ عليه السلامُ ما عندَه من العلمِ بلا تأخرٍ ولا شرطٍ، ولا طلَبَ الخروجَ سريعًا، بل أجابهم إلى ما سألوا وعَبَّرَ لهم ماكان من منامِ الملكِ، الدَّالِّ على وقوعِ سبعِ سنينَ من الخِصْبِ، ويَعْقُبُها سبعٌ جُدْبٌ. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يعني

(١) **رجاله ثقات**: رواه ابن جرير (٧/ الجزء١٢/ ٢٢٨) بسند رجاله ثقات، من رواية قتادة، عن عكرمة عن ابن عباس.

(٢) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير نفس المصدر من طريقين عنه، من طريق قتادة عنه، وسنده صحيح ومن طريق أبي هارون الغنوي عنه، وهو إبراهيم بن العلاء مستقيم الحديث.

(٣) **ضعيف إليه**: رواه ابن جرير (٧/ الجزء١٢/ ٢٢٩) من طريقين عنه، كلاهما ضعيف الأول فيه: ابن حميد: والثاني: قال الطبري: حُدثت عن الحسين بن الفرج.

يأتيهم الغَيْثُ والخِصْبُ والرُّفاهيةُ ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ يعني ما كانوا يَعْصِرونه من الأقصابِ والأعنابِ والزَّيتونِ والسِّمْسِمِ، وغيرِها. فعَبَّر لهم وعلى الخيرِ دَلَّهم، وأرشدَهم إلى ما يَعتمدونه في حالَتَيْ خِصْبِهم وجَدْبِهم، وما يفعلونه من ادِّخارِ حبوبِ سِنِيِّ الخِصْبِ في السبعِ الأُوَلِ في سُنْبُلِه، إلا ما يُرْصَدُ بسببِ الأكلِ، ومن تقليلِ البَذْرِ في سِنِيِّ الجَدْبِ في السبعِ الثانيةِ؛ إذ الغالبُ على الظنِّ أنه لا يَرُدُّ البَذْرَ من الحقلِ، وهذا يدُلُّ على كمالِ العلمِ، وكمالِ الرأيِ والفَهمِ.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٠-٥٣]. لمَّا أحاط الملكُ علمًا بكمالِ علمِ يوسفَ عليه الصلاةُ والسلامُ، وتمامِ عقلِه ورأيِه السديدِ وفَهمِه، أمَر بإحضارِه إلى حضرتِه؛ ليكونَ من جملةِ خاصَّتِه، فلما جاءه الرسولُ بذلك، أحَبَّ ألا يَخرجَ حتى يَتبينَ لكلِّ أحدٍ أنه حُبِس ظلمًا وعُدوانًا، وأنه بريءُ الساحةِ مما نسَبوه إليه بُهتانًا ﴿ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ يعني الملكَ ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ قيل: معناه: أن سيدي العزيزَ يَعلَمُ براءتي مما نُسِب إليَّ. أي؛ فمُرِ الملكَ فلْيَسْأَلْهن كيف كان امتناعي الشديدُ عندَ مراودتِهنّ إيَّاي، وحَثِّهن لي على الأمرِ الذي ليس برشيدٍ ولا سديدٍ. فلما سُئِلْنَ عن ذلك اعتَرَفْنَ بما وقَع من خَطَأِ الأمرِ، وما كان منه من الأمرِ الحميدِ، و﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ فعندَ ذلك ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ ﴾ وهي زَلِيخَا ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ أي: ظهَر وتَبيَّنَ ووَضَح. والحقُّ أحَقُّ أن يُتَّبَعَ ﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي؛ فيما يقولُه من أنه بريءٌ وأنه لم يراوِدْني، وأنه حُبِس ظلمًا وعدوانًا وزورًا وبهتانًا.

وقولُه: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ قيل: إنه من كلامِ يوسفَ. أي: إنما طلبتُ تحقيقَ هذا؛ ليَعلَمَ العزيزُ أني لم أخُنْه بظهرِ الغيبِ. وقيل: إنه من تمامِ كلامِ زَلِيخَا. أي: إنما اعترفتُ بهذا ليَعلَمَ زوجي أني لم أخُنْه في نفسِ الأمرِ، وإنما كان مُراودةً لم يَقَعْ معها فعلُ فاحشةٍ. وهذا القولُ هو الذي نصَره طائفةٌ كثيرةٌ من أئمةِ المتأخرين وغيرِهم، ولم يَحْكِ ابنُ جريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ سوى الأولِ: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قيل: إنه من كلامِ يوسفَ. وقيل: من كلامِ زَلِيخَا. وهو مفَرَّعٌ على القولَيْن الأولَيْن. وكونُه من تمامِ كلامِ زَلِيخَا أظهَرُ وأنسَبُ وأقوى والله أعلمُ.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ

برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين (٥٦) ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [يوسف: ٥٤-٥٧]. لما ظهر للملك براءة عرضه، ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه قال: ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ أي؛ أجعله من خاصتي، ومن أكابر دولتي، ومن أعيان حاشيتي. فلما كلمه وسمع مقاله، وتبين حاله ﴿ قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ أي؛ ذو مكانة وأمانة ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهراء؛ لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضي سبع سني الخصب؛ لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه من الاحتياط لهم والرفق بهم، وأخبر الملك أنه ﴿ حفيظ ﴾ أي؛ قوي على حفظ ما لديه، أمين عليه، ﴿ عليم ﴾ بضبط الأشياء ومصالح الأهراء. وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة. وعند أهل الكتاب أن فرعون عظم يوسف عليه السلام جداً وسلطه على جميع أرض مصر، وألبسه خاتمه، وألبسه الحرير، وطوقه الذهب، وحمله على مركبه الثاني، ونودي بين يديه: أنت رب- أي؛ مالك- ومسلط. وقال له: لست أعظم منك إلا بالكرسي. قالوا: وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة، وزوجه امرأة عظيمة الشأن. وحكى الثعلبي أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف. وقيل: إنه لما مات زوجه امرأته زليخا فوجدها عذراء؛ لأن زوجها كان لا يأتي النساء، فولدت ليوسف عليه السلام رجلين؛ وهما أفرائيم ومنشا. قال: واستوثق ليوسف ملك مصر، وعمل فيهم بالعدل، فأحبه الرجال والنساء. وحكى أن يوسف كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثين سنة، وأن الملك خاطبه بسبعين لغة، وكل ذلك يجاوبه بكل لغة منها، فأعجبه ذلك مع حداثة سنه. فالله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ أي؛ بعد السجن والضيق والحصر صار مطلق الركاب بديار مصر. ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ أي؛ أين يشاء حل منها مكرماً محسوداً معظماً ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ أي؛ هذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن، مع ما يدخر له في آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل؛ ولهذا قال: ﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾. ويقال: إن أطفير زوج زليخا كان قد مات، فولاه الملك مكانه، وزوجه امرأته زليخا، فكان وزير صدق. وذكر محمد بن إسحاق أن صاحب مصر الوليد بن الريان، أسلم على يدي يوسف عليه السلام. فالله أعلم. وقد قال بعضهم:

وراء مضيق الخوف يتسع الأمن ... وأول مفروح به آخر الحزن

فلا تيأسن فالله ملك يوسفا ... خزائنه بعد الخلاص من السجن

﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون (٥٨) ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين (٥٩) فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون (٦٠) قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون (٦١) وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم

يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يوسف: ٥٨-٦٢]. يخبرُ تعالىٰ عن قُدوم إخوة يوسفَ عليه السلامُ إلى الديار المصرية يَمْتَارون طعامًا، وذلك بعدَ إتيانِ سِنيِّ الجدْبِ وعمومِها علىٰ سائرِ البلادِ والعباد. وكان يوسفُ عليه السلامُ، إذ ذاك، الحاكمَ في أمورِ الديارِ المصرية دينًا ودنيا، فلما دخلوا عليه عرَفَهم ولم يَعْرِفوه؛ لأنهم لم يَخْطُرْ ببالِهم ما صار إليه يوسفُ عليه السلامُ من المكانةِ والعظمة، فلهذا عرَفَهم وهم له مُنكِرون. وعندَ أهلِ الكتاب أنهم لما قَدِموا عليه سَجَدوا له فعرَفَهم، وأراد أن لا يَعرِفوه فأغْلَظَ لهم في القولِ وقال: أنتم جواسيسُ جئتُم لتأخذوا خبرَ بلادي. فقالوا: معاذَ الله، إنما جئنا نَمتارُ لقومنا من الجَهدِ والجوعِ الذي أصابنا، ونحن بنو أبٍ واحدٍ من كَنْعَانَ، ونحن اثنا عشرَ رجلاً، ذهب منا واحدٌ، وصغيرُنا عندَ أبينا. فقال: لا بدَّ أن أَستعلِمَ أَمْرَكم. وعندَهم أنه حبَسَهم ثلاثةَ أيام ثم أخرجَهم، واحتبَس شمعونَ عندَه؛ ليأتوه بالأخِ الآخَرِ. وفي بعضِ هذا نَظَرٌ. قال اللهُ تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي: أعطاهم من المِيرَةِ ما جرَتْ به عادتُه في إعطاءِ كلِّ إنسانٍ حِمْلَ بَعير، لا يَزيدُه عليه ﴿ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ وكان قد سألهم عن حالِهم وكم هم، فقالوا: كنا اثْنَيْ عشرَ رجلاً، فذهَب منا واحدٌ وبَقِيَ شقيقُه عندَ أبينا. فقال: إذا قَدِمتُم من العامِ المُقبِلِ فأْتُوني به معكم ﴿ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ أي؛ قد أحسنتُ نُزُلَكم وقِراكم. فرغَّبهم ليأتوه به، ثم رهَّبهم إنْ لم يأتوه به، قال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ ﴾ أي؛ فلستُ أُعطيكم مِيرةً ولا أُقَرِّبُكم بالكلية. عكس ما أَسْدَىٰ إليهم أولاً، فاجتَهد في إحضارِه معهم؛ ليَبُلَّ شوقَه منه بالترغيبِ والترهيب ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أي؛ سنَجتهِدُ في مجيئِه معنا، وإتيانِه إليك بكلِّ ممكنٍ ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي؛ وإنا لقادرون علىٰ تحصيلِه، ثم أمَر فِتْيانَه أن يَضعوا بضاعتَهم - وهي ما جاءوا به يتعوَّضون به عن المِيرَة - في أمتعتِهم من حيثُ لا يشعرون بها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾. قيل: أراد أن يَرُدُّوها إذا وجَدوها في بلادِهم. وقيل: خَشِي أن لا يكونَ عندَهم ما يَرْجِعون به مرةً ثانيةً. وقيل: تَذَمَّمَ أن يأخُذَ منهم عِوضًا عن المِيرَة. وقد اختلَف المفسرون في بضاعتِهم علىٰ أقوالٍ سيأتي ذكرُها. وعندَ أهلِ الكتابِ أنها كانت صُرَرًا من وَرِقٍ. وهو أَشْبَهُ. واللهُ أعلمُ.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ

(٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٦٣-٦٨].

يَذكرُ تعالىٰ ما كان من أمرِهم بعدَ رجوعهم إلىٰ أبيهم وقولِهم له: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ أي: بعد عامنا هذا إن لم تُرسلْ معنا أخانا، فإن أرسلتَه معنا لم يُمنَعْ منا ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ أي: أيَّ شيءٍ تريدُ وقد رُدَّتْ إلينا بضاعتُنا؟ ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أي؛ نمتارُ لهم ونأتيهم بما يُصلحُهم في سَنَتِهم ومَحْلِهم ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ ﴾ بسببِه ﴿ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ قال اللهُ تعالىٰ: ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أي: في مقابلةِ ذَهابِ ولده الآخَرِ. وكان يعقوبُ عليه السلامُ أَضَنَّ شيءٍ بولدِه بنيامينَ؛ لأنه كان يَشُمُّ فيه رائحةَ أخيه يوسفَ، ويَتَسلَّىٰ به عنه ويتعوَّضُ بسببِه منه؛ فلهذا قال: ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أي: إلا أن تُغْلَبوا كلُّكم عن الإتيانِ به ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أكَّد المواثِيقَ وقرَّر العهودَ، واحتَاط لنفسه في ولدِه، ولن يُغنيَ حذَرٌ من قَدَرٍ، ولولا حاجتُه وحاجةُ قومه إلىٰ الميرةِ لَمَا بعَثَ الولدَ العزيزَ، ولكنَّ الأقدارَ لها أحكامٌ، والربُّ تعالىٰ يُقدِّرُ ما يشاءُ، ويختارُ ما يريدُ، ويحكمُ ما يشاءُ، وهو الحكيمُ العليمُ. ثم أمَرهم أن لا يدخُلوا المدينةَ من بابٍ واحدٍ، ولكنْ لِيدخُلوا مِن أبوابٍ متفرقةٍ. قيل: أراد أن لا يُصيبهم أحدٌ بالعينِ؛ وذلك لأنهم كانوا أشكالاً حَسنةً، وصُوراً بديعةً. قاله ابنُ عباسٍ[1]، ومُجاهدٌ[2]، ومحمدُ بنُ كعبٍ[3]، وقَتادةُ[4]، والسُّدِّيّ[5]، والضحاكُ[6]. وقيل: أراد أن يَتفرَّقوا لعلهم يجدون خبراً ليوسفَ، أو يُحَدَّثون عنه بأيسرِ شيءٍ. قاله إبراهيمُ النَّخَعيُّ. والأولُ أظهرُ. ولهذا قال: ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾. وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. وعندَ أهلِ الكتابِ أنه بعَث معهم هديةً إلىٰ العزيزِ، مِن الفُستُقِ واللَّوزِ والصَّنَوْبَرِ والبُطْمِ والعَسَلِ، وأخذوا الدراهمَ الأُولَىٰ وعَرْضًا آخَرَ.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ

---

(١) **ضعيف جداً**: رواه ابن جرير (٨/ ١٣/ ١٣) وسنده ضعيف جداً، من رواية العوفي عنه.
(٢) **ضعيف إليه**: رواه ابن أبي حاتم (١١٧٦٧) وسنده ضعيف، من رواية ليث بن أبي سليم عنه.
(٣) **ضعيف إليه**: رواه ابن جرير (٨/ ١٣/ ١٣) وفيه أبو معشر ضعيف.
(٤) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (٨/ ١٣/ ١٣) بسند صحيح من رواية سعيد عنه ومن رواية معمر عنه.
(٥) **ضعيف إليه**: رواه ابن جرير (٨/ ١٣/ ١٣) بسند ضعيف فيه ابن وكيع.
(٦) **ضعيف إليه**: رواه ابن جرير (٨/ ١٣/ ١٣) من طريقين كلاهما ضعيف الأول فيه جويبر ضعيف، والثاني قال الطبري: حُدِّثت عن الحسين بن الفرج.

عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ [٦٩-٧٩].

يَذكُر تعالى ما كان مِن أمرِهم حينَ دخَلوا بأخيهم بنيامينَ على شقيقِه يوسفَ، وإيوائِه إليه وإخبارِه له سرًّا عنهم بأنه أخوه، وأَمْرِه بكَتْمِ ذلك عنهم، وسلاَّه عما كان منهم مِن الإساءةِ إليه، ثم احتال على أخذِه منهم، وتَرْكِه إياه عندَه دونَهم، فأمَر فِتْيانَه بوضْعِ سِقايَتِه ـ وهي التي كان يَشربُ بها ويَكيلُ بها للناسِ الطعامَ مِن عِزَّتِه ـ في متاعِ بنيامينَ، ثم أَعْلَمَهم بأنهم قد سرَقوا صُواعَ الملِك، ووعَدهم جَعَالةً على ردِّه حِمْلَ بعيرٍ، وضَمِنه المُنادي لهم، فأقبَلوا على مَن اتَّهَمَهم بذلك، فأنَّبوه وهَجَّنوه فيما قاله لهم و﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ يقولون: أنتم تعلمون منا خلافَ ما رميتمونا به من السَّرِقة ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾. وهذه كانت شريعتَهم، أنَّ السارقَ يُدْفَعُ إلى المسروقِ منه؛ ولهذا قالوا: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾. قال اللهُ تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ ليكونَ ذلك أبعدَ للتُّهمةِ وأَبلغَ في الحِيلة، ثم قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: لولا اعترافُهم بأنَّ جزاءَه مَن وُجِد في رَحْلِه فهو جزاؤُه، لَمَا كان يَقدرُ يوسفُ على أخذِه منهم في سياسةِ مَلِك مصرَ ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ أي؛ في العلمِ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وذلك لأن يوسفَ كان أَعلمَ منهم وأَتَمَّ رأيًا، وأقوى عزمًا وحزمًا، وإنما فعَل ذلك عن أمرِ اللهِ له في ذلك؛ لأنه يترتبُ على هذا الأمرِ مصلحةٌ عظيمةٌ بعدَ ذلك؛ مِن قُدومِ أبيه وقومِه عليه ووفودِهم إليه. فلما عايَنوا استخراجَ الصُّواعِ مِن حِمْلِ بنيامينَ ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ يعْنُون يوسفَ. قيل: كان قد سرَق صنمَ جَدِّه أبي أمِّه، فكسَره. وقيل: كانت عمَّتُه قد علَّقت عليه بينَ ثيابِه وهو صغيرٌ مِنْطَقةً كانت لإسحاقَ، ثم استخرجوها مِن بينِ ثيابِه، وهو لا يَشعُرُ بما صنعتْ، وإنما أرادت أن يكونَ عندَها وفي حضانتِها لمحبتِها له. وقيل: كان يأخذُ الطعامَ مِن البيتِ فيُطعِمُه الفقراءَ. وقيل غيرُ ذلك. فلهذا ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ وهي كلمتُه بعدَها. وقولُه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أجابهم سرًّا لا جهرًا، حِلْمًا وكرَمًا وصفحًا وعفوًا. فدخلوا معه في التَّرقُّقِ والتَّعطُّفِ، فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨)

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ أي: إن أطلقنا المتَّهمَ وأخذنا البريء، هذا ما لا نفعله ولا نسمَحُ به، وإنما نأخذُ مَن وجدنا متاعَنا عنده. وعندَ أهلِ الكتاب أن يوسفَ تعرَّفَ إليهم حينئذٍ. وهذا مما غَلِطوا فيه ولم يفهموه جيدًا.

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٠-٨٧]. يقول تعالى مخبرًا عنهم أنهم لمّا استيأسوا من أخذه منه خَلَصوا يتناجَوْن فيما بينهم ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ وهو روبيلُ ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ وقد أخلفتُم عهدَه وفرَّطتُم فيه كما فرَّطتُم في أخيه يوسفَ من قبله، فلم يَبْقَ لي وجهٌ أقابلُه به ﴿ وَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ ﴾ أي؛ لا أزالُ مقيمًا ههنا ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ في القُدوم عليه ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ بأن يُقدِّرَني على ردِّ أخي إلى أبي ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ أي؛ أخبروه بما رأيتُم من الأمر في ظاهر المشاهدة ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي؛ فإن هذا الذي أخبرناك به، من أخذهم أخانا لأنه سرَق، أمرٌ اشتَهر بمصرَ، وعلِمُه مع العيرِ التي كنا نحن وهم هناك ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي؛ ليس الأمرُ كما ذكرتم، لم يَسرِقْ فإنه ليس بسَجيَّةٍ له ولا خُلُقَه، وإنما سوَّلت لكم أنفسُكم أمرًا، فصبرٌ جميلٌ. قال ابنُ إسحاق[1] وغيرُه: لما كان التفريطُ منهم في بنيامينَ مترتبًا على صنيعهم في يوسفَ قال لهم ما قال. وهذا كما قال بعضُ السلف: إنَّ من جزاء السيئة السيئةَ بعدَها. ثم قال: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ يعني يوسفَ وبنيامينَ وروبيلَ ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ أي؛ بحالي وما أنا فيه من فراق الأحبَّة ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في جميع ما يُقدِّرُه ويفعلُه، وله الحكمةُ البالغةُ والحُجةُ القاطعةُ ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ أي؛ أعرضَ عن بنيه ﴿ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ ذكَّره حزنُه الجديدُ بالحزن القديم، وحرَّك ما كان كامنًا، كما قال بعضُهم:

نَقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شئتَ مِنَ الهوَى ... ما الحبُّ إلا للحبيبِ الأوَّلِ

(١) **فيه ضعف:** رواه ابن جرير (٨/ ٢٣/ ٣٨) بسند فيه ضعيف وهو حميد شيخ الطبري.

وقال آخر:

لقد لامني عند القبور على البكا ... رفيقي لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكي كل قبر رأيته ... لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك؟
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى ... فدعني فهذا كله قبر مالك

وقوله: ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ أي؛ من كثرة البكاء ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي؛ مُكمَدٌ من كثرة حزنه، وأسفه وشوقه إلىٰ يوسفَ. فلما رأىٰ بنوه ما يقاسيه من الوَحْدة وألم الفراق. قالوا له علىٰ وجه الرَّحمة له والرأفة به والحرص عليه: ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ يقولون: لا تزالُ تتذكرُه حتىٰ ينْحلَ جسدُك، وتَضعُفَ قوتُك، فلو رَفَقْتَ بنفسك كان أَوْلَىٰ بك ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ يقولُ لبنيه: لستُ أشكو إليكم ولا إلىٰ أحدٍ من الناس ما أنا فيه، إنما أشكوه إلىٰ الله عز وجل، وأعلمُ أن اللهَ سيجعلُ لي مما أنا فيه فرجًا ومخرجًا، وأعلمُ أن رؤيا يوسفَ لا بدَّ أن تقعَ، ولا بدَّ أن أسجدَ له أنا وأنتم حَسَبَ ما رأىٰ. ولهذا قال: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾. ثم قال لهم محرِّضًا علىٰ تطلُّبِ يوسفَ وأخيه، وأن يبحثوا عن أمرهما: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ أي؛ لا تيأسوا من الفرج بعدَ الشدة؛ فإنه لا ييأسُ من رَوْحِ الله وفرجه وما يقدِّره من المخرج في المضايق إلا القومُ الكافرون.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف: ٨٨-٩٣]. يخبرُ تعالىٰ عن رجوع إخوة يوسفَ إليه، وقُدومهم عليه، ورغبتهم فيما لديه من الميرة، والصَّدقة عليهم بردِّ أخيهم بنيامينَ إليهم ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ أي؛ من الجَدْب وضيق الحال وكثرة العيال ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ أي؛ ضعيفة لا يُقْبلُ مثلها منَّا إلا أنْ يُتَجاوزَ عنا. قيل: كانت دراهمَ رديئةً. وقيل: قليلةً. وقيل: حبَّ الصَّنَوْبَر وحَبَّ البُطْم ونحوَ ذلك. وعن ابن عباس[1]: كانت خَلَقَ الغَرائر والحبال ونحوَ ذلك ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا

---

(١) صحيح: ابن جرير (٨/ الجزء١٣/ ٥٠-٥١) وابن أبي حاتم (١١٩١٩) وعبد الرزاق (١٣٤٠) من رواية عثمان بن أبي سليمان عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ قيل: بقَبولِها. قاله السُّدِّيُّ[1]. وقيل: بردِّ أخينا إلينا. قاله ابنُ جُرَيْجٍ[2]. وقال سفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ[3]: إنما حُرِّمت الصدقةُ على نبيِّنا محمدٍ ﷺ. ونزَع بهذه الآية. رواه ابنُ جرير. فلما رأى ما هم فيه من الحالِ، وما جاءوا به مما لم يَبْقَ عندَهم سواه من ضعيفِ المالِ، تعرَّف إليهم وعطَف عليهم قائلاً لهم عن أمرِ ربِّه وربهم، وقد حسَر لهم عن جبينه الشريف، وما يَحْويه من الخالِ فيه الذي يعرفون منه: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا﴾ وتعجَّبوا كلَّ العجبِ، وقد تردَّدوا إليه مراراً عديدةً وهم لا يعرفون أنه هو ﴿أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ يعني: أنا يوسفُ الذي صنعتم معه ما صنعتم، وسلَف من أمركم فيه ما فرَّطتم. وقولُه: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ تأكيدٌ لمَا قال، وتنبيهٌ على ما كانوا أضمَروا لهما من الحسدِ، وأعملوا في أمرِهما من الاحتيالِ؛ ولهذا قال: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي؛ بإحسانه إلينا وصدقته علينا، وإيوائه لنا وشَدِّه معاقدَ عزِّنا؛ وذلك بما أسلفنا من طاعته، وصبْرِنا على ما كان منكم إلينا، وطاعتنا وبرِّنا لأبينا، ومحبته الشديدة لنا وشفقته علينا ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي؛ فضَّلك وأعطاك ما لم يُعطنا ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ أي؛ فيما أسدَيْنا إليك، وها نحن بينَ يديك ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي؛ لستُ أُعاتبكم على ما كان منكم بعدَ يومكم هذا، ثم زادهم على ذلك فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. ومن زعَم أن الوقفَ على قوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ وابتدأ بقوله: ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾. فقولُه ضعيفٌ، والصحيحُ الأولُ. ثم أمَرهم بأن يذهبوا بقميصه، وهو الذي يلي جسدَه، فيضعوه على عينَيْ أبيه، فإنه يرجعُ إليه بصرُه بعدما كان ذهَب بإذن الله. وهذا من خوارقِ العاداتِ ودلائلِ النُّبوَّاتِ وأكبرِ المعجزاتِ، ثم أمَرهم أن يتحمَّلوا بأهلِهم أجمعين إلى ديارِ مصرَ، إلى الخيرِ والدَّعَةِ، وجمعِ الشملِ بعدَ الفرقةِ، على أكملِ الوجوهِ وأعلى الأمورِ.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٤-٩٨]. قال عبدُ الرَّزَّاقِ[4]: أنبأنا إسرائيلُ، عن أبي سِنَانٍ، عن عبدِ الله بنِ أبي الهُذَيْلِ، سمعتُ ابنَ عباسٍ يقولُ: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾. قال: لما خرَجَت العيرُ هاجت ريحٌ، فجاءت يعقوبَ بريحِ قميصِ يوسفَ، فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾. قال: فوجد ريحَه من

(١) **ضعيف الإسناد:** رواه ابن جرير (٨/ الجزء ١٣/ ٥٣) بسند فيه ضعيف وهو ابن وكيع.
(٢) **ضعيف الإسناد:** رواه ابن جرير (٨/ الجزء ١٣/ ٥٤) فيه سنيد ضعيف.
(٣) **ضعيف الإسناد:** ابن جرير (٨/ الجزء ١٣/ ٥٠ - ٥١) بسند ضعيف قال القاسم: يُحكى عنه.
(٤) **سنده صحيح:** رواه عبد الرزاق (١٣٤٣) وابن جرير (٨/ ١٣/ ٥٨ - ٥٩).

مسيرة ثمانية أيام. وكذا رواه الثوريُّ وشعبةُ، وغيرُهما، عن أبي سنانٍ، به. وقال الحسنُ البصري[1] وابنُ جُريجٍ المكي[2] : كان بينهما مسيرةُ ثمانين فرسخًا، وكان له منذ فارقه ثمانون سنةً. وقولُه: ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي؛ تقولون: إنما قلتَ هذا من الفَنَد. وهو الخَرَفُ وكبرُ السنِّ. قال ابنُ عباسٍ، وعطاءٌ[3] ، ومُجاهدٌ[4] ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ[5] ، وقتادةُ[6] : ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ تُسفِّهون. وقال مُجاهدٌ[7] أيضًا والحسنُ: [8] تُهرِّمون. ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قال قتادةُ[9] والسُّديُّ[10] : قالوا له كلمةً غليظةً. قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي؛ بمجرَّد ما جاء ألقى القميصَ على وجه يعقوبَ، فرجع من فَوْره بصيرًا بعد ما كان ضريرًا، وقال لبنيه عندَ ذلك: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي؛ أعلمُ أن اللهَ سيَجمعُ شملي بيوسفَ، وستَقَرُّ عيني به، وسيُريني فيه ومنه ما يَسُرُّني. فعندَ ذلك ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ طلبوا إليه أن يستغفرَ لهم اللهَ عز وجل عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه، وما كانوا عزموا عليه. ولما كان من نيَّتهم التوبةُ قبلَ الفعلِ، وفَّقهم اللهُ للاستغفارِ عندَ وقوعِ ذلك منهم، فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا، وما عليه عوَّلوا قائلاً: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

قال ابنُ مسعودٍ[11] ، وإبراهيمُ التَّيميُّ[12] ، وعمرُو بنُ قيسٍ[13] ، وابنُ جُريجٍ[14] ، وغيرُهم: أرجأهم إلى وقتِ السَّحرِ. قال ابنُ جريرٍ[15] : حدثني أبو السائب، حدثنا ابنُ إدريسَ، سمعتُ عبدَ الرحمنِ بنَ إسحاقَ يَذكُرُ عن مُحاربِ بنِ دثارٍ قال: كان عمٌّ لي يأتي المسجدَ، فسمع إنسانًا يقولُ: اللهم دعَوتَني فأجبتُ، وأمرتَني فأطعتُ، وهذا السَّحَرُ فاغفرْ لي. قال: فاستمع الصوتَ، فإذا هو من دارِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ، فسأل عبدَ اللهِ عن ذلك فقال: إن يعقوبَ أخَّرَ بنيه إلى

---

(١) **حسن إليه**: ابن جرير (٨/ ١٣/ ٥٨ ـ ٥٩) من رواية سعيد عن قتادة عنه.
(٢) **ضعيف إليه**: ابن جرير (٨/ ١٣/ ٥٨ ـ ٥٩) وفيه سنيد ضعيف.
(٣) **صحيح إليه**: ابن جرير (٨/ ١٣/ ٥٨ ـ ٦٠) من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عنه.
(٤) **صحيح إليه**: ابن جرير (٨/ ١٣/ ٥٨ ـ ٥٩) من رواية خصيف وابن أبي نجيح عنه.
(٥) **سنده لا بأس به**: ابن جرير (٨/ ١٣/ ٥٨ ـ ٥٩) الحماني وهو يحيى متكلم فيه ويشهد له أثر ابن عباس فهو رواية عنه.
(٦) **صحيح إليه**: ابن جرير (٨/ ١٣/ ٥٨ ـ ٥٩) من رواية سعيد ومعمر عنه.
(٧) **صحيح إليه**: ابن جرير (٨/ ١٣/ ٥٨ ـ ٥٩) من رواية ابن أبي نجيح وأبي يحيى القتات عنه.
(٨) **صحيح إليه**: ابن جرير (٨/ ١٣/ ٥٨ ـ ٥٩) من رواية قتادة وأبي الأشهب وغيره عنه.
(٩) **حسن إليه**: ابن جرير (٨/ ١٣/ ٥٨ ـ ٥٩) من رواية سعيد عنه.
(١٠) **ضعيف إليه**: ابن جرير (٨/ ١٣/ ٥٨ ـ ٥٩) وفيه ابن وكيع.
(١١) **ضعيف إليه**: رواه ابن جرير (٨/ ١٣/ ٦٤) وفيه ابن وكيع والانقطاع بين محارب بن دثار وابن مسعود ورواه ابن أبي حاتم (١١٩٨٣) وفيه مبهم وهو الواسطة بين محارب وابن مسعود.
(١٢) **فيه ضعيف إليه**: رواه ابن جرير (٨/ ١٣/ ٦٤) وفيه ابن وكيع وضُعِّف بسبب الوراق.
(١٣) **صحيح إليه**: رواه ابن أبي حاتم (١١٩٨٤) وابن جرير (٨/ ١٣/ ٦٤) من رواية خلاد عنه.
(١٤) **ضعيف السند إليه**: ابن جرير (٨/ ١٣/ ٦٤) وفيه سنيد ضعيف.
(١٥) **فيه مبهم**: وهو عم محارب بن دثار سبق.

السَّحَر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ وقد قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]. وثبت في «الصَّحيحين» (١) عن رسول الله ﷺ قال: «يَنْزِلُ ربُّنا كلَّ ليلة إلى سماء الدُّنيا، فيقولُ: هل من تائب فأتوبَ عليه، هل من سائل فأعطيَه، هل من مستغفر فأغفرَ له». وقد ورد في حديث أن يعقوبَ أرجأ بنيه إلىٰ ليلة الجُمُعَة، قال ابنُ جرير (٢): حدَّثني المُثنَّى، ثنا سليمانُ بنُ عبدالرحمنِ بنِ أيوبَ الدمشقيُّ، حدثنا الوليدُ، أنبأنا ابنُ جُرَيْج، عن عطاءٍ وعكْرِمةَ، عن ابنِ عباسٍ، عن رسول الله ﷺ ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ يقول: «حتى تأتيَ ليلةُ الجمعة، وهو قولُ أخي يعقوبَ لبَنِيه». وهذا غريبٌ من هذا الوجه، وفي رفعه نظرٌ. والأشبهُ أن يكونَ موقوفًا (٣) علىٰ ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩٩-١٠١]. هذا إخبارٌ عن حال اجتماع المتحابَّين بعدَ الفُرقة الطويلة التي قيل: إنها ثمانون سنةً. وقيل: ثلاثٌ وثمانون سنةً. وهما روايتان عن الحسنِ (٤). وقيل: خمسٌ وثلاثون سنةً. قاله قتادةُ (٥). وقال محمدُ بنُ إسحاقَ (٦): ذكروا أنه غاب عنه ثمانيَ عشرةَ سنةً. قال: وأهلُ الكتاب يزعُمون أنه غاب عنه أربعين سنةً. وظاهرُ سياقِ القصَّة يرشدُ إلىٰ تحديد المدة تقريبًا؛ فإن المرأةَ راوَدته وهو شابٌّ ابنُ سبعَ عشرةَ سنةً فيما قاله غيرُ واحدٍ، فامتنَع فكان في السجنِ بضعَ سنين، وهي سبعٌ عندَ عكْرِمةَ (٧) وغيرِه، ثم أُخرج فكانت سنواتُ الخِصْبِ السبعُ، ثم لما أَمْحلَ الناسُ في السبع البواقي جاء إخوتُه يَمتارون في السنة الأولىٰ وحدَهم، وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامينُ، وفي الثالثة تَعَرَّفَ إليهم، وأمَرَهم بإحضارِ أهلِهم أجمعين، فجاءوا كلُّهم. ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ اجتَمع بهما خصوصًا وحدَهما دونَ إخـوتِه ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾. قيل: هذا من المقَدَّمِ والمُؤخَّرِ، تقديرُه: قال ادخلوا مصرَ، وآوَىٰ إليه أبوَيْه. وضعَّفه ابنُ جريرٍ، وهو معذورٌ. وقيل: بل تلقَّاهما وآواهما في

---

(١) **متفق عليه**: البخاري (١١٤٥)، مسلم (١٧٦٩).

(٢) ابن جرير في «التفسير» (٨/ الجزء١٣/ ٦٥) من رواية المثنى ولم أجد له ترجمة ولكن تابعه أحمد بن الحسن الترمذي. ثقة. والسند حسن إلا لم يكن من أخطاء سليمان بن عبد الرحمن.

(٣) **لم أقف عليه مرفوعًا**: في أي وجه. ولكن ثبت عن ابن عباس موقوفًا عليه: «أنه أخرهم إلى السحر» ولو كان عنده غير ذلك مرفوعًا ما تعداه. والله أعلم.

(٤) **صحيح إليه**: رواهما ابن جرير (٨/ ١٣/ ٧٠) من طرق عنه.

(٥) **حسن إليه**: رواه ابن أبي حاتم (١١٩٩٩) من رواية سعيد عنه.

(٦) **ضعيف الإسناد**: ابن جرير (٨/ ١٣/ ٧٠) بسند ضعيف فيه ابن حميد.

(٧) **ضعيف الإسناد**: رواه ابن جرير بسند ضعيف فيه ابن وكيع (٧/ ١٢/ ٢١٣).

منزل الخيام، ثم لما اقتربوا من باب مصر قال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ قاله السُّدِّيُّ[١] ولو قيل: إن الأمرَ لا يَحتاجُ إلى هذا أيضًا، وأنه ضُمِّنَ قولُه: ﴿ادْخُلُوا﴾ معنى: اسكنوا مصرَ وأقيموا بها ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، لكان صحيحًا مَليحًا أيضًا.

وعندَ أهلِ الكتابِ أن يعقوبَ لما وصلَ إلى أرضِ جاشرَ؛ وهي أرضُ بُلْبَيْسَ، خرجَ يوسفُ لتلقِّيه، وكان يعقوبُ قد بعَث ابنَه يهوذا بينَ يديه مبشرًا بقُدومه. وعندَهم أن الملكَ أطلَق لهم أرضَ جاشرَ، يكونون فيها ويقيمون بها، بنَعَمهم ومواشيهم. وقد ذكَر جماعةٌ من المفسرين أنه لما أَزِفَ قُدومُ نبيِّ الله يعقوبَ، وهو إسرائيلُ، أراد يوسفُ أن يَخرُجَ لتلقِّيه، فركب معه الملكُ وجنودُه؛ خدمةً ليوسفَ وتعظيمًا لنبيِّ الله إسرائيلَ، وأنه دعا للملك، وأن اللهَ رَفَع عن أهلِ مصرَ بقيةَ سِنِي الجَدْبِ ببركة قُدومه إليهم. فاللهُ أعلمُ. وكان جملةُ مَن قَدِم مع يعقوبَ من بنيه وأولادهم - فيما قاله أبو إسحاقَ السَّبِيعيُّ، عن أبي عبيدةَ، عن ابن مسعود[٢] - ثلاثةً وستين إنسانًا. وقال موسى بنُ عُبَيْدَةَ، عن محمد بن كعبٍ، عن عبد الله بن شَدَّاد[٣]: كانوا ثلاثةً وثمانين إنسانًا. وقال أبو إسحاقَ، عن مسروق[٤]: دخلوا وهم ثلاثُمائةٍ وتسعون إنسانًا. قالوا: وخرجوا مع موسى وهم أزيَدُ من ستِّمائة ألف مقاتلٍ. وفي نصِّ أهلِ الكتاب أنهم كانوا سبعين نَفْسًا، وسمَّوْهم.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قيل: كانت أمُّه قد ماتت، كما هو عندَ علماء التوراة. قال بعضُ المفسرين: فأحياها اللهُ تعالى. وقال آخرون: بل كانت خالتَه ليا، والخالةُ بمنزلة الأمِّ. وقال ابنُ جريرٍ وآخرون: بل ظاهرُ القرآنِ يقتضي بقاءَ حياة أمِّه إلى يومئذٍ، فلا يُعوَّلُ على نقلِ أهلِ الكتاب فيما خالفه. وهذا قويٌّ. واللهُ أعلمُ. ورفَعهما على العرش، أي؛ أجلَسهما معه على سريره ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي؛ سجَد له الأبوان والإخوةُ الأحدَ عشرَ؛ تعظيمًا وتكريمًا. وكان هذا مشروعًا لهم، ولم يَزَلْ ذلك معمولاً به في سائرِ الشرائع حتى حُرِّم في مِلَّتنا. ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ أي؛ هذا تعبيرُ ما كنتُ قصَصْتُه عليك؛ من رؤيتي الأحدَ عشرَ كوكبًا والشمسَ والقمرَ، حينَ رأيتُهم لي ساجدين، وأمَرتَني بكتمانها، ووعَدتَني ما وعَدتَني عندَ ذلك ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ أي؛ بعدَ الهمِّ والضِّيقِ جعلني حاكمًا نافذَ الكلمة في الدِّيار المصرية حيث شئتُ ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أي؛ البادية. وكانوا يسكنون أرضَ العَرَبَات من بلاد الخليل ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي؛ فيما كان منهم إليه من الأمرِ الذي تقدَّم وسبَق ذكرُه، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أي؛ إذا أراد شيئًا هيَّأ أسبابه ويسَّرها وسهَّلها من وجوهٍ لا يَهتدي إليها العبادُ، بل يُقدِّرُها ويُيسِّرُها بلطيفِ صُنعه وعظيمِ قدرته ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أي؛ بجميع الأمور ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وشرعه وقَدَره.

(١) **ضعيف الإسناد:** رواه ابن جرير بسند فيه ابن وكيع (٧/ ١٢/ ٢٠٠).

(٢) **ضعيف إليه:** رواه ابن جرير (٨/ ١٣/ ٧٢) وابن أبي حاتم (١١٩٥٧) وفيه انقطاع بين أبي عبيدة وأبيه.

(٣) **ضعيف إليه:** رواه ابن جرير (٨/ ١٣/ ٧٢) وفيه ابن وكيع وموسى بن عبيدة الربذي ضعيفان.

(٤) **فيه ضعف إليه:** رواه ابن جرير (٨/ ١٣/ ٧٢) وفيه ابن وكيع.

وعندَ أهلِ الكتابِ أن يوسفَ باعَ أهلَ مصرَ وغيرَهم، من الطعامِ الذي كانَ تحتَ يدِه بأموالِهم كلِّها؛ من الذهبِ والفضةِ والعَقَارِ والأثاثِ وما يَملكونه كلَّه، حتىٰ باعهم بأنفسِهم فصاروا أرِقَّاءَ، ثم أطلَقَ لهم أرضَهم وأعتقَ رقابَهم، علىٰ أن يَعمَلوا ويكونَ خُمْسُ ما يشتغلون مِن زرعِهم وثمارِهم للمَلِك، فصارت سُنَّةَ أهلِ مصرَ بعدَه. وحكَىٰ الثَّعلبيُّ أنه كان لا يَشبعُ في تلك السنين حتىٰ لا يَنسَىٰ الجيعانَ، وأنه إنما كان يأكلُ أكْلَةً واحدةً نصفَ النهارِ، قال: فمِنْ ثَمَّ اقتدَىٰ به الملوكُ الأخيارُ في ذلك. قلتُ: وقد كان أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطابِ رضي اللهُ عنه لا يشبَعُ بطنُه عامَ الرَّمَادَةِ حتىٰ ذهَبَ الجَدْبُ وأتَىٰ الخِصْبُ. قال الشافعيُّ: قال رجلٌ من الأعرابِ لعُمَرَ بعدما ذهَبَ عامُ الرَّمَادة: لقد انجَلَتْ عنك وإنك لابنُ حُرَّةٍ. ثم لَمَّا رأىٰ يوسفُ عليه السلامُ نعمتَه قد تَمَّت وشملَه قد اجتَمع، عرَفَ أنَّ هذه الدارَ لا يَقرُّ بها مِن قَرارٍ، وأن كلَّ شيءٍ فيها ومَن عليها فانٍ، وما بعدَ التمامِ إلا النقصانُ، فعندَ ذلك أثنىٰ علىٰ ربِّه بما هو أهلُه، واعترَفَ له بعظيمِ إحسانه وفضله، وسأل منه، وهو خيرُ المسئولين، أن يَتوفَّاه - أي حينَ يَتوفَّاه - علىٰ الإسلامِ، وأن يُلحِقَه بعبادِه الصالحين. وهذا كما يقالُ في الدعاء: اللهم أحْيِنا مسلمين وتَوفَّنا مسلمين[1]. أي حينَ تَتوفَّانا. ويَحتملُ أنه سأل ذلك عندَ احتضارِه عليه السلامُ، كما سأل النبيُّ ﷺ عندَ احتضارِه أن يَرْفَعَ رُوحَه إلىٰ الملأ الأعلىٰ، والرُّفَقَاء الصالحين من النبيين والمرسلين، كما قال: **«اللهمَّ في الرَّفيقِ الأعْلَىٰ»**[2]. ثلاثًا، ثم قَضَىٰ. ويَحتملُ أن يوسفَ عليه السلامُ سأل الوفاةَ علىٰ الإسلامِ، مُنَجزًا في صحةٍ منه وسلامةٍ، وأن ذلك كان سائغًا في مِلَّتِهم وشرْعَتِهم، كما رُوِي عن ابنِ عباسٍ[3] أنه قال: ما تمنَّىٰ نبيٌّ قطُّ الموتَ قبلَ يوسفَ. فأما في شريعتنا، فقد نُهِيَ عن الدعاءِ بالموتِ إلا عندَ الفتنِ، كما في حديثِ مُعاذٍ، في الدعاءِ الذي رواه أحمدُ[4]: **«وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً، فتوفَّنا إليك غيرَ مَفْتونين»**. وفي الحديثِ الآخرِ: **«ابنَ آدمَ، الموتُ خيرٌ لك من الفتنة»**[5]. وقالتْ مريمُ عليها السلامُ: ﴿**قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا**﴾ [مريم: ٢٣]. وتمنَّىٰ الموتَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ لَمَّا تفاقَمت الأمورُ وعظُمَت الفتنُ، واشتدَّ القتالُ وكَثُر القيلُ والقالُ. وتمنَّىٰ ذلك البخاريُّ أبو عبدِ الله صاحبُ «الصحيح» لَمَّا اشتَدَّ عليه الحالُ ولَقِيَ مِن مُخالِفيه الأهوالَ. فأما في حالِ الرفاهيةِ، فقد روَىٰ البخاريُّ ومسلمٌ في «صحيحَيْهما»[6]، مِن

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٤٢٤) والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٩) وصححه الشيخ ناصر الألباني عليه رحمة اللّه «صحيح الأدب». كلاهما من طريق مروان بن معاوية الفزاري عن عبد الواحد بن أيمن المكي عن عبيد اللّه بن عبد اللّه الزرقي عن أبيه.

(٢) متفق عليه: البخاري (٤٤٣٦)، مسلم (٦٢٤٧).

(٣) منقطع: رواه ابن جرير (٨/ الجزء ١٣/ ٧٣) من ثلاث طرق عن ابن عباس كلها منقطعة من رواية السدي عنه ومن رواية قتادة عنه ومن رواية ابن جريج عنه ورواه أيضًا ابن أبي حاتم (١٢٠١١ - ١٢٠١٢) من طريق قتادة والسدي عنه.

(٤) حسن: رواه أحمد (٥/ ٢٤٣) وصححه البخاري. قال الترمذي: سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح. «السنن» (٥/ ٣٦٩/ح/ ٣٢٣٥) قال الدارقطني في «العلل» (٦/ ٥٦/ح/ ٩٧٣) في كلامه على الخلاف في إسناده وطرقه: وروى هذا الحديث يحيى بن أبي كثير فحفظ إسناده يعني هذا الطريق. قلت: وهذه اللفظة «غير مفتونين» لها شاهد وهو الحديث السابق رقم (١).

(٥) حسن: رواه أحمد (٥/ ٤٢٧) بلفظ: «اثنتان يكرههما ابن آدم الموت والموت خير للمؤمن من الفتنة...» من رواية عمرو بن أبي عمرو عن عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد رضي اللّه عنه وسنده حسن. ورواه أيضًا البغوي في «شرح السنة» (٣٩٦١).

(٦) متفق عليه: البخاري (٥٦٧١) ومسلم (٦٧٥٥) من رواية أنس والبخاري (٥٦٧٣) من رواية أبي هريرة.

حديث أنس بن مالك، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا يتمنَّى أحدُكم الموتَ لضُرٍّ نزَل به، إمَّا مُحسنًا فيَزدادُ، وإمَّا مُسيئًا فلعلَّه يَستعْتِبُ، ولكنْ ليقُلْ: اللهم أحْيِني ما كانت الحياةُ خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاةُ خيرًا لي**». والمرادُ بالضُّرِّ ههنا: ما يَخُصُّ العبدَ في بدنِه؛ من مرضٍ ونحوِه، لا في دينِه. والظاهرُ أن نبيَّ اللهِ يوسفَ عليه السلامُ سأل ذلك، إمّا عندَ احتضارِه، أو إذا كان ذلك يكونُ كذلك.

وقد ذكَر ابنُ إسحاقَ عن أهلِ الكتاب، أن يعقوبَ أقام بديارِ مصرَ عندَ يوسفَ سبعَ عشرةَ سنةً، ثم تُوُفِّيَ عليه السلامُ، وكان قد أوصَىٰ إلىٰ يوسفَ عليه السلامُ أنْ يُدْفَنَ عندَ أبوَيْه إبراهيمَ وإسحاقَ. قال السُّدِّيُّ: فصَبَره وسيَّره إلىٰ بلادِ الشام، فدفَنه بالمغارةِ عندَ أبيه إسحاقَ وجَدِّه الخليلِ عليهم السلامُ. وعندَ أهلِ الكتابِ أن عُمُرَ يعقوبَ، يومَ دخَل مصرَ، مائةٌ وثلاثون سنةً. وعندَهم أنه أقام بأرضِ مصرَ سبعَ عشرةَ سنةً، ومع هذا قالوا: فكان جميعُ عمرِه مائةً وأربعين سنةً. هذا نصُّ كتابِهم، وهو غلَطٌ؛ إما في النُّسخة، أو منهم، أو قد أسقَطوا الكَسْرَ، وليس بعادتِهم فيما هو أكثرُ من هذا، فكيف يستعملون هذه الطريقةَ ههنا؟!

وقد قال اللهُ تعالى في كتابِه العزيز: ﴿**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٣]. فوصىٰ بنيه بالإخلاصِ، وهو دينُ الإسلامِ، الذي بعَث اللهُ به الأنبياءَ عليهم السلامُ. وقد ذكَر أهلُ الكتابِ أنه أوصَىٰ بَنِيه واحدًا واحدًا، وأخبرَهم بما يكونُ من أمرِهم، وبشَّر يهوذا بخروجِ نبيٍّ عظيمٍ من نَسْلِه تُطيعُه الشُّعوبُ، وهو عيسىٰ ابنُ مريمَ. واللهُ أعلمُ.

وذكَروا أنه لما مات يعقوبُ بكَىٰ عليه أهلُ مصرَ سبعين يومًا، وأمَر يوسفُ الأطباءَ فطيَّبوه بطِيبٍ، ومكَث فيه أربعين يومًا، ثم استأذَن يوسفُ مَلِكَ مصرَ في الخروجِ مع أبيه ليَدفنَه عندَ أهلِه، فأَذِن له، وخرَج معه أكابرُ مصرَ وشيوخُها، فلما وصلوا حبرونَ، دفنوه في المغارةِ التي كان اشتراها إبراهيمُ الخليلُ من عفرونَ بنِ صخرٍ الحِيثيِّ، فدفنوه فيها وعملوا له عَزاءً سبعةَ أيامٍ. قالوا: ثم رجعوا إلىٰ بلادِهم، وعزَّىٰ إخوةُ يوسفَ ليوسفَ في أبيهم وترقَّقوا له، فأكرمهم وأحسنَ مُنقَلَبَهم، فأقاموا ببلادِ مصرَ، ثم حضرَت يوسفَ عليه السلامُ الوفاةُ، فأوصَىٰ أن يُحملَ معهم إذا خرجوا من مصرَ، فيُدفَنَ عندَ آبائه، فحنَّطُوه ووضَعوه في تابوتٍ فكان بمصرَ حتىٰ أخرَجه معه موسىٰ عليه السلامُ، فدفَنه عندَ آبائه كما سيأتي. قالوا: فمات وهو ابنُ مائةِ سنةٍ وعشرِ سنين. هذا نصُّهم فيما رأيتُه، وفيما حكاه ابنُ جريرٍ أيضًا. وقال مُباركُ بنُ فَضَالةَ[1]، عن الحسنِ: أُلقِيَ يوسفُ في الجُبِّ وهو ابنُ سبعَ عشرةَ سنةً، وغاب عن أبيه ثمانين سنةً، وعاش بعدَ ذلك ثلاثًا وعشرين سنةً، ومات وهو ابنُ مائةِ سنةٍ وعشرين سنةً. وقال غيرُه: أوصَىٰ إلىٰ أخيه يهوذا. صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعلىٰ الأنبياءِ أجمعين.

---

(١) صحيح: ابن جرير (٨/ ١٣/ ٧١) وهذا السند ضعيف لكن الأثر صحيح تابع مبارك يونس وهشام نفس المصدر وعند ابن أبي حاتم (١٢٠٠١).

قصة نبي الله أيوب عليه السلام

قال ابنُ إسحاق(١) :كان رجلاً من الرُّوم، وهو أيوبُ بنُ مُوص بن رزَاح بن العيص بن إسحاقَ ابن إبراهيمَ الخليل. وقال غيرُه: هو أيوبُ بنُ مُوص بن رغويلَ بن العيص بن إسحاقَ بن يعقوبَ. وقيل غيرُ ذلك في نَسَبِه. وحكَىٰ ابن عساكر (٢) أنَّ أمَّه بنتُ لوط عليه السلامُ. وقيل: كان أبوه ممَّن آمَن بإبراهيمَ عليه السلامُ يومَ أُلقيَ في النار فلم تَحرِقْه. والمشهورُ الأوَّلُ؛ لأنه من ذرية إبراهيمَ، كما قرَّرنا عندَ قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ الآيات [الأنعام: ٨٤]. من أن الصحيحَ أن الضميرَ عائدٌ علىٰ إبراهيمَ دونَ نوح عليهما السلامُ، وهو من الأنبياء المنصوص علىٰ الإيحاء إليهم في سورة «النساء» في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ﴾ [النساء: ١٦٣] الآية. فالصحيحُ أنه من سلالة العيص بن إسحاقَ. وامرأتُه قيل: اسمُها ليا بنتُ يعقوبَ. وقيل: رحمةُ بنتُ أفرائيمَ بن يوسفَ بن يعقوبَ. وهذا أشهر، فلهذا ذكرناه ههنا، ثم نَعطفُ بذكر أنبياء بني إسرائيلَ بعدَ ذكر قصته إن شاء الله، وبه الثقةُ وعليه التُّكْلانُ.

قال اللهُ تعالىٰ:﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤]. وقال تعالىٰ في سورة «ص»: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤١-٤٤]. وروَىٰ ابنُ عساكرَ (٣) من طريق الكَلْبيِّ، أنه قال: أولُ نبيٍّ بُعث إدريسُ، ثم نوحٌ، ثم إبراهيمُ، ثم إسماعيلُ، ثم إسحاقُ، ثم يعقوبُ، ثم يوسفُ، ثم لوطٌ، ثم هودٌ، ثم صالحٌ، ثم شُعَيبٌ، ثم موسىٰ وهارونُ، ثم إلياسُ، ثم اليسَعُ، ثم عرفي بنُ سويلخ بن أفرائيمَ بن يوسفَ بن يعقوبَ، ثم يونسُ بنُ متَّىٰ من بني يعقوبَ، ثم أيوبُ بنُ رَزَاح بن آموص بن ليفرز بن العيص بن إسحاقَ بن إبراهيمَ. وفي بعض هذا الترتيب نَظَرٌ، فإن هودًا وصالحًا المشهورُ أنَّهما بعدَ نوح وقبلَ إبراهيمَ. واللهُ أعلمُ.

قال علماءُ التفسير والتاريخ وغيرُهم:كان أيوبُ رجلاً كثيرَ المال، من سائر صنوفه وأنواعه؛ من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض البَثْنِيَّة من أرض حُورَانَ. وحكَىٰ ابنُ عساكر (٤) أنها كلَّها كانت له، وكان له أولادٌ وأهلون كثيرٌ، فسُلب من ذلك جميعه، وابْتُليَ في جسده بأنواع

---

(١) **ضعيف الإسناد**يرويه عن وهب وسنده ضعيف فيه ابن حميد رواه ابن جرير (١٠/ ١٧/ ٦٥).

(٢) «تاريخ دمشق» (١٠/ ٥٨).

(٣) **ضعيف**:«تاريخ» (١٠/ ٥٨) وفيه الكلبي أخباري ولكنه متروك الحديث وفي السند ابنه هشام متكلم فيه.

(٤) نفس المصدر.

البلاءِ، ولم يَبْقَ منه عضوٌ سليمٌ سوىٰ قلبِه ولسانِه، يَذكُرُ اللهَ عز وجل بهما، وهو في ذلك كلِّه صابرٌ محتسبٌ ذاكرٌ لله عز وجل في ليله ونهاره، وصباحه ومَسائه. وطال مرضُه حتىٰ عافَه الجليسُ، وأَوْحَش منه الأنيسُ، وأُخرِج من بلده، وأُلقِي علىٰ مَزْبَلةٍ خارجَها، وانقطَع عنه الناسُ، ولم يَبْقَ أحدٌ يَحنُو عليه سوىٰ زوجتِه، كانت تَرْعَىٰ له حقَّه وتَعرِفُ قديمَ إحسانِه إليها وشفقتِه عليها، فكانت تَتردَّدُ إليه، فتُصلِحُ من شأنِه، وتُعينُه علىٰ قضاءِ حاجتِه، وتقومُ بمصلحتِه، وضَعُف حالُها، وقلَّ مالُها، حتىٰ كانت تَخدُمُ الناسَ بالأجرِ؛ لتُطعِمَه وتقومَ بأَوَدِه، رضي اللهُ عنها وأرضاها، وهي صابرةٌ معه علىٰ ما حَلَّ بهما من فراقِ المالِ والولدِ، وما يَختصُّ بها من المصيبةِ بالزوجِ، وضيقِ ذاتِ اليدِ، وخدمةِ الناسِ، بعدَ السعادةِ والنعمةِ والخدمةِ والحُرْمةِ، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد ثبت في «الصحيح»[1] أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أشدُّ الناسِ بَلاءً الأنبياءُ ثم الصالحون ثم الأمثلُ فالأمثلُ؛ يُبتَلَى الرجلُ على حَسَبِ دينه، فإنْ كان في دينه صلابةٌ زِيدَ في بلائه**». ولم يزِدْ هذا كلُّه أيوبَ عليه السلامُ إلا صبرًا واحتسابًا وحَمدًا وشكرًا، حتىٰ إن المَثَلَ لَيُضرَبُ بصبرِه عليه السلامُ، ويُضْرَبُ المَثَلُ أيضًا بما حصَل له من أنواعِ البَلايَا. وقد رُوي عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ[2] وغيرِه من علماءِ بني إسرائيلَ، في قصةِ أيوبَ، خبرٌ طويلٌ في كيفيةِ ذَهابِ مالِه وولدِه وبلائه في جسدِه، واللهُ أعلمُ بصحتِه. وعن مُجاهدٍ أنه قال: كان أيوبُ عليه السلامُ أولَ من أصابه الجُدَرِيُّ. وقد اختلفوا في مدةِ بَلْواه علىٰ أقوالٍ؛ فزعَم وَهْبٌ أنه ابْتُلِيَ ثلاثَ سنينَ لا تَزيدُ ولا تَنْقُصُ. وقال أنسٌ: ابتُلِيَ سبعَ سنين وأشهرًا، وأُلقِيَ علىٰ مَزْبَلةٍ لبني إسرائيلَ، تختلفُ الدَّوابُّ في جسدِه، حتىٰ فرَّج اللهُ عنه، وعظَّم له الأجرَ، وأحسنَ الثناءَ عليه. وقال حُميدٌ[3]: مكَث في بَلْواه ثمانيَ عشرةَ سنةً. وقال السُّدِّيُّ[4]: تَساقَط لحمُه حتىٰ لم يَبْقَ إلا العظمُ والعَصَبُ، فكانت امرأتُه تأتيه بالرمادِ تَفرِشُهُ تحتَهُ، فلمَّا طالَ عليها قالتْ: يا أيوبُ، لو دعوتَ ربَّكَ لَفَرَّجَ عنك. فقال: قد عشْتُ سبعينَ سنةً صحيحًا، فهو قليلٌ للَّه أن أصبرَ له سبعينَ سنةً. فجَزِعتْ من هذا الكلام.

وكانتْ تَخْدُمُ الناسَ بالأجْرِ، وتُطعِمُ أيوبَ عليه السلامُ، ثم إنَّ الناسَ لم يكونوا يستخدمونها لعلمِهم أنها امرأةُ أيوبَ، خوفًا أن ينالَهم من بلائه أو تُعْدِيَهم بمخالطته، فلمَّا لم تجدْ أحدًا يستخدِمُها عمدَتْ فباعَتْ لبعضِ بناتِ الأشرافِ إحدىٰ ضَفَيرَتَيْها بطعامٍ طيبٍ كثيرٍ، فأتَتْ به أيوبَ، فقال: من أين لكِ هذا؟ وأنكره، فقالتْ: خدمتُ به أناسًا. فلمَّا كان الغدُ لم تجد أحدًا فباعتْ الضفيرةَ الأخرىٰ

---

(١) **حسن**: رواه أحمد (١/ ١٧٢) والترمذي (٢٣٩٨) والنسائي (الكبرى) (٧٤٨١) وابن ماجه (٤٠٢٣) كلهم من رواية عاصم بن أبي النجود عن مصعب بن سعد عن أبيه وهذا سند حسن: وللحديث شواهد من رواية أبي سعيد رواها ابن ماجه (٤٠٢٤) والبخاري في «الأدب» (٥١٠) ومن رواية فاطمة بنت حذيفة رواه النسائي «الكبرى» (٧٤٨٢).

(٢) **حسن إليه**: رواه ابن جرير (١٠/ ٥٧١٧) من رواية عبد الصمد بن معقل عنه.

(٣) «تاريخ دمشق» (١٠/ ٧٣).

(٤) لم أقف عليه.

بطعام، فأتته به فأنكره أيضًا، وحلفَ لا يأكلُه حتَّى تُخبرَه من أين لها هذا الطعامُ، فكشفَت عن رأسِها خمارَها، فلمَّا رأى رأسَها محلوقًا قال في دعائه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم[1]: حدثنا أبي، حدَّثنا أبو سلمَةَ، حدَّثنا جريرُ بنُ حازمٍ، عن عبدِ اللَّه بن عُبيدِ ابن عُمير، قال: كان لأيوبَ أخوان، فجاءا يومًا فلم يستطيعا أن يَدْنُوا منه من ريحه، فقاما من بعيدٍ فقال أحدُهما لصاحبه: لو كان اللَّهُ عَلِمَ من أيوبَ خيرًا ما ابتلاهُ بهذا. فجزِعَ أيوبُ من قولِهما جزَعًا لم يَجْزَعْ من شيءٍ قطُّ مثلَهُ، فقال: اللَّهُمَّ إن كنتَ تعلمُ أنِّي لم أَبِتْ ليلةً قطُّ شبعانًا وأنا أعلمُ مكانَ جائعٍ فصدِّقْني. فصُدِّقَ من السماء وهما يسمعان، ثمَّ قال: اللَّهُمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أني لم يكُنْ لي قميصان قطُّ وأنا أعلمُ مكانَ عارٍ فصدِّقْني. فصُدِّقَ من السماء وهما يسمعان، ثم قال: اللَّهُمَّ بعزَّتك - وخرَّ ساجدًا، فقال -: اللَّهم بعزَّتك، لا أرفعُ رأسِي أبدًا حتَّى تكشفَ عنِّي. فما رفَعَ رأسَهُ حتَّى كُشفَ عنه.

وقال ابنُ أبي حاتم وابنُ جرير[2] **جميعًا**: حدَّثنا يونُسُ بنُ عبدِ الأعلَى، أنبأنا ابنُ وهبٍ، أخبرني نافعُ بنُ يزيدَ، عن عُقيلٍ، عن الزُّهريِّ، عن أنسِ بن مالكٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«إنَّ نبيَّ اللَّه أيوبَ لَبِثَ به بلاؤُه ثماني عشرةَ سنةً، فرَفَضَهُ القريبُ والبعيدُ، إلا رجلين من إخوانه كانا من أخصِّ إخوانه له، كانا يغدُوان إليه ويروحان، فقال أحدُهما لصاحبه: تَعْلَمُ واللَّه لقد أذنَب أيوبُ ذنبًا ما أذنَبَهُ أحدٌ من العالمين. قال له صاحبُهُ: وما ذاك؟ قال: منذُ ثمانيَ عشرةَ سنةً لم يَرْحَمْهُ ربُّه فيَكْشفَ ما به. فلما راحا إليه، لم يصبرِ الرجلُ حتَّى ذكر ذلك له، فقال أيوبُ: لا أدري ما تقولُ غيرَ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يعلمُ أنِّي كنتُ أمُرُّ على الرجلين يتنازعان فيذكُران اللَّهَ فأرجعُ إلى بيتي فأُكفِّرُ عنهما؛ كراهيةَ أن يذكرا اللَّهَ إلا في حقٍّ»** قال: **«وكان يخرُجُ في حاجته، فإذا قضاها أمسكَتْ امرأتُه بيده حتَّى يرجعَ، فلمَّا كان ذاتَ يومٍ أبطأت عليه، فأوحى اللَّهُ إلى أيوبَ في مكانه أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطأته فتلقَّته تنظُرُ، وأقبلَ عليها قد أذهَبَ اللَّه ما به من البلاء، وهو على أحسنِ ما كان، فلمَّا رأته قالت: أي باركَ اللَّهُ فيكَ، هل رأيتَ نبيَّ اللَّه هذا المُبتَلَى؟ فواللَّهِ على ذلك ما رأيتُ رجلاً أشبهَ به منكَ إذ كان صحيحًا. قال: فإنِّي أنا هو»**. قال: **«وكان له أنْدَرَانِ، أندرٌ للقمح وأندرٌ للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرَغَت فيه الذهبَ حتَّى فاضَ، وأفرَغَت الأخرى في أندرِ الشعيرِ الوَرِقَ حتَّى فاضَ»** هذا لفظُ ابنِ جرير، وهكذا رواه بتمامِه ابنُ حبَّان[3] في «صحيحه» عن محمد بن الحسنِ بن قُتيبةَ، عن حَرْمَلَةَ، عن ابنِ وهبٍ، به. وهذا غريبٌ رَفْعُه جدًا، والأشْبَهُ أنْ يكونَ موقوفًا.

وقال ابنُ أبي حاتمٍ[4]: حدثنا أبي، ثنا موسَى بنُ إسماعيلَ، حدثنا حمادٌ، حدَّثنا عليُّ بنُ زيدٍ، عن

---

(١) **صحيح إليه**: ابن أبي حاتم (١٣٦٩٥) وعبد اللَّه بن عبيد اللَّه بن عمير أحد التابعين.

(٢) **سنده صحيح**: ابن أبي حاتم (١٣٦٩٨) وابن جرير (١٢/الجزء٢٣/ ١٦٧).

(٣) **سنده صحيح**: ابن حبان (٢٨٩٨) وسنده صحيح.

(٤) **ضعيف إليه**: ابن أبي حاتم (١٣٦٩٩) وسنده ضعيف فيه علي بن زيد بن جدعان ضعيف. ويوسف بن مهران لين ولم يسمع من ابن عباس.

يوسفَ بن مهْرانَ، عن ابنِ عباسٍ، قال: وألبسَهُ اللَّهُ حُلَّةً من الجنة، فتنحَّى أيوبَ وجلسَ في ناحيةٍ وجاءَتْ امرأتُهُ فلم تعرفْه، فقالت: يا عبدَ اللَّه، هذا المُبتَلَى الذي كان هاهنا، لعلَّ الكلابَ ذهبت به أو الذئابَ؟ وجعلت تُكَلِّمه ساعةً قال: ويحَكِ، أنا أيوبُ. قالتْ: أتسخَرُ منِّي يا عبدَ اللَّه؟ فقال: ويْحَك، أنا أيوبُ قد ردَّ اللَّهُ عليَّ جسدِي. قال ابنُ عباسٍ[1] : وردَّ اللَّهُ عليه مالَهُ، وولدَهُ بأعيانهم ومثْلَهم معهم. وقال وهبُ بنُ مُنَبِّهٍ: أوحَى اللَّهُ إليه: قد رَدَدْتُ عليك أهلَكَ ومالكَ ومثلهم معهم، فاغتَسلْ بهذا الماءِ فإنْ فيه شفاءَك، وقرِّبْ من صحابَتِك قُرْبانًا، واستغفر لهم؛ فإنَّهم قد عصوني فيك. رواه ابنُ أبي حاتمٍ.

وقال ابنُ أبي حاتم: ثنا أبو زرعةَ، حدثنا عمرُو بنُ مرزوقٍ، حدثنا همَّامٌ، عن قتادةَ، عن النَّضْرِ ابن أنسٍ، عن بشيرِ بن نَهيكٍ، عن أبي هُريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لَمَّا عافَى اللَّهُ أيوبَ عليه السلامُ، أمطَرَ عليه جرادًا من ذهبٍ، فجعلَ يأخذُ بيده ويجعَلُ في ثوبه. قال: فقيل له: يا أيوبُ، أما تَشْبَعُ؟ قال: يا ربِّ ومَنْ يشبَعُ من رحمتكَ؟!**» وهكذا رواهُ الإمامُ أحمدُ[2] ، عن أبي داودَ الطَّيالسيِّ وعبدِ الصَّمدِ، عن همامٍ، عن قتادةَ، به. ورواهُ ابنُ حبانَ[3] في «صحيحه» عن عبدِ اللَّه بن محمدٍ الأزْديِّ، عن إسحاقَ بنِ راهَوَيْه، عن عبدِ الصمدِ به. ولم يُخرِّجْه أحدٌ من أصحاب الكتب، وهو على شرطِ «الصحيح» فاللَّهُ أعلمُ.

وقال الإمامُ أحمدُ[4] : ثنا سفيانُ، عن أبي الزِّنادِ، عن الأعرجِ، عن أبي هُريرةَ: أُرْسِلَ على أيوبَ رجلٌ من جرادٍ من ذهبٍ، فجعلَ يَقبِضُها في ثوبِه، فقيل: يا أيوبُ، ألم يَكفكَ ما أعطيناك؟ قال: أي ربِّ، ومن يستغنِي من فضلك؟ هذا موقوفٌ. وقد روي عن أبي هريرةَ من وجهٍ آخرَ مرفوعًا.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُ الرَّزَّاقُ، حدَّثنا مَعْمَرٌ، عن همَّام بن مُنَبِّهٍ، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرةَ، قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**بينما أيوبُ يغتسلُ عُريانًا خرَّ عليه جرادٌ من ذهبٍ، فجعلَ أيوبُ يَحْثِي في ثوبه، فناداه ربُّهُ عزَّ وجلَّ: يا أيوبُ، ألم أكُنْ أغنيتُك عمَّا ترَى؟ قال: بلَى يا ربِّ، ولكن لا غنَى لي عن بَرَكَتِكَ**»[5] رواهُ البخاريُّ من حديثِ عبدِ الرزَّاق به.

وقوله ﴿**ارْكُضْ بِرِجْلِكَ**﴾ أي: اضربِ الأرضَ برجلِك. فامتَثَل ما أُمِر به فأنبَع اللَّهُ له عينًا باردةَ الماءِ، وأُمر أن يَغتسلَ فيها ويشربَ منها، فأذهبَ اللَّهُ عنه ما كان يجدُه من الألمِ والأذىٰ والسَّقَمِ والمرضِ الذي كان في جسدِه ظاهرًا وباطنًا، وأبدَلَهُ اللَّهُ بعدَ ذلك كلِّه صحةً ظاهرةً وباطنةً، وجمالاً

---

(١) رواه ابن جرير (١٠/الجزء١٧/ ٧٢) بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عنه.
(٢) صحيح: أحمد (٢/ ٣٠٤).
(٣) صحيح: ابن حبان (٦٢٣٠) وسنده صحيح على شرط الصحيح.
(٤) المسند (٢/ ٢٤٣).
(٥) صحيح: «المسند» (٣١٤)، البخاري (٢٠٧٣).

تامًا، ومالاً كثيرًا، حتَّى صبَّ له من المال صبًا؛ مطرًا عظيمًا جرادًا من ذهبٍ، وأخلفَ اللَّهُ له أهله، كما قال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ فقيل: أحياهم اللَّهُ بأعيانهم، وقيل: آجرَهُ فيمن سلف، وعوَّضَهُ عنهم في الدنيا بَدَلَهم، وجمعَ له شمله بكلِّهم في الدار الآخرة. وقوله ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أي: رفعنا عنه شدَّتَهُ ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾ رحمةً منا به ورأفةً وإحسانًا ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ أي: تذكرةً لمن ابتُلِيَ في جسده أو ماله أو ولده، فله أُسْوةٌ بنبيِّ اللَّه أيوبَ، حيث ابتلاهُ اللَّهُ بما هو أعظمُ من ذلك، فصبرَ واحتسَبَ حتَّى فرَّجَ اللَّهُ عنهُ. ومن فَهِم من هذا اسمَ امرأتِه فقال: هي رحمةُ. من هذه الآية فقد أبعدَ النُّجْعَةَ، وأغرقَ في النَّزْعِ. وقال الضَّحاكُ، عن ابنِ عباسٍ: ردَّ اللَّهُ إليها شبابَها وزادها، حتَّى ولدَتْ له ستةً وعشرين ولدًا ذكرًا، وعاش أيوبُ بعدَ ذلك سبعين سنةً بأرضِ الروم على دينِ الحنيفيَّةِ، ثم غيَّروا بعده دينَ إبراهيمَ.

وقوله: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ هذه رخصةٌ من اللَّه تعالى لعبده ورسوله أيوبَ عليه السلام فيما كان من حلفه ليضربَنّ امرأتَه مائةَ سوطٍ. فقيل: حلفه ذلك لبيْعِها ضفائرَها. وقيل: لأنه اعترضها الشيطانُ في صورة طبيبٍ يصفُ لها دواءً لأيوبَ، فأتته فأخبرَته، فعرفَ أنَّه الشيطانُ، فحلفَ ليضْربنَّها مائةَ سوطٍ. فلمَّا عافاه اللَّهُ عزَّ وجلَّ أفتاه أن يأخذَ ضِغْثًا؛ وهو كالعثْكالِ الذي يجمعُ الشَّماريخَ فيجمعها كلَّها ويضربَها به ضربةً واحدةً، ويكونُ هذا منزّلاً منزلةَ الضرب بمائة سوطٍ، ويَبَرُّ ولا يحنَثُ. وهذا من الفرج والمخرج لمن اتَّقَى اللَّهَ وأطاعَهُ، ولا سيما في حقِّ امرأته الصابرةِ المحتسبةِ المكابدة، الصِّدِّيقة البارَّة الراشدة رضي اللَّهُ عنها. ولهذا عقَّبَ اللَّهُ هذه الرُّخصةَ وعلَّلها بقوله: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ وقد استعمل كثيرٌ من الفقهاءِ هذه الرخصةَ في بابِ الأيمانِ والنذورِ، وتوسَّعَ آخرونَ فيها حتَّى وضعوا كتابَ الحِيَلِ في الخلاصِ من الأيمانِ، وصدَّروه بهذه الآيةِ الكريمةِ، وأتوا فيه بأشياءَ من العجائبِ والغرائبِ، وسنذكرُ طرفًا من ذلك في كتابِ الأحكام عندَ الوصولِ إليه. إن شاءَ اللَّه تعالَى.

وقد ذكر ابنُ جريرٍ وغيرُه من علماءِ التاريخِ أنَّ أيوبَ عليه السلامُ لَمَّا تُوُفِّي كان عمرُهُ ثلاثًا وتسعين سنةً. وقيل: إنَّه عاشَ أكثرَ من ذلك، وقد روَى ليثٌ، عن مجاهدٍ ما معناهُ أنَّ اللَّهَ يحتجُّ يوم القيامة بسليمانَ عليه السلامُ على الأغنياء، وبيوسفَ عليه السلامُ على الأرقَّاء، وبأيوبَ عليه السلامُ على أهلِ البلاءِ. رواهُ ابنُ عساكرَ [1] بمعناه. وأنَّه أوصَى إلى ولده حوْمَلٍ، وقام بالأمر بعدَهُ ولدُه بشرُ بنُ أيوبَ، وهو الذي يزعُمُ كثيرٌ من الناس أنَّه ذو الكفْلِ. فاللَّهُ أعلم. ومات ابنُه هذا ـ وكان نبيًا فيما يزعمونَ ـ وكان عمره من السِّنِينَ خمسًا وسبعينَ. ولنذكُر هاهنا قصةَ ذِي الكفْلِ؛ إذ قال بعضُهم: إنَّه ابنُ أيوبَ عليهما السلامُ.

---

(١) ضعيف إليه: «تاريخ دمشق» (١٠/ ٨٢) فيه ليث وهو ضعيف.

وهذه قصة ذي الكفل الذي زعم قوم أنه ابن أيوب عليه السلام

قال اللَّه تعالىٰ بعدَ قصة أيوبَ، في سورة «الأنبياء»: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء٨٥، ٨٦]، وقال تعالىٰ بعدَ قصة أيوبَ أيضًا في سورة «ص»: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٨]، فالظاهرُ من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقرونًا مع هؤلاء السادة الأنبياء، أنَّه نبيٌّ عليه من ربِّه الصلاةُ والسلامُ، وهذا هو المشهورُ، وقد زعم آخرونَ أنَّه لم يكن نبيًا، وإنما كان رجلاً صالحًا، وحَكَمًا مُقسطًا عادلاً. وتوقَّفَ ابنُ جرير في ذلك، فاللَّهُ أعلمُ.

وروىٰ ابنُ جُرَيْجٍ وابنُ أبي نَجِيحٍ، عن مُجاهدٍ[1]، أنَّه لم يكن نبيًا، وإنما كان رجلاً صالحًا، وكان قد تكفَّلَ لنبيِّ قومِه أن يَكْفيَه أمرَهم ويقضيَ بينهم بالعدل ففعلَ فسُمِّيَ ذا الكفل. وروىٰ ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم[2]، من طريقِ داودَ بنِ أبي هندٍ، عن مجاهدٍ، أنَّهُ قال: لَمَّا كبرَ اليَسَعُ قال: لو أنِّي استخلَفْتُ رجلاً على الناسِ يعملُ عليهم في حياتي، حتَّىٰ أنظُرَ كيفَ يعملُ. فجمعَ الناسَ، فقال: من يتقبَّلْ لي بثلاثٍ أستخلفْه؛ يصومُ النهارَ، ويقومُ الليلَ، ولا يغضبُ؟ قال: فقام رجلٌ تَزْدَريه العينُ فقال: أنا. فقال: أنتَ تصومُ النهارَ وتقومُ اللَّيلَ ولا تغضبُ؟ قال: نعم. قال: فردَّهم ذلك اليومَ، وقال مثلها اليومَ الآخَرَ، فسكتَ الناسُ وقام ذلك الرجلُ. فقال: أنا. فاستَخْلَفَهُ. قال: فجعلَ إبليسُ يقولُ للشياطينِ: عليكم بفلانٍ فأعْياهم ذلك، فقال: دعوني وإيَّاه. فأتاه في صورة شيخٍ كبيرٍ فقير، وأتاه حينَ أخذَ مَضْجَعَهُ للقائلةِ، وكان لا ينامُ الليلَ والنهارَ إلا تلكَ النَّومةَ، فدقَّ البابَ، فقال: من هذا؟ قال شيخٌ كبيرٌ مظلومٌ. قال: فقامَ ففتحَ البابَ، فجعلَ يقصُّ عليه؛ فقال: إن بيني وبين قومي خصومةً، وإنَّهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا. وجعلَ يُطَوِّل عليه، حتَّىٰ حضرَ الرَّواحُ وذهبتِ القائلةُ. وقال: إذا رُحْتُ فأتني آخُذْ لك بحقك. فانطلق وراح، فكان في مجلسه فجعل ينظرُ هل يرىٰ الشيخَ فلم يَرَه، فقام يتَّبَعُه، فلمَّا كان الغدُ جعلَ يَقْضِي بينَ الناسِ، وينتظرُه فلا يراه، فلمَّا رجعَ إلى القائلة فأخذ مَضْجَعَهُ، أتاه فدقَّ البابَ، فقال: من هذا؟ فقال: الشيخُ الكبيرُ المظلومُ. ففتحَ له فقال: ألم أقُلْ لك: إذا قعَدتُ فأتني؟ فقال: إنهم أخبثُ قومٍ، إذا عَرَفُوا أنك قاعدٌ قالوا: نحن نُعطيكَ حقَّكَ. وإذا قمتَ جَحَدُوني. قال: فانطلقْ فإذا رحتُ فأتني. قال ففاتَتْهُ القائلةُ، فراحَ فجعلَ ينتَظِرُ فلا يَراهُ، وشقَّ عليه النُّعاسُ، فقال لبعضِ أهله: لا تَدَعَنَّ أحدًا يقربُ هذا البابَ حتَّىٰ أنامَ، فإنِّي قد شقّ عليَّ النومُ. فلمَّا كان تلك الساعةَ جاءَ، فقال له الرجلُ: وراءَكَ وراءَكَ. فقال:

---

(١) صحيح إليه: ابن جرير (١٠/ الجزء١٧/ ٧٥) من طريق ابن أبي نجيح ومن طريق ابن جريج عنه.

(٢) صحيح إلى مجاهد: ابن جرير (١٠/ الجزء١٧/ ٧٤) وابن أبي حاتم (١٣٧٠٢) بنفس السند وهو صحيح إلى مجاهد.

إني قد أتيتُهُ أمس فذكرتُ له أمري. فقال: لا واللّه لقد أمَرنا أنْ لا نَدَعَ أحدًا يقْرَبُه. فلمَّا أعياهُ، نظرَ **فرأىٰ كُوَّةً في** البيت، فتسوَّرَ منها فإذا هو في البيتِ، وإذا هو يدقُّ البابَ من داخلٍ. قال: فاستيقظَ **الرجلُ، فقال:** يا فلانُ، ألم آمُرْكَ؟ قال: أمَّا من قِبَلِي واللّه لم تُؤْتَ، فانظُرْ من أينَ أُتيتَ؟ قال: فقام **إلىٰ البابِ فإذا هو** مُغلَقٌ كما أغلَقَه، وإذا الرجل معه في البيت، فعرَفَهُ فقال: أعدوُّ اللّه؟ قال: نعم، **أعْيَيْتَني في كلِّ شيءٍ،** ففعلتُ ما ترَىٰ لأُغضِبَك. فسمَّاهُ اللّهُ ذا الكفلِ؛ لأنَّه تكَفَّلَ بأمرٍ فوفَّىٰ به.

وقد روىٰ ابنُ أبي حاتمٍ أيضًا عن ابنِ عباسٍ[١] قريبًا من هذا السياقِ، وهكذا روي عن عبدِ اللّه ابن الحارثِ[٢]، ومحمدِ بن قيسٍ[٣]، وابنِ حجَيْرةَ الأكبرِ، وغيرهم من السلفِ نحو هذا. وقال ابنُ أبي حاتمٍ[٤]: حدثنا أبي، حدَّثنا أبو الجماهرِ، أنبأنا سعيدُ بن بشيرٍ، حدَّثنا قتادةُ، عن كنانةَ بنِ الأخْنسِ، قال: سمعتُ الأشعريَّ - يعني أبا موسىٰ - رضي اللّهُ عنه وهو علىٰ هذا المنبرِ يقولُ: ما كان ذو الكفلِ نبيًا، ولكن كان رجلاً صالحًا يصلِّي كلَّ يومٍ مائةَ صلاةٍ، فتكفَّل له ذو الكفلِ من بعده يُصلِّي كلَّ يومٍ مائةَ صلاةٍ، فسُمِّيَ ذا الكفلِ. ورواهُ ابن جريرٍ[٥]، من طريقِ عبدِ الرَّزَّاقِ، عن مَعْمَرٍ، عن قتادةَ، قال: قال أبو موسىٰ الأشعريُّ. فذكرَهُ منقطعًا.

فأما الحديث الذي رواه الإمامُ أحمدُ[٦]: حدثنا أسباطُ بنُ محمدٍ، حدَّثنا الأعمشُ، عن عبداللّه بنِ عبدِ اللّه، عن سعدٍ مولَىٰ طلحةَ، عن ابنِ عُمَرَ، قال: سمعتُ من رسولِ اللّه ﷺ حديثًا لو لم أسمعه إلا مرةً أو مرتين - حتَّىٰ عدَّ سبعَ مرارٍ - ولكنْ قد سمعتُه أكثر من ذلك، قال: **«كان الكفلُ من بني إسرائيلَ لا يتورَّعُ من ذنب عملَهُ، فأتَته امرأةٌ فأعطاه ستين دينارًا على أن يَطَأها، فلمَّا قَعَد منها مَقْعَدَ الرجل من امرأته أُرعِدَتْ وبَكَتْ، فقال لها: ما يُبكيك؟ أكْرَهْتُكِ؟ قالت: لا، ولكنْ هذا عملٌ لمْ أعمَلْهُ قطُّ، وإنَّما حَمَلَتْني عليه الحاجةُ. قال: فتَفْعَلينَ هذا ولَم تَفْعَليه قطُّ؟ ثم نزلَ فقال: اذْهَبي بالدنانير لك. ثم قال: واللّه لا يَعْصِي اللّهَ الكفلُ أبدًا. فماتَ من ليلته، فأصبحَ مكتوبًا على بابه: قد غفَرَ اللّهُ للكَفْلِ»** ورواهُ الترمذيُّ من حديثِ الأعمشِ به، وقال: حسَنٌ. وذكرَ أن بعضَهم رواه فوَقَفَهُ[٧] علىٰ ابنِ عُمرَ، فهو حديثٌ غريبٌ جدًا، وفي إسنادِهِ نظرٌ، فإنَّ سعدًا هذا، قال أبو حاتمٍ: لا أعرفُهُ إلا

---

(١) **ضعيف إليه:** ابن أبي حاتم (١٣٧٠٣) فيه انقطاع بين مسلم البطين وابن عباس قال: حدثني أبي عن أحمد بن يونس عن أبي بكر بن عياش عن الأعمش عن مسلم قال: قال ابن عباس.

(٢) **فيه ضعف:** رواه ابن جرير (١٠/ الجزء١٧/ ٧٣) من رواية محمد بن بشار عن مؤمل عن سفيان عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد اللّه بن الحارث. وهذا إسناد لا بأس به إلا ما يخشى من عنعنة الأعمش ومؤمل سيئ الحفظ.

(٣) **ضعيف إليه:** ابن جرير (١٠/ الجزء١٧/ ٧٥) وسنده ضعيف فيه الحسين وهو سنيد ضعيف وعنعنة ابن جريج.

(٤) لم أجده في تفسير ابن أبي حاتم، والإسناد أعلاه ضعيف فيه أبو الجماهر. مستور وسعيد بن بشير: ضعيف. وكناتة بن الأخنس: لم أقف له على ترجمة.

(٥) **ضعيف إليه:** ابن جرير (١٠/ الجزء١٧/ ٧٥) من نفس الطريق أعلاه ومن طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي موسى، وعلتها الانقطاع بين قتادة، وأبي موسى.

(٦) **ضعيف:** المسند (٢/ ٢٣)، الترمذي (٢٤٩٦) من نفس طريق شيخ أحمد.

(٧) **ضعيف:** رواه البخاري في «التاريخ» (٤/ ٦٦) ترجمة (رقم ١٩٧٨) وهي ترجمة سعد مولى طلحة من رواية الفضل بن موسى عن الأعمش: قلت: ولا يصح مرفوعًا ولا موقوفًا فإن سعد مولى طلحة مجهول.

بحديثٍ واحدٍ. ووثَّقَهُ ابنُ حِبَّانَ. ولم يَرْوِ عنه سوىٰ عبدِ اللَّهِ بنِ عبدِ اللَّهِ الرازيِّ هذا. فاللَّهُ أعلمُ. وإنْ كان محفوظًا فليسَ هو ذا الكِفْلِ، وإنما لفظُ الحديثِ «الكِفْلُ» من غير إضافةٍ، فهو رجلٌ آخرُ غيرُ المذكورِ في القرآنِ الكريمِ. واللَّهُ أعلمُ بالصوابِ.

باب ذكر أمم أهلكوا بعامة

وذلك قبلَ نزولِ التوارةِ؛ بدليلِ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣]. كما رواه ابنُ جريرٍ وابنُ أبي حاتم[(١)] ، والبزَّارُ، من حديث عوف الأعرابيِّ، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدْريِّ، قال: ما أهلكَ اللهُ قومًا بعذابٍ من السماءِ أو من الأرض، بعد ما أنزلت التوراةُ علىٰ وجه الأرضِ، غيرَ القريةِ التي مُسِخوا قِرَدةً؛ ألم تر أنَّ الله تعالىٰ يقولُ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾. ورفعه البزَّار[(٢)] في رواية له، والأشبهُ - والله أعلم - وقفُه، فدلَّ علىٰ أنَّ كلَّ أمَّةٍ أُهلكتْ بعامةٍ، قبل موسىٰ عليه السلامُ.

فمنهم: أصحاب الرَّسِّ، قال الله تعالىٰ في سورة «الفرقان»: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨-٣٩]. وقال تعالىٰ، في سورة «ق»: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢-١٤]. وهذا السياقُ والذي قبلَه يدلُّ علىٰ أنهم أهلكوا، ودمِّروا، وتُبِّرُوا، وهو الهلاكُ. وهذا يردُّ اختيار ابن جرير، من أنَّهم أصحابُ الأخْدودِ، الذين ذُكروا في سورةِ «البروج»؛ لأنّ أولئك، عند ابن إسحاقَ، وجماعةٍ، كانوا بعد المسيح، عليه السلامُ. وفيه نظرٌ أيضًا. وروىٰ ابنُ جريرٍ[(٣)] ، قال: قال ابن عباسٍ: أصحابُ الرَّسِّ أهل قريةٍ من قرىٰ ثمود. وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر في أول «تاريخه»، عند ذكر بناء دمشق، عن «تاريخ» أبي القاسم عبيدالله بن عبدالله بن خُرداذبةَ وغيره، أنَّ أصحاب الرس كانوا بحَضورٍ، فبعث الله إليهم نبيًّا يقال له: حنظلة بن صفوان. فكذبوه وقتلوه، فسار عاد بن عوص بن إرَمَ بنِ سام بن نوحٍ، بولده من الرَّسِّ، فنزلَ الأحقافَ، وأهلك الله أصحاب الرَّسِّ، وانتشروا في اليمنِ كلِّها، وفَشَوا مع ذلك في الأرض كلها، حتىٰ نزل جيرونُ بن سعد بن عاد بن عوصٍ بن إرم بن سام بن نوح دمشقَ، وبنىٰ مدينتَها، وسمَّاها جَيْرونَ، وهي إرَمُ ذاتُ العمادِ، وليس أعمدةُ الحجارة في موْضع أكثر منها بدمشقَ فبعث الله هودَ بنَ عبد الله بن رَباح بن خالد بن الخلود بن عادٍ إلىٰ عاد - يعني أولاد عادٍ - بالأحقاف، فكذَّبوه، وأهلكهم الله عزَّ وجلَّ. فهذا يقتضي أنّ أصحابَ الرَّسِّ قبل عاد بدهورٍ متطاولةٍ. فالله أعلمُ.

---

(١) صحيح إلى أبي سعيد: رواه ابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ٨٠) وابن أبي حاتم (١٦٩٢٨).
(٢) «كشف الأستار» (٢٢٤٨).
(٣) ضعيف إليه: رواه ابن جرير (١١/ الجزء ١٩/ ١٣) وسنده ضعيف فيه الحسين ضعيف ومنقطع بين ابن جريج وابن عباس.

وروى ابن أبي حاتم[١] ، عن أبي بكر بن أبي عاصم، عن أبيه، عن شَبيب بن بشر، عن عكرمةَ، عن ابن عباس، قال: الرَّسُّ بئرٌ بأذْرَبِيجانَ.

وقال الثَّوري[٢] **، عن أبي بُكير، عن عكرمة، قال:** الرَّسُّ بئرٌ رَسُّوا فيها نبيَّهم. أي؛ دفنوه فيها. وقال ابن جريج[٣] : قال عكرمةُ: أصحاب الرس بفلَجٍ، وهم أصحاب ياسين. وقال قتادة[٤] : فلجٌ من قرئ اليمامة.

قلتُ: فإن كانوا أصحاب ياسين، كما زعمه عكرمةُ، فقد أُهلكوا بعامة، قال الله تعالىٰ في قصتهم: ﴿ **إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ** ﴾ [يس: ٢٩]. وستأتي قصتهم بعد هؤلاء. وإن كانوا غيرهم - وهو الظاهر - فقد أهلكوا وتُبِّرُوا. وعلىٰ كلٍّ تقديرٍ فينافي ما ذكره ابن جرير.

وقد ذكر أبو بكر محمد بن الحسن النقاش، أنّ أصحاب الرس كانت لهم بئرٌ ترويهم، وتكفي أرضهم جميعها، وكان لهم ملكٌ عادلٌ حسن السيرة، فلما مات وجدوا عليه وجدًا عظيمًا، فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان في صورته، وقال: إني لم أمتْ، ولكنْ تغيبتُ عنكم حتىٰ أرىٰ صنيعكم، ففرحوا أشدَّ الفرح، وأمر بضرب حجابٍ بينهم وبينه، وأخبرهم أنه لا يموتُ أبدًا، فصدق به أكثرهم، وافتُتِنُوا به، وعبدوه، فبعث الله فيهم نبيًّا، وأخبرهم أنَّ هذا شيطانٌ يخاطبهم من وراء الحجاب، ونهاهم عن عبادته، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له.

قال السُّهَيْليُّ: وكان يوحىٰ إليه في النوم، وكان اسمُه حنظلة بن صفوان، فعدوا عليه فقتلوه وألقوه في البئر، فغار ماؤُها، وعطشوا بعد ريِّهم ويبست أشجارهم، وانقطعت ثمارهم، وخربت ديارهم، وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة، وبعد الاجتماع بالفرقة، وهلكوا عن آخرهم، وسكن في مساكنهم الجنُّ والوحوش، فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجنِّ، وزئيرُ الأسدِ، وصوتُ الضِّباع.

فأما ما رواه - أعني ابن جرير - عن محمد بن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظيِّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود؛ وذلك أن الله تعالى بعث نبيًّا إلى أهل قرية، فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك الأسود، ثم إنَّ أهل القرية عدوا على النبي، فحفروا له بئرًا، فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجر أصمَّ**» [٥] قال: «**فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره، ثم يأتي بحطبه فيبيعه، ويشتري به طعامًا وشرابًا، ثم يأتي به إلى ذلك البئر، فيرفع تلك الصخرة، ويعينه الله عليها، ويدلي إليه طعامه وشرابه، ثم يردها كما كانت**». قال: «فكان كذلك ما شاء الله أن يكون، ثم إنه ذهب يومًا يحتطب، كما كان يصنع، فجمع حطبه، وحزم حزمته وفرغ

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٥١٧٣) وفيه شبيب بن بشر يخطئ. وليَّنه أبو حاتم ووثقه ابن معين وقال ابن حبان: كثير الخطأ.

(٢) رجاله ثقات: رواه ابن جرير (١١/ الجزء ١٩/ ١٤).

(٣) ضعيف إليه: رواه ابن جرير (١١/ الجزء ١٩/ ١٤) وسنده ضعيف فيه الحسين: سنيد ضعيف وعنعنة ابن جريج عن عكرمة.

(٤) صحيح إليه: رواه ابن جرير (١١/ الجزء ١٩/ ١٤) بسند صحيح من طريق يونس بن عبد الأعلى قال: حدثني ابن وهب قال: حدثنا جرير بن حازم قال: قال قتادة... وابن أبي حاتم (١٥١٧٦) من طريق يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة.

(٥) مرسل ضعيف: رواه ابن جرير (١١/ الجزء ١٩/ ١٤) وسنده ضعيف مرسلاً فيه ابن حميد ضعيف وعنعنة ابن إسحاق وإرسال محمد بن كعب.

منها، **فلما أراد أن يحتملها**، وجد سِنَةً، فاضطجع فنام، فضرب الله على أذنه سبع سنين نائمًا، ثم إنه هبَّ، **فتمطَّى وتحول** لشقِّه الآخر فاضطجع، فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى، ثم إنه هبَّ، **واحتمل حزمته**، ولا يحسب إلا أنه نام ساعةً من نهار، فجاء إلى القرية، فباع حزمته، ثم اشترى **طعامًا وشرابًا**، كما كان يصنع، ثم إنه ذهب إلى الحفرة، إلى موضعها التي كانت فيه، فالتمسه **فلم يجده**، وقد كان بدا لقومه فيه بَدَاءٌ، فاستخرجوه، وآمنوا به وصدقوه». قال: «فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود: ما فعل؟ فيقولون له: ما ندري. حتى قبض الله النبيَّ، عليه السلام، وأهبَّ الأسود من نومه بعد ذلك». فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة**». فإنّه حديثٌ مرسلٌ، ومثله فيه نظرٌ، ولعلَّ بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرظيِّ. والله أعلم. ثم قد رده ابن جرير نفسه، وقال: لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس المذكورون في القرآن. قال: لأن الله أخبر عن أصحاب الرس أنه أهلكهم، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم، اللهم إلا أن يكون حدثت لهم أحداثٌ، آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم. والله أعلم. ثم اختار أنَّهم أصحاب الأخدود، وهو ضعيفٌ؛ لما تقدَّم، ولما ذكر في قصة أصحاب الأخدود، حيث توعدوا بالعذاب في الآخرة إن لم يتوبوا، ولم يذكر هلاكهم، وقد صرح بهلاك أصحاب الرس. فالله أعلم.

قصة قوم يس وهم أصحاب القرية

قال الله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس: ١٣-٢٩]. اشتهر عن كثير من السلف والخلف أنَّ هذه القرية أنطاكيةُ. رواه ابن إسحاق، فيما بلغه عن ابن عباس، وكعب الأحبار، ووهب بن منبِّه. وكذا روي عن بريدة ابن الحصيب، وعكرمة، وقتادة، والزهري، وغيرهم.

قال ابن إسحاق، فيما بلغه عن ابن عباس، وكعب، ووهب أنَّهم قالوا: وكان لها ملكٌ اسمه أنطيخس بن أنطيخس، وكان يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثةً من الرسل؛ وهم صادقٌ، وصدوقٌ، وشلوم، فكذَّبهم. وهذا ظاهرٌ أنَّهم رسل من الله عزَّ وجل. وزعم قتادةُ أنَّهم كانوا رسلاً

من المسيح . وكذا قال ابن جريج، عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائيِّ: كان اسم الرسولين الأولين: شمعون ويوحنا، واسم الثالث بولس، والقرية أنطاكية. وهذا القول ضعيفٌ جدًا؛ لأنَّ أهل أنطاكية، لما بعث إليهم المسيح ثلاثةً من الحواريِّين، كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح في ذلك الوقت، ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التي يكون فيها بطارقة النصارى؛ وهنَّ: أنطاكية، والقدس، وإسكندرية، ورومية. ثم بعدها إلى القسطنطينية ولم يهلكوا، وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أهلكوا، كما قال في آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ لكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن، بعثوا إلى أهل أنطاكية قديمًا، فكذَّبوهم وأهلكهم الله ثم عمرت بعد ذلك، فلما كان في زمن المسيح آمنوا برسله إليهم، فلا يمنع هذا. والله أعلم. فأما القول بأن هذه القصة المذكورة في القرآن هي قصة أصحاب المسيح، فضعيفٌ؛ لما تقدَّم، ولأنَّ ظاهر سياق القرآن يقتضي أنَّ هؤلاء الرسل من عند الله.

قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً﴾ يعني: لقومك يا محمد ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ يعني: المدينة ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي؛ أيَّدناهما بثالث في الرسالة ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ فردُّوا عليهم بأنهم بشرٌ مثلهم، كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم، يستبعدون أن يبعث الله نبيًّا بشريًّا، فأجابوهم بأنَّ الله يعلم أنَّا رسلُه إليكم، ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ أي؛ إنما علينا، أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، والله هو الذي يهدي من يشاء، ويضلُّ من يشاء ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي؛ تشاءمنا بما جئتمونا به ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قيل: بالمقال. وقيل: بالفعال. ويؤيد الأول قوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ توعدوهم بالقتل والإهانة: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي؛ مردودٌ عليكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي؛ بسبب أنَّا ذكرناكم بالهدى ودعوناكم إليه، توعدتمونا بالقتل والإهانة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي؛ لا تقبلون الحقَّ، ولا تريدونه.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ يعني: لنصرة الرسل، وإظهار الإيمان بهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي؛ يدعونكم إلى الحق المحض، بلا أجرة ولا جعالة. ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن عبادة ما سواه، مما لا ينفع شيئًا لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ أي؛ إن تركت عبادة الله وعبدتُ سواه، ثم قال مخاطبًا للرسل: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ قيل: فاسمعوا مقالتي، واشهدوا لي بها عند ربكم. وقيل: معناه فاسمعوا يا قومي إيماني برسل الله جهرةً. فعند ذلك قتلوه. قيل: رجمًا. وقيل: عضًّا. وقيل: وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه.

وحكى ابن إسحاق عن بعض أصحابه، عن ابن مسعود قال: وطئوه بأرجلهم حتى أخرجوا قُصْبَهُ. وقد روى الثوريُّ، عن عاصم الأحول، عن أبي مجلز: كان اسم هذا الرجل حبيب بن مُرَىٰ. ثم قيل: كان نجَّارًا. وقيل: حبَّالا. وقيل: إسْكَافًا. وقيل: قصَّارًا. وقيل: كان يتعبد في غار

هناك. فالله أعلم.

وعن ابن عباس: كان حبيبٌ النَّجَّارُ قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة، قتله قومه.

ولهذا قال تعالى: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ يعني: لما قتله قومه أدخله الله الجنة، فلما رأى ما فيها من النضرة والسرور ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ يعني: ليؤمنوا بما آمنت به، فيحصل لهم ما حصل لي.

قال ابن عباس: نصح قومه في حياته: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد مماته: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾. رواه ابن أبي حاتم. وكذلك قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحًا، لا تلقاه غاشًا، لما عاين ما عاين من كرامة الله قال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ تمنى - والله - أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هم عليه.

قال قتادة: فلا والله، ما عاتب الله قومه بعد قتله ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي؛ ما احتجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جندٍ من السماء عليهم. هذا معنى ما رواه ابنُ إسحاق[(١)] عن بعض أصحابه، عن ابن مسعود.

وقال مجاهدٌ[(٢)]، وقتادةُ[(٣)]: وما أنزل عليهم جندًا، أي: رسالةً أخرى. قال ابن جرير: والأولُ أولى.

قلتُ: وأقوى. ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي؛ وما كنا نحتاج في الانتقام إلى هذا، حين كذَّبوا رُسُلنا وقتلوا وليَّنا ﴿إن كانت إلى صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾.

قال المفسرون: بعث الله إليهم جبريل، عليه السلام، فأخذ بعضادتي الباب الذي لبلدهم، ثم صاح بهم صيحةً واحدةً ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾: أي؛ قد أخمدت أصواتهم، وسكنت حركاتهم، ولم يبق منهم عينٌ تطرف. وهذا كله مما يدل على أنَّ هذه القرية ليست أنطاكية؛ لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم رسل الله إليهم، وأهل أنطاكية آمنوا، واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم؛ فلهذا قيل: إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح. فأما الحديث الذي رواه الطبراني، من حديث حسين الأشقر، عن سفيان بن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «السُّبَّقُ ثلاثةٌ، فالسَّابقُ إلى موسى يوشع بن نون، والسابق إلى عيسى صاحب يس، والسابق إلى محمد عليُّ بن أبي طالب»[(٤)]. فإنه حديثٌ لا يثبت؛ لأنَّ حسينًا هذا متروك، وشيعيٌّ من الغلاة، وتفرده بهذا مما يدلُّ على ضعفه بالكلية. والله أعلم.

---

(١) ضعيف: رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١) فيه ابن حميد، وجهالة من حدَّث ابن إسحاق.

(٢) صحيح إليه: ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١) من رواية ابن أبي نجيح والقاسم عنه.

(٣) حسن: ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١) من رواية سعيد.

(٤) ضعيف: الطبراني في «الكبير» (١١١٥٢) فيه الحسين بن أبي السري ضعيف. والحسين بن الحسن الأشقر شيعي يغلو فلعل الحديث منه.

قصة يونس، عليه الصلاة والسلام

قال الله تعالى في سورة «يونس»: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]. وقال تعالى في سورة «الأنبياء»: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ـ ٨٨]. وقال تعالى في سورة «الصافات»: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٣٩ـ١٤٨]. وقال تعالى في سورة «نون»: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨ـ٥٠].

قال أهل التفسير: بعث الله يونس، عليه السلام، إلى أهل نينوى؛ من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عز وجل، فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم، خرج من بين أظهرهم، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث. قال ابن مسعود[١]، ومجاهد[٢]، وسعيد ابن جبير[٣]، وقتادة[٤]، وغير واحد من السلف والخلف: فلمَّا خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيِّهم، فلبسوا المُسُوحَ، وفرَّقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجوا إلى الله عز وجل، وصرخوا وتضرعوا إليه، وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء، والبنون والبنات، والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب والمواشي، ورغت الإبل وفُصْلانُها، وخارت البقر وأولادها، وثَغَت الغنم وحُمْلانُها، وكانت ساعة عظيمة هائلة، فكشف الله العظيم، بحوله وقوته، ورأفته ورحمته، عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم سببه، ودار على رءوسهم كقطع الليل المظلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ أي؛ هلا وُجِدَتْ فيما سلف من القرون قريةٌ آمنت بكمالها. فدلَّ على أنه لم يقع ذلك، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤]. وقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي؛ آمنوا بكمالهم. وقد اختلف المفسِّرون؛ هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة، فينقذهم من العذاب الأخرويِّ كما أنقذهم من العذاب الدنيويِّ؟ على قولين، الأظهر من السياق:

---

(١) صحيح إليه: رواه ابن أبي حاتم (١٠٥٩٧) وابن جرير (٧/ ١١/ ١٧٢) من رواية أبي إسحاق السبيعي عن عمرو بن ميمون عنه.

(٢) رواه ابن جرير (٧/ ١١/ ١٧٢) من رواية ابن أبي نجيح عنه.

(٣) في سنده ضعيف: ابن أبي حاتم (١٠٦٠٣) وابن جرير (٧/ ١١/ ١٧٢) من رواية إسماعيل بن عبد الملك وإسماعيل كثير الوهم.

(٤) صحيح إليه: ابن جرير (٧/ ١١/ ١٧٢) وابن أبي حاتم (١٠٦٠٥).

نعم إن شاء الله. والله أعلم. كما قال تعالىٰ: ﴿لَمَّا آمَنُوا﴾. وقال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وهذا المتاع إلىٰ حين لا ينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخرويِّ. والله أعلم.

وقد كانوا مائة ألفٍ لا محالة. واختلفوا في الزيادة؛ فعن مكحول: عشرةُ آلاف. وروىٰ الترمذيُّ[1]، وابن جرير[2]، وابن أبي حاتم[3]، من حديث زهير، عمن سمع أبا العالية، حدثني أبيُّ بن كعب، أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال: «يزيدون عشرين ألفًا». فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً في هذا الباب.

وعن ابن عباس[4]: كانوا مائة ألفٍ وثلاثين ألفًا. وعنه: وبضعةً وثلاثين ألفًا. وعنه: وبضعةً وأربعين ألفًا. وقال سعيد بن جبير[5]: كانوا مائة ألفٍ وسبعين ألفًا. واختلفوا؛ هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده، أو هما أُمَّتان؟ علىٰ ثلاثة أقوال، هي مبسوطةٌ في «التفسير».

والمقصود أنَّه، عليه السلام، لما ذهب مغاضبًا بسبب قومه، ركب سفينةً في البحر، فلجَّت بهم واضطربت، وماجت بهم وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون، علىٰ ما ذكره المفسِّرون، قالوا: فاشتوروا فيما بينهم علىٰ أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة؛ ليتخففوا منه، فلما اقترعوا وقعت القرعة علىٰ نبيِّ الله يونس، فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانيةً فوقعت عليه أيضًا، فشمَّر ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه، فأبوا عليه ذلك، ثم أعادوا القرعة ثالثةً فوقعت عليه أيضًا؛ لما يريده الله به من الأمر العظيم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ وذلك أنه لمَّا وقعت عليه القرعة، أُلقيَ في البحر، وبعث الله، عز وجل، حوتًا عظيمًا من البحر الأخضر فالتقمه، وأمره الله تعالىٰ: أن لا تأكل له لحمًا، ولا تَهْشِم له عظمًا، فليس لك برزقٍ فأخذه فطاف به البحار كلها. وقيل: إنه ابتلع ذلك الحوتَ حوتٌ آخرُ أكبر منه: قالوا: ولما استقرَّ في جوف الحوت، حسب أنه قد مات، فحرَّك جوارحه فتحركت، فإذا هو حيٌّ، فخرَّ لله ساجدًا، وقال: يا ربِّ، اتخذتُ لك مسجدًا لم يعبدك أحدٌ في مثله.

وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه؛ فقال مجالدٌ عن الشعبيِّ[6]: التقمه ضحىً، ولفظه عشيَّةً، وقال قتادةُ[7]: مكث فيه ثلاثًا. وقال جعفر الصادق: سبعةَ أيام. ويشهد له شعرُ أميَّةَ بن أبي الصَّلت:

وأنت بفضلٍ منك نجيتَ يونسًا ... وقد باتَ في أضعافِ حوتٍ لياليا

---

(١) ضعيف: الترمذي (٣٢٢٩) وقال: غريب. (٢) ضعيف: ابن جرير (١٢/ الجزء٢٣/ ١٠٤).

(٣) ضعيف: ابن أبي حاتم (١٨٢٩٧) وعلته هذا الرجل المبهم بين زهير وأبي العالية.

(٤) ضعيف إليه: رواه ابن جرير (١٢/ الجزء٢٣/ ١٠٤) وفيه المؤمل بن إسماعيل يخطئ والحكم بن عبد اللَّه لم أقف له على ترجمة، وأظنه ما ترجم له الحافظ في «اللسان» قال الحكم: يروي عن ابن عباس. قال ابن حبان: لا أدري من هو ولا ابن من هو.

(٥) ضعيف: رواه ابن جرير نفس المصدر وفيه ابن حميد ضعيف ويعقوب القمي كذلك.

(٦) ضعيف: رواه أحمد في «الزهد» (٤٥) وفيه مجالد ضعيف.

(٧) عزاه السيوطي كذلك لابن أبي حاتم.

وقال سعيد بن أبي الحسن[١] ، وأبو مالك[٢] : مكث في جوفه أربعين يومًا . والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه . والمقصود أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجيَّة ، ويقتحم به لجج الموج الأجاجيِّ ، فسمع تسبيح الحيتان للرحمن ، وحتىٰ سمع تسبيح الحصىٰ لفالق الحب والنوىٰ ، ورب السموات السبع ، والأرَضينَ السبع ، وما بينهما ، وما تحت الثرىٰ ، فعند ذلك وهنالك قال ما قال بلسان الحال والمقال ، كما أخبرَ عنه ذو العزَّة والجلال ، الذي يعلمُ السرَّ والنَّجوىٰ ، ويكشفُ الضُّرَّ والبلوىٰ ، سامعُ الأصواتِ وإن ضعفت ، وعالمُ الخفيَّات وإن دقَّت ، ومجيبُ الدعوات وإن عظمت ، حيث قال في كتابه المبين ، المنزَّل علىٰ رسوله الأمين ، وهو أصدق القائلين ، وربُّ العالمين ، وإله المرسلين : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي ؛ نضيِّق وقيل : معناه نقدِّر ، من التقدير . وهي لغةٌ مشهورةٌ : قدر ، وقدَّر . كما قال الشاعر :

فلا عائدٌ ذاك الزمان الذي مضىٰ ... تباركتَ ما تقدرْ يكنْ فلك الأمرُ

﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ قال ابن مسعود[٣] ، وابن عباس[٤] ، وعمرو بن ميمون[٥] ، وسعيد بن جبير[٦] ، ومحمد بن كعب[٧] ، والحسن[٨] ، وقتادةُ[٩] ، والضحّاكُ[١٠] : ظلمةُ بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل . وقال سالم بن أبي الجعد[١١] : ابتلع الحوت حوتٌ آخرُ ، فصار ظلمةُ الحوتينْ مع ظلمة البحر .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ قيل : معناه ؛ لولا أنه سبح الله هنالك ، وقال ما قال من التهليل والتسبيح ، والاعتراف لله بالخضوع ، والتوبة إليه ، والرجوع إليه ، للبث هنالك إلىٰ يوم القيامة ، ولبعث من جوف ذلك الحوت . هذا معنىٰ ما روي عن سعيد بن جبير[١٢] في إحدىٰ الروايتين عنه .

وقيل : معناه : فلولا أنّه كان من قبل أخذ الحوت له من المسبِّحين أي ؛ المطيعين المصلين

---

(١) صحيح إليه : رواه ابن جرير (١٠/ ١٧/ ٧٩) من رواية عوف عنه.
(٢) صحيح إليه : رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١٠١) من رواية السدي عنه.
(٣) صحيح إليه : رواه الحاكم (٢/ ٣٨٣) وابن جرير (١٠/ ١٧/ ٨٠) من رواية إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عنه.
(٤) ضعيف إليه : ابن جرير (١٠/ ١٧/ ٨٠) وفيه ابن حميد ضعيف وابن إسحاق عنعن.
(٥) ضعيف إليه : ابن جرير (١٠/ ١٧/ ٨٠) وفيه الحسين بن داود سنيد ضعيف لكن يشهد له (١).
(٦) صحيح إليه : رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٤٦٠) من رواية إسماعيل بن عبد الملك عنه.
(٧) ضعيف إليه : رواه ابن جرير (١٠/ ١٧/ ٨٠) بسند ضعيف فيه محمد بن رفاعة قال الأزدي : منكر.
(٨) صحيح إلى الحسن : رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٧٩) من رواية قتادة عنه.
(٩) صحيح إليه : رواه ابن جرير (١٠/ ١٧/ ٨٠) من رواية سعيد ومعمر عنه.
(١٠) ضعيف إليه : قال الطبري حدثت عن الحسين نفس المصدر ص٧٨.
(١١) صحيح إليه : ابن جرير (١٠/ ١٧/ ٨٠) من رواية منصور عنه.
(١٢) ضعيف إليه : رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١٠١) وفيه ابن حميد ضعيف.

الذاكرين الله كثيرًا. قاله الضحاكُ بن قيسٍ[١] ، وابنُ عباس[٢] ، وأبو العاليةِ[٣] ، ووهبُ بن منبِّهٍ[٤] ، وسعيد بن جبيرٍ[٥] ، والضحَّاكُ[٦] ، والسُّدِّيُّ[٧] ، وعطاءُ بن السائب[٨] ، والحسنُ البصريُّ[٩] ، وقتادة[١٠] ، وغير واحد. واختاره ابن جريرٍ، ويشهد لهذا ما رواه الإمامُ أحمد[١١] وبعض أهل السُّنَنِ، عن ابن عباسٍ، أن رسول الله ﷺ: قال لي: «**يا غلامُ، إني معلمُك كلمات؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**».

وروى ابن جرير[١٢] في «تفسيره»، والبزَّارُ في «مسنده»، من حديث محمد بن إسحاق، عمَّن حدَّثه، عن عبد الله بن رافع مولىٰ أمِّ سلمة، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت، أن خذ، ولا تخدش لحمًا، ولا تكسر عظمًا. فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حسًّا، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه، وهو في بطن الحوت: إنَّ هذا تسبيح دوابِّ البحر**». قال: «**فسبَّح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا، إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة. قال: ذاك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كلِّ يوم وليلة عملٌ صالحٌ؟ قال: نعم**». قال: «**فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾**».
هذا لفظُ ابن جريرٍ إسنادًا ومتنًا. ثم قال البزَّار: لا نعلمه يروىٰ عن النبيِّ ﷺ إلا بهذا الإسناد. كذا قال.

وقد قال ابن أبي حاتم[١٣] في «تفسيره»: حدثنا أبو عبيد الله أحمد بنُ عبد الرحمن ابنُ أخي ابن وهبٍ، حدثنا عمِّي، حدثني أبو صخرٍ، أن يزيد الرقاشيَّ حدَّثه قال: سمعت أنس بن مالكٍ، ولا أعلم إلا أنَّ أنسًا يرفع الحديث إلىٰ رسول الله ﷺ: «**إن يونس النبيَّ، عليه السلام، حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات، وهو في بطن الحوت قال: اللهمَّ لا إله إلا أنت سبحانك إنِّي كنت من الظالمين. فأقبلت الدعوةُ تحنُّ بالعرش، فقالت الملائكة: يا ربِّ، صوتٌ ضعيفٌ معروفٌ من بلاد غريبة. فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: يا ربِّ، ومن هو؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونسُ الذي لمَ يزل يُرفع له عملٌ متقبلٌ ودعوةٌ مجابةٌ؟ قال: نعمْ. قالوا: يا ربِّ، أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء، فتنجيه من البلاء؟ قال:**

---

(١) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١٠٠) من رواية جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران عنه.
(٢) **حسن إليه**: رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١٠٠) من رواية عاصم بن بهدلة عن أبي رزين عنه.
(٣) **ضعيف إليه**: رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١٠٠) فيه ابن يمان ضعيف، أبو جعفر الرازي كذلك.
(٤) **صحيح إليه**: رواه عبد الرزاق (٢٥٥٧) عن المنذر بن النعمان عنه، والمنذر وثقه ابن معين.
(٥) **حسن إليه**: رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١٠٠) من رواية الثوري عن أبي الهيثم وهو المرادي عنه.
(٦) **ضعيف إليه**: ابن جرير (١٠/ ١٧/ ٧٨) قال: حدثت عن الحسين فيه مبهم مختصراً من قصة ولم يذكر هذا اللفظ.
(٧) **حسن إليه**: ابن جرير (١٠/ ١٧/ ٧٨) من رواية أسباط عنه.
(٨) لم أقف عليه.
(٩) **حسن إليه**: رواه الحاكم (٢/ ٥٨٤ ـ ٥٨٥) من رواية أبي حمزة العطار وعوف عنه وعزاه السيوطي لابن أبي حاتم.
(١٠) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ٩٩) من رواية سعيد ومعمر عنه.
(١١) **صحيح**: المسند (١/ ٣٠٧) بنفس اللفظ، الترمذي بلفظ آخر نحوه.
(١٢) **منكر**: رواه ابن جرير (١٠/ الجزء ١٧/ ٨٠) والبزار «كشف الأستار» (٢٢٥٤) قال الحافظ: هذا خبر منكر.
(١٣) **ضعيف**: ابن أبي حاتم (١٣٧١٠) وأيضًا ابن جرير (١٢/ الجزء ٢٣/ ١٠٠) من طريق يونس عن ابن وهب عن أبي صخر مثله وعلته يزيد الرقاشي ضعيف.

بلى. فأمر الحوت فطرحه في العراء». ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب به. زاد ابن أبي حاتم: قال أبو صخر حميدُ بن زيادٍ: فأخبرني ابن قُسَيْط وأنا أحدِّثه هذا الحديث، أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة. قلنا: يا أبا هريرة، وما اليقطينة؟ قال: شجرةُ الدبَّاء. قال أبو هريرة: وهيَّأ الله له أرويَّةً وحشيةً تأكل من خشاش الأرض - أو قال: هشاش الأرض - قال: فتنفشخ عليه فترويه من لبنها، كلَّ عشيَّة وبكرة، حتى نبت. وقال أميَّةُ بنُ أبي الصَّلت في ذلك بيتًا من شعره:

فأنبت يقطينًا عليه برحمة … من الله لولا الله ألفيَ ضاحيَا

وهذا غريب أيضًا من هذا الوجه، ويزيدُ الرقاشيُّ ضعيفٌ، ولكن يتقوىٰ بحديث أبي هريرة المتقدِّم، كما يتقوىٰ ذاك بهذا. والله أعلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أي؛ ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ وهو المكان القفر الذي ليس فيه شيءٌ من الأشجار، بل هو عارٍ منها ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي؛ ضعيف البدن. قال ابن مسعودٍ[1]: كهيئة الفرخ، ليس عليه ريشٌ. وقال ابن عباس[2]، والسُّدِّيُّ[3]، وابن زيدٍ[4]: كهيئة الصَّبيِّ حين يولد، وهو المنفوس، ليس عليه شيءٌ.

﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ قال ابن مسعودٍ[5]، وابن عباس[6]، وعكرمة[7]، ومجاهدٌ[8]، وسعيد بن جبيرٍ[9]، ووهب بن منبِّه[10]، وهلال بن يساف[11]، وعبد الله بن طاوس[12]، والسُّدِّيُّ[13]، وقتادةُ[14]، والضحاكُ[15]، وعطاءٌ الخراسانيُّ[16]، وغير واحدٍ: هو القرْع.

قال بعض العلماء: في إنبات القرْع عليه حِكَمٌ جمَّةٌ، منها: أنّ ورقه في غاية النعومة، وكثيرٌ وظليلٌ، ولا يقربه ذبابٌ، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلىٰ آخره، نيئًا ومطبوخًا، وبقشره وببزره أيضًا، وفيه نفعٌ كثيرٌ، وتقويةٌ للدماغ، وغير ذلك. وتقدَّم كلام أبي هريرة في تسخير الله تعالىٰ له تلك الأرويَّة التي كانت ترضعه لبنها، وترعىٰ في البرية، وتأتيه بكرةً وعشيةً. وهذا من رحمة الله

---

(١) **صحيح إليه:** رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٤٥٩) من رواية أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عنه.

(٢) **ضعيف إليه:** رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١٠٢) فيه ابن حميد ضعيف وشيخه سلمة متكلم فيه.

(٣) **حسن إليه:** رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١٠٢) من رواية أسباط عنه.

(٤) **صحيح إليه:** رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١٠٢) من رواية يونس عن ابن وهب عنه.

(٥) **صحيح إليه:** رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١٠٢) من رواية شعبة عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عنه.

(٦) **ضعيف إليه:** رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١٠٢) وفيه كاتب الليث عبد الله بن صالح ضعيف والانقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عباس.

(٧) عزاه السيوطي لعبد بن حميد.

(٨) **صحيح إليه:** رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١٠٢) من رواية ابن أبي نجيح ومنصور عنه قال: الدباء مرة، والقرع مرة.

(٩) **صحيح إليه:** ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١٠٢) من رواية القاسم بن أبي أيوب وورقاء عنه.

(١٠) **صحيح إليه:** عبد الرزاق (٢٥٥٧) مختصرًا وعزاه السيوطي لعبد بن حميد بطوله.

(١١) لم أقف عليه.

(١٢) **صحيح إليه:** رواه عبد الرزاق (٢٥٥٠) عنه عن أبيه.

(١٣) **حسن إليه:** رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١٠٣) من رواية أسباط عنه.

(١٤) **حسن إليه:** رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١٠٣) من رواية سعيد عنه.

(١٥) **فيه ضعف إليه:** رواه ابن جرير (١٢/ ٢٣/ ١٠٣) قال الطبري: حدثت عن الحسين فأبهم شيخه.

(١٦) لم أقف عليه.

به، ونعمته عليه، وإحسانه إليه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي؛ الكرب والضيق الذي كان فيه ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي؛ وهذا صنيعنا بكلِّ مؤمنٍ دعانا واستجار بنا.

قال ابن جرير[1] : حدثني عمران بن بكَّار الكلاعيُّ، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبدالرحمن، حدثني بشر بن منصور، عن عليِّ بن زيد، عن سعيد بن المسيَّب، قال: سمعت سعد ابن مالك - وهو ابن أبي وقاص - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى: دعوةُ يونس بن متَّى**». قال: فقلتُ: يا رسول الله، هي ليونس خاصَّةً أم لجماعة المسلمين؟ قال: «**هي ليونس خاصَّةً، وللمؤمنين عامَّةً إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾**. فهو شرطٌ من الله لمن دعاه به».

وقال ابن أبي حاتم[2] : حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن كثير بن زيد، عن المطلب بن حنطب - قال أبو خالد: أحسبه عن مصعب - يعني ابن سعد - عن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**من دعا بدعاء يونس استجيب له**». قال أبو سعيد الأشجُّ: يريد به ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. وهذان طريقان عن سعد.

وثالثٌ أحسنُ منهما؛ قال الإمام أحمد[3] : حدثنا إسماعيل بن عمر، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمدانيُّ، حدثنا إبراهيمُ بن محمد بن سعد، حدثني والدي محمدٌ، عن أبيه سعدٍ - وهو ابن أبي وقاص - قال: مررْتُ بعثمان بن عفان في المسجد، فسلَّمتُ عليه، فملأ عينيه منِّي، ثم لم يردد عليَّ السلام، فأتيتُ عمر بن الخطاب، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، هل حدث في الإسلام شيءٌ؟ مرتين. قال: لا، وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أني مررتُ بعثمان آنفًا في المسجد، فسلَّمتُ عليه، فملأ عينيه منِّي، ثم لم يردد عليَّ السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت. قال سعدٌ: قلت: بلى. حتى حلف وحلفت. قال: ثم إنَّ عثمان ذكر، فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفًا، وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ، لا والله، ما ذكرتها قط إلا تغشَّى بصري وقلبي غشاوةٌ. قال سعدٌ: فأنا أنبئُك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أوَّلَ دعوةٍ، ثم جاء أعرابيٌّ فشغله، حتى قام رسول الله ﷺ، فاتَّبعْتُه، فلمَّا أشفقتُ أن يسبقني إلى منزله، ضربتُ بقدمي الأرض، فالتفت إليَّ رسول الله ﷺ، فقال: «**من هذا؟ أبو إسحاق؟**» قال: قلتُ: نعمْ، يا رسول الله. قال: «**فَمَهْ؟**» قلتُ: لا والله، إلا أنَّك ذكرت لنا أول دعوةٍ، ثم جاء هذا الأعرابيُّ فشغلك. قال: «**نعم، دعوةُ ذي**

---

(١) **صحيح بمجموع طرقه**: رواه ابن جرير (١٠/ ١٧/ ٨٢) وفي سنده علي بن زيد ضعيف.

(٢) ابن أبي حاتم (١٣٧١٣) وفيه كثير بن زيد صدوق يخطئ والمطلب كثير الإرسال.

(٣) **صحيح بمجموع طرقه**: المسند (١/ ١٧٠)، والترمذي (٣٥٠٥)، النسائي «الكبرى» (١٠٤٩٢) جميعهم من رواية يونس بن أبي إسحاق وهذا سند جيد ومن طريق محمد بن مهاجر عند النسائي «الكبرى» (١٠٤٩١) فالحديث يصح بمجموع الطرق إلى سعد رضي الله عنه.

النُّون؛ إذ هو في بطن الحوت: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإنه لم يدعُ بها مسلمٌ ربَّه في شيءٍ قطُّ إلا استجاب له». ورواه الترمذيُّ، والنَّسائيُّ، من حديث إبراهيم بن محمد بن سعدٍ به.

ذكرُ فضلِ يونسَ، عليه السلامُ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩]. وذكَره تعالى في جملةِ الأنبياءِ الكرام، في سورتَي «النساء» و«الأنعام»، عليهم من الله أفضلُ الصلاةِ والسلامِ.

وقال الإمامُ أحمدُ[١]: حدثنا وكيعٌ، حدثنا سفيانُ، عن الأعمشِ، عن أبي وائلٍ، عن عبدِ الله، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يَنبغي لأحدٍ أن يقولَ: أنا خيرٌ من يونُسَ بنِ متَّى». ورواه البخاري من حديث سُفيانَ الثَّوريِّ به.

وقال البخاريُّ[٢] أيضًا: حدثنا حَفْصُ بنُ عُمَرَ، حدثنا شعبةُ، عن قَتادةَ، عن أبي العاليةِ، عن ابنِ عباسٍ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «ما يَنبغي لعبدٍ أن يقولَ: إنِّي خيرٌ من يونُسَ بنِ متَّى». ونَسَبَه إلى أبيه. ورواه أحمدُ، ومسلمٌ، وأبو داودَ، من حديثِ شُعبةَ به. قال شُعبةُ فيما حكاه أبو داودَ عنه: لم يَسْمَعْ قَتادةُ من أبي العاليةِ سوى أربعةِ أحاديثَ، هذا أحدُها. وقد رواه الإمامُ أحمدُ[٣]، عن عفانَ، عن حمادِ بنِ سَلَمَةَ، عن عليِّ بنِ زيدٍ، عن يوسُفَ بنِ مِهْرَانَ، عن ابنِ عباسٍ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «وما ينبغي لعبدٍ أن يقولَ: أنا خيرٌ من يونُسَ بنِ متَّى». تفرَّد به أحمدُ.

ورواه الحافظُ أبو القاسم الطَّبَرانيُّ[٤]، حدثنا محمدُ بنُ الحسنِ بنِ كَيْسانَ، حدثنا عبدُ اللهِ بنُ رجاءٍ، أنبأنا إسرائيلُ، عن أبي يحيى القتاتِ، عن مُجاهدٍ، عن ابنِ عباسٍ، أن رسولَ الله ﷺ، قال: «لا ينبغي لأحدٍ أن يقولَ: أنا عندَ الله خيرٌ من يونُسَ بنِ متَّى». إسنادُه جيِّدٌ، ولم يُخرِّجوه.

وقال البخاريُّ: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبةُ، عن سعدِ بنِ إبراهيمَ، سمعتُ حُمَيْدَ بنَ عبدِالرحمنِ، عن أبي هُريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «لا ينبغي لعبدٍ أن يقولَ: أنا خيرٌ من يونُسَ بنِ متَّى»[٥]. وكذا رواه مسلمٌ من حديثِ شُعبةَ به. وفي «البخاريِّ»[٦] و«مسلمٍ» من حديث عبدِ الله بنِ الفَضْلِ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ هُرْمُزَ الأعْرَجِ، عن أبي هُريرةَ، في قصةِ المسلمِ الذي لطَم وجهَ اليهوديِّ حين قال: لا، والذي اصطَفَى موسى على العالمين. قال البخاريُّ[٧] في آخرِه: «ولا أقولُ: إنّ أحدًا خيرٌ من يونُسَ بنِ متَّى». أي؛ ليس لأحدٍ أن يُفضِّلَ نفسَه على يونسَ. وفي روايةٍ: «لا ينبغي لأحدٍ أن يفضِّلَني على يونُسَ بنِ متَّى». كما قد ورَد في بعضِ الأحاديث: «لا تُفضِّلوني على الأنبياء، ولا على يُونُسَ بنِ متَّى». وهذا من بابِ الهَضْمِ والتَّواضعِ منه، صلواتُ الله وسلامُه عليه، وعلى سائرِ أنبياءِ الله والمرسَلين.

---

(١) صحيح: المسند (١/ ٣٩٠)، البخاري (٤٦٠٣) بلفظ ما ينبغي لأحد.

(٢) متفق عليه: البخاري (٧٥٣٩)، المسند (١/ ٢٤٢)، مسلم (٦١١٠)، أبو داود (٤٦٧١).

(٣) ضعيف الإسناد: المسند (١/ ٢٥٤) وهذا السند ضعيف فيه علي بن زيد ويوسف بن مهران.

(٤) ضعيف الإسناد: الطبراني في «الكبير» (١١١٢٢) وسنده ضعيف فيه أبو يحيى لين الحديث.

(٥) متفق عليه: البخاري (٣٤١٦)، ومسلم (٦١٠٩).

(٦) متفق عليه: البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٦١٠٢).

(٧) صحيح: البخاري (٣٤١٥).

ذكرُ قصةِ موسى الكليمِ، عليه الصلاةُ والسلامُ

وهو موسى بنُ عمرانَ بنِ قاهثَ بنِ عازرَ بنِ لاوي بنِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ، عليهم السلامُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١-٥٣]. ذكَره بالرسالةِ والنُّبوَّةِ والإخلاصِ والتَّكليمِ والتَّقريبِ، ومَنَّ عليه بأن جعَل أخاه هارونَ نبيًّا وقد ذكَره اللهُ تعالى في مواضعَ كثيرةٍ متفرقةٍ من القرآنِ، وذكَرَ قصتَه في مَوَاضعَ متعددةٍ مبسوطةٍ، ومتوسِّطةٍ، ومختصرةٍ، وقد تكلَّمْنا على ذلك كلِّه في مواضعِه من «التفسير»، وسنُوردُ سيرتَه ههنا، من ابتدائِها إلى آخرِها من الكتابِ والسنَّةِ، وما ورَد في الآثارِ المنْقُولَةِ من الإسرائيلياتِ، التي ذكَرها السَّلَفُ وغيرُهم، إن شاءَ اللهُ، وبه الثِّقةُ وعليه التُّكْلانُ.

قال اللهُ تعالى: ﴿طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ١-٦].

يذكرُ تعالى مُلخَّصَ القصةِ ثم يَبسُطُها بعد هذا، فذكَر أنه سبحانَه يَتْلُوا على نبيِّه خبرَ موسى وفرعونَ بالحقِّ؛ أي بالصِّدقِ الذي كأنَّ سامعَه مُشاهِدٌ للأمرِ مُعاينٌ له ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي؛ تَجبَّرَ وعتا، وطغَى وبغَى، وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا وأعرَضَ عن طاعةِ الربِّ تعالى.

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي؛ قسَّم رعيتَه إلى أقسامٍ وفرَقٍ وأنواعٍ ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم شعبُ بني إسرائيلَ، الذين هم من سُلالةِ نبيِّ اللهِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ خليلِ اللهِ. وكانوا إذ ذاك خيارَ أهلِ الأرضِ، وقد سلَّطَ اللهُ عليهم هذا الملكَ الظالمَ الغاشمَ الكافرَ الفاجرَ، يَستعبِدُهم ويَستخدِمُهم في أخسِّ الصنائعِ والحِرَفِ، وأرْدَئِها، وأدناها، ومع هذا ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

وكان الحاملُ له على هذا الصَّنيعِ القَبيحِ أنَّ بني إسرائيلَ كانوا يَتدارَسون فيما بينَهم ما كانوا يَأْثُرونَه عن إبراهيمَ الخليلِ، عليه السلامُ، من أنه سيَخرجُ من ذُرِّيتِه غلامٌ يكونُ هلاكُ مَلكِ مصرَ على يديْه، وذلك، واللهُ أعلمُ، حينَ جرَى على سارَّةَ امرأةِ الخليلِ من مَلكِ مصرَ، ما جرَى من إرادتِه إيَّاها على السُّوءِ، وعصْمَةِ اللهِ لها.

وكانت هذه البِشارةُ مَشْهُورةً في بني إسرائيلَ، فتحدَّثَ بها القِبْطُ فيما بينَهم، ووصلَت إلى فرعونَ في مَجْلسِ مُسامَرتِه مع أُمَرائِه وأساوِرتِه وهم يَسمُرون عندَه، فأمَر عند ذلك بقتلِ أبناءِ بني إسرائيلَ؛ حَذَرًا من وجودِ هذا الغُلامِ، ولن يُغْنيَ حَذَرٌ من قَدَرٍ.

وذكر السُّدِّيُّ[1] : عن أبي صالحٍ، وأبي مالكٍ، عن ابنِ عباسٍ، وعن مُرَّةَ، عن ابنِ مسعودٍ، وعن أناسٍ من الصَّحابةِ أن فرعونَ رأىٰ في منامه كأنَّ نارًا قد أقْبلَت من نحوِ بيتِ المقدسِ، فأحْرَقَت دُورَ مصرَ وجميعَ القِبْطِ، ولم تضُرَّ بني إسرائيلَ، فلمَّا استيقَظَ هالَه ذلك فجمع الكَهَنَةَ والحُزاةَ والسَّحَرةَ وسألهم عن ذلك، فقال له الكَهَنةُ: هذا غلامٌ يُولَدُ مِن بني إسرائيلَ، يكونُ سببُ هلاك أهلِ مصرَ علىٰ يديْه. فلهذا أمَر بقتلِ الغلمانِ وتَرْك النِّسوان. ولهذا قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ وهم بنو إسرائيلَ ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ أي؛ الذين يَئُولُ مُلْكُ مصرَ وبلادُها إليهم ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ أي؛ سنجعلُ الضعيفَ قويًّا، والمقهورَ قاهرًا، والذليلَ عزيزًا. وقد جرىٰ هذا كلُّه لبني إسرائيلَ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧- ٥٩]. وسيأتي تفصيلُ ذلك في موضعِه إن شاءَ اللهُ تعالىٰ.

والمقصودُ أن فرعونَ احترَز كلَّ الاحترازِ ألا يُوجَدَ موسىٰ، حتىٰ جَعَلَ رجالاً وقَوابلَ يدُورون علىٰ الحَبَالَىٰ، ويَعلَمون ميقاتَ وَضْعِهنَّ، فلا تلِدُ امرأةٌ ذَكَرًا إلا ذَبَحه أولئك الذَّبَّاحون مِن ساعتِه. وعندَ أهلِ الكتابِ أنَّه إنَّما كان يأمرُ بذَبْحِ الغِلْمانِ لِتَضْعُفَ شوكةُ بني إسرائيلَ، فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم. وفي هذا نظرٌ، بل هو باطلٌ، وإنما وقع هذا بعدَ بَعْثَة موسىٰ فجعل يَقْتُلُ الوِلْدانَ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ [غافر: ٢٥]. ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩]. فالصحيحُ أن فرعونَ إنما أمر بقتلِ الغلمانِ أولا حَذَرًا من وجودِ موسىٰ عليه السلامُ.

هذا، والقَدَرُ يقولُ: يا أيُّها المَلِكُ الجبارُ، المغرورُ بكثرةِ جنودِه، وسُلْطةِ بأسِه واتِّساعِ سلطانِه، قد حكَم العظيمُ الذي لا يُغالَبُ ولا يُمانَعُ، ولا تُخالَفُ أقدارُه أن هذا المولودَ الذي تَحترِزُ منه، وقد قَتلْتَ بسببِه مِن النفوسِ ما لا يُعَدُّ ولا يُحصَىٰ، لا يكونُ مَرباه إلا في دارِك وعلىٰ فِراشِك، ولا يُغَذَّىٰ إلا بطَعامِك وشَرابِك في مَنْزِلك، وأنت الذي تتبنَّاه وتُربِّيه وتَتَعَداه، ولا تَطَّلعُ علىٰ سرِّ معناه، ثم يكونُ هلاكُك في دُنياك وأخراك علىٰ يديْه؛ لمُخالَفَتك ما جاءَك به مِن الحقِّ المبينِ، وتَكْذِيبِك ما أوحِيَ إليه، لتَعْلَمَ أنت وسائِرُ الخَلْقِ أن ربَّ السمواتِ والأرضِ هو الفعَّالُ لِمَا يريدُ، وأنه هو القويُّ الشديدُ، ذو البأسِ العظيمِ، والحوْلِ والقوةِ والمشيئةِ، التي لا مَرَدَّ لها.

وقد ذكر غيرُ واحدٍ من المفسرين، أن القِبْطَ شَكَوْا إلىٰ فرعونَ قلةَ بني إسرائيلَ، بسببِ قتلِ

---

(١) حسن: رواه ابن جرير في «التاريخ» (١/ ٢٣٢) من رواية موسى بن هارون وتكلمت على هذا السند في قصة آدم وذكرت تصحيح الشيخ أحمد شاكر له.

ولدانهم الذكور، وخشوا أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يلون ما كان يليه بنو إسرائيل من الأعمال الشاقة، فأمر فرعون بقتل الأبناء عامًا، وأن يتركوا عامًا، فولد هارون، عليه السلام، في عام المسامحة عن قتل الأبناء، وولد موسى، في عام قتلهم، فضاقت أمه به ذرعًا، واحترزت من أول ما حبلت به، ولم يكن يظهر عليها مخايل الحبل، فلما وضعت أُلهمت أن اتخذت له تابوتًا، فربطته في حبل، وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت ترضعه، فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت فأرسلته في البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به.

قال الله تعالى: ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [القصص: ٧-٩]. هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا** ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]. وليس هو بوحي نبوة؛ كما زعمه ابن حزم، وغير واحد من المتكلمين، بل الصحيح الأول، كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة.

قال السهيلي: واسم أم موسى ياوخ. وقيل: أياذخت.

والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه، وأُلقي في خلدها وروعها أن لا تخافي ولا تحزني، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك، وإن الله سيجعله نبيًا مرسلًا، يعلي كلمته في الدنيا والآخرة، فكانت تصنع ما أمرت به، فأرسلته ذات يوم، وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها، فذهب مع النيل، فمر على دار فرعون ﴿ **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ** ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ **لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا** ﴾ قال بعضهم: هذه لام العاقبة. وهو ظاهر إن كان متعلقًا بقوله: ﴿ **فَالْتَقَطَهُ** ﴾. وأما إن جعل متعلقًا بمضمون الكلام؛ وهو أن آل فرعون قيضوا لالتقاطه؛ ليكون لهم عدوًا وحزنًا، صارت اللام معللة لغيرها، والله أعلم.

ويقوي هذا التفسير الثاني قوله: ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ** ﴾ وهو الوزير السوء ﴿ **وَجُنُودَهُمَا** ﴾ المتابعين لهما ﴿ **كَانُوا خَاطِئِينَ** ﴾ أي؛ كانوا على خلاف الصواب، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة.

وذكر المفسرون [1] أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسرن على فتحه، حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون؛ آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد، الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف. وقيل: إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى. وقيل: بل كانت عمته. حكاه السهيلي. فالله أعلم. وسيأتي مدحها والثناء عليها في قصة مريم بنت عمران، وأنهما

(١) رواه ابن جرير المصدر السابق بنفس السند وهي قصة طويلة.

يكونان يومَ القيامة من أزواج رسول الله ﷺ في الجنَّة. فلمّا فَتَحت البابَ وكَشَفَت الحجابَ، رأت وجْهَه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة المُوسَوِيَّة، فلمَّا رأته ووقع نظرُها عليه أحبَّته حُبًّا شديدًا، فلمّا جاء فرعونُ قال: ما هذا؟ وأمر بذَبْحه، فاستوهبَتْه منه ودفَعَت عنه، وقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾. فقال لها فرعونُ: أمّا لك فَنَعَم، وأمّا لي فلا. أي؛ لا حاجةَ لي به. والبلاءُ مُوكَّلٌ بالمَنْطق.

وقولُها: ﴿لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ وقد أنالَها اللهُ ما رجَت من النَّفْع؛ أمّا في الدنيا فهداها اللهُ به، وأمّا في الآخرة فأسكنَها جنَّتَه بسببه ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وذلك لأنهما تبنياه؛ لأنه لم يكن لهما ولدٌ.

قال الله تعالى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي؛ لا يَدرون ماذا يريدُ اللهُ بهم، أن قيَّضهم لالتقاطه، من النِّقْمة العَظيمة بفرعونَ وجنوده.

وعندَ أهلِ الكتاب أنَّ الذي التقطتْ موسى وربَّتْه ابنةُ فرعونَ، وليس لامرأته ذِكْرٌ بالكُلِّيَّة. وهذا من غلطهم على كتاب الله، عزَّ وجلَّ.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ⦗١٠⦘ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⦗١١⦘ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ⦗١٢⦘ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٠-١٣].

قال ابنُ عباس(١)، ومُجاهدٌ(٢)، وعِكْرمةُ(٣)، وسعيدُ(٤) بنُ جُبَيْر، وأبو عُبيْدَةَ(٥)، والحسنُ(٦)، وقَتادةُ(٧)، والضَّحَّاكُ(٨)، وغيرُهم: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ أي؛ من كلِّ شيءٍ من أمور الدنيا إلا من أمر موسى ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي؛ لَتُظْهِرُ أمرَه وتسألُ عنه جَهْرةً.

﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي؛ صبَّرْناها وثبَّتْناها ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ⦗١٠⦘ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ﴾ وهي ابنتها الكبيرةُ: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي؛ اتَّبِعي أَثَرَه واطلُبي لي خَبَرَه ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ قال مُجاهدٌ(٩): عن بُعْدٍ. وقال قَتادةُ(١٠): جعلَت تَنظُرُ إليه وكأنَّها لا تريدُه. ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

---

(١) صحيح لطرقه: رواه ابن جرير (١١/ الجزء ٢٠/ ٣٥ـ ٣٦). رواه من خمسة طرق عن ابن عباس الأول: عن مجاهد وحسان أبي الأشرس عن سعيد بن جبير عنه. فيه جابر بن نوح ضعيف والثاني: من طريق حسان أبي الأشرس وحده عن سعيد عنه وهو أقواها. الثالث: من طريق علي بن أبي طلحة عنه فيه علي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس. الرابع: من طريق أبي إسحاق عن رجل عنه. فيه هذا المبهم الخامس: من طريق العوفي عنه. والعوفي ضعيف.

(٢) ضعيف الإسناد: رواه ابن جرير (١١/ الجزء ٢٠/ ٣٥ـ ٣٦) من رواية محمد بن عمارة ثنا عبد الله قال: حدثنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد. وهذا سند ضعيف فيه أبو يحيى الحماني صدوق يخطئ.

(٣ ـ ٦) ذكرهم ابن أبي حاتم ولم يسند عنهم. تفسيره (٩/ ٢٩٤٦).

(٧) صحيح إليه: رواه ابن جرير (١١/ الجزء ٢٠/ ٣٦) بسند صحيح وكذلك رواه ابن أبي حاتم (١٦٧١٠) من رواية سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٨) ضعيف: رواه ابن جرير (١١/ الجزء ٢٠/ ٣٦) بسند فيه مبهم وهو شيخ الطبري قال: حدثت عن الحسين.

(٩) صحيح إليه: رواه ابن جرير (١١/ ٢٠/ ٣٩) من رواية ابن أبي نجيح وابن جريج عنه.

(١٠) في سنده ضعف: رواه ابن جرير (١١/ ٢٠/ ٣٩) من رواية معمر عنه وعبد الرزاق (٢١٩٦)، رواية معمر عن قتادة متكلم فيها.

وذلك لأن موسى، عليه السلام، لما استقرَّ بدار فرعونَ أرادوا أن يُغَذُّوه برضَاعة، فلم يَقْبَلْ ثَدْيًا ولا أخَذَ طعامًا، فحاروا في أمره، واجتهدوا في ذلك، أي على تَغْذِيَته بكل ممكن فلم يَفْعَلْ، كما قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فأرسلُوه مع القوابلِ والنساء إلى السُّوق؛ لعلهم يجدونَ مَن يُوافقُ رَضَاعَتَه، فبينما هم وُقوفٌ به والناس عُكُوفٌ عليه، إذ بَصُرَت به أختُه، فلم تُظْهِرْ أنها تَعْرفُه، بل قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

قال ابنُ عباس[1]: لمّا قالت ذلك، قالوا لها: ما يُدْرِيك بنُصْحهم وشَفَقَتهم عليه؟ فقالت: رغبةً في صِهْرِ المَلِك، ورجاءَ منفعته. فأطلَقُوها وذهبوا معها إلى منزلهم، فأخذَتْه أمُّه، فلمّا أرضَعَتْه التقَمَ ثَدْيَها وأخذَ يمتَصُّه ويرتَضعُه، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، وذهَبَ البَشيرُ إلى آسية يُعْلِمُها بذلك، فاستَدْعَتْها إلى منزلها، وعرَضَتْ عليها أن تكونَ عندها، وأن تُحْسنَ إليها، فأبَتْ عليها وقالت: إن لي بَعْلاً وأولادًا، ولستُ أقدرُ على هذا إلا أن تُرسليه معي. فأرسلَته معها، ورتَّبَتْ لها رواتبَ، وأجْرَت عليها النفقات والكَساوَىٰ والهبات، فرجَعَت به تَحوزُه إلى رَحْلها، وقد جَمَع اللهُ شملَه بشملها.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي؛ كما وعدْناها بردِّه ورسالته، فهذا ردُّه، وهو دليلٌ على صدق البشارة برسالته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقد امتَنَّ اللهُ بهذا على موسى ليلةَ كلَّمه، فقال له فيما قال له: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٧-٣٩]. وذلك أنه لا يَراه أحدٌ إلا أحبَّه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ قال قتادة[2]، وغيرُ واحدٍ من السلف: أي تُطْعَمُ وتُرَفَّهُ وتُغذَّىٰ بأطيب المآكل، وتَلبَسُ أحسنَ الملابس؛ بمَرْأىٰ مني، وذلك كلُّه بحفظي وكَلاءَتي لك فيما صنعتُ بك ولك، وقدَّرْتُه من الأمور التي لا يَقدرُ عليها غيري ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]. وسنُوردُ حديثَ الفُتُونَ في موضعه بعدَ هذا، إن شاء اللهُ تعالى، وبه الثِّقةُ وعليه التُّكْلانُ.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٤-١٧]. لمّا ذكر تعالى أنه أنعم على أُمِّه بردِّه إليها، وإحسانه بذلك، وامتنانه عليها، شرع

---

(١) هذا الكلام جزء من حديث الفتون وسيأتي تخريجه والحكم عليه عند ذكر الحافظ له. ورواه مختصرًا ابن أبي حاتم (١٦٧٣٥) بسند صحيح من رواية القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٢) في سنده ضعف: رواه عبد الرزاق (١٨١٢) وابن جرير من طريقه (٩/ ١٦/ ١٦٢) عن معمر عنه ورواية معمر عنه متكلم فيها.

في ذكرِ أنه لمّا بَلَغَ أَشُدَّه واستوَىٰ؛ وهو احتكامُ الخلْقِ والخُلقِ، وهو سنُّ الأربعين، في قول الأكثرينَ، آتاهُ اللهُ حُكْمًا وعلمًا؛ وهو النُّبوة والرسالةُ التي كان بشَّر بها أمَّه، حيثُ قال: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. ثم شرَعَ في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر وذهابه إلىٰ أرض مدين وإقامته هنالك حتىٰ كَمَلَ الأجلُ، وانقضَىٰ الأمَدُ، وكان ما كان من كلامِ اللهِ له، وإكرامِه بما أكرَمَه به كما سيأتي.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

قال ابنُ عباسٍ[١]، **وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ**[٢]، **وعكْرِمةُ**[٣]، **وقَتادةُ**[٤]، **والسُّدِّيُّ**[٥]: وذلك نصفَ النهارِ. وفي روايةٍ عن ابنِ عباسٍ[٦]: بينَ العشاءَيْنِ ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي؛ يَتضاربان ويَتهاوشان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ أي؛ إسرائيليٌّ ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي؛ قِبْطِيٌّ. قاله ابنُ عباسٍ[٧]، وقَتادةُ[٨] والسُّدِّيُّ[٩]، ومحمدُ بنُ إسحاقَ[١٠].

﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ وذلك أن موسىٰ، عليه السلامُ، كانت له بديارِ مصرَ صَوْلةٌ، بسببِ نسبتِه إلىٰ تَبنِّي فرعونَ له وتربيتِه في بيتِه، وكانت بنو إسرائيلَ قد عَزُّوا وصارت لهم وَجَاهةٌ، وارتفَعت رءوسُهم بسببِ أنهم أرضَعُوه، وهم أخوالُه، أي من الرَّضاعة، فلمَّا استَغاثَ ذلك الإسرائيليُّ موسىٰ، عليه السلامُ، علىٰ ذلك القِبْطِيِّ، أقبَل إليه موسىٰ ﴿فَوَكَزَهُ﴾ قال مُجاهدٌ[١١]: أي طَعَنَه بجُمْعِ كَفِّه. وقال قَتادةُ[١٢]: بعَصًا كانت معه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي؛ فمات منها. وقد كان ذلك القِبْطيُّ كافرًا مشركًا بالله العظيمِ، ولم يُرِدْ موسىٰ قَتْلَه بالكلية، وإنما أراد زَجْرَه وردْعَه، ومع هذا قال موسىٰ: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾. أي؛ مِن العزِّ والجاهِ ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

---

(١) **رجاله ثقات**: رواه ابن أبي حاتم (١٦٧٥٥) وابن جرير (١١/ الجزء ٢٠/ ٤٤) وسنده رجاله ثقات من رواية ابن جريج عن ابن المنكدر عن عطاء بن يسار عن ابن عباس. فيه ابن جريج مدلس وقد عنعن.

(٢) **رجاله ثقات**: رواه ابن أبي حاتم (١٦٧٥٦) من رواية الأعمش عن سعيد. ويخشى من تدليس الأعمش.

(٣) ذكره ابن أبي حاتم، ولم يذكر له سندًا ذكره عقب الأثر السابق.

(٤) **صحيح**: ابن أبي حاتم (١٦٧٥٧) وابن جرير (١١/ الجزء ٢٠/ ٤٤) وسنده صحيح. من رواية سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٥) **حسن إليه**: رواه ابن جرير (١١/ الجزء ٢٠/ ٤٤) من رواية أسباط عنه. وهو سند حسن.

(٦) **ضعيف إليه**: رواه ابن جرير (١١/ الجزء ٢٠/ ٤٤) وابن أبي حاتم (١٦٧٥٨) من رواية ابن جريج عن عطاء الخراساني عنه وقد عنعن ابن جريج وعطاء الخراساني يهم ويدلس وقد خالف عطاء بن يسار.

(٧) **حسن إليه**: رواه ابن أبي حاتم (١٦٧٦١) وفيه أبو سعد البقال: هو سعيد بن المرزبان ضعيف ورواه ابن جرير (١١/ الجزء ٢٠/ ٤٥) بسند فيه الأصبغ بن زيد صدوق يغرب، بلفظ الفرعوني.

(٨) **حسن إليه**: رواه ابن جرير (١١/ الجزء ٢٠/ ٤٤). بسند حسن من رواية سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٩) **حسن إليه**: رواه ابن جرير (١١/ الجزء ٢٠/ ٤٤). من رواية أسباط عنه.

(١٠) **سنده لا بأس به**: رواه ابن أبي حاتم (١٦٧٦٢) بسند فيه سلمة بن الفضل وهو صدوق يخطئ وعبد الرحمن بن سلمة ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً.

(١١) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (١١/ ٢٠/ ٤٦) من رواية ابن أبي نجيح وابن جريج عنه.

(١٢) **صحيح إليه**: رواه عبد الرزاق (٢٢٠٢) وابن جرير (١١/ ٢٠/ ٤٦) من رواية معمر وسعيد عنه.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ١٨-٢١]. يخبرُ تعالىٰ أنَّ موسىٰ أصبَح بمدينةِ مصرَ خائفًا أي من فرعونَ وملَئه، أن يعلموا أن هذا القتيلَ الذي رُفع إليه أمرُه إنما قتلَه موسىٰ في نُصْرةِ رجلٍ من بني إسرائيلَ، فتقوىٰ ظُنونُهم أنَّ موسىٰ منهم ويترتَّبَ علىٰ ذلك أمرٌ عظيمٌ، فصار يسيرُ في المدينةِ في صبيحةِ ذلك اليومِ **﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾** أي؛ يتلفَّتُ. فبينما هو كذلك، إذا ذلك الرجلُ الإسْرائيليُّ الذي استنصَره بالأمسِ **﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾** أي؛ يصرُخُ به، ويستغيثُه علىٰ آخرَ قد قاتَلَه، فعنَّفه موسىٰ ولامَه علىٰ كثْرةِ شرِّه، ومُخاصمَته، قال له: **﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾**، ثُم أرادَ أن يبطِشَ بذلك القِبْطيِّ، الذي هو عدوٌّ لموسىٰ وللإسرائيليِّ، فيردَعه عنه ويُخلِّصَه منه، فلما عزَم علىٰ ذلك وأقبلَ علىٰ القِبْطيِّ **﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾** [القصص: ١٩]، قال بعضُهم: إنما قال هذا الكلامَ الإسرائيليُّ الذي اطَّلعَ علىٰ ما كان صنَع موسىٰ بالأمسِ، وكأنَّه لما رأىٰ موسىٰ مُقْبِلاً إلىٰ القِبطيِّ، اعتقَدَ أنه جاءَ إليه لَمَّا عنَّفه قبلَ ذلك بقولِه: **﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾**. فقال ما قال لموسىٰ، وأظْهَر الأمرَ الذي كان وقَع بالأمسِ، فذهب القِبطيُّ فاستَعْدَىٰ فِرعون علىٰ موسىٰ. وهذا الذي لم يَذْكُرْه كثيرٌ من الناسِ سواه. ويَحتمِلُ أنَّ قائلَ هذا هو القِبْطيُّ، وأنَّه لَمَّا رآه مُقْبِلاً إليه خافَه؛ ورأىٰ مِن سَجيَّتِه انتصارًا جيِّدًا للإسرائيليِّ، فقال ما قال مِن بابِ الظَّنِّ والفِراسةِ، أن هذا لعلَّه قاتلُ ذاك القتيلِ بالأمسِ، أو لعلَّه فَهِم من كلامِ الإسْرائيليِّ، حينَ اسْتَصْرَخَه عليه، ما دلَّه علىٰ هذا. واللهُ أعلمُ. والمقصودُ أن فرعونَ بلَغه أن موسىٰ هو قاتلُ ذلك المقتولِ بالأمسِ، فأرسَلَ في طلبِه، وسبَقَهم رجلٌ ناصحٌ من طريقٍ أقربَ إليه، **﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾** ساعيًا إليه مشفقًا عليه فقال: **﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾** أي؛ من هذه البلدةِ **﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾** أي؛ فيما أقولُه لك.

قال اللهُ تعالى: **﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾** أي؛ فخرَج من مدينةِ مصرَ مِن فورِه، علىٰ وجهِه، لا يَهتدي إلىٰ طريقٍ ولا يَعرِفُه، قائلاً: **﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٢-٢٤]. يُخبِرُ تعالىٰ عن خروجِ عبدِه ورسولِه وكَليمِه من مصرَ **﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾** أي؛ يتلَفَّتُ خَشْيةَ أنْ يُدرِكَه أحدٌ مِن قومِ فرعونَ، وهو لا يَدري أين يتوجَّهُ، ولا إلىٰ أين يذهبُ؛ وذلك لأنَّه لم يَخرجْ من

مصرَ قبلَها ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي؛ اتَّجهَ له طريقٌ يذهبُ فيه ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي؛ عسىٰ أن تكونَ هذه الطريقُ مُوصِّلةً إلىٰ المَقْصودِ. وكذا وقَع، أوْصَلَتْه إلىٰ مقصودٍ، وأيُّ مقصودٍ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ وكانت بئرًا يَسْتَقُون منها.

ومَدْيَنُ هي المَدينةُ التي أهلك اللهُ فيها أصحابَ الأَيكَةِ، وهم قومُ شُعَيْبٍ عليه السلامُ، وقد كان هلاكُهم قبلَ زمنِ موسىٰ، عليه السلامُ، في أحدِ قَوْلَي العلماء. ولّما ورد الماءَ المذكورَ ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي؛ تُكَفْكِفَانِ غَنَمَهما أن تَخْتَلِطَ بغَنَمِ الناسِ. وعندَ أهلِ الكتابِ، أنهنَّ كُنَّ سبعَ بَناتٍ. وهذا أيضًا مِن الغَلَطِ. ولَعلَّه كان له سَبْعٌ، ولكن إنما كان تَسْقي اثنتانِ منهنَّ. وهذا الجمعُ ممكنٌ إن كان ذلك محفوظًا، وإلا فالظاهرُ أنَّه لم يَكُنْ له سوىٰ بنتين.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي؛ لا نَقدرُ علىٰ وِرْدِ الماءِ إلا بعدَ صُدُورِ الرِّعاءِ؛ لِضَعفنا، وسببُ مُباشَرَتِنا هذه الرَّعيَّةَ ضَعفُ أبينا وكِبَرُه.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾. قال المفسِّرون: وذلك أن الرِّعاءَ كانوا إذا فرَغُوا مِن وِرْدِهم، وضَعوا علىٰ فَمِ البئرِ صَخْرةً عَظيمةً، فتجيءُ هاتانِ المرأتانِ فيُشْرِعان غنمَهما في فضلِ أغنامِ الناسِ، فلمّا كان ذلك اليومُ جاء موسىٰ فرفَع تلك الصخْرةَ وحدَه، ثُم استَقىٰ لهما، وسقَىٰ غَنَمَهما، ثُم رَدَّ الصخْرةَ كما كانت. قال أميرُ المؤمنين عُمرُ[1] : وكان لا يَرْفَعُه إلا عشَرةٌ. وإنما استَقَىٰ ذَنُوبًا واحدًا فكَفَاهما، ثم تولَّىٰ إلىٰ الظِّلِّ. قالوا: وكان ظلَّ شجرةٍ من السَّمُرِ. ورَوَىٰ ابنُ جريرٍ، عن ابنِ مَسعودٍ[2]، أنه رآها خَضْراءَ تَرِفُّ. ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

قال ابنُ عباس[3]: سار مِن مصرَ إلىٰ مَدْيَنَ، لم يأكلْ إلا البَقْلَ ووَرَقَ الشجرِ، وكان حافيًا فسقَطَتْ نَعْلاَ قدَمَيْه مِّن الحفاء، وجلَسَ في الظِّلِّ، وهو صفوةُ اللهِ مِن خَلْقه، وإنَّ بطنَه لاصقٌ بظَهْرِه مِن الجوعِ، وإنَّ خُضْرةَ البَقْلِ لَتُرَىٰ مِن داخلِ جَوْفه، وإنه لَمُحتاجٌ إلىٰ شِقِّ تمرةٍ. قال عطاءُ بنُ السَّائب[4] : لّما قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾: أَسْمَعَ المرأةَ.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي

---

(١) **صحيح إليه**: رواه ابن أبي حاتم (١٦٨٢٧) من رواية ابن أبي شيبة عن عبيد الله عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عمر رضي الله عنه.

(٢) **ضعيف إليه**: رواه ابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ٥٨) فيه الحسين بن عمرو العنقزي لين الحديث.

(٣) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ٥٣) وابن أبي حاتم (١٦٨١٠) من طرق عن الأعمش.عن المنهال بن عمرو عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس. وكذلك من طريق أبي حصين عن سعيد عن ابن عباس رواه ابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ٥٩).

(٤) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ٥٣) بسند صحيح من رواية يعقوب بن إبراهيم عن ابن علية عنه.

وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل﴾ [القصص: ٢٥-٢٨]. لما جلس موسى، عليه السلام، في الظل، وقال: ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾. سمعته المرأتان، فيما قيل، فذهبتا إلى أبيهما، فيقال: إنه استنكر سرعة رجوعهما، فأخبرتاه ما كان من أمر موسى عليه السلام، فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾ أي؛ مشي الحرائر. قال عمر - رضي الله عنه: تستر وجهها بكم درعها ﴿إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ صرحت له بهذا؛ لئلا يوهم كلامها ريبة، وهذا من تمام حيائها وصيانتها. ﴿فلما جاءه وقص عليه القصص﴾ أي؛ وأخبره خبره، وما كان من أمره؛ في خروجه من بلاد مصر فرارًا من فرعونها، قال له ذلك الشيخ: ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ أي؛ خرجت من سلطانهم، فلست في دولتهم.

وقد اختلفوا في هذا الشيخ؛ من هو؟ فقيل: هو شعيب، عليه السلام. وهذا هو المشهور عند كثيرين. وممن نص عليه؛ الحسن البصري، ومالك بن أنس، وجاء مصرحًا به في حديث[1]، ولكن في إسناده نظر. وصرح طائفة بأن شعيبًا، عليه السلام، عاش عمرًا طويلاً بعد هلاك قومه، حتى أدركه موسى، عليه السلام، وتزوج بابنته.

وروى ابن أبي حاتم[2] وغيره، عن الحسن البصري، أن صاحب موسى، عليه السلام، هذا اسمه شعيب، وكان سيد الماء، ولكن ليس بالنبي صاحب مدين. وقيل: إنه ابن أخي شعيب. وقيل: ابن عمه. وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب. وقيل: رجل اسمه يثرون. هكذا هو في كتب أهل الكتاب: يثرون كاهن مدين. أي؛ كبيرها وعالمها.

قال ابن عباس[3]، وأبو عبيدة بن عبد الله[4]: اسمه يثرون. زاد أبو عبيدة: وهو ابن أخي شعيب. زاد ابن عباس: صاحب مدين.

والمقصود أنه لما أضافه وأكرم مثواه، وقص عليه ما كان من أمره، بشره بأنه قد نجا، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها ﴿يا أبت استأجره﴾ أي؛ لرعي غنمك. ثم مدحته بأنه قوي أمين. قال عمر[5]، وابن عباس[6]، وشريح القاضي[7]، وأبو مالك[8]، وقتادة[9]، ومحمد بن إسحاق[10]،

---

(١) سبق تخريجه في قصة شعيب عليه السلام.

(٢) **صحيح:** رواه أبي حاتم(١٨٣٣) بسند صحيح عن الحسن من رواية أحمد بن سنان عن ابن مهدي عن قرة بن خالد عنه. وابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ٦٢) من طريق ابن مهدي.

(٣) **حسن إليه:** رواه ابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ٦٢) بسند حسن من رواية حماد بن سلمة عن أبي حمزة عن ابن عباس.

(٤) **صحيح إليه:** رواه ابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ٦٢) من رواية الأعمش عن عمرو بن مرة عن عبيد الله.

(٥) **صحيح إليه:** رواه ابن أبي حاتم (١٦٨٤٣) من رواة أبي نعيم عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عمر.

(٦) **حسن لطرقه:** رواه ابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ٦٣) من ثلاث طرق عن ابن عباس. الأول من طريق سعيد بن جبير عنه وفيه ابن وكيع. الثاني من طريق علي بن أبي طلحة عنه وعلي لم يسمع منه. الثالث من طريق العوفي عنه والعوفي ضعيف. قلت: فهو حسن بمجموع الطرق.

(٧) **ضعيف إليه:** رواه ابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ٦٤) فيه الحسين والحجاج بن أرطأة ضعيفان.

(٨) روى ابن أبي حاتم بسند صحيح (١٦٨٤٨) عن أبي مالك بلفظ: فكان يملأ الحوض بدلو واحد.

(٩) **صحيح إليه:** ابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ٦٤) من رواية سعيد بن أبي عروبة ومعمر عنه.

(١٠) **ضعيف إليه:** ابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ٦٤) فيه ابن حميد ضعيف وسلمة بن الفضل يخطئ.

وغيرُ واحدٍ: لَمَّا قالت ذلك قال لها أبوها: وما علمُك بهذا؟ فقالت: إنه رفَع صخرةً لا يُطيقُ رَفْعَها إلا عشَرةٌ، وإنَّه لَمَّا جئتُ معه تقدَّمْتُ أمامَه، فقال: كوني مِن ورائي، فإذا اختلف الطريقُ فاحْذِفي لي بحصاةٍ أعْلَمْ بها كيف الطريقُ. قال ابنُ مسعودٍ [١]: أفرسُ الناسِ ثلاثةٌ؛ صاحبُ يوسفَ حين قال لامرأته: ﴿أكرمي مثواه﴾، وصاحبةُ موسى حين قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾، وأبو بكر حين استَخْلَف عمرَ بنَ الخطاب.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ استَدَلَّ بهذا جماعةٌ من أصحاب أبي حنيفةَ، رحمه اللهُ، على صحة ما إذا باعه أحدَ هذَيْن العبدَيْن أو الثوبَيْن، ونحوَ ذلك، أنه يَصحُّ؛ لقوله: ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ وفي هذا نَظَرٌ؛ لأن هذه مراوَضةٌ لا معاقَدةٌ. واللهُ أعلمُ.

واستَدَلَّ أصحابُ أحمدَ على صحة الإيجارِ بالطُّعْمة والكُسْوة، كما جرَت به العادةُ، واستأنسوا بالحديث الذي رواه ابنُ ماجَه [٢] في «سننه» مترجمًا في كتابه «بابُ استئجار الأجير على طعامِ بطنه»: حدَّثنا محمدُ بنُ المُصَفَّى الحمْصيُّ، حدَّثنا بَقيَّةُ بنُ الوليد، عن مَسْلَمةَ بنِ عَليٍّ، عن سعيد بنِ أبي أيُّوبَ، عن الحارث بنِ يزيدَ، عن عليِّ بنِ رَباحٍ، قال: سمعتُ عُتْبةَ بنَ النُّدَّرِ يقولُ: كنَّا عندَ رسولِ الله ﷺ، فقرأ «طسم» حتى إذا بلَغ قصةَ موسى قال: «إنَّ موسى، عليه السلامُ، آجَرَ نفسَه ثمانيَ سنينَ، أو عَشْرًا، على عفّة فرجِه وطعامِ بطنه». وهذا من هذا الوجْه لا يصحُّ؛ لأن مَسْلَمَةَ بنَ عَليٍّ الخُشَنيَّ الدمشقيَّ البَلاطيَّ ضعيفٌ عندَ الأئمة، لا يُحتَجُّ بتفرُّده.

ولكن قد رُوِي من وجهٍ آخرَ؛ فقال ابنُ أبي حاتمٍ [٣]: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدثنا يَحيى بنُ عبد الله ابنِ بُكَيْرٍ، حدَّثني ابنُ لَهيعَةَ (ح). وحدَّثنا أبو زُرْعَةَ، حدَّثنا صَفْوانُ، حدَّثنا الوليدُ؛ حدَّثنا عبدُ الله ابنُ لَهيعَةَ، عن الحارث بنِ يزيدَ الحَضْرَميِّ، عن عليِّ بنِ رَباحٍ اللَّخْميِّ، قال: سمعتُ عُتْبَةَ بنَ النُّدَّرِ السُّلَميَّ، صاحبَ رسولِ الله ﷺ يُحدِّثُ أنَّ رسولَ الله قال: «إن موسى، عليه السلامُ، آجَرَ نَفْسَه لعفة فَرْجِه وطُعْمَةِ بَطْنه».

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨]. يقولُ: إن موسى قال لصِهْرِه: الأمرُ على ما قلتَ، فأيَّهما قضيتُ فلا عدوانَ عليَّ، واللهُ على مقالتنا سامعٌ وشاهدٌ، ووكيلٌ عليَّ وعليك. ومع هذا فلم يَقْضِ موسى إلا أكملَ الأجلَيْن وأتمَّهما، وهو العشرُ سنين كواملَ تامَّةً.

قال البخاريُّ [٤]: حدَّثنا محمدُ بنُ عَبدِ الرَّحيم، حدَّثنا سعيدُ بنُ سليمانَ، حدَّثنا مَرْوانُ بنُ

---

(١) صحيح إليه: سبق تخريجه والحكم عليه في قصة يوسف ـ عليه السلام.
(٢) ضعيف: ابن ماجه (٢٤٤٤) قال البوصيري: إسناده ضعيف فيه بقية مدلس. وكذلك فيه مسلمة بن علي متروك.
(٣) ضعيف: ابن أبي حاتم (١٦٨٥٦) فيه ابن لهيعة ضعيف.
(٤) صحيح: البخاري (٢٦٨٤)، ابن جرير (١١/ الجزء ٢٠/ ٦٨)، ابن أبي حاتم (١٦٨٦٥).

شُجَاع، عن سالم الأَفْطَس، عن سعيد بن جُبَيْر، قال: سألَني يهوديٌّ من أهل الحيرة: أيَّ الأجلَيْن قضى موسى؟ فقلتُ: لا أدري، حتى أَقْدَمَ على حَبْرِ العرب فأسأَله. فقَدمتُ، فسألتُ ابنَ عباس، فقال: قضى أكثرَهما وأطيبَهما، إنّ رسولَ الله إذا قال فعَل. تفرَّدَ به البخاريُّ من هذا الوجه.

وقد رواه النَّسائيُّ في حديث الفُتون، كما سيأتي من طريق القاسم ابن أبي أيوبَ، عن سعيد بن جُبَيْر به.

وقد رواه ابنُ جرير، عن أحمدَ بن محمد الطُّوسيِّ، وابنُ أبي حاتم عن أبيه. كلاهما عن الحُمَيْديِّ، عن سفيانَ بن عُيَيْنَةَ، حدثني إبراهيمُ بنُ يحيى بن أبي يعقوبَ، عن الحكَم بن أبَانَ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس، أن رسولَ الله ﷺ، قال: «**سألتُ جبريلَ: أيَّ الأجلَيْن قضى موسى؟ قال: أتمَّهما وأكملَهما**». وإبراهيمُ هذا غيرُ معروف إلا بهذا الحديث.

وقد رواه البَزَّارُ[1] عن أحمدَ بن أبَانَ القُرَشيِّ، عن سُفيانَ بن عُيَيْنةَ، عن إبراهيمَ بن أَعْيَنَ، عن الحَكَم بن أبَانَ، عن عكْرِمةَ، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ، فذكَره.

وقد رواهُ سُنَيْدٌ[2] عن حجَّاج، عن ابن جُرَيْج، عن مُجاهد مُرسَلاً، أن رسولَ الله ﷺ سأل عن ذلك جبريلَ، فسأل جبريلُ إسرافيلَ، فسألَ إسرافيلُ الربَّ، عز وجلَّ، فقال: «**أبرَّهما وأوفاهما**».

وبنحوه رواه ابنُ أبي حاتم[3] من حديث يوسفَ بن سَرْج مرسَلاً. ورواه ابنُ جَرير[4] من طريق محمد بن كعب، أن رسولَ الله ﷺ سُئل: أيَّ الأجلَيْن قضى موسى؟ قال: «**أوفاهما وأتمَّهما**». وقد رَواه البزَّار وابنُ أبي حاتم[5]، من حديث عُوَيْد بن أبي عِمْرانَ الجَوْنيِّ - وهو ضعيفٌ - عن أبيه، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذرٍّ أن رسولَ الله ﷺ، سُئل: أيَّ الأجلَيْن قضى موسى؟ قال: «**أوفاهما وأبرَّهما**». قال: «**وإن سُئلتَ: أيَّ المرأتَيْن تزوَّجَ؟ فقل: الصغرى منهما**». وقد رواه البَزَّارُ وابنُ أبي حاتم[6] من طريق عبد الله بن لَهِيعَةَ، عن الحارث بن يزيدَ الحَضْرَميِّ، عن عليِّ بن رَبَاح، عن عُتْبةَ بن النُّدَّر، أن رسولَ الله ﷺ، قال: «**إن موسَى آجَرَ نفسَه بعفَّة فَرْجه وطعام بَطْنه. فلمَّا وفَّى الأجَلَ**». قيل: يا رسولَ الله، أيَّ الأجلَيْن؟ قال: «**أبرَّهما وأوفاهما، فلمَّا أراد فراقَ شُعَيْب، أمَرَ امرأتَه أن تسألَ أباها أن يُعْطيَها من غنمه ما يعيشون به، فأعْطاها ما ولَدَتْ غنَمُه من قالَب لون من ولَد ذلك العام، وكانت غنمُه سُودًا حسانًا، فانطلَقَ موسى، عليه السلام، إلى عصًا قَسَمها من طَرَفها، ثُم وضَعها في أدنَى الحَوض، ثُم أوْرَدَها فسقاها، ووَقَف موسى، عليه السلامُ، بإزاء الحوض، فلم تَصْدُرْ منها شاةٌ إلا ضرَبَ جَنْبَها شاةً شاةً قال: فأتأمَت وأنْلَثَت ووضَعت كلُّها قَوالبَ ألوان، إلا شاةً أو شاتَيْن؛**

---

(١) «كشف الأستار» (٢٢٤٥).

(٢) **منكر**: رواه ابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ٦٨).

(٣) **مرسل**: ابن أبي حاتم (١٦٨٦٦).

(٤) **مرسل**: رواه ابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ٦٨).

(٥) ابن أبي حاتم (١٦٨٦٤) والبزار (٢٢٤٤) «كشف الأستار».

(٦) **ضعيف**: البزار «كشف الأستار» (٢٢٤٦) وابن أبي حاتم (١٦٨٦٧) فيه ابن لهيعة قلت: الموقوف على ابن عباس أصح وهو الذي خرجه البخاري الصفحة السابقة وكذلك موقوف على أنس.

ليس فيها فَشُوشٌ، ولا ضَبُوبٌ، ولا عَزُوزٌ، ولا ثَعُولٌ، ولا كَمْشَةٌ تفوتُ الكفَّ» قال النبيُّ ﷺ: «لو افتتحتُم الشامَ وَجَدتُم بقايا تلك الغنم، وهي السّامريَّةُ».

قال ابنُ لَهيعةَ: الفَشُوشُ: واسعةُ الشَّخْب. والضَّبوبُ: طويلةُ الضَّرْعِ تجرُّه. والعَزُوزُ: ضيِّقةُ الشَّخبِ. والثَّعُولُ: الصَّغيرةُ الضَّرْعِ كالحلمتَيْن. والكَمْشَةُ التي لا يُحكِمُ الكفُّ على ضَرْعِها لصغَرِه.

وفي صحة رفع هذا الحديث نَظَرٌ، وقد يكونُ موقوفًا، كما قال ابنُ جرير[1]: حدثنا محمدُ بنُ المُثنَّى، حدثنا مُعَاذُ بنُ هشام، حدثنا أبي، عن قَتادةَ، حدثنا أنسُ بنُ مالك، قال: لمّا دعا نبيُّ الله موسى صاحبَه إلى الأجلِ الذي كان بينَهما، قال له صاحبُه: كلُّ شاةٍ ولدَتْ على لونها فلَك ولدُها. فعَمَد فوضَع خيالاً على الماء، فلمّا رأت الخيالَ فَزِعَتْ، فجالت جَوْلةً، فولَدْنَ كلُّهن بُلْقًا إلا شاةً واحدةً، فذهَب بأولادهنَّ ذلك العامَ. وهذا إسنادٌ رجالُه ثقاتٌ. والله أعلمُ. وقد تقدَّم، عن نقلِ أهلِ الكتاب، عن يعقوبَ عليه السلامُ، حين فارقَ خالَه لابانَ، أنه أطْلَق له ما يُولَدُ من غنَمه بُلْقًا، ففعَل نحوَ ما ذُكِر عن موسى، عليه السلامُ، فاللهُ أعلمُ.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾
[القصص: ٢٩-٣٢]. تقدَّمَ أن موسى قضى أتمَّ الأجلين وأكملَهما، وقد يُؤخذُ هذا من قوله: **﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾**. وعن مُجاهدٍ[2]، أنه أكملَ عشرًا، وعشرًا بعدَها.

وقولُه: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ أي؛ من عند صِهْرِه ذاهبًا، فيما ذكَره غيرُ واحدٍ من المفسِّرين وغيرِهم، أنه اشتاق إلى أهله، فقصَد زيارتَهم ببلاد مصرَ، في صورةِ مُخْتَفٍ، فلمّا سار بأهله، ومعه ولدانٌ منهم، وغنمٌ قد استفادها مدةَ مُقامه. قالوا: واتَّفَقَ ذلك في ليلةٍ مظلمةٍ باردة، وتاهُوا في طريقهم، فلم يَهتدوا إلى السُّلوك في الدَّرْبِ المألوف، وجعَل يُوري زِنادَه فلا يُوري شيئًا، واشتَدَّ الظلامُ والبردُ، فبينَما هو كذلك إذْ أَبْصَر عن بُعْدٍ نارًا تَأجَّجُ في جانبِ الطُّورِ، وهو الجبلُ الغربيُّ منه عن يمينه، فقال لأهله: **﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾** وكأنه واللهُ أعلمُ ـ رآها دونَهم؛ لأن هذه النارَ هي نورٌ في الحقيقة، ولا تَصلُحُ رؤيتُها لكلِّ أحد **﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾** أي؛ لعلِّي أستَعْلِمُ مَن عندَها عن الطريق **﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾** فدلَّ على أنَّهم كانوا قد تاهُوا عن الطريقِ في ليلةٍ باردةٍ ومظلمةٍ؛

---

(١) **رجاله ثقات**: رواه ابن جرير (١١/الجزء٢٠/٦٩) رجاله ثقات كما قال الحافظ رحمه الله.

(٢) **صحيح إليه**: رواه ابن أبي حاتم (١٦٨٦٩) من رواية ابن أبي نجيح عنه وسبق الكلام عليها.

لقوله في الآية الأخرى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ٩، ١٠]. فدلَّ على وجود الظلام، وكونهم تاهُوا عن الطريق.

وجَمَعَ الكُلَّ في سورة «النمل» في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]. وقد أتاهم منها بخبرٍ، وأيُّ خبرٍ؟ ووجد عندها هدىً، وأيُّ هدىً؟ واقتبَس منها نورًا، وأيُّ نورٍ؟.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال تعالى في «النمل»: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٨]. أي؛ سبحانَ اللهِ الذي يفعلُ ما يشاءُ ويحكُمُ ما يُريدُ. ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩].

وقال في سورة «طه»: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ۝ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۝ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۝ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١١-١٦]. قال غيرُ واحدٍ من المُفسِّرين، من السلف والخلف: لَمَّا قصَد موسى إلى تلك النارِ التي رآها، فانتهَى إليها، وجدها تأجَّجُ في شجرةٍ خضراءَ من العَوْسَجِ، وكلُّ ما لتلك النارِ في اضطرامٍ، وكلُّ ما لخُضْرةِ تلك الشجرة في ازديادٍ، فوقَف متعجِّبًا، وكانت تلك الشجرةُ في لحْفِ جبلٍ غربيٍّ عن يمينه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]. وكان موسى في وادٍ اسمُه طُوًى، فكان موسى مُستقبِلَ القبلةِ، وتلك الشجرةُ عن يمينه من ناحيةِ الغرب، فناداه ربُّه بالوادِ المقدَّسِ طُوًى، فأُمِرَ أولاً بخَلْعِ نَعْلَيْه؛ تعظيمًا وتكريمًا وتوقيرًا لتلك البقعةِ المباركَةِ، ولا سيَّما في تلك الليلةِ المباركةِ. وعندَ أهل الكتاب أنه وضَع يدَه على وجهِه من شدةِ ذلك النورِ؛ مهابةً له، وخوفًا على بصرِه.

ثُم خاطبَه تعالى كما يشاءُ قائلاً له:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ أي؛ أنا اللهُ ربُّ العالَمين، الذي لا تَصْلُحُ العبادةُ وإقامةُ الصلاة إلا له. ثُم أخبَرَه أنَّ هذه الدنيا ليست بدارِ قَرارٍ، وإنما الدارُ الباقيةُ يومَ القيامة، التي لابدَّ من كونها ووجودها ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي؛ من خيرٍ وشرٍّ. وحضَّه وحثَّه على العملِ لها، ومُجانبةِ مَن لا يُؤمنُ بها، ممَّن عصَى مولاه، واتَّبع هَواه. ثُم قال له مخاطبًا ومؤانسًا، ومُبيِّنًا له أنه القادرُ على كلِّ شيءٍ الذي يقولُ للشيءِ: كنْ، فيكونُ. ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]. أي؛ أمَا هذه عصاك التي تَعرِفُها منذُ صَحِبْتَها؟ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ

﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]. أي؛ بل هذه عصاي التي أعرفُها وأتحقَّقُها ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٩، ٢٠]. وهذا خارقٌ عظيمٌ، وبرهانٌ قاطعٌ على أن الذي يكلِّمُه هو الذي يقولُ للشيء: كنْ فيكونُ، وأنه الفعَّالُ بالاختيار.

وعندَ أهلِ الكتاب أنه سأل برهانًا على صدقِه عندَ مَن يكذِّبُه من أهلِ مصرَ، فقال له الربُّ، عزَّ وجلَّ: ما هذه التي في يَدِك؟ قال: عصايَ. قال ألقِها إلى الأرض ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ فهرَب موسى من قُدَّامِها، فأمَره الربُّ، عزَّ وجلَّ، أن يَبْسُطَ يدَه ويأخذَها بذَنَبِها، فلمَّا استَمْكَنَ منها ارتدت عصًا في يده.

وقد قال اللهُ تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي؛ صارت حيَّةً عظيمةً، لها ضَخامةٌ هائلةٌ، وأنيابٌ تَصْطَكُّ، و هي مع ذلك في سُرعة حركة الجانِّ؛ وهو ضربٌ من الحيَّات، يقالُ له: الجانُّ والجنانُ. وهو لَطيفٌ، ولكنه سريعُ الاضطراب والحركة جدًّا، فهذه جمعَت الضخامةَ والسرعةَ الشديدةَ، فلمَّا عايَنَها موسى، عليه السلامُ، ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ أي؛ هاربًا منها؛ لأن طبيعتَه البشريةَ تَقْتضي ذلك، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي؛ ولم يلتَفتْ، فناداه ربُّه قائلاً له: ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ فلما رجع أمره اللهُ تعالى أن يُمسكَها ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ فيقالُ: إنه هابَها شديدًا، فوضَع يدَه في كُمِّ مِدْرَعَتِه، ثُم وضَع يدَه في وسَط فَمِها ـ وعند أهلِ الكتاب ـ بذَنَبِها فلمَّا استَمْكَنَ منها، إذا هي قد عادت كما كانت عصًا ذاتَ شُعْبَتَيْن. فسبحانَ القديرِ العظيمِ، ربِّ المشرِقَيْن وربِّ المَغْرِبَيْن. ثُم أمَره تعالى بإدخالِ يده في جَيْبِه، ثُم أمَره بنَزْعِها فإذا هي تَتَلألأُ كالقمرِ بَياضًا ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي؛ من غيرِ بَرَصٍ ولا بَهَقٍ. ولهذا قال: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ قيل: معناه إذا خِفْتَ، فضَعْ يَدَكَ على فؤادك، يَسْكُنْ جأشُك. وهذا وإن كان خاصًّا به، إلا أنَّ بِبَرَكَةِ الإيمانِ به حَقَّ أن يَنْتَفعُ مَن استَعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء.

وقال في سورة «النمل»: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢]. أي؛ هاتان الآيتان وهما العصا واليدُ، وهما البُرهانان المشارُ إليهما في قوله: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ومع ذلك سبعُ آياتٍ أُخَرَ، فذلك تسعُ آياتٍ بيِّناتٍ، وهي المذكورةُ في آخرِ سورة «سبحان» حيثُ يقولُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١، ١٠٢]. وهي المبسوطة في سورة «الأعراف» في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا

تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين (١٣٢) فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣]. كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه. وهذه التسع الآيات غير العشر كلمات؛ فإن التسع من آيات الله القدرية، والعشر من كلماته الشرعية. وإنما نبهنا على هذا؛ لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة، فظن أن هذه هي هذه، كما قررنا ذلك في تفسير آخر سورة بني إسرائيل.

والمقصود أن الله سبحانه لما أمر موسى، عليه السلام، بالذهاب إلى فرعون ﴿قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون (٣٣) وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون (٣٤) قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ [القصص: ٣٣-٣٥]. يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وكليمه موسى، عليه السلام، في جوابه لربه، عز وجل، حين أمره بالذهاب إلى عدوه، الذي خرج من ديار مصر فرارا من سطوته وظلمه، حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي، ولهذا ﴿قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون (٣٣) وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾ أي؛ اجعله معي معينا وردءا ووزيرا يساعدني ويعينني على أداء رسالتك إليهم؛ فإنه أفصح مني لسانا وأبلغ بيانا. قال الله تعالى، مجيبا له إلى سؤاله: ﴿سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا﴾ أي؛ برهانا ﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا﴾ أي؛ فلا ينالون منكما مكروها بسبب قيامكما بآياتنا. وقيل: ببركة آياتنا ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾. وقال في سورة «طه»: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى (٢٤) قال رب اشرح لي صدري (٢٥) ويسر لي أمري (٢٦) واحلل عقدة من لساني (٢٧) يفقهوا قولي﴾ [طه: ٢٤-٢٨]. قيل: إنه أصابه في لسانه لثغة؛ بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه، التي كان فرعون أراد اختبار عقله، حين أخذ بلحيته وهو صغير، فهم بقتله، فخافت عليه آسية، وقالت: إنه طفل. فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه، فهم بأخذ التمرة، فصرف الملك يده إلى الجمرة، فأخذها، فوضعها على لسانه، فأصابه لثغة بسببها، فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله، ولم يسأل زوالها بالكلية.

قال الحسن البصري: والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة. ولهذا بقيت في لسانه بقية، ولهذا قال فرعون، قبحه الله، فيما زعم أنه يعيب به الكليم: ﴿ولا يكاد يبين﴾ [الزخرف: ٥٢]. أي؛ يفصح عن مراده، ويعبر عما في ضميره وفؤاده. ثم قال موسى، عليه السلام: ﴿واجعل لي وزيرا من أهلي (٢٩) هارون أخي (٣٠) اشدد به أزري (٣١) وأشركه في أمري (٣٢) كي نسبحك كثيرا (٣٣) ونذكرك كثيرا (٣٤) إنك كنت بنا بصيرا (٣٥) قال قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ [طه: ٢٩-٣٦]. أي؛ قد أجبناك إلى جميع ما سألت، وأعطيناك الذي طلبت. وهذا من وجاهته عند ربه، عز وجل، حين شفع أن يوحي الله إلى أخيه، فأوحى إليه، وهذا جاه عظيم، قال الله تعالى: ﴿وكان عند الله وجيها﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ووهبنا له من رَّحمتنا أخاه هارون نبيًّا﴾ [مريم: ٥٣]. وقد سَمِعَتْ أمُّ المؤمنين عائشةُ رجلاً يقولُ لأناسٍ، وهم سائرون في طريقِ الحجِّ: أيُّ أخٍ أَمَنُّ علىٰ أخيه؟ فسكَت القومُ، فقالت عائشةُ لِمَن حولَ هَوْدَجِها: هو موسىٰ بنُ عِمْرانَ حين شفَع في أخيه أن يكونَ نبيًّا يُوحَىٰ إليه. قال اللهُ تعالىٰ: ﴿ووهبنا له من رَّحمتنا أخاه هارون نبيًّا﴾[1] .

وقال تعالى في سورة «الشُّعراء»: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالمين ⑩ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ⑪ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُون ⑫ ويَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ⑬ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون ⑭ قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ⑮ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑯ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ⑰ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ⑱ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٠-١٩]. تقديرُ الكلامِ: فأتِيَاه فَقُولاَ له ذلك، وبَلِّغاه ما أُرْسِلْتُما به؛ مِن دعوتِه إلىٰ عبادةِ الله تعالىٰ وحدَه لا شريكَ له، وأن يَفُكَّ أُسارَىٰ بني إسرائيلَ مِن قَبْضَتِه وقَهْرِه وسَطْوتِه، ويَترُكَهم يَعْبُدون ربَّهم حيث شاءوا، ويَتفرَّغون لتوحيدِه، ودعائِه، والتضرُّعِ لَدَيْه. فتكبَّر فرعونُ في نفسه، وعتَا وطغَىٰ، ونظَر إلىٰ موسىٰ، عليه السلامُ، بعينِ الازْدِراءِ والتَنَقُّصِ، قائلاً له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ أي؛ أمَا أنت الذي ربَّيْناه في مَنْزِلِنا وأحْسَنَّا إليه، وأَنْعَمْنا عليه مدةً من الدَّهرِ؟ وهذا يدُلُّ علىٰ أن فرعونَ الذي بُعِث إليه هو الذي فَرَّ منه، خلافًا لمَا عندَ أهلِ الكتابِ مِن أن فرعونَ الذي فرَّ منه مات في مدةِ مُقامِه بمَدْيَنَ، وأن الذي بُعِث إليه فرعونُ آخَرُ.

وقولُه: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي؛ وقتلتَ الرجلَ القِبْطِيَّ، وفرَرْتَ منَّا، وجَحَدْتَ نعْمتَنا ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي؛ قبلَ أن يُوحَىٰ إليَّ، ويُنزَّلَ عليَّ، ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١]. ثم قال مُجيبًا لفرعونَ عمَّا امتَنَّ به عليه من التربيةِ والإحسانِ إليه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]. أي؛ وهذه النعمةُ التي ذكَرْتَ، مِن أنك أَحسنتَ إليَّ، وأنا رجلٌ واحدٌ من بني إسرائيلَ، تُقابِلُ ما استخدمتَ هذا الشعبَ العظيمَ بكمالِه، واستعبدتَهم في أعمالك وخدمتك وأشغالك.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ㉓ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ㉔ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ㉕ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ㉖ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ㉗ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨]. يَذكرُ تعالىٰ ما كان بينَ فرعونَ وموسىٰ، مِن الْمُقاوَلةِ والْمُحاجَّةِ والْمُناظَرَةِ، وما أقامَه الكَليمُ علىٰ فرعونَ اللئيمِ مِن الحُجَّةِ العَقْليةِ المَعْنويةِ ثُم الحِسِّيةِ. وذلك أن فرعونَ، قبَّحه اللهُ، أَظْهَر جَحْدَ الصانعِ تبارك وتعالىٰ، وزعم أنه الإلهُ: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ㉓ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤]. وقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ

---

(١) علقه ابن أبي حاتم (١٣٤٢٧) عن ابن نمير ثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن أم المؤمنين رضي الله عنها.

مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. وهو في هذه المقالة معاندٌ، يَعلمُ أنه عبدٌ مَرْبوبٌ، وأنَّ اللهَ هو الخالقُ البارئُ المُصوِّرُ، الإلهُ الحقُّ، كما قال تعالى: **﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾** [النمل: ١٤]. ولهذا قال لموسى، عليه السلامُ، على سبيلِ الإنكارِ لرسالته، والإظهارِ أنَّه ما ثَمَّ ربٌّ أَرْسَلَه: **﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** [الشعراء: ٢٣]. لأنَّهما قالا له: **﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** فكأنه يقولُ لهما: ومَنْ ربُّ العالمين، الذي تَزعُمان أنه أرسَلَكما وابتَعَثَكما؟ فأجابه موسى قائلاً: **﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾** [الشعراء: ٢٤]. يعني ربَّ العالمين، خالقَ هذه السمواتِ والأرضِ المُشاهَدة، وما بينَهما من المخلوقات المتجدِّدة؛ من السحابِ والرياحِ والمطرِ والنباتِ والحيواناتِ، التي يَعلمُ كلُّ موقنٍ أنها لم تَحدُثْ بأَنْفُسِها، ولابدَّ لها من مُوجِدٍ ومُحْدِثٍ وخَالقٍ، وهو اللهُ الذي لا إلهَ إلا هو ربُّ العالمين. **﴿قَالَ﴾** أي؛ فرعونُ **﴿لِمَنْ حَوْلَهُ﴾** مِن أمرائه، ومَرازِبَتِه، ووُزَرائه، على سَبيلِ التَّهكُّمِ والتَّنقُّصِ لِمَا قَرَّره موسى، عليه السلامُ: **﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾** يعني كلامَه هذا. قال موسى مخاطبًا له ولهم: **﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾** [الشعراء: ٢٦]. أي؛ هو الذي خلَقَكم والذين مِن قبلِكم؛ من الآباءِ والأجدادِ والقرونِ السالفةِ في الآباد، فإنَّ كلَّ أحدٍ يَعْلمُ أنه لم يَخلُقْ نفسَه ولا أبوه ولا أمُّه، ولم يَحْدُثْ من غيرِ مُحدِثٍ، وإنما أَوْجَدَه وخلَقَه اللهُ ربُّ العالَمين. وهذان المقَامانِ هما المَذْكورانِ في قوله تعالى: **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾** [فصلت: ٥٣]. ومع هذا كلِّه لم يَسْتَفِقْ فرعونُ من رَقْدَته، ولا نزَعَ عن ضلالته، بل استمرَّ على طُغيانه وعناده، وكفرانه **﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾** [الشعراء: ٢٧، ٢٨]. أي؛ هو المسخِّرُ لهذه الكواكبِ الزاهرةِ، المسيِّرُ للأفلاكِ الدائرةِ، خالقُ الظلامِ والضياءِ، وربُّ الأرضِ والسماءِ، ربُّ الأوَّلينَ والآخرينَ، خالقُ الشمسِ والقمرِ، والكواكبِ السائرةِ والثوابتِ الحائرةِ، خالقُ الليلِ بظَلامه والنهارِ بضيائه، والكلُّ تحتَ قهرِه وتسخيرِه وتَسْييرِه سائرونَ، وفي فلَكٍ يَسْبَحون، يَتعاقَبون في سائرِ الأوقاتِ ويَدُورون، فهو تعالى الخالقُ المالكُ المتصرِّفُ في خلقه بما يشاءُ.

فلمَّا قامتِ الحُجَجُ على فرعونَ وانقطَعتْ شُبَهُه، ولم يَبْقَ له قولٌ سوى العناد، عدَل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسَطْوته، قال: **﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾** [الشعراء: ٢٩-٣٣]. وهذان هما البرهانانِ اللذان أيَّده اللهُ بهما، وهما العصا واليدُ. وذلك مَقامٌ أَظْهَرَ فيه الخارقَ العظيمَ، الذي بهرَ به العقولَ والأبصارَ، حينَ ألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ، أي عظيمُ الشكلِ، بديعٌ في الضَّخامةِ والهَوْلِ، والمَنْظرِ العظيمِ الفَظيعِ الباهرِ، حتى قيل: إن فرعونَ لَمَّا شاهَد ذلك وعايَنَه، أخذَه رُعْبٌ شديدٌ، وخوفٌ عظيمٌ، بحيثُ إنه حصَل له إسْهالٌ عظيمٌ أكثرَ من أربعينَ مرَّةً في يومٍ واحدٍ، وكان قبلَ ذلك لا يَتَبرَّزُ في كلِّ أربعينَ يومًا إلا مرةً واحدةً،

فانعكسَ عليه الحالُ. وهكذا لمَّا أدخَل موسى ـ عليه السلامُ ـ يَده في جَيْبِه واستخرَجَها، أخرَجَها وهي كفِلْقَةِ القمرِ، تتلألأُ نوراً يَبْهرُ الأبصارَ، فإذا أعادها إلى جَيْبِه رجعَت إلى صفَتِها الأولى، ومع هذا كلِّه لم يَنْتَفِعْ فرعونُ ـ لعنه اللهُ ـ بشيءٍ من ذلك، بل استَمرَّ على ما هو عليه، وأظْهَرَ أنَّ هذا كلَّه سِحْرٌ، وأراد معارضتَه بالسَّحَرةِ، فأرْسَلَ يَجْمَعُهم من سائرِ مَمْلَكته، ومَن في رَعيَّته وتحتَ قهرِه ودَوْلته، كما سيأتي بَسْطُه وبيانُه في موضعه؛ من إظهارِ الله الحقَّ المبينَ، والحُجةَ الباهرةَ القاطعةَ على فرْعونَ وملئه، وأهلِ دولته وملَّته، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وقال تعالى في سورة «طه»: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٠ـ٤٦]. يقولُ تعالى مخاطبًا لموسى، فيما كلَّمه به ليلةَ أوْحَى إليه، وأنْعَمَ بالنبُوةِ عليه، وكلَّمه منه إليه: قد كنتُ مشاهدًا لك وأنتَ في دارِ فرعونَ، وأنت تحتَ كَنَفي وحفْظي ولُطفي، ثُم أخرَجْتُك من أرضِ مصرَ إلى أرضِ مَدْيَنَ بمشيئتي، وقُدْرَتي وتَدْبيري، فلَبِثْتَ فيها سنينَ ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ أي؛ منِّي لذلك، فوافَقَ ذلك تَقْديري وتَسْييري ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أي؛ اصْطَفَيْتُكَ لنَفْسي برسالَتي وبكَلامي ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ يَعني: ولا تَفْتُرا في ذكري، إذ قدمتُما عليه، ووَفَدْتُما إليه؛ فإن ذلك عونٌ لكما على مخاطبته ومجاوبَته، وإهداء النصيحَة إليه، وإقامة الحُجَّة عليه. وقد جاء في بعضِ الأحاديث[1]: «يقولُ اللهُ تعالى: إن عَبْدي كُلَّ عَبْدي الَّذي يَذْكُرُني وَهو مُلاقٍ قِرْنَه». وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ثُم قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ وهذا من حلمه تعالى، وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه، مع علمه بكفرِ فرعونَ وعُتُوِّه، وتَجَبُّرِه، وهو إذ ذاك أرْدَىٰ خلقه، وقد بعَث إليه صفوتَه من خلقه في ذلك الزمان، ومع هذا يقولُ لهما ويأمرُهما أن يَدْعُواه إليه بالتي هي أحسنُ؛ برفْقٍ ولينٍ، ويُعاملاه معاملةَ مَن يَرجُو أن يتذكَّرَ أو يخشَى، كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٦].

قال الحسنُ البصريُّ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾؛ أعْذِرا إليه، قولا له: إنَّ لك ربًّا، ولك مَعادًا، وإنَّ بينَ يدَيْكَ جنة ونارًا.

---

(١) ضعيف: رواه الترمذي (٣٥٨٠) والبيهقي في «الشعب» (٥٥٧) من رواية عمارة بن زعكرة فيه عفير بن معدان ضعيف. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ليس إسناده بالقوي. وضعفه الألباني ـ رحمه الله ـ في «الجامع» (١٧٥٠).

وقال وَهْبُ بنُ مُنَبِّه[1] : قولا له : إني إلى العفوِ والمَغفرةِ أقربُ مِنِّي إلى الغَضَبِ والعُقوبة .

وقال يَزيدُ الرَّقَاشيُّ[2] عندَ هذه الآية: يا مَن يَتحبَّبُ إلى مَن يُعاديه ، فكيف بمَن يَتولاَّه ويُناديه؟ ﴿قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ وذلك أن فرعونَ كان جبَّاراً عنيداً ، شيطاناً مَريداً ، له سلطانٌ في بلادِ مصرَ طويلٌ عريضٌ ، وجاهٌ وجنودٌ وعساكرُ وسَطْوةٌ ، فهاباه من حيثُ البشرية ، وخافا أن يَسْطُوَ عليهما في بادئ الأمرِ ، فثبَّتَهما اللهُ تعالىٰ ، وهو العليُّ الأعلىٰ ، فقال : ﴿لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ، كما قال في الآية الأخرىٰ : ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ .

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه : ٤٧ ، ٤٨] . يذكرُ تعالىٰ أنَّه أمَرهما أن يَذْهَبا إلى فرعونَ ، فيَدْعُوَاه إلى الله تعالىٰ ؛ أن يعبدَه وحدَه لا شريكَ له ، وأن يُرسِلَ معهم بني إسرائيلَ ، ويُطلِقَهم من أسْرِه وقَهْرِه ، ولا يُعَذِّبَهم ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ وهو البرهانُ العظيمُ في العصا واليد ﴿وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ تَقْييدٌ مفيدٌ بليغٌ عظيمٌ . ثم تهدَّداه وتوعَّداه على التكذيبِ ، فقالا : ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي ؛ كذَّب بالحقِّ بقلبِه ، وتولَّى عن العملِ بقالَبِه .

وقد ذكَر السُّدِّيُّ[3] وغيرُه ، أنه لما قَدِم من بلاد مَدْيَنَ ، دخَل على أُمِّه وأخيه هارونَ ، وهما يَتعشَّيانِ من طعامٍ فيه الطَّفَيْشَلُ ؛ وهو اللِّفْتُ ، فأكَل معَهما ، ثُم قال : يا هارونُ ، إن اللهَ أمَرني وأمَرك أن نَدعُوَ فرعونَ إلى عبادته ، فقُم معي . فقاما يَقصِدانِ بابَ فرعونَ ، فإذا هو مُغْلَقٌ ، فقال موسىٰ للبوَّابينَ والحَجَبَة : أَعْلِموه أنَّ رسولَ الله بالبَاب . فجعَلوا يسخَرون منه ويستهزئون به . وقد زعَم بعضُهم أنه لم يُؤذَنْ لهما عليه إلا بعدَ حينٍ طويلٍ .

وقال محمدُ بنُ إسحاقَ: أُذِنَ لهما بعدَ سنتين ؛ لأنه لم يَكُ أحدٌ يَتجاسَرُ على الاستئذانِ لهما . فاللهُ أعلمُ . ويقالُ : إن موسىٰ تقدَّم إلى البابِ فطرَقه بعصاه ، فانزعَج فرعونُ ، وأمرَ بإحضارِهما ، فوقفا بينَ يدَيْه ، فدَعَواه إلى الله عزَّ وجلَّ ، كما أمَرهما .

وعندَ أهلِ الكتابِ ، أنَّ اللهَ قال لموسىٰ ، عليه السلامُ : إنَّ هارونَ اللاَّويَّ - يعني الذي من نسلِ لاوي بنِ يعقوبَ - سيخرُجُ ويتلقَّاك . وأمَرَه أن يأخذَ معه مشايخَ بني إسرائيلَ إلى عند فرعونَ ، وأمَره أن يُظهِرَ ما آتاه من الآياتِ . وقال له : سأُقسِّي قلبَه فلا يُرسِلُ الشعبَ ، وأُكثِرُ آياتي وأعاجيبي بأرضِ مصرَ . وأَوْحَى اللهُ إلى هارونَ أن يَخرُجَ إلى أخيه ، يتلقَّاه بالبَرِّيَّة عندَ جبلِ حوريب ، فلمَّا تَلَقَّاه ،

---

(١) عزاه السيوطي لابن أبي حاتم راجع «تفسيره» (١٣٤٤٤) ليس له إسناد وكذلك رقم (٤) راجع رقم (١٣٤٤٥).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) سنده حسن: رواه ابن جرير «التاريخ» (١/ ٢٤٠) من رواية أسباط عنه.

أخبرَه موسىٰ بما أمَره به ربُّه، فلمَّا دخَلا مصرَ، جَمعَا شُيوخَ بني إسرائيلَ، وذهَبا إلىٰ فرعونَ، فلمَّا بلَّغَاه رسالةَ الله، قال: مَن هو اللهُ؟ لا أعرِفُه، ولا أُرسلُ بني إسرائيلَ.

وقال اللهُ مُخبرًا عن فرعونَ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٤٩ـ٥٥]. يَقُولُ تعالىٰ مُخبرًا عن فرعونَ أنه أنكَر إثباتَ الصانعِ تعالىٰ، قائلاً: **﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾** أي؛ هو الذي خلَقَ الخلقَ، وقدَّر لهم أعمالاً وأرْزاقًا وآجالاً، وكتَب ذلك عندَه في كتابِه اللوحِ المحفوظِ، ثُم هَدَىٰ كلَّ مخلوقٍ إلىٰ ما قدَّره له، فطابَقَ عِلْمَه فيهم علىٰ الوجهِ الذي قدَّره وعَلمه؛ لكمال عِلْمه وقُدْرَته وقَدَره. وهذه الآيةُ كقوله تعالىٰ: **﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾** [الأعلىٰ: ١ـ٣]. أي؛ قَدَّر قَدرًا، وهدَىٰ الخلائقَ إليه **﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾** يقول فرعونُ لموسىٰ: فإذا كان ربُّك هو الخالقَ المقدِّرَ، الهاديَ الخلائقَ، لِمَا قدَّره، وهو بهذه المثابةِ من أنه لا يَستحقُّ العبادةَ سواه، فلمَ عَبَدَ الأولون غيرَه، وأشركُوا به من الكواكبِ والأنداد ما قد علَمتَ؟ فهلاَّ اهتَدىٰ إلىٰ ما ذكَرْتَه القرونُ الأولىٰ؟ **﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾** أي؛ هم وإن عبدُوا غيرَه فليس ذلك بحُجّةٍ لك، ولا يدُلُّ علىٰ خلافِ ما أقولُ؛ لأنَّهم جهَلَةٌ مثلُك، وكلُّ شَيء فَعَلوه مُستَطَرٌ عليهم في الزُّبرِ، من صغيرٍ وكبيرٍ، وسيَجزِيهم علىٰ ذلك ربِّي، عز وجل، ولا يَظْلِمُ أحدًا مثقالَ ذرةٍ؛ لأن جميعَ أفعالِ العبادِ مكتوبةٌ عندَه في كتابٍ لا يَضِلُّ عنه شَيء، ولا يَنْسَىٰ ربِّي شيئًا. ثم ذكَر له عظمةَ الربِّ، وقدرتَه علىٰ خلقِ الأشياءِ وجَعْلَه الأرضَ مِهادًا، والسماءَ سقفًا محفوظًا، وتسخيرَه السحابَ والأمطارَ لرزقِ العبادِ ودوابِّهم وأنعامِهم، كما قال: **﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾** أي؛ لِذَوِي العقولِ الصحيحة المستقيمة والفطَرِ القويمة غيرِ السَّقيمة. فهو تعالىٰ الخالقُ الرّازِقُ. وكما قال تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** [البقرة: ٢١، ٢٢]. ولَمَّا ذكَر إحياءَ الأرضِ بالمطرِ، واهتزازَها بإخراجِ نباتِها فيه، نَبَّه به علىٰ المَعادِ فقال: **﴿مِنْهَا﴾** أي؛ من الأرضِ **﴿خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾** كما قال تعالىٰ: **﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾** [الأعراف: ٢٩]. وقال تعالىٰ: **﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [الروم: ٢٧].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ

موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ [طه: ٥٦-٥٩]. يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله، وقلة عقله في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها، وقوله لموسى: إن هذا الذي جئت به سحر، ونحن نعارضك بمثله. ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم، وكان هذا من أكبر مقاصد موسى، عليه السلام، أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس، ولهذا قال: ﴿**موعدكم يوم الزينة**﴾ وكان يوم عيد من أعيادهم، ومجتمع لهم ﴿**وأن يحشر الناس ضحى**﴾ أي؛ من أول النهار، في وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى. ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام، كيما يروج عليهم محالاً وباطلاً، بل طلب أن يكون نهاراً جهرة؛ لأنه على بصيرة من ربه، ويقين أن الله سيظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط.

قال الله تعالى: ﴿**فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى (٦٠) قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى (٦١) فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى (٦٢) قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى (٦٣) فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى**﴾ [طه: ٦٠-٦٤]. يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب، فجمع من كان ببلاده من السحرة، وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة، فضلاء، في فنهم غاية، فجمعوا له من كل بلد، ومن كل مكان، فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير. فقيل: كانوا ثمانين ألفا. قاله محمد بن كعب[1]. وقيل: سبعين ألفا. قاله القاسم[2] بن أبي بزة، وقال السدي[3]: بضعة وثلاثين ألفا. وعن أبي أمامة: تسعة عشر ألفا. وقال محمد بن إسحاق[4]: خمسة عشر ألفا. وقال كعب الأحبار[5]: كانوا اثني عشر ألفا. وروى ابن أبي حاتم[6] عن ابن عباس: كانوا سبعين رجلاً. وروى عنه[7] أيضاً أنهم كانوا أربعين غلاماً من بني إسرائيل، أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء، فيتعلموا السحر. ولهذا قالوا: ﴿**وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى**﴾. وفي هذا نظر.

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل مصر عن بكرة أبيهم؛ وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم، فخرجوا وهم يقولون: ﴿**لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين**﴾ [الشعراء: ٤٠]. وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة، فوعظهم وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل،

---

(١) **ضعيف إليه**: رواه ابن أبي حاتم (٨٧٩٦) وفيه موسى بن عبيدة الربذي ضعيف.

(٢) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (٩/ ١٦/ ١٨٤) من رواية هشام الدستوائي عنه.

(٣) **ضعيف إليه**: رواه ابن جرير (٩/ ١٦/ ١٨٥) فيه ابن حميد وعزاه ابن إسحاق إلى وهب.

(٤) **حسن إليه**: رواه ابن جرير (٩/ ١٦/ ١٨٥) من رواية أسباط عنه ورواه ابن أبي حاتم (٨٨٠٠).

(٥) **حسن إليه**: رواه ابن أبي حاتم (٨٧٩٧) من رواية خيثمة عن أبي سودة وهو عبيد بن سويه عنه وأبو سودة صدوق قاله الحافظ. ورواه ابن جرير (٦/ ٩/ ١٩) من نفس الطريق.

(٦) **إسناده لا بأس به**: رواه ابن أبي حاتم (١٣٤٧٩) من رواية علي بن الحسين عن محمد بن علي بن حمزة عن علي بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوي عن عكرمة عنه وفيه علي بن الحسين بن واقد يهم.

(٧) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١٣٤٨٢) وفيه أبو سعد البقال ضعيف ونعيم بن حماد كثير الخطأ.

الذي فيه معارَضةٌ لآيات الله وحُجَجه، فقال: ﴿وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّه كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ⁽⁶¹⁾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ قيل: معناه أنهم اختلفوا فيما بينَهم؛ فقائلٌ يقولُ: هذا كلامُ نبيٍّ وليس بساحرٍ. وقائلٌ منهم يَقولُ: بل هو ساحرٌ. فاللهُ أعلمُ. وأسرُّوا التَّناجيَ بهذا وغيرِه ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ يقولون: إنَّ هذا وأخاه هارونَ ساحرانِ، عليمانِ، مُطْبقانِ مُتْقنانِ لهذه الصناعة، ومرادُهم أن يَجتمعَ الناسُ عليهما، ويَصُولاَ على المَلكِ وحاشيته، ويَستأصلاكم عن آخركم، ويَستأمرا عليكم بهذه الصناعة ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ وإنما قالوا الكلامَ الأولَ ليتدبَّروا ويتواصَوْا، ويأتُوا بجميع ما عندَهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبُهْتانِ. وهَيْهاتَ، كَذَبَتْ والله الظنونُ، وأخطَأت الآراءُ، أنَّى يُعارِضُ البهتانُ والسِّحْرُ والهَذَيانُ خوارقَ العادات، التي أَجْراها الدَّيَّانُ على يَدَيْ عبده الكَليم ورَسوله الكَريم، المؤيَّد بالبُرْهانِ الذي يَبْهَرُ الأبصارَ، وتَحارُ فيه العقولُ والأذهانُ. وقولُهم: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي؛ جميعَ ما عندَكم، ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي؛ جملةً واحدةً. ثُم حَضَّ بعضُهم بعضًا على التقدُّم في هذا المقام؛ لأنَّ فرعونَ كان قد وعَدهم ومنَّاهم، وما يَعِدُهمُ الشيطانُ إلا غُرورًا.

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ⁽⁶⁵⁾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ⁽⁶⁶⁾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ⁽⁶⁷⁾ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ⁽⁶⁸⁾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٥-٦٩]. لمَّا اصْطَفَّ السحَرَةُ ووقَفَ موسى وهارونُ، عليهما السلامُ، تُجاهَهم، قالوا له: إمَّا أن تُلقيَ قبلَنا، وإمَّا أن نُلقيَ قبلَك. قال: بلْ أَلْقُوا أنتم. وكانوا قد عَمَدوا إلى حِبالٍ وعِصيٍّ، فأودَعوها الزِّئْبَقَ وغيرَه من الآلات التي تَضطرِبُ بسبَبِها تلك الحبالُ والعِصيُّ اضطرابًا يُخَيَّلُ للرائي أنها تَسْعى باختيارِها، وإنما تَتحرَّكُ بسببِ ذلك، فعندَ ذلك سَحَروا أعيُنَ النَّاسِ واستَرْهَبوهم، وأَلْقَوْا حبالَهم، وعصيَّهم وهم يقولون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]. قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ⁽⁶⁶⁾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أي؛ خاف على الناسِ أن يَفْتَتِنوا بسحْرِهم ومِحالِهم قبل أن يُلقِيَ ما في يده، فإنه لا يَضَعُ شيئًا قبلَ أن يُؤمَرَ، فأَوْحَى اللهُ إليه في الساعة الراهنة: ﴿لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ⁽⁶⁸⁾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾، فعندَ ذلك أَلْقَى موسى عصاه، وقال: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ⁽⁸¹⁾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١، ٨٢]. وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥]. ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⁽¹¹⁸⁾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ⁽¹¹⁹⁾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ⁽¹²⁰⁾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⁽¹²¹⁾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨-١٢٢].

وذلك أنَّ موسىٰ، عليه السلامُ، لَمَّا تَقَدَّمَ وألقاها، صارَتْ حيَّةً عظيمةً ذاتَ قوائمَ ـ فيما ذكَره غيرُ واحدٍ من علماءِ السلفِ ـ وعُنُقٍ عَظيمٍ، وشَكْلٍ هائلٍ مُزْعِجٍ، بحيثُ إنَّ الناسَ انحازُوا منها، وهرَبوا سِراعًا، وتأخَّروا عن مكانها، وأَقْبلَت هي على ما أَلقَوْه من الحِبالِ والعِصِيِّ، فجعلَت تَلْقَفُه واحدًا واحدًا، في أسرعِ ما يكونُ من الحركةِ، والناسُ يَنظرون إليها، ويَتعجبون منها. وأمَّا السحرةُ فإنهم رأَوْا ما هالَهم وحيَّرَهم في أمرِهم، واطَّلَعوا على أمرٍ لم يكنْ في خَلَدِهم ولا بالِهم، ولا يَدْخلُ تحت صناعاتِهم وأشغالِهم، فعندَ ذلك وهنالك تحَقَّقُوا بما عندَهم من العلمِ أن هذا ليس بسحْرٍ، ولا شَعْبَذَةٍ، ولا محالٍ ولا خيالٍ ولا زورٍ ولا بهتانٍ ولا ضلالٍ، بل حقٌّ لا يَقدرُ عليه إلا الحقُّ الذي ابتَعَثَ هذا المؤيَّدَ به بالحقِّ، وكشَفَ اللهُ عن قلوبِهم غِشاوةَ الغفلةِ، وأنارها بما خلَق فيها من الهُدَىٰ، وأزاح عنها القسوةَ، وأنابوا إلىٰ ربِّهم، وخرّوا له ساجدينَ، وقالوا ـ جَهْرةً للحاضرين، ولم يَخْشَوْا عقوبةً ولا بَلْوَىٰ: آمنّا بربِّ موسىٰ وهارونَ.

كما قال تعالى: **﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾** [طه: ٧٠ـ٧٦].

قال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ[١]، **وعِكْرمةُ، والقاسمُ**[٢] **بنُ أبي بَزَّةَ، والأوزاعيُّ**[٣]، **وغيرُهم:** لَمّا سجَد السحرةُ، رأَوْا منازلَهم وقصورَهم في الجنةِ تُهَيَّأُ لهم، وتُزَخْرَفُ لقُدومِهم، ولهذا لم يَلْتفِتوا إلىٰ تَهْويلِ فرعونَ، وتهْديدِه ووَعيدِه. وذلك لأن فرعونَ لَمّا رأىٰ هؤلاءِ السحرةَ قد أسْلَموا، وأشْهَروا ذِكْرَ موسىٰ وهارونَ في الناسِ علىٰ هذه الصفةِ الجميلةِ، أفزَعه ذلك، ورأىٰ أمرًا بَهَره، وأَعْمَىٰ بصيرتَه وبصَرَه، وكان فيه كيدٌ ومكرٌ وخِداعٌ، وصَنْعةٌ بَليغةٌ في الصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ، فقال مُخاطِبًا للسَحَرةِ بحضرةِ الناسِ: **﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾** أي؛ هلاَّ شاوَرْتُموني فيما صَنَعتُم من الأمرِ الفظيعِ بحَضْرةِ رَعِيَّتي. ثُم تَهدَّد وتوعَّد، وأَبْرَقَ وأَرْعَدَ، وكذَب فَأَبْعَدَ، قائلاً: **﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾**. وقال في الآيةِ الأخرىٰ: **﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ١٢٣]. وهذا الذي قاله مِن البهتانِ الذي يَعلمُ كلُّ فردٍ عاقلٍ ما فيه من الكفرِ

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٥٦٣٩) بسند فيه مبهم قال: ذُكر عن سعيد بن سلام.

(٢) عزاه السيوطي لابن أبي حاتم راجع تفسير ابن أبي حاتم (١٣٤٨٠) وليس له سند.

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٣٤٨١) بسند ضعيف فيه المسيب بن واضح كثير الخطأ.

والكذب والهذيان، بل لا يروج مثله على الصبيان؛ فإن الناس كلهم، من أهل دولته وغيرهم، يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يومًا من الدهر، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر؟! ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم، حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق وواد سحيق، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف، ومن المدن والأرياف.

قال الله تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣-١٢٦].

وقال تعالى في سورة «يونس»: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾
[يونس: ٧٥-٨٢].

وقال تعالى في سورة «الشعراء»: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧)

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩-٥١].

والمقصودُ أن فرعونَ كذَّب وافترىٰ، وكفَر غايةَ الكفرِ في قوله: **﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾** وأتىٰ ببهتانٍ يَعْلمُه العالَمُونَ، بل العالَمُونَ في قوله: **﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾** وقوله: **﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾** يعني: يَقطعُ اليدَ اليُمنىٰ والرِّجلَ اليُسرىٰ وعَكْسَهُ، **﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾** أي؛ لَيَجْعلُهم مُثْلَةً ونكَالاً؛ لئلاَّ يَقتدِيَ بهم أحدٌ من رعيتِه وأهلِ ملَّته، ولهذا قال: **﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾** أي؛ علىٰ جذوعِ النخلِ؛ لأنَّها أَعْلَىٰ وأشْهَرُ **﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾** يعني: في الدنيا **﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾** أي؛ لن نُطيعَك ونَترُكَ ما وقَر في قلوبنا من البيناتِ، والدَّلائلِ القاطعاتِ، **﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾** قيل: مَعْطوفٌ. وقيل: قَسَمٌ **﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾** أي؛ فافْعَلْ ما قَدَرْتَ عليه، **﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾** أي؛ إنما حُكْمُك علينا في هذه الحياة الدنيا، فإذا انتقَلْنا منها إلىٰ الدارِ الآخرة، صِرْنا إلىٰ حكمِ الذي أسلَمْنا له واتَّبعْنا رُسُلَه، **﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾** [طه: ٧٣] أي؛ وثوابُه خيرٌ ممَّا وعَدْتَنا به من التَّقْريبِ والترْغيبِ، **﴿وَأَبْقَىٰ﴾** أي؛ وأَدْوَمُ من هذه الدارِ الفانيةِ. وفي الآيةِ الأخرىٰ **﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾** أي؛ ما اجتَرمْناه من المآثمِ والمحَارِمِ **﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** أي؛ من القبطِ، بموسىٰ وهارونَ، عليْهما السلامُ. وقالوا له أيضًا: **﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾** أي؛ ليس لنا عندَك ذنبٌ إلا إيمانُنا بما جاءنا به رسولُنا، واتباعُنا آياتِ ربِّنا لمَّا جاءتنا، **﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾** أي؛ ثَبِّتْنا علىٰ ما ابْتُلينا به، من عقوبةِ هذا الجبَّارِ العَنيدِ، والسلْطانِ الشديدِ، بل الشيطانِ المَريدِ، **﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾** وقالوا أيضًا يَعظونَه ويُخوِّفونه بأسَ ربِّه العَظيمِ: **﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾** يَقولون له: فإيَّاك أن تكونَ منهم. فكان منهم. **﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾** أي؛ المَنَازلُ العَاليةُ **﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾** فاحرِصْ أن تكونَ منهم. فحالت بينَه وبينَ ذلك الأقدارُ التي لا تُغالَبُ، ولا تُمانَعُ، وحكمُ العَليِّ العَظيمِ بأنَّ فرعونَ، لعنَه اللهُ، مِن أهلِ الجحيمِ، ليباشرَ العذابَ الأليمَ، يُصَبُّ مِن فوقِ رأسِه الحميمُ. ويقالُ له، علىٰ وجهِ التَّقْريعِ والتَّوْبيخِ، وهو المَقْبوحُ المَنْبوحُ،

الذَّميمُ اللئيمُ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

والظاهرُ من هذه السياقاتِ أن فرعونَ، لعَنَه اللهُ، صَلَّبَهم وعذَّبهم، رَضِيَ اللهُ عنهم.

قال عبدُ الله بنُ عباس[1]، وعُبَيْدُ بنُ عُمَيْر[2]: كانوا مِن أوَّلِ النهارِ سحَرَةً، فصاروا مِن آخِرِه شهداءَ بررَةً. ويؤيدُ هذا قولُهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

فصلٌ

ولَمَّا وقَع ما وقَع من الأمرِ العظيمِ ـ وهو الغَلَبُ الذي غُلِبَه فِرْعونُ وقومُه مِن القِبطِ في ذلك الموقفِ الهائلِ، وأَسلَمَ السَّحَرةُ ـ الذين استَنصَروا بِهم ـ لم يَزِدْهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا وبُعْدًا عن الحَقِّ.

قال اللهُ تعالى، بعدَ قَصصِ ما تقدَّم في سورة «الأعْراف»: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧-١٢٩]. يخبرُ تعالىٰ عن الملأِ من قومِ فرعونَ، وهم الأُمَراءُ والكُبَراءُ، أنَّهم حَرَّضوا مَلِكَهم فرعونَ علىٰ أذيَّةِ نبيِّ الله موسىٰ، عليه السلامُ، ومقابلتِه ـ بدلَ التَّصديقِ بما جاء به ـ بالكفرِ والرَّدِّ والأذىٰ، فقالوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ يَعْنون ـ قبَّحَهم اللهُ ـ أَنَّ دعوتَه إلىٰ عبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، والنَّهْيَ عن عبادةِ ما سواه فسادٌ بالنسْبةِ إلىٰ اعتقادِ القِبْطِ، لعنهم اللهُ. وقرأ بَعْضُهم: (وَيَذَرَكَ وَإِلاَهَتَكَ) أي؛ وعِبادتَك. ويَحتَمِلُ شيئين؛ أحدُهما، ويَذَرُ دينَك. وتُقَوِّيه القراءةُ الأخرىٰ.

الثاني: ويَذَرُ أن يَعبدَك، فإنه كان يَزْعُمُ أنه إلهٌ، لَعَنَه اللهُ ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أي؛ لئَلاَّ تَكْثُرَ مُقاتِلَتُهم، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ أي؛ غالبون، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي؛ إذا هَمُّوا هم بأذيَّتِكم والفَتْكِ بكم فاسْتَعينُوا أنتم بربِّكم، واصبِروا علىٰ بَليَّتِكم، ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي؛ فكونوا أنتم مَن المتقين؛ لتكونَ لَكم العاقبةُ، كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤-٨٦]. وقولُهم: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أي؛ قد كانتِ الأبْناءُ تُقْتَلُ قبلَ مَجيئِك، وبعدَ مجيئِك إلينا، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ

---

(١) ضعيف إليه: رواه عبد الرزاق (٩٢٦) من رواية معمر عن الكلبي عن أبي صالح عنه وهذا سند ضعيف جداً فيه الكلبي اتهم وأبو صالح باذام ضعيف. ومن طريق عبد الرزاق رواه ابن أبي حاتم (٨٨١٢) وأبهم الكلبي. ورواه ابن جرير (٦/ الجزء التاسع/ ٤) بسند ضعيف فيه ابن وكيع.

(٢) ضعيف إليه: رواه ابن جرير (٦/ الجزء التاسع/ ٤) من رواية السدي عنه عن ابن عباس.

أن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

وقال اللهُ تعالى، في سورة «حم المؤمن»: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤]. وكان فرعونُ الملكَ، وهامانُ الوزيرَ، وكان قارونُ إسرائيليًّا من قوم موسى، إلا أنَّه كان على دينِ فرعونَ وملئه، وكان ذا مالٍ جزيلٍ جدًّا، كما ستأتي قصتُه فيما بعدُ، إن شاء اللهُ تعالى.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥]. وهذا القتلُ للغلمان، من بعد بعثة موسى، إنما كان على وجه الإهانة والإذلال، والتقليلِ لملأ بني إسرائيل؛ لئلا تكونَ لهم شوكةٌ يمتنعون بها أو يصولون على القبطِ بسببها، وكانت القبطُ منهم يحذرون، فلم ينفعْهم ذلك؛ ولم يردَّ عنهم قدرَ الذي يقولُ للشيء: كُنْ، فيكونُ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]. ولهذا يقولُ الناسُ على سبيل التَّهَكُّم: صار فرعونُ مُذَكِّرًا. وهذا منه، فإن فرعون في زعْمِه يخافُ على الناسِ أن يُضلَّهم موسى، عليه السلامُ.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧]. أي؛ عُذْتُ بالله، ولجأتُ إليه واستجرْتُ بجنابه من أن يسطُوَ فرعونُ أو غيرُه عليَّ بسوءٍ.

وقولُه: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي؛ جبارٍ عنيدٍ، لا يرعوي ولا ينتهي، ولا يخافُ عذابَ الله وعقابَه؛ لأنه لا يعتقدُ معادًا ولا جزاءً، ولهذا قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٨، ٢٩]. هذا الرجلُ هو ابنُ عمٍّ فرعونَ، وكان يكتُمُ إيمانَه من قومه، خوفًا منهم على نفسه. وزعم بعضُ الناسِ أنه كان إسرائيليًّا، وهو بعيدٌ ومخالفٌ لسياقِ الكلام لفظًا ومعنًى. واللهُ أعلمُ.

قال ابنُ جُرَيْج: قال ابنُ عباسٍ[١]: لم يُؤْمِنْ من القبط بموسى إلا هذا، والذي جاء من أقصى المدينة، وامرأةُ فرعونَ. رواه ابنُ أبي حاتم. قال الدَّارَقُطْنيُّ: لا يُعْرفُ من اسمه شَمْعانُ - بالشين المُعْجَمة - إلا مؤمنُ آلِ فرعونَ. حكاه السُّهَيْليُّ.

وفي «تاريخ الطبريِّ» أن اسمَه: جبرٌ. فاللهُ أعلمُ.

---

(١) منقطع :ليس في المطبوع من تفسير ابن أبي حاتم ورواية ابن جريج عن ابن عباس منقطعة.

والمقصودُ أن هذا الرجلَ كان يَكتُمُ إيمانَه، فلمَّا هَمَّ فرعونُ، لعنه اللهُ، بقَتْلِ موسى، عليه السلامُ، وعزَم على ذلك وشاوَر ملأَه فيه، خاف هذا المؤمنُ على موسى، فتلطَّفَ في ردِّ فرعونَ بكلامٍ جمَع فيه الترْغيبَ والترْهيبَ، فقال كَلمةَ الحقِّ على وجه المَشورةِ والرأيِ. وقد ثبَت في الحديث عن رسول الله ﷺ، أنَّه قال: «أفضلُ الجهاد كلمةُ عَدْلٍ عندَ سُلْطان جائرٍ»[1] . وهذا من أعلى مَراتب هذا المَقام، فإنَّ فرْعونَ لا يكونُ أشدَّ جوراً منه، وهذا الكلامُ لا أعدَلَ منه؛ لأنَّ فيه عصمةَ دمِ نبيٍّ. ويَحتمِلُ أنه شارَ لهم بإظهارِ إيمانه، وصرَّح لهم بما كان يكتُمُه. والأولُ أظهَرُ. واللهُ أعلمُ.

قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أي؛ من أجلِ أنه قال: ربِّي اللهُ. فمثْلُ هذا لا يُقابَلُ بمثلِ هذا، بل بالإكرام والاحْترام والموادَعة وترك الانتقام، يعني: لأنه ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي؛ بالخوارق التي دلَّت على صدقه فيما جاء به عمَّن أرسلَه، فهذا إن وادعْتُموه كنتُم في سلامة؛ لأنه ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ ولا يَضرُّكم ذلك، ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ وقد تعرَّضتُم له ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أي؛ وأنتم تُشفِقون أن يَنالَكم أيسرُ جَزاءٍ ممَّا يَتوعدُكم به، فكيفَ بكم إن حَلَّ جميعُه عليكم؟ وهذا الكلامُ في هذا المَقام من أعلى مَقامات التلطف والاحتراز والعَقْلِ التامِّ.

وقولُه: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾ يحذِّرُهم أن يُسلَبوا هذا المُلْكَ العزيزَ، فإنه ما تعرَّضَت الدُّولُ للدين إلا سُلِبوا مُلكهم وذَلُّوا بعدَ عزِّهم، وكذا وقَع لآلِ فرعونَ؛ ما زالوا في شكٍّ وريْبٍ، ومخالفةٍ ومُعاندةٍ لِمَا جاءهم موسى به، حتى أخرَجهم اللهُ ممَّا كانوا فيه من المُلْكِ والأملاك، والدُّورِ والقصورِ، والنعْمةِ والحُبُورِ، ثم حُوِّلوا إلى البحرِ مُهانين، ونُقلَتْ أرواحُهم بعدَ العُلُوِّ والرِّفْعة إلى أسْفلِ السافلين. ولهذا قال هذا الرجلُ المؤمنُ الصادقُ، البارُّ الرَّاشدُ، التابعُ للحقِّ الناصحُ لقومِه، الكاملُ العقلِ: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أي؛ عالينَ على الناسِ حاكمينَ عليهم، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أي؛ لو كنتم أضعافَ ما أنتم عليه من العَدَدِ والعُدَّةِ والقوةِ والشدَّةِ، لمَا نَفعنا ذلك ولا ردَّ عنا بأسَ مالكِ الممالك.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ أي؛ في جواب هذا كلِّه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى﴾ أي؛ ما أقولُ لكم إلا ما عندي ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وكذَب في كلٍّ من هذين القولين، وهاتَيْن المقدِّمتَيْن، فإنَّه قد كان يَتحقَّقُ ويَعْلمُ في باطنه وفي نفسه أن هذا الذي جاء به موسى حقٌّ من عند الله لا محالةَ، وإنما كان يُظْهِرُ خلافَه بَغيًا وعُدْوانًا، وعُتُوًّا وكفرانًا.

قال اللهُ تعالى إخبارًا عن موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ

---

(١) صحيح: له ثلاث طرق. أولها: من رواية طارق بن شهاب له رواية رواها أحمد (٤/ ٣١٥) والنسائي «الكبرى» (٧٨٣٤) وسندها صحيح. الثانية من رواية أبي سعيد الخدري رواها أبو داود (٤٣٤٤) والترمذي (٢١٧٤) وابن ماجه (٤٠١١) وفيها العوفي ضعيف ورواه أحمد (٣/ ١٩ ـ ٦١) من طريق علي بن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد فيها علي بن زيد ضعيف. الثالثة من رواية أبي أمامة وسندها حسن ورواها أحمد (٥/ ٢٥١) من طريق أبي غالب عنه وأبو غالب فيه كلام لكن لا بأس بما رواه لا يخالف الثقات فيه.

مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

وأما قولُه: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ . فقد كذَب أيضًا، فإنه لم يكنْ على رشادٍ من الأمرِ، بل كان على سَفَهٍ وضَلالٍ، وخَبالٍ، وكان أولاً ممَّن يعبدُ الأصنامَ والأمثالَ، ثُم دعا قومَه الجَهَلَةَ الضُّلَّالَ إلى أن اتَّبعُوه وطاوَعُوه، وصدَّقُوه فيما زعم من الكفرِ المُحالِ في دعواه أنه ربٌّ، تعالى اللهُ ذو الجلالِ والإكرامِ.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٦]. وقال تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠-٢٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٦-٩٩]. والمقصودُ بيانُ كَذِبِه في قولِه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾، وفي قولِه: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ .

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٠-٣٥]. يحذِّرُهم وليُّ اللهِ، إن كذَّبوا برسولِ اللهِ موسى، أن يَحِلَّ بهم ما حَلَّ بالأُمَمِ من قبلِهم من النِّقماتِ والمَثُلاتِ، ممَّا تواتَر عندَهم وعندَ غيرِهم؛ ما حَلَّ بقومِ نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ، ومَن بعدَهم إلى زمانِهم ذلك، مما أقام اللهُ به الحُجَجَ على أهلِ الأرضِ قاطبةً، في صدقِ ما جاءَت به الأنبياءُ، بما أَنزَلَ من النِّقْمَةِ بمكذِّبيهم من الأعداءِ، وما أَنْجَى اللهُ من اتَّبَعهم من الأولياءِ، وخوَّفَهم يومَ القيامةِ، وهو يومُ التَّنادِ؛ أي حينَ يُنادي الناسُ بعضُهم بعضًا حينَ يُوَلُّون مُدْبِرِينَ، إن قَدَروا على ذلك، ولا إلى ذلك سبيلٌ. ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠-١٢]. وقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٣-٣٦]. وقرأ بعضُهم: (يَوْمَ التَّنَادِّ) بتشديد الدال، أي يومَ الفرارِ. ويَحْتَمِل أن يكونَ يومَ القيامة، ويَحتَمِلُ أن يكونَ يومَ يُحِلُّ اللهُ بهمُ البأسَ، فيَوَدُّون الفرارَ ولاتَ حينَ مناصٍ. ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢، ١٣]. ثُم أَخْبَرَهم عن نبوةِ يوسفَ في بلادِ مصرَ؛ ما كان منه مِن الإحسانِ إلىٰ الخلقِ في دنياهم وأُخراهم، وهذا مِن سُلالتِه وذُرِّيَّتِه، ويَدْعُو الناسَ إلىٰ توحيدِ الله وعبادتِه، وأن لا يُشْرِكوا به أحدًا من بريَّتِه، وأَخبَرَ عن أهلِ الديارِ المصْرية في ذلك الزمان، أنَّ من سَجيَّتِهم التَّكْذيبَ بالحقِّ ومخالفةَ الرسلِ؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ أي؛ وكذَّبْتُم في هذا. ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي؛ يَرُدُّونَ حُجَجَ الله وبراهينَه ودلائلَ توحيدِه بلا حُجَّةٍ ولا دليلٍ عندَهم مِن اللهِ، فإنَّ هذا أمرٌ يَمْقُتُه اللهُ غايةَ المَقْت؛ أي يُبْغِضُ مَن تَلَبَّس به من الناس، ومَن اتَّصف به مِنَ الخَلْقِ، ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ قُرِئ بالإضافةِ وبالنعتِ، وكلاهما مُتَلازمٌ؛ أي هكذا إذا خالفَتِ القلوبُ الحقَّ، ولا تخالفُه إلا بلا برهانٍ، فإنَّ اللهَ يَطْبَعُ عليها؛ أي يَخْتِمُ عليها.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]. كذَّب فرعونُ موسىٰ، عليه السلامُ، في دَعْواه أنَّ اللهَ أَرْسلَه، وزعَم فرعونُ لقومه ما كذَبه وافتراه، في قولِه لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]. وقال ههنا: ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ أي؛ طُرُقَها ومسالكَها ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ ويحتَملُ هذا معنيَيْنِ؛ أحدُهما: وإني لأظنُّه كاذبًا في قولِه: إن للعالَمِ ربًّا غيري. والثاني: في دعواه أن اللهَ أرْسلَه. والأولُ أشْبَهُ بظاهرِ حالِ فرعونَ، فإنَّه كان يُنكِرُ ظاهرَ إثباتِ الصانعِ، والثاني أقربُ إلىٰ اللفظِ؛ حيث قال: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾ أي؛ فأَسألَه هل أَرْسَلَه أم لا، ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ أي؛ في دَعْوَاه ذلك. وإنَّما كان مَقْصودُ فرعونَ أن يَصُدَّ الناسَ عن تَصْديقِ موسىٰ، عليه السلامُ، وأن يَحُثَّهم علىٰ تكذيبِه. قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾، وقُرِئ: (وصَدٌّ عَنِ السَّبِيلِ).

قال ابنُ عباسٍ[1] ومُجاهدٌ[2]: يقولُ: إلا في خَسارٍ. أي باطلٍ، لا يحصُلُ له شيءٌ مِن مَقْصودِه

---

(١) رواه جرير (١٢/ الجزء ٢٤/ ٦٦) رواية علي بن أبي طلحة وهو لم يسمع من ابن عباس.

(٢) صحيح: رواه ابن جرير (١٢/ الجزء ٢٤/ ٦٦) من رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد وقد اختلف في هذه الرواية.

الذي رامَه، فإنَّه لا سبيلَ للبَشَرِ أن يَتَوصَّلوا بقُواهم إلى نَيْلِ السماء أبداً - أعْني السماءَ الدنيا - فكيف بما بعدَها من السماوات العُلَى، وما فوقَ ذلك من الارتفاع الذي لا يَعلمُه إلا اللهُ عز وجل. وذكَر غيرُ واحدٍ من المفسِّرين أن هذا الصَّرْحَ، وهو القَصْرُ الذي بناه وزيرُه هامانُ له، لم يُرَ بناءٌ أعْلَى منه، وأنَّه كان مبنيًّا من الآجُرِّ المشويِّ بالنار، ولهذا قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾.

وعندَ أهلِ الكتاب: أن بني إسرائيلَ كانوا يُسخَّرون في ضَرْبِ اللَّبِنِ، وكان مما حُمِّلوا من التكاليف الفرْعونية أنَّهم لا يُساعَدون على شيءٍ مما يَحتاجون إليه فيه، بل كانوا هم الذين يَجْمَعون ترابَه وتِبْنَه وماءَه، ويُطْلَبُ منهم كلَّ يوم قسطٌ معينٌ، إن لم يَفْعلُوه وإلا ضُربوا وأُهينوا غايةَ الإهانة، وأُوذوا غايةَ الأذيَّة. ولهذا قالوا لموسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، فوعَدهم بأن العاقبةَ لهم على القِبْط، وكذلك وقَع، وهذا من دلائلِ النُّبوة.

ولْنَرْجعْ إلى نَصيحة المؤمنِ ومَوْعظته واحتجاجه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٨-٤٠]. يدعوهم، رَضِي اللهُ عنه، إلى طريقِ الرَّشادِ والحقِّ، وهي مُتابَعةُ نبيِّ الله موسى، وتصديقُه فيما جاء به من ربِّه، ثُم زهَّدَهم في الدنيا الدَّنيَّة الفانيةِ المُنْقَضِيةِ لا محالةَ، ورغَّبَهم في طَلَبِ الثوابِ عندَ الله، الذي لا يُضيعُ عملُ عاملٍ لديه، القديرِ الذي ملكوتُ كلِّ شيءٍ بيدَيْه، الذي يُعطي على القليلِ كثيراً، ومن عَدْلِه لا يُجازي على السَّيِّئة إلا مثلَها. وأخبرَهم أن الآخرةَ هي دارُ القرارِ، التي مَن وافاها مُؤمنًا قد عَمِل الصالحات، فلهم الجناتُ العالياتُ، والغُرَفُ الآمناتُ، والخَيْراتُ الكثيرةُ الفائقاتُ، والأرْزاقُ الدائمةُ التي لا تَبِيدُ، والخيرُ الذي كلَّ ما لهم منه في مزيدٍ.

ثم شرَع في إبطالِ ما هم عليه، وتَخْويفهم مما يَصيرون إليه، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤١-٤٦]. كان يَدْعوهم إلى عبادة ربِّ السموات والارض، الذي يَقُولُ للشيءِ: كُنْ، فيكونُ، وهم يَدْعُونه إلى عبادة فرعونَ الجاهلِ الضالِّ الملعونِ، ولهذا قال لهم على سبيلِ الإنكار: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾، ثُم بيَّنَ لهم بُطلانَ ما هم عليه من عبادةِ ما سوى اللهِ من الأندادِ والأوْثانِ، وأنها لا تَملكُ من نفعٍ ولا إضرارٍ. فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا

تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي؛ لا تَملكُ تَصرفًا ولا حُكمًا في هذه الدَّار، فكيف تَملكُه يومَ القرار؟ وأمَّا اللهُ، عز وجل، فإنَّه الخالقُ الرزاقُ للأبرارِ والفُجَّار، وهو الذي أحيا العبادَ ويُميتُهم ويَبعثُهم، فيُدخلُ طائعَهم الجنةَ، وعاصيَهم النارَ. ثُم توعَّدهم ـ إنْ هم استَمرُّوا على العنادِ ـ بقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي؛ بإنكاره سَلِم مِمَّا أصابَهم من العُقوبة على كُفرهم بالله، ومكرِهم في صدِّهم عن سبيلِ الله، مِمَّا أظهَروا للعامَّة من الخَيالات والمحَالات التي لَبَّسوا بها على عوامِّهم وطَغامهم؛ ولهذا قال: ﴿وَحَاقَ﴾ أي؛ أحاطَ ﴿بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي؛ تُعرَضُ أرواحُهم في بَرزَخِهم صباحًا ومساءً على النار، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، وقد تكلَّمْنا على دَلالة هذه الآية على عذابِ القبرِ في «التفسير». ولله الحمدُ.

والمَقصودُ أن اللهَ تعالى لم يُهلِكْهم إلا بعدَ إقامةِ الحُجَجِ عليهم، وإرسالِ الرَّسول إليهم، وإزاحةِ الشُّبَه عنهم، وأخْذِ الحُجَّة عليهم منهم، فبالتَّرهيب تارةً والترغيب أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣٣]. يخبرُ تعالى أنه ابتَلى آلَ فرعونَ، وهم قومُه من القِبْط، بالسِّنينَ، وهي أعوام الجَدْب التي لا يُستغلُّ فيها زَرْعٌ، ولا يُنتفَعُ بضَرْع.

وقولُه: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وهي قِلَّةُ الثمارِ من الأشْجار، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي؛ فلم يَنتفعوا ولم يَرْعَوُوا، بل تَمرَّدوا واستمَرُّوا على كُفرهم وعنادهم، ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ وهو الخِصْبُ ونحوُه ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي؛ هذا الذي نَستحقُّه، وهذا الذي يَليقُ بنا، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾ أي؛ يقولون هذا؛ بشُؤمهم أصابنا هذا. ولا يقولون في الأوَّل: إنه بركتُهم وحسنُ مجاورتِهم، ولكنْ قلوبُهم مُنكرةٌ مُستَكْبِرةٌ نافرةٌ عن الحقِّ، إذا جاء الشَّرُّ أسندوه إليه، وإن رأَوا خيرًا ادَّعَوه لأنفسهم.

قال اللهُ تعالى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أي؛ اللهُ يَجزيهم على هذا أوْفَرَ الجزاء ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي؛ مَهْما جِئتَنا به من الآيات، وهي الخوارقُ للعادات، فلَسْنا نُؤمنُ بك ولا نَتَّبِعُك ولا نُطيعُك ولو جئتَنا بكلِّ آية. وهكذا أخبرَ اللهُ عنهم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ

وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

أمَّا الطُّوفانُ: فعن ابنِ عباسٍ(١) : هو كثرةُ الأمطارِ المُتْلِفةِ للزُّروعِ والثمارِ. وبه قال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ(٢)، وقَتادةُ(٣)، والسُّدِّيُّ(٤)، والضَّحَّاكُ(٥). وعن ابنِ عباسٍ، وعطاءٍ(٦) : هو كثرةُ الموتِ. وقال مُجاهدٌ(٧) : الطوفانُ الماءُ، والطاعونُ على كلِّ حالٍ. وعن ابنِ عباسٍ(٨) : أمرٌ طافَ بهم.

وقد روى ابنُ جَريرٍ(٩) وابنُ مَرْدَوَيْهِ، من طريقِ يحيى بنِ يَمَانٍ، عن المِنْهالِ بنِ خليفةَ، عن الحجَّاجِ، عن الحكَمِ بنِ مِيْنَاءَ، عن عائشةَ، عن النبيِّ ﷺ: «**الطوفانُ الموْتُ**» وهو غريبٌ.

وأمَّا الجَرادُ: فمعروفٌ. وقد روى أبو داودَ(١٠) ، عن أبي عثمانَ، عن سلمانَ الفارسيِّ، قال: سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عن الجرادِ، فقال: «**أكثرُ جنودِ الله لا آكُلُه ولا أُحرِّمُه**». وتَرْكُ النبيِّ ﷺ أكْلَه إنَّما هو على وجْهِ التَّقذُّرِ له؛ كما تركَ أكْلَ الضَّبِّ، وتَنزَّهَ عن أكْلِ البصلِ والثُّومِ والكُرَّاثِ، لما ثبَت في «الصحيحين»(١١) ، عن عبدِ اللهِ بنِ أبي أوْفى، قال: غَزَوْنَا مع رسولِ اللهِ ﷺ سبعَ غَزَواتٍ نَأكلُ الجَرادَ. وقد تكلَّمْنا على ما ورَدَ فيه من الأحاديثِ والآثارِ في «التفسيرِ».

والمقصودُ أنه استاق خَضْرَاءَهم، فلم يَترُكْ لهم زُرُوعًا ولا ثِمارًا، ولا سَبَدًا ولا لَبَدًا.

وأما القُمَّلُ: فعن ابنِ عباسٍ(١٢) : هو السُّوسُ الذي يَخرجُ من الحِنْطةِ، وعنه(١٣) : أنه الجرادُ

---

(١) **صحيح بمجموع طرقه**: رواه ابن أبي حاتم (٨٨٦٤) بسند فيه يعقوب وهو القمي صدوق يهم. رواه ابن جرير (٦/ الجزء التاسع/ ٣٠/ ٣١) من طرق عن ابن عباس من طريق سعيد بن جبير وفيه ابن وكيع ضعيف. يعقوب القمي كذلك ومن طريق العوفي عنه سنده ضعيف جدًا ومن طريق الضحاك عنه والضحاك لم يسمع منه وفيه ابن وكيع وجابر بن نوح ضعيفان. ورواه أيضًا ابن أبي حاتم (٨٨٥٧) من طريق أبي روق عن الضحاك عنه. ورواه ابن أبي حاتم (٨٨٦١) من طريق علي بن أبي طلحة عنه.

(٢ ـ ٤) ذكرهم ابن أبي حاتم ولم يسنده.

(٥) **حسن**: رواه ابن جرير (٦/ الجزء التاسع/ ٣٠، ٣١) وفيه ابن وكيع وابن أبي حاتم (٨٨٥٣) بسندٍ لا بأس به من رواية عبد العزيز منيب من أبي معاذ عن عبيد بن سليمان عنه، عبيد لا بأس به.

(٦) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (٦/ الجزء التاسع/ ٣٠/ ٣١) من رواية ابن جريج عنه. وسنده صحيح قال: حدثني عباس بن محمد عن الحجاج عن ابن جريج قال: سألت عطاء ما الطوفان؟ قال الموت: ومن طرق أخرى عن ابن جريج عنه.

(٧) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (٦/ الجزء التاسع/ ٣٠/ ٣١) بسند صحيح إلى ابن أبي نجيح عنه. ومن رواية ابن جريج كذلك عنه.

(٨) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (٨٨٥٨) وابن جرير (٦/ الجزء التاسع/ ٣١) وسنده لين من رواية قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عنه. وقابوس فيه لين.

(٩) **ضعيف**: رواه ابن جرير (٦ الجزء التاسع/ ٣١) وسنده ضعيف جدًا فيه يحيى بن يمان كثير الخطأ والمنهال بن خليفة والحجاج بن أرطأة ضعيفان. وكذلك رواه ابن أبي حاتم (٨٨٥٥) من نفس الطريق.

(١٠) **مرسل**: رواه أبو داود (٣٨١٣ ـ ٣٨١٤) وابن ماجه (٣٢١٩) والصواب فيه مرسلاً رواه أبو داود من طريق زكريا بن يحيى عن أبي العوام واسمه فائد عن أبي عثمان النهدي عن سلمان وخالفه حماد بن سلمة عن أبي العوام عن عثمان مرسلاً. ورواه أيضًا من طريق ابن الزبرقان واسمه محمد عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان وخالفه المعتمر بن سليمان عن أبيه عن أبي عثمان مرسلاً. وصوبه أبو داود وأبو حاتم في «علل ابن أبي حاتم» (ح/ ١٤٩٥).

(١١) **متفق عليه**: البخاري (٥٤٩٥) ومسلم (٥٠١٩).

(١٢) **في سنده ضعف**: رواه ابن جرير (٦/ الجزء التاسع/ ٣٢) بسند ضعيف فيه ابن وكيع ويعقوب القمي وتابع ابن وكيع عثمان بن أبي شيبة عند ابن أبي حاتم (٨٨٧١) ويعقوب يخطئ.

(١٣) **حسن لطرقه**: رواه ابن أبي حاتم (٨٨٧٠) من رواية الضحاك عنه والضحاك لم يسمع من ابن عباس. وابن جرير (٦/ الجزء التاسع/ ٣٢) من رواية علي بن أبي طلحة عنه. وكذلك من رواية العوفي عنه. فهذه طرق يقوي بعضها بعضًا.

الصِّغارُ الذي لا أجنحةَ له. وبه قال مُجاهدٌ[١]، وعِكْرِمةُ[٢]، وقَتادةُ[٣]. وقال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، والحسنُ[٤]: هو دوابُّ سُودٌ صِغارٌ. وقال عبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسْلَمَ[٥]: هي البراغيثُ. وحكَىٰ ابنُ جَريرٍ عن أهلِ العربيَّةِ أنها الحَمْنانُ. وهي صِغارُ القِرْدانِ، فَوْقَ القَمْقامَةِ، فدخَل معهم البيوتَ والفُرُشَ، فلم يَقِرَّ لهم قرارٌ، ولم يُمكِنْهم معه الغَمْضُ ولا العيشُ. وفسَّره عطاءُ بنُ السائبِ بهذا القُمَّلِ المعروف. وقرأها الحسنُ البصريُّ كذلك بالتَّخْفيف.

وأمَّا الضَّفادعُ: فمعروفةٌ، لَبِسَتْهم حتىٰ كانت تَسقطُ في أطعماتِهم وأوانيهم، حتىٰ إنَّ أحدَهم إذا فَتَح فَمَه لطعامٍ أو شرابٍ، سقَطت في فيه ضِفْدَعةٌ من تلك الضَّفادع.

وأمَّا الدَّمُ: فكان قد مُزِج ماؤهم كلُّه به، فلا يَستَقُون من النِّيلِ شيئًا إلا وجدوه دَمًا عَبِيطًا، ولا من نهرٍ ولا بئرٍ ولا شيءٍ إلا كان دَمًا في الساعةِ الراهنة.

هذا كلُّه، ولم يَنَلْ بَني إسرائيلَ من ذلك شيءٌ بالكلية. وهذا من تمامِ المعجزةِ الباهرةِ، والحُجَّةِ القاطعةِ أنَّ هذا كلَّه يَحصُلُ لهم عن فعلِ موسىٰ، عليه السلامُ، فيَنالُهم عن آخرِهم، ولا يَحصُلُ هذا لأحدٍ من بني إسرائيلَ، وفي هذا أدلُّ دليلٍ.

قال محمدُ بنُ إسحاقَ[٦]: فرجَع عدوُّ الله فرعونُ - حينَ آمنَت السَّحَرةُ - مغلوبًا مَفْلولاً، ثُم أبَىٰ إلا الإقامةَ علىٰ الكُفرِ والتَّماديَ في الشَّرِّ، فتابَعَ اللهُ عليه بالآيات، فأخذَه بالسِّنينَ، فأرْسَلَ عليه الطُّوفانَ، ثُم الجَرادَ، ثُم القُمَّلَ، ثُم الضَّفادعَ، ثم الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ؛ فأرسَلَ الطوفان - وهو الماءُ - ففاض علىٰ وجه الأرضِ، ثُم ركَدَ، لا يَقدِرُون علىٰ أن يَحْرُثُوا ولا أن يَعْمَلوا شيئًا، حتىٰ جُهِدُوا جُوعًا، فلمَّا بَلَغَهم ذلك، ﴿**وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ [الأعراف: ١٣٤]. فدعا موسىٰ ربَّه، فكشَفه عنهم، فلمْ يَفُوا له بشَيءٍ، فأَرسَلَ اللهُ عليهم الجَرادَ، فأكَل الشَّجرَ، فيما بَلَغَني، حتىٰ إنْ كان ليَأكُلُ مساميرَ الأبوابِ من الحديد، حتىٰ تَقَعَ دورُهم ومساكنُهم، فقالوا مثلَ ما قالوا، فدعا ربَّه فكشَف عنهم، فلم يَفُوا له بشيءٍ ممَّا قالُوا، فأَرسَل اللهُ عليهم القُمَّلَ، فذُكِر لي أنَّ موسىٰ، عليه السلامُ، أُمِرَ أنْ يَمْشيَ إلىٰ كَثِيبٍ حتىٰ يَضْرِبَه بعَصاه، فمشَىٰ إلىٰ كَثِيبٍ أهْيَلَ عظيمٍ، فضرَبَه بها، فانثال عليهم قُمَّلا، حتىٰ غلَب علىٰ البُيُوتِ والأطْعمةِ، ومنَعهم النَّومَ والقرارَ، فلمّا جَهَدهم، قالوا له مثلَ ما قالوا له، فدعا ربَّه، فكشف عنهم، فلمْ يَفُوا له بشَيءٍ ممَّا قالوا، فأَرْسَل اللهُ عليهم الضَّفادعَ، فَمَلأَتِ البُيوتَ

---

(١) رواه ابن جرير (٦/ ٩/ ٣٢). من رواية ابن أبي نجيح عنه.

(٢) ضعيف: ابن جرير (٦/ ٩/ ٣٢) بسند فيه مبهم وابن وكيع. عن يحيى بن آدم عن قيس عمن حدثه عن عكرمة.

(٣) صحيح إليه: ابن جرير (٦/ ٩/ ٣٢) بسند صحيح من رواية سعيد بن أبي عروبة ومعمر عنه.

(٤) ضعيف: رواه ابن جرير (٦/ ٩/ ٣٢) عنهما بسند فيه سُنيد وهو الحسين ضعيف.

(٥) صحيح إليه: رواه ابن أبي حاتم (٨٨٧٥) من رواية أصبغ بن الفرج عنه ورواه ابن جرير (٦/ ٩/ ٣٢) بسند صحيح من رواية يونس عن ابن وهب عنه.

(٦) ضعيف الإسناد: رواه ابن جرير (١/ ٢٤٧) عنه في رواية ابن حميد وهو ضعيف.

والأطعمةَ والآنيةَ، فلم يَكْشِفْ أحدٌ ثوبًا ولا طعامًا إلا وَجَد فيه الضَّفادعَ قد غلبت عليه، فلمّا جَهَدَهم ذلك، قالوا له مثلَ ما قالوا، فدعا ربَّه، فكشفَ عنهم، فلم يَفُوا له بشيءٍ مِمّا قالوا، فأرسَل اللهُ عليهم الدَّمَ فصارتْ مياه آلِ فِرْعونَ دمًا، لا يَسْتَقُون من بئرٍ، ولا نَهْرٍ ولا يَغْتَرِفُون من إناءٍ، إلا عادَ دمًا عَبِيطًا.

وقال زيدُ بنُ أسلمَ: المرادُ بالدَّم الرُّعافُ. رواه ابنُ أبي حاتم[1].

قال اللهُ تعالى: ﴿**وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٣٤-١٣٦]. يُخبرُ تعالى، عن كفرهم، وعُتُوِّهم، واستمرارهم على الضَّلال والجَهْلِ، والاستكبار عن اتّباع آيات الله، وتصديق رَسوله، مع ما أُيِّد به من الآيات العَظيمة الباهرة، والحُجج البَليغة القاهرة، التي أراهم اللهُ إياها عيانًا، وجعَلها عليهم دَليلاً وبُرْهانًا، وكلّما شاهدُوا آيةً وعايَنُوها، وجَهَدَتْهم وأضْنَكَتْهم، حَلَفُوا وعاهَدُوا موسى؛ لَئِنْ كَشَفَ عنهم هذه، لَيُؤْمِنُنَّ به، ولَيُرْسِلُنَّ معه مَنْ هو من حِزْبه، فكلَّما رُفِعتْ عنهم تلك الآيةُ، عادُوا إلى شَرٍّ مِمّا كانوا عليه، وأعْرَضُوا عمّا جاءَهم به من الحقِّ، ولم يَلْتَفِتُوا إليه، فيُرْسِلُ اللهُ عليهم آيةً أخرى، هي أشدُّ مِمّا كانت قبلَها وأقْوى، فيقولُون فيَكْذبون. ويَعِدُون ولا يَفُون ﴿**لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ فيُكْشَفُ عنهم ذلك العذابُ الوَبِيلُ. ثم يَعُودُون إلى جَهْلِهم العريضِ الطَّويلِ.

هذا، والعظيمُ الحليمُ القديرُ يُنْظِرُهم ولا يَعْجَلُ عليهم، ويؤخِّرُهم ويتقدَّمُ بالوعيد إليهم، ثم أخَذَهم - بعدَ إقامة الحُجَّة عليهم، والإعذار إليهم - أخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ، فجعلَهم عِبْرةً، ونَكَالاً وسَلَفًا لمنْ أشْبَهَهم من الكافرين، ومَثَلاً لمَن اتَّعَظَ بهم من عباده المؤمنين.

وقال اللهُ تبارك وتعالى، وهو أصْدَقُ القائلين، في سورة «حم والكتاب المبين»: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ**﴾ [الزخرف: ٤٦-٥٦].

---

(١) **صحيح إليه:** رواه ابن أبي حاتم (٨٨٨٣) بسند صحيح. من رواية أحمد بن خلاد الحلال عن يحيى بن أبي بكير عن زهير بن محمد عنه.

يَذْكُرُ تعالىٰ إرسالَهَ عبدَه الكليمَ الكريمَ، إلىٰ فِرْعَوْنَ الخسيسِ اللَّئيمِ، وأنَّه تعالىٰ أَيَّدَ رسولَه بآياتٍ بيِّناتٍ واضِحاتٍ، تستَحِقُّ أَن تُقابَلَ بالتَّصْديقِ والتَّعْظيمِ، وأَنْ يَرْتَدِعُوا عمَّا هم فيه مِن الكُفرِ، ويَرْجِعوا إلىٰ الحقِّ والصِّراطِ المُسْتقيمِ، فإذا هم منها يَضْحكُون، وبها يَسْتَهْزِئُون، وعن سبيلِ الله يَصُدُّون، وعن الحَقِّ يَحِيدُونَ، فأرسلَ اللهُ عليهمُ الآيَاتِ تَتْرَىٰ، يَتْبَعُ بعضُها بعضًا، وكلُّ آيةٍ أكبرُ مِن أُخْتِها التي تَتْلُوها؛ لأنَّ المُؤكِّدَ أبلغُ ممَّا قبلَه، **﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾**، لم يكنْ لفظُ السَّاحِرِ في زَمانِهم نقصًا ولا عيْبًا؛ لأنَّ علماءَهم، في ذلك الوقتِ، همُ السَّحرةُ، ولهذا خاطبُوه به في حالِ احتياجِهم إليه، وضَراعتِهم لَدَيْه.

قال اللهُ تعالى: **﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾**، ثُم أخبرَ تعالىٰ عن تَبَجُّحِ فِرْعَوْنَ بمُلْكه، وعَظَمَةِ بَلَدِه وحُسنِها، وتَخَرُّقِ الأنهارِ فيها، وهي الخُلْجانُ التي يَكْسرُونها أمامَ زيادةِ النِّيلِ، ثُم تَبَجَّحَ بنفسِه وحِلْيَتِه، وأَخَذَ يَتَنَقَّصُ رسولَ الله موسىٰ، عليه السلامُ، ويَزْدَريه بكَوْنه **﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾** يَعْني كلامَه، بسببِ ما كان في لسانه مِن بَقِيَّةِ تلك اللُّثْغَةِ، التي هي شَرَفٌ له، وكمالٌ وجمالٌ، ولم تكنْ مانعةً له أَنْ كلَّمه اللهُ تعالَىٰ، وأَوْحَىٰ إليه، وأَنْزَلَ بعد ذلك التَّوراةَ عليه، وتَنَقَّصَه فِرْعَوْنُ، لَعَنَه اللهُ، بكونِه لا أساوِرَ في يَدَيه ولا زينةَ عليه، وإنَّما ذلك من حِلْيةِ النِّساءِ، لا يَليقُ بشهامةِ الرِّجالِ، فكيف بالرُّسُلِ الذين هم أكملُ عَقْلاً، وأتمُّ معرفةً، وأَعْلَىٰ هِمَّةً، وأزهدُ في الدُّنيا، وأعلمُ بما أعدَّ اللهُ لأَوْليائه في الأُخْرَىٰ.

وقوله: **﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾** لا يحتاجُ الأمرُ إلىٰ ذلك، إنْ كان المرادُ أنْ تعظِّمَه الملائكةُ. فالملائكةُ يُعَظِّمُون ويتواضَعُون لِمَن هو دونَ موسىٰ، عليه السَّلامُ، بكثيرٍ، كما جاء في الحديث[1]: «**إنَّ المَلائكةَ لَتَضعُ أَجْنِحَتَها لطالبِ العلمِ رضًى بما يَصْنَعُ**». فكَيْفَ يكونُ تواضُعُهم وتعظيمُهم لموسىٰ الكَليمِ، عليه الصَّلاةُ والتَّسليمُ والتَّكريمُ؟ وإن كان المرادُ شهادتَهم له بالرِّسالةِ، فقد أُيِّد مِن المُعْجزاتِ بما يَدُلُّ قطعًا لذوي الألبابِ، ولِمَن قصدَ إلىٰ الحقِّ والصَّوابِ، ويَعْمَىٰ عمّا جاءَ به مِن البيِّناتِ والحُجَجِ الواضِحاتِ، مَن نَظَرَ إلىٰ القُشُورِ، وتَرَكَ لُبَّ اللُّبابِ، وطَبَع علىٰ قلبِه ربُّ الأرْبابِ، وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب، كما هو حالُ فِرْعَوْنَ القِبْطيِّ العَمِيِّ الكذَّابِ، قال اللهُ تعالىٰ: **﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾** أي؛ اسْتَخَفَّ عقولَهم، ودَرَّجَهم مِن حالٍ إلىٰ حالٍ، إلىٰ أن صَدَّقُوه في دَعْواه الرُّبوبيَّةَ، لَعَنَه اللهُ وقبَّحهم، **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾**.

---

(١) **حسن:** من رواية صفوان بن عسال رضي الله عنه. رواه أحمد (٤/ ٢٣٩) والترمذي (٣٥٣٥) وابن ماجه (٢٢٦) وعبد الرزاق (٧٩٣ ـ ٧٩٥) كلهم من رواية عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبيش عن صفوان وهذا إسناد حسن. وقد روي من طريق أبي الدرداء رواه أحمد (٥/ ١٩٦) وأبو داود (٣/ ٣٦٤١ ـ ٣٦٤٢) والترمذي (٥/ ٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣). من رواية كثير بن قيس عنه. وروي موصولاً من رواية عاصم بن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء مرفوعًا وروي منقطعًا عن عاصم بن رجاء عن كثير بن قيس ورجح الموصول البخاري ورجح المنقطع الترمذي. وروي من طريق أخرى وفيها شبيب بن شيبة صدوق يهم من رواية الوليد بن مسلم قال: حدثني شبيب عن عثمان بن أبي الأسود عن أبي الدرداء، والوليد بن مسلم يدلس تدليس التسوية فلا بد من التصريح بالسماع إلى آخر السند.

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أي؛ أَغْضَبُونا؛ ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي؛ بالغَرَقِ، والإهانة، وسَلْبِ العزِّ، والتَّبدُّلِ بالذُّلِ وبالعَذَابِ بعدَ النِّعْمَةِ، والهوانِ بعدَ الرَّفَاهِيَةِ، والنَّارِ بعدَ طيبِ العَيْشِ، عياذًا بالله العظيمِ وسلطانه القَديمِ مِن ذلك، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ أي؛ لِمَنِ اتَّبَعهم في الصِّفاتِ، ﴿وَمَثَلًا﴾ أي؛ لِمَنِ اتَّعظَ بهم، وخافَ مِن وَبيلِ مَصْرَعِهم، ممَّن بلغَه جَلِيَّةُ خَبَرِهم، وما كان مِن أمرِهم؛ كما قال اللهُ تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٣٦-٤٢].

يُخْبِرُ تعالىٰ أنَّهم لمَّا استَكْبَرُوا عن اتِّباعِ الحقِّ، وادَّعَىٰ مَلِكُهم الباطلَ، ووافقُوه عليه، وأطاعُوه فيه، اشْتَدَّ غضبُ الرَّبِّ القديرِ العَزيزِ - الذي لا يُغالَبُ ولا يُمانَعُ - عليهم، فانتقَمَ منهم أشدَّ الانتقامِ، وأغْرَقَه هو وجنودَه في صَبيحةٍ واحدةٍ، فلمْ يَفْلِتْ منهم أحدٌ، ولم يَبْقَ منهم ديَّارٌ، بل كلٌّ قد غَرِقَ، فدَخلَ النَّارَ، وأُتْبِعُوا في هذه الدَّارِ لعنةً بينَ العالمينَ، ويومَ القيامةِ، بِئْسَ الرِّفْدُ المَرْفُودُ، ويومَ القيامةِ هم مِنَ المَقْبُوحِينَ.

ذكرُ هلاكِ فِرْعَوْنَ وجنودِهِ

لَمَّا تمادَىٰ قِبْطُ مصرَ علىٰ كفرِهم، وعُتُوِّهم، وعنادِهم، متابعَةً لِمَلِكِهم فِرْعَوْنَ، ومخالفَةً لنبيِّ الله ورسولِه وكليمِه، موسىٰ بنِ عِمْرَانَ، عليه السَّلامُ، وأقامَ اللهُ علىٰ أهلِ مصرَ الحُجَجَ العظيمةَ القاهرةَ، وأراهم مِن خوارقِ العاداتِ ما بَهَرَ الأبصارَ وحَيَّرَ العقولَ، وهم مع ذلك لا يَرْعَوُون، ولا يَنْتَهُون، ولا يَنْزِعُون، ولا يَرْجِعُون، ولم يُؤْمِنْ منهم إلا القليلُ، قيل: ثلاثةٌ؛ وهم امرأةُ فِرْعَوْنَ، ولا عِلْمَ لأهلِ الكتابِ بخبرِها، ومؤمنُ آلِ فِرْعَوْنَ - الذي تَقَدَّم حكايةُ موعظتِه، ومَشورتِه، وحُجَّتِه عليهم - والرَّجلُ النَّاصحُ، الذي جاء يَسْعَىٰ مِن أَقْصَىٰ المدينةِ، فقال: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾. قاله ابنُ عباسٍ[1]، فيما رواه ابنُ أبي حاتمٍ عنه. ومُرادُه غيرُ السَّحَرَةِ، فإنَّهم كانوا مِنَ القِبْطِ. وقيل: بل آمَنَ به طائفةٌ من القِبْطِ من قَوْمِ فِرْعَوْنَ، والسَّحرةُ كلُّهم، وجميعُ شَعْبِ بني إسرائيلَ. ويدلُّ علىٰ هذا قولُه تعالىٰ: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]. فالضَّميرُ في

(١) سند لا بأس به: رواه ابن أبي حاتم (١٦٧٩٧) فيه أصبغ بن زيد صدوق يغرب.

قوله: ﴿إلا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ عائدٌ على فِرْعَوْنَ؛ لأنَّ السِّياقَ يدلُّ عليه. وقيل: على موسى؛ لقُرْبِه. والأوَّلُ أظهرُ، كما هو مُقَرَّرٌ في «التَّفسير». وإيمانُهم كان خُفْيةً؛ لمخافَتِهم من فِرْعَوْنَ وسَطْوَتِه، وجَبَرُوتِه وسُلْطتِه، ومن مَلَئِهم أنْ يَنِمُّوا عليهم إليه، فيَفتِنَهم عن دينِهم، قال اللهُ تعالى، مُخبِرًا عن فِرْعَوْنَ، وكفى بالله شهيدًا: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ﴾ أي؛ جَبَّارٌ، عَنيدٌ، مُستَعْلٍ بغيرِ الحقِّ، ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي؛ في جميعِ أمورِه وشئونِه وأحوالِه، ولكنَّه جُرْثُومَةٌ قد حانَ انجعافُها، وثَمَرَةٌ خَبِيثَةٌ قد آنَ قِطافُها، ومُهْجَةٌ مَلْعُونَةٌ قد حُتِم إتلافُها. وعندَ ذلك قال موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤-٨٦]. يأمرُهم بالتَّوكُّلِ على اللهِ، والاستعانةِ به والالتجاءِ إليه، فائتَمَرُوا بذلك، فجعلَ اللهُ لهم ممَّا كانوا فيه فَرَجًا ومَخْرَجًا.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أوحَى اللهُ تعالى إلى موسى وأخيه هارونَ، عليهما السّلامُ، أنْ يتخذا لقَوْمِهما بيوتًا مُتَمَيِّزَةً فيما بينَهم عن بيوتِ القِبْطِ؛ ليكُونُوا على أُهْبَةٍ من الرَّحيلِ، إذا أُمِرُوا به، ليَعْرِفَ بعضُهم بيوتَ بعضٍ.

وقولُه: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قيل: مساجدَ. وقيل: معناه كَثْرةُ الصَّلاةِ فيها. قالَه مُجاهدٌ، وأبو مالكٍ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، والرَّبيعُ، والضَّحَّاكُ، وزيدُ بنُ أَسْلَمَ، وابنُه عبدُ الرَّحمنِ، وغيرُهم.

ومعناه على هذا، الاستعانةُ على ما هم فيه من الضُّرِّ، والشِّدَّةِ، والضِّيقِ، بكَثْرةِ الصَّلاةِ؛ كما قال تعالَى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. وكان رسولُ اللهِ ﷺ إذا حَزَبَه أمرٌ صَلَّى[(١)].

وقيل: معناه أنَّهم لم يكونُوا حينئذٍ يَقْدِرُون على إظهارِ عبادتِهم في مجتمعاتِهم، ومعابدِهم، فأُمِرُوا أنْ يُصَلُّوا في بُيُوتِهم، عِوَضًا عمَّا فاتَهم من إظهارِ شِعارِ الدِّينِ الحقِّ في ذلك الزَّمانِ، الذي اقْتَضَى حالُهم إخفاءَه؛ خوفًا من فِرْعَوْنَ ومَلَئِه. والمعنى الأولُ أقْوَى؛ لقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإنْ كان لا يُنافِي الثَّانيَ أيضًا، واللهُ أعلمُ. وقال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ[(٢)]، ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي؛ متقابلةً.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]. هذه دعوةٌ عظيمةٌ، دعا بها كليمُ اللهِ موسى، على عدوِّ اللهِ فِرْعَوْنَ، غضبًا للهِ عليه، لتكبُّرِه عن اتِّباعِ الحقِّ، وصَدِّه عن سبيلِ اللهِ،

---

(١) **حسن:** رواه أحمد (٥/٣٨٨) وأبو داود (١٣١٩) ومحمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (٢١٢) من رواية عكرمة بن عمار عن محمد بن عبد اللَّه الدؤلي عن عبد العزيز أخي حذيفة أو ابن أخي حذيفة عن حذيفة فيه محمد بن عبد اللَّه مجهول الحال لم يرو عنه إلا عكرمة. وعبد العزيز وثقة ابن حبان وحسن الحديث الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود». وروى مسلم حديث دعاء الكرب من رواية ابن عباس وفي أوله كان إذا حزبه أمر دعا به (٦٨٦١).

(٢) **ضعيف:** رواه ابن جرير (٦/ الجزء ١١/ ١٥٥) بسند ضعيف فيه ابن وكيع.

ومعاندته، وعُتُوِّه، وتمرُّده، واستمراره على الباطلِ، ومكابرَته الحقَّ الواضحَ الجَلِيَّ الحِسيَّ والمعنويَّ، والبرهانَ القَطْعِيَّ، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ﴾ يعني: قومَه مِن القِبْطِ، ومَن كان على مِلَّته، ودانَ بدينه ﴿زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ أي؛ وهذا يَغتَرُّ به مَن يُعظِّمُ أمرَ الدّنيا، فيَحْسَبُ الجاهلُ أنَّهم على شيءٍ لكَوْنِ هذه الأموالِ، وهذه الزِّينة؛ مِن اللّباسِ، والمراكِبِ الحسنةِ الهَنِيَّةِ، والدُّورِ الأَنيقَةِ، والقُصورِ المَبْنيّةِ، والمآكِلِ الشَّهيةِ، والمناظرِ البَهيَّةِ، والمُلْكِ العزيزِ، والتَّمْكينِ، والجاهِ العَريضِ، في الدُّنيا لا الدِّينِ، ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ قال ابنُ عباسٍ[(١)]، ومُجاهدٌ[(٢)]. أي؛ أَهْلِكْها. وقال أبو العَالِيةِ[(٣)]، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ[(٤)]، والضَّحّاكُ[(٥)]: اجْعَلْها حجارةً مَنْقوشةً كهَيْئةِ ما كانت. وقال قَتادةُ[(٦)]: بَلَغَنا أَنَّ زُرُوعَهم صارتْ حجارةً. وقال محمدُ بنُ كَعْبٍ[(٧)]: جعل سُكَّرَهم حجارةً. وقال أيضًا: صارتْ أموالُهم كلُّها حجارةً. ذُكِر ذلك لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ لغلامٍ له: ائْتِني بكِيسٍ. فجاءَه بكِيس، فإذا فيه حِمَّصٌ وبَيْضٌ قدْ قُطِّعَ، قد حُوِّل حجارةً. رواه ابنُ أبي حاتمٍ[(٨)].

وقولُه: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ قال ابنُ عباسٍ[(٩)]: أي؛ اطْبَعْ عليها. وهذه دعوةُ غضبٍ لله تعالى ولدينِه، ولبراهينه، فاستجابَ اللهُ تعالى لها، وحقَّقَها، وتقبَّلها؛ كما استجابَ لنوحٍ في قومِه، حيثُ قال: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]. ولهذا قال تعالى، مخاطبًا لموسى، حينَ دعا على فِرْعونَ وملَئه، وأَمَّنَ أخوه هارونُ على دعائه، فنَزَل ذلك منزلةَ الدّاعِي أيضًا: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ قال المفسِّرُون وغيرُهم مِن أهلِ الكتابِ: استَأْذَنَ بنو إسرائيلَ فرعونَ، في الخروجِ إلى عيدٍ لهم، فأَذِنَ لهم وهو كارهٌ، ولكنَّهم تَجَهَّزُوا للخُروجِ، وتأَهَّبُوا له، وإنَّما كان في نفسِ الأمرِ مكيدةً بفِرْعَوْنَ وجنودِه؛ ليَتَخلَّصُوا منهم، ويَخْرُجُوا عنهم، وأمرهم اللهُ تعالى - فيما ذَكَرَه أهلُ الكتاب - أنْ يَسْتَعِيرُوا حُلِيًّا منهم، فأعارُوهم شيئًا كثيرًا، فخَرَجُوا بلَيْلٍ، فسارُوا مستمرِّين ذاهبين مِن فَوْرِهم، طالبِين بلادَ الشَّامِ، فلمَّا عَلِمَ بذَهابِهم فِرْعَونُ، حَنِقَ عليهم كلَّ الحَنَقِ، واشتدَّ غَضَبُه عليهم، وشَرَع في استِحْثاثِ جيشِه، وجمعِ

(١) ضعيف: رواه ابن جرير (٧/ الجزء١١/ ١٥٨) بسند ضعيف من رواية العوفي عنه.
(٢) صحيح إليه: رواه ابن جرير (٧/ الجزء١١/ ١٥٨). من رواية ابن جريج وابن أبي نجيح عنه.
(٣) ضعيف الإسناد: رواه ابن جرير (٧/ الجزء ١١/ ١٥٧) بسند فيه ابن وكيع ضعيف وأبو جعفر عيسى بن ماهان عن الربيع بن أنس عنه ورواية أبي جعفر في عيسى ضعيفة.
(٤) ضعيف إليه: رواه ابن جرير (٧/ الجزء١١/ ١٥٧). من رواية أبي جعفر عنه.
(٥) حسن الإسناد: رواه ابن جرير (٧/ الجزء١١/ ١٥٧) بسند حسن.
(٦) صحيح إليه: ابن جرير (٧/ الجزء١١/ ١٥٨). من رواية سعيد ومعمر عنه.
(٧) ضعيف الإسناد: ابن جرير (٧/ الجزء١١/ ١٥٧) فيه سُنيد الحسين ضعيف.
(٨) ضعيف الإسناد: ابن أبي حاتم (١٠٥٤٣) بسند فيه أبو معشر ضعيف.
(٩) ضعيف إليه: ابن أبي حاتم (١٠٥٤٦) من رواية العوفي عنه وابن جرير (٧/ الجزء ١١/ ١٥٨) من نفس الطريق.

جنوده ليَلْحقَهم، ويَمْحقَهم، قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٥٢-٦٨].

قال علماءُ التّفسير: لّما رَكِبَ فِرْعَوْنُ في جنودِه، طالبًا بَني إسرائيلَ، يَقْفُوا أَثَرَهم، كان في جيشٍ كَثيفٍ عَرَمْرَمٍ حتىٰ قِيل: كان في خيولِه مائةُ ألفِ فَحْلٍ أدْهَمَ. وكانت عِدَّةُ جنودِه تزيدُ علىٰ ألفِ ألفٍ، وستِّمائة ألفٍ. فاللهُ أعلمُ. وقِيل: إنّ بني إسرائيلَ كانوا نحواً مِن ستّمائة ألف مقاتلٍ غيرَ الذّرّيّة، وكان بينَ خُروجِهم مِن مصر صُحْبَةَ موسىٰ، عليه السّلامُ، ودخولِهم إليها صُحْبَةَ أبيهم إسرائيلَ، أربعُمائة سنةٍ وستٌّ وعشرون سنةً شَمْسيَّةً.

والمقصودُ أنَّ فِرْعَوْنَ لَحِقَهم بالجنودِ، فأدْرَكَهم عندَ شُروقِ الشَّمسِ، وتراءَىٰ الجَمْعَان، ولم يَبْقَ ثَمَّ رَيْبٌ، ولا لَبْسٌ، وعايَنَ كلٌّ مِن الفَرِيقَيْن صاحبَه وتحقّقَه ورآه، ولم يَبْقَ إلا المُقاتَلَةُ، والمُجَاوَلَةُ، والمُحاماةُ، فعندَها قال أصحابُ موسىٰ، وهم خَائفون: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ وذلك لأنَّهم اضطُرُّوا في طريقِهم إلىٰ البحرِ، فليس لهم طريقٌ ولا مَحِيدٌ إلا سلوكُه وخَوْضُه، وهذا ما لا يَسْتَطيعُه أحدٌ، ولا يَقْدِرُ عليه، والجبالُ عن يَسْرَتِهم، وعن أيْمانِهم، وهي شاهِقةٌ مُنيفةٌ، وفِرْعَوْنُ قد غالقَهم وواجَهَهم، وعايَنُوه في جُنودِه وجُيوشه وعَدَده وعُدَده، وهم منه في غايةِ الخوفِ والذُّعْرِ، لِما قاسَوْا في سلطانه مِن الإهانةِ والنُّكْرِ، فَشَكَوْا إلىٰ نبيِّ الله ما هم فيه، مِمَّا قد شاهدُوه وعايَنُوه، فقال لهم الرَّسولُ الصّادقُ المَصْدوقُ: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾. وكان في السّاقةِ، فتقدَّم إلىٰ المقدِّمةِ، ونظَرَ إلىٰ البحْرِ، وهو يَتلاطَمُ بأمواجِه، ويتزايدُ زَبَدُ أُجاجِه، وهو يقولُ: ههنا أُمِرْتُ. ومعه أخوه هارونُ؛ ويُوشَعُ بنُ نُونٍ، وهو يومَئذٍ مِن ساداتِ بني إسرائيلَ، وعُلَمائِهم، وعُبَّادِهم الكِبارِ وقد أَوْحَىٰ اللهُ إليه، وجعلَه نبيًّا بعدَ موسىٰ وهارونَ، عليهما السَّلامُ، كما سنذكُرُه فيما بعدُ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ، ومعهم أيضًا مؤمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ، وهم وُقوفٌ، وبنو إسرائيلَ بكمالِهم عليهم عُكُوفٌ. ويقالُ: إنّ مؤمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ جعَل يَقْتَحِمُ بفَرَسه مِراراً في البحرِ، هل يمكنُ سُلُوكُه؟ فلا يُمْكِنُ، ويقولُ لموسىٰ، عليه السَّلامُ: يا نبيَّ الله، أههنا أُمِرْتَ؟! فيقولُ: نعم. فلمَّا تَفاقَمَ الأمرُ، وضاقَ الحالُ، واشتدَّ الأمرُ، واقْتَرَبَ فِرْعَوْنُ وجنودُه في جِدِّهم، وحَدِّهم وحَديدِهم، وغضَبِهم، وحَنَقِهم، وزاغتِ الأبْصارُ، وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ، فعندَ ذلك أَوْحَىٰ الحليمُ العظيمُ القديرُ، ربُّ العرشِ الكريمِ إلىٰ موسىٰ الكليمِ: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾. فلمّا ضربَه، يقالُ: إنَّه قال له: انفلقْ بإذنِ اللهِ. ويُقالُ: إنَّه كنَّاه بأبي خالدٍ. فاللهُ أعلمُ.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ ويُقالُ: إنَّه انفلَقَ اثْنَي عشر طريقًا، لكلِّ سِبْطٍ طريقٌ يَسيرُون فيه، حتىٰ قيل: إنَّه صارَ أيضًا شَبابيكَ؛ ليَرَىٰ بعضُهم بعضًا. وفي هذا نَظَرٌ؛ لأنَّ الماءَ جِرْمٌ شَفَّافٌ، إذا كان مِن ورائه ضياءٌ حَكَاه. وهكذا كان ماءُ البحرِ قائمًا مثلَ الجبالِ، مكْفُوفًا بالقُدْرةِ العظيمةِ الصَّادرةِ عن الذي يقولُ للشيءِ: كُنْ، فيكونُ. وأَمَرَ اللهُ ريحَ الدَّبُورِ، فَلَفَحتْ حالَ البحرِ، فأَذْهَبَتْه حتىٰ صار يابسًا لا يَعْلَقُ في سنابكِ الخُيُولِ والدَّوابِّ.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٧-٧٩].

والمقصودُ أنّه لَمَّا آلَ أمرُ البحرِ إلىٰ هذه الحالِ، بإذْنِ الربِّ العظيمِ الشَّديدِ المحالِ، ، أُمِرَ موسىٰ، عليه السَّلامُ، أن يَجُوزَه ببني إسرائيلَ، فانْحَدَرُوا فيه مُسْرِعِينَ، مُسْتَبْشِرِينَ، مُبادِرِينَ، وقد شاهدُوا مِن الأمرِ العظيمِ ما يُحَيِّرُ النّاظرين، ويَهْدِي قلوبَ المُؤْمنين، فلمَّا جاوَزُوه، وجَاوَزَه وخرجَ آخِرُهم منه، وانْفَصلُوا عنه، كان ذلك عندَ قدُومِ أوّلِ جيشِ فِرْعَوْنَ إليه، ووُفودِهم عليه، فأرادَ موسىٰ، عليه السَّلامُ، أنْ يَضْرِبَ البحرَ بعصاه، ليَرْجع كما كان عليه؛ لِئَلا يكونَ لفِرْعَوْنَ وجنودِه وصولٌ إليه، ولا سبيلٌ عليه، فأَمَرَه القديرُ ذو الجَلالِ، أَنْ يَتْرُكَ البحرَ علىٰ هذه الحالِ، كما قال، وهو الصَّادقُ في المَقالِ.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ١٧-٣٣]. فقولُه تعالىٰ: **﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾** أي؛ ساكنًا علىٰ هَيْئته، لا تغيِّرْه عن هذه الصِّفةِ. قاله عبدُالله بنُ عباسٍ، ومُجاهدٌ، وعِكْرِمَةُ، والرَّبيعُ، والضَّحّاكُ، وقَتادةُ، وكَعْبُ الأحبارِ، وسِماكُ بنُ حَرْبٍ، وعبدُالرّحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ، وغيرُهم[1]. فلمّا تَرَكَه علىٰ هيئته وحالته، وانتهىٰ فِرْعَوْنُ، فرأىٰ ما رأىٰ، وعايَنَ ما عايَنَ، هالَه هذا المنظَرُ العظيمُ، وتحقَّقَ ما كان يتحقَّقُه قبلَ ذلك، مِن أنَّ هذا مِن فِعْلِ

---

(١) رواها ابن جرير (١٣/ الجزء٢٥/ ١٢١ - ١٢٢). أثر ابن عباس من رواية العوفي عنه ومن رواية علي بن أبي طلحة عنه. أثر مجاهد من رواية ابن أبي نجيح، أثر عكرمة من رواية سماك عنه، وسماك عن عكرمة مضطرب. أثر الربيع من رواية أبي جعفر عنه وهو عيسى بن ماهان سبق الكلام عليها وهو ضعيف. أثر الضحاك. من طريقين عنه الأول: فيه حرمي بن عمارة صدوق يهم والثاني: فيه مبهم قال: حدثت عن الحسين. أثر قتادة من رواية معمر عنه رجاله ثقات. أثر كعب الأحبار من رواية ابن عباس عنه. عزاه الحافظ لابن أبي حاتم ولم أقف على سند له. وأثر ابن زيد سنده صحيح من رواية ابن وهب عنه.

ربِّ العرشِ الكريمِ، فأَحْجَمَ ولم يتقدَّمْ، ونَدِم في نفسه على خروجِه في طلبِهم، والحالةُ هذه، حيثُ لا ينفعُه النَّدَمُ، لكنَّه أظهرَ لجنودِه تجلُّدًا، وعاملَهم معاملةَ العدا، وحملته النفسُ الكافرةُ، والسَّجيَّةُ الفاجرةُ، على أنْ قال لِمَن استخفَّهم فأطاعُوه، وعلى باطلِه تابعُوه: انظُرُوا كيف انْحَسَرَ البحرُ لي؛ لأُدْرِكَ عبيدي الآبقين من يدي، الخارجينَ عن طاعتي وبلدي؟ وجعَل يُوري في نفسه أنْ يَذْهَبَ خلفَهم، ويَرجُو أنْ يَنْجُوَ، وهَيْهاتَ، ويُقْدِمُ تارةً، ويُحْجِمُ تاراتٍ. فذكَرُوا أنَّ جبريلَ، عليه السَّلامُ، تَبَدَّى في صورةِ فارسٍ راكبٍ على رَمَكَةٍ حائلٍ، فمرَّ بين يَدَيْ فَحْلِ فرعونَ، لعنَه اللهُ، فحَمْحَمَ إليها، وأقبَل عليها، وأسْرَعَ جبريلُ بين يَدَيْه، فاقتَحَمَ البحرَ، واستَبَقَ الجوادَ، وقد أجادَ، فبادَرَ مُسْرِعًا، هذا وفرعونُ لا يملكُ مِن نفسه ولا لنَفْسه ضَرًّا ولا نَفْعًا، فلمّا رأتْه الجنودُ قد سَلَكَ البحرَ، اقْتَحَمُوا وراءَه مُسْرِعينَ، فحَصَلُوا في البحرِ أجْمَعينَ أكْتَعينَ أبْصَعينَ، حتى همَّ أولُهم بالخروجِ منه، فعندَ ذلك، أمَرَ اللهُ تعالى كليمَه ﷺ فيما أوْحاه إليه، أن يَضْرِبَ البحرَ بعصاه، فضربَه، فارتطم عليهم البحرُ كما كان، فلم يَنْجُ منهم إنسانٌ.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي؛ في إنجائه أولياءَه - فلم يَغرَقْ منهم أحدٌ - وإغراقه أعداءَه - فلم يَخْلُصْ منهم أحدٌ - آيةٌ عظيمةٌ، وبرهانٌ قاطعٌ على قدرته تعالى العظيمةِ، وصدقِ رسوله فيما جاءَ به عن ربِّه من الشَّريعةِ الكريمةِ، والمناهجِ المُستقيمةِ.

وقال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠-٩٢]. يُخبرُ تعالى، عن كيفية غَرقِ فرعَوْنَ، زعيمِ كَفَرَةِ القِبْطِ، وأنّه لَمَّا جَعَلَت الأمواجُ تَخْفِضُه تارةً، وتَرْفَعُه أُخرى، وبنو إسرائيلَ يَنْظُرُون إليه، وإلى جُنُودِه، ماذا أحلَّ اللهُ به وبهم من البأسِ العَظيمِ، والخَطْبِ الجَسيمِ، ليكونَ أقرَّ لأَعْيُنِ بني إسرائيلَ، وأشْفَى لنفوسهم، فلمّا عايَنَ فرعونُ الهَلَكَةَ وأُحيطَ به، وباشر سكَراتِ الموت، أنابَ حينئذٍ، وتابَ، وآمَنَ حينَ لا يَنْفَعُ نفسًا إيمانُها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وهكذا دعا موسى على فرعَوْنَ وملئِه، أنْ يُطْمَسَ على أموالِهم، ويُشْدَدَ على قلوبِهم، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي؛ حينَ لا ينفعُهم ذلك، ويكونُ حَسرةً عليهم، وقد قال تعالى لهما؛ أي لموسى وهارون، حين دَعَوا بهذا: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾. فهذا من إجابةِ الله تعالى

دَعْوَةَ كليمِه وأخيه هارونَ، عَليهما السَّلامُ.

ومن ذلك، الحديثُ الذي رواه الإمامُ أحمدُ[١] : حدّثنا سليمانُ بنُ حَرْبٍ، حدّثنا حمادُ بنُ سَلَمَةَ، عن عليِّ بنِ زَيْدٍ، عن يوسفَ بنِ مِهْرانَ، عن ابنِ عباسٍ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾** قال: «**قالَ لي جِبْرِيلُ: لَوْ رَأَيْتَنِي وقدْ أَخَذْتُ مِنْ حالِ البَحْرِ فدسَسْتُهُ في فيه، مَخافَةَ أَنْ تَنالَهُ الرَّحْمَةُ**». ورواه التِّرمذيُّ، وابنُ جريرٍ، وابنُ أبي حاتمٍ، عندَ هذه الآيةِ، من حديثِ حمّادِ بنِ سَلَمَةَ. وقال التِّرمذيُّ: حديثٌ حَسَنٌ[٢] .

وقال أبو داودَ الطَّيالسيُّ[٣] : حدّثنا شُعْبةُ، عن عَديِّ بنِ ثابتٍ، وعطاءِ بنِ السّائبِ، عن سعيدِ ابنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**قال لي جبريلُ: لو رأَيْتَنِي وأنا آخُذُ من حالِ البحرِ فأَدُسُّهُ في فَمِ فِرْعَونَ؛ مخافةَ أنْ تُدْرِكَه الرَّحْمةُ**». ورواه التِّرْمِذيُّ، وابنُ جريرٍ، من حديثِ شُعْبَةَ، وقال التِّرْمذيُّ: حَسَنٌ غريبٌ صحيحٌ. وأشارَ ابنُ جريرٍ في روايةٍ إلى وَقْفِه.

وقال ابنُ أبي حاتمٍ[٤] : حدّثنا أبو سعيدٍ الأشَجُّ، حدّثنا أبو خالدٍ الأحمرُ، عن عمرَ بنِ عبدِالله بنِ يَعْلَى الثَّقفيِّ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: لمّا أغرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ، أشارَ بأُصْبُعِه، ورفَعَ صَوْتَه: ﴿**آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ**﴾ . قال: فخاف جبريلُ أن تَسْبِقَ رحمةُ الله فيه غضبَه، فجعَل يأخذُ الحالَ بجَناحَيْه، فيَضْرِبُ به وجهَه فيرمُسُه. ورواه ابنُ جَرِيرٍ[٥] ، من حديثِ أبي خالدٍ به. وقد رواه ابنُ جَرِيرٍ[٦] ، من طريقِ كثيرِ بنِ زاذانَ - وليس بمَعْروفٍ - عن أبي حازمٍ، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**قالَ لي جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، لَوْ رَأَيْتَنِي، وأَنَا أَغُطُّهُ، وأَدُسُّ مِنَ الحَالِ في فِيه، مَخافَةَ أَنْ تُدْرِكَه رَحْمَةُ الله؛ فَيَغْفِرَ لَهُ**». يعْنِي فِرْعَوْنَ. وقد أَرْسلَه غيرُ واحدٍ من السَّلَفِ؛ كإبراهيمَ التَّيْمِيِّ[٧] ، وقَتادةَ، ومَيْمونِ بنِ مِهْرَانَ[٨] ، ويُقالُ: إنّ الضَّحاكَ بنَ قَيْسٍ[٩] خَطَبَ به

---

(١) **صحيح**: المسند (١/ ٣٠٩)، الترمذي (٣١٠٧)، ابن جرير (٧ / الجزء١١/ ١٦٣)، ابن أبي حاتم (١٠٥٦١).

(٢) **قلت**: بهذا السند ضعيف فيه علي بن زيد بن جدعان ضعيف ويوسف بن مهران لين الحديث ولم يلق ابن عباس لكن يشهد له الطرق التالية.

(٣) **صحيح الإسناد**: «مسند الطيالسي» (٢٦١٨)، الترمذي (٣١٠٨)، ابن جرير (٦/ الجزء١١/ ١٦٣) ورواه أيضًا أحمد (١/ ٢٤٠ - ٣٤٠) من طريق غندر عن شعبة والحاكم من طريق النضر بن شميل عن شعبة (٢/ ٣٤٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه إلا أكثر أصحاب شعبة ممن أوقفوه إلا وكيع عند ابن جرير (٦/ الجزء١١/ ١٦٤) من رواية ابنه وابنه ضعيف. وقد رواه جمع من أصحاب شعبة، أوقفوه على ابن عباس. قلت: لم أقف على أصحاب شعبة ممن أوقفوه إلا وكيع عند ابن جرير نفس المصدر ص١٦٤ من رواية ابنه، وابنه ضعيف، قد رواه جمع من أصحاب شعبة مرفوعًا وهم كما في الطرق السالفة الذكر. أبو داود الطيالسي وخالد بن الحارث عند الترمذي. وغندر محمد بن جعفر والنضر بن شميل ولو أعل بالوقف فهو في حكم المرفوع.

(٤) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١٠٥٦٣) وفيه عمر بن عبد الله الثقفي.

(٥) ابن جرير (٧/ الجزء١١/ ١٦٤) من رواية ابن وكيع عن أبي خالد الأحمر.

(٦) ابن جرير (٧/ الجزء ١١/ ١٦٣).

(٧) **ضعيف الإسناد**: ابن جرير (٧/ الجزء١١/ ١٦٤) فيه ابن وكيع وعيسى بن المغيرة مجهول.

(٨) **ضعيف الإسناد**: رواه ابن جرير(٧/ الجزء١١/ ١٦٣) وعبد الرزاق (١١٦٧) كلاهما من طريق معمر عمن سمع ميمون بن مهران وفيه مبهم.

(٩) **ضعيف الإسناد**: ابن جرير (٧/ ١١/ ١٦٣) بسند ضعيف فيه ابن وكيع.

النَّاسَ. وفي بعض الرِّوايات: «إنّ جبريلَ قال: ما بَغَضْتُ أحدًا بُغْضي لفرعَوْنَ، حينَ قال: أنا ربُّكم الأعْلَى، ولقد جعَلْتُ أَدُسُّ في فيه الطِّين حين قال ما قال».

وقولُه تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ استفهامُ إنكارٍ، ونصٌّ على عدمِ قَبولِه تعالَى منه؛ ذلك لأنَّه، واللهُ أعلمُ، لو رُدَّ إلى الدُّنيا كما كان، لَعادَ إلى ما كان عَليه، كما أخبرَ تعالَى عن الكفارِ، إذا عاينُوا النّارَ وشاهدُوها، أنّهم يقولُون: ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الانعام: ٢٧]. قال اللهُ: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الانعام: ٢٨]. وقولُه: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ قال ابنُ عباسٍ[1]، وغيرُ واحدٍ: شَكَّ بعضُ بني إسرائيلَ في موتِ فرعَوْنَ، حتى قال بعضُهم: إنّه لا يموتُ. فأمَرَ اللهُ البَحْرَ، فرفَعَه على مُرتَفَعٍ - قيل: على وجهِ الماءِ. وقيل: على نَجْوَةٍ من الأرضِ - وعليه درْعُه التي يَعْرِفُونها من ملابسه؛ ليتحقَّقُوا بذلك هلاكَه، ويعلمُوا قُدرةَ الله عليه؛ ولهذا قال: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ أي؛ مُصاحبًا درْعَك المَعْروفةَ بك ﴿ لِتَكُونَ ﴾ أي؛ أنتَ آيةً ﴿ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾ أي؛ من بني إسرائيلَ، دليلاً على قُدْرةِ الله الذي أهْلَكَه. ولهذا قرَأَ بعضُ السَّلَف: (لتكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً). ويَحْتَمِلُ أن يكونَ المرادُ: نُنَجِّيكَ مصاحبًا درْعَك؛ ليكونَ درْعُك علامةً لمَن وراءَك من بني إسرائيلَ، على معرفتِك، وأنَّك هَلَكْتَ، واللهُ أعلمُ، وقد كان هلاكُه وجنودِه في يومِ عَاشُوراءَ.

كما قال الإمامُ البخاريُّ في «صحيحه»: حدَّثنا محمدُ بنُ بَشّارٍ، حدثنا غُنْدَرٌ، حدّثنا شُعْبَةُ، عن أبي بِشْرٍ، عن سَعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: قَدِم النَّبيُّ ﷺ المدينةَ، واليهودُ تَصومُ يومَ عاشوراءَ، فقالوا: هذا يومٌ ظَهَرَ فيه موسى على فرْعَوْنَ. قال النَّبيُّ ﷺ: «أَنْتُمْ أَحَقُّ بمُوسَى منهم فَصومُوا». وأصلُ هذا الحديثِ في «الصَّحيحَيْنِ»[2] وغيرِهما. واللهُ أعلمُ.

فصلٌ فيما كانَ من أمرِ بني إسرائيلَ بعدَ هلاكِ فِرْعَوْنَ

قال اللهُ تعالى: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ

---

(١) حسن لطرقه: رواه ابن جرير (٧/ الجزء١١/ ١٦٥) من رواية أصبغ بن زيد عن ابن جبير عن ابن عباس ولها شاهد من رواية العوفي عن ابن عباس رواه أيضًا الطبري. وشاهد آخر، رواه ابن أبي حاتم (١٠٥٦٨) من رواية الضحاك عن ابن عباس وسنده ضعيف فيه بشر ابن عمارة ضعيف والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٢) متفق عليه: البخاري (٤٦٨٠)، مسلم (٢٦٥٣).

فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٦-١٤١]. يَذْكُرُ تعالى ما كان من أمرِ فرعونَ وجنوده، في غَرَقِهم، وكيف سَلَبَهُم عِزَّهم، ومالَهم، وأنفسَهم، وأورثَ بني إسرائيلَ جميعَ أموالِهم وأملاكِهم، كما قال: ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٩]. وقال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥].

وقال ههنا: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ أي؛ أهْلَكَ ذلك جميعَه، وسَلَبَهم عِزَّهم العزيزَ العريضَ في الدُّنيا، وهَلَكَ المَلِكُ وحاشيتُه، وأُمراؤُه، وجنودُه، ولم يَبْقَ ببلدِ مصرَ سوى العامَّةِ والرَّعايا.

فذكَر ابنُ عبدِ الحكم، في «تاريخ مصرَ»، أنَّه مِن ذلك الزَّمانِ تسلَّط نساءُ مصرَ على رجالِها؛ بسببِ أنَّ نساءَ الأمراءِ والكُبراءِ تزوَّجْنَ بِمَنْ دونَهنَّ من العامَّةِ، فكانت لهنَّ السَّطوةُ عليهم، واستَمَرَّتْ هذه سُنَّةَ نساءِ مصرَ إلى يومِك هذا.

وعندَ أهلِ الكتابِ، أنَّ بني إسرائيلَ لَمَّا أُمِرُوا بالخروجِ من مصرَ، جعَل اللهُ ذلك الشَّهرَ أولَ سَنَتِهم، وأُمِرُوا أن يَذْبَحَ كلُّ أهلِ بيتٍ حَمَلاً من الغَنَم، فإنْ كانوا لا يحتاجُون إلى حملٍ، فليشترِكِ الجارُ وجارُه فيه، فإذا ذبحُوه فَلْينضَحُوا من دمه على أعتابِ أبوابِهم؛ ليكونَ علامةً لهم على بُيُوتِهم، ولا يأكُلُونه مطبوخًا، ولكنْ مَشْويًّا برأسِه، وأكارِعِه، وبَطْنِه، ولا يُبْقُوا منه شيئًا، ولا يَكْسِرُوا له عَظْمًا، ولا يُخْرِجُوا منه شيئًا إلى خارجِ بيوتِهم، ولْيَكُنْ خُبْزُهم فَطِيرًا سبعةَ أيامٍ، ابتداؤُها من الرَّابعَ عَشَرَ من الشَّهرِ الأولِ من سَنَتِهم، وكان ذلك في فصلِ الرَّبيعِ، فإذا أكَلُوا، فَلْتَكُنْ أوساطُهم مَشْدُودةً، وخفافُهم في أرجلِهم، وعِصِيُّهم في أيديهم، ولْيأكلُوا بسرعةٍ، قيامًا، ومَهْمَا فضَل عن عَشائِهم، فما بَقِيَ إلى الغدِ فَلْيَحْرِقُوه بالنَّارِ، وشُرِع لهم هذا عيدًا لأعقابِهم، ما دامت التَّوراةُ مَعْمولاً بها، فإذا نُسِخَتْ، بَطَلَ شَرْعُها، وقد وَقَع. قالوا: وقَتَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَ في تلك الليلةِ أبكارَ القِبْطِ، وأبكارَ دوابِّهم، ليشْتَغِلُوا عنهم، وخَرَج بنو إسرائيلَ حين انتصفَ الليلُ، وأهلُ مصرَ في مَناحةٍ عظيمةٍ، على أبكارِ أولادِهم، وأبكارِ أموالِهم، ليس من بيتٍ إلا وفيه عَوِيلٌ. وحينَ جاءَ الوَحْيُ إلى موسى، خرجُوا مسرعينَ، فحمَلُوا العجينَ قبل اختمارِه، وحملُوا الأزوادَ في الأَرْدِيَةِ، وألقَوْها على عواتقِهم، وكانوا قد استعارُوا من أهلِ مصرَ حُلِيًّا كثيرًا، فخرجُوا وهم ستُّمائةِ ألفِ رجلٍ، سوى الذَّرارِيِّ، بما معهم من الأنعامِ، وكانت مدةُ مُقامِهم بمصرَ أربعَمائةِ سنةٍ وثلاثين سنةً. هذا نصُّ كتابِهم. وهذه السَّنةُ عندَهم تسمَّى سَنَةَ الفَسخِ، وهذا العيدُ عيدُ الفسخِ، ولهم عيدُ الفَطيرِ، وعيدُ الحَمَلِ، وهو أولُ السَّنةِ. وهذه الأعيادُ الثَّلاثةُ آكَدُ أعيادِهم، منصوصٌ عليها في كتابِهم. ولَمَّا خَرَجُوا مِن مصرَ، أَخْرَجُوا معهم تابوتَ يوسفَ، عليه السَّلامُ، وخرجُوا على طريقِ بَحْرِ سُوفَ. وكانوا في

النّهارِ يسيرُون، والسّحابُ بينَ أيديهم يسيرُ أمامَهم، فيه عامودُ نور، وبالليل أمامَهم عامودُ نار، فانتهىٰ بهمُ الطَّريقُ إلىٰ ساحلِ البحرِ، فنَزَلُوا هُنالكَ، وأدركَهم فِرْعَوْنُ وجنودُه من المصريِّين، وهم هناك حُلُولٌ علىٰ شاطئِ اليَمِّ، فقَلِقَ كثيرٌ من بني إسرائيلَ، حتىٰ قال قائلُهم: كان بقاؤُنا بمصرَ أحبَّ إلينا من الموت بهذه البَرِّيَّةِ. وقال موسىٰ، عليه السّلامُ، لمَن قال هذه المقالةَ: لا تخشَوا، فإنّ فِرْعَوْنَ وجنودَه لا يَرجِعُون إلىٰ بلدهم بعدَ هذا. قالوا: وأمرَ اللهُ موسىٰ، عليه السّلامُ، أنْ يضرِبَ البحرَ بعصاه، وأنْ يَقْسِمَه؛ ليدخلَ بنو إسرائيلَ في البحرِ واليَبَسِ. وصارَ الماءُ من ههنا وههنا كالجبلَيْن، وصار وسَطُه يَبَسًا؛ لأنَّ اللهَ سَلَّطَ عليه ريحَ الجَنُوبِ والسَّمُومِ، فجاز بنو إسرائيلَ البحرَ، وأتْبَعَهم فِرْعَوْنُ وجنودُه، فلمَّا توسَّطُوه، أمَر اللهُ موسىٰ، فضرَبَ البحرَ بعصاه، فرجَع الماءُ كما كان عليهم. لكنْ عندَ أهلِ الكتابِ، أنّ هذا كان في الليلِ، وأنّ البحرَ ارْتَطَمَ عليهم عندَ الصُّبحِ، وهذا من غَلَطِهم، وعدمِ فَهْمِهم في تَعْريبِهم، واللهُ أعلمُ. قالوا: ولَمَّا أغْرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ وجنودَه، حينئذٍ سبَّحَ موسىٰ وبنو إسرائيلَ بهذا التسْبيحِ للرَّبِّ، وقالُوا: نُسَبِّحُ الربَّ البَهِيَّ الذي قهَر الجنودَ، ونبَذ فُرْسانَها في البحرِ المنيعِ المحمودِ. وهو تَسبيحٌ طويلٌ. قالوا: وأخذتْ مريمُ النَّبِيَّةُ، أختُ هارونَ دُفًّا بيدها، وخرج النِّساءُ في أثرِها، كُلُّهن بدفوفٍ وطُبولٍ، وجعلتْ مريمُ تُرتِّلُ لهنَّ، وتقولُ: سبحانَ الرَّبِّ القهّارِ، الذي قهَرَ الخُيُولَ ورُكْبانَها، إلقاءً في البحرِ. هكذا رأيتُه في كتابِهم. ولعلَّ هذا هو من الذي حَمَلَ محمدَ بنَ كعبٍ القُرَظِيَّ علىٰ زعمِه أنّ مريمَ بنتَ عِمْرانَ، أمَّ عيسىٰ، هي أُختُ هارونَ وموسىٰ، مع قوله: ﴿يا أخت هارون﴾. وقد بيَّنَّا غَلَطَه في ذلك، وأن هذا لا يمكنُ أنْ يُقالَ، ولم يتابِعْه أحدٌ عليه، بل كلُّ واحدٍ خالَفَه فيه، ولو قُدِّرَ أنَّ هذا محفوظٌ، فهذه مريمُ بنتُ عِمْرانَ، أختُ موسىٰ وهارونَ، عليهما السّلامُ، وأمُّ عيسىٰ عليها السّلامُ، وافقتْها في الاسمِ، واسمِ الأبِ، واسمِ الأخِ؛ لأنّهم، كما قال رسولُ اللهِ، ﷺ، للمُغيرةِ بنِ شُعْبَةَ لَمَّا سألَه أهلُ نَجْرانَ، عن قوله: ﴿يا أخت هارون﴾. فلم يَدْرِ ما يقولُ لهم، حتىٰ سألَ رسولَ اللهِ ﷺ، عن ذلك، فقال: «**أمَا علِمْتَ أنّهُم كَانُوا يُسَمُّونَ بأسْمَاء أنْبِيائِهِمْ**»[1]. رواه مسلمٌ.

وقولُهم: النَّبِيَّةُ. كما يُقالُ للمرأةِ من بيتِ المَلِكِ: مَلَكَةٌ. ومن بيتِ الإمْرَةِ: أميرةٌ. وإن لمْ تكنْ مباشرةً شيئًا من ذلك، فكذا هذه استعارةٌ لها، لا أنَّها نَبِيَّةٌ حقيقةً يُوحَىٰ إليها. وضَرْبُها بالدُّفِّ في مثلِ هذا اليومِ - الذي هو أعظمُ الأعيادِ عندَهم - دليلٌ علىٰ أنَّه قد كان شَرْعُ مَن قبلَنا ضَرْبَ الدُّفِّ في العيدِ. وهذا مَشْروعٌ لنا أيضًا في حقِّ النِّساءِ؛ لحديثِ الجاريتَيْن اللتَيْن كانتا عند عائشةَ تضربانِ بالدُّفِّ في أيامِ منًى، ورسولُ اللهِ ﷺ مُضْطَجِعٌ، مُوَلٍّ ظهرَه إليهم، ووجهُه إلىٰ الحائطِ، فلمَّا دخَل أبو بكرٍ زَجَرَهُنَّ، وقال: أبِمَزْمُورِ الشَّيطانِ في بيتِ رسولِ اللهِ ﷺ؟ فقال: «**دَعْهُنَّ يَا أبَا بَكْرٍ، فإنَّ لكُلِّ قَوْمٍ عيدًا، وَهَذَا عيدُنا**»[2]. وهكذا يُشْرَعُ عندَنَا في الأعْراسِ، ولقُدومِ الغُيَّابِ، كما هو مُقَرَّرٌ في موضعِه، واللهُ أعلم.

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٥٥٦٣) والترمذي (٣١٥٥).
(٢) **متفق عليه**: البخاري (٩٥٢) مسلم (٢٠٥٨).

وذكرُوا أنّهم لَمَّا جاوزُوا البحرَ، وذهبُوا قاصدين إلى بلادِ الشّام، مكثُوا ثلاثةَ أيام، لا يجدُون ماءً، فتكَلَّمَ مَن تَكَلَّم منهم بسبب ذلك، فوجدُوا ماءً زُعاقًا أُجَاجًا، لم يستطيعُوا شُربَه، فأمرَ اللهُ موسى، عليه السلامُ، فأخَذَ خَشَبَةً فوضعَها فيه، فحلاَ وساغ شُرْبُه، وعلّمَه الرَّبُّ هنالكَ فرائضَ وسُنَنًا، ووصَّاه وصايَا كثيرةً. وقد قال اللهُ تعالى، في كتابه العزيز، المُهَيمنِ على ما عداه من الكتب: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. قالوا هذا الجهلَ والضّلالَ، وقد عاينُوا من آياتِ الله وقُدْرته، ما دلَّهم على صِدْقِ ما جاءَهم به رسولُ ذي الجلالِ والإكرام، وذلك أنّهم مَرُّوا على قومٍ يَعْبُدُون أصنامًا، قيل: كانتْ على صُوَرِ البَقَرِ. فكأنّهم سألُوهم: لِمَ يَعْبُدُونها، فزعمُوا لهم أنّها تَنْفعُهم وتضرُّهم، ويَسْتَرْزِقُون بها عندَ الضّرورات، فكأنَّ بعضَ الجُهّال منهم صَدَّقُوهم في ذلك، فسألُوا نبيَّهم الكليمَ الكريمَ العظيمَ، أنْ يجعَلَ لهم آلهةً كما لأُولئكَ آلهةٌ، فقال لهم، مبيِّنًا لهم أنَّهم لا يعقلُون ولا يهْتَدُون: ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. ثُم ذكَّرهم نعمةَ الله عليهم، في تفضيله إيَّاهم على عالَمي زمانهم بالعلم، والشّرعِ، والرّسولِ الذي بينَ أظْهُرِهم، وما أحسنَ به إليهم، وما امتَنَّ به عليهم، من إنجائهم من قَبْضةِ فرْعَوْنَ الجبّارِ العنيدِ، وإهلاكه إيَّاه وهم يَنْظُرون، وتوريثه إيّاهم ما كان فرعَوْنُ وملَؤُه يَجْمعُونه من الأموالِ والسَّعادة، وما كانوا يعرِشُون، وبيَّن لهم أنَّه لا تَصلُحُ العبادةُ إلا لله وحدَه لا شريكَ له؛ لأنَّه الخالقُ الرَّازقُ القهَّارُ، وليس كلُّ بني إسرائيلَ سَأَل هذا السؤالَ، بل الضّميرُ عائدٌ على الجنسِ في قوله: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ أي؛ قال بعضُهم، كما في قوله: ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٤٧، ٤٨]. فالذين زَعَمُوا هذا بعضُ النَّاسِ، لا كلُّهم.

وقد قال الإمَامُ أحمدُ: حدّثنا عبدُ الرّزاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن الزّهْريِّ، عن سنانِ ابنِ أبي سنانٍ الدِّيليِّ، عن أبي واقدٍ اللّيْثيِّ، قال: خَرجْنا مع رسولِ الله، ﷺ، قبَل حُنينٍ، فمررْنا بسِدْرَةٍ، فقلتُ: يا رسولَ الله، اجعلْ لنا ذاتَ أنْواط، كما للكفارِ ذاتُ أنْواطٍ. وكان الكُفارُ ينُوطُون سلاحَهم بسدْرَةٍ، ويَعْكُفُون حولَها، فقال النبيُّ ﷺ: «اللهُ أكبرُ، هذا كما قالتْ بنُو إسرائيلَ لموسَى: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ إنّكم تَركبُونَ سَنَنَ الّذينَ منْ قَبْلكُمْ»[1]. ورواه النَّسائيُّ، عن محمدِ بنِ رافعٍ، عن عبدِ الرّزاق به. ورواه التِّرْمذيُّ، عَن سعيدِ بنِ عبدِ الرَّحمنِ المَخْزُوميِّ، عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، عن الزُّهْريِّ به. ثم قال: حَسَنٌ صحيحٌ.

---

(١) **صحيح**: المسند (٥/ ٢١٨)، النسائي في «الكبرى» (١١١٨٥)، والترمذي (٢١٨٠).

وقد روى ابنُ جرير[1]: من حديث محمد بن إسحاق، ومعمر، وعقيل، عن الزهري، عن سنان ابن أبي سنان، عن أبي واقد الليثي، أنّهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، قال: وكان للكفار سدرة، يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط. قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط. قال: «**قُلْتُمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه، كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى. ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾**».

والمقصود أنّ موسى، عليه السّلام، لمّا انفصل من بلاد مصر، وواجه بلاد بيت المقدس، وجد فيها قومًا من الجبّارين، من الحيثانيّين، والفزاريّين، والكنعانيّين، وغيرهم، فأمرهم موسى، عليه السّلام، بالدّخول عليهم، ومقاتلتهم، وإجلائهم إيّاهم عن بيت المقدس، فإنّ الله كتبه لهم، ووعدهم إيّاه، على لسان إبراهيم الخليل، وموسى الكليم الجليل، فأبوا ونكلوا عن الجهاد، فسلّط الله عليهم الخوف، وألقاهم في التّيه؛ يسيرون، ويحلّون، ويرتحلون، ويذهبون، ويجيئون، في مدّة من السّنين طويلة، هي من العدد أربعون؛ كما قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦]. يذكّرهم نبيّ الله نعمة الله عليهم، وإحسانه إليهم بالنّعم الدّينيّة والدّنيويّة، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله، ومقاتلة أعدائه فقال: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ** ﴾ أي؛ تنكصوا على أعقابكم، وتنكلوا على قتال أعدائكم. ﴿**فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ**﴾ أي؛ فتخسروا بعد الرّبح، وتنقصوا بعد الكمال. ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ**﴾ أي؛ عتاة كفرة، متمرّدين، ﴿ **وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ**﴾، خافوا من هؤلاء الجبّارين، وقد عاينوا هلاك فرعون، وهو أكثر تجبّرًا من هؤلاء، وأشد بأسًا، وأكثر جمعًا، وأعظم جندًا. وهذا يدلّ على أنّهم ملومون في هذه المقالة، ومذمومون على هذه الحالة، من الذّلّة عن مصاولة الأعداء، ومقاومة المردة الأشقياء.

وقد ذكر كثير من المفسّرين ههنا آثارًا، فيها مجازفات كثيرة باطلة، يدلّ العقل والنّقل على

(١) **صحيح الإسناد**: ابن جرير (٦/ الجزء٩/ ٤٥)، أحمد في «المسند» (٥/ ٢١٨).

خلافِها؛ مِن أنَّهم كانوا أشْكالاً هائلةً ضِخامًا جدًّا، حتىٰ إنَّهم ذَكَرُوا أَنَّ رُسُلَ بني إسرائيلَ، لَمَّا قَدمُوا عليهم، تلقّاهم رجلٌ مِن رُسُلِ الجَبَّارين، فَجَعل يأخذُهم واحدًا واحدًا، ويلُفُّهم في أكمامِه وحُجْزَةِ سَرَاويلِه، وهم اثنا عَشَرَ رجلاً، فجاء بهم، فَنَثَرهم بين يَدَيْ مَلِك الجبّارين، فقال: ما هؤلاءِ؟ ولم يَعْرِفْ أنّهم مِن بني آدمَ حتىٰ عرَّفُوه. وكلُّ هذه هَذَياناتٌ وخُرافاتٌ لا حقيقةَ لها، وأَنَّ المَلِكَ بعَث معهم عِنَبًا، كلُّ عِنَبةٍ تَكْفِي الرَّجُلَ، وشيئًا مِن ثمارِهم؛ ليعلمُوا ضَخامةَ أشكالِهم، وهذا ليس بصحيحٍ. وذكروا ههنا أَنَّ عُوجَ بنَ عُنُقَ، خرج مِن عندِ الجبَّارين إلىٰ بني إسرائيلَ؛ لِيُهلِكَهم، وكان طولُه ثلاثةَ آلافِ ذِراعٍ، وثلاثُمائةِ ذراعٍ، وثلاثةً وثلاثين ذراعًا، وثُلُثَ ذراعٍ، هكذا ذكره البَغَويُّ وغيرُه، وليس بصحيحٍ، كما قدَّمْنا بيانَه عندَ قولِه ﷺ: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ، طُولُه ستُّون ذرَاعًا، ثُمَّ لَمْ يَزَل الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ**»[1]. قالوا: فعَمَدَ عُوجُ إلىٰ قِمَّةِ جبلٍ، فاقْتَلَعها، ثم أخذَها بيدَيْه؛ لِيُلْقِيَها علىٰ جيشِ موسىٰ، فجاءَ طائرٌ، فنَقَرَ تلك الصّخرةَ، فخرقَها، فصارتْ طَوْقًا في عُنُقِ عُوجَ بنِ عُنُقَ، ثُم عَمَدَ موسىٰ إليه، فوثَب في الهواءِ عَشَرَةَ أَذْرُعٍ، وطولُه عَشَرةُ أذْرُعٍ، وبيدِه عصاه، وطولُها عَشَرَةُ أَذْرُعٍ، فوصَل إلىٰ كعبِ قَدمِه فقتلَه. يُرْوَىٰ هذا عن نَوْفٍ البِكَالِي[2]، ونقلَه ابنُ جَريرٍ، عن ابنِ عباسٍ[3]، وفي إسنادِه إليه نَظَرٌ. ثُم هو مع هذا كلِّه من الإسرائيليّاتِ، وكلُّ هذه مِن وَضْعِ جُهّالِ بني إسرائيلَ، فإنَّ الأخبارَ الكَذِبةَ قد كَثُرَتْ عندَهم، ولا تَمْييزَ لهم بينَ صَحيحِها وباطلِها.

ثُمَّ لو كان هذا صحيحًا، لكان بنو إسرائيلَ معذورين في النُّكولِ عن قتالِهم، وقد ذمَّهم اللَّهُ تعالىٰ علىٰ نُكولِهم، وعاقَبَهم بالتِّيهِ علىٰ تركِ جهادِهم، ومُخالَفَتِهم رسولَهم، وقد أشارَ عليهم رجُلان صالحان منهم بالإقدامِ، ونَهَياهم عن الإحجامِ. ويُقالُ: إنهما يُوشَعُ بن نونٍ، وكالبُ بنُ يُوفَنّا. قاله ابن عباسٍ[4]، ومُجاهدٌ[5]، وعِكْرِمةُ[6]، وعطيَّةُ[7]، والسُّدِّيُّ[9]، والربيعُ بنُ أنسٍ[10]، وغيرُ واحدٍ.

﴿**قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ**﴾ أي: يخافونَ اللَّهَ، وقرأ بعضهم: (يُخافُون)؛ أي: يُهابُون، ﴿**أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا**﴾ أي: بالإسلام، والإيمان والطاعةِ، والشجاعة: ﴿**ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا**

---

(١) سبق تخريجه في قصة آدم.

(٢) **ضعيف الإسناد**: رواه ابن جرير الطبري في «التاريخ» (١/ ٢٥٤) وفيه مؤمل بن إسماعيل ضعيف.

(٣) **ضعيف الإسناد**: رواه الطبري في «التاريخ» (١/ ٢٥٤) وفي سنده ابن عطية لم أقف عليه وكذلك قيس غير منسوب وعنعنة أبي إسحاق.

(٤) **ضعيف الإسناد**: رواه ابن جرير (٤/ الجزء٦/ ١٧٦) من طريقين الأول: من طريق أبي سعيد هو البقال عن عكرمة عن ابن عباس وأبو سعيد ضعيف. والثاني: من طريق العوفي والعوفي ضعيف.

(٥) **صحيح**: رواه ابن جرير (٤/ الجزء٦/ ١٧٦) رواه من طريق سفيان عن منصور عنه ومن طريق ابن أبي نجيح عنه.

(٦) **لم أقف عليه**: إلا في رواية عن ابن عباس الرواية السابقة.

(٧) **ضعيف الإسناد**: ابن جرير (٤/ الجزء٦/ ١٧٦) فيه سفيان بن وكيع ضعيف.

(٨) **حسن**: رواه ابن جرير (٤/ الجزء٦/ ١٧٦) من رواية أسباط عنه.

(٩) **ضعيف**: ابن جرير (٤/ الجزء٦/ ١٧٧) من رواية أبي جعفر عنه.

(١٠) منهم قتادة رواه ابن جرير بسند صحيح عنه.

دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إذا توكَّلتُم على اللَّهِ، واستعَنْتُم به، **ولَجَأتُم إليه،** نصرَكُم على عدوِّكم، وأيَّدكم عليهم، وأظْفرَكم بهم.

﴿**قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ **فصمَّمَ ملَؤُهم** على النُّكولِ عن الجهادِ، ووقعَ أمرٌ عظيمٌ، ووَهَنٌ كبيرٌ. فيُقالُ: إن يُوشَعَ، وكالِبَ **لَمَّا سَمِعا هذا الكلامَ** شَقَّا ثيابَهما، وإنَّ موسىٰ وهارونَ ـ عليهما السلامُ ـ سجَدَا؛ إعظامًا لهذا الكلامِ، **وغضبًا** للَّهِ عزَّ وجلَّ، وشفقةً عليهم من وَبيلِ هذه المقالة.

﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ[١] : اقضِ بيني وبينهم ﴿**قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ عُوقِبُوا على نُكُولهم بالتَّيهانِ في الأرضِ، يَسيرونَ إلى غيرِ مقصدٍ، ليلاً ونهارًا، وصباحًا ومساءً. ويُقال: إنَّه لم يخرج أحدٌ من التيه ممن دخلَهُ، بل ماتوا كلُّهم في مدةِ أربعينَ سنةً، ولم يبقَ إلا ذراريُّهم سوىٰ يوشَعَ، وكالِبَ ـ عليهما السلام.

لكنَّ أصحابَ محمدٍ ﷺ يومَ بدرٍ لم يقولوا له كما قال قومُ موسىٰ لموسىٰ، بل لَمَّا استشارَهم في الذهابِ إلى النَّفيرِ، تكلَّمَ الصِّدِّيقُ فأحسنَ، وغيرُه من المهاجرين، ثم جعلَ يقولُ: «**أشيروا عليَّ**» حتىٰ قال سعدُ بن مُعاذٍ: كأنَّك تُعَرِّضُ بنا يا رسولَ اللَّهِ، فوالذي بعثَكَ بالحقِّ لو استعْرَضْتَ بنا هذا البحرَ فخُضْتَه لخُضْناه معك، ما تخلَّفَ منَّا رجلٌ واحدٌ، وما نَكْرَهُ أنْ تلقىٰ بنا عدوَّنا غدًا إنَّا لصُبُرٌ في الحربِ، صُدُقٌ في اللِّقاءِ، لعلَّ اللَّهَ أنْ يُرِيَك منَّا ما تَقَرُّ به عينُك. فَسِرْ بنا على بَرَكةِ اللَّهِ. فسُرَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ بقولِ سعدٍ، وبَسَطَهُ ذلك[٢] .

وقال الإمامُ أحمدُ[٣] : حدَّثنا وكيعٌ، حدَّثنا سفيانُ، عن مُخارِقِ بن عبدِ اللَّهِ الأحْمَسِيِّ، عن طارقٍ هو ابنُ شهابٍ، أنَّ المقدادَ قال لرسولِ اللَّهِ ﷺ يومَ بدرٍ: يا رسولَ اللَّهِ، إنَّا لا نقولُ لك كما قالتْ بنُو إسرائيلَ لموسىٰ: ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ ولكنْ: اذهبْ أنت وربُّك فقاتِلا إنَّا معكم مقاتلونَ. وهذا إسنادٌ جيدٌ من هذا الوجهِ، وله طرقٌ أخرىٰ.

قال أحمدُ: حدَّثنا أسودُ بن عامرٍ، حدَّثنا إسرائيلُ، عن مُخارقٍ، عن طارقِ بن شهابٍ، قال: قال عبدُ اللَّهِ بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: لقد شَهِدْتُ من المقداد مَشْهَدًا؛ لأنْ أكونَ أنا صاحبَه، أحبُّ إليَّ مِمّا عُدِلَ به؛ أَتَىٰ رسولَ اللَّهِ ﷺ، وهو يدعو على المشركينَ، فقال: واللَّهِ يا رسولَ اللَّهِ لا نقولُ لك كما قالتْ بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ ولكنَّا نُقاتِلُ عن يمينكَ،

---

(١) رواه ابن جرير (٤/ الجزء٦/ ١٨١) من طريقين عنه من طريق العوفي عنه من طريق علي بن أبي طلحة.

(٢) **صحيح الإسناد**: رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٣١) من مرسل عروة بن الزبير والزهري ومحمد بن يحيى وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد اللَّه بن أبي بكر من رواية ابن إسحاق عنهم فقد صرح بالتحديث والسند إليه صحيح في قصة طويلة وهو خروج النبي لعير قريش وروى مسلم مرفوعًا من حديث أنس بنحو هذا أو قائل ذلك سعد بن عبادة (٤٥٩٧).

(٣) **صحيح**: المسند (٤/ ٣١٤).

وعن يسارِكَ، ومن بين يديْكَ، ومن خلفك. فرأيتُ وجهَ رسولِ اللَّهِ ﷺ يُشْرِقُ لذلك، وسُرَّ بذلك[1]. رواهُ البخاريُّ في التفسير والمغازي من طرقٍ، عن مُخارقٍ به.

وقال الحافظُ أبو بكرٍ ابنُ مَرْدَوَيْهِ: حدَّثنا عليُّ بنُ الحسنِ بنِ عليٍّ، حدَّثنا أبو حاتمٍ الرَّازيُّ، حدَّثنا محمدُ بن عبدِ اللَّهِ الانصاريُّ، حدَّثنا حُميدٌ، عن أنسٍ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ لمَّا سارَ إلى بدرٍ، استشارَ المسلمين، فأشارَ عليه عمرُ، ثم استشارَهم، فقالت الأنصارُ: يا معشرَ الأنصارِ، إيَّاكم يريدُ رسولُ اللَّهِ ﷺ. قالوا: إذًا لا نقولُ له كما قال بنو إسرائيلَ لموسى: ﴿**اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ والذي بعثَكَ بالحقِّ، لو ضربْتَ أكبادَها إلى بَرْكِ الغمادِ لاتَّبَعْناكَ[2]. رواهُ الإمامُ أحمدُ، عن عَبِيدةَ بن حُمَيْدٍ، عن حُمَيْدٍ الطويلِ، عن أنسٍ به. ورواهُ النَّسائيُّ عن محمدِ بنِ المُثنَّى، عن خالدِ ابنِ الحارثِ، عن حُميدٍ، عن أنسٍ به نحوَهُ. وأخرجَهُ ابنُ حِبَّانَ في «صحيحه»، عن أبي يَعْلَى، عن عبدِ الأعلَى بنِ حمَّادٍ، عن معتمرٍ، عن حُمَيْدٍ، عن أنسٍ به نحوَهُ.

فصلٌ

في دخولِ بني إسرائيلَ التيهَ وما جرى لهم فيه من الأمورِ العجيبةِ

قد ذَكَرْنا نُكُولَ بني إسرائيلَ عن قتالِ الجبَّارين، وأنَّ اللَّهَ تعالى عاقبَهم بالتِّيهِ، وحكَمَ بأنَّهم لا يَخْرُجونَ منهُ إلى أربعينَ سنةً، ولم أرَ في كتابِ أهلِ الكتابِ قصةَ نُكُولِهم عن قتالِ الجبَّارينَ، ولكنْ فيها أنَّ يُوشَعَ جَهَّزَهُ موسى لقتالِ طائفةٍ من الكُفَّارِ، وأنَّ موسى وهارونَ، وخورَ، جلسُوا على رأسِ أَكَمَةٍ، ورفَعَ موسى عصاهُ، فكُلَّما رفعَها انتصرَ يُوشَعُ عليهم، وكلَّما مالتْ يَدُهُ بها من تَعَبٍ أو نحوِهِ غلبَهُ أولئك، وجعل هارونُ وخورُ يُدعِّمان يدَيْهِ من عن يمينِهِ وشمالِهِ ذلك اليومَ إلى غروبِ الشمسِ، فانتصرَ حزبُ يوشَعَ ـ عليه السلام.

وعندهم أن يثْرونَ كاهنَ مَدْينَ، وختَنَ موسى عليه السلام بلغَهُ ما كان من أمرِ موسى، وكيف أظْفَرَهُ اللَّهُ بعدوِّهِ فرْعَونَ، فقدِمَ على موسى مُسْلمًا، ومعه ابنتُهُ صفُّورا زوجةُ موسى، وابناها منه: جرْشُونُ، وعازرُ، فتلقَّاه موسى وأكرمَهُ، واجتَمَع به شيوخُ بني إسرائيلَ، وعظَّموه وأَجَلُّوه. وذكروا أنَّهُ رأى كثرةَ اجتماعِ بني إسرائيلَ على موسى في الخُصُوماتِ التي تقعُ بينهم، فأشارَ على موسى أنْ يجعلَ على الناسِ رجالاً أُمناءَ، أتقياءَ، أعفَّاءَ، يُبْغضونَ الرِّشا والخيانةَ، فيجعلَهم على الناسِ رءوسَ أُلُوفٍ، ورُءوسَ مئِينَ، ورُءوسَ خمسينَ، ورءوسَ عشَرَةٍ، فيَقْضُوا بين الناسِ، فإذا أَشْكَلَ عليهم أمرٌ جاءُوكَ، فَفَصَلْتَ بينهم ما أشكلَ عليهم، ففعلَ ذلك موسى عليه السلام، قالوا: ودخلَ بنو إسرائيلَ البَرِّيَّةَ، عندَ سَيْناءَ في الشهرِ الثالثِ من خروجِهم من مصرَ، وكان خروجُهم في أولِ السنةِ التي

---

(١) صحيح: البخاري (٣٩٥٢) «مغازي» و(٤٦٠٩) «تفسير»، وأحمد في «المسند» (٤/ ٣١٤).

(٢) صحيح: المسند (٣/ ١٨٨)، النسائي «الكبرى» (١١١٤١)، ابن حبان (٤٧٢١) بترتيب ابن بلبان.

شُرِعَتْ لهم، وهي أولُ فصلِ الرَّبيعِ. فكأنَّهم دخلُوا التِّيهَ في أولِ فصلِ الصَّيْف. واللَّهُ أعلم. قالوا: ونزلَ بنو إسرائيلَ حولَ طورِ سيناءَ، وصعدَ موسىٰ الجبلَ، فكلَّمه ربُّه، وأمَرَهُ أنْ يُذكِّرَ بني إسرائيلَ ما أنعمَ اللَّهُ به عليهم من إنجائه إياهم من فرعونَ وقومِه، وكيف حملهم على مثلِ جناحَيْ نَسْرٍ من يدِه وقبضته، وأمرَهُ أن يأمُرَ بني إسرائيلَ بأنْ يَتطهَّرُوا ويَغْتَسلوا، ويغسلُوا ثيابَهم، وليَستعدُّوا إلى اليومِ الثالث، فإذا كان في اليوم الثالث، فليَجتمعوا حول الجبلِ، ولا يَقْتَربَنَّ أحدٌ منهم إليه، فمن دنا منهُ قُتِلَ، حتَّىٰ ولا شيءٌ من البهائمِ، ما داموا يسمعونَ صوتَ القَرْنِ، فإذا سكَنَ القرنُ فقد حلَّ لكم أن تَرْتَقُوه، فسمعَ بنو إسرائيلَ ذلك، وأطاعوا، واغتَسلوا وتَنَظَّفُوا، وتطيَّبُوا، فلمَّا كان اليومُ الثالثُ، ركبَ الجبلَ غَمامةٌ عظيمةٌ، وفيها أصواتٌ وبُرُوقٌ، وصوتُ الصُّورِ شديدٌ جدا، ففَزِعَ بنو إسرائيلَ من ذلك فزعًا شديدًا، وخرجُوا فقاموا في سفحِ الجبلِ، وغَشِيَ الجبلَ دُخانٌ عظيمٌ في وسَطِه عمودُ نورٍ، وتَزَلْزَلَ الجبلُ كلُّه زلزلةً شديدةً، واستمرَّ صوتُ الصُّورِ -وهو البوقُ- واشتدَّ، وموسىٰ عليه السلامُ فوقَ الجبلِ، واللَّهُ يُكَلِّمُه ويناجيه، وأمرَ الربُّ عز وجلَّ موسىٰ أن ينزِلَ فيأمر بني إسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصية اللَّهِ، ويأمرَ الأحبارَ -وهم عُلماؤُهم- أن يدنوا فيصعَدوا الجبلَ؛ ليتقدَّمُوا بالقُربِ -وهذا نصٌّ في كتابِهم على وقوعِ النسخِ لا محالةَ- فقال موسىٰ: يا ربِّ، إنَّهم لا يستطيعونَ أن يصعدوه، وقد نهيتَهم عن ذلك، فأمرَهُ اللَّهُ أن يذهبَ، فيأتيَ معه بأخيه هارونَ، وليَكُنِ الكهنةُ -وهم العلماءُ- والشَّعْبُ -وهم بقيةُ بني إسرائيلَ- غيرَ بعيدٍ. ففعلَ موسىٰ، وكلَّمه ربُّه عزَّ وجلَّ، فأمَرَهُ حينئذٍ بالعَشْرِ كلماتٍ.

وعندهُم أنَّ بني إسرائيل سمعوا كلامَ اللَّهِ، ولكنْ لم يفهموا حتَّىٰ فهَّمَهم موسىٰ، وجعلوا يقولون لموسىٰ: بلِّغْنا أنتَ عن الرَّبِّ، فإنَّا نخافُ أن نموتَ. فبلَّغَهم عنه، فقال هذه العشرَ الكلمات؛ وهي:

* الأمرُ بعبادة اللَّهِ وحدَهُ لا شريكَ له، والنَّهيُ عن الحلف باللَّه كاذبًا، والأمرُ بالمحافظة على السَّبْتِ، ومعناهُ تفرُّغُ يومٍ من الأسبوعِ للعبادةِ. وهذا حاصلٌ بيومِ الجُمُعةِ الذي نَسَخَ اللَّهُ به السبتَ.

* أكرِمْ أباك وأمَّك ليطول عمرك في الأرضِ.

* الذي يعطيك اللَّهُ ربُّك.

* لا تقتُل. * لا تَزْنِ. * لا تسرِق.

* لا تشهدْ علىٰ صاحبكَ شهادةَ زُورٍ.

* لا تمُدَّ عينَك إلىٰ بيتِ صاحبِك.

* ولا تشتَهِ امرأةَ صاحبك، ولا عبدَهُ، ولا أَمَتَهُ، ولا ثَوْرَه، ولا حمارَهُ، ولا شيئًا من الذي لصاحبِك، ومعناه النهيُ عن الحسدِ.

وقد قال كثيرٌ من علماءِ السَّلفِ وغيرِهم: مضمونُ هذه العشرِ الكلماتِ في آيتينِ من القرآنِ، وهما قولُهُ تعالىٰ في سورةِ الأنعامِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الانعام: ١٥١-١٥٣]. وذكروا بعدَ العشرِ الكلماتِ وصايا كثيرةً، وأحكامًا متفرِّقةً عزيزةً، كانت فزالتْ وعُمِلَ بها حينًا من الدَّهْرِ، ثم طَرَأَ عليها عصيانٌ من المُكلَّفين بها ثم عمدوا إليها فبدَّلُوها، وحرَّفوها، وأوَّلوها، ثم بعدَ ذلك كلِّه سُلِبُوها، فصارتْ مَنْسُوخةً مبدلةً، بعدَ ما كانت مشروعةً مكمَّلَةً، فللَّهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ، وهو الذي يحكمُ ما يشاءُ، ويفعلُ ما يريدُ، ألا له الخلقُ والأمرُ، تباركَ اللَّهُ ربُّ العالمينِ.

وقد قال اللَّهُ تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٠-٨٢] يذكرُ تعالىٰ منَّتَهُ وإحسانَهُ إلىٰ بني إسرائيلَ، بما أنجاهم من أعدائِهم، وخلَّصَهم من الضِّيقِ، والحَرَجِ، وأنَّهُ وَعَدَهُم صُحبةَ نبيِّهم كليمِه إلىٰ جانبِ الطورِ الأيمنِ، أي: منهم، ليُنزِّلَ عليه أحكامًا عظيمةً، فيها مصلحةٌ لهم في دُنياهم وأُخراهم، وأنَّهُ تعالىٰ أنزلَ عليهم في حالِ شِدَّتِهم وضرورتِهِم في سفرِهم في الأرضِ التي ليس فيها زَرْعٌ ولا ضَرْعٌ، منًّا من السماءِ، يُصْبِحُون فيجدونه خلالَ بُيُوتِهم، فيأخذُون منه قدْرَ حاجتِهم في ذلك اليومِ إلىٰ مثلِه من الغدِ، ومن ادَّخَرَ منه لأكثرَ من ذلك فسَدَ، ومن أخذَ منه قليلاً كفاهُ، أو كثيرًا لم يَفْضُلْ عنه، فيَصْنَعون منه مثلَ الخُبْزِ، وهو في غايةِ البياضِ والحلاوةِ، فإذا كان من آخرِ النهارِ غَشيَهم طيرُ السَّلْوىٰ فيَقتَنِصُونَ منه بلا كُلْفَةٍ ما يحتاجُون إليه، حسبَ كفايتِهم لِعَشائِهم، وإذا كان فصلُ الصيفِ، ظلَّلَ اللَّهُ عليهم الغمامَ، وهو السحابُ الذي يَسْتُرُ عنهم حرَّ الشمسِ، وضَوْءَها الباهرَ. كما قال اللَّهُ تعالىٰ في سورةِ البقرة: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤٠، ٤١] إلىٰ أن قال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ

اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٤٩ـ٥٧] إلى أن قال: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦٠، ٦١] يذكرُ تعالى إنعامَهُ عليهم، وإحسانَهُ إليهم بما يَسَّرَ لهم من المَنِّ والسَّلْوَىٰ، طعامَيْنِ شهيَّيْنِ، بلا كُلْفَةٍ، ولا سعيٍ لهم فيه، بل يُنَزِّلُ اللَّهُ المنَّ باكرًا، ويُرْسِلُ عليهم طيرَ السَّلْوَىٰ عَشيًّا، وأَنْبَعَ الماءَ لهم بضربِ موسىٰ، عليه السلام حجرًا كانوا يحملونَهُ معهم بالعصا فتفجَّرَ منه اثنتا عَشْرَةَ عينًا، لكلِّ سِبْطٍ عينٌ منه تَنْبَجِسُ، ثم تَتَفَجَّرُ ماءً زُلالًا، فيستَقُون ويَشْرَبُون ويَسْقُونَ دوابَّهم ويدَّخرونَ كفايتَهم وظلَّلَ عليهم الغمامَ من الحرِّ. وهذه نعمٌ من اللَّه عظيمةٌ وعطيَّاتٌ جسيمةٌ، فما رَعَوْها حقَّ رعايتها، ولا قامُوا بشُكْرِها وحقِّ عبادتها، ثمَّ ضَجِرَ كثيرٌ منها، وتبرَّمُوا بها، وسألوا أن يستبدلوا منها ببَدَلِها، ممَّا تُنْبتُ الارضُ من بقلِها وقثَّائها وفُومِها وعدَسِها وبَصَلِها. فقرَّعَهم الكليمُ ووبَّخَهُم وأَنَّبَهُم على هذه المقالَةِ، وعنَّفَهم قائلاً: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدلَ هذه النِّعم التي أنتم فيها، حاصلٌ لأهلِ الأمصارِ الصِّغارِ والكبارِ، موجودٌ بها، وإذا هَبَطْتُم إليها، أي: ونزلتُم عن هذه المرتبَةِ التي لا تَصْلُحون لمنصبِها تجدوا بها ما تشْتَهُون، وما تَرومُون ممَّا ذكرْتُم من المآكلِ الدَّنيَّةِ والاغذيةِ الرَّديَّةِ، ولكنِّي لستُ أُجيبُكم إلى سؤالكم ذلك ههنا، ولا أُبلِّغُكم ما تعنَّتُّم به من المُنَىٰ، وكلُّ هذه الصفاتِ المذكورةِ عنهم الصادرةِ منهم، تدلُّ على أنَّهم لم ينتهوا عمَّا نُهُوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١]. أي: فقد هلك، وحُقَّ له واللَّه الهلاكُ والدَّمارُ، وقد حلَّ عليه غضبُ الملكِ الجبَّارِ، ولكنَّه تعالى مزَجَ هذا الوعيدَ الشديدَ بالرَّجاء لمنْ أنابَ وتابَ، ولم يستمرَّ على متابعةِ الشيطانِ المريدِ، فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

سؤال الرؤية

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

[الأعراف: ١٤٢-١٤٧]

قال جماعةٌ من السلفِ منهم ابنُ عباسٍ[١] ومسروقٌ[٢] ، ومُجاهدٌ[٣] : الثلاثون ليلةً هي: شهرُ ذي القعدةِ بكمالِه، وأتمتْ أربعينَ ليلةً بعشرِ ذي الحجَّةِ. فعلىٰ هذا يكونُ كلامُ اللَّهِ له يومَ عيدِ النَّحرِ، وفي مِثْلِهِ[٤] أكملَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لمحمدٍ ﷺ دينَهُ، وأقامَ حُجَّتَهُ وبراهينَهُ.

والمقصودُ أنَّ موسىٰ عليه السلامُ، لمَّا استكملَ الميقاتَ، وكان فيه صائمًا، يُقالُ: إنَّه لم يستطعمِ الطعامَ، فلمَّا كَمَلَ الشهرُ أخذ لِحا شجرةٍ فمَضَغَهُ، ليُطَيِّبَ ريحَ فمِهِ، فأمرَ اللَّهُ أنْ يُمسكَ عَشْرًا أخرىٰ، فصارَ أربعينَ ليلةً، ولهذا ثبت في الحديثِ أن «خُلُوفَ فمِ الصائمِ أطيبُ عندَ اللَّهِ من ريحِ المسكِ»[٥] . فلمَّا عزمَ علىٰ الذَّهابِ، استخلفَ علىٰ شَعْبِ بني إسرائيل أخاه هارونَ المُحبَّبَ المُبجَّلَ، الجليلَ، وهو ابنُ أمِّه وأبيه، ووزيرُهُ في الدَّعوةِ إلىٰ مصطَفِيه، فوصَّاهُ وأمرهُ ونهاه، وليس في هذا لِعُلُوِّ منزلتِهِ في نُبُوَّتِه منافاةٌ.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا ﴾ أي: في الوقتِ الذي أُمِرَ بالمجيءِ فيه، ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾

---

(١) ضعيف الإسناد: رواه ابن أبي حاتم (٨٩٢٠) فيه طلحة بن عمرو متروك ومجنوب بن محرز القواريري لين الحديث. ورواه ابن جرير (٦/ الجزء ٩/ ٤٨) سند ضعيف منقطع من رواية ابن جريج قال: قال ابن عباس. وابن جريج لا يدرك ابن عباس. وفيه سنيد ضعيف.

(٢) إسناد رجاله ثقات: رواه ابن جرير (٦/ الجزء٩/ ٤٨) من رواية أبي إسحاق عنه.

(٣) صحيح بمجموع طرقه: رواه ابن جريج (نفس المصدر) رواه من أربعة طرق عنه. من طريق ليث بن أبي سليم وليث ضعيف ومن رواية ابن أبي نجيح وفيها كلام ومن رواية ابن جريج عنه ومن رواية أبي سعد عنه وأبو سعد ضعيف.

(٤) متفق عليه: البخاري (٤٥) ومسلم (٧٤٤٣) من رواية عمر رضي اللَّه عنه قال طارق بن شهاب: جاء رجل من اليهود إلى عمر رضي اللَّه عنه فقال: يا أمير المؤمنين! آية في كتابكم تقرءونها لو نزلت علينا معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً قال: أي آية؟ قال: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾ فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه والمكان الذي نزلت فيه نزلت على رسول اللَّه ﷺ بعرفات في يوم جمعة.

(٥) متفق عليه: البخاري (١٨٩٤)، مسلم (٢٦٩٨) من حديث أبي هريرة.

أي: كلَّمَهُ اللَّهُ من وراء حجاب، إلا أنَّه أسمعهُ الخطابَ، فناداهُ وناجاهُ، وقرَّبَهُ وأدْناهُ، وهذا مقامٌ رفيعٌ، ومعقلٌ منيعٌ، ومنصبٌ شريفٌ، ومنزلٌ مُنيفٌ، فصلواتُ اللَّه عليه تَتْرَىٰ، وسلامُهُ عليه في الدُّنيا والأخرىٰ. ولَمَّا أُعطِي هذه المنزلةَ العَلِيَّةَ والمرتبةَ السَّنِيَّةَ، وسَمِعَ الخطابَ، سألَ رفعَ الحجاب، فقال للعظيم، الذي لا تُدْرِكُهُ الأبصارُ، القويُّ البُرْهان: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾ ثم بيَّنَ تعالىٰ أنَّه لا يستطيعُ أن يَثْبُتَ عندَ تَجَلِّيه تباركَ وتعالىٰ؛ لأنَّ الجبلَ الذي هو أقوىٰ وأكبرُ ذاتًا، وأشدُّ ثباتًا من الإنسان، لا يثبتُ عندَ التَّجَلِّي من الرَّحمنِ، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾.

وفي الكتبِ المتقدِّمَةِ أنَّ اللَّهَ تعالىٰ قال له: يا موسىٰ، إنَّه لا يراني حيٌّ إلا ماتَ، ولا يابسٌ إلا تَدَهْدَهَ.

وفي «الصحيحين»[١] عن أبي موسىٰ، عن رسولِ اللَّهِ ﷺ، أنَّه قال: «**حجابُهُ النورُ - وفي رواية: النارُ - لو كشَفَهُ لأحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجْهِه ما انتَهَى إليه بَصَرُهُ من خَلْقه**» وقال ابنُ عبَّاسٍ[٢] في قوله تعالىٰ: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ ذاك نورُهُ، الذي هو نورُهُ، إذا تجلَّىٰ لشيء، لا يقومُ له شيءٌ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال مجاهدٌ[٣]: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾: فإنَّه أكبرُ منكَ، وأشدُّ خَلْقًا، فلمَّا تَجَلَّىٰ ربُّه للجبلِ، فنَظَرَ إلى الجبلِ لا يتمالَكُ، وأقبلَ الجبلُ فدُكَّ علىٰ أوَّلِه، ورأىٰ موسىٰ ما يصنَعُ الجبلُ فخرَّ صَعِقًا.

وقد ذكرنا في «التفسيرِ» ما رواهُ الإمامُ أحمدُ، والتِّرْمذيُّ، وصحَّحَهُ، وابنُ جرير، والحاكمُ، من طريق حمَّادِ بن سَلَمَةَ، عن ثابتٍ[٤]، زادَ ابنُ جرير: وليثٍ عن أنسٍ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قرأ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: هكذا بأُصْبُعِه، ووَضَعَ النبيُّ ﷺ الإبهامَ على المَفْصِلِ الأعلىٰ من الخِنْصَرِ، فساخَ الجبلُ. لفظُ ابنِ جرير.

وقال السُّدِّيُّ[٥]، **عن عكرمةَ، عن ابنِ عباسٍ**: ما تجلَّىٰ - يعني من العظمةِ - إلا قدرُ الخِنْصَرِ، فجعل الجبلَ دكًا، قال: ترابًا

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي: مغشيًا عليه. وقال قتادة[٦]: ميِّتًا. والصحيحُ الأولُ؛ لقولِه: ﴿فَلَمَّا

---

(١) **صحيح**: مسلم فقط ولعله تصحيف (٤٤٤) وابن ماجه (١٩٥) وأحمد (٤/ ٤٠٥).

(٢) **حسن الإسناد**: رواه ابن أبي حاتم (٧٧٣٨) من رواية الحكم بن أبان عن عكرمة عنه. والحكم له أوهام. ورواه أيضًا الترمذي (٣٢٧٩) من طريق الحكم به. قال: حسن غريب من هذا الوجه.

(٣) **سنده ضعيف**: رواه ابن جرير (٦/ الجزء ٩/ ٥٤) فيه أبو سعد. وهو روح بن جناح. ضعيف.

(٤) **حسن**: المسند (٣/ ١٢٥)، والترمذي (٣٠٧٤) وقال: حديث حسن، ابن جرير في «التفسير» (٦/ الجزء٩/ ٥٣)، الحاكم (٢/ ٣٢٠).

(٥) **حسن**: رواه ابن جرير (٦/ الجزء٩/ ٥٢ ـ ٥٣) من طريقين عن أسباط عنه وسنده حسن.

(٦) **صحيح**: رواه ابن جرير (٦/ الجزء٩/ ٥٢ ـ ٥٣)، وكذلك ابن أبي حاتم (٨٩٤٧).

أَفَاقَ﴾ فإنَّ الإفاقةَ إنَّما تكونُ عن غَشْيٍ.

قال ﴿سُبْحَانَكَ﴾: تنزيهٌ وتعظيمٌ، وإجلالٌ أن يراهُ بعظمته أحدٌ.

﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أي: فلَسْتُ أسألُ بعدَ هذا الرُّؤيَةَ: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّهُ لا يراكَ حيٌّ إلا ماتَ، ولا يابسٌ إلا تَدَهْدَهَ. وقد ثبت في «الصحيحين» من طريقِ عمرِو بن يحيىٰ بنِ عمارةَ بنِ أبي حَسَنٍ المازنيِّ الأنصاريِّ، عن أبيه، عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ، قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: **«لا تُخيِّروني من بين الأنبياء، فإنَّ الناسَ يُصْعَقُونَ يومَ القيامة، فأكونُ أوَّلَ مَنْ يُفيقُ، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العَرْشِ، فلا أدْري أفاقَ قَبْلي أم جُوزيَ بِصَعْقَةِ الطُّور»** [1] لفظُ البخاريِّ. وفي أوله قصة اليهوديِّ الذي لَطَمَ وجهَهُ الأنصاريُّ، حينَ قال: لا والذي اصطفىٰ موسىٰ على البشرِ. فقال رسولُ الله ﷺ: **«لا تُخيِّروني من بين الأنبياء»**.

وفي «الصحيحين» من طريقِ الزُّهْريِّ، عن أبي سلَمَةَ، وعبدالرَّحمنِ الأعْرَجِ، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النَّبيِّ ﷺ بنَحْوِه، وفيه: **«لا تُخيِّروني على موسَى»** [2] وذكرَ تَمامَهُ. وهذا منْ بابِ الهَضْمِ والتَّواضُعِ، أو نَهيٌ عن التَّفْضيلِ بين الأنبياءِ علىٰ وجْهِ الغَضَبِ والعَصَبيَّةِ، أو: ليس هذا إليكم، بل اللَّهُ هو الذي رَفَعَ بعضَهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ، وليس يُنالُ هذا بمجردِ الرَّأْيِ، بل بالتَّوْقيف. ومن قال: إن هذا قالَهُ قبلَ أن يَعْلَمَ أنَّه أفضلُ، ثم نُسِخَ باطلاعه علىٰ أفضَليَّتِه عليهم كلِّهم. ففي قوله نَظَرٌ؛ لأنَّ هذا من رواية أبي سعيدٍ، وأبي هريرة، وما هاجرَ أبو هُريرةَ إلا عامَ خيبرَ متأخِّرًا، فيَبْعُدُ أنَّه لم يعلمْ بهذا إلا بعدَ هذا. واللَّهُ أَعْلَمُ. ولا شكَّ أنَّهُ صلواتُ اللَّه وسلامُهُ عليه، أفضلُ البشرِ، بل الخليقة. قال اللَّهُ تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وما كمُلُوا إلا بشرَفِ نبيِّهم، وثبتَ بالتَّواتُرِ عنه، صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليه أنَّه قال: **«أنَا سيِّدُ ولَد آدَمَ يومَ القيامَة ولا فَخْرَ»** [3] ثُمَّ ذَكرَ اختصاصَهُ بالمقامِ المحمودِ، الذي يَغْبطُه به الأوَّلونَ والآخِرُونَ، الذي تَحيدُ عنهُ الأنبياءُ والمُرْسَلُونَ، حتَّىٰ أولو العزمِ الأكْمَلُونَ نوحٌ وإبراهيمُ وموسىٰ، وعيسىٰ ابنُ مريمَ.

وقولُهُ ﷺ: **«فأكُونُ أوَّلَ مَنْ يُفيقُ، فأجِدُ موسَى باطشًا بقائمَة العَرْشِ - أيْ آخذًا بها - فلا أدْري أفَاقَ قَبْلي، أمْ جُوزيَ بصَعْقَةِ الطُّور»**. دليلٌ علىٰ أن الصعَقَ الذي يحصلُ للخلائقِ في عَرَصَاتِ القيامة، حين يَتَجلَّىٰ الرَّبُّ لفَصْلِ القضاءِ بين عبادِه، فيُصْعَقُونَ من شدَّةِ الهَيْبَةِ والعظمةِ والجلالِ، فيكونُ أولَهم إفاقةً محمدٌ، خاتَمُ الأنبياء، ومُصْطَفَىٰ ربِّ الأرضِ والسماءِ علىٰ سائرِ الأنبياء، فيجدُ موسىٰ باطشًا بقائمة العرش، قال الصادقُ المصدُوقُ: **«فلا أدْري أصُعِقَ، فأفاقَ قبلي»** أي: وكانت صعقَتُهُ خفيفةً؛ لأنَّه قد نالَهُ بهذا السببِ في الدُّنيا صَعْقٌ، **«أو جُوزيَ بصَعْقَة الطُّور»**، يعني فلم يُصْعَقْ

---

(١) **متفق عليه**: البخاري (٢٤١٢)، مسلم (٦١٠٥).

(٢) **متفق عليه**: البخاري (٦٥١٧)، مسلم (٦١٠٣).

(٣) **صحيح**: مسلم (٥٨٩٩) بدون لفظة ولا فخر وأبو داود (٤٦٧٣) من حديث أبي هريرة وهذه اللفظة عند أحمد (٣/ ١٤٤) وسندها صحيح من حديث أنس وقد سبق تخريجه في قصة إبراهيم عليه السلام.

بالكُلِّيَّةِ، وهذا فيه شرَفٌ كبيرٌ وعُلُوُّ مرتَبةٍ لموسى، عليه السلامُ، من هذه الحَيْثِيَّةِ، ولا يلزَمُ تفضيلُهُ بها مطلقًا من كلِّ وجهٍ؛ ولهذا نبَّهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ على شرفِه وفضيلتِه بهذه الصفةِ؛ لأنَّ المسلمَ لَمَّا ضَرَبَ وجهَ اليهوديِّ، حين قال: لا، والذي اصطفى موسى على البشرِ. قد يحصلُ في نفوسِ بعضِ المشاهدينَ لذلك هَضْمٌ بجَنابِ موسى عليه السلام، فبيَّنَ النبيُّ ﷺ فضيلتَهُ وشرَفَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ أي: في ذلك الزمانِ، لا ما قبلَهُ؛ لأنَّ إبراهيمَ الخليلَ أفضلُ منهُ، كما تقدَّمَ بيانُ ذلك في قصةِ إبراهيمَ، ولا ما بعدَهُ؛ لأنَّ محمدًا ﷺ أفضلُ منهما؛ كما ظهرَ شرَفُهُ ليلةَ الإسراءِ على جميعِ المرسلينَ والأنبياءِ، وكما ثبَتَ أنَّهُ قال: «سأقومُ مقامًا يرغبُ إليَّ الخلقُ حتَّى إبراهيمُ».

وقوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: فخُذْ ما أعطيتُك من الرِّسالةِ، والكلامِ، ولا تسألْ زيادةً عليه، وكُنْ من الشاكرينَ على ذلك.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وكانت الألواحُ من جَوْهَرٍ نفيسٍ، ففي «الصحيح» أنَّ اللَّهَ كتبَ له التَّوراةَ بيدِه، وفيه مواعظُ عن الآثامِ، وتفصيلٌ لكلِّ ما يحتاجونَ إليه من الحلالِ والحرامِ، والحدودِ والأحكامِ، ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزمٍ ونيةٍ صادقةٍ قويةٍ ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: يضعوها على أحسنِ وجوهِها، وأجملِ محاملِها: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: ستَرَون عاقبةَ الخارجين عن طاعتي، المخالفينَ لأمري، المكذِّبين لرُسُلي. ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ أي: عن فهمِها وتدبُّرِها وتعقُّلِ معناها الذي أُريدَ منها، ودلَّ عليه مقتضاها، ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي: ولو شاهدُوا مهما شاهدُوا من الخوارقِ، والمعجزاتِ، لا ينقادُوا لاتباعِها، ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ أي: لا يسلُكوهُ، ولا يتَّبِعُوه، ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: صرَفْناهم عن ذلك؛ لتكذيبِهم بآياتِنا، وتغافُلِهم عنها، وإعراضِهم عن التصديقِ بها، والتَّفَكُّرِ في معناها، وتركِ العملِ بمُقتضاها، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قصة عبادتهم العجل في غيبة كليم الله موسى عليه السلام

قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ

وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨-١٥٤].

وقال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه: ٨٣-٩٨].

يذكرُ اللَّهُ تعالى ما كان من أمر بني إسرائيلَ، حين ذهبَ موسى عليه السلامُ إلى ميقاتِ ربِّه، فمكثَ على الطُّورِ يُناجيه ربُّه، ويسألُه موسى عليه السلام عن أشياءَ كثيرةٍ، وهو تعالى يُجيبُه عنها، فعَمَدَ رجلٌ منهم يُقال لَهُ: السَّامِريُّ، فأخذَ ما كان استعاروه من الحُليِّ فصاغَ منه عجلاً، وألقى فيه قبْضةً من التُّرابِ كان أخذَها من أثرِ فرسِ جبْريلَ، حينَ رآه يومَ أغْرقَ اللَّهُ فرْعونَ على يديْه، فلمَّا ألقاها فيه، خارَ كما يَخُورُ العجْلُ الحقيقيُّ، ويُقَال: إنَّه استحالَ عجْلاً جَسَدًا، أي: لحمًا ودمًا، حيًّا يخُورُ. قاله قتادةُ [1] وغيرُه. وقيل: بل كانت الريحُ إذا دخلَتْ من دُبُره، خرجَتْ من فَمِه، فيَخُورُ كما تَخُورُ البقرةُ، فيرْقُصُونَ حولَهُ ويَفْرَحُونَ: ﴿ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ أي: فنَسِيَ موسى ربَّهُ عندَنا، وذهبَ يتطلَّبُهُ، وهو ههنا. تعالى اللَّهُ عمَّا يقولونَ علوًّا كبيرًا، وتقدَّسَتْ أسماؤُه وصفاتُهُ، وتضاعفَتْ آلاؤُه وعداتُهُ. قال اللَّهُ تعالى مُبيِّنًا لهم بطلانَ ما ذهبوا إليه، وما عوَّلُوا عليه، من إلهيَّةِ هذا الذي قُصاراهُ أنْ يكونَ حيوانًا بَهيمًا وشَيْطانًا رجيمًا: ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴾ وقال: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ فذكرَ أنَّ هذا الحيوانَ لا يتكلَّمُ، ولا يَرُدُّ جوابًا، ولا يملكُ ضرًّا ولا نَفْعًا، ولا يَهْدي إلى رُشْدٍ،

---

(١) صحيح رواه ابن جرير (٩/١٦/ ٢٠٠) من رواية سعيد ومعمر عنه.

اتَّخذوه وهم ظالمونَ لأنفسِهِم، عالِمون في أنفسهم بُطلانَ ما هم عليه من الجهلِ والضلال ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ أي: ندموا على ما صنعوا ﴿ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

ولَمَّا رجعَ موسى عليه السلامُ إليهم، ورأى ما هم عليه من عبادةِ العِجْلِ، ومعه الألواحُ المتضمِّنَةُ التَّوراةَ، ألقاها، فيُقالُ إنَّه كسَرَها، وهكذا هو عندَ أهلِ الكتابِ، وإنَّ اللَّهَ أبْدَلَهُ غيرَها. وليس في اللفظِ القرآني ما يدلُّ على ذلك، إلا أنَّه ألقاها حينَ عاينَ ما عاينَ. وعندَ أهلِ الكتابِ أنهما كانا لوحَيْنِ، وظاهر القرآنِ أنَّها ألواحٌ متعددةٌ، ولم يتأثَّر بمجردِ الخبرِ من اللَّه تعالى، عن عبادتِهم العِجْلَ، فأَمَرَهُ بمعاينةِ ذلك. ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمامُ أحمدُ، وابنُ حبانَ، عن ابنِ عباسٍ قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «ليسَ الخبرُ كالمُعاينة»[1] ثمَّ أقبلَ عليهم فعنَّفَهم ووبَّخَهم، وهجَّنَهم في صنيعهم هذا القبيح، فاعتذروا إليه بما ليسَ بصحيحٍ؛ قالوا: إنَّا ﴿ حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ تحرَّجوا من تملُّك حُلِي آلِ فرعونَ، وهم أهلُ حربٍ، وقد أمرَهُم اللَّهُ بأخذه، وأباحَهُ لهم، ولم يَتَحَرَّجُوا بجهلِهم، وقلَّةِ علمِهِم وعَقلِهم من عبادةِ العجلِ الجَسَدِ، الذي له خُوارٌ، مع الواحدِ الأحد، الفرد الصمد القهارِ. ثم أقبلَ على أخيه هارونَ - عليهما السلام - قائلاً له: ﴿ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ أي: هلاَّ لَمَّا رأيتَ ما صَنَعُوا اتَّبعْتَني فأعْلَمْتَني بما فعلُوا، فقال: ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي: تركتَهم وجِئْتَني، وأنت قد استخْلَفْتَني فيهم ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وقد كان هارون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيعِ الفظيعِ أشدَّ النَّهْيِ، وزجَرَهم عنه أتمَّ الزَّجرِ، قال اللَّه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم ﴾ أي: إنما قدَّرَ اللَّه أمرَ هذا العجلِ، وجعله يخورُ فتْنةً واختبارًا لكم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ ﴾ أي: لا هذا العجلُ، ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾ أي: فيما أقولُ لكم ﴿ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ يشهدُ اللَّهُ لهارونَ عليه السلام، وكفى باللَّه شهيدًا، أنَّه نهاهم وزَجَرَهم عن ذلك، فلم يُطيعُوه ولم يتَّبِعُوه، ثم أقبلَ موسى عليه السلام على السَّامِرِيِّ ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ أي: ما حَمَلَكَ على ما صنعتَ ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ أي: رأيتُ جبرائيلَ، وهو راكبٌ فرسًا ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ أي: من أثرِ فرسِ جبريلَ، وقد ذكرَ بعضُهم أنَّه رآه وكانَ كُلَّما وَطِئتْ بحوافرِها على موضعٍ اخضرَّ وأَعْشَبَ، فأخذَ من أثرِ حافرِها، فلمَّا ألقاه في هذا العجلِ المصنوعِ من الذَّهَبِ، كان من أمره ما كانَ، ولهذا قال: ﴿ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ وهذا

---

(١) صحيح: المسند (١/ ٢١٥) وهذا السند فيه هشيم مدلس وقد عنعن لكن الحديث مروي من رواية شعبة عن هشيم وشعبة لا يروي عن مدلس إلا بما سمع ويقال: أن هشيمًا لم يسمع هذا من أبي بشر. لكن تابع هشيمًا أبو عوانة: الوضاح اليشكري عند ابن حبان (٦٢١٤) والطبراني في «الكبير» (١٢٤٥١) وابن عدي (٧/ ١٣٦) وقد روي من طريق آخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس من رواية سريج بن يونس عنه رواها ابن عدي (نفس المصدر).

دعاءٌ عليه بأن لا يَمَسَّ أحدًا؛ معاقبةً له على مسِّه ما لم يكنْ له مسُّه. هذا معاقبةٌ له في الدُّنيا، ثم توعَّدَه في الأُخرَىٰ، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ وقُرِئَ: (لنْ نُخْلِفَهُ). ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ قال: فعمدَ موسىٰ عليه السلام إلىٰ هذا العجلِ فحرَّقَهُ، قيل: بالنارِ. كما قاله قتادة[1] وغيره. وقيل: بالمبارِد، كما قاله علي[2]، وابنُ عباسٍ[3] وغيرُهما. وهو نصُّ أهلِ الكتاب. ثم ذرَّاه في البحرِ، وأمرَ بني إسرائيلَ فشرِبُوا، فمَن كان من عابدِيه، علِقَ علىٰ شفاهِهم من ذلك الرَّمادِ منهُ ما يدلُّ عليه، وقيل: بلِ اصْفَرَّتْ ألوانُهم.

ثم قال تعالَى إخباراً عن موسى أنَّه قال لهم: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ وهكذا وقعَ، وقد قال بعضُ السَّلَفِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ مُسَجَّلةٌ لكلِّ صاحبِ بِدْعَةٍ إلىٰ يومِ القيامةِ. ثم أخبرَ تعالىٰ عن حلْمِه ورحمته بخلْقه، وإحسانه علىٰ عبيده، في قبولِه توبةَ مَنْ تابَ إليه، بتوبتِه عليه فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لكن لم يقبلِ اللَّهُ توبةَ عابِدي العجْلِ إلا بالقتْلِ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤]، فيُقالُ: إنَّهم أصبحوا يومًا، وقد أخذَ من لم يعْبُدِ العِجْلَ في أيديهِم السُّيوفَ، وألقَىٰ اللَّهُ عليهم ضبابًا، حتَّىٰ لا يعرفَ القريبُ قريبَهُ، ولا النَّسيبُ نسيبهُ، ثم مالُوا علىٰ عابِدِيه فقتلُوهم، وحصدُوهم. فيقالُ: إنهم قَتَلُوا في صبيحةٍ واحدةٍ سبعينَ ألفًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ استدلَّ بعضُهم بقوله: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ علىٰ أنها تكسَّرَتْ، وفي هذا الاستدلالِ نظَرٌ، وليس في اللَّفظِ ما يدلُّ علىٰ أنَّها تكسَّرَتْ، واللَّهُ أعلمُ. وقد ذكَر ابنُ عباسٍ في حديثِ الفتونِ، كما سيأتي، أنَّ عبادتَهم العجْلَ، كانت علىٰ أَثَرِ خُروجِهِم من البحرِ، وما هو ببعيدٍ؛ لأنَّهم حين خرجوا ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.

وهكذا عندَ أهلِ الكتابِ، فإنَّ عبادتَهم العجلَ كانت قبلَ مجيئهم بلادَ بيتِ المقدسِ، وكذلك أنَّهم لَمَّا أُمِروا بقتلِ مَنْ عبدَ العجلَ، قَتَلُوا في أولِ يومٍ ثلاثةَ آلافٍ. ثم ذهبَ موسىٰ يستغفِرُ لهم، فغُفِرَ لهم، بشرطِ أنْ يَدْخُلوا الأرضَ المقَدَّسَةَ.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا

---

(١) **صحيح الإسناد:** رواه ابن جرير (٩/ الجزء١٦/ ٢٠٨) بسند صحيح وعبد الرزاق (١٨٢٦) من رواية معمر عنه.

(٢) **أثر علي لم أقف عليه.**

(٣) **حسن إليه:** رواه ابن جرير «التاريخ» (١/ ٢٥٠ ـ ٢٥١) من رواية أسباط عن السدي عن عكرمة عنه ومن رواية ابن إسحاق عن حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عنه. وطريق السدي قوي.

وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (155) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥-١٥٧].

ذكر السُّدِّيُّ[(١)] ، وابنُ عباسٍ[(٢)] ، وغيرُهما أنَّ هؤلاءِ السَّبعينَ كانوا علماءَ بني إسرائيلَ، ومعهم موسىٰ، وهارونُ، ويوشَعُ، ونادابُ، وأبِيهُو، ذهبوا مع موسىٰ عليه السلام، لِيعْتَذِروا عن بني إسرائيلَ في عبادةِ من عبدَ منهم العجلَ، وكانوا قد أُمِرُوا أن يَتَطَيَّبُوا ويَتَطَهَّرُوا ويَغْتَسِلُوا، فلمَّا ذهبوا معه، واقتربُوا من الجبلِ وعليه الغمامُ، وعمودُ النُّورِ ساطعٌ، وصعدَ موسىٰ الجبلَ، فذكرَ بنو إسرائيلَ أنَّهم سمعوا كلامَ اللَّه، وهذا قد وافقَهم عليه طائفةٌ من المفسرينَ، وحملُوا عليه قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]، وليس هذا بلازم، لقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ أي: مُبلَّغًا، وهكذا هؤلاء سمعوهُ مُبلَّغًا من موسىٰ عليه السلامُ. وزَعموا أيضًا أنَّ السبعينَ رأوا اللَّهَ، وهذا غَلَطٌ منهم؛ لأنَّهم لمَّا سألوا الرؤيةَ أخذَتْهم الرَّجْفةُ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦]، وقال ههنا: ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾.

قال محمدُ بن إسحاق[(٣)] : اختار موسىٰ من بني إسرائيلَ سبعينَ رجلاً، الخيِّرَ فالخيِّرَ، وقال: انطلقُوا إلىٰ اللَّه، فتوبُوا إليه مما صَنَعْتُم، وسلُوه التوبةَ علىٰ مَنْ تركتُم وراءَكم من قومِكم، صومُوا وتَطَهَّرُوا، وطَهِّرُوا ثيابَكم. فخرجَ بهم إلىٰ طورِ سيناءَ لميقاتٍ وقَّتَهُ له ربُّه، وكان لا يأتيه إلا بإذنٍ منه، وعلمٍ، فطلبَ منه السَّبعونَ أن يسمعوا كلامَ اللَّهِ فقال: أفعلُ. فلمَّا دنا موسىٰ من الجبلِ وقَعَ عليه عمودُ الغَمَامِ، حتَّىٰ تَغَشَّىٰ الجبلَ كلَّهُ، ودنا موسىٰ فدخلَ في الغَمَامِ، وقال للقومِ: ادنوا. وكان موسىٰ إذا كلَّمَه اللَّهُ وقَع علىٰ جبهتِهِ نورٌ ساطعٌ، لا يستطيعُ أحدٌ من بني آدمَ أنْ يَنظُرَ إليه، فضُربَ دونَهُ بالحجابِ، ودنا القومُ، حتَّىٰ إذا دخلُوا في الغمامِ، وقَعُوا سُجُودًا، فسمعوهُ وهو يكلِّمُ موسىٰ، يأمُرُهُ وينْهاه؛ افعل. ولا تفعلْ. فلمَّا فرغَ اللَّهُ من أمرِهِ، وانكشفَ عن موسىٰ الغمامُ أقبلَ إليهم، قالوا لموسىٰ: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ فأخذتهُمُ الرَّجْفَةُ - وهي الصاعقةُ - فافتُلِتَتْ

---

(١) حسن: رواه ابن جرير (٦/ الجزء ٩/ ٧٢) من رواية أسباط عنه.
(٢) ابن جرير (٦/ ٩/ ٧٢) من رواية علي بن أبي طلحة عنه. وعلي لم يسمع من ابن عباس.
(٣) ضعيف الإسناد: ابن جرير (٦/ ٩/ ٧٢) فيه ابن حميد ضعيف.

أرواحُهم، فماتُوا جميعًا فقامَ مُوسى يُناشدُ ربَّهُ، ويدعُوه، ويرغَبُ إليهِ، ويقولُ: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ أي: لا تؤاخذنا بما فعلَ السُّفهاءُ الذين عبدوا العجلَ منَّا، فإنَّا برآءُ مما عَمِلوا. وقال ابنُ عباسٍ[١] ومجاهدٌ[٢]، وقتادةُ[٣]، وابنُ جُريجٍ[٤]: إنما أخذَتْهم الرجفةُ لأنَّهم لم ينْهَوا قومَهم عن عبادةِ العجلِ.

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ أي: اختبارُكَ، وابتلاؤك، وامتحانُك. قاله ابن عباسٍ[٥]، وسعيدُ ابنُ جبيرٍ[٦]، وأبو العاليةِ[٧]، والربيعُ بنُ أنسٍ[٨]، وغيرُ واحدٍ من علماءِ السَّلَفِ والخَلَفِ. يعني: أنتَ الذي قدَّرْتَ هذا، وخلقتَ ما كان من أمرِ العجلِ اختباراً تختبرُهم به، كما قال لهم هارونُ من قبل: ﴿يا قوم إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ أي: اختبرتم به، ولهذا قال: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ أي: من شئت أضللْتَه باختبارِك إياه، ومن شئتَ هديتَهُ، لك الحُكم والمشيئةُ، فلا مانعَ ولا رادَّ لما حكَمْتَ وقضَيْتَ. ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: تُبْنا إليك، ورجَعْنَا وأنبنَا. قاله ابنُ عباسٍ[٩] ومجاهدٌ[١٠]، وسعيدُ بنُ جبيرٍ[١١]، وأبو العاليةِ[١٢]، وإبراهيمُ التيميُّ[١٣]، والضحَّاكُ[١٤] والسُّدِّيُّ،[١٥] وقتادةُ،[١٦] وغيرُ واحدٍ، وهو كذلك في اللغةِ ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أنا أعذبُ من شئتُ بما أشاءُ من الأمورِ، التي أخلُقُها

---

(١) حسن: رواه ابن جرير (٦/ الجزء٩/ ٧٤) بسند حسن فيه سعيد بن حيان وثقه العجلي وابن حبان ورواه ابن أبي حاتم (٩٠٢٧) من طريق سعيد به.

(٢) ضعيف إليه: رواه ابن جرير (٦/ الجزء٩/ ٧٤) فيه أبو سعد روح بن جناح ضعيف.

(٣) حسن: رواه ابن جرير (٦/ الجزء٩/ ٧٤) بسند حسن من رواية سعيد عنه.

(٤) ضعيف إليه: رواه ابن جرير (٦/ الجزء٩/ ٧٤) فيه سُنيد الحسين ضعيف.

(٥) ضعيف إليه: رواه ابن جرير (٦/ الجزء٩/ ٧٧) وابن أبي حاتم (٩٠٣٠) كلاهما من طريق عبد الله بن صالح وعبد الله ضعيف عن علي بن أبي طلحة عنه وعلي لم يسمع من ابن عباس.

(٦) ضعيف إليه: رواه ابن جرير (٦/ الجزء ٩/ ٧٧) فيه ابن وكيع ويعقوب القمي.

(٧) ضعيف إليه: رواه ابن جرير (٦/ الجزء ٩/ ٧٧) من رواية أبي جعفر عن الربيع عنه وأبو جعفر روايته مضطربة في الربيع وكذلك فيه ابن وكيع.

(٨) ضعيف إليه: رواه ابن جرير (٦/ الجزء ٩/ ٧٧) وابن أبي حاتم (٩٠٣١) من رواية أبي جعفر عنه.

(٩) صحيح بمجموع طرقه: رواه ابن أبي حاتم (٩٠٤١) من رواية مجاهد عنه. رواه ابن جرير (٦/ الجزء٩/ ٧٨) من عدة طرق عنه. من طريق سعيد بن جبير عنه ومن طريق العوفي عنه ومن طريق الضحاك عنه ومن رواية سماك عنه ومن طريق علي بن أبي طلحة عنه.

(١٠) صحيح إليه: ابن جرير (٦/ الجزء٩/ ٧٨). من رواية ابن أبي نجيح عنه.

(١١) صحيح: رواه ابن جرير (٦/ الجزء٩/ ٧٨) رواه عنه من عدة طرق من رواية عطاء بن السائب عنه ومن رواية عبد الرحمن بن الأصبهاني عنه ومن رواية أبي جعفر عنه.

(١٢) ضعيف إليه: رواه ابن جرير (٦/ الجزء٩/ ٨٧) فيه ابن وكيع ومن رواية أبي جعفر عن الربيع عنه.

(١٣) صحيح إليه: رواه ابن جريج نفس المصدر بسند صحيح من رواية العوام بن حوشب عنه.

(١٤) حسن إليه: رواه ابن جرير (٦/ الجزء٩/ ٧٨) من رواية ابن وكيع من طريقين عنه. ومن طريق آخر منقطع قال: حدثت عن الحسين بن الفرج.

(١٥) حسن إليه: ابن جرير (٦/ الجزء٩/ ٧٩) بسند حسن من رواية أسباط عنه.

(١٦) صحيح: رواه ابن جرير (٦/ الجزء٩/ ٧٩) من طريق معمر وسعيد عنه.

وأقدَرُها، ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ كما ثبتَ في «الصحيحين»[١] عن رسول اللَّه ﷺ، أنَّه قال: «إنَّ اللَّه لمَّا فرَغَ من خلقِ السموات والأرضِ كَتَبَ كتابًا فهو موضوعٌ عندَهُ فَوقَ العرش: إنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: فسأُوجِبُها حتمًا لمَنْ يَتَّصِفُ بهذه الصِّفات ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾ الآية. وهذا فيه تَنْويهٌ بذكرِ محمدٍ ﷺ، وأُمَّتِه، من اللَّه تعالىٰ لموسىٰ عليه السلامُ، في جُملة ما ناجَاهُ به، وأعلَمَهُ وأطْلَعَهُ عليه. وقد تكلَّمْنا علىٰ هذه الآيةِ وما بعدَها في «التفسير»، بما فيه كفايةٌ ومَقْنَعٌ، وللَّه الحمدُ والمنَّةُ.

وقال قتادةُ[٢]: قال موسىٰ: يا ربِّ، أجِدُ في الألواحِ أُمَّةً خيرَ أمةٍ أخرجتْ للنَّاسِ، يأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عن المنكرِ، ربِّ اجعلْهُم أُمَّتِي. قال: تلك أُمَّةُ أحمدَ. قال: ربِّ إني أجدُ في الألواحِ أُمَّةً هم الآخرونَ في الخلقِ السابِقُونَ في دخولِ الجنَّةِ، ربِّ اجعَلْهم أُمَّتي. قال: تلك أمَّةُ أحمدَ. قال: ربِّ إني أجدُ في الألواحِ أُمَّةً أناجيلُهم في صُدورِهم، يقرءونها وكان من قَبْلَهُمْ يقرءون كتابَهم نَظَرًا، حتىٰ إذا رفعُوها لم يحفَظوا شيئًا، ولم يعرفُوه، وإنَّ اللَّهَ أعطاكم أيتُها الأمَّةُ من الحفظ شيئًا لم يُعْطِه أحدًا من الامم. قال: ربِّ اجعَلْهم أُمَّتي. قال: تلك أُمَّةُ أحمد. قال: ربِّ، إني أجدُ في الألواحِ أمةً يؤمِنُون بالكتابِ الأولِ، وبالكتابِ الآخرِ، ويقاتلُونَ فُضُولَ الضَّلالةِ، حتَّىٰ يُقاتلُوا الأعورَ الكذَّابَ، فاجْعلْهُم أُمَّتِي. قال: تلك أُمَّةُ أحمدَ. قال: ربِّ إنِّي أجدُ في الألواحِ أُمَّةً، صدَقاتُهم يأكُلُونها في بُطونهم، ويُؤجَرُون عليها، وكان من قَبلَهم إذا تصدَّقَ بصدقةٍ، فقُبِلتْ منه، بعثَ اللَّهُ عليها نارًا فأكلَتها، وإن رُدَّت عليها تُركتْ فتأكلُها السِّباعُ والطَّيرُ، وإنَّ اللَّهَ أخذَ صدقاتكم من غنيِّكم لفقيرِكم، قال: ربِّ فاجْعَلهُم أمَّتِي. قال: تلك أُمَّةُ أحمدَ. قال: ربِّ فإني أجدُ في الألواحِ أُمَّةً إذا همَّ أحدُهم بحَسَنةٍ، ثم لم يعملْها كُتبتْ له حسنةٌ، فإنْ عَملها كُتِبتْ له عشرَ أمثالِها، إلىٰ سبعمائة ضعفٍ، قال: ربِّ اجْعلْهم أُمَّتي. قال: تلك أُمَّةُ أحمدَ. قال: ربِّ إنِّي أجدُ في الألواحِ أمَّةً هم المُشفَّعُونَ، المشفوعُ لهم، فاجْعلْهم أمَّتي. قال: تلك أمَّةُ أحمدَ. قال قتادةُ: فذُكِرَ لنا أنَّ موسىٰ عليه السلامُ، نَبَذَ الألواحَ، وقال: اللَّهُمَّ اجعلْني من أمَّةِ أحمدَ. وقد ذَكَرَ كثيرٌ من الناسِ ما كان من مُناجاةِ موسىٰ عليه السلام، وأوردوا أشياءَ كثيرةً لا أصلَ لها، ونحن نَذكُرُ ما تَيَسَّرَ ذكرُه من الأحاديثِ والآثارِ، بعونِ اللَّه وتوفيقِه، وحُسْنِ هدايتِه ومَعُونَتِه وتأييدِه.

قال الحافظُ أبو حاتم، محمدُ بن حاتم بن حبَّانَ في «صحيحه»[٣]: ذِكرُ سؤالِ كليمِ اللَّه ربَّهُ عزَّ وجلَّ، عن أدنىٰ أهلِ الجنَّة وأرفعهم منزلةً: أخبرنا عمرُ بنُ سعيدٍ الطائيُّ بمَنْبِجٍ، حدَّثنا حامدُ بن يحيَىٰ البَلْخيُّ، حدثنا سُفيان، حدَّثنا مطرِّفُ بن طريفٍ، وعبدُالملك بنُ أبجرَ - شيخان صالحان -

---

(١) **متفق عليه**: البخاري (٧٤٠٤)، مسلم (٦٩٠٥).

(٢) **صحيح**: رواه عبد الرزاق (٩٣٩) عن معمر عنه ورواه ابن جرير (٦/ الجزء ٩/ ٦٥) من طريق سعيد عنه وسنده حسن ومن طريق معمر عنه. وابن أبي حاتم (٨٩٦٧) من طريق معمر عنه.

(٣) **صحيح**: ابن حبان (٦٢١٦) ترتيب ابن بلبان.

سمعنا الشَّعْبِيَّ يقولُ: سمعتُ المغيرةَ بنَ شُعْبَةَ يقولُ على المنبرِ، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ موسى عليه السلامُ سأل ربَّهُ عزَّ وجلَّ: أيُّ أهلِ الجنَّةِ أدنى منزلةً؟ فقال: رجلٌ يجيءُ بعدما يدخُلُ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، فيُقالُ: ادخُلِ الجنَّةَ. فيقولُ: كيفَ أدخُلُ الجنَّةَ وقد نزَلَ الناسُ منازلَهُمْ وأخَذُوا أخذاتِهم. فيُقالُ لَهُ: تَرْضَى أنْ يكونَ لكَ من الجنَّةِ مثلُ ما كان لملك من مُلوكِ الدُّنيا؟ فيقولُ: نعمْ، أي ربِّ. فيقال: لك هذا، ومثلُهُ، ومثلُهُ. فيقولُ: أيْ ربِّ رضيتُ. فيُقالُ: إنَّ لك هذا وعشرةَ أمثاله. فيقولُ: أي ربِّ، رضيتُ فيقال له: لك مع هذا ما اشتهَتْ نَفْسُكَ، ولَذَّتْ عينُكَ. وسألَ ربَّهُ: أيُّ أهلِ الجنَّةِ أرفَعُ منزلةً؟ قال: سأُحَدِّثُكَ عنهم، غرَسْتُ كرامتَهُم بيدي، وختمْتُ عليها، فلا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بَشَرٍ» ومصداقُ ذلك في كتابِ اللَّهِ تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية [السجدة: ١٧]، وهكذا رواهُ مسلمٌ[1]، والترمذيُّ، كلاهما عن ابن أبي عُمَرَ، عن سُفيانَ، وهو ابنُ عُيَيْنَةَ به، ولفظُ مسلمٍ: «فيُقالُ له: أتَرْضَى أنْ يكونَ لك مثلُ مُلْك ملك من مُلُوكِ الدُّنيا؟ فيقولُ: رضيتُ ربِّ. فيقُولُ: لك ذلك ومثلُهُ ومثلُهُ ومثلُه ومثلُهُ. فيقولُ في الخامسةِ: رضيتُ ربِّ. فيقولُ: هذا لكَ وعشَرَةُ أمثاله، ولك ما اشتهتْ نَفْسُكَ، ولَذَّتْ عَيْنُكَ. فيقُولُ: رضيتُ ربِّ. قال: ربِّ، فأعلاهُمْ منزلَةً؟ قال: أولئكَ الذين أردْتُ غَرَسْتُ كرامَتَهُمْ بِيَدي، وختَمْتُ عليها، فَلَمْ تَرَ عينٌ، ولم تَسْمَعْ أُذُنٌ، ولم يَخْطُرْ على قلبِ بشَرٍ» قال: ومصداقُه من كتابِ اللَّهِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وقال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ. قال: ورواهُ بعضُهُم عن الشَّعبيِّ، عن المُغيرةِ، فلم يرفَعْه، والمرفوعُ أصحُّ.

وقال ابنُ حبَّانَ[2]: ذكرُ سؤالِ الكليمِ ربَّهُ عن خصالٍ سبعٍ؛ حدَّثَنا عبدُاللَّه بن محمدِ بن سَلْمٍ، ببيْتِ المقدسِ، حدَّثَنا حَرْمَلَةُ بنُ يحيَى، حدَّثَنا ابنُ وَهْبٍ، أخبرني عمرُو بنُ الحارثِ، أنَّ أبا السمحِ حدَّثَهُ عن ابنِ حُجَيْرةَ، عن أبي هُريرةَ، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «سألَ مُوسَى ربَّهُ عزَّ وجلَّ عن ستِّ خصالٍ، كان يظُنُّ أنَّها له خالصَةٌ، والسابعةُ لمْ يَكُنْ موسَى يُحبُّها؛ قال: يا ربِّ، أيُّ عبادِكَ أتْقَى؟ قال: الذي يَذْكُرُ ولا يَنْسَى. قال: فأيُّ عبادِكَ أهدَى؟ قال: الذي يتَّبِعُ الهُدَى. قال: فأيُّ عبادِكَ أحكَمُ؟ قال: الذي يحكُمُ للناسِ كما يحكُمُ لنَفْسِه. قال: فأيُّ عبادِكَ أعْلَمُ؟ قال: عالمٌ لا يشبَعُ من العلمِ، يجمعُ علمَ الناسِ إلى علمِه. قال: فأيُّ عبادِكَ أعزُّ؟ قال: الذي إذا قَدَرَ غَفَرَ. قال: فأيُّ عبادِكَ أغنَى؟ قال: الذي يرْضَى بما يُؤْتَى. قال: فأيُّ عبادِكَ أفقَرُ؟ قال: صاحبٌ منقُوصٌ» قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «ليسَ الغنَى عن ظهرٍ، إنَّما الغنَى غنَى النَّفْسِ، وإذا أرادَ اللَّهُ بعبدٍ خيراً جعلَ غناهُ في نفسِه، وتُقاهُ في قَلْبِه، وإذا أرادَ بعبدٍ شراً، جعلَ فَقْرَهُ بينَ عَيْنَيْه».

قال ابنُ حبَّانَ: قولُهُ: صاحبٌ منقوصٌ، يريدُ به منقوصَ حالتِه، يستَقِلُّ ما أُوتِيَ، ويطْلُبُ

---

(١) **صحيح**: مسلم (٤٦٤)، الترمذي (٣١٩٨).

(٢) **حسن**: بطريقين ابن حبان (٦٢١٧). هذا الطريق فيه دراج بن سمعان متكلم فيه ويجبره الطريق التالي.

الفضلَ.

وقد رواهُ ابن جريرٍ[١] في «تاريخه»، عن ابنِ حُميدٍ، عن يعقوبَ القُمّيِّ، عن هارونَ بن عنترةَ، عن أبيه، عن ابن عباسٍ، قال: سألَ موسى ربَّهُ عزَّ وجلَّ، فذكر نحوهُ، وفيه: «**أيْ ربِّ، فأيُّ عبادكَ أعلمُ؟ قال: الذي يبتَغِي علمَ الناسِ إلى علمه، عسى أن يُصيبَ كلمةً تهديه إلى هُدًى، أو تَرُدُّهُ عن رَدًى. قال: أي ربِّ، فهل في الأرضِ أحدٌ أعلمُ مِنِّي؟ قال: نَعَمْ، الخَضِرُ**». فسألَ السبيلَ إليه. فكان ما سنذكُرُه بعدُ إنْ شاءَ اللَّهُ تعالى، وبه الثقةُ.

ذكر حديثٍ آخر بمعنى ما ذكرهُ ابن حبان

قال الإمامُ أحمدُ[٢]: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدَّثنا ابنُ لهيعةَ، عن درَّاجٍ، عن أبي الهيثمِ، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ، أنَّهُ قال: «**إنَّ موسى قال: أي ربِّ عبدُكَ المؤمنُ مُقتَّرٌ عليه في الدُّنيا. قال: فَفُتِحَ له بابٌ من الجنَّة، فنظَرَ إليها، قال: يا موسى، هذا ما أعدَدْتُ له. فقالَ موسى: يا ربِّ، وعزَّتِكَ وجلالكَ، لو كانَ أقطعَ اليدينِ والرِّجْلَيْنِ، يُسْحَبُ على وجهه منذُ يوم خلقْتَهُ إلى يومِ القيامة وكانَ هذا مصيرَهُ، لم يَرَ بُؤْسًا قطُّ. قال: ثم قال: أيْ ربِّ، عبدُكَ الكافرُ مُوَسَّعٌ عليه في الدُّنيا. قال: فَفُتِحَ له بابٌ إلى النار، فيقولُ: يا موسى هذا ما أعدَدْتُ له. فقال: أي ربِّ، وعزَّتِكَ وجلالكَ، لو كانت له الدُّنيا منذُ يومَ خَلَقْتَهُ إلى يومِ القيامَةِ وكان هذا مصيرَهُ لم يَرَ خيراً قطُّ**» تفرَّدَ به أحمدُ من هذا الوجهِ. وفي صحَّتِهِ نظرٌ، واللَّهُ أعلمُ.

وقال ابنُ حبان[٣]: ذكرُ سؤالِ كليمِ اللَّهِ ربَّهُ جلَّ وعلا أنْ يُعلِّمَهُ شيئًا يذكرُهُ به: حدَّثنا ابنُ سَلْمٍ، حدَّثنا حرمَلَةُ بن يحيى، حدَّثنا ابنُ وهبٍ، أخبرَنِي عمرُو بن الحارثِ، أنَّ درَّاجًا حدَّثَهُ، عن أبي الهَيْثَمِ، عن أبي سعيدٍ، عن النَّبيِّ ﷺ، أنَّهُ قال: «**قال موسَى: يا ربِّ، علِّمْني شيئًا أذكُرُكَ به، وأدعُوكَ به. قال: قُلْ يا موسَى: لا إلهَ إلا اللَّهُ. قال: يا ربِّ، كلُّ عبادكَ يقولُ هذا. قال: قُلْ: لا إله إلا اللَّهُ. قال: إنما أُريدُ شيئًا تَخُصُّنِي به. قال: يا موسَى، لو أنَّ أهلَ السمواتِ السَّبْعِ، والأرَضينَ السبعِ في كفَّة، ولا إلهَ إلا اللَّهُ في كفَّة مالتْ بهم لا إلهَ إلا اللَّهُ**» ويَشْهَدُ لهذا الحديثِ حديثُ البِطاقةِ[٤]. وأقربُ شَيءٍ إلى معناهُ، الحديثُ المرويُّ في «السُّنَنِ»[٥]، عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قال: «**أفضلُ الدعاءِ، دعاءُ عَرَفَةَ، وأفضلُ ما قُلتُ أنا والنَّبيُّونَ مِنْ قَبلِي: لا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ**».

---

(١) **حسن**: ابن جرير في «التاريخ» (١/ ٢٢٣) وفيه ابن حميد ضعيف. ويعقوب القمي كذلك. لكن ذلك شاهد لما قبله.

(٢) **ضعيف الإسناد**: المسند (٣/ ٨١) فيه ابن لهيعة ودراج عن أبي الهيثم ضعيف.

(٣) معناه صحيح والسند ضعيف: ابن حبان (٦٢١٨) شطر الحديث الأول يشهد له: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي....» كما قال الحافظ وسيأتي تخريجه. والشطر الثاني حديث البطاقة. كذلك وصية نوح لابنه وهو صحيح وبنفس اللفظ تقريبًا وقد مضى في وصية نوح.

(٤) **صحيح**: رواه أحمد (٢/ ٢١٣) والترمذي (٢٦٣٩) وابن ماجه (٤٣٠٠) كلهم من رواية عبد اللَّه بن عمرو بن العاص.

(٥) **صحيح بمجموع الطرق**: سنن الترمذي (٣٥٨٥) من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وفيه حماد بن أبي حميد قال الترمذي: ليس بالقوي عند أهل الحديث. ورواه مالك (١/ ١٨٨) من مرسل طلحة بن عبيد بن كريز بسند صحيح عنه.

وقال ابنُ أبي حاتم[١] ، **عندَ تفسيرِ آية الكرسيِّ**: حدَّثنا أحمدُ بن القاسم بنِ عَطِيَّةَ، حدَّثنا أحمدُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ الدَّشْتَكيُّ، حدَّثني أبي، عَن أَبيه، حدَّثنا أشعثُ بنُ إسحاقَ، عن جعفرِ بنِ أبي المغيرةِ، عن سعيدِ بن جُبيرٍ، عن ابنِ عباسٍ، أنَّ بني إسرائيلَ قالوا لموسىٰ: هل ينامُ ربُّكَ؟ قال: اتَّقُوا اللَّهَ. فناداهُ ربُّهُ: يا موسىٰ، سألُوكَ هل ينامُ ربُّكَ، فخُذْ زُجاجَتَيْنِ في يَدَيْكَ، فقُمِ اللَّيْلَ، ففعلَ موسىٰ، فلما ذهبَ من الليلِ ثُلُثٌ، نَعَسَ، فوقَعَ لرُكْبتَيْهِ، ثم انتعَشَ، فضَبَطَهما، حتَّىٰ إذا كان آخرُ الليلِ نَعَسَ فسَقَطَتِ الزُّجاجتانِ، فانكَسَرَتا فقال: يا موسىٰ، لو كنتُ أنامُ، لسَقَطَتِ السَّمواتُ والأرضُ، فَهلَكْنَ كما هَلَكَتِ الزُّجاجتانِ في يديْكَ. قال: وأنزلَ اللَّهُ علىٰ رسولِهِ آيةَ الكُرْسِيِّ.

وقال ابنُ جرير[٢] : حدَّثنا إسحاقُ بنُ أبي إسرائيلَ، حدَّثنا هشامُ بنُ يوسُفَ، عن أُمَيَّةَ بنِ شبلٍ، عن الحَكَمِ بن أبانَ، عن عِكْرِمَةَ، عن أبي هُريرةَ، قال سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يحكِي عن موسىٰ عليه السلامُ، علىٰ المنبرِ، قال: «**وقَعَ في نفسِ موسى عليه السلامُ: هل ينامُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ؟ فأرسَلَ اللَّهُ إليه ملكًا فأرَّقَهُ ثلاثًا، ثُمَّ أعطاهُ قارُورتَيْنِ، في كلِّ يد قارُورةٌ، وأمرَهُ أنْ يحتَفظَ بهما. قال: فجعلَ ينامُ، وكادت يداه تلتقيان فيستَيقظُ، فيَحْبسُ إحداهما على الأخرَى، حتَّى نامَ نومةً فاصطَفَقَتْ يداهُ، فانكَسَرَت القارُورَتان**» قال: ضربَ اللَّهُ له مثلاً، أنْ لو كان ينامُ، لم تَسْتَمْسِكِ السماءُ والأرضُ، وهذا حديثٌ غريبٌ رفْعُهُ، والأشْبَهُ أنْ يكون موقوفًا، وأنْ يكونَ أصلُهُ إسرائيليًا.

وقال اللَّهُ تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [البقرة: ٦٣، ٦٤] وقال تعالىٰ: ﴿**وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧١] قال ابنُ عبَّاسٍ[٣] ، وغيرُ واحدٍ من السَّلَفِ: لَمَّا جاءَهم موسىٰ بالألواحِ فيها التوراةُ، أمرَهم بقبولِها، والأخذ بها بقوةٍ وعزمٍ، فقالوا: انشُرْها علينا، فإنْ كانت أوامرُها ونواهيها سَهْلَةً قبِلْناها. فقال: بل اقْبَلُوها بما فيها. فراجعوه مرارًا، فأمرَ اللَّهُ الملائكةَ، فرفعوا الجبلَ علىٰ رءوسهم حتىٰ صارَ كأنَّهُ ظُلَّةٌ، أي: غمامةٌ علىٰ رءوسِهِم، وقيلَ لهم: إنْ لم تَقْبلُوها بما فيها، وإلا سقَطَ هذا الجبلُ عليكم. فقَبِلوا ذلك، وأُمِرُوا بالسجودِ فسجدوا، فجعلوا ينظُرُون إلىٰ الجبلِ بشِقِّ وجُوهِهم فصارتْ سُنَّةً لليهودِ إلىٰ اليومِ، يقولون: لا سجدةَ أعظمُ من سجدةٍ رَفَعتْ عنَّا العذابَ.

وقال سُنَيْد بن داود[٤] ، عن حجاجِ بن محمدٍ، عن أبي بكرِ بن عبدِاللَّهِ، قال: فلمَّا نَشَرَها لم

---

(١) **حسن**: رواه ابن أبي حاتم (٢٥٨٠) من رواية سعيد بن جبير وروى عبد الرزاق نحوه من رواية عكرمة عن ابن عباس (٣٢١) من طريق عبد الرزاق رواه ابن جرير (٣/ الجزء٣/ ٨).

(٢) **لا يصح مرفوعًا**: ابن جرير (٣/ الجزء٣/ ٨) وفيه أمية بن شبل خالفه معمر كما سبق فرواه عن الحكم عن عكرمة عن ابن عباس موقوفًا.

(٣) **صحيح**: رواه ابن جرير (٦/ الجزء٩/ ١٠٨ ـ ١٠٩) من رواية الشعبي عنه ومن رواية العوفي عنه ومن رواية علي بن أبي طلحة عنه.

(٤) **ضعيف**: ابن جرير (٣/ الجزء٣/ ٨) وفيه سنيد ضعيف.

يبقَ علىٰ وجهِ الأرضِ جبلٌ، ولا شجرٌ، ولا حجرٌ إلا اهتزَّ، فليس علىٰ وجهِ الأرضِ يهوديٌّ صغيرٌ ولا كبيرٌ تُقرأ عليه التوراةُ إلا اهتزَّ، ونفضَ لها رأسَهُ.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: ثم بعدَ مشاهدةِ هذا الميثاقِ العظيمِ، والأمرِ الجسيمِ نَكَثْتُم عهودَكم ومواثيقَكم، ﴿فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بأن تدارَكَكم بالإرسالِ إليكم، وإنزالِ الكتابِ عليكم ﴿لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

قصة بقرة بني إسرائيل

قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧٣].

قال ابنُ عباس[١] وعَبيدةُ السلمَانيُّ[٢]، وأبو العالية،[٣] ومُجاهدٌ[٤] والسُّدِّيُّ[٥]، وغيرُ واحدٍ[٦] من السَّلَف: كانَ رجلٌ في بني إسرائيلَ كثيرَ المَالِ، وكان شيخًا كبيرًا وله بنو أخٍ، وكانوا يتمنَّوْن موتَهُ؛ ليرِثُوه، فَعمدَ أحدُهم فَقَتَلَهُ في الليلِ، وطَرَحَهُ في مَجْمَعِ الطرقِ، ويُقال: علىٰ بابِ رجلٍ منهم. فلمَّا أصبحَ الناسُ، اختَصَمُوا فيه، وجاءَ ابنُ أخيه، فجعلَ يصرُخُ ويَتَظَلَّمُ، فقالوا: ما لكم تختَصِمُون ولا تأتونَ نبيَّ اللَّهِ، فجاءَ ابنُ أخيه، فشكَىٰ أمرَ عمِّهِ إلىٰ رسولِ اللَّهِ موسَىٰ ﷺ، فقال موسىٰ عليه السلام: أنشُدُ اللَّهَ رجلاً عندهُ علمٌ مِنْ أمرِ هذا القتيلِ إلا أعلَمَنا به. فلم يكنْ عندَ أحدٍ منهم علمٌ، وسألُوه أن يسألَ في هذه القضيةِ ربَّهُ عزَّ وجلَّ، فسألَ ربَّه عزَّ وجلَّ في ذلك فأمرَهُ اللَّهُ أن يأمُرَهم بذبحِ بقرةٍ، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ يعنون؛ نحن نسألُك عن أمرِ هذا القتيلِ، وأنت تقولُ هذا، ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: أعوذُ باللَّهِ أن أقولَ عنه غير ما أَوحَىٰ إليَّ. وهذا هو الذي أجابَنِي حين سألتُهُ عمَّا سألْتُمُونِي عنه أن أسألهُ فيه.

قال ابنُ عباسٍ، وعَبيدَةُ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، والسُّدِّيُّ، وأبو العاليةِ، وغيرُ[٧] واحدٍ: فلو

---

(١) ضعيف: من رواية العوفي عنه. (٢) صحيح: من رواية أيوب عن ابن سيرين عنه.

(٣) ضعيف: من رواية أبي جعفر عن الربيع عنه وأبو جعفر ضعيف في الربيع.

(٤) صحيح: من رواية خالد بن يزيد عنه وكذلك من رواية ابن جريج عنه. (٥) حسن: من رواية أسباط عنه.

(٦) روى جميعها ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٣٣٧ إلى ٣٤٠).

(٧) ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٣٤٧ - ٣٤٨) بنفس الأسانيد السابقة إلا أثر ابن عباس فرواه من طريقين آخرين من طريق سعيد بن جبير ورجاله ثقات ومن طريق أبي بكر بن عياش عنه وهذا منقطع.

أنَّهم عَمَدُوا إلى أيِّ بقرةٍ فذبحُوها لحصلَ المقصودُ منها، ولكنَّهم شَدَّدُوا فشَدَّدَ اللَّهُ عليهم.

وقد وردَ فيه حديثٌ مرفوعٌ(١)، وفي إسناده ضعفٌ، فسألُوا عن صفتها، ثُمَّ عن لَوْنها، ثم عن سِنِّها فأُجيبُوا بما عَزَّ وُجُودُه عليهم، وقد ذكرْنا تَفْسيرَ ذلك كلِّه في «التفسيرِ».

والمقصود أنهم أُمرُوا بذبح بقرةٍ عَوانٍ، وهي الوَسَطُ بينَ النِّصْفِ الفارضِ - وهي الكبيرة - والبِكْرِ - وهي الصغيرة. قاله ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وأبو العالية، وعِكْرِمَةُ، والحسنُ، وقتادَةُ، وجماعةٌ. ثم شَدَّدُوا، وضَيَّقُوا على أنفسهم، فسألوا عن لونها، فأُمرُوا بصَفْراءَ فاقعٌ لونُها، أيْ مُشْرَبٌ بحُمْرةٍ، تَسُرُّ النَّاظرينَ، وهذا اللونُ عزيزٌ. ثم شَدَّدُوا أيضًا فقالوا: ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ في الحديث المرفوع، الذي رواهُ ابنُ أبي حاتمٍ(٢)، وابن مَرْدَوَيْهِ: «لولا أنَّ بني إسرائيلَ استَثْنَوْا لَمَا أُعْطُوا» وفي صحتِه نَظَرٌ. واللَّهُ أعْلَمُ.

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ وهذه الصفاتُ أضيقُ مِمَّا تَقَدَّمَ، حيثُ أُمِرُوا بذبح بقرةٍ ليستْ بالذَّلُولِ؛ وهي المُذَلَّلَةُ بالحِراثَةِ وسَقْي الارضِ بالسَّانِيَةِ، مُسَلَّمَةٍ؛ وهي الصحيحة التي لا عيبَ فيها. قاله أبو العالية(٣)، وقتادةُ(٤).

وقولُهُ: ﴿ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي: ليس فيها لَوْنٌ يخالفُ لونَها، بل هي مُسَلَّمَةٌ من العُيوبِ، ومن مخالطةِ سائرِ الألوانِ غيرَ لونها، فلمَّا حدَّدَها بهذه الصفاتِ، وحَصَرَها بهذه النُّعوتِ والأوصافِ ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ ويُقالُ: إنَّهم لم يَجِدُوا هذه البقرةَ بهذه الصفة إلا عندَ رجلٍ منهم، كان بارًّا بأبيه، فَطَلَبُوها منه، فأبى عليهم، فأَرْغَبُوه في ثمنها، حتَّى أعطَوْهُ فيما ذكره السُّدِّيُّ - بوزنها ذهبًا، فأبى عليهم، حتَّى أعطَوْه بوزنها عشرَ مرَّاتٍ، فباعَها منهم، فأمرَهم نبيُّ اللَّهِ موسى بذَبْحِها ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي: وهم يَتَرَدَّدُونَ في أمرِها. ثم أمرَهم عن اللَّهِ أن يضربُوا ذلك القتيلَ ببعضِها، قيلَ: بلَحْمِ فَخِذِها. وقيلَ: بالعظمِ الذي يَلِي الغُضْرُوفَ. وقيلَ: بالبِضْعَةِ التي بين الكَتِفَيْنِ، فلمَّا ضربُوه ببعضِها، أحياهُ اللَّهُ تعالى، فقامَ وهو تَشْخَبُ أوداجُهُ، فسألَهُ نبيُّ اللَّهِ: من قَتَلَكَ؟ قال: قَتَلَنِي ابنُ أخي. ثم عادَ مَيِّتًا كما كانَ.

قال اللَّهُ تعالَى: ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي: كما شاهَدْتُم إحياءَ هذا القتيلِ، عن أمرِ اللَّهِ له، كذلك أمرُه في سائرِ الموتى، إذا شاء أحياهم في ساعةٍ واحدةٍ، كما قال: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ الآية [لقمان: ٢٨].

---

(١) مرسل: رواه ابن جرير المصدر السابق مرسلاً من مرسل ابن جريج ومن مرسل قتادة وسنده حسن إلى قتادة.

(٢) ضعيف: ابن أبي حاتم (٧٢٢) من رواية أحمد بن داود الحداد عن سرور بن المغيرة والحداد يروي الغرائب عن سرور، وسرور متكلم فيه، وفيه عباد بن منصور تغير بآخره عن الحسن عن أبي رافع والحسن كثير التدليس والإرسال وقد عنعن.

(٣) ضعيف الإسناد: رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٣٥٢) فيه أبو جعفر عيسى بن ماهان عن الربيع عنه.

(٤) صحيح: رواه ابن جرير نفس المصدر من رواية سعيد ومعمر عنه، وعبد الرزاق (٦٩).

قصة موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام

قال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٠-٨٢].

قال بعضُ أهـل الكتاب: إنَّ موسى هذا الذي رَحَلَ إلى الخَضِرِ هو موسى بنُ ميشا بن يوسفَ بن يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ الخليل. وتابَعَهم على ذلك بعضُ من يأخذُ من صُحُفِهم، وينقُلُ عن كُتُبِهم، منهم نوفُ بن فَضَالَةَ الحِمْيَريُّ الشاميُّ البِكَاليُّ، ويُقال: إنه دِمَشْقيٌّ. وكانت أمُّه زوجةَ كعب الأحبارِ. والصحيحُ الذي دلَّ عليه ظاهر سياقِ القرآن، ونصُّ الحديثِ الصحيحِ الصريحِ المتفق عليه أنَّهُ موسى بنُ عمرانَ، صاحبُ بني إسرائيلَ.

قـال البخـاري[(١)]: حدَّثنا الحميديُّ، حدَّثنا سفيانُ، حدَّثنا عمرُو بنُ دينارٍ، أخبرني سعيدُ بن جُبيرٍ، قال: قلتُ لابنِ عباسٍ: إنَّ نوفًا البِكاليَّ يزعُمُ أنَّ موسَى صاحبَ الخَضِرِ ليس هو موسى

(١) **صحيح:** البخاري (٤٧٢٥).

صاحبَ بني إسرائيلَ. قال ابنُ عباسٍ: كَذَبَ عَدُوّ اللَّه؛ حدثَنا أُبيُّ بنُ كعبٍ، أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ موسَى قامَ خطيبًا في بَنِي إسرائيلَ، فسُئِلَ: أيُّ الناسِ أعلمُ؟ فقال: أنا. فعتَبَ اللَّهُ عليه؛ إذْ لم يَرُدَّ العلمَ إليه، فأوْحَى اللَّهُ إليه: إنَّ عبدًا بمجْمَعِ البَحْرَيْنِ، هو أعلمُ منكَ. قال موسى: يا ربِّ وكيف لي به؟ قال: تأخذُ معكَ حُوتًا فتَجْعَلُهُ في مِكْتَلٍ فحيثُما فَقَدْتَ الحوتَ فهو ثَمَّ. فأخذَ حُوتًا فجعَلَهُ بمِكْتَلٍ، ثم انطَلَقَ، وانطَلَقَ معهُ فتاهُ يُوشَعُ بنُ نونٍ، حتَّى إذا أتيا الصَّخْرةَ وَضَعا رُءُوسَهُما فناما، واضطربَ الحوتُ في المِكْتَلِ، فخرجَ منهُ فسَقطَ في البَحرِ، واتَّخَذَ سبيلَهُ في البحرِ سَرَبًا، وأمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الحوتِ جَرْيَةَ الماءِ، فصارَ عليه مثلُ الطاقِ، فلمَّا استيْقَظَ نَسِيَ صاحبُهُ أنْ يُخْبِرَهُ بالحوتِ، فانْطَلَقَا بقيَّةَ يومِهما ولَيْلَتَهما، حتَّى إذا كان من الغَدِ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ولمْ يجدْ موسى النَّصَبَ حتَّى جاوزَ المكانَ الذي أمرَهُ اللَّهُ به ﴿قَالَ﴾ له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: فكان للحوتِ سَرَبًا، ولِمُوسَى ولفتاهُ عَجَبًا ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قال: فرجَعَا يَقُصَّانِ أثَرَهُما، حتَّى انتهَيا إلى الصَّخْرَةِ، فإذا رجُلٌ مُسَجًّى بثوبٍ، فسلَّم عليه موسَى، فقالَ الخَضرُ: وأنَّى بأرضِكَ السلامُ. قال: أنَا مُوسَى. قال: مُوسَى بني إسرائيلَ؟ قال: نَعَمْ، أتيتُكَ لتُعَلِّمَني ممَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يا موسى، إني على علمٍ من علمِ اللَّه علَّمَنِيه اللَّهُ لا تَعْلَمُهُ أنتَ، وأنتَ على علمٍ من علمِ اللَّه علَّمَكَهُ اللَّهُ لا أَعْلَمُهُ. فقالَ موسَى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال له الخَضرُ: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فانطَلَقا يمشيان على ساحلِ البحرِ، فمرَّتْ سفينةٌ، فكَلَّمُوهم أن يحْمِلُوهم، فعرَفُوا الخَضرَ، فحَمَلُوهم بغيرِ نَوْلٍ، فلمَّا رَكِبَا في السَّفينَةِ لم يَفْجَأ إلا والخَضرُ قد قَلَعَ لَوْحًا من ألواحِ السَّفينَةِ بالقَدُومِ، فقالَ له موسَى: قومٌ حَمَلُونَا بغيرِ نولٍ، عَمَدْتَ إلى سفينتهمْ فَخَرَقْتَهَا ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ قال: وقالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «وكانت الأولَى من موسَى نسيانًا. قال: وجاءَ عُصفورٌ فوَقَعَ على حرفِ السَّفينَةِ، فنقَرَ في البحرِ نَقْرَةً، فقالَ له الخَضرُ: ما علْمي وعلْمُكَ في علمِ اللَّه إلا مثلُ ما نَقَصَ هذا العُصْفُورُ من هذا البحرِ. ثُمَّ خرجَا من السَّفينةِ، فبَيْنَمَا هُما يَمْشيان علَى السَّاحلِ إذْ أبصرَ الخَضرُ غُلامًا يَلْعَبُ مع الغِلْمَانِ فأخذَ الخَضرُ رأسَهُ بيَدِه، فاقْتَلَعَهُ بيده فقَتَلَهُ، فقالَ له موسَى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قال: وهذه أشدُّ من الأولى ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ قال: مائلٌ. فقال الخضر بيده ﴿فَأَقَامَهُ﴾ فقال موسى: قومٌ أتَيْنَاهُم فلم يُطعِمُونا، ولم يُضَيِّفُونا ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾» قال رسولُ اللَّه ﷺ: «وَدِدْنَا أنَّ موسى كان صَبَرَ،

حتَّى يَقُصَّ اللَّهُ علينا من خبرِهما» قال سعيدُ بن جُبيرٍ: فكان ابنُ عبَّاسٍ يقرأ: (وكانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يأخُذُ كلّ سَفِينةٍ صالحَةٍ غَصْبًا)، وكان يَقْرأُ: (وأَمَّا الغُلامُ فَكَانَ كافراً وكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ).

ثم رواه البخاري[١] **أيضًا** عن قُتَيْبَةَ عن سفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، بإسناده نحوه، وفيه: «**فخرجَ موسَى ومعهُ فَتَاهُ يوشعُ بنُ نون، ومعهُما الحُوتُ، حتَّى انتهَيا إلى الصَّخْرَة، فَنَزَلا عندَهَا. قال: فوَضَعَ موسَى رأسَهُ فنَامَ**» قال سُفيانُ: وفي حديثِ غيرِ عمرو قال: «**وفي أصلِ الصَّخْرَةِ عينٌ يُقالُ لها: الحياةُ، لا يُصيبُ من مائها شيءٌ إلا حَيِيَ، فأصابَ الحوتُ من ماء تلكَ العينِ، قال: فتَحرَّكَ، وانْسَلَّ من المكْتَلِ، ودَخَلَ البحْرَ، فلمَّا استَيْقَظَ قالَ موسَى لفتاهُ: آتنا غداءَنَا**» كذا قال. وساقَ الحديثَ، وقال: «**ووَقَعَ عُصْفُورٌ على حرف السَّفِينَة فغَمَسَ مِنْقَارَهُ في البحر، فقالَ الخَضِرُ لموسَى: ما علْمِي وعلْمُكَ وعِلمُ الخلائق، في علمِ اللَّه إلا مقدَارُ ما غَمَسَ هذا العُصْفُورُ مِنْقارَهُ**» وذكرَ تمامَ الحديث.

وقَالَ البُخاري[٢]: حدَّثنا إبراهيمُ بنُ موسىٰ، حدَّثنا هشام بن يوسفَ، أنَّ ابنَ جُريجٍ أخبرَهم، قال: أخبرني يعْلَىٰ بن مُسلمٍ، وعمرُو بنُ دينارٍ، عن سعيدِ بن جُبيرٍ - يزيدُ أحدُهما علىٰ صاحبِهِ، وغيرُهما قد سمعتُهُ يُحدِّثُه عن سعيدِ بن جُبيرٍ - قال: إنَّا لعندَ ابنِ عباسٍ في بيتِه، إذْ قال: سَلُوني. فقلتُ: أي أبا عباسٍ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِداكَ، بالكوفَةِ رجلٌ قاصٌّ يُقالُ له نَوْفٌ. يزعُمُ أنَّه ليس بموسىٰ بني إسرائيلَ. أمَّا عمرٌو فقال لي: قال: قد كذَبَ عدُوُّ اللَّه. وأمّا يعلَىٰ، فقال لي: قال ابنُ عباسٍ: حدَّثَنِي أبيُّ بنُ كعبٍ قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**موسَى رسولُ اللَّه، قال: ذكَّرَ الناسَ يومًا، حتَّى إذا فاضَت العيونُ ورَقَّت القُلوبُ، ولَّى، فأدْرَكَهُ رجلٌ، فقال: أيْ رسولَ اللَّه، هلْ في الأرضِ أحدٌ أعلمُ منكَ؟ قال: لا. فعتَبَ اللَّهُ عليه؛ إذ لم يرُدَّ العلمَ إلى اللَّه. قيلَ: بلَى. قال: أي ربِّ، فأينَ؟ قال: بمجمعِ البَحْرين. قالَ: أيْ ربِّ اجْعَلْ لي عَلَمًا أعلَمُ ذلكَ به.** قالَ لي عمرٌو: **قال: حيثُ يُفارِقُكَ الحوتُ.** وقال لي يَعْلَىٰ: **قال: خُذْ حُوتًا مَيِّتًا، حيثُ يُنْفَخُ فيه الرُّوحُ، فأَخَذَ حُوتًا فجعلَهُ في مِكْتَلٍ، فقالَ لفَتَاهُ: لا أُكَلِّفُكَ إلا أن تُخْبِرَنِي بحيثُ يُفارِقُكَ الحُوتُ. قالَ: ما كَلَّفْتَ كبيرًا. فذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾** يوشَعَ بنِ نونٍ - ليست عن سعيد بن جُبيرٍ - قال: «**فبينما هو في ظلِّ صخرة، في مكان ثَرْيَانَ؛ إذْ تَضَرَّبَ الحوتُ، ومُوسَى نائمٌ، فقالَ فتاهُ: لا أُوقظُهُ. حتَّى إذا استَيْقَظَ، نَسيَ أنْ يُخْبِرَهُ، وتَضَرَّبَ الحوتُ حتَّى دَخَلَ البحرَ، فأمْسَكَ اللَّهُ عنهُ جِرْيَةَ البَحْرِ، حتَّى كأنَّ أَثَرَهُ في حَجَرٍ**» قال لي عمرٌو: «هكذا كأنَّ أثره في حَجَرٍ» وحلَّقَ بين إبهامَيْهِ واللَّتَيْنِ تَليانِهما. «﴿**لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا**﴾» قال: وقد قَطَعَ اللَّهُ عنكَ النَّصَبَ» ليست هذه عن سعيدٍ «أخبرَهُ فرَجَعا، فوَجَدَا خَضِراً، قال لي عثمانُ بن أبي سليمانَ: «علىٰ طِنْفِسَةٍ خَضْرَاءَ، علىٰ كبدِ البحرِ» قال سعيدٌ: «مُسَجًّىٰ بثوبِهِ، قد جَعَلَ طَرَفَهُ تحتَ رِجْلَيْهِ، وطَرَفَهُ تحت رأسِهِ، فسلَّمَ عليه موسَىٰ، فكَشَفَ عن وجهِهِ، وقال: هل بأرضٍ من سلامٍ؟ من أنتَ؟ قال: أنا موسَىٰ. قال: موسَىٰ بني إسرائيلَ؟ قال: نعم. قال: فما شأنُكَ؟ قال: جئْتُكَ لـ﴿**تُعَلِّمَنِ مِمَّا**

(١) **صحيح**: البخاري (٤٧٢٧).

(٢) **صحيح**: البخاري (٢٢٦٧).

عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ قال: أما يكفيكَ أنَّ التَّوْراةَ بيدَيْكَ، وأنَّ الوحْيَ يأتيكَ؟ يا موسَىٰ، إنَّ لي علمًا لا ينبغِي لك أن تعلمَهُ، وإنَّ لكَ علمًا لا ينبغِي لي أنْ أَعْلَمَهُ، فأخذَ طائرٌ بمنقارِهِ من البحرِ، فقال: واللَّهِ ما علْمِي وعِلْمُكَ في جنبِ علمِ الله إلا كما أخذَ هذا الطائرُ بمنقارِهِ من البحرِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ وجدَا معابِرَ صغارًا تحملُ أهلَ هذا الساحلِ إلىٰ هذا الساحلِ الآخَرِ، عرَفُوهُ، فقالوا: عبدُاللَّهِ الصالحُ؟» قال: فقلنا لسعيدٍ: خَضِرٌ؟ قال: نعم. «لا نَحْمِلُه بأجْرٍ، فخرقَهَا ووتَّدَ فيها وتدًا ﴿قَالَ﴾ موسَىٰ: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ قال مجاهدٌ: مُنْكَرًا ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ كانت الأولىٰ نسيانًا، والوُسْطَىٰ شَرْطًا، والثالثةُ عَمْدًا ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ قال يعلىٰ: قال سعيدٌ: وَجَدَ غِلْمانًا يلعبونَ، فأخذ غُلامًا كافرًا ظريفًا فأضْجَعَهُ، ثمَّ ذَبَحَهُ بالسِّكينِ ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ لم تعملْ بالخَبَثِ» ابنُ عباسٍ قرأَهَا: (زَكِيَّةً زاكِيَةً مُسْلِمَةً) كقولِكَ: غُلامًا زكيًّا. فانطلَقَا فوجدا جدارًا يريد أن ينقضَّ فأقامه، قال بيده هكذا، ورفعَ يدَهُ فاستَقَامَ. قال يعلَىٰ: حَسِبْتُ أنَّ سعيدًا قال: «فَمَسَحَهُ بيدِهِ فاستَقَامَ ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قال سعيدٌ: أجرًا نأكلُهُ «﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم﴾ (وكانَ أَمَامَهُم) قرأها ابنُ عباسٍ أمامَهُم ﴿مَّلِكٌ﴾ يزعمونَ عن غير سعيدٍ أنهُ هُدَدُ بنُ بُدَدَ، والغلامُ المقتولُ يزعمون: جَيْسُورُ. ﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فإذا هي مرَّت به يدعُها بعَيْبِها، فإذا جاوزُوا أصلَحُوها فانْتَفَعوا بها. منهم من يقولُ: سَدُّوها بقارُورَةٍ، ومنهم من يقول: بالقار.

﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وكان كافرًا ﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي: يحملَهما حبُّه علىٰ أن يُتابعَاهُ علىٰ دينه، ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ لقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ و﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ هما به أرحمُ منهما بالأوَّلِ الذي قتلَ خضرٌ. وزعم غير سعيدِ بن جُبيرٍ أنَّهما أُبدِلا جاريةً، وأمَّا داودُ بنُ أبي عاصمٍ فقال عن غير واحدٍ: إنَّها جاريةٌ.

وقد رواه عبدُ الرَّزاق[1]، عن معمرٍ، عن أبي إسحاقَ، عن سعيدِ بن جُبيرٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: خطبَ مُوسَىٰ بني إسرائيلَ، فقال: ما أحدٌ أعلمُ باللَّهِ وبأمرِهِ منِّي. فأُمرَ أنْ يَلْقَىٰ هذا الرجلَ. فذكرَ نحوَ ما تقدَّمَ. وهكذا رواهُ محمدُ بنُ إسحاقَ[2]، عن الحسنِ بن عُمارةَ، عن الحكمِ بنِ عُتَيْبَةَ، عن سعيدِ بن جُبَيْرٍ، عن ابن عباسٍ، عن أُبَيِّ بن كعبٍ، عن رسولِ اللَّهِ ﷺ كنحوِ ما تقدَّم أيضًا، ورواهُ العَوْفِيُّ[3] عنه موقوفًا.

وقال الزُّهْريُّ[4]، عن عبيدِ اللَّهِ بن عبدِ اللَّهِ بن عتبةَ، عن ابنِ عباسٍ، أنَّهُ تَمارَىٰ هو والحرُّ بن قيسِ بن حِصْنٍ الفَزَارِيُّ في صاحبِ موسَىٰ، فقال ابنُ عباسٍ: هو خَضِرٌ. فمرَّ بهما أُبَيُّ بنُ كعبٍ، فدعاهُ ابنُ عباسٍ، فقال: إنِّي تماريْتُ أنا وصاحِبِي هذا، في صاحبِ موسَىٰ الذي سألَ السَّبيلَ إلىٰ

---

(١) عبد الرزاق «تفسير» (١٦٩٧).
(٢) رواه ابن جرير (٩/ الجزء١٥/ ٢٧٩).
(٣) **ضعيف**: رواه ابن جرير (٩/ الجزء ١٥/ ٢٧٤) والعوفي ضعيف.
(٤) **صحيح**: رواه البخاري (٧٨, ٧٤).

لُقِيِّه، فهل سمعتَ من رسولِ اللَّه فيه شيئًا؟ قال: نعم. وذكر الحديثَ، وقد تقصَّينا طُرُقَ هذا الحديث، وألفاظَهُ في تفسيرِ سورةِ الكهفِ، وللَّه الحمدُ والمنَّةُ.

وقوله: ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾.

قال السُّهَيْليُّ: وهما أصرمُ وصريمُ، ابنا كاشحَ.

﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ قيلَ: كان ذَهَبًا. قاله عِكْرِمَةُ[1]، وقيل: عِلْمًا. قالهُ ابنُ عباسٍ[2]، والأشبَهُ أنَّه كان لوحًا من ذهبٍ مكتوبًا فيه علمٌ.

قال البزَّارُ[3]: حدَّثنا إبراهيمُ بنُ سعيدٍ الجَوْهَرِيُّ، حدَّثنا بِشْرُ بنُ المُنْذرِ، حدَّثنا الحارثُ بن عبداللَّه اليَحْصُبيُّ، عن عياشِ بن عباسٍ الغسَّانيِّ، عن ابنِ حُجَيرةَ، عن أبي ذرٍّ، رفَعَهُ، قال: «**إنَّ الكنزَ الذي ذَكَرَ اللَّهُ في كتابِه لوحٌ من ذهبٍ مُصْمَتٍ: عَجِبْتُ لِمَنْ أيقنَ بالقَدَرِ، كيفَ نَصِبَ، وعَجِبْتُ لِمَنْ ذَكَرَ النَّارَ ثمَّ ضَحِكَ، وعَجِبْتُ لِمَنْ ذَكَرَ الموتَ ثُمَّ غَفَلَ لا إلهَ إلا اللَّهُ**» وهكذا رُوِيَ عن الحسنِ البَصْرِيِّ[4]، وعمرَ مولىٰ غُفْرَةَ[5]، وجعفرٍ الصَّادقِ[6]، نحوُ هذا.

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ وقد قيلَ: إنَّهُ كان الأبَ السابعَ، وقيلَ: العاشرَ، وعلىٰ كلِّ تقديرٍ، فيه دلالةٌ علىٰ أنَّ الرجلَ الصالحَ يُحفَظُ في ذُرِّيَّتِه، فاللَّهُ المُستعانُ.

وقوله: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ دليلٌ علىٰ أنَّهُ كانَ نبيًّا، وأنَّهُ ما فعلَ شيئًا من تلقاءِ نفسِه، بل بأمرِ ربِّه، فهو نبيٌّ، وقيل: رسولٌ. وقيل: وَلِيٌّ. وأغربُ من هذا من قال: كان مَلَكًا.

قلتُ: وقد أغربَ جدا من قالَ: هو ابنُ فرعونَ. وقيل: إنَّه ابنُ ضحَّاكٍ الذي ملَكَ الدُّنيا ألفَ سنةٍ.

قال ابنُ جريرٍ: والذي عليه جمهورُ أهلِ الكتابِ أنَّه كان في زَمَنِ أفريدونَ. ويُقالُ: إنه كان علىٰ مُقدِّمةِ ذي القرنينِ، الذي قيل: إنَّه كان أفريدونَ، وذُو الفرسِ هو الذي كان في زمنِ الخليلِ. وزَعموا أنَّه شربَ من ماءِ الحياةِ، فخَلَدَ، وهو باقٍ إلىٰ الآنَ. وقيلَ: إنَّهُ من وَلَدِ بعضِ مَنْ آمَنَ بإبراهيمَ وهاجَرَ معهُ من أرضِ بابلَ. وقيل: اسمُهُ ملكانُ. وقيل: أرميا بنُ حلقيا. وقيل: كان نبيا

---

(١) صحيح: رواه ابن جرير (٩/ الجزء ١٦/ ٦) من طرق عن أبي حصين عنه.

(٢) ضعيف إليه: رواه ابن جرير (٩/ الجزء ١٦/ ٥) بسند ضعيف من رواية العوفي عنه.

(٣) ضعيف: البزار (٤٠٦٥) «البحر الزخار». فيه بشر بن المنذر ضعيف في حديثه وهم وذكره العقيلي في «الضعفاء». والحارث بن عبد اللَّه اليحصبي لا يعرف قاله الهيثمي.

(٤) ضعيف الإسناد: رواه ابن جرير (٩/ الجزء ١٦/ ٥) فيه الحسن بن حبيب متكلم فيه وسلمة بن محمد مجهول.

(٥) جيد الإسناد: رواه ابن جرير (٩/ الجزء١٦/ ٥) من رواية عبد اللَّه بن عياش أخرج له مسلم متابعات.

(٦) ضعيف الإسناد: رواه ابن جرير (٩/ الجزء١٦/ ٥) وفي سنده هنادة ابنة مالك لم أقف لها على ترجمة وكذلك صاحبها حماد بن الوليد الثقفي.

في زمن سباسبَ بنِ لهراسبَ.

قال ابنُ جرير: وقد كانَ بينَ أفريدونَ وبين سباسبَ دُهُورٌ طويلةٌ، لا يجْهَلُها أحدٌ من أهلِ العلمِ بالأنساب. قال ابْنُ جرير: والصحيحُ أنَّه كان في زمنِ أفريدُونَ، واستمرَّ حيًّا إلى أنْ أدْرَكَهُ موسى عليه السلامُ، وكانت نُبُوَّةُ موسَىٰ في زَمَنِ منُوشِهْرَ، الذي هو من وَلَدِ إيرَجَ بنِ أفريدُونَ، أحدِ ملوكِ الفرسِ، وكان إليه الملكُ بعد جدِّه أفريدونَ لعهده، وكان عادلاً، وهو أوَّل من خَنْدق الخنادقَ، وأول من جَعَلَ في كلِّ قريةٍ دِهْقانًا، وكانت مدَّةُ مُلكه قريبًا من مائة وخمسين سنةً.

ويُقالُ: إنَّه كان من سلالة إسحاقَ بنِ إبراهيمَ. وقد ذُكِرَ عنه من الخُطَبِ الحسانِ، والكَلِمِ البليغِ النَّافعِ الفصيحِ، ما يَبْهرُ العقلَ، ويُحيِّرُ السامعَ، وهذا يدلُّ على أنَّهُ من سُلالة الخليلِ. واللَّهُ أعْلَمُ.

وقد قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ﴾ [آل عمران: ٨١].

فأخذ اللَّهُ ميثاقَ كلِّ نبيٍّ على أنْ يُؤْمِنَ بمَنْ يَجِيءُ بعدَهُ من الأنبياء، وينْصُرَهُ فلو كان الخَضِرُ حيًّا في زمانه، لَمَا وسعَهُ إلا اتباعُهُ، والاجتماعُ به، والقيامُ بنَصْرِه، ولكان من جُمْلة مَنْ تحتَ لوائِه يومَ بدرٍ، كما كان تحتَها جبريلُ وساداتٌ من الملائكة وقُصارَىٰ الخَضِرِ عليه السلامُ، أنْ يكونَ نبيًّا وهو الحقُّ، أو رسولا، كما قيل، أو مَلَكًا فيما ذُكِرَ، وأيًا ما كان فجبريلُ رئيسُ الملائكةِ، وموسى أشرفُ من الخَضِرِ، ولو كان حيًّا لوجبَ عليه الإيمانُ بمحمدٍ، ونُصْرتُه، فكيفَ إنْ كان الخَضِرُ وليًّا، كما يقولُه طوائفُ كثيرون، فأولَىٰ أنْ يَدْخُلَ في عُمومِ البَعْثَةِ، وأحْرَىٰ.

ولم يُنْقَلْ في حديثٍ حسنٍ، بل ولا ضعيفٍ يُعْتَمَدُ، أنَّه جاءَ يومًا واحدًا إلى رسول اللَّه ﷺ ولا اجتمعَ به، وما ذُكِرَ من حديث التَّعْزِية فيه، وإنْ كان الحاكمُ قد رواهُ، فإسنادُه ضعيفٌ واللَّهُ أعْلَمُ. وسنُفْرِدُ لِلخَضِرِ ترجمةً علىٰ حِدَةٍ بعدَ هذا.

ذِكْرُ الحديثِ الملقبِ بحديثِ الفتونِ المتضمنِ قصةَ موسى مبسوطةً من أوَّلها إلى آخرها

قال الإمامُ أبو عبد الرحمنِ النَّسائيُّ[1] في كتاب التَّفْسيرِ من سُنَنِه، عندَ قولِه تعالى في سورة «طه» ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾.

حديث الفتون: حدَّثنا عبدُاللَّه بنُ محمدٍ، حدَّثنا يزيدُ بن هارونَ، أنبأنا أصبَغُ بنُ زيدٍ، حدَّثنا القاسمُ بنُ أبي أيوبَ، أخبرني سعيدُ بنُ جُبيرٍ، قال: سألتُ عبدَاللَّه بن عباسٍ عن قول اللَّه تعالى لموسى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ فسألتُهُ عن الفُتونِ: ما هو؟ فقال: استأنفِ النَّهار يابنَ جُبَيْرٍ، فإنَّ لها حديثًا

---

(١) **حسن موقوفًا وفيه مقاطع مرفوعة:** رواه النسائي في «الكبرى» (١١٣٢٦) وابن جرير (٩/الجزء١٦/ ١٦٤) من طريق يزيد بن هارون به، وأبو يعلى (٢٦١٨) ومداره على أصبغ بن زيد قال الإمام أحمد: ليس به بأس ما أحسن رواية يزيد بن هارون عنه. قلت: وهذه منها. ووثقه ابن معين وقال النسائي: ليس به بأس.

طويلاً. فلمّا أصبَحْتُ غَدَوْتُ إلى ابنِ عباسٍ؛ لأنتجزَ منه ما وعَدَني من حديث الفُتون، فقال: تَذاكَرَ فرعونُ وجُلساؤه ما كان اللَّهُ وَعَدَ إبراهيمَ عليه السلام، أن يجعلَ في ذُرِّيته أنبياءَ ومُلوكًا، فقال بعضهم: إنَّ بَنِي إسرائيلَ ينتظِرُونَ ذلك، ما يَشُكُّونَ فيه، وكانوا يظنُّون أنَّه يوسفُ بنُ يعقوبَ، فلمَّا هَلَكَ قالوا: ليس هكذا كان وعدُ إبراهيمَ. فقال فرعونُ: فكيفَ تروْنَ؟ فائتَمَرُوا، وأجمَعُوا أمرهم على أنْ يَبْعَثَ رِجالاً معهم الشِّفارُ، يطوفونَ في بَنِي إسرائيلَ، فلا يجدونَ مولودًا ذَكَرًا إلا ذَبَحُوه، ففعلُوا ذلك، فلمّا رأوا أن الكبارَ من بني إسرائيلَ يموتون بآجالِهم، والصغارَ يُذْبَحونَ، قالوا: تُوشِكُون أنْ تُفْنوا بني إسرائيلَ، فتصيروا إلى أن تُباشِروا من الأعمال والخدمة، الذي كانوا يَكْفُونَكم، فاقتُلوا عامًا كلَّ مولودٍ ذَكَرٍ، فيقِلُّ نباتُهم، ودعوا عامًا فلا تَقْتُلوا منهم أحدًا فيشبُّ الصِّغارُ مكانَ مَنْ يموتُ من الكبارِ، فإنَّهم لن يكثُروا بمن تستَحْيُونَ منهم، فتخافُوا مُكاثَرَتَهم إياكم، ولن يَفْنَوْا بمن تَقْتُلُون، وتحتاجون إليهم. فأجمعوا أمرَهم على ذلك، فحمَلَتْ أمُّ موسى بهارونَ في العامِ الذي لا يُذْبَحُ فيه الغِلْمانُ، فولدَتْهُ علانيةً آمِنَةً. فلمَّا كان من قابِلٍ، حمَلَتْ بموسى عليه السلامُ، فوقَعَ في قلبِها الهمُّ والحُزْنُ ـ وذلك من الفُتونِ يابنَ جُبَيْرٍ ـ ما دخلَ عليه في بطنِ أُمِّه ممَّا يُرادُ به؛ فأوْحَى اللَّهُ إليها: أنْ لا تخافِي ولا تحزَنِي، إنَّا رادُّوهُ إليكِ، وجاعِلُوه من المرسَلين. فأَمَرَها إذا وَلَدَتْ أنْ تجعَلَهُ في تابوتٍ، وتُلْقِيَهُ في اليَمِّ، فلمَّا ولَدتْ فَعَلَتْ ذلك، فلمَّا توارَىٰ عنها ابنُها أتاها الشيطانُ، فقالتْ في نفسِها: ما فعلتُ بابْنِي؟ لو ذُبِح عندي فواريتُهُ وكَفَّنْتُه، كان أحبَّ إليَّ من أنْ أُلقيَهُ إلى دوابِّ البحرِ وحيتانِه. فانتهى الماءُ به حتى أوفَى به عند فُرضَةٍ تستَقِي منها جوارِي امرأة فرعَونَ، فلمَّا رأَيْنَهُ أَخَذْنَهُ، فهَمَمْنَ أنْ يَفْتَحْنَ التابوتَ، فقال بعضُهنَّ: إنَّ في هذا مالاً، وإنا إنْ فَتَحْناهُ لم تُصَدِّقْنا امرأةُ الملكِ بما وَجَدْنا فيه، فَحَمَلْنَهُ كهيئَتِهِ لم يُخْرِجْنَ منه شيئًا حتَّى دَفَعْنَهُ إليها، فلمَّا فَتَحَتْهُ رأتْ فيه غُلامًا، فأُلقِيَ عليه منها محبَّةٌ، لم تُلْقَ منها على أحدٍ قطُّ، وأصبحَ فُؤادُ أمِّ موسى فارِغًا من ذكرِ كلِّ شيءٍ، إلا من ذكرِ موسى، فلمّا سمعَ الذبَّاحُونَ بأمرِه أقبَلُوا بشِفارِهم إلى امرأةِ فرعونَ ليذبَحُوه ـ وذلك من الفُتونِ يا بنَ جُبيرٍ ـ فقالتْ لهم: أَقِرُّوه، فإنَّ هذا الواحدَ لا يَزِيدُ في بني إسرائيلَ، حتَّى آتِيَ فرعونَ، فأَسْتَوْهِبَهُ منه، فإنْ وَهَبَهُ لي، كنتُمْ قد أحْسنتُم وأجملْتُم، وإنْ أَمر بذَبحِه لم أَلُمْكم. فأتَتْ فرعونَ فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩] فقال فرعونُ: يكونُ لكِ، فأمَّا لي فلا حاجةَ لي فيه. فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«والذي يُحْلَفُ به، لو أقرَّ فرعونُ أنْ يكونَ له قُرَّةَ عينٍ كما أقرَّت امرأتُهُ لَهَداهُ اللَّهُ كما هداها، ولكنَّ اللَّهَ حرَمَهُ ذلك»** فأرسلَتْ إلى مَنْ حولَها إلى كلِّ امرأةٍ لها لبَنٌ، تختارُ له ظِئْرًا، فجعل كلَّما أخذَتْهُ امرأةٌ منهنَّ لتُرْضِعَهُ لم يُقْبِلْ على ثَدْيِها، حتَّى أَشْفَقَتِ امرأةُ فرعونَ أن يمتنعَ من اللبنِ فيموتَ، فأحزَنَها ذلك فأمرتْ به، فأُخْرِجَ إلى السوقِ ومَجْمَعِ الناسِ ترجُو أن تجدَ له ظِئْرًا تأخُذُه منها، فلم يقبل، وأصبحتْ أمُّ موسى والِهًا، فقالتْ لأختِه: قُصِّي أثَرَهُ، واطلُبِيه، هل تسمعين له ذِكْرًا؟ أحيٌّ ابنِي أم أَكَلَتْهُ الدوابُّ؟ ونسيتْ ما كان اللَّهُ وعَدَها فيه، فبَصُرَتْ به أختُهُ عن جُنُبٍ ـ

والجُنُبُ: أنْ يسمو بصرُ الإنسانِ إلى شيءٍ بعيدٍ، وهو إلى جَنْبِهِ لا يشعُرُ به. فقالت من الفرح، حين أعياهم الظُّؤوراتُ: أنا أدُلُّكم على أهلِ بيتٍ يكفُلُونَهُ لكم، وهم له ناصحونَ. فأخذوها فقالوا: ما يُدريكِ ما نُصحُهم؟ هل تعرفونَهُ؟ حتَّى شكُّوا في ذلك. وذلك من الفتونِ يابنَ جُبيرٍ. فقالت: نُصحُهم له وشفقتُهم عليه، رغبتُهم في صِهْرِ الملكِ، ورجاءُ منفعةِ الملكِ. فأرسلُوها، فانطلقتْ إلى أمِّها، فأخبرَتْها الخبرَ، فجاءتْ أمُّه، فلمَّا وضعَتْهُ في حِجْرِها نَزا إلى ثديِها فمصَّهُ حتَّى امتلأ جَنْباهُ ريًّا، وانطلقَ البشيرُ إلى امرأةِ فرعونَ يُبشِّرُونها أنْ قد وجدْنا لابنكِ ظِئْرًا، فأرْسَلَتْ إليها، فأتتْ بها وبه. فلمَّا رأتْ ما يصنعُ بها، قالت: امكُثِي تُرْضعي ابني هذا؛ فإنِّي لم أُحِبَّ شيئًا حبَّهُ قطُّ. قالت أمُّ موسى: لا أستطيعُ أنْ أتركَ بيتي وولدِي فيضيعَ، فإنْ طابتْ نفسُكِ أن تُعْطِينيه فأذهبَ به إلى بيتي فيكونَ معي لا آلُوه خيرًا، فَعَلْتُ، فإنِّي غيرُ تاركةٍ بيتي وولدِي. وذكرَتْ أمُّ موسى ما كان اللَّهُ وعدَها، فتعاسَرَتْ على امرأةِ فرعونَ، وأيقنَتْ أنَّ اللَّهَ مُنجزٌ موعودَهُ، فرجعتْ إلى بيتِها من يومِها، وأنبتَهُ اللَّهُ نباتًا حسنًا، وحَفِظَهُ اللَّهُ لما قد قَضَى فيه، فلم يَزَلْ بنو إسرائيلَ وهم في ناحيةِ القريةِ مُمتنعين من السُّخْرةِ والظُّلْمِ ما كان فيهم، فلمَّا ترَعْرَعَ قالت امرأةُ فرعونَ لأمِّ موسى: أَرِيني ابني، فوَعَدتْها يومًا تُرِيها إيَّاهُ فيه، وقالت امرأةُ فرعونَ لخُزَّانِها وظُؤورِها وقَهارِمَتِها: لا يَبْقَيَنَّ أحدٌ منكم إلا استقبلَ ابني اليومَ بهديةٍ وكرامةٍ؛ لأرى ذلك فيه، وأنا باعثةٌ أمينًا يُحصِي كلَّ ما يصنعُ كلُّ إنسانٍ منكم. فلم تَزَلِ الهدايا والكرامةُ والنِّحَلُ تستقبلُهُ من حينَ خرجَ من بيتِ أمِّهِ إلى أن دخلَ على امرأةِ فرعونَ، فلمَّا دخلَ عليها نَحَلَتْهُ وأكرمَتْهُ وفرِحَتْ به، ونَحَلَتْ أمَّهُ بحُسْنِ أثرِها عليه، ثُمَّ قالتْ: لآتيَنَّ به فرعونَ، فَلَيَنْحَلَنَّهُ، ولَيُكْرِمَنَّهُ. فلمَّا دَخَلَتْ به عليه، جعلهُ في حِجْرِهِ، فتناولَ موسى لحيةَ فرعونَ فمدَّها إلى الأرضِ، فقال الغُواةُ من أعداءِ اللَّهِ لفرعونَ: ألا ترى ما وعدَ اللَّهُ إبراهيمَ نبيَّهُ، أنَّهُ زعَمَ أنْ يَرُبَّكَ ويَعلوكَ، ويصرعَكَ؟ فأرسلَ إلى الذَّبَّاحينَ ليَذْبَحُوه. وذلك من الفُتونِ يا بنَ جُبيرٍ، بعدَ كلِّ بلاءٍ ابتُلِيَ به وأُريدَ به فُتُونًا. فجاءت امرأةُ فرعونَ تَسعَى إلى فرعونَ، فقالت: ما بدا لك في هذا الغلامِ الذي وَهَبْتَهُ لي؟ فقال: ألا ترَيْنَهُ يَزْعُمُ أنَّه يَصْرَعُني ويعلوني؟ فقالت: اجعل بيني وبينك أمرًا تعرفُ فيه الحقَّ؛ ائتِ بجَمْرتَيْنِ ولُؤْلُؤتَيْنِ، فقرِّبْهنَّ إليه، فإنْ بَطَشَ باللُّؤْلُؤتَيْنِ واجْتَنَبَ الجمرتينِ عرفت أنَّهُ يعقلُ. وإن تناولَ الجَمْرتَيْنِ، ولم يُرِدِ اللُّؤلؤتَينِ علمْتَ أنْ أحدًا لا يُؤثِرُ الجمرتينِ على اللُّؤْلُؤتَيْنِ وهو يعقلُ. فقرَّبَ إليه، فتناولَ الجمرتينِ، فانتزعَهَما منه مخافةَ أنْ يحرِقا يده، فقالت المرأةُ: ألا ترَى؟ فصرَفَهُ اللَّهُ عنهُ، بعدَ ما كان همَّ به، وكان اللَّهُ بالغًا فيه أمرَهُ، فلمَّا بلغَ أشُدَّهُ، وكان من الرِّجالِ، لم يكنْ أحدٌ من آلِ فرعونَ يخلُصُ إلى أحدٍ من بني إسرائيلَ معه، بظُلْمٍ ولا سُخْرَةٍ، حتَّى امتنعُوا كلَّ الامتناعِ، فبينما موسى عليه السلامُ يمشي في ناحيةِ المدينةِ، إذ هو برجلينِ يقتتلانِ، أحدُهما فرعونيٌّ، والآخرُ إسرائيليٌّ، فاستغاثَهُ الإسرائيليُّ على الفرعونيِّ، فغضبَ موسى غضبًا شديدًا؛ لأنَّهُ تناولَهُ، وهو يعلمُ منزلتَهُ من بني إسرائيل وحِفظَهُ لهم لا يعلمُ الناسُ إلا أنَّه من الرَّضاعِ إلا أمُّ موسى،

إلا أن يكونَ اللَّهَ أطلعَ موسى من ذلك على ما لم يُطلعْ عليه غيره، فوكَزَ موسى الفرعونيَّ فقتلَهُ، وليس يراهما أحدٌ إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ، والإسرائيليُّ، فقال موسى حين قتل الرجل: ﴿**هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ**﴾ ثم قال: ﴿**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [القصص: ١٥، ١٦] فأصبحَ في المدينة خائفًا يترقَّبُ الأخبارَ، فأُتيَ فرعونُ فقيل له: إنَّ بني إسرائيلَ قتلوا رجلاً من آل فرعونَ، فخُذْ لنا بحقِّنا، ولا تُرخِّصْ لهم. فقال: ابغوني قاتلَهُ، من يشهدُ عليه؟ فإنَّ الملكَ وإن كان صَفْوُه مع قومه لا يستقيم له أن يُقِيدَ بغير بيِّنةٍ ولا ثَبَتٍ، فاطلُبُوا لي علمَ ذلك، آخُذ لكم بحقِّكُم. فبينما هم يطوفونَ لا يجدون بيِّنَةً، إذا موسى من الغدِ قد رأى ذلك الإسرائيليَّ يقاتِلُ رجلاً من آل فرعونَ آخر، فاستغاثَهُ الإسرائيليُّ على الفرعونيِّ فصادفَ موسى قد نَدمَ على ما كان منهُ، وكرهَ الذي رأى، فغضبَ الإسرائيليُّ، وهو يريدُ أن يبطشَ بالفرعونيِّ فقال للإسرائيليِّ، لِمَا فعلَ بالأمس واليوم: ﴿**إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ**﴾ [القصص: ١٨]، فنظر الإسرائيليُّ إلى موسى بعدَ ما قالَ له ما قال، فإذا هو غضبانُ كغَضَبِه بالأمسِ، الذي قَتَلَ فيه الفرعونيَّ، فخاف أن يكونَ بعد ما قالَ له: إنك لغويٌّ مبين أن يكونَ إيَّاهُ أراد، ولم يكن أراده إنما أراد الفرعونيَّ، فخافَ الإسرائيليُّ وقال: يا موسى، أتريدُ أنْ تَقْتُلَنِي كما قتلتَ نفسًا بالأمسِ؟ وإنما قال له؛ مخافةَ أن يكونَ إياهُ أرادَ موسى ليقتلَهُ، فتتاركَا، وانطلقَ الفرعونيُّ، فأخبرهم بما سمعَ من الإسرائيليِّ من الخبرِ، حين يقولُ: أتريدُ أنْ تَقْتُلَنِي كما قتلتَ نفسًا بالأمسِ؟ فأرسل فرعونُ الذَّباحِينَ ليقتلوا موسى، فأخذَ رُسُلُ فرعونَ الطريقَ الأعظم، يمشون على هيئتِهم يطلبونَ موسى، وهم لا يخافونَ أن يفوتَهم، فجاء رجلٌ من شيعة موسى، من أقصى المدينة، فاختصرَ طريقًا حتى سبقَهَمْ إلى موسى فأخبره. وذلك من الفُتونِ يا ابن جُبيرٍ. فخرجَ موسى متوجِّهًا نحو مَدْيَنَ، لم يلقَ بلاءً قبلَ ذلك، وليس له بالطريقِ علمٌ إلا حُسْنُ ظنِّه بربِّه عزَّ وجلَّ، فإنَّه قال: ﴿**عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ**﴾ [القصص: ٢٢، ٢٣]. يعني بذلك حابستَيْنِ غَنَمَهما، فقال لهما: ﴿**مَا خَطْبُكُمَا**﴾ مُعْتَزِلَتَيْنِ، لا تَسْقِيانِ مع النَّاسِ؟ قالتا: ليس لنا قوةٌ نزاحِمُ القومَ، وإنَّما ننتظرُ فُضُولَ حياضِهم. فسقَى لهما، فجعلَ يَغْرِفُ من الدَّلْوِ ماءً كثيرًا، حتَّى كان أولَ الرعاء، وانصرفَتا بغَنمهما إلى أبيهما، وانصرفَ موسى، فاستظَلَّ بشَجَرَةٍ، ﴿**فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾ [القصص: ٢٤]، واستَنْكَرَ أبُوهُما سُرْعَةَ صُدُورِهما بغَنَمِهما حُفَّلاً بطانًا، فقالَ: إنَّ لكما اليومَ لَشَأنًا. فأخبرتَاهُ بما صَنَعَ موسى، فأَمَرَ إحداهُما أنْ تَدعُوَهُ، فأتتْ موسى فدَعَتْهُ، فلمَّا كلَّمَهُ قال: ﴿**لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ [القصص: ٢٥] ليس لفرعونَ ولا لقومه علينا من سلطانٍ، ولسنا في مَمْلَكَتِه ﴿**قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**﴾ [القصص: ٢٦] فاحْتَمَلَتْهُ الغيرةُ على أن قَالَ لَهَا: ما يُدْرِيك ما قُوَّتُهُ، وما أمانتُه؟ فقالتْ: أمَّا قوَّتُهُ فما رأيتُ منه في الدَّلْوِ حين سقَى لنا، لم أرَ رجلاً قطُّ أقوَى في ذلك السقيِ منه، وأما الأمانةُ فإنه نَظَرَ إليَّ حينَ أقبلْتُ

إليه، وشَخَصْتُ له، فلمّا علِمَ أنّي امرأةٌ صوَّبَ رأسَهُ، فلم يَرْفَعْهُ حتَّىٰ بَلَّغْتُهُ رِسالَتَك، ثم قال لي: امشِي خَلْفِي، وانْعتِي لي الطَّرِيقَ. فلم يفعلْ هذا إلا وهو أمين. فسُرِّي عن أبيها، وصدَّقَها، وظنَّ به الذي قالتْ، فقال له: هل لك ﴿أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] ففعل، فكانت علىٰ نبيِّ اللَّهِ موسىٰ ثماني سنينَ واجبةً، وكانت السنتانِ عِدَةً منه، فقضىٰ اللَّهُ عنه عِدَتَه، فأَتَمَّها عَشْرًا.

قال سعيدُ بنُ جُبَيْر: فَلَقِيَنِي رجلٌ من أهلِ النَّصرانيَّةِ، من علمائِهم، قال: هل تَدْرِي أيَّ الأجلَيْنِ قَضَىٰ موسىٰ؟ قلتُ: لا. وأنا يومئذٍ لا أدري، فلقيتُ ابنَ عباسٍ، فذكرتُ ذلك له فقال: أما علمتَ أنَّ ثمانيةً كانت علىٰ نبي اللَّه واجبةً؟ لم يكُنْ نبيُّ اللَّه لِيُنْقِصَ منها شيئًا، وتعلمُ أنَّ اللَّهَ كان قاضيًا عن موسىٰ عِدَتَهُ التي وَعَدَهُ، فإنَّه قَضَىٰ عَشْرَ سنينَ. فلَقِيتُ النَّصْرانيَّ، فأخبرتُهُ ذلك، فقال: الذي سألتَهُ فأخبرَكَ أعلمُ منكَ بذلك. قلتُ: أَجَلْ، وأَوْلَىٰ.

فلمَّا سارَ موسىٰ بأهله، كان من أمرِ النارِ، والعصا، ويدِهِ، ما قصَّ اللَّهُ عليك في القرآنِ، فشكا إلىٰ اللَّهِ تعالىٰ ما يتخوَّفُ من آلِ فرعونَ في القتيلِ، وعُقْدَةَ لسانه، فإنَّهُ كان في لسانه عُقْدةٌ تمنعُهُ من كثيرٍ من الكلامِ، وسألَ ربَّهُ أن يُعِينَهُ بأخيه هارونَ، يكونُ له رِدْءًا ويتكلَّمُ عنهُ بكثيرٍ ممَّا لا يُفْصِحُ به لسانُهُ، فآتاهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ سُؤْلَهُ، وحلَّ عُقْدَةً من لسانه، وأوحَىٰ اللَّهُ إلىٰ هارونَ فأَمَرهُ أنْ يلقاهُ، فاندَفَعَ موسىٰ بعصاهُ حتَّىٰ لَقِيَ هارونَ، فانطلقا جميعًا إلىٰ فِرْعَونَ، فأقاما علىٰ بابِهِ حينًا لا يُؤْذَنُ لهما، ثم أُذِنَ لهما بعدَ حجابٍ شديدٍ، فقالا: إنَّا رسولا ربِّك. فقال: فَمَنْ ربُّكُما؟ فأخبرَهُ بالذي قصَّ اللَّهُ عليكَ في القرآنِ، قال: فما تُرِيدَانِ؟ وذكَّره القتيلَ، فاعتَذَرَ بما قد سمعتَ، قال: أريدُ أنْ تُؤْمِنَ باللَّهِ، وتُرْسِلَ معيَ بني إسرائيلَ. فأبَىٰ عليه، وقال: ائت بآيةٍ إنْ كنتَ من الصَّادقينَ. فألقىٰ عصاه فإذا هي حيَّةٌ عظيمةٌ، فاغرةً فاها، مُسْرِعةً إلىٰ فرعونَ، فلمَّا رآها فِرْعونُ قاصدةً إليه خافها، فاقْتَحَمَ عن سريرِهِ، واستغاثَ بموسَىٰ أنْ يَكُفَّها عنهُ، فَفَعَلَ، ثُم أخرج يَدَه من جَيْبِهِ، فرآها بيضاءَ من غيرِ سوءٍ - يعنِي من غيرِ بَرَصٍ - ثم ردَّها فعادَتْ إلىٰ لونِها الأولِ، فاستشارَ الملأَ حولَهُ فيما رأىٰ، فقالوا له: هذانِ ساحرانِ يُريدانِ أنْ يُخْرِجاكم من أرضكم بسحرِهما ويذهبا بطريقتكم المُثْلَىٰ - يعني مُلْكَهمُ الذي هم فيه، والعيش - وأبوا علىٰ موسَىٰ أنْ يُعْطُوه شيئًا ممَّا طَلَبَ، وقالوا له: اجمَعِ السَّحرةَ، فإنَّهم بأرضِك كثيرٌ؛ حتَّىٰ تغلبَ بسحْرِكَ سِحْرَهما. فأرسلَ إلىٰ المدائنِ، فحُشِرَ له كلُّ ساحرٍ مُتعالِمٍ، فلمَّا أتوْا فرعونَ، قالوا: بِمَ يَعْمَلُ هذا الساحرُ؟ قالوا: يعمَلُ بالحيَّاتِ. قالوا: فلا واللَّه ما أحدٌ في الأرضِ يعملُ بالسِّحْرِ بالحياتِ والحبالِ والعصِيِّ الذي نعملُ، وما أجرُنا إن نحن غَلَبْنَا؟ قال لهم: أنتُمْ أقارِبِي وخاصَّتِي، وأنا صانعٌ إليكم كلَّ شيءٍ أحبَبْتُم. فتواعَدُوا يومَ الزِّينةِ، وأنْ يُحْشَرَ الناسُ ضُحًىٰ.

قال سعيدٌ: فحدَّثني ابنُ عباسٍ أنَّ يومَ الزِّينةِ اليومَ الذي أظهَرَ اللَّهُ فيه موسىٰ علىٰ فرعونَ والسَّحَرَةِ، هو يومُ عاشوراءَ، فلمَّا اجتمعُوا في صعيدٍ قال الناسُ بعضُهم لبعضٍ: انطلِقُوا فلنَحْضُرْ هذا الأمرَ؛ لعلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إنْ كانوا هم الغالبين. يَعْنونَ موسىٰ وهارونَ، استهْزاءً بهما، فقالوا: يا موسىٰ ـ بقُدْرَتِهِم بسحْرِهم ـ إمَّا أن تُلْقِيَ وإمَّا أنْ نكونَ نحنُ المُلْقِينَ. قال: بل ألقوا. ﴿**فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ**﴾ [الشعراء: ٤٤] فرأىٰ موسىٰ من سحْرِهم ما أوْجَسَ في نفسه خِيفَةً، فأوحَىٰ اللَّهُ إليه: أنْ ألْقِ عصاكَ، فلمَّا ألقاها، صارتْ ثُعْبانًا عظيمةً، فاغِرَةً فاها، فجعلتِ العِصِيُّ تُلْتَبَسُ بالحبالِ، حتَّىٰ صارتْ جُرَزًا على الثعبانِ تَدْخُلُ فيه، حتَّىٰ ما أبقَتْ عصًا ولا حَبْلاً إلا ابتلعته، فلمَّا عَرَفَ السَّحْرَةُ ذلك، قالوا: لو كان هَذا سِحْرًا لم تَبْلُغْ من سحْرِنا كلَّ هذا، ولكنَّهُ أمرٌ من اللَّهِ تَعَالَىٰ، آمنَّا باللَّهِ وبما جاءَ بِهِ موسَىٰ، ونتوبُ إلىٰ اللَّهِ ممَّا كنَّا عليه. فَكَسَرَ اللَّهُ ظَهْرَ فِرْعونَ في ذلك المَوطِنِ وأشياعِه، وظَهَرَ الحقُّ وبَطَلَ ما كانوا يعملُونَ، فغُلِبُوا هُنالكَ وانْقَلَبُوا صاغِرين، وامرأةُ فرعونَ بارزةٌ مُتَبَذِّلَةٌ تدعو اللَّهَ بالنَّصْرِ لموسىٰ علىٰ فرعونَ وأشياعِه، فَمَنْ رآها من آلِ فرعونَ ظنَّ أنَّها إنَّما ابتَذَلَتْ للشَّفَقَةِ علىٰ فرعونَ وأشياعِه، وإنَّما كان حُزْنُها وهمُّها لموسىٰ، فلمَّا طالَ مُكْثُ موسىٰ بمواعيدِ فرعونَ الكاذبةِ، كلَّما جاءَ بآيةٍ وَعَدَهُ عندها أنْ يُرْسِلَ معه بني إسرائيلَ، فإذا مَضَتْ أخْلَفَ موعِدَهُ وقالَ: هل يَسْتَطيعُ ربُّكَ أنْ يَصْنَعَ غيرَ هذا؟ فأرسلَ اللَّهُ علىٰ قومِه الطُّوفانَ، والجرادَ، والقُمَّلَ، والضَّفَادعَ، والدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ، كلُّ ذلك يشكُو إلىٰ موسىٰ ويطلُبُ إليه أن يَكُفَّها عنه، ويوافقُهُ علىٰ أنْ يُرْسِلَ معه بني إسرائيلَ، فإذا كفَّ ذلك عنه، أخلَفَ موعِدَهُ، ونَكَثَ عَهْدَهُ، حتَّىٰ أُمِرَ موسىٰ بالخروجِ بقومِه، فخرَجَ بِهِمْ ليلاً، فلمَّا أصبحَ فرعونُ، ورأىٰ أنهم قد مَضَوْا، أرسَلَ في المدائنِ حاشِرينَ، فَتَبِعَهُ بجنودٍ عظيمةٍ كثيرةٍ، وأوحىٰ اللَّهُ إلىٰ البحرِ: إذا ضَرَبَكَ عبدِي موسىٰ بعصاهُ، فانْفَلِقْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً، حتَّىٰ يجوزَ موسىٰ ومن معه، ثم الْتَقِ علىٰ مَنْ بَقِيَ بعدُ من فرْعونَ وأشياعِهِ. فنسيَ موسىٰ أنْ يَضْرِبَ البحرَ بالعَصا، وانتهىٰ إلىٰ البحرِ وله قَصِيفٌ، مخافةَ أنْ يَضْرِبَهُ موسىٰ بعصاه وهو غافلٌ فيصيرَ عاصيًا للَّهِ عزَّ وجلَّ، فلمَّا تراءَىٰ الجمعانِ وتقَارَبَا، قال أصحابُ موسَىٰ: إنَّا لَمُدْرَكُونَ، افْعَلْ ما أَمَرَكَ به ربُّكَ، فإنَّهُ لم يَكْذِبْ ولم تَكْذِبْ. قال: وَعَدَنِي ربِّي إذا أَتَيْتُ البحرَ انفرَقَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً حتَّىٰ أُجاوِزَهُ، ثم ذَكَرَ بعدَ ذلك العَصَا، فَضَرَبَ البحرَ بِعصاه، حينَ دنا أوائلُ جندِ فرْعونَ من أواخرِ جندِ موسىٰ، فانفَرَقَ البحرُ كما أمَرَهُ ربُّهُ، وكما وعدَ موسىٰ، فلمَّا أن جاوزَ موسىٰ وأصحابُهُ كلُّهم البحرَ ودخلَ فرعونُ وأصحابُهُ، التقَىٰ عليهم البحرُ، كما أُمِرَ، فلمَّا جاوَزَ موسىٰ قال أصحابُهُ: إنَّا نخافُ أنْ لا يكونَ فرعونُ غَرِقَ، ولا نُؤمنُ بهلاكه. فدعا ربَّهُ فأخرَجَهُ له ببَدَنِه، حتَّىٰ استيْقَنُوا بهلاكه، ثم مَرُّوا بعدَ ذلك علىٰ قومٍ يعكُفُونَ علىٰ أصنامٍ لهم ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩] قد رأيتُم من العِبَرِ، وسمعتُمْ ما يَكْفِيكم ومَضَىٰ،

فأنزلَهُمْ موسَىٰ منْزلاً، وقال: أطيعُوا هارونَ، فَإنِّي قد استَخْلَفْتُهُ عليكُمْ، فإنِّي ذاهبٌ إلىٰ ربِّي. وأجَّلَهُمْ ثلاثينَ يومًا أنْ يَرجعَ إليهِمْ فيها، فلمَّا أتَىٰ ربَّهُ عزّ وجلَّ، وأرادَ أنْ يُكلِّمَهُ في ثلاثينَ يومًا، وقد صامَهُنَّ ليلَهن ونهارَهُنَّ، وكَرِه أنْ يُكلِّمَ ربَّه وريحُ فيه ريحُ فَم الصَّائم، فتناولَ موسىٰ شيئًا من نبات الأرضِ فَمَضَغَهُ، فقال له ربُّه حينَ أتاهُ: لِمَ أفْطَرْتَ؟ وهو أعلمُ بالذي كان، قال: يا ربِّ، إنِّي كَرِهْتُ أنْ أُكَلِّمَكَ إلا وفَمي طَيِّبُ الرِّيحِ. قال: أوَ ما عَلِمْتَ يا موسىٰ أنَّ ريحَ فم الصائمِ أطيبُ من ريح المسك، ارْجِعْ فصُمْ عَشْرًا، ثم ائتِني. ففَعَلَ موسىٰ ما أمَرَهُ به ربُّه، فلمَّا رأىٰ قومُ موسىٰ أنَّهُ لم يَرْجعْ إليهم في الأجَلِ ساءَهم ذلك، وكان هارونُ قد خَطَبَهُم وقال: إنَّكم خرجْتُم من مصرَ، ولقَوْمِ فرعونَ عندكم عَوارِيُّ وودائعُ، ولكم فيها مثلُ ذلك، وأنا أرَىٰ أن تحْتَسِبُوا ما لكم عندهم، ولا أُحِلُّ لكم وديعةً استُودِعْتُموها ولا عاريَّةً، ولسنا برادِّينَ إليهم شيئًا من ذلك ولا مُمْسكيه لأنفُسنا. فحَفَرَ حَفيرًا، وأمَر كلَّ قومٍ عندَهم من ذلك من متاعٍ أو حِلْيَةٍ أنْ يَقذِفُوه في ذلك الحفيرِ. ثم أوقَدَ عليه النارَ فأحْرَقَهُ، فقال: لا يكونُ لنا ولا لهم.

وكان السامريُّ من قومٍ يعبدُونَ البَقَرَ، جيرانٍ لبني إسرائيلَ، ولم يكن من بني إسرائيلَ، فاحتمَلَ مع موسىٰ وبني إسرائيلَ حين احتَمَلُوا، فقُضِيَ له أنْ رَأىٰ أثَرًا، فقَبَضَ منه قبضَةً، فمرَّ بهارونَ، فقال له هارونُ: يا سامريُّ، ألا تُلْقي ما في يدكَ؟ وهو قابضٌ عليه، لا يراه أحدٌ طوالَ ذلك، فقال: هذه قبضةٌ من أثر الرسولِ الذي جاوزَ بكمُ البحرَ، ولا أُلقيها لشيءٍ إلا أن تَدْعُوَ اللَّهَ إذا ألقَيْتُها أنْ يكونَ ما أُريدُ. فألقاها ودعا له هارونُ، فقال: أريدُ أن تكونَ عِجْلاً. فاجتَمَعَ ما كانَ في الحفرةِ من متاعٍ أو حلِيَةٍ، أو نُحاسٍ أو حديدٍ، فصار عجلاً أجوفَ ليس فيه رُوحٌ، له خُوارٌ.

قال ابن عباس: لا واللَّهِ ما كان له صوتٌ قطُّ، إنما كانت الريحُ تدخُلُ من دُبُرِه، وتخرجُ من فِيهِ، فكان ذلك الصوتُ من ذلك، فتفرَّقَ بنو إسرائيل فِرَقًا، فقالتْ فرقةٌ: يا سامريُّ، ما هذا، وأنت أعلم به؟ قال: هذا ربُّكم، ولكنَّ موسىٰ أضلَّ الطريقَ. وقالتْ فرقةٌ: لا نُكَذِّبُ بهذا حتَّىٰ يرجعَ إلينا موسَىٰ، فإنْ كان ربَّنا لم نكن ضَيَّعْناهُ وعَجَزْنا فيه حين رأيناه، وإن لم يكن ربَّنا فإنَّا نَتَّبعُ قولَ موسىٰ. وقالتْ فرقةٌ: هذا عملُ الشَّيطانِ، وليس بربِّنا، ولا نُؤمنُ به، ولا نُصدِّقُ. وأُشْرِبَ فرقةٌ في قلوبهم الصدقَ بما قال السامريُّ في العجلِ، وأعلَنُوا التكذيبَ به، فقال لهم هارونُ عليه السلامُ: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ [طـه: ٩٠] ليس هذا، قالوا: فما بالُ موسىٰ وَعَدَنا ثلاثينَ يومًا ثم أخلَفَنا؟ هذه أربعونَ يومًا قد مضَتْ. فقال سُفهاؤُهم: أخطأَ ربَّهُ، فهو يطلُبُهُ ويَبْتَغيه. فلمَّا كلَّم اللَّهُ موسىٰ وقالَ له ما قالَ، أخبَرَهُ بما لَقِيَ قومُهُ مِنْ بَعْدِه، فرَجَعَ إلىٰ قومه غَضْبانَ أسِفًا، فقال لهم ما سمعتُمْ في القرآنِ، وأخذ برأسِ أخيه يَجُرُّهُ إليه، وألقَىٰ الألواحَ من الغضَبِ، ثمَّ إنه عَذرَ أخاهُ بعُذْرِه، واستَغْفَرَ له، فانْصرَفَ إلىٰ السَّامريِّ فقال له: ما حملكَ علىٰ ما صَنَعْتَ؟ قال: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ وفَطِنْتُ لها، وعُمِّيَتْ عليكم فَقَذَفْتُها ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ

فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه: ٩٦، ٩٧] ولو كان إلهًا لم نخلُص إلى ذلك منه، فاستَيْقَنَ بنو إسرائيلَ بالفتنة، واغتبطَ الذين كان رأيُهم فيه مثلَ رأيِ هارونَ، فقالوا جماعتُهم: يا موسى سَلْ لنا أنْ يُفْتَحَ لنا بابُ توبةٍ نصنعُها فيُكفِّرَ عنَّا ما عَمِلْنا. فاختارَ موسى قومَهُ سبعينَ رجلا لذلك، لا يألُوا الخيرَ، خيارَ بني إسرائيلَ، ومن لم يُشْرِكْ في العجلِ، فانطلَقَ بهم يسألُ لهم التوبةَ، فرجَفَتْ بهمُ الأرضُ، فاستَحْيَا نبيُّ اللَّه عليه السلامُ من قومه، ومن وَفْدِه، حينَ فُعِلَ بهم ما فُعِلَ، فقال: ﴿ **لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا** ﴾ وفيه مَنْ كان اللَّهُ اطَّلَعَ منه على ما أُشْرِبَ قلبُه من حبِّ العجلِ وإيمانٍ به، فلذلك رَجَفَتْ بهم الأرضُ، فقال: ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ** ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] فقال: يا ربِّ، سألتُك التوبةَ لقومِي، فقلت: إنَّ رحمتَك كَتَبْتَها لقومٍ غيرِ قومِي، فليتَكَ أَخَّرْتَني حتَّى تُخرِجَني في أُمَّةِ ذلك الرجلِ المرحومةِ. فقال له: إنَّ تَوْبَتَهُم أنْ يَقْتُلَ كلُّ رجلٍ مَنْ لَقِيَ من والدٍ وولدٍ فيقتلَهُ بالسيفِ، لا يُبالي مَنْ قَتَلَ في ذلك الموطنِ. وتاب أولئك الذين كان خَفِيَ على موسى وهارونَ، واطَّلَعَ اللَّهُ من ذنوبِهِم، فاعترفُوا بها، وفعلُوا ما أُمِرُوا، وغَفَرَ اللَّهُ للقاتلِ والمقتولِ، ثم سار بهم موسى عليه السلام، مُتَوَجِّهًا نحو الأرضِ المُقدَّسةِ، وأخذَ الألواحَ بعدما سكتَ عنه الغضبُ، فأمرَهم بالذي أُمِرَ به من الوظائف فثَقُلَ ذلك عليهم، وأبَوا أنْ يُقِرُّوا بها، ونَتَقَ اللَّهُ عليهمُ الجبلَ كأنَّهُ ظُلَّةٌ، ودنا منهم حتَّى خافوا أنْ يَقَعَ عليهم، فأخذُوا الكتابَ بأيمانِهم وهم يُصغُونَ يَنْظُرونَ إلى الجبلِ، والكتابُ بأيديهم وهم من وراءِ الجبلِ، مخافةَ أنْ يَقَعَ عليهم، ثم مَضَوْا حتى أَتَوُا الأرضَ المقدَّسةَ، فَوَجَدُوا مَدينةً فيها قومٌ جبَّارونَ، خَلْقُهم خَلْقٌ مُنْكَرٌ - وذكرَ من ثمارِهم أمرًا عجيبًا من عِظَمِها - فقالوا: يا موسى، إنَّ فيها قومًا جبَّارينَ لا طاقةَ لنا بهم، ولا نَدْخُلُها ما دامُوا فيها، فإنْ يَخرُجُوا منها فإنا داخلُونَ. قال رجلانِ من الذين يخافون - قيل ليزيدَ: هكذا قَرأه؟ قال: نعم - من الجبارينَ آمَنَا بموسى، وخرجا إليه، فقالوا: نحنُ أعلمُ بقومِنَا، إنْ كنتم إنما تخافونَ ما رأيتُ من أجسامِهِم وعددِهم، فإنَّهم لا قلوبَ لهم، ولا مَنَعَةَ عندَهم، فادْخُلوا عليهم البابَ، فإذا دَخَلْتُمُوه فإنَّكم غالِبون.

ويقول أُناسٌ: إنَّهما من قومِ موسى. فقال الذي يخافون؛ بنو إسرائيلَ: ﴿ **قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾ [المائدة: ٢٤]. فأَغْضَبُوا موسى، فدعَا عليهم، وسمَّاهم فاسِقينَ، ولم يَدْعُ عليهم قبلَ ذلك؛ لِما رأى منهم من المعصيةِ وإساءَتِهم، حتَّى كان يومَئذٍ، فاستَجابَ اللَّهُ له وسمَّاهم كما سمَّاهم فاسِقينَ، فحرَّمَها عليهم أربعينَ سَنَةً، يَتِيهُون في الأرضِ، يُصْبِحُون كلَّ يومٍ، فيسيرُون ليس لهم قرارٌ، ثم ظَلَّلَ عليهم الغَمامَ في التِّيه، وأنزلَ عليهمُ المَنَّ والسَّلْوَى، وجعلَ لهم ثيابًا لا تَبْلَى ولا تَتَّسخُ، وجَعَلَ بينَ ظَهْرانَيْهِمْ حَجَرًا مُرَبَّعًا

وأَمَرَ موسىٰ فضَرَبَهُ بعصاه، فانفَجَرَتْ منه اثنتا عَشْرَةَ عينًا، في كلِّ ناحيةٍ ثلاثةُ أعْيُنٍ، وأَعْلَمَ كلَّ سِبْطٍ عينَهم التي يَشْربونَ منها، فلا يَرْتحلُون من مَنْقَلَةٍ إلا وَجَدُوا ذلك الحَجَرَ بالمكانِ الذي كان فيه بالأمسِ. رَفَعَ ابنُ عباسٍ هذا الحديثَ إلىٰ النبيِّ ﷺ، وصدَّقَ ذلك عندي أنّ معاويةَ سَمعَ ابنَ عبَّاسٍ حدَّثَ هذا الحديثَ، فأنكرَ عليه أنْ يكونَ الفِرْعونيُّ الذي أَفْشَىٰ علىٰ موسىٰ أَمْرَ القتيلِ الذي قَتَلَ، فقال: كيف يُفْشِي عليه، ولم يَكُنْ عَلِمَ به ولا ظَهَرَ عليه إلا الإسرائيليُّ الذي حَضَرَ ذلك؟ فَغَضبَ ابنُ عباسٍ، فأخَذَ بيدِ معاويةَ فانطَلَقَ به إلىٰ سعدِ بن مالكٍ الزُّهْرِيِّ، فقال له: يا أبا إسحاقَ، هل تَذْكُرُ يومَ حدَّثنا رسولُ اللَّهِ ﷺ عن قتيلِ موسىٰ الذي قتَلَ من آلِ فرعونَ؟ الإسرائيليُّ الذي أفْشَىٰ عليه، أم الفِرْعَونيُّ؟ قال: إنما أَفْشَىٰ عليه الفرعونيُّ بما سمعَ الإسرائيليَّ الذي شَهِدَ ذلك وحضَرَهُ. هكذا ساقَ هذا الحديثَ الإمامُ النَّسائيُّ، وأخرَجَهُ ابنُ جريرٍ، وابنُ أبي حاتمٍ في تفسيرَيْهما، ومن حديثِ يزيدَ بنِ هارونَ، والأشْبَهُ واللَّهُ أَعْلَمُ أنَّهُ موقوفٌ، وكونُهُ مرفوعًا فيه نَظَرٌ، وغالبُهُ مُتَلَقًّى من الإسرائيلياتِ، وفيه شيءٌ يسيرٌ مُصَرَّحٌ برفعِهِ في أثناءِ الكلامِ، وفي بعضِ ما فيه نظرٌ ونَكَارَةٌ، والأغلبُ أنَّهُ من كلامِ كعبِ الأحبارِ، وقد سَمِعْتُ شيخَنا الحافظَ أبا الحجاجِ المِزِّيَّ يقولُ ذلك، واللَّهُ سُبحانَهُ وتعالَىٰ أَعلمُ.

ذكر بناء قبة الزمان

قال أهلُ الكتابِ: وقد أَمَرَ اللَّهُ موسىٰ عليه السلام، بعملِ قُبَّةٍ من خَشَبِ الشّمشارِ، وجلودِ الأنعامِ، وشَعْرِ الأغنامِ، وأَمَرَ بزينتِها بالحريرِ المُصَبَّغِ والذَّهبِ والفِضَّةِ، علىٰ كيفيَّاتٍ مُفصَّلَةٍ عند أهلِ الكتابِ، ولها عَشْرُ سُرادِقاتٍ، طولُ كلٍّ واحدٍ ثمانيةٌ وعشرونَ ذِراعًا، وعَرْضُهُ أربعةُ أَذْرُعٍ، ولها أربعةُ أبواب، وأطنابٌ من حريرٍ ودِمَقْسٍ مُصبَّغٍ، وفيها رفوفٌ وصفائحُ من ذهبٍ وفضَّةٍ، ولكلِّ زاويةٍ بابانِ، وأبوابٌ أُخرُ كبيرةٌ، وستورٌ من حريرٍ مصبَّغٍ، وغيرُ ذلك مما يطولُ ذِكْرُهُ، وبعَمَلِ تابوتٍ من خَشَبِ الشّمشار يكونُ طولُهُ ذراعينِ ونِصفًا، وعرضُهُ ذراعين، وارتفاعُهُ ذراعًا ونصفًا، ويكونُ مُضبَّبًا بذهبٍ خالصٍ، من داخِله وخارجِهِ، وله أربعُ حِلَقٍ، في أربعِ زواياه، ويكونُ علىٰ حافَّتَيْهِ كَرُوبيَّانِ من ذهبٍ، يعنون صفةَ مَلَكَيْنِ بأجنحةٍ، وهما متقابلانِ، صنعه رجلٌ اسمُه بصليالُ، وأمره أن يعملَ مائدةً من خشبِ الشّمشارِ، طولُها ذراعانِ، وعرضُها ذراعٌ ونصفٌ، لها ضبابُ ذهبٍ، وإكليلُ ذهبٍ بشَفَةٍ مرتفعةٍ، بإكليلٍ من ذهبٍ، وأربعُ حِلَقٍ من نواحيها من ذهبٍ؛ خرزُهُ مثل الرُّمَّانِ من خشبٍ مُلَبَّسٍ ذَهَبًا، واعمَلْ صِحافًا ومصافِيَ وقِصاعًا علىٰ المائدة، واصنَعْ منارةً من ذهبٍ دُلِّيَ فيها ستُّ قَصَباتٍ من ذهبٍ، من كلِّ جانبٍ ثلاثٌ، علىٰ كلِّ قَصَبَةٍ ثلاثُ سُرُجٍ، وليكنْ في المنارةِ أربعُ قناديلَ، ولتكن هي وجميعُ هذه الآنيةِ من قِنطارٍ من ذهبٍ، صَنَعَ ذلك بصليالُ أيضًا، وهو الذي عملَ المذبحَةَ أيضًا، ونصَبَ هذه القبةَ أولَ يومٍ من سنَتِهِم، وهو أولُ يومٍ من الربيعِ، ونصبَ تابوتَ الشهادة، وهو - واللَّهُ أعلم - المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ آيَةَ مُلْكِه أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وقد بُسِطَ هذا الفصلُ في كتابِهِم مُطولاً جداً، وفيه شرائعُ لهم، وأحكامٌ، وصفةُ قُربانِهِم، **وكيفيَّتُهُ، وفيه أنَّ** قبَّةَ الزَّمانِ كانت موجودةً قبلَ عبادَتِهِم العِجْلَ، الذي هو مُتقدِّمٌ على مجيئِهم بيتَ المقدسِ، **وأنَّها** كانت لهم كالكعبةِ يُصلُّونَ فيها وإليها، ويَتَقَرَّبُونَ عندَها، وأنَّ موسى عليه السلامُ، **كان إذا دخلَها** يَقِفُونَ عندها، وينزلُ عمودُ الغمامِ على بابِها، فيَخِرُّون عندَ ذلك سُجَّداً للَّهِ عزَّ وجلَّ، **ويكلِّمُ اللَّهُ** موسى عليه السلام من ذلك العمودِ الغمامِ، الذي هو نورٌ، ويخاطبُهُ، ويناجِيه، **ويأمُرُه وينهاهُ**، وهو واقفٌ عندَ التابوتِ، صامدٌ إلى ما بينِ الكَرُوبيَّيْنِ، فإذا فُصِلَ الخطابُ، يخبرُ بني إسرائيلَ بما أوحاهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ إليه من الأوامرِ والنواهِي، وإذا تحاكَمُوا إليه في شيءٍ، ليس عندهُ من اللَّهِ فيه شيءٌ، يجيءُ إلى قبةِ الزمانِ، ويقفُ عندَ التابوتِ، ويصمُدُ لما بينَ ذَيْنِكَ الكروبيَّين، فيأتِه الخطابُ بما فيه فصلُ تلك الحكومةِ، وقد كان هذا مشروعًا لهم في زمانِهم، أعنِي استعمالَ الذهبِ والحريرِ المُصبَّغِ، واللآلِئِ في معبَدِهم، وعندَ مُصلاهم، فأمَّا في شريعتنا فلا، بل قد نُهينا عن زخرفَةِ المساجِدِ، وتَزيينِها؛ لئَلا تشغَلَ المُصلين، كما قال عمرُ بن الخطابِ [1] رَضِيَ اللَّهُ عنهُ، لَمَّا وسَّعَ في مسجدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ فقال للذِي وكَّله على عِمارتِهِ: ابنِ للناسِ ما يُكِنُّهم، وإياكَ أنْ تُحَمِّرَ أو تُصفِّرَ، فتَفْتِنَ الناسَ.

وقال ابنُ عباسٍ[2] :لتُزَخْرِفُنَّها كما زَخْرَفَتِ اليهودُ والنَّصارَىٰ كنائِسَهم.

وهذا من بابِ التشريفِ والتكريمِ والتَّنْزيهِ فهذه الأمةُ غيرُ مشابِهةٍ من كان قبلهم من الأممِ؛ إذْ جمعَ اللَّهُ همَّهم في صلاتِهِم على التوجُّه إليه، والإقبالِ عليه، وصانَ أبصارَهم وخواطِرَهم عن الاشْتغالِ والتفكُّرِ في غيرِ ما هم بصَدَدِهِ من العبادة العظيمة، فللَّهِ الحمدُ والمنَّةُ.

وقد كانت قبَّةُ الزَّمانِ هذه مع بني إسرائيلَ في التِّيهِ يُصلُّونَ إليها، وهي قِبْلَتُهم وكَعْبَتُهم، وإمامُهم كليمُ اللَّهِ موسى عليه السلام، ومقدِّمُ القُربانِ أخوهُ هارونُ عليه السلام.

فلمَّا ماتَ هارونُ، ثم موسَى عليهما السلام، استمرَّتْ بنو هارونَ في الذي كان يَلِيه أبوهم من أمرِ القُربانِ، وهو فيهم، إلى الآنَ، وقام بأعباءِ النُّبوةِ بعدَ موسى وتدبيرِ الأمرِ بعدَهُ فتاه يوشَعُ بنُ نونٍ عليه السلام، وهو الذي دخَلَ بهم بيتَ المقدسِ؛ كما سيأتي بيانُهُ.

والمقصودُ هنا أنَّهُ لَمَّا استَقَرَّتْ يدُهُ على البيت المقدَّس، نَصَبَ هذه القُبَّةَ على صخرةِ بيتِ المقدسِ، فكانوا يُصَلُّونَ إليها، فلمَّا بادتْ صَلَّوْا إلى محلَّتِها، وهي الصخرةُ، فلهذا كانت قبلةَ الأنبياء بعدَهُ إلى زمانِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، وقد صلَّى إليها رسولُ اللَّهِ ﷺ قبلَ الهجرةِ، وكان يجعلُ الكعبةَ بينَ يديْه، فلمَّا هاجرَ أُمِرَ بالصَّلاةِ إلى بيتِ المقدسِ، فصلَّى إليها ستَّةَ عشَرَ، وقيل: سبعَةَ عشرَ شهراً. ثم حُوِّلَتِ

---

(١) علقه البخاري (كتاب الصلاة باب ـ ٦٢ ـ ١/ ٦٤٢) فتح.

(٢) صحيح: علقه البخاري نفس المصدر ووصله أبو داود (٤٤٨) وسنده صحيح.

القبلةُ إلى الكعبة[١]، وهي قبلةُ إبراهيمَ، في شعبانَ سنةَ ثنتين، في وقت صلاة العصر. وقيل الظهر، كما بسطنا ذلك في «التفسير» عند قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٢-١٤٤].

قصة قارون مع موسى عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٨٣].

قال الأعمشُ: عن المنهالِ بنِ عمرو، عن سعيدِ بنِ جُبير، عن ابنِ عباس[٢]، قال: كان قارونُ ابنَ عمِّ موسى. وكذا قال إبراهيمُ النَّخَعيُّ[٣]، وعبدُالله بن الحارث بن نوفل[٤]، وسماكُ بن حرب[٥]، وقتادةُ[٦]، ومالكُ بن دينار[٧]، وابنُ جريج[٨]، وزاد فقال: هو قارونُ بن يصهرَ بن قاهث، وموسى بن عمرانَ بن قاهث.

قال ابنُ جريرٍ: وهذا قولُ أكثرِ أهلِ العلمِ؛ أنَّهُ كانَ ابنَ عمِّ موسى. وردَّ قولَ ابنِ إسحاقَ أنَّهُ كان عمَّ موسى.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٤٠) من حديث البراء وفيه: «وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً..» الحديث. ومسلم (١١٧٧).

(٢) صحيح إليه: رواه ابن أبي حاتم (١٧٧٤) من رواية محاضر عن الأعمش ومحاضر له أوهام وباقي السند ثقات. وتابع محاضر. علي بن هاشم بن البريد وهو ثقة عند الطبري في «التاريخ» (١/ ٢٦٥).

(٣) صحيح إليه: رواه ابن جرير في «التاريخ» (١/ ٢٦٢) من طرق عنه صحيحة وضعيفة.

(٤) ضعيف: نفس المصدر (١/ ٢٦٥) فيه ابن جدعان ضعيف.

(٥) صحيح الإسناد: رواه ابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ١٠٦) وسنده صحيح.

(٦) صحيح الإسناد: ابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ١٠٦) في التاريخ والتفسير. بسند صحيح عنه.

(٧) صحيح الإسناد: ابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ١٠٦) بسند صحيح عنه.

(٨) ضعيف إليه: رواه ابن جرير (١١/ الجزء٢٠/ ١٠٦) من طريق سنيد وسُنيد ضعيف.

قال قتادةُ[١]: وكان يُسمَّىٰ المنوِّرَ؛ لحسنِ صوتِهِ بالتَّوراةِ، ولكنَّ عدوَّ اللَّه نافَقَ، كما نافَقَ السامِرِيُّ، فأهلكه البَغْيُ، لكثرَةِ ماله. وقال شهرُ بنُ حوشَبٍ [٢]: زاد في ثيابِهِ شِبْرًا طولاً؛ ترفُّعًا علىٰ قومِهِ. وقد ذكرَ اللَّهُ تعالىٰ كثرةَ كُنوزِهِ؛ حتَّىٰ إنَّ مفاتيحَهُ كان يَثْقُلُ حملُها علىٰ الفئامِ من الرجالِ الشِّدادِ، وقد قيل: إنَّها كانت من الجلودِ، وإنَّها كانت تُحْمَلُ علىٰ ستينَ بغلاً. فاللَّهُ أعلَمُ. وقد وَعَظَهُ النُّصحاءُ من قومِهِ؛ قائلين: ﴿**لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ**﴾ أي: لا تبطَرْ بما أُعطيتَ، وتفخَرْ علىٰ غيرك ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ**﴾ يقولون: لتَكُنْ همَّتُك مصروفةً لتحصيلِ ثوابِ اللَّهِ في الدارِ الآخرةِ، فإنَّه خيرٌ وأبقىٰ، ومع هذا: ﴿**وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ أي: وتناوَلْ منها بمالك ما أحلَّ اللَّهُ لك، فتمتَّعْ لنفسك بالملاذِّ الطيبة الحلال، ﴿**وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾ أي: وأحسِن إلىٰ خلقِ اللَّه كما أحسنَ اللَّهُ خالقُهم وبارئُهم إليك، ﴿**وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ**﴾ أي: ولا تسئْ إليهم، ولا تُفسدْ فيهم، فتقابلَهم ضدَّ ما أمرْتَ فيهم، فيُعاقِبَكَ ويَسلُبكَ ما وهبَكَ ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ فما كان جوابَهُ لهذه النصيحةِ الصحيحةِ الفصيحةِ، إلا أن ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي**﴾ يعني: أنا لا أحتاجُ إلىٰ استعمالِ ما ذكرتُم، ولا إلىٰ ما إليه أشرتُم؛ فإنَّ اللَّهَ إنما أعطاني هذا لعلمِهِ أنِّي أستحقُّه، وأنِّي أهلٌ له، ولولا أنِّي حبيبٌ إليه وحظِيٌّ عنده، لما أعطاني ما أعطاني.

قال اللَّه تعالى رادًا عليه فيما ذهب إليه: ﴿**أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ**﴾ أي: قد أهلكنا من الأممِ الماضين بذنوبِهم وخطاياهم، مَن هو أشدُّ من قارونَ قوةً، وأكثرُ أموالاً وأولادًا، فلو كان ما قال صحيحًا لم نُعاقب أحدًا ممن كان أكثرَ مالاً منه، ولم يكن مالُه دليلاً علىٰ محبَّتنا له، واعتنائنا به، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ [سبأ: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿**أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] وهذا الردُّ عليه يدلُّ علىٰ صحة ما ذهبنا إليه من معنىٰ قوله: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي**﴾.

وأما من زعم أنَّ المراد من ذلك، أنَّه كان يعرفُ صنعة الكيمياء، أو أنَّه كان يحفظُ الاسمَ الأعظمَ، فاستعملهُ في جمعِ الأموالِ، فليس بصحيحٍ؛ لأنَّ الكيمياءَ تخييلٌ وصِبْغَةٌ لا تحيلُ الحقائقَ، ولا تشابِه صنعةَ الخالقِ، والاسمُ الأعظمُ لا يصعدُ الدُّعاءُ به من كافرٍ به، وقارونُ كان كافرًا في الباطنِ، منافقًا في الظاهرِ، ثم لا يَصِحُّ جوابُهُ لهم بهذا، علىٰ هذا التَّقديرِ، ولا يبقَىٰ بين الكلامينِ تلازُمٌ، وقد وضَّحْنا هذا في كِتابنا «التفسير»، وللَّهِ الحمدُ.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿**فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ**﴾ ذكر كثير من المفسرينَ أنَّه خرجَ في تجمُّلٍ عظيمٍ؛ من ملابِسَ، ومراكِبَ وخدمٍ، وحشمٍ، فلمَّا رآه من يُعظِّم زهرةَ الحياةِ الدُّنيا تمنَّوا أن لو كانوا مثلَهُ،

---

(١) **صحيح الإسناد**: ابن جرير (١١/ الجزء ٢٠/ ١٠٦) في «التاريخ» و«التفسير». بسند صحيح عنه.

(٢) **ضعيف إليه**: رواه ابن جرير (١١/ الجزء ٢٠/ ١٠٦) من رواية الليث بن أبي سليم عنه، ليث ضعيف.

وغَبَطُوه بما عليه وله، فلمَّا سمعَ مقالتَهم العلماءُ ذَوو الفَهْم الصحيح، الزُّهادُ الألبّاءُ، قالوا لهم: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي: ثوابُ اللَّه في الدارِ الآخرةِ خيرٌ وأبقى، وأجلُّ وأعلى.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ أي: وما يُلقَّى هذه النصيحةَ، وهذه المقالة، وهذه الهمَّةَ الساميةَ إلى الدار الآخرة العليَّة، عندَ النظرِ إلى زهرةِ هذه الدنيا الدَّنيَّة، إلا من هدَى اللَّهُ قلبَهُ، وثبَّت فؤادَهُ، وأيَّد لبَّه، وحقَّقَ مُرادَهُ، وما أحسنَ ما قال بعضُ السلف: إنَّ اللَّهَ يحبُّ البَصرَ النافذَ عندَ وُرودِ الشُّبُهات، والعقلَ الكاملَ عندَ حُلولِ الشَّهَوات.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ لمَّا ذكر تعالى خُروجَهُ في زينته، واختيالَهُ فيها، وفَخْرَهُ على قومه بها قال: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾.

كما روى البخاريُّ[1] من حديث الزُّهْريِّ، عن سالمٍ، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «بَيْنا رجلٌ يجرُّ إزارَهُ، إذْ خُسف به، فهو يتَجلْجَلُ في الأرضِ إلى يومِ القيامة» ثُمَّ رواهُ البُخاريُّ[2] من حديثِ جريرِ بن زيدٍ، عن سالم، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ نحوَهُ.

وقد ذُكر عن ابن عباسٍ[3] والسُّدِّيِّ[4] أنَّ قارونَ أعطَى امرأةً بغيًا مالاً على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في ملأ من الناس: إنك فعلتَ بي كذا وكذا. فيقالُ: إنها قالت له ذلك، فأَرْعَدَ من الفَرَقِ، وصلَّى ركعتين، ثم أقبلَ عليها، فاستحْلَفَها: من دلَّك على ذلك، وما حَمَلَك عليه؟ فذكرت أنَّ قارونَ هو الذي حملها على ذلك، واستغفَرت اللَّهَ، وتابتْ إليه، فعندَ ذلك خرَّ موسى للَّه ساجدًا، ودعا اللَّهَ على قارونَ، فأوحَى اللَّهُ إليه: أني قد أمرتُ الأرضَ أن تُطيعَكَ فيه، فأمرَ موسى الأرضَ أنْ تبتَلِعَهُ ودارَهُ، فكان ذلك، فاللَّهُ أعلمُ. وقد قيلَ: إنَّ قارونَ لمَّا خرجَ على قومِه في زينته، مرَّ بجَحْفَله وبغاله، وملابسه على مجلسِ موسى عليه السلامُ، وهو يذكِّرُ قومَهُ بأيام اللَّه، فلمَّا رَآهُ الناسُ انصرَفَتْ وجوهُ كثيرٍ من الناسِ ينظُرونَ إليه، فدعاهُ موسى عليه السلامُ، فقال له: ما حملكَ على هذا؟ فقال: يا موسى، أما لَئِنْ كنتَ فُضِّلْتَ عليَّ بالنُّبوة، فلقدْ فُضِّلْتُ عليك بالمال، ولئنْ شئت لَتَخْرُجَنَّ فلَتَدْعُونَّ عليَّ، ولأَدْعُونَّ عليكَ. فخرجَ وخرج قارونُ في قومِه، فقال له موسى: تدعو أو أدعو؟ قال: أدعو أنا. فدعا قارونُ، فلم يُجب في موسى، فقال موسى: أدعو؟ قال: نعم. فقال موسى: اللَّهُمَّ مُرِ الأرضَ فلْتُطعْني اليومَ. فأوحَى اللَّهُ إليه: إنِّي قد فعلتُ. فقال موسى: يا أرضُ خُذيهم. فأخَذَتْهُم إلى أقدامهم، ثم قال: خُذيهم. فأخذتهم إلى رُكَبِهم، ثم إلى مناكِبِهم، ثم قال:

---

(١) صحيح: البخاري (٣٤٨٥).
(٢) صحيح: البخاري (٥٧٩٠).
(٣) رجاله ثقات: رواه ابن جرير «التاريخ» (١/ ٢٦٥) من رواية الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عنه.
(٤) حسن: رواية ابن أبي حاتم (١٧١٥٤) من رواية أسباط عنه.

أقبلي بكنوزهم وأموالهم، فأقبلَتْ بها، حتَّىٰ نَظَروا إليها، ثم أشار موسىٰ بيده فقال: اذهبوا بَني لاوي. فاستوتْ بهمُ الأرضُ.

وقد روي عن قتادة[(١)] **أنَّهُ قال**: يُخسَفُ بهم كلَّ يومٍ قامةً، إلىٰ يوم القيامة.

وعن ابن عباس[(٢)] **أنَّه قال**: خُسِفَ بهم إلىٰ الأرضِ السابعة.

وقد ذكرَ كثيرٌ من المفسرينَ هاهنا إسرائيلياتٍ كثيرةً، أضربْنا عنها صفحًا، وتركناها قَصْدًا.

وقوله تعالى: ﴿**فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ**﴾ لم يكن له ناصرٌ من نفسه ولا من غيره، كما قال: ﴿**فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ**﴾ [الطارق: ١٠] ولمَّا حلَّ به ما حلَّ من الخسف وذَهاب الأموال، وخراب الدَّار وهلاك النفس والأهلِ والعَقَار، نَدمَ مَنْ كان تَمَنَّىٰ مثل ما أوتيَ، وشكروا اللَّهَ تعالىٰ الذي يُدَبِّرُ عبادَهُ بما يشاءُ، من حُسنِ التدبير المخزون، ولهذا قالوا: ﴿**لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**﴾، وقد تكلمنا علىٰ لفظ: «وَيْك» في «التفسير»، وقد قال قتادة: ويكأنَّ بمعنىٰ: ألم ترَ أنَّ. وهذا قولٌ حسنٌ من حيثُ المعنىٰ. واللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم أخبر تعالى: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ**﴾ وهي دارُ القرارِ. وهي الدارُ التي يُغْبَطُ من أُعْطِيَها، ويُعَزَّىٰ من حُرِمَها، إنَّما هي مُعَدَّةٌ للذينَ لا يُريدونَ عُلُوًا في الأرضِ ولا فسادًا. فالعُلُوُّ هو التَّكَبُّرُ والفَخْرُ والأَشَرُ والبَطَرُ. والفسادُ: هو عملُ المعاصي اللازمة والمُتَعَدِّيَة؛ من أخذ أموال الناسِ، وإفسادِ معايشِهِم، والإساءة إليهم، وعدم النُّصح لهم، ثم قال تعالىٰ: ﴿**وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾.

وقصَّةُ قارونَ هذه، قد تكونُ قبلَ خروجهم من مصرَ؛ لقوله: ﴿**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ**﴾ فإنَّ الدارَ ظاهرةٌ في البُنيانِ، وقد تكونُ بعدَ ذلك في التِّيهِ، وتكونُ الدارُ عبارةً عن المحلَّة التي تُضْرَبُ فيها الخيامُ، كما قال عنترةُ:

يـا دارَ عـبـلـةَ بالجـواءِ تـكلَّمي ... وعِـمي صبـاحًـا دارَ عـبلةَ واسْلَمي

واللَّهُ أَعْلَمُ.

وقد ذكر اللهُ تعالى مَذَمَّةَ قارونَ في غير ما آية من القرآن:

قال اللَّهُ تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤].

وقال تعالىٰ في سورة «العنكبوت» بعدَ ذكرِ عادٍ وثمود: ﴿**وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا**

---

(١) **صحيح**: رواه ابن جرير في «التفسير» (١١/ ٢٠/ ١١٩، ١٢٠) بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة ومعمر عنه وكذلك من طريق سعيد بن بشير عنه.

(٢) **صحيح إليه**: رواه ابن جرير (١١/ ٢٠/ ١١٩) وابن أبي حاتم (١٧١٥٩) من رواية أبي نصر الأسدي عنه وثقه أبو زرعة انظر «الجرح والتعديل».

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٩، ٤٠] فالذي خُسِف به الأرضُ قارونُ، كما تقدَّمَ، والذي أُغرقَ فِرعونُ وهامانُ وجُنُودُهما، إنَّهم كانوا خاطِئين.

وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا أبو عبد الرحمن، حدَّثنا سعيدٌ، حدَّثنا كعبُ بنُ علْقَمَةَ، عن عيسىٰ ابن هلالٍ الصَّدَفيِّ، عن عبدِاللَّه بن عمرٍو، عن النبي ﷺ، أنَّه ذكر الصلاةَ يومًا فقال: «**من حافَظَ عليها كانت له نوراً وبُرْهانًا ونجاةً يومَ القيامة، ومن لمْ يُحافظْ عليها، لم يكنْ له نورٌ ولا بُرهانٌ ولا نجاةٌ، وكان يومَ القيامةِ مع قارونَ وفرْعَونَ وهامانَ وأُبيِّ بن خَلَفَ**» انفرَدَ به أحمدُ[1] ، رحمهُ اللَّهُ.

ذكر فضائل موسى عليه السلام وشمائِله وصفاتِه ووفاتِه

قال اللَّه تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا** ﴾ [مريم: ٥١، ٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ **يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي** ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وتقدَّمَ في «الصحيحين»[2] ، عن رسولِ اللَّه ﷺ أنّه قال: «**لا تُفَضِّلُوني على مُوسَى؛ فإنَّ الناسَ يُصْعَقُونَ يومَ القيامة، فأكونُ أولَ من يُفيقُ، فأجدُ موسى باطشًا بقائمة العرشِ، فلا أدْري أَصُعِقَ فأفاقَ قَبْلِي، أمْ جُوزِيَ بصَعْقَةِ الطُّورِ**».

وقدّمنا أنَّ هذا من رسولِ الله ﷺ من بابِ الهضمِ والتواضُعِ، وإلا فهو صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه خاتمُ الأنبياءِ، وسيدُ ولدِ آدمَ في الدُّنيا والآخرةِ، قطْعًا جزْمًا لا يحتَمِلُ النَّقيضَ.

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ** ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿ **وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** ﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا** ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

قال الإمامُ أبو عبد اللَّه البُخاري[3]: حدَّثنا إسحاقُ بنُ إبراهيمَ، حدَّثنا رَوْحُ بن عُبادةَ، عن عوفٍ، عن الحسنِ ومحمدٍ وخِلاسٍ، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**إنَّ موسى كان رجلاً حَيِيًّا ستِّيرًا، لا يَرَى جلدَهُ شيءٌ؛ استحياءً منه، فآذاهُ من آذاه من بَني إسرائيلَ، فقالوا: ما يَسْتَتِرُ هذا التسترُّ إلا من عيبٍ بجلده؛ إما بَرَصٌ وإمَّا أُدْرَةٌ، وإمَّا آفةٌ، وإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أراد أن يُبرِّئَهُ مما قالوا لموسَى، فخلا يومًا وَحْدَهُ، فوضَعَ ثيابَهُ على الحَجَرِ، ثم اغتَسَلَ، فلمَّا فرغَ، أقبلَ إلى ثيابه ليأخُذَها، وإنَّ الحجرَ عدَا بثوبِهِ، فأخذَ موسَى عَصَاهُ، وطلبَ الحجَرَ، فجعَلَ يقولُ: ثوبي حَجَرُ، ثوبيَ حَجَرُ. حتَّى انتهى إلى ملأٍ من**

---

(١) حسن: «المسند» (٢/ ١٦٩) ورواه ابن حبان (١٤٦٧) من نفس الطريق تفرد به عيسى ين هلال الصدفي المصري عن عبد اللَّه بن عمرو. ترجم له البخاري في «الكبير» وذكر عن عياش بن عباس أنه سمع عبد اللَّه. وكذلك ابن أبي حاتم «الجرح والتعديل» ووثقه ابن حبان وقال الحافظ: صدوق.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) صحيح: البخاري (٣٤٠٤)، «المسند» (٢/ ٣١٥) من طريق همام و(٢/ ٣٢٤) من طريق عبد اللَّه بن شقيق.

بني إسرائيلَ، فرأوْه عُريانًا، أحسنَ ما خلقَ اللَّهُ وأبرأَه ممَّا يقولُونَ، وقام الحجرُ، فأخذَ ثوبَهُ فلبسَهُ، وطفقَ بالحجرِ ضربًا بعصاهُ، فواللَّه إنَّ بالحجرِ لندبًا من أثرِ ضربِه ثلاثًا أو أربعًا، أو خمسًا» قال: «فذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾»

وقد رواه الإمامُ أحمدُ من حديث عبدِاللَّه بن شقيقٍ، وهمَّام بن مُنبِّهٍ، عن أبي هريرة به، وهو في «الصحيحين»[1] من حديث عبدِ الرَّزاقِ، عن مَعْمَرٍ، عن همَّام، عنه به، ورواهُ مُسلم[2] من حديث عبداللَّه بن شقيقٍ العُقَيْليِّ عنه.

قال بعضُ السَّلف: كان من وجاهته أنَّه شفعَ في أخيه عندَ اللَّه وطلبَ منه أنْ يكونَ معه وزيرًا، فأجابَهُ اللَّهُ إلىٰ سؤالِه، وأعطاه طَلِبَتَهُ، وجعلهُ نبيًّا؛ كما قال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾.

ثم قال البخاريُّ: حدَّثنا أبو الوليد، حدثنا شُعبةُ، عن الأعمش، سألتُ أبا وائلٍ، قال: سمعتُ عبدَ اللَّه، قال: قسَمَ رسولُ اللَّه ﷺ قَسْمًا، فقال رجلٌ: إنَّ هذه لَقِسْمَةٌ ما أُريدَ بها وجهُ اللَّه. فأتيتُ النبيَّ ﷺ فأخبرْتُهُ، فغَضِبَ حتَّىٰ رأيتُ الغضبَ في وجهِه، ثم قال: «يَرْحَمُ اللَّهُ موسَىٰ، قد أُوذِيَ بأكثرَ من هذا فَصَبَرَ»[3] وكذا رواهُ مسلمٌ من غير وجهٍ، عن سُليمانَ بن مهرانَ الأعمشِ به.

وقال الإمامُ أحمدُ[4]: حدَّثنا حجاجٌ، سمعتُ إسرائيلَ بن يونُسَ، عن الوليدِ بن أبي هاشمٍ، مولىً لِهَمْدانَ، عن زيدِ بن أبي زائدٍ، عن عبداللَّه بن مسعودٍ، قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ لأصحابه: «لا يبلِّغني أحدٌ عن أحدٍ شيئًا، فإنِّي أحبُّ أنْ أخرجَ إليكم وأنا سليمُ الصَّدْرِ» قال: وأتىٰ رسولَ اللَّه ﷺ مالٌ فقسَمَهُ قال: فمررتُ برجُلَيْنِ، وأحدُهما يقولُ لصاحبِه: واللَّه ما أرادَ محمدٌ بقِسْمَتِه وجهَ اللَّه، ولا الدارَ الآخرةَ، فثَبتُّ حتىٰ سمعتُ ما قالا. ثم أتيتُ رسولَ اللَّه فقلتُ: يا رسولَ اللَّه ﷺ، إنَّكَ قلتَ لنا: «لا يُبلِّغني أحدٌ عن أحدٍ من أصحابي شيئًا» وإنِّي قد مررتُ بفلانٍ وفلانٍ، وهما يقولان كذا وكذا، فاحمرَّ وجهُ رسول اللَّه ﷺ وشقَّ عليه، ثم قال: «دعْنا منكَ، فقد أُوذِيَ موسى أكثرَ من ذلك فَصَبَرَ» وهكذا رواه أبو داودَ والتِّرْمِذيُّ، من حديثِ إسرائيلَ، عن الوليدِ بن أبي هاشمٍ به، وفي رواية للترمذيِّ[5]، ولأبي داود، من طريقِ الحسينِ بن محمدٍ، عن إسرائيلَ، عن السُّدِّيِّ، عن الوليدِ به. وقال الترمذيُّ: غريبٌ من هذا الوجه.

وقد ثبتَ في «الصحيح»[6] في أحاديثِ الإسراءِ أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ مرَّ بموسىٰ، وهو قائمٌ يُصلِّي في قبْرِه. ورواهُ مُسلم[7] عن أنسٍ.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٢٧٨)، مسلم (٦٠٩٨).
(٢) صحيح: مسلم (٦٠٩٩).
(٣) متفق عليه: البخاري (٣٤٠٥)، مسلم (٢٤٤٤).
(٤) ضعيف: «المسند» (١/ ٣٩٥)، أبو داود (٤٨٦٠)، الترمذي (٣٨٩٦).
(٥) الترمذي (٣٨٩٧) فيه الوليد. مجهول وكذلك زيد بن زائد، أبو داود (٤٨٦٠) وليس في السند السدي.
(٦) سبق تخريجه.
(٧) مسلم (٦١٠٧).

وفي «الصحيحين»(١) من رواية قتادة، عن أنس، عن مالك بن صعصعة، عن النبي ﷺ، أنَّه مرَّ ليلةَ أُسْرِيَ به بموسى في السماء السادسة، فقال له جبريلُ: هذا موسى، فسلِّم عليه، قال: «فسلمتُ عليه، فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، فلمَّا تجاوزتُ بكى؛ قيل له: ما يُبكيك؟ قال: أبكي لأنَّ غلامًا بُعثَ بعدي يدخُلُ الجنَّةَ من أمَّته أكثرُ ممَّا يدخُلُها من أمَّتي» وذكر إبراهيمَ في السماء السابعة. وهذا هو المحفوظُ، وما وقع في حديث شَريك بن أبي نَمِر، عن أنس، من أنَّ إبراهيمَ في السادسة وموسى في السابعة، بتفضيل كلام اللَّه، فقد ذكر غير واحد من الحفاظ أنَّ الذي عليه الجادَّةُ أنَ موسى في السادسة، وإبراهيمَ في السابعة، وأنَّهُ مُسندٌ ظهرَهُ إلى البيت المعمور، الذي يدخُلُه كلَّ يوم سبعونَ ألفًا من الملائكة، ثم لا يعودُونَ إليه آخرَ ما عَليهم. واتفقت الرِّواياتُ كلُّها على أنَّ اللَّهَ تعالَى لمَّا فرَضَ على محمد ﷺ وأمَّته خَمسينَ صلاةً في اليوم والليلة، فمرَّ بموسَى، قال: «ارْجعْ إلى ربِّكَ فاسْأَلْهُ التَّخفيفَ لأُمَّتكَ، فإنِّي قد عالجْتُ بني إسرائيلَ قبلكَ أشدَّ المعالجة، وإنَّ أمَّتك أضعف أسماعًا وأبصارًا وأفئدةً» فلم يزل يتردَّدُ بين موسى وبين اللَّه عزَّ وجلَّ ويخففُ عنه في كلِّ مرة حتَّى صارتْ خمسَ صلوات في اليوم والليلة. وقال اللَّهُ تعالى: «هي خمسٌ، وهي خمسون» أي: بالمضاعفة، فجزىٰ اللَّهُ عنَّا محمدًا ﷺ خيرًا، وجزىٰ اللَّهُ عنَّا موسى عليه السلام خيرًا.

وقال البخاريُّ(٢): حدَّثنا مسدَّدٌ، حدَّثنا حصينُ بنُ نُمير، عن حُصينِ بن عبدالرحمن، عن سعيد ابن جُبير، عن ابن عباس، قال: خرجَ علينا رسولُ اللَّه ﷺ يومًا فقال: «عُرِضَتْ عليَّ الأممُ، ورأيتُ سوادًا كثيرًا، سدَّ الأُفُقَ، فقيل: هذا موسى في قومه» هكذا روى البخاريُّ هذا الحديث هاهنا مختَصرًا.

وقد رواهُ الإمام أحمدُ مطوَّلًا، فقال: حدَّثنا سُريجٌ، حدَّثنا هُشيمٌ، حدَّثنا حصينُ بنُ عبدالرحمن، قال: كنتُ عندَ سعيد بن جبير، قال: أيُّكم رأىٰ الكوكبَ الذي انقضَّ البارحةَ؟ قلتُ: أنا. ثم قلتُ: أما إنِّي لم أكنْ في صلاة، ولكنِّي لُدغتُ. قال: وكيفَ فعلْتَ؟ قلتُ استرْقَيْتُ. قال: وما حَمَلَكَ على ذلك؟ قال: قلت: حديثٌ حدثناه الشَّعْبيُّ، عن بُريدَةَ الأسلميِّ، أنَّه قال: «لا رُقيةَ إلا من عين أو حُمَة» فقال سعيدُ - يعني ابن جُبير -: قد أحسنَ مَنْ انتهَى إلى ما سَمع. ثم قال: حدَّثنا ابن عباس عن النبيِّ ﷺ، قال: «عُرِضَتْ عليَّ الأُمَمُ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرَّهْطَ، والنبيَّ معه الرَّجُلَ والرَّجُلَين، والنبيَّ وليس معه أحدٌ؛ إذْ رُفعَ لي سوادٌ عظيمٌ، فقلتُ: هذه أمَّتي. فقيل: هذا موسى وقومُهُ، ولكن انظرْ إلى الأفق. فإذا سوادٌ عظيم، ثم قيل: انظُر إلى هذا الجانب. فإذا سواد عظيم، فقيل: هذه أمَّتكَ، ومعهم سبعونَ ألفًا، يدخلُونَ الجنَّةَ بغير حساب ولا عذاب» ثم نهَضَ رسولُ اللَّه ﷺ فدخلَ، فخاضَ القومُ في ذلك، فقالوا: من هؤلاء الذي يدخلونَ الجنَّةَ بغير حساب ولا عذاب؟ فقال بعضُهم: لعلَّهم الذين صحبوا النبيَّ ﷺ. وقال بعضُهم: لعلَّهم الذين وُلدُوا في الإسلام، ولم يُشْركُوا باللَّه شيئًا قطُّ. وذكروا أشياءَ، فخرَجَ إليهم رسولُ اللَّه ﷺ فقال: «ما هذا الذي كُنتم

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح: البخاري (٣٤١٠)، «المسند» (١/ ٢٧١).

تخوضونَ فيه؟» فأخبروه بمقالتهم، فقال: «هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيَّرونَ، وعلى ربهم يتوكَّلون» فقام عُكَّاشةُ بن محصنٍ الأسَديُّ، فقال: أنا منهم يا رسولَ اللَّه؟ قال: «أنتَ منهم» ثم قام آخرُ فقال: أنا منهم يا رسولَ اللَّه؟ فقال: «سبَقَكَ بها عُكَّاشةُ» وهذا الحديثُ له طُرُقٌ كثيرةٌ جداً، وهو في الصحاح [(١)] والحِسانِ، وغيرها، وسنوردُها إنْ شاءَ اللَّهُ تعالىٰ في بابِ صفةِ الجنَّةِ، عندَ ذكرِ أحوالِ القيامةِ وأهوالِها.

وقد ذكر اللَّـهُ تعالىٰ موسىٰ عليه السلام في القرآن كثيراً، وأثْنَىٰ عليه، وأوردَ قصتَهُ في كتابِه العزيز مراراً، وكرَّرَها كثيراً، مطوَّلةً ومبسوطةً، ومختصرةً، وأثنىٰ عليه ثناءً بليغاً، وكثيراً ما يَقْرِنه اللَّهُ ويذكره، ويذكرُ كتابَهُ مع محمد ﷺ وكتابه، كما قال في سورة «البقرة»: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١]، وقال تعالىٰ: ﴿ الم ① اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ② نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ③ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ [آل عمران: ١-٤]، وقال تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ⑨① وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١، ٩٢]، فأثنىٰ تعالىٰ علىٰ التَّوراةِ، ثم مدح القرآنَ العظيمَ مدحًا عظيمًا، وقال تعالىٰ في آخرها: ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ⑮④ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٤، ١٥٥]، وقال تعالىٰ في سورة «المائدة»: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] إلىٰ أن قال: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ④⑦ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ الآية [المائدة: ٤٧، ٤٨].

فجعل القرآن حاكمًا علىٰ سائر الكتب غيره، وجعله مصدقًا لها، ومُبيِّنًا ما وقع فيها من التحريف والتبديل، فإنَّ أهل الكتاب استُحفظُوا علىٰ ما بأيديهم من الكتب، فلم يَقْدروا علىٰ حفظها، ولا علىٰ ضَبْطِها وصَوْنِها، فلهذا دَخَلَها ما دَخَلَها من تغييرِهم وتبديلهم؛ لسوءِ فُهُومِهم، وقُصُورِهم في عُلُومِهم، ورداءةِ قُصودِهم، وخيانَتِهم لمعبُودِهم، عليهم لعائنُ اللَّهِ المتتابعةُ إلىٰ يوم القيامةِ، ولهذا

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٢٦).

يُوجَدُ في كُتُبِهم من الخطأ البيِّن على اللَّهِ وعلى رسلِه ما لا يُحدُّ ولا يُوصَفُ، وما لا يُوجَدُ مثلُه ولا يُعرَفُ.

وقال تعالى في سورة «الأنبياء»: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ**﴾ [الأنبياء: ٤٨ ـ ٥٠]، وقال تعالى في سورة «القصص» ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [القصص: ٤٨، ٤٩] فأثنى اللَّهُ على الكتابَيْنِ، وعلى الرَّسولَيْنِ، عليهما السلام، وقالت الجنُّ لقومهم: ﴿**إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وقال وَرَقَةُ بنُ نَوْفَلٍ[1] لَمَّا قصَّ عليه رسولُ اللَّه ﷺ خبرَ ما رأى من أول الوحي، وتلا عليه: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، قال: سُبُّوحٌ سُبُّوحٌ، هذا الناموسُ الذي أُنْزِلَ على موسى بنِ عمرانَ.

وبالجملةِ، فشريعةُ موسى عليه السلامُ، كانت شريعةً عظيمةً، وأمَّتُهُ كانت أمةً كثيرةً، ووُجِدَ فيهم أنبياءُ وعلماءُ، وعُبادٌ، وزُهَّادٌ، وأَلِبَّاءُ، ومُلوكٌ وأمراءُ، وساداتٌ وكُبراءُ، لكنَّهم كانوا، فبادُوا وتبدَّلوا، كما بُدِّلَتْ شَرِيعتُهُم، ومُسِخوا قردةً وخنازِيرَ، ثم نُسختْ بعدَ كلِّ حسابٍ ملَّتُهم، وجَرَتْ عليهم خُطوبٌ، وأمورٌ يطولُ ذِكْرُها، ولكن سنوردُ ما فيه مَقْنَعٌ لمنْ أرادَ أنْ يَبْلُغَهُ خبرُها، إن شاءَ اللَّهُ تعالى، وبه الثِّقة وعليه التُّكلانُ.

ذكر حج موسى عليه السلام إلى البيت العتيق وصفته

قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا هشيمٌ، حدَّثنا داودُ بن أبي هندٍ، عن أبي العاليةِ، عن ابنِ عباسٍ، أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ مرَّ بوادِي الأزرقِ، فقال: «**أيُّ وادٍ هذا؟**» قالوا: وادِي الأزرقِ. قال: «**كأنِّي أنظُرُ إلى موسى، وهو هابطٌ من الثَّنِيَّة، وله جُؤَارٌ إلى اللَّه عزَّ وجلَّ بالتَّلْبِيَة**» حتَّى أتى على ثنِيَّةِ هَرْشاء، فقال: «**أيُّ ثنية هذه؟**» قالوا: هذه ثنيةُ هرشاءَ. قال: «**كأنِّي أنظُرُ إلى يونُسَ بن متَّى على ناقة حمراءَ، عليه جُبَّةٌ من صُوف، خِطامُ ناقتِه خُلْبَةٌ ـ قالَ هُشَيْمٌ: يعني ليفًا ـ وهو يُلَبِّي**»[2] وأخرجه مسلمٌ من حديثِ داودَ بن أبِي هندٍ به. وروى الطبرانيُّ[3]، عن ابنِ عباسٍ مرفوعًا: «**إنَّ موسَى حجَّ على ثورٍ أحمرَ**» وهذا غريبٌ جدًا.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣) ومسلم (٤٠١).

(٢) صحيح: المسند (١/ ٢١٥، ٢١٦)، مسلم (٤١٩).

(٣) ضعيف الإسناد: الطبراني في «الكبير» (١٢٥١٠) فيه ليث بن أبي سليم ضعيف والذي في الصحيح عند مسلم. «جمل أحمر» الحديث أعلاه.

وقال الإمامُ أحمدُ:[١] حدَّثنا محمدُ بن أبي عَدِيٍّ، عن ابنِ عونٍ، عن مُجاهدٍ، قال: كنَّا عندَ ابنِ عباسٍ، فذكرُوا الدَّجَّالَ، فقال: إنَّهُ مكتوبٌ بين عَيْنَيه: (ك ف ر) قال: ما تقولون؟ قال: يقولون: مكتوبٌ بين عينيه (ك ف ر) فقال ابنُ عباسٍ: لم أسمَعْهُ قال ذلك، ولكن قال: «**أما إبراهيمُ فانظروا إلى صاحبِكُم، وأمَّا موسَى، فرجلٌ آدَمُ جَعْدٌ، على جَمَلٍ أحمرَ مخطومٍ بخُلْبَةٍ، كأنّي أنظرُ إليه وقد انحَدَرَ من الوادي يُلَبِّي**» قال هُشَيْمٌ: الخُلْبَةُ اللِّيفُ.

ثم رواه الإمامُ أحمدُ[٢]، عن الأسودِ، عن إسرائيلَ، عن عثمانَ بنِ المغيرةِ، عن مُجاهدٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**رأيتُ عيسى ابنَ مريمَ، وموسى، وإبراهيمَ، فأمَّا عيسى فأبيضُ جَعْدٌ، عريضُ الصَّدرِ، وأمّا موسَى فآدَمُ جَسيمٌ**» قالوا: فإبراهيمُ؟ قال: «**انظروا إلى صاحبِكُم**».

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا يونُسُ، حدَّثنا شيبانُ، قال: حدَّثَ قتادةُ، عن أبي العالِيَةِ، حدَّثنا ابنُ عمِّ نبيِّكم، ابنُ عباسٍ قال: قال نبيُّ اللَّهِ ﷺ: «**رأيتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي موسَى بنَ عمرانَ، رجلاً طُوالاً، جَعْدًا، كأنَّه من رجالِ شَنُوءَةَ، ورأيتُ عيسى ابنَ مريمَ مَرْبوعَ الخَلْقِ، إلى الحُمْرَةِ والبياضِ، سَبْطَ الرَّأسِ**»[٣]، وأخرجاه من حديثِ قتادةَ به.

وقال الإمامُ أحمدُ[٤]: حدَّثنا عبدُ الرَّزاقِ، حدَّثنا مَعْمَرٌ، قال الزُّهْرِيُّ: وأخبرني سعيدُ بن المُسيِّبِ، عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ حينَ أُسرِيَ به: «**لقيتُ موسَى**» فنَعَتَهُ، فقال رجلٌ: قال: حَسِبْتُهُ قال: «**مضطربٌ رَجِلُ الرأسِ، كأنَّهُ من رجالِ شَنُوءَةَ. ولقيتُ عيسى**» فَنَعَتَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ فقال: «**ربعَةٌ أحمرُ، كأنَّما خَرَجَ من دِيماسٍ**» يعني حمامًا، قال: «**ورأيتُ إبراهيمَ، وأنا أشبَهُ ولده به**» الحديث. وقد تقدَّمَ غالبُ هذه الأحاديثِ في ترجمةِ الخليلِ، صلواتُ اللَّه عليه وسلامُهُ.

ذكر وفاته عليه السلام

قال البخاريُّ[٥] **في «صحيحه»**: وفاةُ موسى عليه السلامُ: حدّثنا يحيى بنُ موسى، حدَّثنا عبدالرَّزاقِ، أخبرَنا مَعْمَرٌ عن ابنِ طاوسٍ، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ قال: أُرْسِلَ ملَكُ الموت إلى موسى عليه السلام، فلمَّا جاءَه صكَّهُ، فرجع إلى ربِّه عزَّ وجلَّ، فقال: أرسَلْتَني إلى عبدٍ لا يُريدُ الموتَ، قال: ارجعْ إليه، فقُلْ له يَضَعُ يدَهُ على متنِ ثَوْرٍ، فله بما غَطَّتْ يَدُه بكلِّ شَعْرةٍ سَنَةٌ. قال: أيْ ربِّ، ثم ماذا؟ قال: ثم الموتُ، قال: فالآنَ. قال: فسأَلَ اللَّهَ تعالى أنْ يُدْنِيَهُ من الأرضِ المُقَدَّسَةِ رَمْيَةَ بحَجَرٍ، قال أبو هريرةَ: فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**فلو كنتُ ثَمَّ لأرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ، إلى جانبِ الطَّرِيقِ، عندَ الكثيبِ الأحمرِ**».

---

(١) صحيح إلى ابن عباس: «المسند» (١/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧).
(٢) صحيح: «المسند» (١/ ٢٩٦).
(٣) متفق عليه: البخاري (٣٢٣٩)، مسلم (٤١٨)، وأحمد في «المسند» (١/ ٢٤٥).
(٤) صحيح: «المسند» (٢/ ٢٨٢).
(٥) صحيح: البخاري (٣٤٠٧).

قال: وأنبأنا مَعْمرٌ، عن همَّام، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النَّبيِّ ﷺ نَحْوَهُ. وقد روىٰ مسلم[1] الطريقَ الأولَ من حديث عبد الرَّزاق به.

ورواهُ الإمامُ أحمدُ، من حديثِ حمَّادِ بنِ سَلَمَةَ، عن عمَّارِ بنِ أبي عمَّارٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ مرفوعًا، وسيأتي.

وقال الإمامُ أحمدُ[2]: حدَّثنا الحسنُ، حدَّثنا ابنُ لهيعَةَ، حدَّثنا أبو يونسَ - يعني: سُليمَ بنَ جُبير - عن أبي هريرة - قال الإمامُ أحمدُ: لم يرفَعْهُ - قال: جاء ملكُ الموت إلىٰ موسىٰ عليه السلامُ، فقال: أجِبْ ربَّكَ. فَلَطَمَ موسىٰ عينَ ملك الموت، ففَقَأَها، فرَجَع المَلَكُ إلىٰ اللَّه فقال: إنَّك بَعَثْتَني إلىٰ عبدٍ لك لا يريدُ الموتَ. قال: وقد فقأ عيني، قال: فردَّ اللَّهُ عينَهُ، وقال: ارجعْ إلىٰ عبدي، فقل له: الحياةَ تُريدُ؟ فإنْ كنتَ تريدُ الحياةَ، فضعْ يَدَكَ علىٰ مَتْنِ ثورٍ، فما وارَتْ يَدُكَ من شَعْرِه، فإنَّك تعيشُ بها سنةً، قال: ثمَّ مَهْ؟ قال: ثم الموتُ، قال: فالآنَ يا ربِّ، من قريبٍ. تفرَّدَ به أحمدُ، وهو موقوفٌ بهذا اللفظ.

وقد رواه ابنُ حبانَ في «صحيحه» من طريقِ معمرٍ، عن ابن طاوسٍ، عن أبيه، عن أبي هريرةَ، قال مَعْمَرٌ: وأخبرَني من سَمعَ الحسنَ، عن رسول اللَّه ﷺ، فذكرهُ، ثم استَشْكَلَهُ ابنُ حبَّانَ، وأجابَ عنه بما حاصلُهُ: أنَّ ملَكَ الموتِ، لمَّا قال له هذا لم يعرِفْه؛ لمجيئِه له علىٰ غيرِ صورةٍ يعرفُها موسىٰ عليه السلام، كما جاء جبريلُ عليه السلام في صورةِ أعرابيٍّ، وكما وردَتِ الملائكةُ علىٰ إبراهيمَ ولوطٍ في صورةِ شبابٍ، فلم يعرفْهم إبراهيمُ ولا لوطٌ أولاً، وكذلك موسىٰ، لعلَّهُ لم يعرفْه لذلك، ولطَمَهُ فَفَقَأَ عينَهُ؛ لأنَّه دخلَ دارَهُ بغيرِ إذْنِه، وهذا موافقٌ لشَريعَتِنا في جوازِ فَقْءِ عينِ من نَظَرَ إليك في داركِ بغيرِ إذنٍ.

ثم أوردَ الحديثَ من طريقِ عبدِ الرَّزَّاقِ، عن مَعْمَرٍ، عن همَّامٍ، عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**جاءَ ملكُ الموت إلى موسى ليقبِضَ رُوحَهُ، فقال له: أجِبْ ربَّكَ. فلَطَمَ موسَى عينَ مَلَك الموت فَفَقَأَ عينَهُ**» وذكر تمامَ الحديث - كما أشارَ إليه البُخاريُّ - ثم تأوَّلَهُ علىٰ أنَّه لمَّا رفَعَ يَدَهُ ليَلْطِمَهُ، قال له: أجِبْ ربَّكَ.

وهذا التأويلُ لا يَتَمَشَّىٰ علىٰ ما وردَ به اللفظُ، من تعقيب قوله: أجب ربَّك. بلَطْمِه، ولو استمرَّ علىٰ الجواب الأول، لتمشَّىٰ له. وكأنَّه لم يعرفْه في تلك الصُّورة، ولم يَحْمِلْ قولَه هذا علىٰ أنَّه مطابقٌ؛ إذ لم يتحقَّقْ في الساعةِ الراهنة أنَّهُ مَلَكٌ كريمٌ؛ لأنَّهُ كان يرجو أمورًا كثيرةً، كان يُحبُّ

(١) صحيح: مسلم (٦١٠١).

(٢) صحيح: «المسند» (٢/ ٣٥١)، ابن حبان (عقب رقم ٦٢٢٣)، (٦٢٢٤).

وُقوعَها في حياته؛ من خروجه من التِّيه، ودخولِهم الأرضَ المُقدَّسَة، وكان قد سبقَ في قَدَرِ اللَّه أنَّهُ عليه السلامُ يموتُ في التِّيهِ، بعدَ هارونَ أخيه، كما سنبيِّنُهُ إنْ شاءَ اللَّهُ تعالىٰ، وقد زعَمَ بعضُهم أنَّ موسَىٰ عليه السلام هو الذي خرج بهم من التِّيه، ودخلَ بهم الأرضَ المقدَّسةَ، وهذا خلافُ ما عليه أهلُ الكتابِ، وجمهورُ المُسلمينَ. ومِمَّا يدلُّ علىٰ ذلك قولُهُ، لَمَّا اختارَ الموتَ: ربِّ أدْنِني إلىٰ الأرضِ المُقدَّسَةِ رميةً بحجَرٍ. ولو كانَ قد دَخَلَها لم يَسْأَلْ ذلك، ولكنْ لَمَّا كانَ مع قومِهِ بالتِّيهِ وحانَتْ وفاتُهُ عليه السلامُ، أحبَّ أن يَتَقَرَّبَ إلىٰ الأرضِ التي هاجَرَ إليْهَا، وحثَّ قَوْمَهُ عليها، ولكنْ حالَ بينَهُم وبينَها القَدَرُ، رميةً بحجَرٍ، ولهذا قال: سيِّدُ البشرِ، ورسولُ اللَّهِ إلىٰ أهلِ الوَبَرِ والمَدَرِ: «**فلو كنتُ ثَمَّ لأريْتُكمْ قَبْرَهُ، عندَ الكَثِيبِ الأحْمَرِ**»[١].

وقال الإمامُ أحمدُ:[٢] حدَّثنا عفَّانُ، حدَّثنا حمادٌ، حدَّثنا ثابتٌ وسليمانُ التَّيْميُّ، عن أنسِ بن مالكٍ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**لَمَّا أُسْرِيَ بي، مَرَرْتُ بموسى، وهو قائمٌ يُصَلِّي في قبره، عندَ الكثيبِ الأحمرِ**» ورواهُ مسلمٌ من حديثِ حمَّادِ بن سلمَةَ به.

وقال السُّدِّيُّ[٣]، عن أبي مالكٍ، وأبي صالحٍ، عن ابنِ عباسٍ، وعن مُرَّةَ، عن ابن مسعودٍ، وعن ناسٍ من الصحابة، قالوا: ثُمَّ إنَّ اللَّهَ تعالىٰ أَوْحَىٰ إلىٰ موسىٰ: إنِّي مُتَوَفٍّ هارونَ، فائْتِ به جَبَلَ كَذا وكذا. فانطلَقَ موسَىٰ وهارُونُ نحوَ ذلك الجبلِ، فإذا هم بشجرةٍ لم تُرَ شجرةٌ مثلُها، وإذا هُمْ ببيتٍ مبنيٍّ، وإذا هم فيه بسريرٍ عليه فُرُشٌ، وإذا فيه ريحٌ طيبةٌ، فلمَّا نَظَرَ هارونُ إلىٰ ذلك الجبلِ والبيتِ وما فيه، أعجبَهُ، قال: يا موسىٰ، إنِّي أُحِبُّ أنْ أنامَ علىٰ هذا السرير. قال له موسىٰ: فَنَمْ عليه، قال: إني أخافُ أنْ يأتِيَ ربُّ هذا البيتِ فيغضبَ عليَّ. قال له: لا ترهَبْ، أنا أكفيكَ ربَّ هذا البيتِ، فَنَمْ. قال: يا موسىٰ، بل نَمْ مَعِي، فإنْ جاءَ ربُّ هذا البيت، غَضبَ عليَّ وعليك جميعًا. فلمَّا ناما، أخذ هارونَ الموتُ، فلمَّا وجدَ حسَّهُ قال: يا موسىٰ، خَدَعْتَني. فلمَّا قُبضَ، رُفعَ ذلك البيتُ، وذهبَتْ تلك الشجرةُ، ورُفعَ السريرُ به إلىٰ السماء، فلمَّا رجع موسىٰ إلىٰ قومِه وليس معه هارونُ، قالوا: فإنَّ موسىٰ قتلَ هارونَ، وحسدَهُ حبَّ بني إسرائيل له. وكان هارونُ أكَفَّ عنهم وألْيَنَ لهم من موسَىٰ، وكان في موسىٰ بعضُ الغِلْظَةِ عليهم، فلمَّا بلغَهُ ذلك قال لهم: ويحكُمْ، كان أخي أفَتَرَوْني أقتُلُه؟ فلمَّا أكثروا عليه قام فصلَّىٰ ركعتينِ، ثم دعا اللَّهَ فنزلَ السريرُ حتَّىٰ نَظَروا إليه بين السماءِ والأرضِ، ثم إنَّ موسىٰ عليه السلامُ بينما هو يمشي ويُوشَعُ فتاهُ، إذْ أقبَلَتْ ريحٌ سوداءُ، فلمَّا

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) صحيح: «المسند» (٣/ ١٢٠)، مسلم (٦١٠٧).
(٣) حسن: ابن جرير (١/ ٢٥٥) «تاريخ». وسبق ذكر تصحيح الشيخ أحمد شاكر رحمه اللَّه بهذا السند.

نظرَ إليها يُوشع ظنَّ أنَّها الساعةُ، فالتزمَ موسىَ وقال: تقومُ الساعةُ وأنا مُلتزِمٌ موسىَ نبيَّ اللَّهِ، فاستُلَّ موسىَ عليه السلامُ من تحتِ القميصِ، وتُرِكَ القميصُ في يدَيْ يُوشعَ، فلمَّا جاءَ يُوشعُ بالقميصِ أخذَتْهُ بنو إسرائيلَ، وقالوا: قتلتَ نَبيَّ اللَّهِ؟ فقال: لا واللَّهِ ما قتلتُهُ، ولكنَّه استُلَّ منِّي. فلم يُصدِّقُوه وأرادوا قتله. قال: فإذا لم تُصدِّقُوني فأخِّرُوني ثلاثةَ أيام. فدعا اللَّهَ، فأُتيَ كلُّ رجلٍ ممن كان يحرسُهُ في المنامِ فأُخْبِرَ أنَّ يُوشعَ لمْ يَقتُلْ موسىَ، وأنَا قد رَفَعْناهُ إلينا، فتركُوه، ولم يبقَ أحدٌ ممَّن أبَىَ أنْ يدْخُلَ قريةَ الجبَّارينَ مع موسىَ إلا ماتَ، ولم يشْهَدِ الفتحَ.

وفي بعضِ هذا السياقِ نكارةٌ وغرابةٌ. واللَّهُ أَعْلَمُ.

وقد قدَّمنا أنَّه لم يخرج أحدٌ من التِّيهِ ممَّن كان مع موسىَ سوىَ يوشَعَ بن نونٍ، وكالبَ بن يُوفَنَّا، وهو زوجُ مريمَ أختِ موسىَ وهارونَ، وهما الرَّجلان المذكوران فيما تقدَّم، اللذان أشارا علىَ ملأ بني إسرائيل بالدخولِ عليهم.

وذكر وهبُ بنُ مُنَبِّهٍ[1] أنَّ موسىَ عليه السلام مرَّ بملأٍ من الملائكة يحفرُونَ قبرًا، فلم يرَ أحسنَ منهُ، ولا أنضرَ ولا أبْهَجَ، فقال: يا ملائكةَ اللَّهِ، لمنْ تَحْفُرونَ هذا القبرَ؟ فقالوا: لعبدٍ من عبادِ اللَّهِ كريمٍ، فإنْ كنتَ تُحبُّ أنْ تكونَ هذا العبدَ، فادْخُلْ هذا القبرَ، وتمدَّدْ فيه، وتوجَّهْ إلىَ ربِّكَ، وتنفَّسْ أسهلَ تنفُّسٍ. ففعلَ ذلكَ، فماتَ - صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليه - فصلَّتْ عليه الملائكةُ، ودَفَنُوهُ. وذكرَ أهلُ الكتابِ وغيرُهم أنَّهُ ماتَ وعمرُهُ مائةٌ وعشرونَ سنةً.

وقد قالَ الإمامُ أحمدُ[2]: حدَّثنا أميةُ بن خالدٍ، ويونُسُ، قالا: حدَّثنا حمادُ بن سلمةَ، عن عمَّارِ بن أبي عمَّارٍ، عن أبي هُريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، قال: يونُسُ رفَعَ هذا الحديثَ إلىَ النبيِّ ﷺ قال: **«كانَ مَلَكُ الموت يأتي النَّاسَ عيانًا، قال: فأتَى موسَى عليه السلامُ، فَلَطَمَهُ، فَفَقَأَ عَيْنَهُ، فأتَى ربَّهُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، عبدُك موسَى فَقَأَ عيْني، ولولا كَرَامَتُهُ عليكَ لَعَنُفْتُ به»**.

وقال يونُسُ: **«لَشَقَقْتُ عليه»** **«قال له: اذهبْ إلى عبدي، فقلْ له: فليضَعْ يَدَهُ على جلدِ - أو مَسْكِ - ثَوْرٍ، فله بكلِّ شَعْرَةٍ وارَتْ يَدُهُ سَنَةٌ. فأتاه فقال له: فقال: ما بعدَ هذا؟ قال: الموتُ، قال: فالآنَ»**. قال: **«فَشَمَّهُ شَمَّةً، فقبَضَ رُوحَهُ»** قال يونسُ: **«فَرَدَّ اللَّهُ عليه عينَهُ، وكان يأتي الناسَ خُفْيةً»**.

وكذا رواهُ ابنُ جريرٍ[3]، عن أبي كُرَيْبٍ، عن مُصْعَبِ بنِ المِقدامِ، عن حمادِ بن سَلَمَةَ به، فَرَفَعَهُ أيضًا. واللَّهُ تعالَىٰ أعلمُ.

---

(١) رواه ابن جرير «التاريخ» (١/ ٢٥٦) وفيه ابن حميد ضعيف من رواية ابن إسحاق عنه إن كان في «السيرة» فهو صحيح إلى وهب.

(٢) سنده حسن: «المسند» (٢/ ٥٣٣).

(٣) ابن جرير «التاريخ» (١/ ٢٥٦).

ذكر نبوة يوشع وقيامه بأعباء بني إسرائيل بعد موسى وهارون، عليهم السلام

هو يوشعُ بن نونِ بن أفراييمَ بن يوسفَ بن يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ الخليل، عليهم السلام، وأهل الكتاب يقولون: يوشع ابن عمِّ هودٍ. وقد ذكره الله تعالىٰ في القرآن غير مصرَّح باسمه في قصة الخضر، كما تقدَّم في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٠] ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٢]. وقدَّمنا ما ثبت في «الصحيح»، من رواية أُبيِّ بن كعب، رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، من أنَّه يوشعُ بن نونٍ، وهو متفقٌ علىٰ نبوَّته عند أهل الكتاب، فإنَّ طائفةً منهم، وهم السَّامرةُ لا يقرون بنبُوَّة أحد بعد موسىٰ إلا يوشع بن نون؛ لأنَّه مصرحٌ به في التَّوراة، ويكفرون بما وراءه، وهو الحقُّ من ربِّهم، فعليهم لعائنُ الله المتتابعةُ إلىٰ يوم القيامة.

وأمَّا ما حكاه ابنُ جرير وغيره من المفسِّرين، عن محمد بن إسحاق، من أنَّ النُّبوَّة حوِّلتْ من موسىٰ إلىٰ يوشع في آخرِ عمر موسىٰ، فكان موسىٰ يلقىٰ يوشع فيسأله ما أحدث الله إليه من الأوامر والنَّواهي، حتىٰ قال له: يا كليم الله، إنِّي كنت لا أسألك عمَّا كان يوحي الله إليك، حتىٰ تخبرني أنت ابتداءً من تلقاء نفسك. فعند ذلك كره موسىٰ الحياة، وأحبَّ الموت. ففي هذا نظرٌ؛ لأن موسىٰ، عليه السلام، لم يزل الأمر والوحي، والتشريع، والكلام من الله تعالىٰ إليه في جميع أحواله، حتىٰ توفَّاه الله، عزَّ وجلَّ، ولم يزلْ معزَّزًا، مكرمًا، مدللاً، وجيهًا عند الله، كما قدمنا في «الصحيح»(١)، من قصة فقئه عين ملك الموت، ثم بعَثَه الله إليه إن كان يريدُ الحياة فليضع يده علىٰ جلد ثور، فله بكلِّ شعرةٍ وارت يده سنةٌ يعيشها، قال: ثمَّ ماذا؟ قال: الموتُ. قال فالآن يا ربِّ. وسأل الله أن يدنيه إلىٰ بيت المقدس رميةً بحجر، وقد أجيب إلىٰ ذلك، صلوات الله وسلامه عليه، فهذا الذي ذكره محمد بن إسحاق، إن كان إنَّما يقوله من كتب أهل الكتاب، ففي كتابهم الذي يسمُّونه التَّوراة، أنَّ الوحيَ لم يزلْ ينزل علىٰ موسىٰ في كلِّ أمرٍ يحتاجون إليه، إلىٰ آخر مدة موسىٰ، كما هو المعلومُ من سياق كتابهم عند تابُوت الشَّهادة في قبَّة الزَّمان. وقد ذكروا في السِّفر الثالث، أنَّ الله أمر موسىٰ وهارون أنْ يعدَّا بني إسرائيل علىٰ أسباطهم، وأن يجعلا علىٰ كلِّ سبطٍ من الاثنيْ عشر أميرًا، وهو النقيبُ، وما ذاك إلا ليتأهَّبوا للقتال؛ قتال الجبَّارين عند الخروج من التِّيه، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنةً. ولهذا قال بعضهم: إنَّما فقأ موسىٰ، عليه السلام، عين ملك الموت؛ لأنه لم يعرفه في صورته تلك، ولأنه كان قد أمر بأمر كان يرتجي وقوعه في زمانه، ولم يكن في قدر الله أن يقع ذلك في زمانه، بل في زمان فتاه يوشع بن نونٍ، عليه السلام، كما أنَّ رسول الله ﷺ كان قد أراد غزوَ الرُّوم بالشَّام، فوصل إلىٰ تبوك، ثم رجع عامه ذلك في سنةِ تسع، ثم حجَّ في سنةِ عشر، ثم رجع

---

(١) يقصد حديث موسى مع الخضر وقد سبق تخريجه.

فجهَّز جيش أسامة إلى الشَّام، طليعةً بين يديه[1] ، ثم كان على عزمِ الخروج إليهم؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. ولمّا جهّز رسول الله جيش أسامة، توفِّيَ، عليه الصلاة والسلام، وأسامة مخيِّمٌ بالجرف، فنفَّذه صديقُه وخليفته أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، ثم لما لمَّ شعث جزيرة العرب، وما كان وَهيَ من أمر أهلها، وعاد الحقُّ إلى نصابه، جهَّزَ الجيوش يمنةً ويسرةً إلى العراق، أصحاب كسرىٰ ملك الفرس، وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الرّوم، ففتح الله لهم، ومكّن لهم وبهم، وملكهم نواصي أعدائهم، كما سنوردُه في موضعه، إذا انتهينا إليه مفصلاً، إن شاء الله تعالى بعونه وتوفيقه، وحسْن إرشاده. وهكذا موسى عليه السلام؛ كان الله تعالى قد أمره أن يجنِّد بني إسرائيل، وأن يجعل عليهم نقباء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾. وقال الله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢]. يقول لهم: لئنْ قمتم بما أوجبتُ عليكم، ولم تنكلوا عن القتال، كما نكلتم أوّل مرةٍ، لأجعلنَّ ثواب هذه مكفرًا لما وقع عليكم من عقاب تلك، كما قال تعالى لمن تخلَّف من الأعراب عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦] وهكذا قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. ثم ذمَّهُم الله تعالى على سوء صنيعهم، ونقضهم مواثيقهم، كما ذمَّ من بعدهم من النصارىٰ على اختلافهم في دينهم وأديانهم. وقد ذكرنا ذلك في «التفسير» مستقصًى، ولله الحمد.

والمقصود أنَّ الله تعالى أمر موسى، عليه السلام، أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل، ممّن يحمل السِّلاح ويقاتلُ، ممن بلغ عشرين سنةً فصاعدًا، وأن يجعل على كلِّ سبط نقيبًا منهم؛ السِّبطُ الأول سبط روبيل؛ لأنّه بكر يعقوب، كان عدَّة المقاتلة منهم ستةً وأربعين ألفًا وخمسمائةٍ، ونقيبهم منهم، وهو اليصورُ بن شَديئُورًا، السِّبطُ الثاني سبط شمعون، وكانوا تسعةً وخمسين ألفًا وثلاثمائة، ونقيبهم شلوميئيلُ بن هوريشدَّاي، السِّبطُ الثالثُ سبط يهوذا، وكانوا أربعةً وسبعين ألفًا وستَّمائةٍ، ونقيبهم نحشُونُ بن عمِّيناداب، السِّبطُ الرابع سبط إيسَّاخرَ، وكانوا أربعةً وخمسين ألفًا وأربعمائةٍ، ونقيبهم نشائيلُ بن صُوغَرَ، السِّبْطُ الخامس سبط يوسف، عليه السلام، وكانوا أربعين ألفًا وخمسمائةٍ، ونقيبهم يوشعُ بن نون، السِّبطُ السادس سبط ميشا، وكانوا أحدًا وثلاثين ألفًا ومائتين، ونقيبهم جمليئيلُ بن فدهصور. السِّبطُ السَّابعُ سبطُ بنيامين، وكانوا خمسةً وثلاثين ألفًا وأربعمائة،

(١) انظر صحيح البخاري (٤٤٦٨).

ونقيبهم أبيدنُ بن جدعون، السِّبطُ الثّامن سبط جاد، وكانوا خمسةً وأربعين ألفًا وستَّمائةٍ وخمسين رجلاً، ونقيبهم الياساف بن رعوئيل، السِّبط التّاسع سبط أشير، وكانوا أحدًا وأربعين ألفًا وخمسمائةٍ، ونقيبهم فجعيئيلُ بن عُكرنَ، السِّبطُ العاشر سبطُ دان، وكانوا اثنين وستين ألفًا وسبعمائةٍ، ونقيبهم أخيعزرُ بن عميشدَّاي، السبط الحادي عشر سبط نفتالي، وكانوا ثلاثةً وخمسين ألفًا وأربعمائةٍ، ونقيبهم أخيرعُ بن عين، السبط الثاني عشر سبط زبولون، وكانوا سبعةً وخمسين ألفًا وأربعمائة، ونقيبهم ألباب بن حيلون. هذا نصُّ كتابهم الذي بأيديهم. والله أعلم. وليس منهم بنو لاوي، فأمر الله موسىٰ أن لا يعدَّهم معهم؛ لأنهم موكَّلون بحمل قبّة الشهادة، وخزنها ونصبها، إذا ارتحلوا، وهم سبطُ موسىٰ وهارونَ، عليهما السلام، وكانوا اثنين وعشرين ألفًا، من ابن شهر فما فوق ذلك، وهم في أنفسهم قبائل، إلىٰ كلِّ قبيلةٍ طائفةٌ من قبّةِ الزّمان يحرسونها، ويحفظونها، ويقومون بمصالحها، ونصبها، وحملها، وهم كلُّهم حولها ينزلون ويرتحلون أمامها ويمينها وشمالها ووراءها.

وجملةُ ما ذكر من المقاتلة، غير بني لاوي، خمسمائة ألفٍ وأحدٌ وسبعون ألفًا وستُّمائةٍ وستةٌ وخمسون، لكن قالوا: فكان عدد بني إسرائيل، ممن عمره عشرون سنةً فما فوق ذلك، ممّن حمل السلاح، ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخسمائةٍ وخمسين رجلاً، سوىٰ بني لاوي. وفي هذا نظرٌ؛ فإنّ جميع الجمل المتقدِّمة، إنْ كانت كما وجدْنا في كتابهم؛ لا تطابقُ الجملة التي ذكروها. والله أعلم. فكان بنو لاوي، الموكلون بحفظ قبَّة الزّمان، يسيرون في وسط بني إسرائيل وهم القلب، ورأس الميمنة بنو روبيل، ورأس الميسرة بنو ران، وبنو نفتالي يكونُون ساقة، وقرّر موسىٰ، عليه السلام، بأمر الله تعالىٰ له، الكهانة في بني هارون، كما كانت لأبيهم من قبلهم، وهم: ناداب ـ وهو بكره ـ وأبيهو، والعازر، ويثمر.

والمقصود أنّ بني إسرائيل لم يبق منهم أحدٌ ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبّارين، الذين قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. قاله الثّوريُّ، عن أبي سعيد عن عكرمة، عن ابن عباس[١]. وقاله قتادة[٢] وعكرمة[٣]، ورواه السُّدّيُّ[٤]، عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة، حتىٰ قال ابن عباس، وغيره من علماء السّلف والخلف: ومات موسىٰ، وهارون قبله، كلاهما في التِّيه جميعًا. وقد زعم ابن إسحاق[٥] أنّ الذي فتح بيت المقدس هو موسىٰ، وإنّما كان يوشع علىٰ مقدِّمته، وذكر في مروره إليها قصة بلعام بن باعوراء الذي قال تعالىٰ فيه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا

---

(١) ضعيف الإسناد: رواه ابن جرير «تاريخ» (١/ ٢٥٧) وسنده ضعيف فيه أبو سعيد القتات ضعيف.

(٢) صحيح: رواه ابن جرير (١/ ٢٥٧).

(٣) رجاله ثقات: ابن جرير (١/ ٢٥٧) بسند رجاله ثقات إلا المثنى شيخ الطبري لا أعرف له ترجمة لكن روايته لا تخالف رواية الثقات فيما وقفت عليه.

(٤) حسن: (١/ ٢٥٧) بنفس السند المصحح من الشيخ أحمد شاكر عليه رحمة اللَّه.

(٥) ضعيف: رواه ابن جرير (١/ ٢٥٧) فيه ابن حميد ضعيف وشيخه سلمة بن الفضل يهم.

لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧]. وقد ذكرْنا قصّته في «التفسير»، وأنه كان فيما قاله ابن عباس[1] وغيره، يعلم الاسم الأعظم، وأنَّ قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه، فامتنع عليهم، فلمَّا ألحُّوا عليه، ركب حمارةً له، ثم سار نحو معسكر بني إسرائيل، فلمّا أشرف عليهم، ربضت به حمارته، فضربها حتى قامت، فسارت غير بعيدٍ وربضت، فضربها ضربًا أشدَّ من الأول فقامتْ، ثم ربضتْ فضربها، فقالتْ له: يا بلعام، أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي، تردُّني عن وجهي هذا، أتذهب إلى نبيِّ الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها، فضربها حتى سارت به، حتى أشرف عليهم من رأس جبل حسبان، ونظر إلى معسكر موسى وبني إسرائيل، فأخذ يدعو عليهم، فجعل لسانه لا يطيعه إلا أن يدعو لموسى وقومه، ويدعو على قوم نفسه، فلاموه على ذلك، فاعتذر إليهم بأنّه لا يجري على لسانه إلا هذا، واندلع لسانه حتى وقع على صدره، وقال لقومه: ذهبت منِّي الآن الدُّنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكرُ والحيلة. ثم أمر قومه أن يزيِّنوا النساء، ويبعثوهنَّ بالأمتعة يبعن عليهم، ويتعرضن لهم، حتى لعلَّهم يقعون في الزِّنا، فإنه متى زنى رجلٌ منهم كفيتموهم. ففعلوا وزيَّنوا نساءهم، وبعثوهنَّ إلى المعسكر، فمرّت امرأةٌ منهم اسمها كستى، برجلٍ من عظماء بني إسرائيل، وهو زمريُّ بن شلوم، يقال: إنّه كان رأس سبْط بني شمعون بن يعقوب. فدخل بها قبّته، فلما خلا بها، أرسل الله الطّاعون على بني إسرائيل، فجعل يجوس فيهم الموت، فلما بلغ الخبر إلى فنحاص بن العيزار بن هارون، أخذ حربته، وكانت من حديد، فدخل عليهما القبّة، فانتظمهما جميعًا فيها، ثم خرج بهما على النَّاس والحربة في يده، وقد اعتمد على خاصرته، وأسندها إلى لحيته، ورفعهما نحو السماء، وجعل يقول: اللهمَّ هكذا نفعل بمن يعصيك. ورفع الله الطاعون، فكان جملةُ من مات منهم في تلك السّاعة سبعين ألفًا، والمقلِّلُ يقول: عشرين ألفًا. وكان فنحاص بكر أبيه العيزار بن هارون، فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذّبيحة القبة والذّراع واللَّحْيَ، ولهم البكر من كلِّ أموالهم وأنفسهم. وهذا الذي ذكره ابن إسحاق من قصة بلعام صحيحٌ قد ذكره غير واحدٍ من علماء السّلف، لكنْ لعلَّه لمّا أراد موسى دخول بيت المقدس، أوَّل مقدمه من الدِّيار المصرية، ولعلَّه مراد ابن إسحاق، ولكن ما فهمه بعض النّاقلين عنه. وقد قدَّمنا عن نصِّ التَّوراة ما يشهد لبعض هذا. والله أعلم. ولعلَّ هذه قصةٌ أخرى كانت في خلال سيرهم في التِّيه، فإنَّ في هذا السّياق ذكر حسبان، وهي بعيدةٌ عن أرض بيت المقدس، أو لعلَّه كان هذا الجيش موسى، الذين عليهم يوشع بن نون، حين خرج بهم من التِّيه قاصدًا بيت المقدس، كما صرَّح به السُّدِّيُّ. والله أعلم.

وعلى كلِّ تقدير، فالذي عليه الجمهورُ، أنّ هارون توفي بالتِّيه قبل موسى أخيه بنحوٍ من سنتين.

---

(١) حسن: نفس تخريج رقم (٤).

وبعده موسى في التِّيه أيضًا، كما قدَّمنا، وأنه سأل ربه أن يُقَرِّبَ إلى بيت المقدس، فأجيب إلى ذلك، فكان الذي خرج بهم من التيه وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون، عليه السلام، فذكر أهل الكتاب، وغيرهم من أهل التاريخ، أنّه قطع ببني إسرائيل، نهر الأُرْدُنّ، وانتهى إلى أريحا، وكانت من أحصن المدائن سُوراً، وأعلاها قصوراً، وأكثرها أهلاً، فحاصرها ستة أشهر، ثم إنَّهم أحاطوا بها يومًا، وضربوا بالقرون، يعني الأبواق، وكبَّروا تكبيرة رجل واحد فتفسَّخ سورها، وسقط وجبةً واحدةً، فدخلوها، وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم، وقتلوا اثنيْ عشرَ ألفًا من الرّجال والنّساء، وحاربوا ملوكًا كثيرةً، ويقال: إنَّ يوشع ظهر على أحد وثلاثين ملكًا من ملوك الشام، وذكروا أنَّه انتهى محاصرته لها إلى يوم جمعة بعد العصر، فلمَّا غربت الشمس، أو كادت تغربُ، ويدخل عليهم السبتُ الذي جعل عليهم، وشرع لهم ذلك الزمان، قال لها: إنك مأمورةٌ وأنا مأمورٌ، اللهمَّ احبسها عليَّ. فحبسها الله عليه، حتى تمكَّن من فتح البلد، وأُمِرَ القمرُ، فوقف عن الطلوع، وهذا يقتضي أنَّ هذه الليلة كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر.

والأول، وهو قصة الشمس مذكورةٌ في الحديث الذي سأذكره. وأمّا قصةُ القمر، فمن عند أهل الكتاب، ولا ينافي الحديث، بل فيه زيادةٌ تستفاد، فلا تصدَّقُ ولا تكذَّب، ولكنَّ ذكرهم أنَّ هذا كان في فتح أريحا، فيه نظرٌ، والأشبهُ، والله أعلم، أنَّ هذا كان في فتح بيت المقدس، الذي هو المقصود الأعظم، وفتح أريحا كان وسيلةً إليه. والله أعلم.

قال الإمام أحمدُ[١]: حدَّثنا أسود بن عامر، حدثنا أبو بكر، عن هشام، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس**». انفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو على شرط البخاريِّ. وفيه دلالةٌ على أنّ الذي فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون، عليه السلام، لا موسى، وأنَّ حبس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا أريحا، كما قلنا. وفيه أنّ هذا كان من خصائص يوشع، عليه السلام، فيدلُّ على ضعف الحديث الذي رويناه؛ أنّ الشمس رجعت حتى صلَّى عليُّ بن أبي طالب صلاة العصر، بعدما فاتته، بسبب نوم النبيِّ ﷺ على ركبته، فسأل رسول الله ﷺ أن يردَّها عليه، حتى يصلِّيَ العصر، فرجعت[٢]. وقد صحَّحه أحمد بن صالح المصريُّ، ولكنه منكرٌ، ليس في شيءٍ من الصِّحاح ولا الحسان، وهو مما تتوفر الدواعي على نقله، وتفردت بنقله امرأةٌ من أهل البيت مجهولةٌ، لا يعرف حالها. والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرَّزاق، حدثنا معمرٌ، عن همام، عن أبي هريرة، قال: قال

---

(١) **صحيح الإسناد**: «المسند» (٢/ ٣٢٥).

(٢) **موضوع**: أورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٣٥٥) باب في فضائل علي. قال: هذا حديث موضوع بلا شك وقد اضطرب الرواة فيه...قال: ومن تغفيل واضع الحديث أنه نظر إلى صورة فضيلة ولم يتلمح إلى عدم الفائدة فإن صلاة العصر بغيبوبة الشمس صارت قضاء فرجوع الشمس لا يعيدها أداء. وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «إن الشمس لم تحبس على أحد إلا ليوشع». وقال أيضًا بوضعه شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة وأورده السيوطي في «اللآلئ والمصنوعة» (١/ ٣٣٦) والألباني في «الضعيفة» (٩٧١).

رسول الله ﷺ: «غزا نبيٌّ من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجلٌ قد ملك بُضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها، ولَمَّا يبن، ولا آخر قد بنى بنيانًا ولم يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنمًا أو خلفات، وهو ينتظر أولادها. فغزا، فدنا من القرية حين صلَّى العصر أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورةٌ وأنا مأمورٌ، اللهمَّ احبسها عليَّ شيئًا. فحبستْ عليه، حتى فتح الله عليه، فجمعوا ما غنموا، فأقبلت النار لتأكله، فأبت أن تَطعمَه فقال: فيكم غلولٌ، فليبايعني من كلِّ قبيلة رجلٌ. فبايعوه، فلصقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، ولتبايعني قبيلتك. فبايعته قبيلته، فلصق بيد رجلين أو ثلاثة، فقال: فيكم الغلول، أنتم غللتم، فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب، قال: فوضعوه بالمال، وهو بالصَّعيد، فأقبلت النَّارُ فأكلته، فلم تحلَّ الغنائم لأحد من قبلنا، ذلك بأنّ الله رأى ضعفنا وعجزنا، فطيَّبها لنا»(١) . انفرد به مسلمٌ من هذا الوجه.

وقد روى البزّارُ من طريق مبارك بن فضالة، عن عبيدالله، عن سعيد المقبريِّ، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ نحوه. قال: ورواه محمد بن عجلان، عن سعيد المقبريِّ، قال: ورواه قتادةُ، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ.

والمقصود أنّه لمّا دخل بهم باب المدينة، أمروا أن يدخلوها سجَّدًا؛ أي: ركعًا متواضعين شاكرين لله، عزَّ وجلَّ، على ما منَّ به عليهم من الفتح العظيم، الذي كان الله وعدهم إيّاه، وأن يقولوا حال دخولهم: حطّةٌ. أي؛ حطَّ عنّا خطايانا التي سلفت من نكولنا الذي تقدَّم منّا. ولهذا لمّا دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها، دخلها وهو راكبٌ ناقته، وهو متواضعٌ حامدٌ شاكرٌ، حتى إنَّ عثنونه، وهو طرف لحيته، ليمسُّ مورك رحله، مما يطأطئ رأسه خضعانًا لله، عزَّ وجلَّ، ومعه الجنود والجيوشُ، ممّ لا يرى منه إلا الحدق لا سيما الكتيبةُ الخضراءُ، التي فيها رسول الله ﷺ، ثم لمّا دخلها، اغتسل وصلَّى ثماني ركعات(٢) . وهي صلاة الشُّكر على النَّصر، على المنصور من قولي العلماء. وقيل: إنّها صلاة الضُّحى. وما حمل هذا القائل على قوله هذا، إلا لأنَّها وقعتْ وقت الضُّحى. وأمّا بنو إسرائيل، فإنهم خالفوا ما أمروا به قولاً وفعلاً؛ دخلوا الباب يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حبَّةٌ في شعرة(٣) . وفي رواية: حنطةٌ في شعرة. وحاصله: أنّهم بدَّلوا ما أمروا به، واستهزءوا به، كما قال تعالى، حاكيًا عنهم في سورة «الأعراف»، وهي مكيةٌ: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦١-١٦٢] وقال تعالى في سورة «البقرة» وهي مدنيَّةٌ مخاطبًا لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا

---

(١) متفق عليه: مسلم (٤٥٣٠) والبخاري (٣١٢٤) من طريق ابن المبارك، المسند (٢/٣١٨).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٢٩٢). (٣) صحيح: رواه البخاري (٣٤٠٣).

كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩]. قال الثوريُّ، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿**وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا**﴾ قال: ركعًا من بابٍ صغير. رواه الحاكم[1]، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وكذا روى العوفيُّ، عن ابن عباس[2]. وكذا روى الثوريُّ، عن أبي إسحاق، عن البراء. قال مجاهدٌ[3] والسُّدِّيُّ[4]، والضحاك[5]: الباب هو باب حطَّة من بيت إيلياء، بيت المقدس. قال ابن مسعودٍ[6]: فدخلوا مقنعي رءوسهم، ضدَّ ما أمروا به. وهذا لا ينافي قول ابن عباس، أنَّهم دخلوا يزحفون على أستاههم. وهكذا في الحديث الذي سنورده بعد، فإنَّهم دخلوا يزحفون وهم مقنعو رءوسهم.

وقوله: ﴿**وَقُولُوا حِطَّةٌ**﴾ الواو هنا حاليَّةٌ، لا عاطفةٌ أي ادخلوا سجدًا في حال قولكم: حطةٌ قال ابن عباس[7]، وعطاءٌ[8]، والحسن، وقتادة[9]، والربيع[10]: أمروا أن يستغفروا.

قال البخاريُّ[11]: حدثنا محمدٌ، حدثنا عبدالرحمن بن مهديٍّ، عن ابن المبارك، عن معمر، عن همام بن منبهٍ، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجدًا، وقولوا حطَّةٌ. فدخلوا يزحفون على أستاههم، فبدلوا وقالوا: حطَّةٌ؛ حبةٌ في شعرة**». وكذا رواه النسائيُّ من حديث ابن المبارك ببعضه، ورواه عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، عن ابن مهديٍّ به موقوفًا.

وقد قال عبدالرزّاق: أنبأنا معمرٌ، عن همام بن منبهٍ، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله لبني إسرائيل** ﴿**ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ**﴾ **فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم، فقالوا: حبةٌ في شعرة**». ورواه البخاريُّ، ومسلمٌ[12]، والترمذيُّ، من حديث عبدالرزاق، وقال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ.

---

(١) **صحيح إليه:** الحاكم (٢/ ٢٦٢)، ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠)، ابن أبي حاتم (٥٧٦) ورجاله ثقات.

(٢) **ضعيف الإسناد:** رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠)، والعوفي ضعيف.

(٣) **صحيح إليه:** رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠) من طريق ابن أبي نجيح عنه ورواه أيضًا ابن أبي حاتم (٥٧٤).

(٤) **حسن إليه:** رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠) من طريق أسباط عنه وسنده حسن.

(٥) ذكره ابن أبي حاتم عنه ولم يذكر له سند قال: وروى عن الضحاك. عقب أثر رقم (٥٧٤).

(٦) **سنده لا بأس به:** رواه ابن أبي حاتم (٥٧٩) من رواية أبي الكنود. مختلف في اسمه عن عبد اللَّه وأبو الكنود وثقه ابن سعد وابن حبان وقال الحافظ: مقبول. وأبو سعيد الأزدي مقبول.

(٧) **صحيح إليه:** رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٣٠١) وابن أبي حاتم (٥٨٠) وسنده رجاله ثقات من رواية الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٨) **ضعيف إليه:** رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٣٠٠) وفي سنده سنيد وهو ضعيف عن ابن جريج عنه.

(٩) **في إسناده ضعف:** رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٣٠٠) من رواية عبد الرزاق عن معمر عنهما ورواية معمر عن البصريين فيها كلام أخرجه عبد الرزاق (٥٨).

(١٠) **ضعيف إليه:** رواه ابن جرير المصدر السابق بسند ضعيف من رواية أبي جعفر عنه. وأبو جعفر ضعيف وقال الطبري: حُدثت عن عمار ولم يذكر الواسطة.

(١١) **صحيح:** البخاري (٤٤٧٩)، والنسائي «الكبرى» (١٠٩٨٩) موقوفًا و(١٠٩٩٠) مرفوعًا.

(١٢) **متفق عليه:** البخاري (٣٤٠٣) مسلم (٤٧٣٩)، الترمذي (٢٩٥٦).

وقال محمد بن إسحاق[١] : كان تبديلهم، كما حدثني صالح بن كيسان، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة، وعمّن لا أتهم، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ، قال: «**دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجدًا، يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حنطةٌ في شعيرة**». وقال أسباطٌ[٢] عن السُّدِّيِّ، عن مرة، عن ابن مسعود، قال في قوله: ﴿**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ**﴾ قال: قالوا: (هطي سمقاثا أزبة مزبا) فهي بالعربية: حبّةُ حنطةٍ حمراءُ مثقوبةٌ، فيه شعرةٌ سوداءُ. وقد ذكر الله تعالىٰ أنه عاقبهم على هذه المخالفة بإرسال الرجز الذي أنزله عليهم، وهو الطاعون، كما ثبت في «الصحيحين»[٣] من حديث الزهريِّ، عن عامر بن سعد، ومن حديث مالك، عن محمد ابن المنكدر وسالم أبي النضر، عن عامر بن سعد، عن أسامة بن زيدٍ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنّ هذا الوجع ـ أو السَّقم ـ رجزٌ عذِّبَ به بعض الأمم قبلكم**». وروى النّسائيُّ[٤] ، وابن أبي حاتم، وهذا لفظه، من حديث الثوريِّ، عن حبيب بن أبي ثابت، عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، وأسامة بن زيدٍ وخزيمة بن ثابت، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «**الطاعون رجز عذاب، عذِّب به من كان قبلكم**». وقال الضحاك عن ابن عباس[٥] : الرجز: العذاب. وكذا قال مجاهدٌ[٦] ، وأبو مالك[٧] ، والسُّدِّيُّ[٨] ، والحسن[٩] ، وقتادة[١٠] ، وقال أبو العالية[١١] : هو الغضب. وقال الشعبيُّ[١٢] : الرجزُ إمَّا الطاعون ، وإما البرد. وقال سعيد بن جبير[١٣] : هو الطاعون.

ولمَّا استقرتْ يد بني إسرائيل على بيت المقدس، استمرُّوا فيه، وبين أظهرهم نبيُّ الله يوشع، يحكم بينهم بكتاب الله التوراة، حتىٰ قبضه الله إليه، وهو ابن مائةٍ وسبعٍ وعشرين سنةً، فكان مدةُ حياته بعد موسىٰ، سبعًا وعشرين سنةً. والله تعالىٰ أعلم.

---

(١) **صحيح لغيره**: رواه ابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٣٠٣) بسند ضعيف فيه ابن حميد شيخ الطبري ضعيف وصالح مولى التوأمة ضعيف والمبهم في طريق ابن عباس بين ابن إسحاق ومن حدثه لكن الحديث يشهد له ما في «الصحيحين».

(٢) **حسن**: رواه ابن أبي حاتم (٥٨٨) وهذا السند صححه الشيخ أحمد شاكر عليه رحمة الله. وهو حسن.

(٣) **متفق عليه**: البخاري (٣٤٧٣، ٦٩٧٤)، مسلم (٥٧٣٨) من حديث الزهري و(٥٧٣٣) من حديث مالك.

(٤) **صحيح**: النسائي «الكبرى» (٧٥٢٣)، ابن أبي حاتم (٥٩١)، مسلم بنفس السند (٥٧٤٢).

(٥) **ضعيف إليه**: رواه ابن أبي حاتم (٥٩٢) وابن جرير (١/ الجزء الأول/ ٣٠٦) وسنده ضعيف الضحاك لم يسمع من ابن عباس وفيه أبو روق ضعيف.

(٦ ـ ٩) ذكرهم ابن أبي حاتم عقب أثر رقم (٥٩٢) ولم يسنده.

(١٠) **في سنده ضعف**: رواه ابن جرير (١٠/ الجزء الأول/ ٣٠٥) من رواية معمر عنه ورواية معمر في البصريين متكلم فيها.

(١١) **ضعيف إليه**: رواه ابن أبي حاتم (٥٩٣)، وابن جرير (١٠/ الجزء الأول/ ٣٠٥) وسنده ضعيف من رواية أبي جعفر الرازي عن الربيع عنه.

(١٢) **ضعيف إليه**: رواه ابن أبي حاتم (٥٩٤) وسنده ضعيف من رواية مجالد عنه ومجالد ضعيف.

(١٣) ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر له سندًا.

ذكر قصتي الخضر وإلياس، عليهما السلام

أما الخضر، فقد تقدّم أنّ موسىٰ، عليه السلام، رحل إليه في طلب ما عنده من العلم اللدُنّيّ، وقصّ الله من خبرهما في كتابه العزيز، في سورة «الكهف»، وذكرنا في تفسير ذلك هنالك، وأوردنا هنا ذكر الحديث المصرِّح بذكر الخضر، عليه السلام، وأنّ الذي رحل إليه هو موسىٰ بن عمران، نبيُّ بني إسرائيل، عليه السلام، الذي أنزلت عليه التوراةُ.

وقد اختلفَ في الخضر؛ في اسمه، ونسبه، ونبوته، وحياته إلىٰ الآن، علىٰ أقوال، سأذكرها لك ههنا إن شاء الله تعالىٰ وبحوله وقوته.

قال الحافظ ابن عساكر[١] : يقال: إنه الخضر بن آدم، عليه السلام، لصلبه. ثم روىٰ من طريق الدارقطنيِّ: حدثنا محمد بن الفتح القلانسيُّ، حدثنا العباس بن عبدالله الترقفيُّ حدثنا روادُ بن الجرَّاح، حدثنا مقاتل بن سليمان، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: الخضر ابن آدم لصلبه، ونُسِئَ له في أجله حتىٰ يكذِّب الدجال. وهذا منقطعٌ وغريبٌ. وقال أبو حاتم سهلُ بن محمد بن عثمان السِّجستانيُّ[٢] : سمعت مشيختنا؛ منهم، أبو عبيدة وغيره، قالوا: إنّ أطول بني آدم عمراً الخضر، واسمه: خضرون بن قابيل بن آدم. قال: وذكر ابن إسحاق[٣] أنَّ آدم، عليه السلام، لما حضرته الوفاة أخبر بنيه أنّ الطوفان سيقع بالناس، وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم في السفينة، وأن يدفنوه في مكان عينه لهم. فلمّا كان الطوفان، حملوه معهم، فلما هبطوا إلىٰ الأرض، أمر نوحٌ بنيه أن يذهبوا ببدنه، فيدفنوه حيث أوصىٰ، فقالوا: إنّ الأرض ليس بها أنيسٌ، وعليها وحشةٌ، فحرَّضهم، وحثَّهم علىٰ ذلك. وقال: إنَّ آدم دعا لمن يلي دفنه بطول العمر، فهابوا المسير إلىٰ ذلك الموضع في ذلك الوقت، فلم يزل جسده عندهم، حتىٰ كان الخضر هو الذي تولَّىٰ دفنه، وأنجز الله ما وعده، فهو يحيىٰ إلىٰ ما شاء الله له أن يحيىٰ.

وذكر ابن قتيبة في «المعارف»، عن وهب بن منبهٍ، أنّ اسم الخضر بَلْيا. ويقال: إيليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، عليه السلام.

وقال إسماعيل بن أبي أويس: اسم الخضر، فيما بلغنا - والله أعلم - المعمر بن مالك بن عبدالله ابن نصر بن الأزد. وقال غيره: هُو خضرون بن عمياييل بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. ويقال: هو أرميا بن حلقيا. فالله أعلم.

وقيل: إنه كان ابن فرعون صاحب موسىٰ، ملك مصر. وهذا غريب جداً.

قال ابن الجوزيِّ: رواه محمد بن أيوب، عن ابن ليهعة، وهما ضعيفان. وقيل: إنّه ابن مالكٍ، وهو أخو إلياس. قاله السُّدِّيُّ كما سيأتي.

---

(١) **ضعيف جداً**: ابن عساكر «تاريخ دمشق» (١٦/ ٤٠٠) فيه رواد بن الجراح متروك ومقاتل بن سليمان متهم والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٢) رواه ابن عساكر (١٦/ ٤٠٠) عنه.

(٣) نفس الأثر متصل بكلام فيه.

وقيل: إنه كان على مقدِّمة ذي القرنين. وقيل: كان ابن بعض من آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه. وقيل: كان نبيًّا في زمن بشتاسب بن لهراسب.

قال ابن جرير: والصحيح أنَّه كان متقدِّمًا في زمن أفريدون بن أثفيان، حتى أدركه موسى، عليهما السلام.

وروى الحافظ ابن عساكر[١]، عن سعيد بن المسيَّب أنه قال: الخضر أمُّه روميَّةٌ، وأبوه فارسيٌّ. وقد ورد ما يدلُّ على أنه كان من بني إسرائيل في زمان فرعون أيضًا.

قال أبو زرعة، في «دلائل النُّبوة»[٢]: حدثنا صفوان بن صالح الدمشقيُّ، حدثنا الوليد، حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبيِّ بن كعب، عن رسول الله ﷺ، أنَّه ليلة أسري به وجد رائحةً طيبةً فقال: «**يا جبريل، ما هذه الرائحة الطيبة؟ قال: هذه ريح قبر الماشطة، وابنيها، وزوجها**». وقال: «وكان بدء ذلك أنّ الخضر كان من أشراف بني إسرائيل، وكان ممرُّه براهب في صومعته، فتطلع عليه الرّاهب، فعلمه الإسلام، فلما بلغ الخضر، زوَّجه أبوه امرأةً، فعلمها الإسلام، وأخذ عليها أنْ لا تعلمَ أحدًا، وكان لا يقرب النساء، ثم طلقها، ثم زوجه أبوه بأخرى فعلمها الإسلام، وأخذ عليها أن لا تعلم أحدًا، ثم طلقها، فكتمت إحداهما، وأفشت عليه الأخرى فانطلق هاربًا حتى أتى جزيرة في البحر، فأقبل رجلان يحتطبان فرأياه، فكتم أحدهما وأفشى عليه الآخر، قال: قد رأيت الخضر. فقيل: ومن رآه معك؟ قال: فلانٌ. فسئل فكتم، وكان من دينهم أنه من كذب قتل، فقتل وكان قد تزوج الكاتم المرأة الكاتمة، قال: فبينما هي تمشط بنت فرعون، إذ سقط المشط من يدها، فقالت: تعس فرعون. فأخبرت أباها، وكان للمرأة ابنان وزوجٌ، فأرسل إليهم، فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما فأبيا، فقال: إنِّي قاتلكما. فقالا: إحسانٌ منك إلينا إن أنت قتلتنا أن تجعلنا في قبر واحدٍ. فجعلهما في قبر واحد». فقال: «وما وجدت ريحًا أطيب منهما، وقد دخلت الجنة». وقد تقدمت قصة ماثلة بنت فرعون[٣]، وهذا المشط في أمر الخضر قد يكون مدرجًا من كلام أبيِّ بن كعب، أو عبدالله بن عباس، والله أعلم.

وقال بعضهم: كنيته أبو العباس. والأشبه - والله أعلم - أنَّ الخضر لقبٌ غلب عليه.

قال البخاريُّ[٤] **رحمه الله**: حدثنا محمد بن سعيد الأصبهانيُّ، حدثنا ابن المبارك، عن معمر،

---

(١) **ضعيف الإسناد**: رواه ابن عساكر «تاريخ دمشق» (١٦/ ٤٠١) فيه رشدين بن سعد ضعيف.

(٢) **ضعيف**: فيه سعيد بن بشير ضعيف وعنعنه قتادة.

(٣) **حسن**: بطريقيه رواه أحمد (١/ ٣٠٩ ـ ٣١٠) وابن حبان (٢٩٠٣ ـ ٢٩٠٤) والطبراني في الكبير (١٢٢٧٩) كلهم من طريق حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس والكلام في رواية حماد عن عطاء خلاف بين أهل العلم هل سمع قبل الاختلاط أم بعده ولحماد متابع وهو السدي عن عطاء رواه ابن عساكر (١٦/ ٤٢٠) لكن يشهد له رواية سعيد بن بشير عن قتادة عن مجاهد السابقة في القصة فقط وصححه شيخنا أبو عبد الله مصطفى بن العدوي في تفسير آل عمران (١٤٨).

(٤) **صحيح**: البخاري (٣٤٠٢).

عن همام، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إنما سمي الخضر؛ لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء». تفرد به البخاري، وكذلك رواه عبدالرزاق، عن معمر به. ثم قال عبدالرزاق: الفروة؛ الحشيش الأبيض وما أشبهه، يعني الهشيم اليابس.

وقال الخطابي: وقال أبو عمر: الفروة؛ الأرض البيضاء، التي لا نبات فيها، وقال غيره: هو الهشيمُ اليابسُ، شبهه بالفروة، ومنه قيل: فروة الرأس. وهي جلدته بما عليها من الشعر كما قال الراعي:

ولقد ترى الحبشيَّ حول بيوتنا — جذلاً إذا ما نال يومًا مأكلا

صعلاً أسكَّ كأنَّ فروة رأسه — بذرت فأنبت جانباه فلفلا

وقال الخطابي: إنما سمِّيَ الخضر خضراً؛ لحسنه وإشراق وجهه.

قلت: هذا لا ينافي ما ثبت في «الصحيح»، فإن كان ولابُدَّ من التّعليل بأحدهما، فما ثبت في «الصحيح» أولى وأقوى، بل لا يلتفت إلى ما عداه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر[1] هذا الحديث أيضًا من طريق أبي إسماعيل حفص بن عمر الأيليّ، حدثنا عثمان، وأبو جزيّ، وهمّامُ بن يحيى، عن قتادة، عن عبدالله بن الحارث بن نوفل، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «إنّما سميَ الخضر خضراً؛ لأنّه صلّى على فروة بيضاء، فاهتزّت خضراء». وهذا غريبٌ من هذا الوجه. وقال قبيصة، عن الثّوريّ، عن منصور، عن مجاهد، قال: إنما سمِّيَ الخضر؛ لأنه كان إذا صلّى اخضرَّ ما حوله. وتقدّم أنّ موسى، ويوشع، عليهما السلام، لما رجعا يقصان الأثر، وجداه على طنفسة خضراء، على كبد البحر، وهو مسجًّى بثوب، قد جُعل طرفاه من تحت رأسه وقدميْه، فسلَّم عليه موسى، عليه السلام، فكشف عن وجهه، فردَّ وقال: أنَّى بأرضك السلام! من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. فكان من أمرهما ما قصَّه الله في كتابه عنهما.

وقد دلَّ سياق القصّة على نبوّته من وجوه.

أحدها: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

الثاني: قول موسى له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٦٦-٧٠]. فلو كان وليًّا وليس بنبيٍّ، لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة، ولم يردَّ على موسى هذا الردَّ، بل موسى إنّما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم، الذي اختصَّه الله به دونه، فلو كان غير نبيٍّ لم يكن معصومًا، ولم

---

(١) ابن عساكر تاريخ (١٦/٤٠٢).

يكنْ لموسى - وهو نبيٌّ عظيمٌ، ورسولٌ كريمٌ، واجبُ العصْمة - كبير رغبة، ولا عظيم طلبة في علم وليٍّ غير واجب العصمة، ولما عزم على الذهاب إليه، والتفتيش عليه، ولو أنه يمضي حُقُبًا من الزمان، قيل: ثمانين سنةً. ثم لمّا اجتمع به، تواضع له، وعظَّمه، واتبعه في صورة مستفيدٍ منه، دلَّ على أنه نبيٌّ مثله، يوحى إليه كما يوحى إليه، وقد خُصَّ من العلوم اللدُنّيَّة، والأسرار النبويَّة بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم، نبيَّ بني إسرائيل الكريم، وقد احتجَّ بهذا المسلك بعينه الرُّمانيُّ، على نبوة الخضر، عليه السلام.

الثالثُ: أنّ الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام، وما ذاك إلا للوحي إليه فيه من الملك العلام. وهذا دليلٌ مستقلٌ على نبوته، وبرهانٌ ظاهرٌ على عصمته؛ لأنَّ الوليَّ لا يجوزُ له الإقدامُ على قتل النفوس بمجرَّد ما يلقى في خلده، لأنَّ خاطره ليس بواجب العصمة؛ إذ يجوزُ عليه الخطأُ بالاتفاق. ولّما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام، الذي لم يبلغ الحلم، علمًا منه بأنه إذا بلغ يكفر، ويحمل أبويه على الكفر؛ لشدَّة محبتهما له، فيتابعانه عليه، ففي قتله مصلحةٌ عظيمةٌ تربو على بقاء مهجته؛ صيانةً لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته، دلَّ ذلك على نبوته، وأنه مؤيدٌ من الله بعصمته. وقد رأيت الشيخ أبا الفرج ابن الجوزيِّ طَرَقَ هذا المسلك بعينه في الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه. وحكى الاحتجاج عليه الرمانيُّ أيضًا.

الرابع: أنه لما فسَّر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى، ووضح له عن حقيقة أمره، وجلَّى، قال بعد ذلك كله: ﴿**رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**﴾ [الكهف: ٨٢] يعني: ما فعلته من تلقاء نفسي، بل أمرتُ به، وأوحي إليَّ فيه، فدلَّت هذه الوجوه على نبوته. ولا ينافي ذلك حصول ولايته، بل ولا رسالته، كما قال آخرون. وأمّا كونه ملكًا من الملائكة، فغريبٌ جدًا. وإذا ثبتت نبوته كما ذكرناه، لم يبق لمن قال بولايته - وأنَّ الوليَّ قد يطلعُ على حقيقة الأمور دون أرباب الشَّرْع الظّاهر - مستندٌ يستندون إليه، ولا معتمدٌ يعتمدون عليه.

وأمّا الخلاف في وجوده إلى زماننا هذا، فالجمهور على أنه باقٍ إلى اليوم، قيل: لأنّه دفن آدم بعد خروجهم من الطوفان، فنالته دعوةُ أبيه آدم بطول الحياة. وقيل: لأنّه شرب من عين الحياة فحييَ.

وذكروا أخبارًا استشهدوا بها على بقائه إلى الآن، وسنوردها مع غيرها، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

وهذه وصيته لموسى حين ﴿**قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**﴾ [الكهف: ٧٨]. رُوي في ذلك آثارٌ منقطعةٌ كثيرةٌ.

قال البيهقيُّ[(١)]: أنبأنا أبو سعيد بن أبي عمرو، حدَّثنا أبو عبدالله الصفارُ، حدثنا أبو بكر ابن أبي الدنيا، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا جريرٌ، حدثني أبو عبد الله الملطيُّ، قال: لّما أراد موسى

---

(١) معضل: البيهقي في الشعب (٦٦٩٤) رجاله ثقات إلى أبي عبد الله الملطي.

أن يفارق الخضر، قال له موسى: أوصني. قال: كن نفَّاعًا ولا تكنْ ضرَّارًا، كن بشَّاشًا ولا تكن غضبانَ، ارجع عن اللَّجاجة، ولا تمشِ في غير حاجةٍ. وفي روايةٍ من طرقٍ أخرى زيادة: ولا تضحك إلا من عجب.

وقال وهب بن منبه[1]: قال الخضر: يا موسى، إنّ الناس معذَّبون في الدنيا على قدر همومهم بها. وقال بشرُ بن الحارث الحافي[2]: قال موسى للخضر: أوصني. فقال: يسَّر الله عليك طاعته.

وقد ورد في ذلك حديثٌ مرفوعٌ، رواه ابن عساكر[3]، من طريق زكريا بن يحيى الوقار، إلا أنه من الكذابين الكبار. قال: قرئ على عبدالله بن وهب، وأنا أسمع، قال الثَّوريُّ: قال مجالدٌ: قال أبو الودَّاك: قال أبو سعيد الخدريُّ: قال عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال أخي موسى: يا ربِّ. ذكر كلمةً، فأتاه الخضر، وهو فتًى طيِّبُ الرّيح، حسن بياض الثّياب، مشمِّرها، فقال: السلام عليك ورحمة الله يا موسى بن عمران، إن ربك يقرأ عليك السلام. قال موسى: هو السلام، وإليه السلام، والحمد لله ربِّ العالمين، الذي لا أحصي نعمه، ولا أقدر على أداء شكره إلا بمعونته. ثم قال موسى: أريد أن توصيَني بوصيَّة، ينفعني الله بها بعدك. فقال الخضر: يا طالبَ العلم، إنَّ القائلَ أقلُّ ملالةً من المستَمِع، فلا تُملَّ جُلساءَكَ إذا حدَّثتهم، واعلم أن قلبك وعاءٌ فانظرْ ماذا تحشو به وعاءك؟ واعزف عن الدّنيا وانبذْها وراءك، فإنها ليست لك بدار، ولا لك فيها مَحلُّ قرار. وإنما جعلت بلغةً للعباد، والتزوُّد منها ليوم المعاد. ورُضْ نفسك على الصبر، تخلص من الإثم، يا موسى، تفرغ للعلم إن كنت تريده، فإنما العلم لمن تفرَّغ له، ولا تكن مكثارًا بالمنطق مهذارًا؛ فإنَّ كثرة المنطق تَشينُ العلماء، وتبدي مساوئ السُّخفاء، ولكن عليك بالاقتصاد، فإنَّ ذلك من التوفيق والسداد. وأعرض عن الجهال وباطلهم، واحلم عن السفهاء، فإنَّ ذلك فعل الحكماء، وزين العلماء، إذا شتمك الجاهل فاسكت عنه حلمًا، وجانبه حزمًا؛ فإنَّ ما بقي من جهله عليك، وسبِّه إيّاكَ، أكثرُ وأعظمُ. يا بن عمران، ولا تر أنك أوتيت من العلم إلا قليلاً؛ فإنّ الإندلاث والتعسُّفَ، من الاقتحام والتكلف. يا بن عمران، لا تفتحنَّ بابًا لا تدري ما غلقه، ولا تغلقنَّ بابًا لا تدري ما فتحه. يا بنَ عمرانَ مَنْ لا تنتهي من الدنيا نَهْمَتُهُ، ولا تَنْقضي منها رغبتهُ كيف يكون عابدًا؟! ومن يحقرُ حالَهُ ويتهمُ اللَّهَ فيما قَضَى له، كيف يكونُ زاهدًا؟! هل يكفُّ عن الشهوات من غَلَبَ عليه هواه، أو يَنفعهُ طلبُ العلم، والجهلُ قد حَواهُ؛ لأنّ سعيه إلى آخرته وهو مُقبلٌ على دنياه؟! يا موسى، تعلَّمْ ما تعلَّمْتَ لتَعْمَلَ به، ولا تَعَلَّمْه لتُحدِّثَ به، فيكونَ عليكَ بَوارُهُ ولغيرك نورُه. يا موسَى بنَ عمرانَ، اجعل الزُّهْدَ والتَّقْوَى لباسَكَ، والعلمَ والذِّكْرَ كلامَكَ، واستَكْثرْ من الحسنات، فإنَّك مصيبٌ السيِّئات، وزَعْزِعْ بالخوف قلبَكَ، فإنَّ ذلك يُرْضي ربَّك، واعمَلْ خيرًا فإنَّكَ لا بُدَّ عاملٌ سُوءًا. قد وُعظتَ إنْ حَفظْتَ» قال: «فتولّى الخضرُ، وبقيَ موسَى مَحزُونًا مَكْرُوبًا يَبْكي».**

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/٤١٦).

(٢) رواه ابن عساكر أيضًا.

(٣) موضوع: ابن عساكر (١٦/٤١٤).

لا يصحُّ هذا الحديثُ، وأظنُّه من صَنْعَةِ زكريا بن يحيَىٰ الوَقَارِ المصريِّ، كذَّبَهُ غير واحدٍ من الأئمة، والعَجَبُ أنَّ الحافظَ ابنَ عساكرَ سكتَ عنه.

وقال الحافظُ أبو نُعَيْمٍ الأصبهانيُّ[1] : حدَّثنا سليمانُ بن أحمدَ بن أيوبَ الطَّبرانيُّ، ثنا عمرو بنُ إسحاقَ بن إبراهيمَ بن العلاءِ الحِمْصيُّ، حدَّثنا محمدُ بنُ الفضلِ بن عمرانَ الكِنْدِيُّ، حدَّثنا بقيةُ بنُ الوليدِ، عن محمدِ بن زيادٍ، عن أبي أُمامةَ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال لأصحابِهِ: «ألا أُحدِّثُكم عن الخَضِرِ؟» قالوا: بلىٰ يا رسولَ اللَّه. قال: «بينما هو ذات يوم يمشي في سُوقِ بني إسرائيل، أبصَرَهُ رجلٌ مُكاتَبٌ، فقال: تَصَدَّقَ عليَّ، باركَ اللَّهُ فيكَ. فقال الخَضِرُ: آمنتُ باللَّه، ما شاء اللَّهُ من أمرٍ يكون، ما عندي من شيءٍ أُعطيكَهُ. فقال المسكين: أسألك بوجه اللَّه لمَا تصدَّقتَ عليَّ، فإنِّي نظرتُ السِّيماءَ في وجهك، ورجوتُ البركةَ عندك. فقال الخَضِرُ: آمنتُ باللَّه، ما عندي شيءٌ أُعطيكه، إلا أنْ تأخُذَني فتبيعَني. فقال المسكينُ: وهل يستقيمُ هذا؟ قال: نعم، الحقَّ أقولُ لك، لقد سألتني بأمرٍ عظيمٍ، أما إني لا أُخيِّبُكَ بوجه ربِّي، بعْني. قال: فقدَّمَهُ إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم، فمكَثَ عند المُشْتري زمانًا لا يستعمله في شيءٍ؛ فقال له: إنَّك إنما ابتعتَني التماسَ خيرٍ عندي، فأوصني بعمل. قال: أكرهُ أنْ أشُقَّ عليكَ، إنَّك شيخٌ كبيرٌ ضعيفٌ. قال: ليس تشُقُّ عليَّ. قال: فانقُلْ هذه الحجارة. وكان لا ينقُلُها دونَ ستة نَفَرٍ في يومٍ، فخرج الرجلُ لبعضِ حاجته، ثم انصرفَ وقد نَقَلَ الحجارة في ساعة. فقال: أحسنتَ وأجملتَ، وأطقتَ ما لم أركَ تُطيقُهُ، ثم عَرَضَ للرجلِ سَفَرٌ فقال: إنِّي أحسبُكَ أمينًا، فاخلُفْني في أهلي خلافةً حسنةً. قال: فأوصني بعمل. قال: إنِّي أكرهُ أن أشقَّ عليك. قال: ليس تشقُّ عليَّ. قال: فاضربْ من اللَّبِن لبيتي حتَّى أقدمَ عليكَ. فمضى الرجلُ لسفره فرجعَ وقد شيَّدَ بناءَه. فقال: أسألُك بوجه اللَّه ما سببُك وما أمرُك؟ فقال: سألتني بوجه اللَّه، والسؤالُ بوجه اللَّه أوقعَني في العبودية، سأُخبرُكَ مَنْ أنا، أنا الخَضِرُ الذي سَمعتَ به، سألَني مسكينٌ صدقَةً، فلم يكن عندي شيءٌ أُعطيه، فسألني بوجه اللَّه فأمكنتُهُ من رقبتي، فباعَني، وأُخبرك أنه من سئلَ بوجه اللَّه فردَّ سائلَهُ وهو يقدرُ، وقفَ يوم القيامة جلدُهُ لا لحم له، ولا عظمَ يتقَعْقَعُ. فقال الرجلُ: آمنتُ باللَّه، شَقَقْتُ عليك يا نبي اللَّه ولم أعلمْ. فقال: لا بأسَ، أحسنتَ وأبقيتَ. فقال الرَّجُلُ: بأبي وأمي يا نبيَ اللَّه، احكُمْ في أهلي ومالي بما أراك اللَّهُ، أو أُخيِّرُكَ فأخَلّي سبيلَك. فقال: أُحبُّ أن تُخَلِّي سبيلي فأعبُدَ ربي. فخلَّى سبيلَهُ، فقال الخضرُ: الحمدُ للَّه الذي أوقعَني في العبوديَّة، ثمَّ نَجَّاني منها» وهذا حديثٌ رفعُه خطأٌ، والأشبهُ أنْ يكونَ موقوفًا، وفي رجاله من لا يُعْرَفُ. فاللَّهُ أعلمُ.

وقد رواهُ ابنُ الجَوْزِيِّ، في كتابه «عُجالةُ المنتظر في شرحِ حالِ الخَضِر»: من طريقِ عبدِ الوهَّابِ

---

(1) ضعيف: رواه ابن عساكر «تاريخ دمشق» من طريق أبي نعيم (١٦/ ٤١٧) ولا يصح كما قال الحافظ فيه بقية ابن الوليد يدلس تدليس التسوية وقد عنعن غير المجاهيل في السند.

ابن الضَّحَّاك، وهو متروكٌ عن بقيةَ. وقد روىٰ الحافظُ ابنُ عساكر[1] ، بإسناده إلىٰ السُّدِّيِّ، أنَّ الخَضِرَ وإلياسَ كانا أخوَيْنِ، وكان أبوهُما مَلِكًا، فقال إلياسُ لأبيه: إنَّ أخي الخضر لا رغبةَ له في المُلك، فلو أنَّكَ زوّجْتَهُ لعلَّهُ يجيء منه ولدٌ يكونُ المُلكُ له. فزوَّجَهُ أبوه بامرأةٍ حسناءَ بكرٍ، فقال لها الخَضِرُ: إنَّه لا حاجة لي في النِّساء، فإنْ شئْتِ أطلقتُ سراحَكِ، وإنْ شئتِ أقمْتِ معي تعبدين اللَّهَ عزَّ وجلَّ، وتكتمين عليَّ سرِّي. فقالتْ: نَعَمْ. وأقامتْ معه سنةً، فلمَّا مضت السَّنَةُ دعاها الملكُ فقال: إنَّكِ شابَّةٌ وابني شابٌّ، فأين الولدُ؟ فقالت: إنما الولدُ من عند اللَّه، إنْ شاءَ كانَ، وإنْ لم يشأ لم يكُنْ. فأمرهُ أبوهُ فطلَّقَها، وزوَّجَهُ أُخرىٰ ثيِّبًا قد وُلِدَ لها، فلمَّا زُفَّتْ إليه، قال لها كما قال للتي قبلَه، فأجابتْ إلىٰ الإقامة عندهُ، فلمَّا مضت السَّنَةُ، سألَها الملكُ عن الولد، فقالتْ: إنَّ ابنَكَ لا حاجةَ له في النِّساء. فتَطَلَّبهُ أبوهُ فَهَرَبَ، فأرسلَ وراءَهُ فلم يَقْدرُوا عليه، فيُقالُ: إنَّهُ قتلَ المرأةَ الثانيةَ، لكونِها أفشَتْ سرَّهُ، فهربَ من أجلِ ذلكَ، وأُطْلِقَ سراحُ الأُخرىٰ، فأقامَتْ تعْبُدُ اللَّهَ في بعضِ نواحي تلك المدينة، فمرَّ بها رجلٌ يومًا فسمعَتْه يقول: بسم اللَّه. فقالتْ له: أنَّىٰ لك هذا الاسم؟ فقال: إني من أصحاب الخَضِرِ. فتَزَوَّجَتْهُ، فولدَتْ له أولادًا، ثم صار من أمرِها أنْ صارَتْ ماشطَةَ بنتِ فرعَونَ، فبينما هي يومًا تُمَشِّطُها؛ إذ وَقَعَ المُشْطُ من يدها، فقالتْ: بسم اللَّه. فقالت ابنةُ فرعونَ: أبي؟ فقالت: لا، ربِّي وربُّكِ وربُّ أبيكِ اللَّهُ. فأعلَمَتْ أباها، فأمرَ ببَقَرةٍ من نُحاسٍ، فأُحْميَتْ، ثم أُمرَ بها، فأُلقِيَتْ فيها، فلمَّا عايَنَتْ ذلك، تقاعستْ أنْ تقعَ فيها، فقال لها ابنٌ معها صغيرٌ: يا أُمَّه، اصبري فإنَّكِ علىٰ الحقِّ. فألقَتْ نفسَها في النَّار، فماتتْ، رحمها اللَّهُ تعالىٰ.

وقد رَوَىٰ ابنُ عساكر[2] ، عن أبي داودَ الأعمَىٰ نُفَيْعٍ، وهو كذابٌ وضَّاعٌ، عن أنسِ بن مالكٍ، ومن طريقِ كثيرِ بن عبداللَّه بن عمرو بن عوفٍ، وهو كذَّابٌ أيضًا، عن أبيه، عن جدِّه، أنَّ الخَضِرَ جاء ليلةً فسمعَ النبيُّ ﷺ كلامَهُ وهو يدعو ويقولُ: اللَّهُمَّ أعنِّي علىٰ ما يُنجيِّني مما خَوَّفْتَني، وارزُقْني شوقَ الصالحينَ إلىٰ ما شوَّقْتَهم إليه. فبعثَ إليه رسولُ اللَّه أنس بن مالك، فسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام وقال له: قُل له: إنَّ اللَّهَ فَضَّلَكَ علىٰ الأنبياء كما فَضَّلَ شهر رمضانَ علىٰ سائرِ الشُّهورِ، وفضَّلَ أُمَّتَكَ علىٰ الأمم، كما فضَّلَ يوم الجمعة علىٰ غيره. الحديث، وهو مكذوبٌ، لا يصحُّ سندًا ولا متنًا؛ كيف لا يتمثَّلُ بين يدي رسول اللَّه ﷺ ويجيء بنفسه مُسلِّمًا ومتعلِّمًا، وهم يذكرون في حكاياتهم، وما يُسندونه عن بعض مشايخهم، أنَّ الخَضِرَ يأتي إليهم ويسلِّمُ عليهم، ويعرفُ أسماءَهم ومنازلَهم ومحالَّهم، وهو مع هذا لا يعرفُ موسىٰ بن عمرانَ، كليمَ اللَّه الذي اصطفاه اللَّه في ذلك الزمانِ علىٰ من سواهُ، حتَّىٰ يَتَعَرَّفَ إليه بأنَّه موسىٰ بني إسرائيل.

وقد قال الحافظُ أبو الحسينِ ابنُ المنادي بعد إيرادِه حديثَ أنسٍ هذا: وأهلُ الحديث مُتَّفقُونَ علىٰ

(١) حسن: «تاريخ دمشق» (١٦/ ٤١٩) من رواية أسباط عنه.
(٢) موضوع: ابن عساكر «تاريخ دمشق» (١٦/ ٤٢٢).

أنَّهُ حديثٌ مُنكرُ الإسنادِ، سَقِيمُ المَتْنِ، يَتَبَيَّنُ فيه أثرُ الصَّنْعَة.

فأمّا الحديثُ الذي رواه الحافظُ أبو بكر البيهقيُّ[1]، قائلاً: أخبرنا أبو عبدالله الحافظُ، أخبرنا أبو بكر بن بالَوَيْه، حدَّثنا محمدُ بن بشر بن مَطَر، حدَّثنا كاملُ بنُ طلحة، حدَّثنا عبَّادُ بنُ عبدِالصَّمد، عن أنسِ بن مالك، قال: لمّا قُبِضَ رسولُ اللّه ﷺ أحدقَ به أصحابُهُ، فبَكَوْا حولَهُ، واجتمعوا، فدخلَ رجلٌ أشهبُ اللحيَةِ، جسيمٌ صبيحٌ، فتخطَّى رقابَهم فبَكَى، ثم التفتَ إلى أصحابِ رسول اللّه ﷺ فقال: إنَّ في اللّه عزاءً من كلِّ مُصيبةٍ، وعوضًا من كلِّ فائتٍ، وخَلَفًا من كلِّ هالكٍ، فإلى اللّه فأَنِيبوا، وإليه فارغَبُوا، ونَظَرُهُ إليكم في البلاءِ فانظروا، فإنَّ المصابَ مَنْ لم يُجْبَرْ. وانصرفَ، فقال بعضُهم لبعضٍ: تعرفون الرجلَ؟ فقال أبو بكرٍ، وعليٌّ: نعم، هذا أخو رسولِ اللّه ﷺ الخَضِرُ عليه السلام. وقد رواهُ أبو بكرِ ابنُ أبي الدُّنيا، عن كاملِ بن طلحةَ به، وفي مَتْنه مُخالَفَةٌ لسياقِ البيهقيِّ، ثم قال البيهقيُّ: عبَّادُ بنُ عبدالصمدِ ضعيفٌ، وهذا منكرٌ بمرةٍ. قلتُ: عبادُ بنُ عبدِ الصمدِ هذا هو أبو معمرٍ البصريُّ؛ روى عن أنسٍ نُسخةً. قال ابنُ حبانَ والعُقيليُّ: أكثرُها موضوعٌ. وقال البخاريُّ: منكرُ الحديثِ. وقال أبو حاتمٍ: ضعيفُ الحديثِ جدًا مُنْكَرُهُ. وقال ابنُ عديٍّ: عامَّةُ ما يرويه في فضائلِ عليٍّ، وهو ضعيفٌ، غالٍ في التَّشيُّع.

وقال الشافعيُّ[2] في «مسنده»: أخبرنا القاسمُ بنُ عبدِ اللّه بنِ عمرَ، عن جعفرِ بن محمدٍ، عن أبيه، عن جدِّه عليِّ بنِ الحسينِ، قال: لمّا تُوفِّيَ رسولُ اللّه ﷺ، وجاءت التَّعْزِيَةُ، سمعُوا قائلاً يقولُ: إنَّ في اللّه عزاءً من كلِّ مصيبةٍ، وخلفًا من كلِّ هالكٍ، ودَرَكًا من كلِّ فائتٍ، فباللّه فثِقُوا، وإيَّاه فارجُوا، فإنَّ المصابَ مَنْ حُرِمَ الثوابَ. قال عليُّ بنُ الحسينِ: أتدرونَ مَنْ هذا؟ هذا الخَضِرُ. شيخُ الشافعيِّ القاسمُ العُمَرِيُّ متروكٌ. قال أحمدُ بن حنبلٍ، ويحيى بن معينٍ: يكذبُ. زاد أحمدُ: ويَضَعُ الحديثَ. ثم هو مرسلٌ، ومثلُهُ لا يُعتمدُ عليه ههنا. واللّهُ أَعْلَمُ.

وقد رُوي من وجهٍ آخرَ ضعيفٍ، عن جعفرِ بن محمدٍ، عن أبيه، عن جدِّه، عن أبيه، عن عليٍّ، ولا يصحُّ.

وقد روَى عبدُ اللّه بن وهب[3]، عمَّن حدَّثَهُ، عن محمدِ بن عَجْلانَ، عن محمدِ بن المُنْكَدِرِ، أنَّ عمرَ بن الخطابِ بينمَا هو يُصلِّي على جنازةٍ؛ إذْ سمعَ هاتفًا وهو يقولُ: لا تسبِقْنا يرحمُكَ اللّهُ. فانتظرَهُ حتى لَحِقَ بالصفِّ، فذَكَرَ دعاءَهُ للميِّتِ؛ إنْ تُعذِّبْهُ فكثيرًا عصاكَ، وإن تغفر له ففقيرٌ إلى رحمتك. ولمَّا دُفِنَ قال: طوبَى لك يا صاحبَ القبرِ، إنْ لم تكُنْ عَرِيفًا، أو جابيًا، أو خازنًا، أو كاتبًا، أو شُرْطيًا. فقال عمر: خذوا الرجلَ نسألْه عن صلاتِهِ وكلامِهِ عمَّن هو. قال: فتوارَىٰ عنهم،

---

(١) منكر: البيهقي في دلائل النبوة (٧/ ٢٦٩) وقال: هذا منكر بمرة.

(٢) منكر: مسند الشافعي (٦٠٠) بتخريج شفاء العي.

(٣) ضعيف: رواه ابن عساكر «تاريخ دمشق» (١٦/ ٤٢٤) وسنده ضعيف فيه مبهم بين ابن وهب وابن عجلان والانقطاع بين ابن المنكدر وعمر.

فَنَظَروا فإذا أثر قَدَمِه ذراعٌ. فقال عمرُ: هذا واللَّهِ الخَضِرُ الذي حدَّثنا عنه رسولُ اللَّهِ ﷺ. وهذا الأثر فيه مُبهمٌ، وفيه انقطاعٌ، ولا يصحُّ مثلُهُ.

وروى الحافظُ ابنُ عساكر[1] ،عن الثوريِّ، عن عبدِ اللَّهِ بن المُحَرَّرِ، عن يزيدَ بن الأصمِّ، عن عليِّ بن أبي طالبٍ، قال: دخلتُ الطَّوافَ في بعضِ الليلِ، فإذا أنا برجلٍ مُتعلِّقٍ بأستارِ الكعبةِ وهو يقولُ: يا مَنْ لا يمنعهُ سمعٌ عن سمعٍ، ويا مَنْ لا تُغلطُه المسائلُ، ويا من لا يُبْرِمُه إلحاحُ المُلحِّين، ولا مسألةُ السائلين، ارزُقْني بَردَ عفوك، وحلاوةَ رحمتك. قال: فقلتُ: أعدْ عليَّ ما قلتَ. فقال لي: أوَسَمِعْتَهُ؟ قلتُ: نَعَم. فقال لي: والذي نفسُ الخَضِرِ بيده - قال: وكان هو الخَضِرَ - لا يقولُها عبدٌ خلفَ صلاةٍ مكتوبةٍ؛ إلا غفرَ اللَّهُ له ذنوبَهُ، ولو كانت مثلَ زَبَدِ البحرِ، وورقِ الشَّجرِ، وعددِ النُّجومِ؛ لَغَفَرَها اللَّهُ له. وهذا ضعيفٌ من جهة عبدِ اللَّهِ بن المُحَرَّرِ؛ فإنَّه متروكُ الحديث، ويزيدُ بنُ الأصمِّ لم يُدْرِكْ عليًّا. ومثلُ هذا لا يصحُّ. واللَّهُ أَعْلَمُ.

وقد رواه أبو إسماعيل التِّرْمذي:[2] حدَّثنا مالكُ بن إسماعيلَ، حدَّثنا صالحُ بنُ أبي الأسودِ، عن محفوظِ بنِ عبدِ اللَّه الحَضْرَمِيِّ، عن محمدِ بن يَحْيَىٰ، قال: بينما عليُّ بنُ أبي طالبٍ يطوفُ بالكعبةِ، إذا هو برجلٍ متعلِّقٍ بأستارِ الكعبةِ، وهو يقول: يا منْ لا يَشْغَلُه سمعٌ عن سمعٍ، ويا من لا يُغْلِطُه السائلون، ويا من لا يَتَبَرَّمُ بإلحاحِ المُلحِّينَ، أذِقْني بردَ عفوكَ، وحلاوةَ رحمتك. قال: فقال له عليٌّ: يا عبدَاللَّه، أعدْ دعاءَك هذا. قال: وقد سمعتَهُ؟ قال: نعم. قال: فادْعُ به في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ، فوالذي نفسُ الخَضِرِ بيده، لو كان عليكَ من الذُّنوبِ عددُ نجومِ السماءِ ومطرِها، وحصباءِ الأرضِ وتُرابِها، لغُفِرَ لك أسرعَ من طرفةِ عينٍ. وهذا أيضًا منقطعٌ، وفي إسناده من لا يُعْرَفُ. واللَّهُ أَعْلَمُ.

وقد أوردَهُ ابنُ الجوزيِّ، من طريقِ أبي بكر ابن أبي الدُّنيا: حدَّثنا يعقوبُ بنُ يوسفَ، حدَّثنا مالكُ بنُ إسماعيلَ، فذكرَ نحوَهُ، ثم قال: وهذا إسنادٌ مجهولٌ منقطعٌ، وليس فيه ما يدلُّ على أنَّ الرَّجُلَ الخَضِرُ.

وقال الحافظُ أبو القاسمِ ابنُ عساكر[3] : أنبأنا أبو القاسمِ بنُ الحُصينِ، أنبأنا أبو طالبٍ محمدُ بنُ محمدٍ، أنبأنا أبو إسحاقَ المُزَكِّي، حدثنا محمدُ بنُ إسحاقَ بنِ خُزَيمةَ، حدَّثنا محمدُ بنُ أحمدَ بن زيدٍ، أَمْلَهُ علينا بعَبَّادانَ، أنبأنا عمرو بنُ عاصمٍ، حدَّثنا الحسنُ بن رَزينٍ، عن ابنِ جُرَيْجٍ، عن عطاءٍ، عن ابنِ عباسٍ - قال: ولا أعلَمُه إلا مرفوعًا إلى النبي ﷺ - قال: يَلتقي الخَضِرُ وإلياسُ كلَّ عامٍ في الموسمِ، فيَحلِقُ كلُّ واحدٍ منهما رأسَ صاحبِه، ويَتَفَرَّقَانِ عن هؤلاءِ الكلماتِ: «بسمِ اللَّهِ ما شاءَ اللَّهُ، لا يسوقُ الخيرَ إلا اللَّهُ ما شاءَ اللَّهُ، لا يصرفُ الشرَّ إلا اللَّهُ، ما شاءَ اللَّهُ، ما كان من نعمةٍ فمنَ اللَّهِ، ما شاء اللَّهُ، لا حولَ ولا قوةَ إلا باللَّه». قال: وقال ابنُ عبَّاسٍ: من قالَهُنَّ حينَ يُصبحُ

---

(١) «تاريخ دمشق» (١٦/ ٤٢٥).

(٢) رواه ابن عساكر «تاريخ دمشق» (١٦/ ٤٢٦).

(٣) رواه ابن عساكر «تاريخ دمشق» (١٦/ ٤٢٦ - ٤٢٧).

وحين يُمسي ثلاثَ مرَّات، آمَنَهُ اللَّهُ من الغَرَقِ، والحَرْقِ، والسرَقِ. قال: وأحسبه قال: ومن الشيطان، والسُّلطان، والحيَّة، والعقرب.

قال الدَّارَقُطنيُّ في «الأفراد»: هذا حديثٌ غريبٌ من حديث ابن جُرَيْجٍ، لم يُحدِّثْ به غيرُ هذا الشيخ عنه. يعني الحسنَ بنَ رزين هذا. وقد رَوَىٰ عنه محمدُ بنُ كثير العَبْديُّ أيضًا، ومع هذا قال فيه الحافظُ أبو أحمدَ ابنُ عديٍّ: ليس بالمعروف. وقال الحافظُ أبو جعفر العُقيليُّ: مجهولٌ، وحديثُهُ غيرُ محفوظ. وقال أبو الحُسين ابنُ المنادي: هو حديثٌ واهٍ، بالحسن بن رَزين.

وقد روَى ابنُ عساكر[1] **نحوَهُ** من طريق عليِّ بن الحسن الجَهْضَميِّ، وهو كذَّابٌ، عن ضَمْرَةَ ابن حبيب المقدسيِّ، عن أبيه، عن العلاء بن زياد القُشَيْريِّ، عن عبد اللَّه بن الحسن، عن أبيه، عن جدِّه، عن عليِّ بن أبي طالب مرفوعًا، قال: يجتمعُ كلَّ يوم عرفةَ بعرفات جبريلُ، وميكائيلُ، وإسرافيلُ، والخَضِرُ. وذكر حديثًا طويلاً موضوعًا، تركْنا إيرادَهُ قَصْدًا. وللَّه الحمدُ.

وروى ابنُ عساكر[2]، من طريق هشام بن خالد، عن الحسن بن يحيى الخُشَنيِّ، عن ابن أبي رَوَّاد قال: إلياسُ والخَضِرُ يصومان شهرَ رمضانَ في بيت المقدس، ويحجَّان في كلِّ سنة، ويشربان من ماء زمزمَ شربةً تكفيهما إلى مثلها من قابل.

وروى ابنُ عساكرَ، أنَّ الوليدَ بنَ عبد الملك بن مروانَ، باني جامع دِمَشْقَ، أحبَّ أنْ يَتَعبَّدَ ليلةً في المسجد، فأمرَ القَوَمَةَ أنْ يُخلوهُ له، ففَعَلوا، فلمَّا كان من الليل جاء من باب الساعات، فدخلَ الجامعَ، فإذا رجلٌ قائمٌ يُصلِّي فيما بينه وبين باب الخضراء، فقال للقَوَمَةِ: ألم آمُرْكم أنْ تُخلُوه؟ فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، هذا الخَضِرُ، يجيءُ كلَّ ليلة يُصلِّي ههنا.

وقال ابنُ عساكرَ[3] **أيضًا**: أنبأنا أبو القاسم إسماعيلُ بنُ أحمدَ، أنبأنا أبو بكر بنُ الطَّبَريِّ، أنبأنا أبو الحسين بنُ الفضل، أنبأنا عبدُ اللَّه بن جعفر، حدَّثنا يعقوبُ - هو ابنُ سفيانَ - الفَسَويُّ، حدَّثني محمدُ بنُ عبد العزيز، حدَّثنا ضَمْرَةُ، عن السَّريِّ بن يحيى، عن رياح بن عَبِيدَةَ، قال: رأيتُ رجلاً يُماشي عمرَ بنَ عبدالعزيز، معتمدًا على يديه، فقلتُ في نفسي: إنَّ هذا الرجلَ جافٍ. قال: فلمَّا انصرفَ من الصلاة، قلتُ: من الرجلُ الذي كان معتمدًا على يديكَ آنفًا؟ قال: وهل رأيتَهُ يا رياحُ؟! قلتُ: نعم. قال: ما أحسبُكَ إلا رجلاً صالحًا؛ ذاك أخي الخَضِرُ، بَشَّرني أنِّي سألي وأَعْدلُ. قال: الشيخ أبو الفرج ابنُ الجوزيِّ: الرمليُّ مجروحٌ عند العلماء. وقد قدَح أبو الحسين بن المنادي في ضَمْرَةَ، والسَّريِّ، ورياح. ثم أوردَ من طرق أخرى، عن عمرَ بن عبد العزيز، أنَّه اجتمع بالخضر. وضعَّفها كلَّها.

---

(١) رواه ابن عساكر «تاريخ دمشق» (١٦/ ٤٢٦ ـ ٤٢٧).

(٢) رواه ابن عساكر «تاريخ دمشق» (١٦/ ٤٢٨).

(٣) ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ٤٣٢).

وروى ابنُ عساكرَ أيضًا[١] ،أنَّه اجتمع بإبراهيمَ التيميّ، وبسفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، وجماعةٍ يطولُ ذكرُهم [٢] .

وهذه الرواياتُ والحكاياتُ ، هي عمدةُ من ذَهَبَ إلى حياتِه إلى اليوم. وكلٌّ من الأحاديثِ المرفوعةِ ضعيفةٌ جدًا، لايقومُ بمثلها حُجَّةٌ في الدِّين. والحكايات لا يخلو أكثرُها عن ضعف في الإسناد، وقُصاراها أنَّها صحيحةٌ إلى من ليس بمعصوم؛ من صحابيٍّ أو غيره؛ لأنَّه يجوزُ عليه الخطأُ. واللَّهُ أعْلَمُ.

وقال عبدُ الرَّزاق[٣] :أخبرنا معمرٌ عن الزُّهْريِّ، أخبرني عُبَيدُ اللَّهِ بنُ عبدِ اللَّهِ بن عُتْبَةَ أنَّ أبا سعيدٍ قال: حدَّثنا رسولُ اللَّه ﷺ حديثًا طويلاً عن الدَّجَّال، فقال فيما يحدِّثنا: «يأتي الدَّجَّالُ وهو مُحرَّمٌ عليه أنْ يَدْخُلَ نقابَ المدينة، فيَخْرُجُ إليه يومئذ رجلٌ، هو خيرُ الناس، أو من خيرهم، فيقول: أشهدُ أنَّك أنتَ الدَّجَّالُ الذي حدَّثنا رسولُ اللَّه ﷺ بحديثه. فيقولُ الدَّجَّالُ: أرأيتم إنْ قتلتُ هذا ثم أحييْتُهُ، أتشكُّونَ في الأمر؟ فيقولونَ: لا. فيَقْتُلُهُ ثم يُحْيِيه، فيقولُ حين يُحْيَى: واللَّه ما كنتُ أشدَّ بصيرةً فيك منِّي الآنَ. قال: فيُريدُ قَتْلَهُ الثانيةَ فلا يُسَلَّطُ عليه» قال معمرٌ: بلغني أنَّه يجعلُ على حَلْقِه صفيحةً من نُحاسٍ، وبلغني أنَّه الخَضِرُ الذي يقتلُه الدَّجَّالُ، ثم يُحْيِيه. وهذا الحديثُ مخرَّجٌ في «الصحيحين» [٤] ، من حديث الزُّهْرِيِّ به. وقال أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ محمد بن سفيانَ، الفقيهُ الراوي عن مسلمٍ: الصحيحُ أنْ يُقال: إنَّ هذا الرجلَ الخَضِرُ. وقولُ معمرٍ وغيره: بلَغَني. ليس فيه حُجَّةٌ، وقد ورَدَ في بعضِ ألفاظ الحديث: «فيأتي بشابٍّ مُمْتَلِئٍ شبابًا فيَقْتُلُهُ» وقوله: «الذي حدَّثنا عنه رسولُ اللَّه ﷺ» لا يقْتَضِي المشافَهَةَ، بل يَكْفِي التَّواتُرُ.

وقد تصدَّى الشيخُ أبو الفَرَجِ ابنُ الجوزيِّ -رحمهُ اللَّهُ- في كتابِه: «عُجالةُ المنتظرِ في شرحِ حالِ الخَضِر» للأحاديث الواردةِ في ذلك من المرفوعاتِ، فبيَّنَ أنها موضوعاتٌ، ومن الآثارِ عن الصحابةِ والتابعين ومَنْ بعدَهُم، فبيَّن ضعفَ أسانيدها ببيانِ أحوالها، وجهالَةِ رجالها، وقد أجاد في ذلك، وأحسنَ الانتقادَ.

وأمَّا الذين ذهبوا إلى أنَّه قد ماتَ، ومنهم البخاريُّ، وإبراهيمُ الحربيُّ، وأبو الحسينِ ابنُ المنادي، والشيخُ أبو الفرجِ ابنُ الجوزيِّ، وقد انتصر لذلك وصنَّفَ فيه كتابًا سمَّاه: «عُجالة المنتظر في شرحِ حالِ الخَضِر» فيُحتَجُّ لهم بأشياء كثيرةٍ، منها: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] فالخَضِرُ إنْ كان بَشرًا فقد دخل في هذا العمومِ لا محالةَ، ولا يجوز تخصيصُهُ منه إلا بدليلٍ صحيحٍ،

---

(١) ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ٤٣٠، ٤٣١).
(٢) ملحوظة: تركت الكلام على هذه الآثار والأحاديث لكلام الحافظ عليها رحمه اللَّه.
(٣) صحيح: المصنف (٢٠٨٢٤).
(٤) متفق عليه: البخاري (١٨٨٢)، مسلم (٧٣٠١)، الترمذي (٢٢٤٠).

والأصلُ عدمُهُ حتى يثبتَ، ولم يُذكَرْ ما فيه دليلٌ على التخصيص عن معصوم يجبُ قبولُهُ.

ومنها أنَّ اللَّه تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[آل عمران: ٨١]. قال ابنُ عباس[١] : ما بعثَ اللَّهُ نبيًّا إلا أخذَ عليه الميثاقَ: لئن بُعثَ محمدٌ وهو حيٌّ؛ ليؤمننَّ به ولينصرنَّه. وأمرَه أنْ يأخذَ على أُمَّتِه الميثاقَ: لئن بُعثَ محمدٌ وهم أحياءٌ؛ ليُؤمِنُنَّ به ولينْصرُنَّهُ. ذكره البُخاريُّ عنه. فالخضرُ إنْ كان نبيًّا أو وليًّا، فقد دخل في هذا الميثاق، فلو كان حيًّا في زمنِ رسولِ اللَّه ﷺ؛ كان أشرفُ أحوالِه أنْ يكون بين يديْه، يؤمنُ بما أنزلَ اللَّه عليه، وينصرُهُ إنْ وَصَلَ أحدٌ من الأعداء إليه؛ لأنَّه إن كان وليًّا فالصِّدِّيقُ أفضلُ منهُ، وإنْ كان نبيًّا؛ فموسى أفضلُ منه.

وقد روَى الإمامُ أحمدُ[٢] في «مسنده»: حدَّثنا سُريجُ بن النُّعمان، حدَّثنا هُشيمٌ، أنبأنا مُجالدٌ، عن الشَّعْبِيِّ، عن جابرِ بن عبدِ اللَّه، أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «والذي نَفْسِي بيده، لو أنَّ موسَى كان حيًّا ما وَسِعَهُ إلا أنْ يَتَّبِعَني» وهذا الذي يُقْطَعُ به، ويُعْلَمُ من الدِّين علمَ الضرورةِ، وقد دلَّتْ عليه هذه الآيةُ الكريمةُ؛ أنَّ الأنبياءَ كلَّهم لو فُرِضَ أنَّهم أحياءٌ في زمنِ رسولِ اللَّه ﷺ لكانوا كلُّهم أتباعًا له، وتحت أوامرِه، وفي عمومِ شرعِه، كما أنَّه صلواتُ اللَّه وسلامُهُ عليه لَمَّا اجتَمعَ معهم ليلةَ الإسراءِ رُفِعَ فوقَهم كلِّهم، ولَمَّا هَبَطُوا معه إلى بيتِ المقدسِ، وحانَت الصلاةُ؛ أمرَهُ جبريلُ عن أمرِ اللَّه أنْ يَؤُمَّهم، فصلَّى بهم في محلِّ ولايتِهم، ودارِ إقامتِهم، فدلَّ على أنَّهُ الإمامُ الأعظمُ، والرسولُ الخاتمُ، المُبَجَّلُ، المُقدَّمُ، صلواتُ اللَّه وسلامُهُ عليه وعليهم أجمعين. فإذا عُلِمَ هذا ـ وهو معلومٌ عندَ كلِّ مؤمنٍ ـ عُلِمَ أنَّهُ لو كان الخضرُ حيًّا لكان من جُمْلَةِ أمةِ محمدٍ ﷺ، ومِمَّنْ يَقْتَدي بشرعِه، لا يَسَعُه إلا ذلك. هذا عيسى ابنُ مريمَ عليه السلامُ، إذا نزلَ في آخرِ الزَّمانِ، يحكُمُ بهذه الشريعةِ المُطهَّرَةِ، لا يخرُجُ منها، ولا يحيدُ عنها، وهو أحدُ أُولي العزمِ الخمسةِ المرسلين، وخاتمُ أنبياءِ بني إسرائيلَ. ومعلومٌ أنَّ الخضرَ لم يُنْقَل بسندٍ صحيحٍ ولا حسنٍ تسكُنُ النَّفْسُ إليه أنَّهُ اجتمعَ برسولِ اللَّه ﷺ في يومٍ واحدٍ، ولم يشهدْ معه قتالاً في مشهدٍ من المشاهدِ، وهذا يومُ بدرٍ، يقولُ الصادقُ المصدوقُ فيما دعا به لربِّه عزَّ وجلَّ، واستنصرَه، واستفتَحَه على من كفره: «اللَّهُمَّ إنْ تَهلِكْ هذه العصابَةُ لا تُعْبَدْ بعدَها في الأرضِ»[٣] وتلك العصابةُ كان تحتها سادةُ المسلمينَ يومَئذٍ، وسادةُ الملائكة حتَّى جبريلُ عليه السلام، كما قال حسانُ بنُ ثابتٍ في قصيدةٍ له في بيتٍ يقال: إنَّهُ أفخرُ بيتٍ قالتْهُ العربُ:

وَبِبِئْرِ بَدْرٍ إذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُم ... جِبْرِيلُ تحتَ لِوائنا ومُحَمَّدُ

---

(١) سنده ضعيف: رواه ابن جرير (٣/ الجزء الثالث/ ٣٣٢) فيه محمد بن أبي محمد مجهول.

(٢) سبق تخريجه في قصة موسى.

(٣) متفق عليه: البخاري (٢٩١٥) بنحوه ومسلم (٤٥٦٣) بلفظه.

فلو كان الخَضِرُ حيًّا لكان وقوفُه تحتَ هذه الراية أشرفَ مقاماته، وأعظمَ غَزواته.

قال القاضي أبو يَعْلَى محمدُ بنُ الحسين بن الفَرَّاء الحنبليُّ: سُئِلَ بعضُ أصحابِنا عن الخَضِرِ: هل ماتَ؟ فقال: نعم. قال: وبلغني مثلُ هذا عن أبي طاهر ابنِ الغُباريِّ قال: وكان يحتجُّ بأنَّهُ لو كان حيًّا، لجاء إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ. نقلَهُ ابنُ الجوزيِّ في «العجالَة». فإنْ قيلَ: فهلاَّ يُقالُ: إنَّهُ كان حاضِراً في هذه المواطِنِ كلِّها، ولكنْ لم يكنْ أحدٌ يراهُ. فالجوابُ أنَّ الأصلَ عدمُ هذا الاحتمال البعيد، الذي يلزَمُ منه تخصيصُ العموماتِ بمجردِ التَّوهُّمَات، ثم ما الحاملُ له على هذا الاختفاء؟ وظهورُهُ أعظمُ لأجرِه، وأعلَى في مَرْتَبَتِهِ، وأظهرُ لمُعْجِزَتِه. ثم لو كان باقيًا بعدَهُ لكانَ تبليغُهُ عن رسولِ اللَّهِ ﷺ الأحاديثَ النبويةَ والآياتِ القرآنيةَ، وإنكارُهُ لما وقعَ من الأحاديثِ المكذوبة، والرواياتِ المقلوبة، والآراءِ البدعيَّةِ، والأهواءِ العصبيَّةِ، وقتالُهُ مع المسلمين في غزواتِهم. وشُهودُه جُمَعَهم وجماعاتِهم، ونفعُه إياهم، ودفعُه الضَّرَرَ عنهم ممَّن سواهم، وتسديدُهُ العلماءَ والحُكامَ، وتقريرُه الأدلَّةَ والأحكامَ، أفضلَ مِمَّا يُقالُ عنهُ من كُنونه في الأمصارِ، وجَوْبِه الفَيافِيَ والأقطارَ، واجتماعِه بعُبَّادٍ لا يُعرَفُ أحوالُ كثيرٍ منهم، وجَعْلِه لهم كالنَّقيبِ المُتَرْجِمِ عنهم. وهذا الذي ذَكَرْناهُ لا يَتوقَّفُ أحدٌ فيه بعدَ التَّفَهُّمِ، واللَّهُ يَهْدي من يَشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ. ومن ذلكَ ما ثبَتَ في «الصحيحين»[1] وغيرهم، عن عبدِ اللَّهِ بنِ عُمرَ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ صلَّى ليلةً العشاءَ، ثم قال: **«أرأيتُم ليلتَكم هذه، فإنَّهُ إلى مائة سنة، لا يَبْقَى مِمَّنْ هو على وَجْه الأرضِ اليومَ أحدٌ»** وفي روايةٍ: **«عينٌ تَطرِفُ»** قال ابنُ عمرَ: فَوَهِلَ النَّاسُ في مقالَةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ هذه، وإنَّما أرادَ انخرامَ قَرْنِه[2].

قال الإمامُ أحمدُ[3]: حدَّثنا عبدُ الرَّزَّاقِ، أنبأنا مَعْمَرٌ، عن الزُّهْريِّ، قال: أخبرَني سالمُ بنُ عبدِاللَّهِ، وأبو بكرِ بنُ سليمانَ بنِ أبي حَثْمَةَ، أنَّ عبدَ اللَّهِ بنَ عمرَ قال: صلَّى رسولُ اللَّهِ ﷺ ذاتَ ليلةٍ صلاةَ العشاءَ في آخرِ حياتِه، فلمَّا سلَّمَ قام، فقال: **«أرأيتُم ليلتَكم هذه، فإنَّ على رأسِ مائة سنة لا يبقَى مِمَّنْ على ظَهْرِ الأرضِ أحدٌ»** وأخرجَهُ البخاريُّ، ومسلمٌ، من حديثِ الزُّهْريِّ.

وقال الإمامُ أحمدُ[4]: حدَّثنا محمدُ بنُ أبي عَديٍّ، عن سليمانَ التَّيْميِّ، عن أبي نَضْرَةَ، عن جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ، قبلَ موتِه بقليلٍ أو بشَهْرٍ: **«ما من نَفْسٍ منفوسَةٍ - أو: ما منكم من نفسٍ اليومَ منفوسة - يأتي عليها مائةُ سنة وهي يومئذ حيَّةٌ»**.

وقال أحمدُ[5]: حدَّثنا موسى بنُ داودَ، حدَّثنا ابنُ لهيعَةَ، عن أبي الزُّبيرِ، عن جابرٍ، عن النبيِّ ﷺ، **أنَّه قال قبلَ أنْ يموتَ بشهرٍ: «يسألُوني عن الساعة، وإنَّما علمُها عندَ اللَّه، أُقْسِمُ باللَّه، ما على الأرضِ نفسٌ مَنْفُوسَةٌ اليومَ يأتي عليها مائةُ سَنة»** وهكذا رواهُ مسلمٌ من طريقِ أبي نَضْرَةَ، وأبي الزُّبيرِ،

---

(١) متفق عليه: البخاري (١١٦) مسلم (٦٤٢٨).
(٢) البخاري (٦٠١).
(٣) متفق عليه: المسند (٢/ ٨٨)، البخاري (٦٠١)، مسلم (٦٤٢٦).
(٤) صحيح: المسند (٣/ ٣٠٥).
(٥) صحيح: المسند (٣/ ٣٤٥)، مسلم (٦٤٣٢).

كلٌّ منهما عن جابر بنِ عبد اللَّه به نحوَه.

وقال الترْمذيُّ(١): حدَّثنا هنَّادٌ، حدثنا أبو معاويةَ، عن الأعمشِ، عن أبي سفيانَ، عن جابر قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**ما على الأرضِ من نفسٌ منفوسةٌ، يأتي عليها مائةُ سنة**» وهذا أيضًا على شرط مسلم. قال ابنُ الجوزيِّ: فهذه الأحاديثُ الصِّحاحُ تَقْطَعُ دابرَ دَعْوَى حياةِ الخَضِرِ. قالوا: فالخضرُ إنْ لم يكن قد أدْرَكَ زمانَ رسولِ اللَّه ﷺ، كما هو المظنونُ الذي يترَقَّى في القوة إلى القطعِ، فلا إشكالَ. وإن كان قد أدركَ زمانَهُ، فهذا الحديثُ يَقْتَضي أنَّهُ لمْ يَعِشْ بَعدهُ مائةَ سنة، فيكونُ الآنَ مفقودًا لا موجودًا؛ لأنَّهُ داخلٌ في هذا العمومِ، والأصلُ عدمُ المُخصِّصِ له، حتَّى يَثْبُتَ بدليلٍ صحيحٍ يجبُ قبولُهُ. واللَّهُ أعْلَمُ.

وقد حكَى الحافظُ أبو القاسمِ السُّهَيْليُّ في كتابِه: «التَّعْريفُ والإعلام» عن البخاريِّ وشيخِه أبي بكر ابنِ العربيِّ، أنَّهُ أدركَ حياةَ النبيِّ ﷺ، ولكنْ ماتَ بعدَهُ؛ لهذا الحديث. وفي كون البخاريِّ رحمه اللَّهُ يقولُ بهذا، وأنَّه بقيَ إلى زمانِ النبيِّ ﷺ نظرٌ. ورجَّحَ السُّهَيْليُّ بقاءَهُ، وحَكَاهُ عن الأكثرينَ؛ قال: وأما اجْتماعُهُ معَ النَّبيِّ ﷺ، وتعزيتُهُ لأهلِ البيتِ، فَمَرْوِيٌّ من طُرُقٍ صحاحٍ. ثم ذكرَ ما تقدَّمَ ممَّا ضعَّفْناهُ، ولم يوردْ أسانيدَها. واللَّهُ أعْلَمُ.

أما إلياسُ عليه السلام

فقال اللَّهُ تعالى بعدَ قصة موسى وهارونَ من سورة «الصَّافَّات»: ﴿**وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴿١٢٣﴾ **إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ** ﴿١٢٤﴾ **أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ** ﴿١٢٥﴾ **اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ** ﴿١٢٦﴾ **فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ** ﴿١٢٧﴾ **إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** ﴿١٢٨﴾ **وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ** ﴿١٢٩﴾ **سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ** ﴿١٣٠﴾ **إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴿١٣١﴾ **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الصافات: ١٢٣-١٣٢] قال علماءُ النَّسَبِ: هو إلياسُ بن تسبي. ويُقال: ابنُ ياسينَ بن فنحاصَ بنِ العيزارِ بنِ هارونَ. وقيلَ: إلياسُ بنُ العازرِ بنِ العيزارِ بنِ هارونَ بنِ عمرانَ. قالوا: وكان إرسالُه إلى أهلِ بَعْلَبَكَّ، غربيَّ دمَشْقَ، فدعاهُم إلى عبادة اللَّه، عزَّ وجلَّ، وأنْ يَتْرُكوا عبادةَ صَنَمٍ لهم، كانوا يُسمُّونه بَعلاً. وقيلَ: كانت امرأةً اسمُها بعلٌ. والأولُ أصحُّ(٢). ولهذا قال لهم: ﴿**أَلا تَتَّقُونَ** ﴿١٢٤﴾ **أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ** ﴿١٢٥﴾ **اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ**﴾ فكذَّبوه وخالفوه، وأرادوا قتله، فيُقالُ: إنَّه هَرَبَ منهم واختفى عنهم.

قال أبو يعقوبَ الأذْرَعيُّ، عن يزيدَ بنِ عبد الصمد، عن هشام بنِ عمَّارٍ قال: وسمعتُ من يَذْكُرُ عن كعب الأحبارِ، أنَّه قالَ: إنَّ إلياسَ اختبَأ من مَلِكِ قومِه، في الغارِ تحتَ الدَّم، عشرَ سنينَ، حتَّى أهلَكَ اللَّهُ المَلِكَ، وولِّي غيرُه، فأتاهُ إلياسُ، فعَرَضَ عليه الإسلامَ، فأسلَمَ، وأسلَمَ مِنْ قومِه خلقٌ

---

(١) صحيح: الترمذي (٢٢٥٠).

(٢) قاله ابن عساكر (٩/ ٢٠٥) «تاريخ دمشق».

عظيمٌ غيرَ عشرةِ آلافٍ منهم، فأَمَرَ بهم فقُتِلُوا عن آخرِهِم[١] .

وقال ابنُ أبي الدُّنيا[٢] : حدَّثَني أبو محمدٍ القاسمُ بنُ هاشمٍ، حَدَّثَنا عمرُ بنُ سعيدٍ الدِّمَشْقِيُّ، حدَّثنا سعيدُ بنُ عبدِ العزيزِ، عن بعضِ مَشْيَخَةِ دمشقَ، قال: أقام إلياسُ عليه السلامُ، هاربًا من قومِهِ في كهفِ جبلٍ عشرين ليلةً، أو قال: أربعين ليلةً، تأتيه الغِرْبانُ برِزْقِه.

وقال محمدُ بنُ سعدٍ ـ كاتب الواقدي[٣] ـ: أنبأنا هشامُ بنُ محمدِ بن السائِبِ الكلبيُّ، عن أبيه، قال: أوَّلُ نبيٍّ بُعِثَ إدريسُ، ثمّ نوحٌ، ثم إبراهيمُ، ثم إسماعيل و إسحاق، ثم يعقوبُ، ثم يوسفُ، ثم لوطٌ، ثم هودٌ، ثم صالحٌ، ثم شعيبٌ، ثم موسىٰ وهارونُ ابنا عمرانَ، ثم إلياسُ بن تسبىٰ بنِ العازرِ بن هارونَ بن عمرانَ بن قاهثَ بن لاوي بن يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ، عليهم السلام. هكذا قال. وفي هذا الترتيب نظرٌ. وقال مكحولٌ عن كعبٍ: أربعةُ أنبياءَ أحياءٌ؛ اثنان في الأرضِ: إلياسُ والخَضِرُ، واثنان في السماءِ: إدريسُ وعيسىٰ. وقد قدمنا قولَ من ذكر أن إلياسَ والخَضِرِ يجتمعانِ في كلِّ عامٍ في شهرِ رمضانَ ببيتِ المقدسِ، وأنهما يحُجَّان كلَّ سنةٍ، ويشربان من زمزمَ شربةً تكفيهما إلىٰ مِثلِها من العامِ المقبلِ. وأوردْنا الحديثَ الذي فيه أنَّهما يجتمعانِ بعرفاتٍ كلَّ سنةٍ، وبيَّنَّا أنَّه لم يصحَّ شيءٌ من ذلك، وأنَّ الذي يقومُ عليه الدليل: أنَّ الخَضِرَ ماتَ، وكذلك إلياسُ ـ عليهما السلام ـ. وما ذكره وهبُ بنُ منبِّهٍ وغيرُه؛ أنّه لَمَّا دعا ربَّهُ عزَّ وجلَّ أن يقبضه إليه لَمَّا كذبوه، وآذَوْه فجاءته دابّةٌ لونها لونُ النارِ، فركِبَها، وجَعَلَ اللَّهُ له ريشًا، وألبَسَهُ النورَ، وقطعَ عنه لذَّةَ المطعمِ والمشربِ، وصارَ مَلَكِيًّا بشَرِيًّا سماوِيًّا أرضيًّا، وأوصَىٰ إلىٰ اليَسَعَ بنِ أخطُوبَ، ففي هذا نظرٌ، وهو من الإسرائيلياتِ، التي لا تُصدَّقُ ولا تُكَذَّبُ، بل الظاهرُ أنَّ صحتَها بعيدةٌ. واللَّهُ أَعْلَمُ.

فأمَّا الحديثُ الذي رواه الحافظُ أبو بكر البيهقيُّ[٤] : أخبَرَنا أبو عبدِ اللَّه الحافظُ، حدَّثني أبو العباسِ أحمدُ بن سعيدِ المعدانيُّ ببُخارَىٰ، حدثنا عبدُ اللَّهِ بنُ محمودٍ، حدَّثنا عبدَانُ بنُ سِنانٍ، حدثني أحمدُ بنُ عبدِاللَّهِ البَرْقِيُّ، حدَّثنا يزيدُ بنُ يزيدَ البَلَوِيُّ، حدَّثنا أبو إسحاقَ الفَزَارِيُّ، عن الأوزاعيِّ، عن مكحُولٍ، عن أنسِ بن مالكٍ، قال: كُنَّا مع رسولِ اللَّهِ ﷺ في سَفَرٍ، فَنَزَلْنا منزلاً، فإذا رجُلٌ في الوادِي يقول: اللَّهُمَّ اجْعَلْني من أمَّةِ محمدٍ ﷺ المرحومَةِ، المغفورةَ، المثابِ لها. قال: فأشرفتُ علىٰ الوادِي، فإذا رجلٌ طولُهُ أكثرُ من ثلاثمائةِ ذراعٍ، فقال لي: من أنتَ؟ قلتُ أنسُ بن مالكٍ خادمُ رسولِ اللَّهِ ﷺ. قال: فأينَ هو؟ قلتُ: هو ذا يسمعُ كلامَكَ. قال: فأتِهِ فأقْرِئْهُ السلامَ، وقل له: أخوك إلياسُ يُقْرِئُكَ السلامَ. قال: فأتيتُ النبيَّ ﷺ فأخبرتُهُ، فجاء حتىٰ لَقِيَهُ، فعانقَهُ وسلَّمَ، ثم

---

(١) ضعيف إليه: رواه ابن عساكر المصدر السابق بسنده إلى أبي يعقوب الأذرعي والسند ضعيف وفيه مبهم بين هشام بن عمار وكعب.

(٢) موضوع: رواه أيضًا ابن عساكر (٩/ ٢٠٦) عن ابن أبي الدنيا والسند فيه جهالة القائلين من هم.

(٣) موضوع: رواه أيضًا ابن عساكر نفس المصدر والسند فيه هشام بن محمد ضعيف ووالده متهم.

(٤) ضعيف جدًا: البيهقي «دلائل النبوة» (٥/ ٤٢١، ٤٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦١٧) وتعقبه الذهبي بقوله: هذا موضوع قبح اللَّه من وضعه.

قَعَدَا يتحدَّثان، فقال له: يا رسولَ اللَّهِ، إنِّي ما آكُلُ في سنةٍ إلا يومًا، وهذا يومُ فِطْرِي، فآكُلُ أنا وأنتَ. قال: فنزلتْ عليهما مائدةٌ من السماءِ عليها خُبزٌ، وحُوتٌ، وكَرَفْسٌ، فأكلا وأطعَماني، وصلَّيْنا العصرَ، ثم ودَّعَهُ، ورأيتُهُ مرّ في السحابِ نحوَ السماءِ. فقد كفانا البيهقيُّ أمره، وقال: هذا حديثٌ ضعيفٌ بمرَّةٍ. والعَجَبُ أنَّ الحاكمَ أبا عبدِ اللَّهِ النَّيسابُوريَّ أخرجه في «مستدركهُ على الصحيحين»، وهذا مما يُستدركُ به على «المستدرك»، فإنَّه حديثٌ موضوعٌ، مُخالفٌ للأحاديث الصحاحِ من وجوهٍ. ومعناهُ لا يصحُّ أيضًا، فقد تقدَّمَ في «الصحيحين» أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إنَّ اللَّهَ خلقَ آدمَ طولُهُ ستون ذراعًا في السَّماءِ» إلى أن قال: «ثم لم يزل الخلقُ ينقُصُ حتَّى الآنَ»[1] وفيه أنَّه لم يأتِ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ حتَّى كان هو الذي ذهبَ إليه. وهذا لا يصحُّ؛ لأنَّهُ كان أحقَّ بالسَّعْي إلى بين يدي خاتمِ الأنبياءِ. وفيه أنَّهُ يأكلُ في السنة مرَّةً، وقد تقدَّمَ عن وهبٍ أنَّهُ سَلَبَهُ اللَّهُ لذَّةَ المطعمِ والمشربِ، وفيما تقدَّم عن بعضهم أنَّهُ يشربُ من زمزمَ كلَّ سنةٍ شَرْبَةً تكفيه إلى مثلها من الحولِ الآخرِ، وهذه أشياءُ متعارضةٌ، وكلُّها باطلةٌ، لا يصحُّ شيءٌ منها.

وقد ساقَ ابن عساكرَ هذا الحديثَ من طريقٍ أُخرَىٰ، واعترفَ بضَعْفِها، وهذا عجبٌ منه، كيف تكلَّمَ عليه، فإنَّه أوردَهُ من طريقِ[2] خيرِ بنِ عرفةَ، عن هانئِ بنِ الحسنِ، عن بقيَّةَ، عن الأوزاعيِّ، عن مكحولٍ، عن واثلةَ بنِ الأسقعِ، فذكرَ نحوَ هذا مطولاً، وفيه أنَّ ذلك كان في غزوةِ تبوكَ، وأنَّه بعثَ إليه رسولُ اللَّهِ ﷺ أنسَ بنَ مالكٍ، وحُذَيفَةَ بنِ اليمانِ، قالا: فإذا هو أعلى جسمًا منَّا بذراعين أو ثلاثةٍ، واعتذرَ بعدِ قدومِهِ لئلا تنفرَ الإبلُ. وفيه أنَّه لَّما اجتمعَ به رسولُ اللَّهِ ﷺ أكلا من طعامِ الجنَّةِ، وقال: إنَّ لي في كلِّ أربعين يومًا أكلَةً، وفي المائة خبزٌ، ورمَّانٌ وعنبٌ وموزٌ، ورُطَبٌ، وبقلٌ ما عدا الكُرَّاثَ. وفيه أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ سألَهُ عنِ الخَضر، فقال: عهدي به عامَ أوَّلَ، وقال لي: إنَّكَ ستَلْقاهُ قبلي، فأقرِئهُ مني السلامَ. وهذا يدلُّ على أنَّ الخَضِرَ وإلياسَ - بتقديرِ وجودهما وصحة هذا الحديثِ - لم يجتمعا به إلى سنة تسعٍ من الهجرة، وهذا لا يُسَوَّغُ شرعًا، وهذا موضوعٌ أيضًا. وقد أورد ابنُ عساكرَ طُرُقًا في مَنْ اجْتَمَعَ بإلياسَ من العُبَّادِ، وكلُّها لا يُفْرَحُ بها؛ إمَّا لضَعْفِ إسنادها، أو لجهالةِ المُسْنَدِ إليه فيها. ومن أحسنها ما قال أبو بكر ابنُ أبي الدُّنيا[3]: حدَّثني بشرُ بنُ معاذٍ، حدَّثنا حمَّادُ بنُ واقدٍ، عن ثابتٍ، قال: كنَّا مع مُصْعَبِ بنِ الزُّبَيْرِ، بسوادِ الكوفةِ، فدخلتُ حائطًا أُصلِّي فيه ركعتين، فافتتحتُ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ١-٣] فإذا رجلٌ من خلفي على بغلةٍ شهباءَ، عليه مُقَطَّعَاتٌ يَمَنِيَّةٌ، فقال لي: إذا قلتَ: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾ فقل: يا غافرَ الذنبِ اغفرْ لي ذنبي، وإذا قلتَ: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ فقُل: يا قابلَ التوبِ، تقبَّلْ توبتِي. وإذا قلت: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ فقل: يا شديد العقاب لا تعاقبني، وإذا

(١) سبق تخريجه في قصة آدم وغيرها.
(٢) ضعيف: ابن عساكر (٩/ ٢١٣) والسند ضعيف فيه بقية يدلس تدليس التسوية وقد عنعن.
(٣) ضعيف: رواه ابن عساكر (٩/ ٢١٦) وسنده ضعيف فيه حماد بن واقد ضعيف.

قلتَ: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ فقل: يا ذا الطول، تَطَوَّلْ عليَّ برحمةٍ. فالتَفَتُّ فإذا لا أحدَ، وخرجتُ فسألتُ: مرَّ بكم رجلٌ على بغلةٍ شهباءَ عليه مُقَطَّعاتٌ يمنيَّةٌ؟ فقالوا: ما مرّ بنا أحدٌ. فكانوا لا يرونَ إلا أنَّه إلياسُ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: للعذابِ، إما في الدنيا والآخرة، وإما في الآخرةِ، والأولُ أظهرُ، على ما ذكرهُ المفسِّرونَ والمؤرِّخونَ. وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: إلا من آمنَ منهم. وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: أبقينا بعده ذِكْراً حسنًا له في العالمين، فلا يُذكرُ إلا بخيرٍ، ولهذا قال: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ أي: سلامٌ على إلياسَ، والعربُ تُلحِقُ النُّونَ في أسماءٍ كثيرةٍ، وتُبدِلُها من غيرِها، كما قالوا: إسماعيلُ وإسماعينُ، وإسرائيلُ وإسرائينُ، وإلياسُ وإلياسين، ومن قرأ: (سلامٌ على آلِ ياسينَ) أي: على آلِ محمدٍ، وقرأ ابنُ مسعودٍ وغيره: (سلامٌ على إدْراسِينَ). ونُقل عنه من طريقِ إسحاقَ، عن عَبيدةَ بن ربيعةَ، عن ابنِ مسعودٍ[1]، أنَّه قال: إلياسُ هو إدريسُ. وإليه ذهبَ الضَّحَّاكُ بنُ مُزاحِمٍ، وحكاهُ قتادةُ، ومحمدُ بن إسحاقَ، والصحيحُ أنَّهُ غيرُهُ كما تقدَّمَ، والله تعالى أعلمُ بالصوابِ.

انتهى بحمد الله الجزء الأول من كتاب البداية والنهاية

ويليه الجزء الثاني وأوله

باب ذكر جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام

ثم نتبعهم بذكر داود وسليمان عليهما السلام

* * *

(١) ضعيف إليه: رواه ابن عساكر (٩/ ٢٠٧) من طريق ابن أبي شيبة عن يحيى بن آدم عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عنه. وفيه عبيدة مجهول. ورواه ابن أبي حاتم (٧٥٥٦) من طريق إسرائيل نفسه. الطبري (٥/ الجزء السابع/ ٢٦١) من نفس الطريق.



فهرست الموضوعات

فهرست الموضوعات